

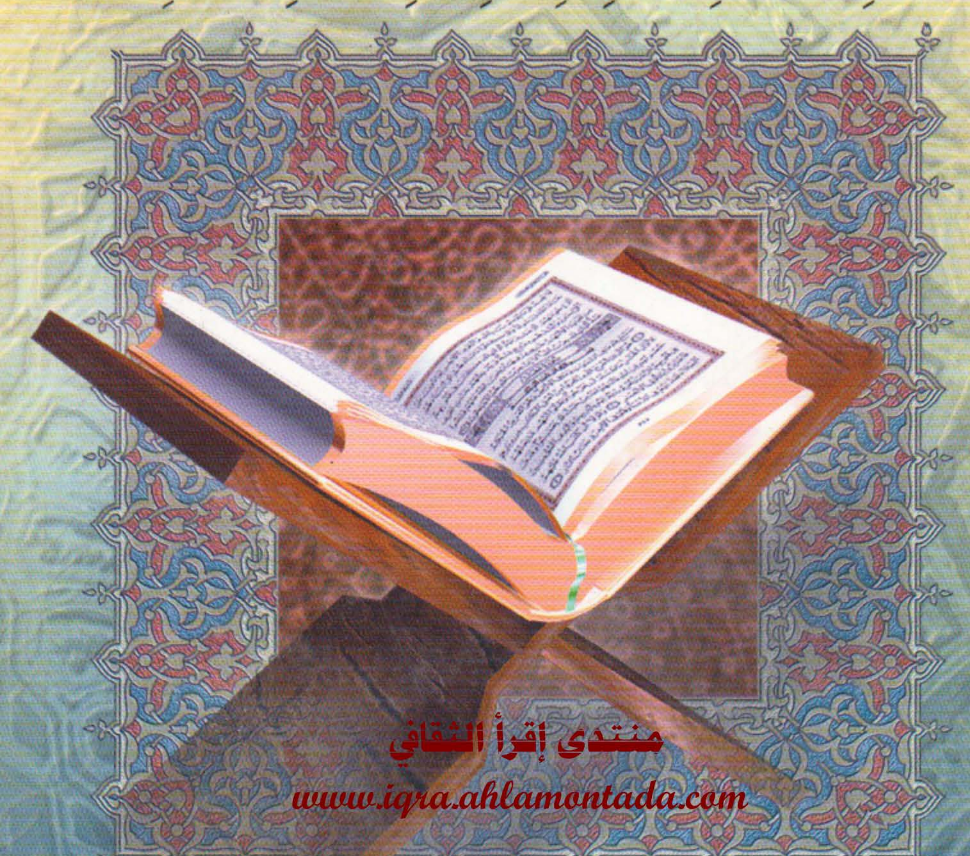


سلسلة تفسير القرآن الكريم

التفسير المنهجي

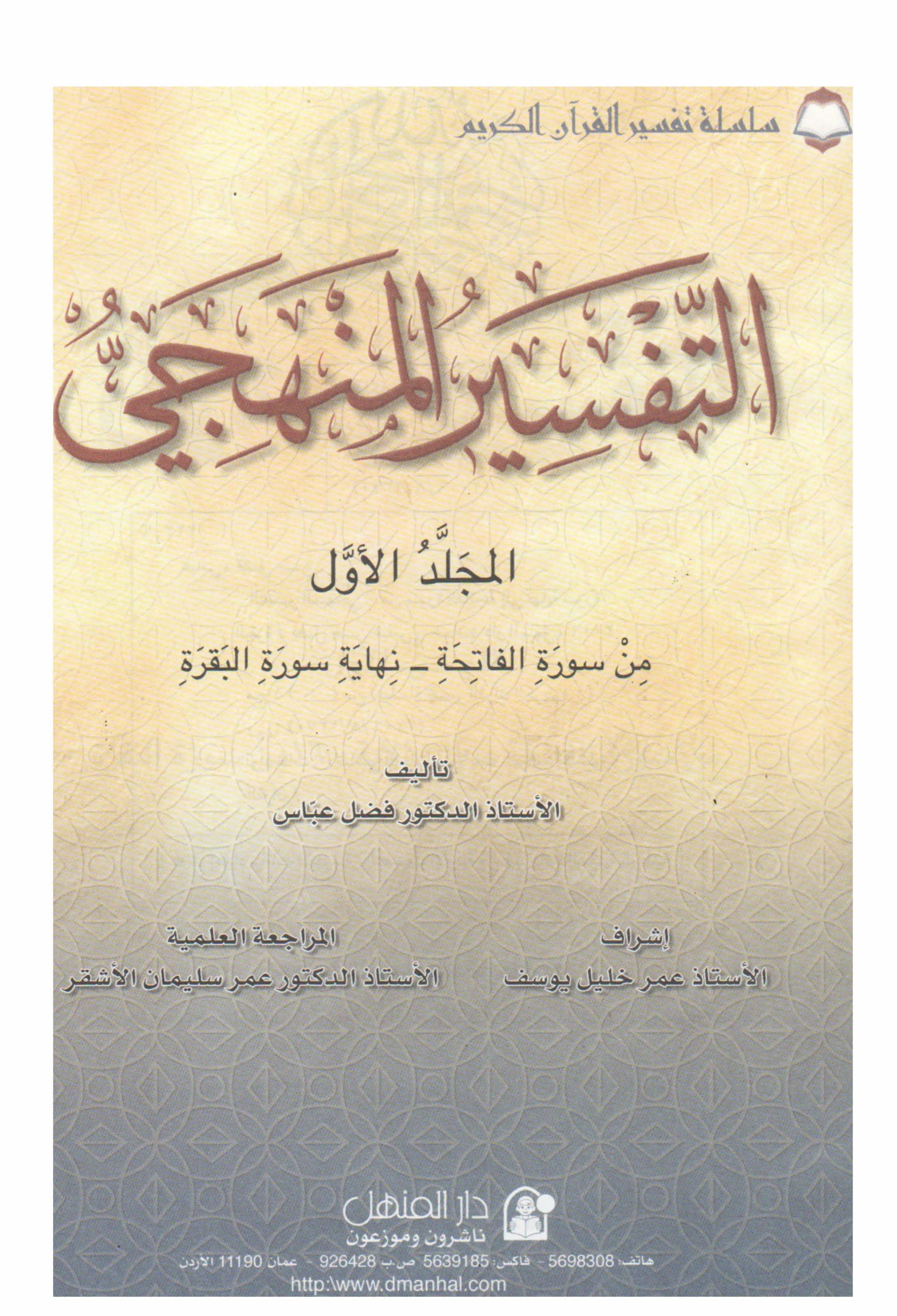
المجلَّدُ الأوَّل

مِنْ سورَةِ الفاتِحَةِ ـ نِهايَةِ سورَةِ البَقَرَةِ



تأليف

أ.د.فضل عبّاس


سلسلة تفسير القرآن الكريم
التفسير المنهجي
المجلّدُ الأوَّل
مِنْ سورَةِ الفاتِحَةِ ـ نِهايَةِ سورَةِ البَقَرَةِ
تأليف
الأستاذ الدكتور فضل عبّاس
إشراف
الأستاذ عمر خليل يوسف
المراجعة العلمية
الأستاذ الدكتور عمر سليمان الأشقر
دار المنهل
ناشرون وموزعون
هاتف: 5698308 - فاكس: 5639185 ص.ب 926428 - عمان 11190 الأردن
http:\www.dmanhal.com



المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٦/٨/٢٣٧٠)

٢٢٢,٦

عباس، فضل حسن

التفسير المنهجي: من سورة الفاتحة إلى نهاية سورة
البقرة/ فضل حسن عباس. عمان: دار المنهل، ٢٠٠٦

مج ١ (   ) ص (سلسلة تفسير القرآن الكريم؛ ١).

ر.إ: (٢٠٠٦/٨/٢٣٧٠).

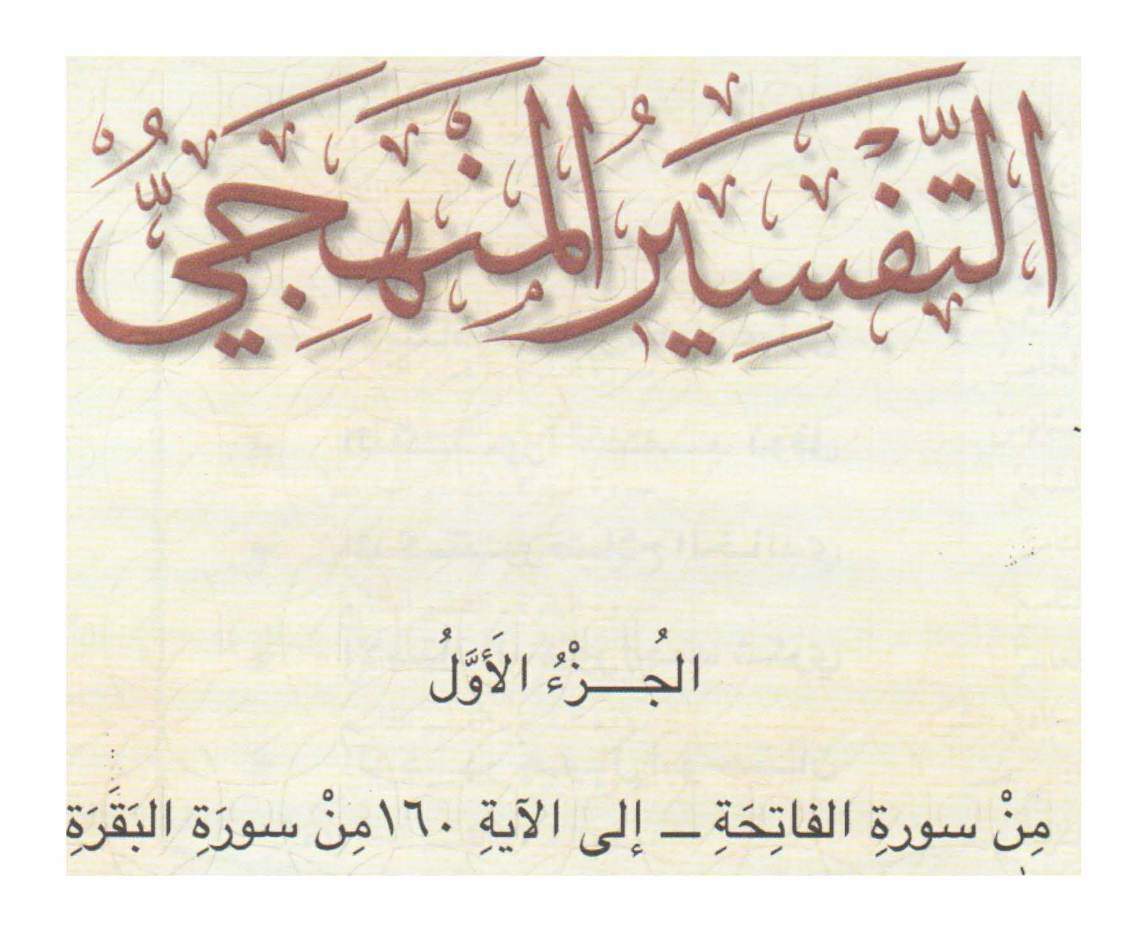
الواصفات: / تفاسير القرآن// الآيات القرآنية // سور
القرآن /

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

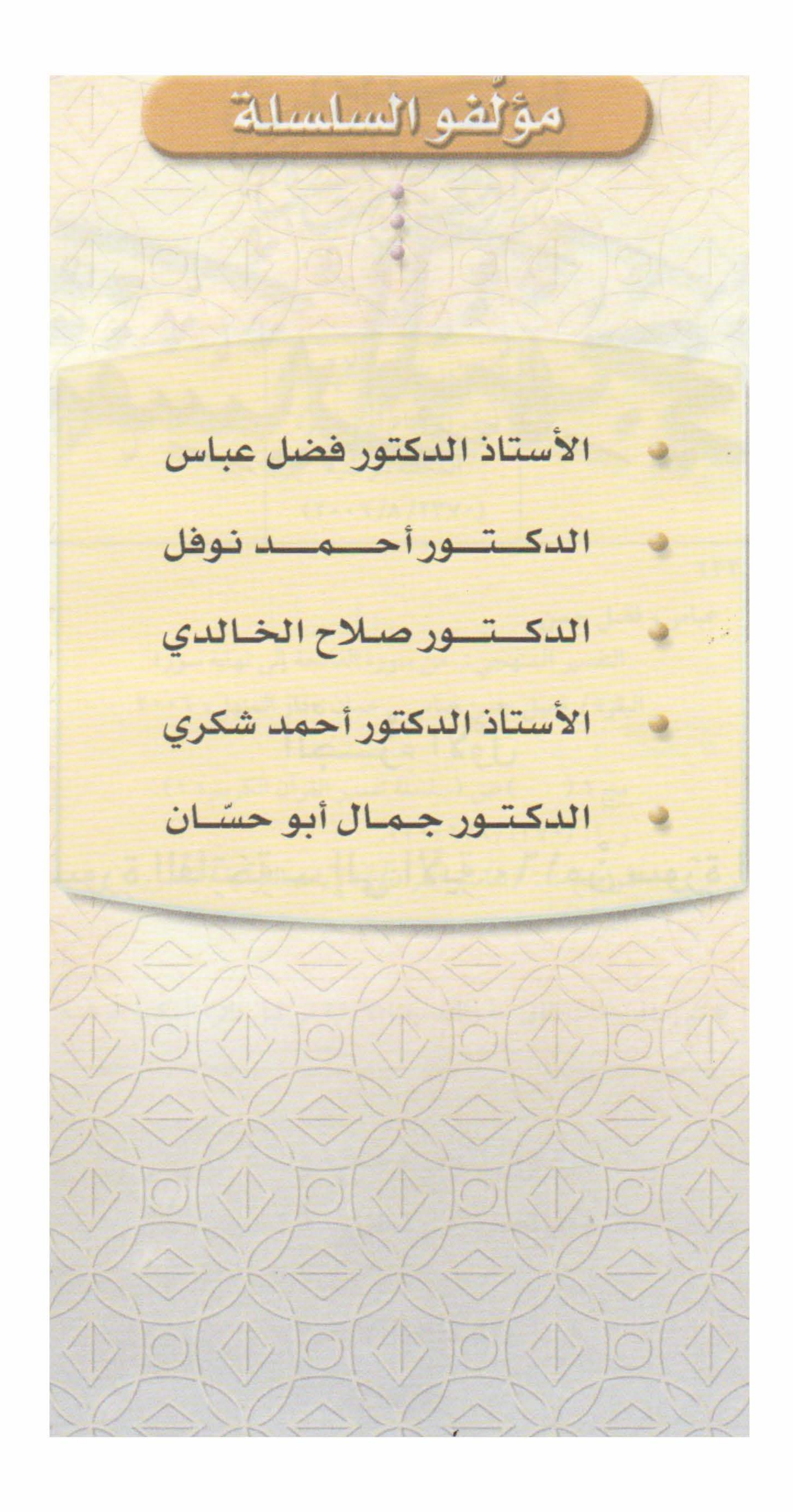
الطبعة الأولى

2006

رقم الإجـــازة: 2006 / 8 / 3034
رقم الإيـــداع: 2006 / 8 / 2370
التصنيف الدولي: 9957-08-571-9



التفسير المنهجي
الجُـــزْءُ الأَوَّلُ
مِنْ سورةِ الفاتِحَةِ ــ إلى الآيةِ ١٦٠مِنْ سورَةِ البَقَرَةِ


مؤلفو السلسلة
الأستاذ الدكتور فضل عباس
الدكتور أحمد نوفل
الدكتور صلاح الخالدي
الأستاذ الدكتور أحمد شكري
الدكتور جمال أبو حسّان

قائمة المحتويات

قائمة المحتويات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ ، وَالصّلاةُ والسّلامُ على نبيِّنا محمَّدٍ خاتمِ الأَنبياءِ والمُرْسَلينَ ، وعلى آلهِ وصَحْبهِ ومن سارَ على دربهِ إلى يومِ الدينِ ، وبعدُ ،

فإنَّ القرآنَ الكريمَ هُوَ كلامُ اللهِ المُعجزُ ، أنزلَهُ على نَبيِّهِ مُحمَّدٍ ﷺ ؛ ليُخْرِجَ به الناسَ من الظُّلُماتِ إلى النّور ، ويَهدِيَهُم به إلى كلِّ خيرٍ ورشادٍ ، كما قالَ سبحانَهُ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم : ١) ، وقالَ تعالى : ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (المائدة : ١٥-١٦) .

وقد وردَ في عَدَدٍ مِنَ الأَحاديثِ الحثُّ على تعلُّمِ القرآنِ ومُدَارَسَتِهِ ، ومِنْ ذَلِكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ :«خيرُكُمْ مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَهُ»[١] ، وَقولُهُ : « وما اجتمعَ قومٌ في بَيتٍ من بُيوتِ اللهِ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ وَيتدارَسُونَهُ بينَهَم إلاَّ نَزلتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ ، وغَشِيَتْهُم الرَّحمةُ ، وحفَّتْهُم الملائِكَةُ ، وذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »[٢] .

وقد بَذلَ المُسْلِمُونَ على مرِّ العُصور جُهوداً كثيرة مُتَوالِيَةً في خِدْمة هذا الكِتابِ العزيزِ ، ومِنْ بينِ هذه الجهودِ ما يتعَلَّقُ بتبيينِ مَعاني الآياتِ وتَفْسِيرها ، وكان لكلِّ تفسيرٍ مِيزَتُهُ وخَصائِصُهُ .

ومِيزةُ هذا التفسير أنَّه أُعِدَّ لِيكونَ مِنْهاجاً للتَّدْريس في المَدارِسِ التي تلتزمُ في مِنْهاجِها تدريسَ الطلبةِ تفسيرَ القرآنِ الكريمِ كاملاً ، والتزمَ مُؤَلِّفُوهُ السَّيْرَ على نَمَطٍ مُتقارَبٍ مُتدرِّجٍ ، وفيما يلي أَهمُّ النِّقاطِ التي تمَّ الالتزامُ بها :

* اختيارُ العبارةِ السَّهْلَةِ الواضِحَةِ بمايتناسبُ مَعَ أَعمارِ الطَّلَبَةِ ومستوياتِهم .
* بَدْءُ كلِّ درسٍ بتبيينِ مَعاني المفرداتِ والتراكيبِ التي يحتاجُ الطلبةُ إلى معرفَتِها .
* التَّعْريفُ بالسُّورَةِ بإيجازٍ قبلَ الشروعِ في تفسيرِها .

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، رقم الحديث (٤٦٣٩) .
(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم الحديث (٤٨٦٧) .

* تفسيرُ الآياتِ بصورةٍ معتدلةٍ وبعبارةٍ قريبةٍ مباشرةٍ .

* الرَّبْطُ بينَ آياتِ الدَّرْسِ السَّابقِ والتَّالِي .

* اختيارُ القولِ الرَّاجحِ في معنى الآيةِ ، وعدمُ إشغالِ الطلبةِ بالأقوالِ المتعدِّدةِ أو الضعيفةِ .

* الالتزامُ بمنهَجِ السَّلَفِ في تَفسيرِ آياتِ الصِّفاتِ .

* إغْناءُ كُلِّ درسٍ بعدَدٍ مِنَ الأنشطةِ المناسبةِ ذاتِ الصِّلَةِ بالآياتِ لِحَفْزِ الطالبِ على البحثِ والتفكيرِ وترسيخِ المعلومةِ في ذهنهِ ، ولذا فالمأمولُ من السَّادَةِ المدرسينَ ، ومِنَ الطلبةِ ، الاعتناءُ بهذه الأنشطةِ وعدمُ إهمالِها ، ومُناقشةُ ما يتمُّ التوصُّلُ إليهِ في الفصلِ أَو طابورِ الصباحِ أو تعليقُهُ في مجلَّةِ المدرسةِ .

* إتْباعُ كلِّ دَرْسٍ بعدَدٍ من العِبَرِ والدروسِ المُستنْبَطَةِ من الآياتِ الكريمةِ ، والمأمولُ من المدرِّسِ والطالبِ قراءةُ هذه العِبَرِ والرَّبْطُ بينها وبينَ الآيةِ التي استُنْبِطَتْ منها ، والحرصُ على الإفادةِ منها في تقويمِ السُّلوكِ وتنميةِ التفكيرِ وترسيخِ القِيَمِ الإسلاميةِ التي تضمَّنَتْها .

* خَتْمُ كُلِّ دَرْسٍ بعددٍ من الأسئلةِ المتنوِّعةِ التي تهدِفُ إلى تقويمِ الطالبِ وتبيينِ مقدارِ استيعابِهِ للدَّرسِ وحَفزِهِ على البحثِ عن الإجابةِ لِلأَسئلَةِ في مظانِّها .

* تذييلُ بعضِ الدُّروسِ بفائدةٍ أو رِوَايةٍ أو حادثةٍ أو حديثٍ له صلةٌ بموضوعِ الدَّرْسِ بهدَفِ إِمْتاعِ القارىءِ وإفادتِهِ بهذه المَعْلومةِ .

* تَخريجُ الأحاديثِ النَّبَويَّةِ ورواياتِ أَسْبابِ النُّزولِ ، والحرصُ على الاقتصارِ على الصَّحيحِ من رواياتِ الأحاديث .

واللهَ تعالى نَسأَلُ أن يَجْعلَ هذا العملَ خالصاً لِوَجْهِهِ الكريمِ ، وأَنْ يَنْفَعَ به ، وأَنْ يتقَّبلَهُ بقَبُولٍ حَسَنٍ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

* * *

الدَّرْسُ الأَوَّلُ

سورةُ الفاتِحَةِ ـ القِسْمُ الأَوَّلُ

تعريفٌ بالسُّورَةِ :

هِيَ سورَةٌ مَكِّيَّةٌ وهِيَ مِنَ السُّوَرِ ذَواتِ الأَسْماءِ الكَثيرةِ ، فَقدْ ذَكَرَ لَها بَعْضُ المُفَسِّرينَ أكثرَ مِنْ عِشْرينَ اسْماً ، مِنْ هذهِ الأَسْماءِ :

١ـ الفاتِحَةُ : وقَدْ ثَبَتَ هذا الاسْمُ في أحاديثِ الرَّسولِ ﷺ ، مِنْ ذلكَ قَوْلُهُ ﷺ : « لا صَلاةَ لمنْ لَمْ يَقْرأْ بفاتِحةِ الكِتابِ » ، وسُمِّيَتْ كذلكَ لأنَّها جُعِلَتْ أوَّلَ القُرآنِ .

٢ـ أُمُّ القُرْآنِ : وقدْ جاءَ في صَحيحِ البُخاريِّ أنَّ أبا سَعيدٍ الخُدْريِّ رضِيَ اللهُ عَنهُ رَقى مَلْدوغاً ، فَجَعلَ يَقرأُ عليهِ بأُمِّ الكِتابِ ، وسُمِّيَتْ أُمَّ القُرْآنِ ، لأنَّ الأُمَّ أَصْلُ الشَّيْءِ .

٣ـ السَّبْعُ المثاني : جاءَ في صَحيحِ البُخاريِّ عَنْ أبي سَعيدِ بنِ المُعَلّى قالَ : كنتُ أُصَلّي في المسجدِ فَدَعاني رسولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ ، فَقُلْتُ : يا رسولَ اللهِ ، إنّي كُنتُ أُصَلّي ، فقالَ : أَلَمْ يَقُلِ اللهُ ﴿اسْتَجيبوا للهِ وللرَّسولِ إذا دَعاكُمْ﴾ ، ثُمَّ قالَ : ألا أُعَلِّمُكَ سورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ في القرآنِ ، قَبْلَ أنْ تَخْرجَ مِنَ المَسْجدِ ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدي ، فَلمّا أرادَ أنْ يَخرُجَ قلتُ لهُ : أَلَمْ تَقُلْ لأُعَلِّمَنَّكَ سورَةً هِيَ أعْظَمُ سورةٍ في القُرآنِ ، فقالَ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، هِيَ السَّبْعُ المثاني والقُرآنُ العَظيمُ الَّذي أُوتيتُهُ[١] .

وسُمِّيَتْ كَذلِكَ لأنَّها سَبْعُ آياتٍ باتِّفاقِ المُفَسِّرينَ . أَمّا المَثاني فَسُمِّيَتِ السُورةُ كَذلِكَ لأنَّ آياتِها تُثَنّى ؛ أيْ : تُقرَأُ في كلِّ رَكْعَةٍ ، وقيلَ التَّثْنِيَةُ بِمَعْنى التَّكريرِ ، سُمِّيَتْ بِذلكَ لأنَّ الفاتِحَةَ تُثنّى في الصَّلاةِ ، أيْ : تُكَرَّرُ .

ومِنْ أَسْماءِ السّورَةِ الّتي ذَكَرَها العُلَماءُ : الكَنْزُ ، الوافِيَةُ ، الكافِيَةُ ، وسورَةُ الدُّعاءِ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب : فضل فاتحة الكتاب ، رقم الباب (٩) ، رقم الحديث (٤٧٢٠) .

سورَةُ الفاتِحَةِ تَشْتَمِلُ عَلى مَقاصِدِ القُرْآنِ جَميعِها . ومَقاصِدُ القُرآنِ هِيَ ما يُقصَدُ بِهِ تَربيةُ النَّوْعِ الإنْسانِيِّ تَرْبيةً صَحيحةً ، وهذهِ المقاصِدُ هِيَ :

١ـ التَّوحيدُ ، ويُرْشِدُ إليهِ في السّورَةِ قولُهُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

٢ـ الوَعْدُ والوَعيدُ ، ويُرْشِدُ إليهِ قولُهُ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، إذِ الدّينُ هوَ الجَزاءُ ، وهوَ إمّا ثوابُ المُحْسنِ أوْ عِقابُ المسيءِ .

٣ـ الأَمْرُ والنَّهْيُ ، ويُرْشِدُ إليهِ قولُهُ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

٤ـ القَصَصُ والأَخْبارُ ، ويُرْشِدُ إليهِ قولُهُ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .

وممّا يَدُلُّ عَلى عِظَمِ سورَةِ الفاتِحَةِ ما جاءَ في الحديثِ القُدُسِيِّ : « قَسَمْتُ الصَّلاةَ بيْني وبَيْنَ عَبْدي نِصْفَيْنِ ، ولِعَبْدي ما سَأَلَ ، فإذا قالَ العَبْدُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، قالَ اللهُ : حَمِدَني عَبْدي ، وإذا قالَ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، قالَ اللهُ : أَثْنى عَليَّ عَبْدي ، فإذا قالَ العَبْدُ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، قالَ اللهُ : مجَّدني عَبْدي ، وإذا قالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، قالَ : هذا بَيْني وبَيْنَ عَبْدي ، ولِعَبْدي ما سَأَلَ ، فإذا قالَ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ، قالَ هذا لِعَبْدي ، ولِعَبْدي ما سَأَلَ[1] .

البَسْمَلَةُ :

والبَسْمَلَةُ ، هي قَوْلُنا : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ .

بدأَ سُبْحانَهُ وتَعالى كِتابَهُ بالبَسْمَلَةِ ، لِكَيْ يُدْرِكَ المُسْلِمُ أنَّهُ يَنْبَغي أَنْ لا يُبْدَأَ عَمَلٌ باسمِ غَيْرِ اسْمِ اللهِ تَباركَ وتَعالى . وكلُّ أَمْرٍ بُدِيءَ بِغيرِ اسْمِ اللهِ تَعالى هُوَ مِنْ عَمَلِ الجاهِلِيَّةِ ، وكلُّ عَمَلٍ لَمْ يُبْدَأْ ببسمِ اللهِ فهُوَ أَبْتَرُ ، مِنْ هُنا كانَ المعنى لقولِهِ « بسمِ اللهِ » أَقْرَأُ ، أو بسمِ اللهِ أَتْلو ، إذْ إنَّ الجارَّ والمجرورَ « بسمِ » يَحتاجُ إلى مُتعلِّقٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ ، فإذا أَرَدْتَ الشُّرْبَ مَثَلاً قلتَ : « بسمِ اللهِ » أيْ : باسمِ اللهِ أَشْرَبُ ، وإذا أَرَدْتَ الأَكْلَ قلتَ : بسمِ اللهِ ، أيْ : باسمِ اللهِ آكُلُ ، وهُنا كَذلكَ إذا أردْتَ القِراءَةَ قُلْتَ : بسمِ اللهِ ، أي : باسمِ اللهِ أَقْرَأُ ، وتَقْديمُ الجارِّ والمَجْرورِ هُنا يُفيدُ الحَصْرَ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة رقم الباب ١١ ، حديث ٣٩٥ .

والاخْتِصاصَ ، أيْ : لا يُمْكِنُ أنْ تَكونَ قِراءَتي وتِلاوَتي وأيُّ عَمَلٍ أقومُ بهِ إلاّ باسْمِ اللهِ تَعالى لا باسْمِ غَيْرِهِ ، لا كَما يَقولونَ : باسمِ الشَّعْبِ ، وباسْمِ الحريّةِ ، وباسْمِ الوَطَنِ . . . إلى غيرِ ذَلِكَ ممّا نَسْمَعُهُ اليَوْمَ .

أمّا كَلِمَةُ (اسْمٍ) فهِيَ مَأْخوذَةٌ مِنَ السُّمُوِّ والعُلُوِّ ، فَكَأَنَّ الاسْمَ تَشْريفٌ لِصاحِبِهِ ، ويُمْكِنُ أنْ تَكونَ مِنَ السِّمَةِ ، وهِيَ العَلامَةُ ، لأنَّ الاسْمَ يكونُ علامةً على صاحِبِهِ .

اللهُ : عَلَمٌ مُخْتَصٌّ بالمَعْبودِ بِحَقٍّ ، لا يُطْلَقُ على غيرِهِ تَعالى ، ولِذلكَ لا يَجوزُ أنْ يُثَنَّى هذا العَلَمُ أو يُجْمَعُ .

الرَّحْمنِ الرَّحيمِ : كِلاهُما مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّحْمةِ ، وهِيَ بالنِّسْبَةِ لَنا نَحنُ البَشَرُ رِقَّةٌ في القَلْبِ تَبْعَثُ صاحِبَها على مُواساةِ الآخَرينَ والإحسانِ إليْهِمْ ، وهِيَ صِفَةٌ للهِ تَعالى أثْبَتَها لِنفْسِهِ ، فَنُثْبِتُها مِنْ غَيْرِ تَشْبيهٍ ، ولا تَعْطيلٍ ، عَلى حَدِّ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] . ولكِنْ ما الفَرْقُ بَيْنَ هاتينِ الكَلِمَتَيْنِ ؟

كَلِمَةُ (الرّحمنِ) صيغةُ مُبالَغَةٍ عَلى وَزْنِ فَعْلان ، وفَعْلانُ صيغةٌ تَدلُّ عَلى كَثْرةِ الشَّيْءِ وعِظَمِهِ ، فإذا قُلْتَ : (عَطْشان) دَلَّ ذلكَ عَلى كَثْرَةِ عَطَشِكَ وشِدَّتِهِ ، أمّا كَلِمَةُ (رحيمٍ) فهِيَ صِيغةُ مُبالَغةٍ عَلى وَزْنِ فَعيلٍ ، وفعيلٌ صِيغةٌ تَدلُّ عَلى الدَّوامِ ، فإذا قُلْتَ : (محمدٌ كريمٌ) دلَّ ذَلِكَ عَلى دَوامِ هذهِ الصِّفَةِ لَهُ .

إذنْ كَلِمَةُ (الرَّحمنِ) تَدُلُّ على أنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعالى كَثيرةٌ عَظيمَةٌ ، ومِنْ هُنا جاءَ في الحَديثِ الشَّريفِ : « إنَّ اللهَ يَوْمَ أنْ خَلَقَ الخَلْقَ ، خَلَقَ مائةَ رَحمةٍ ، فأَنْزَلَ رَحْمةً إلى الأَرْضِ يَتراحَمُ بها الخَلْقُ ، وأَبْقى تِسْعةً وتِسْعينَ رَحْمةً يَرْحَمُ بها النّاسَ يَوْمَ القيامةِ » . وكَلِمَةُ (رحيمٍ) تَدُلُّ عَلى أنَّ هذهِ الرَّحمةَ مَعَ كَثْرَتِها دائِمَةٌ لا تَنْفَدُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ اذْكُرْ بَعْضَ أسْماءِ سورَةِ الفاتِحَةِ ، ولِمَ سُمِّيَتْ بكلِّ اسْمٍ .

٢ـ بَيِّنْ مَنزِلَةَ سورَةِ الفاتِحَةِ .

٣ـ حَوَتْ سورَةُ الفاتِحَةِ مَقاصِدَ القُرْآنِ ، ما تِلكَ المَقاصِدُ ؟

٤ـ ما مَعْنى : (بسمِ اللهِ) ؟ ولِماذا يَجِبُ الابْتِداءُ بالبَسْمَلَةِ في كُلِّ عَمَلٍ ؟

٥ـ هلْ يَجوزُ تَثنيةُ لَفْظِ (اللهِ) ؟ ولِماذا ؟

٦ـ فَرِّقْ بَيْنَ مَعْنى : (الرَّحمنِ) ، و(الرَّحيمِ) .

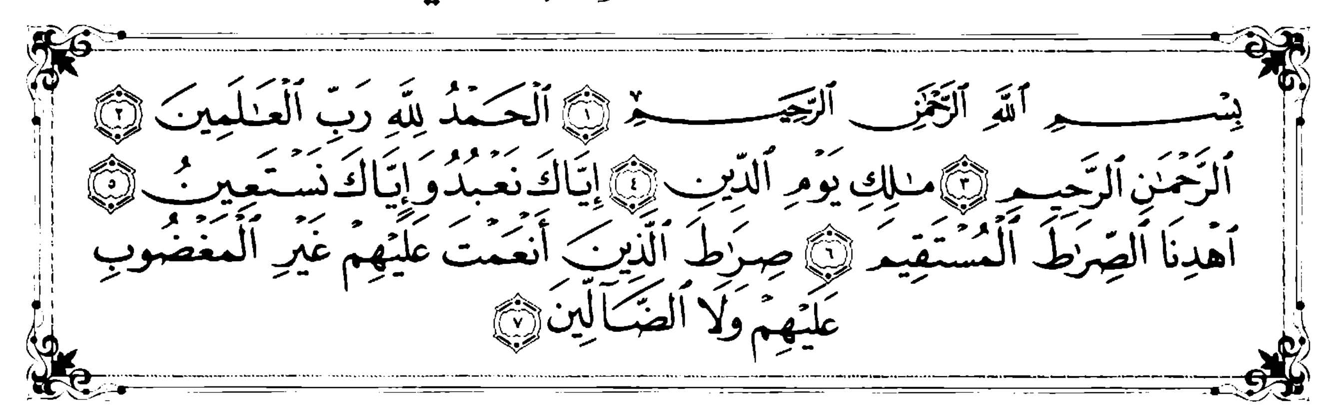
نَشاطٌ :

ـ فَرِّقْ بيْنَ كَلِمَتي (اللهِ) و(إلهٍ) مِنْ حَيْثُ مَعْنى كُلٍّ مِنْهُما ، واكْتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدّرسُ الثّاني

سورَةُ الفاتِحَةِ ـ القِسْمُ الثّاني



مَعاني المُفْرَداتِ :

الحَمْدُ : هُوَ الثَّناءُ باللِّسانِ عَلى خَيْرٍ يَصْدُرُ عَنْ صاحِبِه باخْتيارٍ .

ربّ : الرّبُّ : السَّيِّدُ والمُرَبّي .

العالَمينَ : جَمْعُ عالَمٍ ، وهُوَ كُلُّ مَوْجودٍ سِوى اللهِ تَعالى .

الدّينِ : الجزاءِ والحِسابِ .

اهْدِنا : دُلَّنا وأَرْشِدْنا وَوفِّقْنا وثَبِّتْنا .

الصّراطَ : الجادَّةَ والطَّريقَ .

المُسْتقيمَ : المُعْتَدِلَ الّذي لا اعْوِجاجَ فيهِ .

المَغْضوبِ عَلَيْهِمْ : هُمُ الّذينَ يَسْتَحِقّونَ عَذابَ اللهِ تَعالى وعُقوبَتَهُ .

الضّالّينَ : الَّذينَ لَمْ يَعْرِفوا الحَقَّ .



﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ .

لَقَدَ مَرَّ في الدَّرْسِ السّابِقِ مَعْنى : ﴿بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرَّحيمِ﴾ ، وفي هَذا الدَّرْسِ بيانٌ وتَفْسيرٌ لِسورَةِ الفاتِحَةِ .

ابْتَدأَتِ السّورَةُ الكَريمَةُ بالحَمْدِ ، الَّذي هُوَ الثَّناءُ بالِّلسانِ عَلى المُنْعِمِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، لأنَّهُ يَسْتَحِقُّ ذلكَ . وأل التَّعريفِ تَدُلُّ عَلى الاسْتِغْراقِ ؛ أي الحمدُ كُلّهُ ، وهناكَ فَرْقٌ بَيْنَ الحَمْدِ والشُّكْرِ ، فالحَمْدُ أعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ ، إذْ إنَّ الحَمْدَ هُوَ تَعظيمُ الفاعِلِ ، وهُوَ هُنا اللهُ سُبْحانَهُ ، لأَجْلِ ما صَدَرَ عنهُ مِنَ الإنْعامِ ، سواءً أَكانَ ذلكَ الإنْعامُ واصِلاً إلَيْكَ أمْ إلى غَيْرِكَ ، وأَمَّا الشُّكْرُ ، فهوَ تَعظيمُهُ لأجْلِ إنْعامٍ وصَلَ إليْكَ .

ومِنْ صِفاتِهِ سُبحانَهُ الّتي يَتَّصِفُ بِها مِمّا جاءَ في هذهِ السّورَةِ ولأَجْلِها اسْتَحَقَّ المَحامِدَ أنّهُ تَعالى :

١ـ ربُّ العالَمينَ : والرَّبُّ هَوَ السَّيّدُ الّذي يَتعهَّدُ مَنْ يُرَبيّهِ ويُصْلِحُ مِنْ شَأْنِهِ ، والعالَمُ : كُلُّ شَيْءٍ سِوى اللهِ تَعالى ، وكَلِمَةُ العالَمِ مَأْخوذَةٌ مِنَ العَلَمِ ؛ أي العَلامَةِ ، فَكُلُّ ما خَلَقَهُ سُبْحانَهُ وتعالى علامةٌ عَلى وُجودِهِ . وتَرْبِيَةُ اللهِ لِعبادِهِ تَكونُ إمّا خَلْقِيَّةً أو خُلُقِيَّةً .

٢ـ الرَّحمنُ الرّحيمُ : وقدْ ذَكَرْنا لكَ المَقْصودَ بِهذهِ الآيةِ ، وقدْ ذُكِرَتْ هذهِ الآيَةُ لِيبيِّنَ سُبْحانَهُ أنَّهُ مَعَ رُبوبيَّتِهِ لِلْخَلْقِ ، ومِلْكِيَّتِهِ لَهُمْ سُبْحانَهُ ، فهُوَ تَعالى رَحْمَنٌ رَحيمٌ بِخَلْقِهِ .

٣ـ مالكُ يومِ الدّينِ : هذهِ الصِّفَةُ الثّالِثَةُ الّتي ذَكَرها سُبْحانَهُ ، المالِكُ ليوم الّدينِ . والمالِكُ : مِنْ المِلْكِ بكسرِ الميمِ ، وهُوَ حِيازَةُ الشَّيْءِ مَعَ القُدْرَةِ عَلى التَّصرُّفِ فيهِ . واليَوْمُ في العُرْفِ : ما يكونُ مِنْ طُلوعِ الشَّمْسِ إلى غُروبِها ، ولَيْسَ هَذا مُراداً هُنا ، وإنّما المُرادُ مُطْلَقُ الزَّمَنِ ، وهُوَ يَوْمُ القيامةِ . والّدينُ هُوَ الجَزاءُ والحِسابُ ، يُقالُ دُنْتُهُ بما صَنَعَ ، أيْ : جازَيْتُهُ عَلى صَنيعِهِ ، ومنهُ قَوْلُهِمْ : كما تُدينُ تُدانُ ، أيْ : كما تَفْعَلُ تُجازى ، فهوَ سُبْحانَهُ المُهَيْمِنُ والمُتصَرِّفُ في هذا اليَوْمِ ، قالَ تَعالى : ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر : ١٦] .

هذهِ بَعْضُ صِفاتِ اللهِ تَعالى : الرُّبوبِيَّةُ ، والرَّحْمَةُ ، ومِلْكُهُ لِيومِ الدّينِ الّذي لا يُمْكِنُ لأَيِّ إنْسانٍ

أَنْ يَمْلِكَهُ ، ومَنِ اتَّصفَ بِمِثْلِ هذهِ الصِّفاتِ فهُوَ حَرِيٌّ أَنْ نَتوجَّهَ إليهِ وَحْدَهُ بالعِبادَةِ والاسْتِعانَةِ ، ولِذا جاءَ قَوْلُهُ تعالى :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ .

والعِبادَةُ أَقْصى غايَةِ الخُضوعِ والتَّذَلُّلِ معَ اسْتِشْعار القَلْبِ عَظَمَةَ اللهِ تَعالى وغايَةَ مَحبَّتِهِ . والاسْتِعانَةُ هِيَ طَلَبُ المَعونَةِ مِنْ أَجْلِ الاقْتِدار عَلى الشَّيءِ والتَّمَكُّنِ مِنْ فِعْلَهِ . وقَدْ ذُكِرَتِ العِبادَةُ أَوّلاً ثُمَّ الاسْتِعانَةُ ، وهَذا أدَبٌ مَعَ اللهِ تَعالى ، فَنحنُ نَتذلَّلُ لهُ سُبْحانَهُ ، ثُمَّ نَطْلُبُ منهُ العَوْنَ ، وهذا الأدّبُ يُعلِّمُنا كيفَ نَتعامَلُ معَ النّاسِ كَذلِكَ ، لِكَيْ نَستطيعَ طَلَبَ العَوْنِ مِنْهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وقدْ تَقَدَّمَ المَفعولُ بهِ : (إيّاكَ) ، لِيُفيدَ الاخْتِصاصَ ، أيْ : نَخُصُّكَ وحْدَكَ بالعِبادَةِ ، ونَخُصُّكَ وحْدَكَ بالاسْتِعانَةِ يا ربُّ .

والعِبادَةُ هِيَ الأوامِرُ والنَّواهي الّتي نَشْرُفُ بِها ، فَكُلَّما ازْدَدْنا عِبادةً للهِ ازْدَدْنا شَرَفاً ، أَمّا الاسْتِعانَةُ فَهِيْ المَظْهَرُ الّذي يَدُلُّ عَلى عُبودِيَّتِنا الحَقَّةِ للهِ تَعالى ، إذْ يَشْعُرُ الإنْسانُ بالضَّعْفِ أمامَ قُوَّةِ اللهِ تَعالى ، فَيسألُ اللهَ تَعالى أنْ يُعينَهُ ويُقوّيهِ .

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ﴾ .

الهِدايَةُ : هِيَ الإرْشادُ والدَّلالَةُ بِلُطْفٍ عَلى ما يوصِلُ إلى البُغْيَةِ ، ومِنْ مَعانيها : البيانُ . وهذهِ الكَلِمَةُ غالِباً تُستعْمَلُ في الخَيْرِ ، أيْ : اهْدِنا يا ربُّ إلى طَريقِكَ المُستقيمِ الّذي يوصِلُنا إلى الخَيْرِ والسَّعادةِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، ويَجْعَلُنا مَعَ الّذينَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ خَلْقِكَ ، ولا تَجْعَلْنا يا رَبَّنا ويا مَوْلانا نَسيرُ في طريقِ أُولئِكَ الَّذينَ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ أوِ الأَجْيالِ اللّاحِقَةِ ، وذلكَ بِسَبَبِ سوءِ أعْمالِهِمْ وابْتِعادِهِمْ عنْ طَريقِ الحَقِّ ، أوْ في طَريقِ أُولئِكَ الّذينَ ضَلّوا فانْحرَفوا عَنِ الحَقِّ .

والمَغضوبُ عَلَيْهِمْ هُمْ مَنْ عَرَفوا الحَقَّ وتَرَكوهُ ، ولِذا يُرَجِّحُ العُلَماءُ أنَّ المَقصودَ بِهِمُ اليَهودَ . و(الضّالّينَ) هُمُ الّذينَ لَمْ يَعْرِفوا الحَقَّ ، ويُرَجِّحُ العُلَماءُ أَنَّهُمُ النَّصارى .

وفي هذا الدُّعاءِ أَسْمى أَلْوانِ الأدَبِ مَعَ اللهِ تَعالى ؛ إذْ إنَّ المُؤْمِنينَ يَتضرَّعونَ بِهِ إلى اللهِ تَعالى خالِقِهِمْ ، بَعْدَ اعْتِرافِهِمْ باسْتِحْقاقِهِ سُبْحانَهُ لِلْمَحامِدِ جَميعِها ، وأَنّهُ ربُّ العالَمينَ ، والمُتصرِّفُ بِهِمْ وبِأُمورِهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ .

دروس وعبر

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حَمْدُ اللهِ وتَمْجيدُهُ ، والثَّناءُ عَليْهِ بِذِكْرِ أسْمائِهِ الحُسْنى ، وذِكْرِ المَعادِ ، فلابُدَّ لِلإنْسانِ مِنْ أنْ يَلْهَجَ لِسانُهُ بِذِكْرِ اللهِ تَعالى وحَمْدِهِ .

٢ـ التَّضرُّعُ إلى اللهِ تَعالى والتَّذَلُّلُ والخُضوعُ إليهِ سُبْحانَهُ ، وطَلَبُ العَوْنِ مِنَ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، كَما قالَ رسولُ ﷺ : « إذا سألْتَ فاسْألِ اللهَ ، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ باللهِ » .

٣ـ التَّرْغيبُ في الأعْمالِ الصّالِحَةِ ، لِيَكونَ الإنْسانُ مَعَ الصّالِحينَ يَوْمَ القيامةِ . والتَّرْهيبُ والتَّحذيرُ مِنْ سُلوكِ طريقِ الباطِلِ ، لِئلا يُحْشَرَ مَعَ سالِكيهِ يَوْمَ القِيامَةِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مِنْ أسْماءِ سورَةِ الفاتِحَةِ : « السَّبْعُ المَثاني » ، ما المَقْصودُ بهذا الاسْمِ ؟

٢ـ ما الحِكْمَةُ مِنَ ابْتداءِ السّورَةِ الكَريمةِ بقولِهِ : « بسمِ اللهِ الرّحْمنِ الرَّحيم » ؟

٣ـ ضَعْ دائرةً حَوْلَ رَمْزِ الإجابةِ الصَّحيحةِ :

١ . مِنْ مَقاصِدِ القُرْآنِ الكَريمِ : الوَعْدُ والوَعيدُ ، وهذا يَظْهَرُ في قولِهِ تَعالى :

أـ الحمدُ للهِ . ب ـ ربِّ العالَمينَ . ج ـ إيّاكَ نعبدُ . د ـ مالِكِ يَوْمِ الدّينِ .

٢ . الفَرْقُ بَيْنَ (الرّحمنِ) و(الرّحيم) :

أـ أنّ الرّحيمَ تَدلُّ عَلى كَثرةِ الرّحمةِ ، والرّحْمَنُ عَلى دَوامِ الرّحمةِ .

ب ـ أنَ الرَّحيمَ تَدُلُّ عَلى دَوامِ الرّحمةِ ، والرّحمنُ تَدُلُّ عَلى كَثْرَتِها وعِظَمِها .

ج ـ أَنَّ الرَّحْمنَ والرَّحيمَ كِلاهُما تَدُلُّ عَلى كَثْرَةِ الرَّحْمَةِ وعِظَمِها .

دـ أنَّ الرَّحْمنَ والرَّحيمَ كِلاهُما تَدُلُّ عَلى دَوامِ الرَّحْمَةِ .

٤ـ ما مَعْنى الحَمْدِ ؟ وما الفَرْقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الشُّكْرِ ؟

٥ـ لماذا ذُكِرَتِ (الرَّحمنُ والرَّحيمُ) مرّةً أُخرى بعدَ (ربِّ العالَمينَ) ؟

٦ـ ما المقصودُ بِقولِهِ تَعالى : (مالكِ يَوْمِ الدّينِ) ؟

٧ـ مِنْ مَعاني الهِدايَة : البَيانُ ، والإيصالُ إلى المَطْلوبِ ، بيِّنِ المَقْصودَ بالهِدايَةِ في الآياتِ التّاليةِ :

أـ ﴿إنّكَ لا تَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ ولَكِنَّ اللهَ يَهْدي مَنْ يَشاءُ﴾ .

ب ـ ﴿وأمَّا ثَمودُ فَهَدَيْناهُمْ فاسْتَحبّوا العَمى عَلى الهُدى﴾ .

ج ـ ﴿إنّكَ لَتهْدي إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ .

د ـ ﴿اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقيمَ﴾ .

٨ـ ما الّذي يُسْتَفادُ مِنْ قولِهِ تَعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ؟

نَشاطٌ

ـ هُناكَ قِراءةٌ صَحيحَةٌ ﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ، فَرِّقْ بَيْنَ قِراءتَيْ : مالِكِ ومَلِكِ ، مِنْ حيثُ المَعْنى .

* * *

الدرس الثالث

سورةُ البَقرةِ ـ القِسْمُ الأوّلُ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

تعريفٌ بالسُّورَةِ :

سورَةُ البَقَرَةِ مَدنيَّةٌ . وقَدِ اسْتَمرَّ نُزولُها عَشرَ سِنينَ ، فَفيها آياتُ تَحْويلِ القِبْلَةِ . وقَدْ نَزَلتْ في السَّنةِ الثّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ ، وفيها آخِرُ آيةٍ نَزَلَتْ عَلى الرَّسولِ ﷺ : ﴿واتَّقوا يَوْماً تُرْجَعونَ فيهِ إلى اللهِ﴾ ، وقَدْ نَزَلَتْ عليهِ قَبْلَ وَفاتِهِ ﷺ بوَقْتٍ قَصيرٍ .

وسُمِّيَتْ بِسورَةِ البَقَرةِ ، لأنَّها انْفَرَدتْ بِذِكْرِ قِصَّةِ البَقَرَةِ الَّتي كُلِّفَ بَنو إسْرائيلَ بِذَبْحِها لِمَعْرِفَةِ قاتِلِ قَتيلِهِمْ .

أَمَّا فَضْلُ هذهِ السّورةِ فقدْ وَرَدَ فيهِ أحاديثُ كَثيرةٌ ، مِنْها ما رُوِيَ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « لا تَجْعلوا بُيوتَكُمْ مَقابِرَ ، إنَّ الشَّيْطانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ الّذي تُقْرَأُ فيهِ سورةُ البَقَرةِ »[1] .

مَعاني المُفْرَداتِ :

الم : هذهِ الحُروفُ تُسمّى الحُروفَ المُقَطَّعَةَ في فَواتِحِ السُّوَرِ ، وقَدِ ابْتُدِأَتْ بهذِهِ البدايةِ مَجْموعةٌ مِنَ السُّوَرِ . وقَدْ وَرَدَتْ هذهِ الحُروفُ في افْتِتاحِ بَعْضِ السُّوَرِ للإشْعارِ بأنَّ هذا القُرْآنَ ، الّذي تَحدّى اللهُ بِهِ العَرَبَ هو مِنْ جِنْسِ كَلامِهِمُ المُرَكَّبِ مِنْ هذهِ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين : باب استحباب صلاة النافلة في بيته ، رقم الباب ٢٩ ، حديث ٢١٢ (١/٥٣٩) .

الحُروفِ الّتي يَعْرِفونَها ، ويَقْدِرونَ عَلى تأْليفِ الكَلامِ مِنْها ، فإذا عَجِزوا عَنِ الإتيانِ بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، فَذلِكَ دَليلٌ عَلى أَنّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى .

لا رَيْبَ فيهِ	: الرَّيْبُ مَصْدَرُ رابَ ، ورابَهُ الأَمْرُ : إذا حَصَلَ عِنْدَهُ فيهِ ريبَةٌ ، والرَّيْبُ هُوَ الشّكُّ مَعَ قَلَقِ النَّفْسِ واضْطِرابِها .
المتَّقينَ	: التَّقْوى هيَ امْتِثالُ أوامِرِ اللهِ واجْتنابُ نَواهيهِ .
الغَيْبِ	: ما غابَ عَنِ الإنْسانِ ، وهو يُقابِلُ المَحْسوسَ ، ومِنَ الغَيْبِ اللهُ ، والجنّةُ والنّارُ .
يُقيمونَ الصَّلاةَ	: إقامَةُ الصَّلاةِ : تَأْدِيَتُها تامَّةً بِأَرْكانِها ، والمُداوَمَةُ عَلَيْها .
يوقِنونَ	: اليَقينُ : الاعْتِقادُ الجازِمُ المُطابِقُ لِلْواقِعِ بحيثُ لا يَطْرَأُ عليهِ شَكٌّ ولا تَحومُ حَوْلَهُ شُبْهَةٌ .
المُفْلِحونَ	: الفائِزونَ ، والفَلَحُ : الشَّقُّ والقَطْعُ ، فالمُفْلِحُ الّذي يَشقُّ طَريقَهُ ويَصِلُ غايَتَهُ .

التَّفسيرُ :

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ .

ابْتَدأَتْ سورةُ البَقَرةِ بِهذهِ الحروفِ المُقطّعةِ الّتي جاءَتْ ـ كَما قُلْنا ـ للتَّنْبيهِ والتَّحدّي ؛ تَنْبيهِ العَرَبِ إلى أَنَّ القُرْآنَ الكَريمَ هُوَ مِنْ جِنْسِ كَلامِهِمْ ، وتَحدّيهِمْ أَنْ يَأْتوا بمثلِهِ ، ولكنَّهُمْ مَعَ ذلكَ لَمْ يَستطيعوا الإتْيانَ ولَوْ بِسورةٍ مِنْ مِثْلِهِ . ويُعَظِّمُ اللهُ تَعالى هذا القُرآنَ بقولِهِ:﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أيْ: ذلكَ الكِتابُ الكامِلُ الّذي لا نَقْصَ فيهِ أبداً ولا رَيْبَ فيهِ ، فَهُوَ لَيْسَ مَحلّاً لأنْ يَرْتابَ عاقِلٌ أو مُنْصِفٌ في أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى ، وأَنَّهُ هِدايةٌ وإرْشادٌ لِلمُتَّقينَ .

والمُتَّقونَ هُمُ المُتَّصِفونَ بِصِفَةِ التَّقْوى ، وهِيَ كَما يُعَرِّفُها بَعْضُهُمْ : أَنْ يُطاعَ اللهُ فلا يُعْصى ، ويُذْكَرَ فلا يُنْسى ، ويُشْكَرَ فلا يُكْفَرُ . وقالَ آخَرونَ : هي تَرْكُ الإصْرارِ عَلى المَعصيةِ ، وتَرْكُ الاغْتِرارِ بالطَّاعةِ . فالتَّقْوى تَتضمَّنُ أُموراً ثَلاثةً :

١ـ اجْتِنابُ الذُّنوبِ صَغيرِها وكَبيرِها ؛ لأنَّ الإصْرارَ عَلى الصَّغائِرِ يُؤدّي إلى الكَبائِرِ .

٢ـ الحَذَرُ : وقَدْ قيلَ إنَّ عُمَرَ بنَ الخَطّابِ سأَلَ أُبيَّ بنَ كَعْبٍ عَنِ التّقوى ، فقالَ لَهُ : أما سَلَكْتَ

طريقاً ذا شَوْكٍ ؟ قالَ بَلى . قالَ : فما عَمِلْتَ ؟ قال : شَمَّرْتُ واجْتَهَدْتُ ، قالَ : فذلكَ التَّقوى .

٣ـ عَدَمُ الاسْتِهانَةِ بالصَّغائِرِ .

وللتَّقْوى مَراحِلُ :

أوّلُها : الوِقايَةُ مِنَ الشَّكِّ ، والمَرْحَلَةُ الثّانِيَةُ : اجْتِنابُ الكَبائِرِ ، والمَرْحَلَةُ الثّالِثَةُ : الابْتِعادُ عَنِ الصَّغائِرِ . يَدُلُّ عَلى ذَلِكَ ما رُوِيَ عَنِ الرَّسولِ ﷺ : « لا يَبْلُغُ العَبْدُ أَنْ يَكونَ مِنَ المُتَّقينَ حتَّى يَدَعَ ما لا بَأْسَ بِهِ حَذَراً مِمّا بأسٌ فيهِ »[1] .

إنَّ أمْرَ التَّقوى عَظيمٌ ، فَهِيَ سِرٌّ بَيْنَ العَبْدَ وربِّهِ ، فقدْ قالَ النَّبي ﷺ : (التَّقوى هَهُنا ، وأَشارَ إلى صَدْرِهِ) ، والتَّقْوى ثَمَرةٌ لابُدَّ مِنْ تَحقُّقِها ، ولِكَيْ تَتحقَّقَ لابُدَّ مِنْ أُمورٍ خَمْسَةٍ ، وهِيَ : الإيمانُ ، والطَّاعةُ ، وتَرْكُ المَعصيةِ ، والتَّوْبَةُ ، والإخْلاصُ .

صفاتُ المُتَّقينَ :

تَبْدَأُ سورَةُ البَقَرةِ بِذِكْرِ أوْصافِ هَؤلاءِ المُتَّقينَ ، الَّتي جَعَلَتْهُمْ يَصِلونَ إلى هذهِ الدَّرَجةِ ، وأَوَّلُ هذهِ الصِّفاتِ إيمانُهُمْ بِالغَيْبِ ، والغَيْبُ كَما قُلْنا : ما يُقابِلُ المَحْسوسَ . وذُكِرَتْ هَذهِ الصِّفَةُ في البدايَةِ ، لأَنَّها تَدُلُّ عَلى صِدْقِ أصْحابِها ، لأَنَّ تَعلُّقَ الإنْسانِ يكونُ بما يُشاهِدُهُ عَنْ طريقِ حَواسّهِ ، ولَكنَّ هَؤلاءِ المُتَّقينَ كانَ أَوَّلَ مَدْحٍ لَهُمْ أَنَّهُمْ صَدَّقوا بما أَخْبَرَهُمُ اللهُ تَعالى بهِ ممّا لا تَتعلَّقُ بهِ حَواسُّهُمْ ، فكانَ إيمانُهُمْ بما غابَ عَنْهُمْ لا يَقِلُّ عَنْ إيمانِهِمْ بِما تُشاهِدُهُ حَواسُّهُمْ .

إنَّ الإيمانَ بالغَيْبِ بُرْهانُ صِدْقٍ عَلى فَضْلِ أُولئِكَ الّذينَ مَلأتْ أَنْفُسَهُمُ الثِّقَةُ باللهِ تَعالى والثِّقَةُ بنَبِيِّهِ ﷺ ؛ فَلَمْ يَرْتابوا بِشَيءٍ ممّا أَخْبَرَ عنهُ اللهُ تَعالى ، أوْ نَبيُّهُ ﷺ ، ولِذا كانَ الإيمانُ بالغَيْبِ اخْتِباراً وامْتِحاناً لأولئكَ المُتَّقينَ .

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ والصِّفَةُ الثّانيةُ لهؤلاءِ المُتَّقينَ أنَّهُمْ يُقيمونَ الصَّلاةَ ؛ أيْ أَنَّهُم يُؤدّونَها بِأَرْكانِها وآدابِها ويُداوِمونَ عَلَيْها ، ويُحافِظونَ عَلَيْها كَذلِكَ ، ويَخْشَعونَ فيها ، ويُقْبِلونَ عَلَيْها بِنَشاطٍ وَجِدٍّ وَرَغْبَةٍ مِنْ غَيْرِ فُتورٍ وَلا كَسَلٍ . وهذهِ الصَّلاةُ تُكْسِبُ صاحِبَها القُوَّةَ في الحقِّ ، والثَّباتَ عَلى الخَيْرِ ، والزِّيادَةَ في اليَقينِ ، والابتعادَ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ، وتَنْفي عنهُ القَلَقَ والهَلَعَ والاضْطِرابَ والجَزَعَ ، وتَجْعلُهُ سَوِيَّ التَّفْكيرِ ، مَرْهوبَ الجانِبِ ، مُستقيمَ السَّيْرِ .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القامة ، باب من درجات المتقين ، باب رقم : ٢٠ ، حديث رقم : ٢٤٥٣ ، وقال حديث حسن غريب .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ومِمّا أَعْطيناهُمْ ومَلَّكْناهُمْ يَتصَدَّقونَ في وُجوهِ الخَيْرِ ، ويَمُدّونَ أَيْدِيَهُمْ بالإحْسانِ إلى الفَقيرِ والمِسْكينِ ، وقَدْ قالَ تَعالى هُنا : (يُنْفِقونَ) ، بالجُملَةِ الفِعْليّةِ ، لِيَدُلَّ عَلى اسْتِمرارِ إنفاقِهِم وتَجدُّدِهِ . واللهُ سُبحانَهُ وتَعالى طَبَعَ الإنْسانَ عَلى الحِرْصِ ، قالَ تَعالى ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ [النساء : ١٢٨] وحُبِّ التَّملُّكِ ، ولِذا كانَ عِلاجُ هذهِ الأنْفُسِ الحَثَّ عَلى الإنْفاقِ والأَمْرَ به .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ .

ومِنْ صِفاتِ هَؤلاءِ المُتَّقينَ إيمانُهمْ بما أُنْزِلَ عَلى مُحمَّدٍ ﷺ ، وبما أُنْزِلَ عَلى الأنْبياءِ مِنْ قَبْلِهِ ، ولا شَكَّ في أَنَّ هذهِ الصِّفَةَ تُبيِّنُ وِحْدَةَ الدّينِ الّذي أَرْسَلَ اللهُ تَعالى بهِ أَنْبياءَهُ عَليْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، إذْ إنَّ أَساسَ دَعوتِهِمْ تَوحيدُ اللهِ تَعالى . قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] .

إنَّ الإيمانَ بما أُنْزِلَ عَلى النَّبيِّ ﷺ ، وعلى غَيْرِهِ مِنَ الأنْبياءِ ، يَسْتَلْزِمُ الإيمانَ بالأنبياءِ أَنْفُسِهِم ، ومِنْ بَدَهيّاتِ عَقيدةِ المُسْلِمِ وُجوبُ الإيمانِ بالرُّسُلِ كُلِّهِمْ ، يقولُ سُبْحانَهُ في الَّذينَ يُؤْمِنونَ بِبَعْضِ الرُّسُلِ ويَكْفُرونَ بِبَعْضٍ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١٥١-١٥٢] .

﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ الإيقانُ : العِلْمُ بالشَّيْءِ بِنَفْيِ الشَّكِّ والشُّبْهَةِ عَنْهُ ، فَهؤلاءِ المُتَّقونَ يوقِنونَ بالآخِرَةِ ، ومَعَ أَنَّ الآخِرَةَ مِنَ الغَيْبِ الّذي ذُكِرَ في الصِّفَةِ الأُولى ، إلاّ أَنَّهُ سُبْحانَهُ خَصَّها باليَقينِ لِلْعِنايةِ بِشأْنِها . إنَّ الإيقانَ بِشَيْءٍ ما ، لا يَتْرُكُ لِلْمَرْءِ مَجالاً لِلتَّقصيرِ أَوِ الغَفْلَةِ ، فَمَنْ أَيْقَنَ بالآخِرَةِ فلابُدَّ وأَنْ يَعْمَلَ لَها .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ .

وبَعْدَ هَذِهِ الصِّفاتِ يَذْكُرُ سُبْحانَهُ أُولئِكَ المُتَّقينَ ، فَهُمْ أَوّلاً المُتَمكِّنونَ مِنَ الهُدى الثّابِتونَ عَليْه ، والهِدايةُ نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعالى عَظيمةٌ ، وثانياً : فإنَّ هَؤلاءِ المُتَّقينَ كَمُلَتْ لَهُمُ السَّعادَةُ وَسيلَةً وَغايةً ، ومَبْدَأً ومُنْتَهىً ، فَهُمُ المُفْلِحونَ ، نَسأَلُ اللهَ تَعالى أَنْ نَكونَ جَميعاً مِنْ هَؤلاءِ المُتَّقينَ المُفْلِحينَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عِظَمُ القُرْآنِ الكَريمِ ، فهوَ كامِلٌ لا نَقْصَ فيهِ ، وهُوَ الكِتابُ الّذي لا رَيْبَ فيهِ .

٢ـ الامْتِثالُ لأوامِرِ اللهِ تَعالى ، والانْتِهاءُ عمّا نَهى عنهُ سُبْحانَهُ ، وذلكَ بالابْتِعادِ عَنِ الصَّغائِرِ والكَبائِرِ .

٣ـ المؤْمِنُ بِحقٍّ هو الّذي يُؤْمِنُ بما أخْبَرَ اللهُ تَعالى بهِ مِنْ أُمورٍ غَيبيّةٍ ، مِنْها الإيمانُ باليومِ الآخِرِ ، حتّى يَسْتَقيمَ في دُنْياهُ .

٤ـ وُجوبُ تأديةِ الصَّلاةِ تامَّةً كَما أرادَها اللهُ تَعالى ، ووجوبُ الإنْفاقِ في سبيلِ اللهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بالحُروفِ المُقَطَّعَةِ في بداياتِ السُّوَرِ ؟

٢ـ أـ ما مَراحِلُ التَّقوى ؟

ب ـ ما الّذي يَنْبَغي عَلَيْكَ اتِّباعُهُ حتَّى تَكونَ مِنَ المُتَّقينَ ؟

٣ـ لماذا كانتْ أَوَّلُ صِفَةٍ للمُتَّقينَ الإيمانَ بالغَيْبِ ؟

٤ـ بيَّنَتِ الآياتُ نَتيجتيْنِ لأولئِكَ المُتَّقينَ ، المُتَّصِفينَ ببَعْضِ الصِّفاتِ ، ما هاتانِ النَّتيجتانِ ؟

٥ـ ضَعْ دائِرَةً حَوْلَ رَمْزِ الإجابةِ الصَّحيحةِ :

أـ أوّلُ مَراحِلِ التَّقوى :

أـ تَرْكُ الصّغائِرِ . ب ـ اجْتِنابُ الكَبائِرِ .

جـ ـ تَوقّي الشِّرْكِ . د ـ لا شَيْءَ مِمّا ذُكِرَ .

ب ـ الغَيْبُ هُوَ :

أـ ما يُقابِلُ الواقِعَ . ب ـ ما يُقابِلُ المَحْسوسَ .

جـ ـ ما تَقَعُ عليهِ الحَواسُّ . د ـ ما يَغيبُ عَنْ بَعْضِ النّاسِ دونَ بَعْضٍ .

اقرأ واستَمْتِعْ :

قيلَ : يا عَجباً كُلَّ العَجَبِ مِنَ الشّاكِّ في اللهِ وهو يَرى خَلْقَهُ ، وعَجَباً مِمّنْ يَعرِفُ النَّشأَةَ الأُولى ثُمَّ يُنْكِرُ الآخِرَةَ ، وعَجَباً مِمّنْ يُنْكِرُ البَعْثَ والنُّشورَ وهو في كُلِّ يومٍ ولَيلةٍ يَموتُ ويَحْيا ـ يَعْني النَّومَ واليَقَظةَ ـ وعَجَباً مِمّنْ يُؤْمِنُ بالجَنَّةِ وما فيها مِنَ النَّعيمِ ثُمَّ يَسْعى لِدارِ الغُرورِ ، وعَجَباً مِنَ المُتَكَبِّرِ والفَخورِ وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ أوَّلَهُ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ وآخِرَهُ جيفَةٌ قَذِرَةٌ .

نَشاطٌ :

١ـ أرْكانُ الإيمانِ سِتّةٌ ، اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ قالَ تَعالى في سورةِ مُحمَّدٍ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾ اكْتُبْ مَعنى هاتَيْنِ الآيَتيْنِ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الرَّابِعُ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّاني

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- كَفَروا : الكُفْرُ ضِدُّ الإيمانِ ، وهُوَ مِنَ الكَفْرِ بِمَعْنى سَتْرِ الشَّيءِ وتَغْطِيَتُهُ ، ويَعني هُنا سَتْرُ الحَقِّ والفِطْرَةِ .
- أَنذَرْتَهُمْ : الإِنْذارُ : إِخْبارٌ مَعَهُ تَخويفٌ مَعَ مُهْلَةٍ وإِشْعارٍ .
- خَتَمَ : الخَتْمُ : الوَسْمُ بِطابَعٍ ونَحْوِهِ ، مَأْخوذٌ مِنْ وَضْعِ الخاتِمِ عَلى الشَّيءِ ، ويُعْمَلُ فيهِ للاسْتيثاقِ .
- غِشاوَةٌ : ما يُغَطّى بِهِ الشَّيْءُ ، مِنْ غَشّاهُ إذا غَطّاهُ وسَتَرَهُ .
- يُخادِعونَ : الخِدْعُ : هُوَ فِعْلٌ أَوْ قَوْلٌ يوهِمُ صاحِبُهُ إرادَةَ الخَيْرِ لِغيْرِهِ وهُوَ يُريدُ خِلافَهُ .
- يَشْعرونَ : الشُّعورُ يُطْلَقُ عَلى العِلْمِ بالأَشْياءِ الخَفيَّةِ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أَنْ تَحدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنْ صِفاتِ المُؤْمِنينَ ، تَحدَّثَتْ هنا عَنْ صِفاتِ الكافِرينَ ، وهذا مِنْ أساليبِ القُرآنِ الكَريمِ في التَّرْغيبِ والتَّرْهيبِ ، فقال تَعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنبيِّهِ ﷺ مُؤَكِّداً لَهُ أنَّ الَّذينَ كَفَروا وانْغَمَسوا في كُفْرِهِمْ وباطِلِهِمْ ، سواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ وخَوَّفْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ، فَالنَّتيجَةُ واحِدَةٌ ، وهِيَ أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنونَ ، وسَبَبُ ذَلِكَ أنَّ اللهَ تَعالى خَتَمَ عَلى قُلوبِهِمْ فَلَمْ يَعودوا يَفْقَهونَ شَيْئاً ، بحيثُ صارَتْ هذهِ القُلوبُ لا تَقْبَلُ دُخولَ الإيمانِ إلَيْها ، وخَتَمَ كَذلِكَ عَلى سَمْعِهِمْ فلا يَسْتَطيعونَ السَّمْعَ ، أي : لا يَفْقَهونَ ما يَسْمَعونَ ، وجَعَلَ سُبْحانَهُ وتَعالى غِطاءً عَلى عُيونِهِمْ حتَّى لا يُبْصِروا الحَقَّ . وكُلُّ هذا لِشدَّةِ طُغْيانِهِمْ وابْتِعادِهِمْ عَنِ الحَقِّ ، فَهُمْ يَروْنَ الحَقَّ ، ولَكِنَّهُمْ لا يُبْصِرونَهُ ، ويَصِلُ إلى مَسامِعِهِمْ كَذلِكَ ، ولَكِنَّهُمْ يُصيخونَ بآذانِهِمْ عَنهُ ، مُنْصَرِفونَ عنهُ أوْ يُغْلِقونَ آذانَهُمْ حتّى لا تَسْمَعَهُ .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ .

وَبَعْدَ أنْ تَحدَّثَتِ الآياتُ عَنِ المُؤْمِنينَ والكافِرينَ ، جاءَ الحديثُ عَنِ المُنافِقينَ ، وهُمْ أَشَدُّ خَطَراً مِنَ الكافِرينَ عَلى المُؤْمِنينَ ، وهَؤلاءِ المُنافِقونَ يَدَّعونَ الإيمانَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ . وإنَّما خُصَّ هَذانِ الرُّكْنانِ دونَ بَقيةِ أرْكانِ الإيمانِ ؛ لأنَّهما الرُّكْنانِ الأَعْظَمانِ ، فَهؤلاءِ يَدَّعونَ الإيمانَ ، ولَكنَّهُمْ لَيْسوا بِداخِلينَ في جَماعَةِ المُؤْمِنينَ الصّادِقينَ ، وهُمْ وإنْ كانوا يُصَلّونَ مَعَ المُسْلِمينَ ويَقومونَ بِبَعْضِ العِباداتِ ، فإنَّما ذَلِكَ بَقَصْدِ الرِّياءِ والسُّمْعَةِ ، وهُمْ مُنْغَمِسونَ في الشُّرورِ كالإفْسادِ والكَذِبِ والغِشِّ والخِيانَةِ والطَّمَعِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الرَّذائِلِ .

وسَبَبُ ادِّعائِهِمُ الإيمانَ كَوْنُهُمْ يُخادِعونَ اللهَ والَّذينَ آمَنوا ، فَهُمْ يُريدونَ دَفْعَ المَضَرَّةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وجَلْبَ المَنْفَعَةِ لها ، وإيصالَ المَضرّةِ إلى المُؤْمِنينَ ، فَخِداعُهُمْ للهِ مَعناهُ : إظْهارُهُمُ الإيمانَ وإبْطانُهُمُ الكُفْرَ لِيَحْقِنوا دِماءَهُمْ وأَمْوالَهُمْ ، ويَفوزوا بِسَهْمٍ مِنَ الغَنائِمِ . ، ومِنْ خِداعِهِمْ لِلمُؤْمِنينَ : إظْهارُهُمْ أنَّهُمْ إخوانُهُمْ في العَقيدةِ ، وأنَّهُمْ لا يُريدونَ لَهُمْ إلاّ الخَيْرَ ، بَيْنَما هُمْ في الحَقيقةِ يُضْمِرونَ لَهُمُ العَداوَةَ ، ويَتَربَّصونَ بِهِمُ الدَّوائِرَ ، وخِداعُهُمْ لا يَعودُ بالضَّرَرِ إلاّ عَلى أَنْفُسِهِمْ ، وهَمْ لا يَشْعرونَ بِذَلِكَ .

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝ ﴾ .

وصِفَةٌ أُخْرى للمُنافِقينَ أنَّهمْ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ ، ولَيْسَ المَرَضُ هُنا العِلَّةَ في البَدَنِ ، بَلِ المَقْصودُ بِهِ سوءُ عَقيدَتِهِمْ ، والحَسَدُ الّذي يَملأُ قُلوبَهُمْ ، والبَغْضاءُ والنِّفاقُ . وسُمِّيَ مَرَضاً لِكَوْنِهِ يَمْنَعُهُمْ مِنْ إدْراكِ الفَضائِلِ والحَقِّ ، وبِسَبَبِ سوءِ أَعْمالِهِمْ زادَهُمُ اللهُ تَعالى مَرَضاً ، أي : ضَلالاً

وخُسْراناً ورجْساً وحَسَداً ، لأنّهُمُ اسْتَمرّوا في نِفاقِهِمْ وشَكِّهِمْ ، ومِنْ سُنَّةِ اللهِ أنَّ المريضَ إذا لَمْ يُعالَجْ مَرَضُهُ زادَ لا محالةَ ، إذِ المَرَضُ يُنْشِىءُ المَرَضَ ، والانْحِرافُ يَبْدَأُ يَسيراً ، ولِهذا كُلِّهِ كانتْ سوءُ عاقِبَةِ هَؤلاءِ العَذابَ الأليمَ الموجِعَ وجَعاً شَديداً ، بِسَبَبِ كَذِبِهِمْ وادِّعائِهِمُ الإيمانَ وهُمْ غيرُ مُؤْمنينَ ، وهذا دليلٌ عَلى قُبْحِ الكَذِبِ ، ولِذا نَفَّرَتْ منهُ الآياتُ الكَريمةُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعالى في الّذينَ ساروا في طَريقِ الكُفْرِ ، أنْ يَختِمَ عَلى قُلوبِهِمْ ، فلا يَبْقى فيها اسْتِعدادٌ لِغَيْرِ الكُفْرِ ، ويَخْتِمَ عَلى أسْماعِهِمْ ويَجْعَلَ عَلى أبْصارِهِمْ غِشاوةً ، لأنّهُمْ لم يَنْظُروا إلى ما في الكَوْنِ مِنْ آياتٍ وعِبَرٍ .

٢ـ التَّحذيرُ مِنَ المُنافِقينَ ؛ ولِذا نَجِدُ أنَّ اللهَ تَعالى هُنا قَدْ وَصَفَ حالَ الَّذينَ كَفَروا في آيَتيْنِ ، وحالَ المُنافِقينَ في ثلاثَ عَشْرَةَ آيةً ، لِيُبَيِّنَ لَنا خُبْثَهُمْ ومَكْرَهُمْ ويَفْضَحَهُمْ ويَستهزِىء بِهِمْ .

٣ـ خِداعُ أَهْلِ الضَّلالِ ومَكْرُهُمْ بالمُؤْمِنينَ لا يعودُ إلاّ عَلَيْهِمْ ، ولِذا قالوا : مَنْ حَفَرَ حُفْرَةً لأَخيهِ وَقَعَ فيها .

٤ـ لابُدَّ وأَنْ يَتعهَّدَ الإنْسانُ قَلْبَهُ ، فَيُحاوِلُ إصْلاحَهُ ، ومُداواتَهُ مِنَ الأمْراضِ المَعنويَّةِ الّتي تُصيبُهُ ، كالكُفْرِ والحَسَدِ والبُغْضِ والرِّياءِ ، لِقولِ الرّسولِ ﷺ : « إنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، ألا وهِيَ القَلْبُ » .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

أَنْذَرْتَهُمْ ، خَتَمَ ، يُخادِعونَ .

٢ـ لِماذا نَفى اللهُ تَعالى الإيمانَ عَنِ الّذينَ كَفَروا في قَوْلِهِ تَعالى ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ ؟

٣ـ مَنِ المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ ؟

٤ـ كَيْفَ يَكونُ خِداعُ المُنافِقينَ للهِ تَعالى وللذينَ آمَنوا ؟

٥ـ عَلامَ يَدُلُّنا قَوْلُهُ تَعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ؟

٦ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ بَعْضَ صِفاتِ المُنافِقينَ ، اذْكُرْ هَذِهِ الصِّفاتِ ودَليلَها مِنَ الآياتِ .

نَشاطٌ :

١ـ مَتى ظَهَر المُنافِقونَ ؟ أفي مَكَّةَ أمْ في المَدينةِ المُنوَّرةِ ؟ ولِماذا ؟

٢ـ تَساءَل بَعْضُ النّاسِ : إذا كانَ اللهُ قَدْ خَتَمَ عَلى قُلوبِ الكافرينَ فَلِمَ يُعذِّبُهُمْ ؟ كيفَ تَرُدُّ على هَذا ؟ اكتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ ذَكَرَ الرَّسولُ ﷺ فيما رُوِيَ عَنهُ بَعْضاً مِنْ علاماتِ النِّفاقِ . هاتِ حديثاً يَدُلُّ عَلى ذلِكَ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الخامِسُ

سورةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

معاني المفردات :

المُفْسِدونَ	الإِفْسادُ : خُروجُ الشَّيْءِ عَنْ حالَةِ الاعْتِدالِ ، وضِدُّهُ الصَّلاحُ .
السُّفهاءُ	السَّفَهُ : أَصْلُهُ الخِفَّةُ والرِّقَّةُ والاضْطِرابُ ، وشاعَ في خِفَّةِ العَقْلِ وضَعْفِ الرَّأْيِ .
خَلَوْا	انْفَرَدوا ، أَوْ مَضَوْا وذَهَبوا .
يَمُدُّهُمْ	يُمْهِلُهُمْ .
طُغيانِهِمْ	الطُّغيانُ : مُجاوَزَةُ الحَدِّ .
يَعْمَهونَ	يَتحيَّرونَ ، ويَتردَّدونَ .

التَّفسيرُ :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

يَصِفُ سُبْحانَهُ وتَعالى المُنافِقينَ بِجُمْلَةٍ مِنَ الصِّفاتِ الدّالَّةِ عَلى قُبْحِهِمْ ورَذائِلِهِمْ إضافةً لما ذُكِرَ مِنْ قَبْلُ ، وقَدْ وصَفَ اللهُ تَعالى المُنافِقينَ في ثلاثَ عَشْرَةَ آيةً لِيُحَذِّرَنا مِنْهُمْ ، ولِشِدَّةِ خَطَرِهِمْ عَلى

الدَّوْلِةِ المُسْلِمَةِ والمُسْلِمينَ . هَؤلاءِ المُنافِقونَ كانوا مِنَ الكافِرينَ ، ولا شَكَّ في أنَّ مَنْ كَفَرَ باللهِ تَعالى ، وانْتَهَكَ مَحارِمَهُ كانَ مُفْسِداً في الأَرْضِ ؛ فالكُفْرُ يُؤدّي إلى خَرابِ الأَرْضِ وقِلَّةِ الخَيْرِ ونَزْعِ البَرَكَةِ ، وأرْضُ اللهِ تَعالى لا يُمْكِنُ أنْ تَصْلُحَ إلاّ بالتَّوْحيدِ والعِبادَةِ ، وهذهِ هِيَ الغايَةُ مِنَ الخَلْقِ . ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

ومِنْ مَعالِمِ النِّفاقِ الّذي جَعَلَهُمْ في صَفِّ الكافِرينَ ، أنّهُمْ أطْلَعوا الكافِرينَ عَلى أَسْرارِ المُؤْمِنينَ ، وأَلْقَوا الشُّبُهاتِ الكَثيرةَ في طريقِ الدَّعوَةِ . ومَعَ كُلِّ ما يَفعلونَ ، فإنَّهُمْ إذا نُهوا عَنِ الفَسادِ ادَّعَوْا بأنَّهُمْ لَيْسوا مُفسِدينَ وإنَّما هُمْ مُصْلِحونَ ، وأكَّدوا هذهِ الصِّفةَ وقَصَروها عَلى أنْفُسِهِمْ ، فَصوَّروا إفْسادَهُمْ بِصورَةِ الإصْلاحِ ؛ وذلكَ لِما في قُلوبِهِمْ مِنْ مَرَضٍ .

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

ويُكَذِّبُهُمُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ويَرُدُّ قَوْلَهُمْ أَبْلَغَ رَدٍّ : ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ فإنَّ إفْسادَهُمْ واضِحٌ لِلعيانِ ، يَشْعُرُ بهِ ويَلْمَسُهُ كُلُّ واحِدٍ ، ولا شَكَّ في أنَّ مِن أَسْوأِ أَلْوانِ الجَهْلِ أَنْ يَكونَ الإنْسانُ مُفْسِداً ولا يَشْعُرُ بذلكَ ، مَعَ أنَّ أَثَرَ هذا الفَسادِ ظاهِرٌ لِلْعَيانِ ، ويَنْصَحُهُمُ النّاصِحُ وهو الرَّسولُ ﷺ أو صَحابَتُهُ الكِرامُ ، أنْ يُؤْمِنوا كَما آمَنَ النَّاسُ ، وهُمْ صَحابَةُ رسولِ اللهِ ﷺ ، فَيَكونُ قَوْلُهُمْ ، أنَّهُمْ يَتَّهِمونَ المُؤْمِنينَ بالسَّفَهِ ، وهُوَ خِفَّةُ العَقْلِ وضَعْفُ الرَّأْيِ ، فَهُمْ لِجَهْلِهِمْ وإخْلالِهِمْ بالنَّظَرِ اعْتَقَدوا أنَّ ما هُمْ فيهِ هُوَ الحَقُّ ، وأنَّ ما عَداهُ باطِلٌ ، ولأنَّهُمْ كانوا في رِياسةٍ مِنْ قَوْمِهِمْ ، فَكانوا أَصْحابَ مالٍ ومَناصِبَ ، وكانَ أكْثَرُ المُؤْمِنينَ فُقراءَ ومِنْهُمْ مَنْ كانَ عَبْداً مِثْلَ صُهَيْبٍ وبِلالٍ وخَبّابٍ ، فَسَمّوهُمْ سُفَهاءَ تَحْقيراً لَهُمْ ، فَيَقولونَ : ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ والهَمْزَةُ للإنْكارِ ، فَهُمْ يَسْتَنْكِرونَ أنْ يَكونوا مِثْلَ المُؤْمِنينَ لِما ذَكَرْناهُ .

وقَدْ رَدَّ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ بما يُخرِسُ أَلْسِنَتَهُمْ ويَفْضَحُهُمْ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فَهُمْ وَحْدَهُمُ السُّفَهاءُ ، لأنَّهُمْ أَعْرَضوا عَنِ الإيمانِ ، معَ أنَّ الأدِلَّةَ واضِحَةٌ أَمَامَهُمْ ، ولأنَّهُمْ فَضَّلوا الدُّنْيا الفانِيَةَ الزّائِلَةَ عَلى الآخِرَةِ الباقِيَةِ الخالِدَةِ .

وقَدْ خُتِمَتْ هذهِ الآيَةُ بِقَوْلِه تَعالى : ﴿يَعْلَمُونَ﴾ مَعَ أنَّ الآيَةَ السّابِقَةَ خُتِمَتْ بِقولِهِ ﴿يَشْعُرُونَ﴾ ولا شَكَّ في أنَّ هَذا دَليلاً عَلى مُعْجزَةِ القُرْآنِ العَظيمَةِ ، وأنّهُ كِتابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ ، فالآيَةُ السّابِقَةُ وَصَفَتِ المُنافِقينَ بالإفْسادِ ، وهذا الإفْسادُ مِنَ الأُمورِ المَحْسوسَةِ الّتي يُمْكِنُ إدْراكُها بالمَشاعِرِ أي الحَواسِّ ، ولِذا نَفى عَنْهُمْ سُبْحانَهُ الشُّعورَ بِقولِهِ : ﴿لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ أمّا هذهِ الآيَةُ فَوَصَفَتْهُمْ بالسَّفَهِ ، الّذي هُوَ خِفَّةُ العَقْلِ وضَعْفُ الرَّأْيِ والجَهْلُ بالأُمورِ ، وهذا يُناسِبُهُ نَفْيُ العِلْمِ عَنْهُمْ : ﴿لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

ثُمَّ تُبَيِّنُ الآياتُ الكَريمةُ دَأَبَ هَؤلاءِ المُنافِقينَ في أَنَّهُمْ إذا الْتَقَوْا في طَريقِهِمْ بالمُؤْمِنينَ ، قالوا لَهُمْ : آمَنّا ، اسْتِهْزاءً بِهِمْ ، وفي هَذا إبْداءٌ لِخُبْثِهِمْ ومَكْرِهِمْ ، فَهُمْ يَدَّعونَ أَنَّهُمْ مِثْلُ المُؤْمِنينَ في الإيمانِ الحَقيقيِّ ، ولَكِنَّهُمْ إذا انْفَرَدوا مَعَ شَياطينِهِمْ وهُمْ مَنْ كانوا يَأْمُرونَهُمْ بالتَّكْذيبِ مِنَ اليَهودِ . وسُمّوا شَياطينَ لِتَمرُّدِهِمْ وتَحسينِهِمُ القَبيحَ ، وتَقْبيحِهِمُ الحَسَنَ . هؤلاءِ إذا انْفَردوا مَعَ شَياطينِهِمْ أَوْ إذا ذَهَبوا ومَضَوْا إلَيْهِمْ قالوا لَهُمْ : ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ مَعيَّةً مَعنويَّةً ، المَقْصودُ مِنْها مُوافَقَتُكُمْ عَلى دينِكُمْ ، وأَكَّدوا لَهُمْ بقَوْلِهِمْ ﴿إِنَّا﴾ حتّى لا يَدورَ في خَلَدِ شَياطينِهِمْ أَنَّهم قَدْ فارَقوا دينَهُمْ وتَرَكوهُ إلى دينِ المُسْلِمينَ ؛ فَنَحْنُ نُظْهِرُ لِلْمُؤْمِنينَ أَنَّنا نُوافِقُهُمْ عَلى دينِهِمُ اسْتِهْزاءً واسْتِخْفافاً بِهِمْ . ومِنْ شِدَّةِ مَكْرِهِمْ نَجِدُ التَّعبيرَ هُنا في جانِبِ المُؤْمِنينَ بـ ﴿لَقُوا﴾ وفي جانِبِ الشَّياطينِ ﴿خَلَوْا﴾ لِيُبيِّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ هؤلاءِ المُنافِقينَ لا يُمْكِنُ أَنْ يأنَسوا أَوْ يَطْمَئِنّوا لِلْمُؤْمِنينَ ، فَهُمْ يلاقونَهُمْ في طَريقِهِمْ فَلا يُجالِسونَهُمْ ولا يُسامِرونَهُمْ ، أمّا الشَّياطينُ فَهُمْ يَخْلونَ إلَيْهِمْ ، والإنْسانُ لا يَخْلو إلاّ مَعَ مَنْ أَحَبَّ .

أمّا نَتيجةُ اسْتِهْزائِهِمْ وسُخْرِيَتِهِمْ بالمُؤْمِنينَ ، فَهِيَ أَوّلاً : اسْتِهْزاءُ اللهِ بِهِمْ ، ومَعنى اسْتِهْزائِهِ بِهِمْ : احْتِقارُهُ لَهُمْ . ثانِياً : أَنَّ اللهَ تَعالى ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يُمْلي لَهُمْ ، ويُمَكِّنُهُمْ مِنَ المَعاصي لِيَزْدادوا إثْماً ، حالَ كَوْنِهِمْ يَنْصَرِفونَ بلا رُشْدٍ ويَكُبّونَ رُؤوسَهُمْ فلا يُبْصِرونَ الحَقَّ ، ويَعتقدونَ أَنَّ كُفْرَهُمْ هُوَ الحَقُّ ، وما سِواهُ باطِلٌ .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

أُولئكَ المُنافِقونَ الَّذينَ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعالى بالصِّفاتِ السّابِقَةِ ، قَدِ اخْتاروا الضَّلالَةَ عَلى الهُدى ، فَقَدْ خَسِرَتْ صَفْقَتُهُمْ وفَقَدوا الاهْتِداءَ للطَّريقِ المُسْتَقيمِ ، ووَقَعوا في تيهِ الحَيْرَةِ والضَّلالِ ، وما كانوا مُهْتَدينَ إلى سَبيلِ الرُّشْدِ ، وما كانوا مُهْتَدينَ إلى طَريقِ التِّجارةِ الرّابِحَةِ ، فَهُمْ أَوْلاً لَمْ يَرْبَحوا في تِجارَتِهِمْ ، بَلْ خَسِروا ، وهُمْ ثانِياً : ذَهَبَ نورُ الهُدى مِنْ حَوْلِهِمْ فَبَقوا في ظُلْمَةِ الضَّلالِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإيمانُ هو القَوْلُ باللِّسانِ ، والاعْتِقادُ بالجَنانِ ، والعَمَلُ بالجَوارِحِ والأَرْكانِ ، فلابُدَّ وأَنْ يُطابِقَ القَوْلُ الاعْتِقادَ ، ويُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ العَمَلُ .

٢ـ لا يُمْكِنُ أَنْ تُعْمَرَ الأَرْضُ ، أَوْ يَصْلُحَ حالُ المُجْتَمَعِ إلاّ بالإيمانِ ، والابْتِعادِ عَنِ الكُفْرِ والمعاصي .

٣ـ السَّيِّءُ لا يُصاحِبُ إلاّ سَيِّئاً مِثْلَهُ ، وهُمُ الّذينَ سَمّاهُمُ القُرْآنُ شَياطينَ ، والصَّالِحُ لا يُصاحِبُ إلاّ صالِحاً مِثْلَهُ كَذلِكَ ، يَنْصَحُهُ ويُعينُهُ عَلى الحَقِّ ، ويُبْعِدُهُ عَنِ الباطِلِ .

٤ـ الإنْسانُ العاقِلُ هُوَ الّذي يَحْرِصُ عَلى عَقْدِ صَفْقَةٍ رابِحَةٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ كَيْفَ يَكونُ إفْسادُ المُنافِقينَ في هَذهِ الأَرْضِ ؟

٢ـ لماذا عَبَّرَ سُبْحانَهُ مَرَّةً بِقَوْلِهِ : ﴿يَعْلَمُونَ﴾ وأُخْرى بِقَوْلِهِ : ﴿يَشْعُرُونَ﴾ ؟

٣ـ في قولِهِ تَعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ مَنْ هُوَ القائِلُ ؟ ومَنْ المَقولُ لَهُ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بالمَعيَّةِ في قَولِهِ ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ ؟

٥ـ لِمَ عَبَّرَ سُبْحانَهُ في جانِبِ المُؤْمِنينَ بِكَلِمَةِ : ﴿لَقُواْ﴾ وفي جانِبِ الشَّياطِينِ بِكَلِمَةِ : ﴿خَلَوْا﴾ ؟

٦ـ بَيِّنْ حالَ المُنافِقينَ في كُلِّ مَوْطِنٍ مِمّا يَلي :

أـ إذا قيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدوا في الأَرْضِ .

ب ـ إذا قيلَ لَهُمْ آمِنوا كَما آمَنَ النّاسُ .

ج ـ إذا لَقوا الّذينَ آمَنوا .

دـ إذا خَلَوْا إلى شَياطينِهِمْ .

٧ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكريمةُ خَسارةَ الكافِرينَ . اذْكُرِ الآيةَ الدّالَّةَ عَلى ذَلِكَ .

نَشاطٌ :

ـ في قولِهِ تَعالى : ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ شَبَّهُ المُنافِقينَ بالتُّجّارِ ، بَيِّنْ وَجْهَ الشَّبَهِ في ذَلِكَ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ السَّادِسُ

سُورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الرّابعُ

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ

اسْتَوْقَدَ : طَلَبَ الوَقودَ لِتَسْطَعَ النّارُ وَيَشْتَعِلَ لَهيبُها .

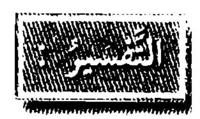
صُمٌّ : الصَّمَمُ : الانْسِدادُ ، والأَصَمُّ : مَنِ انْسَدَّتْ مَسامِعُهُ فَلا يَسْمَعُ .

بُكْمٌ : الأَبْكَمُ : الّذي لا يَنْطِقُ .

صَيِّبٍ : مِنَ الصَّوْبِ ، وهُوَ النُّزولُ ، سُمِّيَ بِهِ المَطَرُ لِنُزولِهِ مِنَ السَّماءِ .

الصَّواعِقِ : شِدَّةِ الصَّوْتِ ، ويَصْحَبُها غالِباً قِطْعَةٌ مِنَ النّارِ لا تَأْتي عَلى شَيْءٍ إلاّ أَهْلَكَتْهُ .

يَخْطَفُ : الخَطْفُ : الأَخْذُ بِسُرْعَةٍ .



بَعْدَ أَنْ حَدَّثَتْنا الآياتُ عَنْ صِفاتِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ ، تَضْرِبُ هذهِ الآياتُ لَهُمُ الأَمْثالَ . والمَثَلُ هُوَ الشِّبيهُ ، ولا يُسْتَعْمَلُ إلاّ لما فيهِ غَرابةٌ ، واسْتُعيرَ لِلصِّفَةِ أَوِ الحالِ أَوِ القِصَّةِ الّتي لَها شَأْنٌ عَجيبٌ . والأَمْثالُ تُضْرَبُ عادةً لإيضاحِ المَعْنى الخَفِيِّ ، ولِتَقْريبِ المَعْقولِ مِنَ المَحْسوسِ ، فَيَكونُ المَعْنى أَوْقَعُ في النَّفْسِ ، فقال تعالى :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ .

فَهؤلاءِ المُنافِقونَ مَثَلُهُمْ وحالُهُمْ يُشْبهُ حالَ مَنْ طَلَبَ الوَقودَ لِيُشْعِلَ ناراً ، فَأَشْعَلَ هذهِ النّارَ لِكَيْ يَسْتَطيعَ هوَ ومَنْ مَعهُ أنْ يُبْصِروا طَريقَهُمْ ، ويَهْتَدوا بهذهِ النّارِ إلى المَكانِ الّذي يُريدونَ الوُصولَ إليهِ ، ولَكِنْ ما أنِ اشْتَعَلَتْ هذهِ النّارُ واطْمَأَنّوا لَها حتَّى سَلَبَ اللهُ تَعالى مِنهُمْ هذا النُّورَ والإضاءَةَ ، الحاصِلَةَ بِسَبَبِ تِلْكَ النّارِ ، وتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ كَثيفَةٍ شَديدَةٍ ، وأكَّدَ سُبْحانَهُ هذا بِقَوْلِهِ ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ ؛ فإنَّ اللهَ تَعالى أعْطاهُمُ النُّورَ الّذي يُبْصِرونَ بِهِ طَريقَهُمْ وَيَهتَدونَ إلى الحَقِّ ، ولَكِنَّهُمْ أَطْفَأوا هَذا النّورَ بِنِفاقِهِمْ وَوَقَعوا في حَيْرةٍ عَظيمةٍ .

﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

وهَؤلاءِ المُنافِقونَ كَما تَصِفُهُمُ الآياتُ : صُمٌّ بُكْمٌ ، عُمْيٌ ، فَهُمْ وإنْ كانتْ لَهُمْ آذانٌ تَسْمَعُ ، وأَلْسِنَةٌ تَنْطِقُ ، وأَعْيُنٌ تُبْصِرُ ، إلاّ أَنَّهُمْ لا يَسْمَعون خَيْراً ولا يَتَكلّمونَ بما يَنْفَعُهُمْ ، ولا يُبْصِرونَ طَريقَ الحَقِّ والهِدايةِ ، ومَنْ لَمْ يَسْتَخْدِمْ حَواسَّهُ كَما يَنْبَغي ، فَكَأَنَّهُ لا حَواسَّ لَهُ أَصْلاً ، لأنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِها الانْتِفاعَ الصَّحيحَ .

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وَيَضْرِبُ سُبْحانَهُ وتَعالى مَثَلاً آخَرَ لِلْمُنافِقينَ : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ فَمَثَلُ أُولئِكَ كَمَنِ اسْتَوْقَدَ ناراً أَوْ كَمَثَلِ ذَوي صَيِّبٍ ، أيْ : مَطَرٍ ، فَمَثَلُ هَؤلاءِ المُنافِقينَ ، كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلَ بِهِمُ المَطَرُ مِنَ السَّماءِ ، وصاحَبَ هذا المَطَرَ سوادُ اللّيلِ ، والرّعْدُ الّذي يَصُمُّ الآذانَ ، والبَرْقُ الّذي يَخْطِفُ الأبْصارَ ، والصَّواعِقُ الّتي تَحْرِقُ كُلَّ ما تُصيبُهُ ، وقدْ وَرَدَتْ هذهِ الكَلِماتُ : ظُلماتٌ ، رَعْدٌ ، بَرْقٌ ، مُنَكَّرَةً ، لِتَدُلَّ عَلى تهويلِ الأَمْرِ وفَظاعَتِهِ .

وهَؤلاءِ القَوْمُ صاروا يَسُدّونَ آذانَهُمْ بِأَصابِعِهِمْ مِنْ شِدَّةِ الصَّواعِقِ ، خَوْفاً مِنْ أنْ تَقْتُلَهُمْ ؛ لأنَّ صَوْتَها هائلٌ وفَظيعٌ قَدْ يُؤَدّي إلى المَوْتِ ، وهذا ما ذَكَرَتْهُ الآياتُ ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ وفي الآيةِ مَجازٌ مُرْسَلٌ ، فَمِنَ المَعْروفِ أنَّ الإنْسانَ يَضَعُ جُزْءاً مِنْ أُصْبَعِهِ في أُذُنِهِ لا كُلَّ أَصابِعِهِ ، ولَكِنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَبَّرَ بالأَصابِعِ لِبيانِ شِدَّةِ اضْطِرابِهِمْ وفَزَعِهِمْ .

وخُتِمَتِ الآيةُ الكَريمةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فإنَّهُ لا مَهْرَبَ لَهُمْ مِنَ اللهِ تَعالى إلاّ إلَيْهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ مُحيطٌ بِهِمْ إحاطَةً تامَّةً ، قادِرٌ عَلى تَعْذيبِهِمْ والتَّنْكيلِ بِهِمْ متى شاءَ سُبْحانَهُ وكَيْفَ شاءَ .

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

وتَسْتَمِرُّ الآيةُ بعَرْضِ المَثَلِ ، فتتحدَّثُ عَنِ البَرْقِ ، الّذي صاحَبَ المَطَرَ ، فهُوَ يَكادُ ، ويَكادُ مِنْ أفْعالِ المُقارَبَةِ ، تَدْخُلُ عَلى اسْمٍ يُسْنَدُ إليهِ فِعْلٌ ـ فَهذا المُسْنَدُ إليهِ وهُوَ البَرْقُ ، قَدْ قارَبَ لِشدَّةِ لَمَعانِهِ عَلى خَطْفِ أَبْصارِ هَؤلاءِ القَوْمِ ، وفي هَذا تَصويرٌ لِشدَّةِ هذا البَرْقِ . وَقَدْ تَرَكَتِ الآيَةُ بَيانَ شِدَّةِ الرَّعْدِ ، اكْتِفاءً بِبَيانِ شِدَّةِ البَرْقِ ، إذِ القُرْآنُ كِتابٌ مَبْنِيٌّ عَلى الإيجازِ ، ولَكِنَّ الآياتِ ذَكَرَتْ شَيئاً في جانِبِ الرَّعْدِ ، وهي تَوقِّي القَوْمَ لهذا الرَّعْدِ ، بِوَضْعِ أصابِعِهِمْ في آذانِهِمْ .

وَهؤلاءِ القَومُ إذا شاهَدوا ومَيضاً مِنَ البَرْقِ ، انْتَهَزوا الفُرْصَةَ فَخَطَوْا خُطواتٍ سَريعةً أمامَهُمْ ، إذْ إنَّ البَرْقَ يُضيءُ لَهُمْ طَريقَهُمْ ، ولكنْ إذا اخْتَفى لَمَعانُ هَذا البَرْقِ ثَبَتوا في مَكانِهِمْ ، وما دَرَوْا أيْنَ يَتَّجِهونَ لِشدَّةِ الظَّلام . وهذِهِ الآيَةُ تَدُلُّ عَلى فَرْطِ حِرْصِ هَؤلاءِ عَلى النَّجاةِ مِنْ هَذهِ الأَهوالِ الّتي هُمْ فيها . ويَقولُ سُبْحانَهُ تَهديداً لَهُمْ :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ ﴾ فإنَّ كُلَّ شَيءٍ في هذا الكَوْنِ بِمَشيئَةِ اللهِ وإرادَتِهِ ، فَلَوْ أرادَ اللهُ تَعالى أنْ يَذْهَبَ بِسَمْعِ هَؤلاءِ بِسَبَبِ شِدَّةِ الرَّعْدِ ، ولَوْ أرادَ أنْ يَذْهَبَ بِأَبْصارِهِمْ بِسَبَبِ شِدَّةِ البَرْقِ ، لَفَعَلَ سُبْحانَهُ ، ولَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ هَذا ، وهَذا دَليلٌ عَلى أنَّ تَأْثيرَ الأَسْبابِ في مُسَبَّباتِها إنَّما هُوَ بِيَدِ اللهِ تَعالى ، وهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ .

هَذا المَثَلُ ضَرَبَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لهؤلاءِ المُنافِقينَ المُتَمرِّدينَ المُخادِعينَ ، مَثَّلَهُمْ بِقَوْمٍ جادَتْهُمُ السَّماءُ بِغَيْثٍ مُنْهَمِرٍ في ليلةٍ ذاتِ رَعْدٍ وبَرْقٍ ، فَأَمَّا الغَيْثُ فَلَمْ يُلْقوا لَهُ بالاً ، ولَمْ يَنالوا مِنهُ نَيْلاً ، فلا شَرِبوا مِنهُ قَطْرَةً ، ولا اسْتَنْبَتوا بهِ ثَمرةً ، وتِلْكَ التَقلُّباتُ الجَويَّةُ مِنَ الظُّلُماتِ والرَّعْدِ والبَرْقِ كانَتْ مَثارَ اهْتِمامِهِمْ ، ومَناطَ تَفْكيرِهِمْ ، ولِذلكَ جَعَلوا يَتَرصَّدونَها ويُدَبِّرونَ أُمورَهُمْ عَلى وَفْقِها ، لابِسينَ لِكُلِّ حالٍ لَبوسَها ، سَيْراً تارةً ، وَوُقوفاً تارَةً ، واخْتِفاءً تارَةً أُخْرى .

وهَكذا كانَ حالُ المُنافِقينَ ، إذا رَأَوْا عَرَضاً قَريباً وسَفَراً قاصِداً ، وبَرَقَتْ لَهُمْ بُروقُ الأَمَلِ في الغَنيمةِ ، ساروا مَعَ المُؤْمنينَ جَنْباً إلى جَنْبٍ ، وإذا دارَتْ رحى الحَرْبِ وانْقَضتْ صَواعِقُها مُنْذِرَةً بالمَوْتِ والهَزيمةِ ، أَخَذوا حِذْرَهُمْ وفَرّوا مِنْ وَجْهِ العَدوِّ قائِلينَ : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ حتَّى إذا كانتِ الثّالِثَةُ ، فَلَمْ يَلْمَحوا مِنَ الآمالِ بارِقَةً ، ولَمْ يَتوقَّعوا مِنَ الآلام إلاّ صاعِقَةً ، بلِ اشْتَبَهَتْ عَلَيْهِمُ الأُمورُ ، فهناكَ يَقِفونَ مُتَربِّصينَ لا يَتقدَّمونَ ولا يَتأخَّرونَ ، ولَكِنْ يَلزَمونَ جهةَ الحِيادِ رَيْثَما تَنْقَشِعُ سَحابةُ الشَّكِّ ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] وهذا حالُ المُنافِقينَ في كلِّ وَقْتٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أنْعَمَ اللهُ تَعالى عَلى الإنْسانِ بِنِعَمٍ كَثيرةٍ مِنْها : السَّمْعُ والبَصَرُ ، والواجِبُ عَلَيْنا المُحافَظَةُ عَلى هاتَيْنِ النِّعْمَتَيْنِ ، وشُكْرُ اللهِ تَعالى عَلَيْهِما .

٢ـ شُكْرُ نِعَمِ اللهِ تَعالى يَكونُ بِسَماعِ الحَقِّ وإبْصارِهِ واتِّباعِهِ .

٣ـ كلُّ ما يَحْدُثُ في هذا الكَوْنِ يَرْجِعُ لِقُدْرَةِ اللهِ تَعالى العَظيمةِ ، فلابُدَّ للإنْسانِ مِنْ أنْ يَخافَ اللهَ ويَتَّقِيَهُ ، ويَتوقّى عَذابَهُ .

٤ـ مِنْ سُنَّةِ اللهِ في الكَوْنِ رَبْطُ الأَسْبابِ بِمُسَبِّباتِها ، ولَكِنَّ هَذهِ الأُمورَ كُلَّها تَعودُ لِمَشيئَةِ اللهِ وإرادَتِهِ ﴿وإنَّما أَمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أنْ يَقولَ لَهُ كُنْ فَيكونُ﴾ .

٥ـ المُنافِقونَ لا يَثْبُتونَ عَلى حالٍ ، فَهُمْ مُذَبْذَبونَ ، يَبْحثونَ عَنْ مَصالِحِهِمْ ، وأيْنَما وَجَدوها اتَّبعوها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

صَيِّبٍ ، الصّواعِقِ ، اسْتَوْقَدَ .

٢ـ لِماذا يَضْرِبُ سُبْحانَهُ وتَعالى الأَمْثالَ في القُرْآنِ الكَريمِ ؟

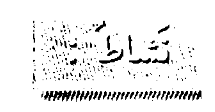
٣ـ ضَرَبَ الله سُبْحانَهُ للمُنافِقينَ مَثَلاً بِمَنِ اسْتَوْقَدَ ناراً ، بَيِّنْ وَجْهَ الشَّبَهِ بَيْنَهُما .

٤ـ قالَ تَعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي أَذَانِهِم﴾ ما الحِكْمَةُ مِنْ ذِكْرِ جَميعِ الأَصابِعِ ؟

٥ـ ضَرَبَ اللهُ تَعالى مَثَلَيْنِ في هذهِ الآياتِ ، مَنِ المَقْصودُ بِكُلِّ مَثَلٍ مِنْها ؟

٦ـ شَبَّهَ اللهُ المُنافِقينَ بِمَنْ يَمْشي عِنْدَ لَمَعانِ البَرْقِ ويَقِفُ بَعْدَ زَوالِهِ ، بَيِّنِ الحِكْمَةَ في ذَلِكَ .

٧ـ ماذا تَفْهَمُ مِنْ قولِهِ تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ وقَوْلُهُ : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ؟



١ ـ لِمَ خَصَّتِ الآياتُ هُنا السَّمْعَ والبَصَرَ بالذِّكْرِ ، ولَمْ تَذْكُرْ غَيْرَها مِنْ مَشاعرِ الإنْسانِ وحَواسِّهِ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ ـ ضَرَب سُبْحانَهُ وتَعالى في كتابِهِ كَثيراً مِنَ الأَمْثالِ ، هاتِ مَثَلَيْنِ غَيْرَ ما جاءَ في الآياتِ مِنْ هذهِ الأَمْثالِ مِنْ خِلالِ آياتِ القُرْآنِ ، شارِحاً لها .

* * *

الدَّرسُ السَّابِعُ

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ الخامِسُ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

فِراشاً : الفِراشُ : ما يَفْتَرِشُهُ الإِنْسانُ لِيَسْتَقِرَّ عَلَيْهِ في الجُلوسِ والنَّوْمِ ، وهكذا جَعَلَ اللهُ الأَرْضَ لِيَسْتَقِرَّ عَلَيْها النّاسُ .

أَنْداداً : الآلِهَةُ الّتي يَعبُدونَها مِنْ دونِ اللهِ ، الّتي جَعَلوها مُساوِيَةً للهِ تَعالى في كُلِّ شَيْءٍ ، وشَريكَةً لَهُ تَعالى .

ادْعوا شُهَداءَكُمْ : اطْلُبوا مِنْ آلِهَتِكُمُ الحُضورَ ، لِيَشْهَدوا مَعَكُمْ عَلى صِدْقِكُمْ .

وَقودها : الوَقودُ : ما يُلْقى في النّارِ لإِضْرامِها وزِيادَةِ لَهيبِها .

الحِجارةُ : الحِجارَةُ مَعروفَةٌ ، ومِنْها الأَصْنامُ الّتي كانوا يَعْبُدونَها مِنْ دونِ اللهِ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ ، صِفاتِ كُلٍّ مِنَ المُؤْمِنينَ ، والكافِرينَ والمُنافِقينَ ، وضَرَبَتِ الأَمْثالَ وبَيَّنَتْ ما يَدُلُّ عَلى وَحْدانِيَّتِهِ تَعالى ، وقُدْرَتِهِ عَلى فِعْلِ الأَشْياءِ والتَّصرُّفِ في الكَوْنِ ، جاءَ

فِي هذهِ الآياتِ خِطابٌ للنَّاسِ جَميعاً ، يُوَجِّهُهُمْ إلى الأَمْرِ الَّذي خُلِقوا مِنْ أَجْلِهِ ، وهُوَ عِبادَةُ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى خَلَقَهُمْ وخَلَقَ الَّذينَ كانوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، والخَلْقُ إيجادُ الأَشْياءِ مِنَ العَدَمِ ، وقَدْ ذَكَّرَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بِرُبوبيَّتِهِ ، وأضافَ اسْمَ الرَّبِّ إلى المُخاطَبينَ (ربَّكُمْ) عَلى عِبادَتِهِ ، فإنَّ الإنْسانَ إذا اتَّجَهَ بِفِكْرِهِ إلى مَعْنى كَوْنِ اللهِ تَعالى مالِكاً لَهُ ، أَوْ مُرَبيّاً لَهُ ، وتَذَكَّرَ ما يَحُفُّهُ بِهِ مِنْ رِفْقٍ ، وما يَجودُ عَلَيْهِ مِنْ إنعامٍ ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يَخُصَّهُ بِأَقْصى ما يَستطيعُ مِنَ الخُضوعِ والخُشوعِ والإجْلالِ . وإفْرادُ اسْمِ الرَّبِّ لِيَدُلَّ عَلى أَنَّ المُرادَ رَبَّ جَميعِ الخَلْقِ وهُوَ اللهُ تَعالى ؛ إِذْ لَيْسَ ثَمَّةَ ربٌّ يَسْتَحِقُّ هذا الاسْمَ بالإفْرادِ والإضافَةِ إلى جَميعِ النّاسِ إلاّ اللهُ .

وقَضِيَّةُ خَلْقِ اللهِ لَهُمْ لا يُنْكِرونَها ، قالَ تَعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [لقمان : ٢٥] قَدْ ذَكَرَ خَلْقَهُمْ قَبْلَ ذِكْرِ خَلْقِ آبائِهِمْ مَعَ أَنَّهُ خَلَقَ آباءَهُمْ أَوَّلاً ، لأنَّ الإنْسانَ يَعْلَمُ أَحْوالَ نَفْسِهِ ، أَكْثَرَ مِنْ عِلْمِهِ بأحْوالِ غَيْرِهِ ، ومَنْ عَبَدَ اللهَ ولَمْ يُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً ، وعَلِمَ أَنَّهُ سُبْحانَهُ هُوَ الَّذي وهَبَهُ الهِدايةَ ومَعْرِفَةَ وسائِلِها لابُدَّ مِنْ وُصولِهِ إلى دَرجةِ المُتَّقينَ ، ولِذا قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ ولعلَّ : حَرْفٌ مَوْضوعٌ لِيَدُلَّ عَلى التَّرجّي ، وهُوَ تَوَقُّعُ حُصولِ الشَّيْءِ عِنْدَ حُصولِ أَسْبابِهِ .

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

ثُمَّ ذَكَرَتِ الآياتُ نِعَماً أَنْعَمَ اللهُ بها على النّاسِ ، لِتَكونَ دَليلاً على أَنَّهُ وَحْدَهُ يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ ، فَهُوَ الَّذي اسْتَحَقَّ العُبودِيَّةَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى الّذي مَهَّدَ لَكُمْ هذهِ الأَرْضَ وجَعَلَها صالِحَةً للاسْتِقْرارِ عَلَيْها ، والانْتِفاعِ بِما أَوْدَعَهُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى في بَواطِنِها مِنَ الخَيْراتِ الوَفيرةِ .

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى كَوَّنَ السَّماءَ بِنِظامٍ مُتَماسِكٍ مِثْلَ البناءِ ، وسَوّى أَجْرامَها على ما نُشاهِدُ ، وأَمْسَكَها بِسُنَّةِ الجاذِبيَّةِ ، حَتَّى لا تَقَعَ على الأَرْضِ ، ولا يَصْطَدِمَ بَعْضُها بِبَعْضٍ ، وقدْ عَبَّرَ هُنا بالبناءِ ، فَهُوَ لا شَكَّ يَخْتَلِفُ عَنِ البُنْيانِ في الأَرْضِ ، إذِ النَّاسُ في الأَرْضِ يَحتاجونَ لأَساساتٍ وأَعْمِدَةٍ يَقومُ عَلَيْها بُنيانُهُمْ ، أمَّا في السَّماءِ فَلَيْسَ الأَمْرُ كَذلِكَ .

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ فَمِنْ رَحْمَتِهِ سُبْحانَهُ وقُدْرَتِهِ أَنْ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ المَطَرَ الّذي يُسْقى بِهِ الزَّرْعُ ، فَأَخْرَجَ بِسَبَبِ الماءِ النّازِلِ سُبْحانَهُ رِزْقاً للنّاسِ لِيَنْتَفِعوا بِهِ هُمْ ودَوابُّهُمْ ، مَعَ أَنَّهُ تَعالى قادِرٌ على إنْشاءِ الثَّمَرِ أَوِ الزَّرْعِ مِنْ دونِ سَبَبٍ .

وإذا كانَ سُبْحانَهُ هُوَ الّذي أنْعَمَ عَلَيْكُمْ بما ذَكَرَ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فلا تَجْعَلوا لَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى أَمْثالاً ونُظَراءَ تَعبُدونَهُمْ وتُسَمّونَهُمْ آلِهَةً ، وَتَعْتَقِدونَ فيهِمُ النَّفْعَ والضُّرَّ ، وتَجْعَلونَ لَهُمْ ما هُوَ للهِ وَحْدَهُ ، والحالُ أنَّكُمْ أيُّها النّاسُ تَعْلَمونَ أنَّ هذهِ المَعْبوداتِ لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ ، ولا يُمْكِنُ أنْ تَخْلُقَ إنْساناً أوْ أرْضاً أو سماءً ، فلا يُمْكِنْ إذَنْ أنْ تَكونَ مُساوِيَةً للهِ تَعالى .

وبعدَ أنْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ الأَدِلَّةَ على وَحْدانِيَّتِهِ تَعالى ، ذَكَرَ بَعْضَ الأَدِلَّةِ عَلى صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ فيما يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وعلى أنَّ هَذا القُرْآنَ إنّما هُوَ كَلامُ اللهِ تَعالى ، الّذي لا يَستطيعُهُ أَحَدٌ ؛ ولِذا جاءَتِ الآياتُ تَتحدّاهُمْ بِهذا الكِتابِ ، الّذي يَدْعو إليهِ النَّبيُّ ﷺ . يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ .

وقَدْ عَرَفْتَ مَعنى الرَّيْبِ ، فَهُوَ شَكٌّ مَعَ قَلَقٍ واضْطِرابٍ . وعَبَّرَ القُرْآنُ هُنا بـ(إنْ) الّتي تُفيدُ الشَّكَّ ، لِيُبَيِّنَ سُبْحانَهُ بأنَّ مِنْ شَأْنِ هذا التَّنزيلِ أنْ لا يُرْتابَ فيهِ ، لأنَّ الحَقَّ فيهِ ظاهِرٌ بذاتِهِ ، يَتلأْلأُ نورُهُ في كُلِّ آيةٍ مِنْ آياتِهِ ، فاللهُ يَطْلُبُ مِنْهُمْ : إنِ ارْتَبْتُمْ أيُّها المُشْرِكونَ في شَأْنِ هذا القُرْآنِ الّذي أنْزَلَهُ اللهُ على عَبْدِهِ مُحمّدٍ ﷺ ، فحاوِلوا أنْ تَأْتوا بسورةٍ تُشْبِهُ السّورَةَ القُرْآنِيَّةَ مِنْ أيِّ وَجْهٍ مِنَ الوُجوهِ ، وأَحْضِروا مَنْ يُعينُكُمْ على هذا الأمْرِ مِنَ الإنْسِ .

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أيْ : في زَعْمِكُمْ أنَّكُمْ تَستطيعونَ الإتْيانَ بمثلِ القُرْآنِ الكَريمِ ، فَأْتوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، فَجوابُ الشَّرْطِ هُنا مَحْذوفٌ ، مَفْهومٌ مِنَ الجُمْلَةِ السّابِقَةِ .

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ .

تُهدِّدُهُمُ الآياتُ القُرْآنِيَّةُ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ فإنْ لَمْ تَأْتوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، ولَنْ تَسْتَطيعوا فِعْلَ ذلكَ ؛ لأنَّ هذا لَيْسَ في طاقةِ المَخْلوقينَ ، فاتَّقوا النّارَ الّتي أُعِدَّتْ لأَمْثالِكُمْ مِنَ الكافِرينَ ، الّذين يَجْحَدونَ الحَقَّ بَعْدَ البُرْهانِ السّاطِعِ ، وقَوْلُهُ : ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ جاءَتْ بَيْنَ الشَّرْطِ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ وَجَوابِهِ ﴿فَاتَّقُوا﴾ وجاءَتْ هُنا لأنَّ فيها ما فيها مِنْ تَقْوِيَةِ الدَّليلِ ، وتَقْريرِ عَجْزِ أُولئكَ المُشْرِكينَ ، ولإثارَةِ حَمِيَّتِهِمْ بأنْ يُحاوِلوا الإتْيانَ بِمِثْلِ القُرْآنِ ومُعارَضَتِهِ ، وَمَع ذلكَ فإنَّ مُحاولاتِهِمْ سَتبوءُ بالفَشَلِ .

فاتَّقوا أيُّها المُشْرِكونَ النّارَ الّتي أَعَدَّها اللهُ تَعالى يَوْمَ القِيامَةِ ، لِمَنْ أَنْكَرَ القُرْآنَ ، أوْ أنْكَرَ نُبوَّةَ الرَّسولِ ﷺ ، وهذهِ النّارُ تَزيدُ اتِّقاداً بِما يُلْقى فيها مِنَ النّاسِ والحِجارَةِ ، وهذهِ النّارُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرينَ الّذين لا يُجيبونَ دَعْوَةَ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أنْ يَقيَنا نارَ جهنَّمَ ، وأَنْ يَجْعَلَنا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وأَنْ يَوفِّقَنا للتَّقْوى ، إنَّهُ سَميعٌ قَريبٌ مُجيبُ الدُّعاءِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ شُكْرُ المُنْعِمِ دائِماً عَلى نِعَمِهِ الّتي أنْعَمَها عَلى الخَلْقِ ، ومِنْها نِعْمَةُ خَلْقِ الإنْسانِ بِأَحْسنِ صورةٍ ، وخَلْقِ السّماواتِ والأَرْضِ ، وجَعْلِها مُهَيَّأَةً لِلْعَيْشِ عَلَيْها ، والشُّكْرُ لا يَكونَ إلاّ بِتَوْجيهِ العِبادَةِ الحَقَّةِ للخالِقِ وحْدَهُ سُبْحانَهَ وتَعالى .

٢ـ القُرْآنُ الكَريمُ كِتابٌ مُعْجِزٌ أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالى عَلى نَبيِّهِ ﷺ ، فلا بُدَّ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يُوقِنَ بِهذا ، وقَدْ عَجزَ العَرَبُ عَنْ مُعارَضَتِهِ والإتْيانِ بِمِثْلِهِ .

٣ـ الإنْسانُ مُطالَبٌ بأَنْ يُبْعِدَ نَفْسَهُ عَنِ الأذى ، وَيقيَها مِنْ نارِ جَهَنَّمَ الّتي يَزيدُ اتِّقادُها بالحِجارَةِ والنّاسِ البعَيدينَ عَنِ اللهِ تَعالى وعَنْ شَرْعِ اللهِ تَعالى .

٤ـ لابُدّ مِنْ عِبادَةِ اللهِ تَعالى ، والعَمَلِ بِما جاءَ في القُرْآنِ الكَريم ، والاعْتِقادِ الجازِمِ بِكُلِّ ما أَخْبَرَ عنهُ القُرْآنُ مِنْ إثباتٍ لِوَحْدانيّةِ اللهِ ، ونُبوَّةِ الرَّسولِ ﷺ ، وإثْباتٍ لِلْبَعْثِ وغَيْرِ ذلِكَ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ يُفْقَهُ مِنْ بَعْضِ آياتِ الدَّرْسِ بَعْضُ الأُمورِ الّتي توجِبُ اسْتِحْقاقَ اللهِ تَعالى وحْدَهُ لِلْعِبادَةِ ، اذْكُرْها مَعَ الدَّليلِ مِنَ الآياتِ .

٢ـ هَلْ كانَ العَرَبُ السّابِقونَ يُنْكِرونَ أنَّ اللهَ تَعالى هُوَ خالِقُهُمْ ؟ وضِّحْ ذَلِكَ .

٣ـ ما مَعنى كَلِمَةِ رَيْبٍ ؟ وما الفَرْقُ بَيْنَها وبَيْنَ كَلِمَةِ شَكٍّ ؟

٤ـ مَنْ هُمُ الشُّهَداءُ في قَوْلِهِ ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ ؟ ولِماذا أَمَرَهُمْ بِدَعْوَتِهِمْ ؟

٥ـ ما فائِدَةُ قَوْلِهِ : ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ ؟

٦ـ ماذا تَفْهَمُ مِنْ قولِهِ تَعالى :

أ ـ ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ للهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

ب ـ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقودُهَا ٱلنَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ يُفْقَهُ مِنْ بَعْضِ الآياتِ أنَّ الأَرْضَ كُرَويّةُ الشَّكْلِ ، وهُنا تُصَوِّرُ الآياتُ الأَرْضَ بِصورَةِ الفِراشِ ، فَهَلْ يَتنافى هَذا مَعَ كَوْنها كُرَوِيَّةً ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ارْجِعْ إلى كِتابٍ مِنْ كُتُبِ عُلومِ القُرْآنِ ، وتَعَرَّفْ مَراحِلَ التَّحدّي لِلإِتْيانِ بِمِثْلِ هذا القُرْآنِ ، لإثباتِ عَجْزِ النّاسِ عَنْ ذَلِكَ . اكْتُبْ هذِهِ المَراحِلَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّامِنُ

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ السَّادِسُ

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

مَعاني المُفْرَدات

بَشِّرْ	البِشارَةُ الخَبَرُ السّارُّ ، وسُمِّيَتْ كَذلِكَ لأنَّ أثَرَها يَظْهَرُ عَلى البَشَرَةِ .
مُتَشابِهاً	أيْ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضاً في الصّورَةِ والرّائِحَةِ ، ويَخْتَلِفُ في اللَّذَّةِ والطَّعْمِ .
إنَّ اللهَ لا يَسْتَحيي	الحياءُ صِفَةٌ مِنْ صِفاتِ الباري تَبارَكَ وتَعالى ، وهُوَ حَياءٌ لا يُشْبِهُ حياءَ المَخْلوقينَ ، فَهُوَ كَعِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ وحَياتِهِ .
الفاسِقينَ	الفِسْقُ هُوَ الخُروجُ عَنْ هِدايَةِ اللهِ تَعالى .
يَنْقُضونَ	النَّقْضُ هُوَ فَسْخُ ما وُصِلَ ، وحَلُّهُ .
عَهْدَ اللهِ	يُقالُ عَهِدَ إلَيْهِ ، أيْ أوْصاهُ بِهِ بِما يَلْزَمُ مُراعاتُهُ وحِفْظُهُ .
ميثاقِهِ	ميثاقُ اللهِ ، وهُوَ التَّقْوِيَةُ والتَّثْبيتُ ، والمُرادُ بِهِ ما قَوَّى اللهُ بِهِ عَهْدَهُ .



﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

بَعْدَ أنْ بَيَّنَتِ الآياتُ السّابِقَةُ ما أَعَدَّهُ اللهُ تَعالى لِلْكافِرينَ ، وهذا مِنْ بابِ التَّرْهيبِ ، كانَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ أنْ يُبيِّنَ ما أعَدَّهُ لِفريقِ المُؤْمِنينَ ، تَرْغيباً للنّاسِ في أنْ يَكونوا مِنْهُمْ ، فَتُخاطِبُ الآياتُ النَّبيَّ ﷺ وكُلَّ مَنْ آمَنَ بِهذا الكِتابِ أنْ يُبَشِّرَ الّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ بالجَنّاتِ . ولَكِنْ آمَنوا بِماذا ؟ آمَنوا باللهِ تَعالى وبِكتابِهِ ورَسولِهِ ﷺ .

﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أيْ : الأفْعالَ الحَسَنَةَ ، وقَدْ فَصَّلَتْ آياتٌ كَثيرَةٌ تِلْكَ الأَعْمالَ الصّالِحَةَ ، قالَ تَعالى : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

هَؤلاءِ الّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ جَنّاتٍ يَوْمَ القِيامَةِ خالدينَ فيها ، وهَذِهِ الجَنّاتُ العَظيمَةُ ، تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ؛ وذلكَ لأنَّ حَياتَها بالماءِ الّذي يَزيدُها جَمالاً وبَهْجَةً . ومِنْ شَأْنِ أَهْلِ تِلْكَ الجَنّاتِ أَنَّهُمْ : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ﴾ (مِنْ) الأُولى ابْتدائيّةٌ ، و(مِنْ) الثّانيَةُ تَبَعيّةٌ ، أيْ : كُلَّما رُزِقوا مِنَ الجَنّاتِ رِزْقاً مِنْ بَعْضِ ثمارِها قالوا : هَذا الّذي رُزِقْنا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، والمَقْصودُ أنَّ ثِمارَ الآخِرَةِ تُشْبِهُ ثِمارَ الدُّنْيا ، ولَكِنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَذوَّقوهُ يَعْرِفونَ الفَرْقَ بَيْنَهُما ، فإنَّ هُناكَ فَرْقاً عَظيماً بَيْنَ لَذَّةِ رِزْقِ الدُّنْيا ، ولَذَّةِ رِزْقِ الآخِرَةِ .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ الأَزْواجُ جَمْعُ زَوْجٍ ، والمَقْصودُ هُنا المَرْأَةُ ، أيْ : إنَّ لِهؤلاءِ المُؤْمِنينَ نساءً خُلِقْنَ لَهُمْ ، مُطهَّراتٍ غايَةَ التَّطهيرِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ حِسِّيٍّ أوْ مَعْنويٍّ ، وهُنَّ المَعْروفاتُ بالحُورِ العينِ ، وهَكَذا فَالمُؤْمِنُ في الجَنَّةِ مُنَعَّمٌ هادِىءُ البالِ ، يَتَمتَّعُ باللَّذاتِ ، الّتي مِنْها مُصاحَبَةُ الأَزْواجِ ، والخُلودُ هُوَ المُكْثُ الأَبَدِيُّ . ثُمَّ قالَ تَعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

والحياءُ انْكِسارٌ وتَغيُّرٌ في النَّفْسِ يُلِمُّ بها إذا نُسِبَ أوْ عَرَضَ لها فِعْلٌ تَعْتَقِدُ قُبْحَهُ ، مَنَعَها مِنْ فِعْلِهِ ، وهذا في حَقِّ البَشَرِ ، أمّا بالنِّسْبَةِ للهِ ، فَهُوَ سُبْحانَه لَهُ حياءٌ يَخصُّهُ لا يُشْبِهُ حَياءَ المَخْلوقينَ بحالٍ .

يَضْرِبُ اللهُ تَعالى الأَمْثالَ ، ويُبيِّنُ سُبْحانَهُ بأَنَّ صِفَةَ الحَياءِ لَيْسَتْ بمانِعَةٍ لَهُ سُبْحانَهُ مِنْ ضَرْبِ الأَمْثالِ بِهذهِ المَخْلوقاتِ ، فاللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يَضْرِبُ المَثَلَ بما هُوَ غايةٌ في الصِّغَرِ وهُوَ البَعوضُ ، إذْ إنَّ في هذهِ المَخْلوقاتِ مِنْ دَلائِلِ القُدْرَةِ ، وبَديعِ الصَّنْعةِ مالا تَسْتَطيعُهُ العُقولُ البَشَريَّةُ ، وفيها كذلِكَ ما يَشْهَدُ بِحِكْمَةِ اللهِ تَعالى .

و(ما) في قولِهِ : (مثلاً ما) هِيَ (ما) الإبْهاميّةُ ، تَجيءُ بعدَ النَّكِرَةِ ، فَتَدُلُّ على العُمومِ ، تقولُ مَثَلاً : أعْطِني كِتاباً ما ، بمعنى : أيَّ كِتابٍ كانَ ، دونَ تَحديدٍ لاسْمٍ مُعَيَّنٍ أوْ مُؤَلِّفٍ مُعَيَّنٍ ، وقولُهُ : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ أي : في الحَقارَةِ والصِّغَرِ ، مِثْلَ الميكروباتِ والفَيْروساتِ الّتي لا تُرى بالعَيْنِ المجرَّدَةِ .

ويُبيِّنُ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ النّاسَ أمامَ هذهِ الأَمْثالِ فَريقانِ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ لأنَّ هذا لَيْسَ نَقْصاً ، فَهُوَ حَقٌّ لأَنَّهُ جاءَ مُبيِّناً لِلْحَقِّ مُقرِّراً لهُ ، وَقَدْ جاءَ الخَبَرُ مُعرَّفاً بأَلْ (أنَّهُ الحَقُّ) للدَّلالَةِ عَلى أنَّ المُخْبَرَ عَنْهُ بَلَغَ في الوَصْفِ مَرْتَبَةَ الكَمالِ ، فهوَ حَقٌّ لا مِرْيَةَ فيهِ ، ولا تَشوبُهُ شُبْهَةُ باطِلٍ أبَداً ، فَهؤلاءِ الّذينَ آمَنوا يَعْلمونَ أنَّ ما ضَرَبَهُ اللهُ تَعالى مِنَ المَثَلِ هُوَ الحَقُّ ، وذَكَرَ هُنا كَلِمَةَ (يَعْلَمونَ) لِيُعَرِّضَ بالمُشْركينَ بأَنَّهُمْ قالوا ما قالوهُ عِناداً ومُكابَرةً وجَهْلاً ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ فَيُجادِلونَ في الحَقِّ بَعْدَما تَبيَّنَ لَهُمْ ، ويُعْرِضونَ عَنِ الحُجَجِ الواضِحَةِ ، ويَحْتَجّونَ بِحُجَجٍ واهِيَةٍ ، ويَتساءَلونَ : ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ وهَذا اسْتِفْهامٌ يُفيدُ الإنْكارَ والتَّحقيرَ لهذهِ الأَمْثالِ ، ولأنْ يكونَ سُبْحانَهُ وتَعالى قد ضَرَبَ مِثْلَ هذِهِ الأَمْثالِ للناسِ ، وهَذا كُلُّهُ يَدُلُّ على انْطِماسِ بَصيرَتِهِمْ وعِنادِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ .

ثُمَّ تَذْكُرُ الآياتُ الحِكْمَةَ مِنْ ضَرْبِ الأَمْثالِ فَيقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يُضِلُّ بالمَثَلِ المَضْروبِ ، الّذينَ يَجْعَلونَ المَثَلَ شُبْهَةً على الإنْكارِ والرَّيْبِ ، ويَهْدي بِهِ أُولئِكَ الَّذينَ يُؤْمِنونَ ويُقَدِّرونَ الأَشْياءَ بغاياتِها ، ويَحْكُمونَ على الأُمورِ بِحَسَبِ فَوائِدِها ، قالَ تَعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

وخُتِمَتِ الآيةُ ببيانِ العِلَّةِ لِما وَصَلَ إليهِ أُولئِكَ الكافِرونَ ، فقالَ سُبْحانَهُ : ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فهذِهِ هِيَ عِلَّةُ الضَّلالِ ؛ إنّها الخُروجُ عَنْ نَهْجِ اللهِ ، وعَنْ طَريقِهِ ، فَهُمْ في كُفْرِهِمْ صَرَفوا أنْظارَهُمْ عَنْ التَّدَبُّرِ في المَثَلِ وقالوا : ماذا أرادَ اللهُ بهذا مَثَلاً .

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

وتَصِفُ الآياتُ القُرْآنِيَّةُ أُولئِكَ الفاسِقينَ بِصفاتٍ عِدَّةٍ ، مِنْها :

١ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ وعَهْدُ اللهِ تَعالى هُوَ ما أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَدْ مَنَحَهُمُ اللهُ تَعالى ما يَفْهَمونَ بِهِ سُنَّتَهُ ، وأعْطاهُمُ العَقْلَ والحَواسَّ ، الّتي تَدلُّهُمْ على خالِقِهِمْ . ونَقْضُ هذا العَهْدِ يَكونُ بِعَدَمِ اسْتِعْمالِ ما أعْطاهُمُ اسْتِعْمالاً صَحيحاً ، حتّى كَأَنَّهُمْ فَقَدوها ، ويَتفرَّعُ عَنْ هذا العَهْدِ الإلهِيِّ ، عَهْدٌ آخَرُ أَخَذَهُ اللهُ تَعالى على النّاسِ ، وهو مَرْكوزٌ في فِطَرِهِمْ ، إذْ إنَّ الفِطْرَةَ تَدلُّهُمْ على وُجودِ الخالِقِ سُبْحانَهُ ، فإذا خالَفوا هذهِ الفِطْرَةَ ، فَقَدْ نَقَضوا عَهْدَ اللهِ .

٢ـ ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ والتَّعبيرُ بالقَطْعِ أبْلَغُ مِنَ التَّعبيرِ بالنَّقْضِ ، ولِذلكَ جاءَ بَعْدَهُ مُتَمِّماً لَهُ ، وكأنَّ حَبْلَ اللهِ مُحْكَمٌ مُوَثَّقٌ ، فَهؤلاءِ الكافِرونَ لَمْ يَكْتَفوا بنَقْضِ العَهْدِ ، ولكنَّهُمْ قَطَعوهُ ، وأفْسَدوا بِذلكَ نِظامَ الفِطْرَةِ ونظامَ الهِدايَةِ الدّينيةِ ، ويَشْمَلُ هذا كُلَّ قَطْعٍ ، وذَلِكَ مِثْلُ الإعْراضِ عَنْ دينِ اللهِ ، وقَطْعِ الرَّحِمِ ، والإعْراضِ عَنْ مُوالاةِ المُؤْمِنينَ .

٣ـ ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأيُّ إفسادٍ أكْبرُ مِنْ إفْسادِ مَنْ أَهْمَلَ هِدايَةَ العَقْلِ وهِدايَةَ الدّينِ ، وعَبَدَ غَيْرَ اللهِ تَعالى ، واعْتَدى على حُقوقِ اللهِ ، وعلى حُقوقِ النّاسِ .

ولِذلِكَ كانَتِ النَّتيجَةُ لِهؤلاءِ الخُسْرانُ المُبينُ ، أي : الخِزْيُ في الدُّنْيا ، والعَذابُ في الآخِرَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ يَنْبَغي عَلى الإنْسانِ أَنْ يُحْسِنَ صِلَتَهُ باللهِ تَعالى ، وأنْ يُقْبِلَ عَلى اللهِ تَعالى دائِماً ، في الرَّخاءِ والشِّدَّةِ ، لِيَنْعَمَ بِما أَعَدَّهُ اللهُ لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ جَنّاتٍ .

٢ـ كُلُّ ما يُخْبِرُ عَنْهُ سُبْحانَهُ ، لَيْسَ فيهِ أَيُّ مَجالٍ لِلشَّكِّ أوِ الرَّيْبِ أوِ المُجادَلَةِ والمُناقَشَةِ ، فلابُدَّ وأنْ يَعتقِدَ الإنْسانُ بما يُخْبِرُ بِهِ سُبْحانَهُ ، وبما يَفْعَلُهُ سُبْحانَهُ .

٣ـ الفِطْرَةُ والعَقْلُ كِلاهُما يَدُلُّ عَلى الخالِقِ سُبْحانَهُ ، فلا يَجوزُ للإنسانِ أنْ يَطْمِسَ عَلى هَذهِ الفِطْرَةِ ، ولابُدَّ لَهُ مِنْ الامْتِثالِ لأَوامِرِ اللهِ تَعالى .

٤ـ الإنْسانُ البَعيدُ عَنِ اللهِ تَعالى خاسِرٌ في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

التَّقويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بِماذا بَشَّرَتِ الآياتُ الكَريمَةُ المُؤْمِنينَ الَّذينَ يَعْمَلونَ الصّالِحاتِ ؟

٢ـ ما مَعنى : مُتشابِهاً ، وأزواجٌ مُطَهَّرَةٌ ؟

٣ـ ما مَعْنى : الاسْتِحْياءِ ؟ وما المَقْصودُ بِهِ هُنا في الآياتِ ؟

٤ـ ما مَوْقِفُ كُلٍّ مِنَ المُؤْمِنينَ والكافِرينَ مِنْ ضَرْبِ الأَمْثالِ ؟

٥ـ ذَكَرَتِ الآياتُ للفاسِقينَ بَعْضَ الصِّفاتِ . ما تِلْكَ الصِّفاتُ ؟ وما دَليلُ كُلِّ صِفَةٍ ؟

٦ـ قال تَعالى : ﴿مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ .

أ ـ لِمَ جاءَتْ كَلِمةُ (ما) هنا ؟

ب ـ وما مَعْنى : فما فَوْقَها ؟

٧ـ ما النَّتيجةُ الّتي أعَدَّها اللهُ لِلفاسِقينَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ بَيِّنْ مَعْنى الفُسوقِ لُغَةً واصْطِلاحاً مُسْتَعيناً بالمعاجِمِ ، واكْتُبْ ذلكَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ذَكَرَتْ سورَةُ الفُرْقانِ في آخِرِها ، وسورةُ المعارِجِ في أوَّلِها بَعْضَ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ الّتي يَنْبَغي عَلى المُؤْمِنينَ القِيامُ بها ، ارْجِعْ إلى هذهِ الآياتِ واتْلُها ، واسْتَخْرِجْ مِنْها تلكَ الأَعْمالَ .

* * *

الدَّرسُ التَّاسِعُ

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ السّابعُ

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

اسْتَوى إلى السَّماءِ : عَلا وارْتَفَعَ مِنْ غَيرِ تَحديدٍ ولا تَكييفٍ ولا تَشْبيهٍ .

يُفْسِدُ : الفسادُ : الخُروجُ عَنِ الاعْتِدالِ والاسْتِقامَةِ .

يَسْفِكُ : السَّفْكُ : الصَّبُّ والإهْراقُ .

نُقَدِّسُ : التَّقْديسُ : التَّطْهيرُ والتَّعظيمُ .

التَّفسيرُ :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

بَعْدَ أَنْ تَحدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنِ الفاسِقينَ ، الّذينَ يُضِلّونَ عَنْ الحقِّ ، وَوَصَفَتْهُمْ بِنَقْضِ العَهْدِ الإلهيِّ ، وقَطْعِ ما أَمَرَ بِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنْ يوصَلَ ، جاءَ هذا الاسْتِفْهامُ التَّعجُبيُّ عَنْ صِفَةِ كُفْرِهِمْ فقالَ : كَيْفَ تَكفرونَ باللهِ والحالُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ مَعدومينَ ـ أيْ : في العَدَمِ ـ فَخَلَقَكُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وأَخْرَجَكُمْ إلى الوُجودِ ، ثُمَّ هُوَ سُبْحانَهُ يُميتُكُمْ ، وذَلِكَ بأَنْ يَقْبِضَ أَرْواحَكُمْ عِنْدما تَحينُ آجالُكُمْ ،

ثُمَّ يُحْييكُمْ ، وذَلِكَ بِأَنْ يَبْعَثَكُمْ بَعْدَ المَوْتِ ، وبَعْدَ ذَلِكَ تَرْجِعونَ إِلَيْهِ سُبْحانَهُ وتَعالى وحْدَهُ ، ولَيْسَ إلى أحَدٍ غَيْرِهِ ، وفي هذا تَرْهيبٌ لِكُلِّ مَنْ يَرتَكِبُ المعاصي ، بِأَنَّهُ سَيَرْجِعُ إليهِ وَحْدَهُ سُبْحانَهُ وسَيُحاسِبُهُ عَلى ما فَعَلَ ، وفيهِ تَرغيبٌ كَذلِكَ للإقْبالِ عَلى الخَيْرِ وفِعْلِ الطّاعاتِ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

وفي ذَلِكَ الّذي ذَكَرَتْهُ الآياتُ دَليلٌ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى ، فالَّذي قَدِرَ عَلى إحْيائِهِمْ مِنَ العَدَمِ قادِرٌ عَلى إحْيائِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ . ومِنَ الأَدِلَّةِ الكَوْنيَّةِ الّتي تَشْهَدُ بِوَحْدانِيَّةِ اللهِ وقُدْرَتِهِ ، أنَّهُ هُوَ الّذي خَلَقَ جَميعَ ما في الأرْضِ مِنْ حيوانٍ ونَباتٍ وجِبالٍ ومَعادِنَ ، مِنْ أجْلِ الإنْسانِ وراحَتِهِ ، لِكَيْ يَنْتَفِعَ بها في دُنْياهُ ، ويَسْتَعينَ بها عَلى طاعةِ اللهِ تَعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي : علا إليْها وارْتَفَعْ مِنْ غَيْرِ تَكييفٍ ولا تَحْديدٍ ولا تَشْبيهٍ . وقَدْ سُئِلَ الإمامُ مالِكٌ عَنِ الاسْتِواءِ عَلى العَرْشِ ، فقالَ : الاسْتواءُ غَيْرُ مَجهولٍ ، والكَيْفُ غَيْرُ مَعقولٍ ، والإيمانُ بهِ واجِبٌ ، والسُّؤالُ عنهُ بِدعَةٌ . وهذهِ الأُمورُ كُلُّها مِنْ خَلْقٍ للأَرْضِ وإبْداعٍ للسّماواتِ إنَّما صَدَرَ عَنْ عالِمٍ بِحَقائقِ تلكَ الأُمورِ ، وهُوَ مُحيطٌ بِكُلِ شَيْءٍ عِلْماً .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

وَبَعْدَ أنْ ذَكَّرَتِ الآياتُ بِتلكَ النِّعَمِ العَظيمَةِ الّتي أنْعَمَها اللهُ تَعالى عَلى الإنْسانِ ، مِنْ خَلْقِ الأَرْضِ وجَعْلِها مُهَيَّأةً للإنْسانِ ، وخَلْقِ السّماواتِ السَّبْعِ ، تُذَكِّرُ الآياتُ بِنِعْمَةٍ أُخْرى عَظيمةٍ ، تَخُصُّ أُولئِكَ النّاسَ ، وهي قَضيَّةُ خَلْقِ أَبيهِمْ آدمَ عليْهِ السَّلامُ ، وما أنْعَمَ اللهُ تَعالى بِهِ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةِ العِلْمِ ، والمسْكَنِ ، والزَوْجِ الّتي يَسْكُنُ إليْها . تقولُ الآياتُ الكَريمةُ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ وإذْ ظَرْفٌ لِما مَضى مِنَ الزَّمانِ ، واقِعَةٌ في مَحلِّ نَصْبِ مَفْعولٍ بِهِ مَحْذوفٍ ، وتَقديرُ الكَلام : واذْكُرْ يا مُحَمَّدُ ، أو يا مَنْ تقرأُ آياتِ اللهِ وتَمُرُّ عَلَيْها ، وقْتَ أنْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنّي جاعِلٌ في الأَرْضِ خَليفةً . والملائِكَةُ هُمْ جُنْدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعالى ، فَطَرَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى الطّاعَةِ ، ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ وأعْطاهُمُ القُدْرَةَ عَلى التَّشَكُّلِ بأشْكالٍ عَظيمةٍ ، وعلى القِيامِ بأُمورٍ شاقَّةٍ . والخَليفَةُ هو الّذي يَنوبُ عَنْ غَيْرِهِ ، والمَقْصودُ بهِ آدمُ عليهِ الصّلاةُ والسَّلامُ ، الّذي جَعَلَهُ اللهُ خَليفةً في الأَرْضِ ، كَذلِكَ الأنبياءُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ وسائِرُ البَشَرِ لِيَقوموا بِعِمارَةِ الأرْضِ ، ويَحْكُموا النّاسَ بالحَقِّ ويُقيموا العَدْلَ عَلى الأرضِ ، ويُخْرِجوا النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ .

وتُدْهَشُ الملائكَةُ لِهذا الأَمْرِ الّذي أرادَهُ اللهُ تَعالى ، وتَتعجَّبُ منهُ ، فَكَيْفَ يَجْعَلُ اللهُ تَعالى هذا الإنْسانَ خَليفةً ، ومِنْ صفاتِهِ أنَّهُ يُفْسِدُ في الأَرْضِ ، ويَسْفِكُ الدِّماءَ ؛ ولِذا قالوا للهِ تَعالى : ﴿ قَالُوٓا۟

﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ أيْ : أَتجْعَلُ يا إلهَنا مَنْ يُفْسِدُ في هذهِ الأَرْضِ ويُريقُ الدِّماءَ فيها ، والحالُ أنَّنا نُنَزِّهُكَ عمّا لا يَليقُ بعَظَمَتِكَ ، ونَنْشَغِلُ دائماً بِتَسْبيحِكَ وتَمْجيدِكَ وحَمْدِكَ ، ونُطَهِّرُ ذِكْرَكَ عمّا لا يَليقُ ، تَعظيماً لَكَ وتَمْجيداً يا ربُّ . وقدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أيْ : أَعْلَمُ بالمَصْلَحَةِ الّتي لأَجْلِها جعَلْتُ آدَمَ وذُرِّيَّتَهُ خَليفةً في هذهِ الأَرْضِ . كَيْفَ عَرَفَتِ الملائِكَةُ أنَّ هذا الإنْسانَ سَيكونُ منهُ إفْسادٌ وسَفْكُ دِماءٍ ؟ إنّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى هَوَ الّذي أخْبَرَهُمْ بذلكَ ، فقدْ يكونُ سُبْحانَهُ وتَعالى قالَ لَهُمْ : سَأَجْعَلُ في الأَرْضِ خَليفةً يُقيمُ شَريعَتي ، ويَحْكُمُ بِأَمْري ، ولَكِنْ سَيكونُ منهُ إفْسادٌ في الأَرْضِ وسَفْكُ دِماءٍ ، ولَكِنْ بما أنَّ القُرْآنَ الكَريمَ مَبنِيٌّ عَلى الإيجازِ فَقدْ حُذِفَتْ هذهِ الجُمَلُ هُنا ، وفَهِمْناها مِمّا قالَتْهُ الملائِكَةُ .

ولكنْ كَيْفَ تَسأَلُ الملائِكَةُ وتُراجِعُ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى ؟ إنّ هذا الحِوارَ الّذي ذَكَرَتْهُ الآياتُ بَيْنَ اللهِ وملائِكَتِهِ ولا نُدرِكُ الحَقيقةَ منهُ ، ونُفَوِّضُ أمْرَهُ إلى اللهِ تَعالى في بيانِ المُرادِ مِنْ كَلامِهِ وإخْبارِهِ للملائِكَةِ بأَنّهُ سَيَجْعَلُ في الأَرْضِ خَليفَةً ، ولَيْسَ مِنْ بابِ اسْتِشارَةِ الملائِكَةِ ، فإنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ في هذهِ العِباراتِ بَعْضُ الفَوائِدِ ، ومِنْها :

١ـ بيانُ أنَّ الإنْسانَ لا يُمْكِنُهُ مَعرِفَةُ جَميعِ أسْرارِ الخَليقَةِ ، فالمَلائِكَةُ ، وهُمْ أَوْلى مِنّا بِعِلْمِها قَدْ عَجِزوا عَنْ ذَلِكَ .

٢ـ أنّ اللهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ ، رَضِيَ لِخَلْقِهِ أنْ يَسْأَلوهُ عَنْ أسرارِهِ في الخَليقَةِ ، وذَلِكَ بأَنْ يُعَرِّفَهُمْ بِعِلْمِ ما أُشْكِلَ عَلَيْهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ نِعَمُ اللهِ تَعالى كَثيرةٌ عَظيمةٌ ، وهذهِ لابُدَّ وأَنْ تُقابَلَ بالشُّكْرِ العَظيمِ للهِ ، وشُكْرُهُ تَعالى إنّما يَكونُ بالتَّوَجُّهِ إليهِ وحْدَهُ بالعِبادَةِ .

٢ـ أباحَ لَنا سُبْحانَهُ وتَعالى الانْتِفاعَ بِكُلِّ ما خُلِقَ في الأَرْضِ ، فَلَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يُحَرِّمَ ما أَحَلَّهُ اللهُ تَعالى لَنا .

٣ـ إنَّ هذا النِّظامَ المُحْكَمَ في الأَرْضِ والسَّماواتِ لَيْسَ إلاّ مِنَ لَدُنْ حَكيمٍ عَليمٍ .

٤ـ لابُدَّ مِنَ التَّأَدُّبِ مَعَ اللهِ تَعالى ، وَعَدَم تَجاوُزِ حُدودِ اللَّياقَةِ مَعَهُ ، بِأَنْ نَلتزِمَ بِكُلِّ ما أَمَرَنا بِهِ سُبْحانَهُ ، دونَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ حِكْمَةِ ما أَمَرَ بِهِ أَوْ ما سَيَفْعَلُهُ ، فلابُدَّ للإنْسانِ مِنْ أَنْ يُسَلِّمَ بِقَدَرِ اللهِ ، ويَمْتَثِلَ لأَوامِرِه .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الفَرْقُ بَيْنَ الموتَتَيْنِ في الآيةِ ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً﴾ ، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ ؟

٢ـ لِماذا تَقدَّمَ الجارُّ عَلى المَجْرورِ في قولِهِ : ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ؟ وما الّذي تَستفيدُهُ مِنْ ذَلِكَ ؟

٣ـ ذَكرتِ الآياتُ نِعَماً أَنْعَمَها اللهُ عَلى الإنْسانِ . اذْكُرْ نِعمَتَيْنِ مِنْها .

٤ـ أ ـ ما مَعنى قولِهِ : ﴿ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ﴾ ؟

ب ـ اذْكُرْ قَوْلَ الإمامِ مالِكٍ في تَفْسيرِ ذَلكَ .

٥ـ كَيْفَ عَرَفتِ المَلائِكَةُ أَنَّ الخَليفَةَ سَوْفَ يَكونُ مُفْسِداً في الأَرْضِ ؟

٦ـ أ ـ هَلْ كانَ إخْبارُ اللهِ تَعالى لِملائِكَتِهِ بأنّهُ جاعِلٌ في الأرْضِ خَليفةً مِنْ قَبيلِ اسْتِشارَتِهِمْ في هذا الأَمْرِ ؟

ب ـ هَلْ كانَ قَوْلُ المَلائِكَةِ : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ مِنْ بابِ الاعْتِراضِ ؟ وضِّحْ ذَلِكَ .

٧ـ ما مَعْنى : التَّسبيحِ والتَّقديسِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اذْكُرْ خَمْساً مِنْ صِفاتِ المَلائِكَةِ ، وخَمْساً مِنَ الوَظائِفِ الموكَلَةِ إليْهِمْ ، وسَجِّلْ ذلكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ العاشِرُ

سورة البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّامِنُ

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تُبدونَ : تُظْهِرونَ .

تَكْتمونَ : تُخْفونَ .

اسْجُدوا : أَصْلُ السُّجودِ الانْحِناءُ حتَّى يَضعَ المَرْءُ جَبْهَتَهُ عَلى الأَرْضِ لِمنْ يُسْجَدُ لَهُ عَلى جِهَةِ التَّعْظيمِ ، وهو بِمَعْنى التَّذَلُّلِ والخُضوعِ .

إبْليسَ : مُشْتَقٌّ مِنَ الإبْلاسِ ، وهو الحُزْنُ النّاشِىءُ مِنْ شِدَّةِ اليأْسِ .

التَّفسيرُ :

بَعدَ أَنْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّهُ سَوْفَ يَجْعَلُ عَلى هَذهِ الأَرْضِ خَليفَةً ، وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَلامُ ، بيَّنَ لَنا جانِباً مِنْ حِكْمَةِ خَلْقِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَلامُ ، وَجَعْلِهِ خَليفَةً في الأَرْضِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

علّمَهُ سُبْحانَهُ أَسْماءَ كلِّ ما خَلَقَ مِنَ المُحْدَثاتِ مِنْ إنْسانٍ وَحيوانٍ وَطَيرٍ وغَيْرِ ذلك . قالَ ابنُ عبّاسٍ : « عَلَّمَهُ اسْمَ كُلِّ شَيْءٍ حتّى القَصْعَةَ والمِغْرَفَةَ » ، وَعَرَضَ سُبْحانَهُ المُسَمَّياتِ والأَشْياءَ الَّتي عَرَّفَ آدَمَ بِأَسْمائِها عَلى الملائكَةِ ، فقالَ لَهُمْ : أَنْبئوني بأَسْماءِ هَذهِ المُسَمَّياتِ ، والأَمْرُ هُنا يُفيدُ التَّعْجيزَ والتَّبْكيتَ ، أيْ : أَخْبروني بأَسْماءِ هَذهِ المَخْلوقاتِ الَّتي تَرَوْنَها إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ في زَعْمِكُمْ أنَّكُمْ أَحَقُّ بالخِلافَةِ مِنْ آدمَ ، وبهذا بَيَّنَتِ الآياتُ فَضْلَ آدمَ عَلَيْهِ السَّلامُ عَلى المَلائِكَةِ ، حيثُ عَلَّمَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ما لَمْ يُعَلِّمِ المَلائِكَةَ ، وخَصَّهُ بالمَعْرِفَةِ دونَهُمْ ؛ مَعْرِفَةِ الأسْماءِ والأَشْياءِ والأَجْناسِ ، لهذا اعْتَرَفوا بالعَجْزِ والقُصورِ فقالوا :

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

أيْ : نُقَدِّسُكَ وَنُنَزِّهُكَ عَنْ أَنْ يَكونَ عِلْمُكَ قاصِراً فَتَخْلُقَ الخَليقَةَ عَبَثاً ، أَوْ يُحيطَ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِكَ إلاّ بما شِئْتَ ، وأَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ شَيْئاً إلاّ ما عَلَّمْتَهُ إياهُ ، ولا نَقْدِرُ عَلى الإِنْباءِ بهِ ، وبَعْدَ تَنْزيهِ الباري تَبَرَّأوا مِنْ عِلْمِهِمْ إلى عِلْمِهِ فَقالوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ ، ونَجِدُ أَنَّ الملائِكَةَ قالوا هُنا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ ولَمْ يَقولوا : لا عِلْمَ لَنا بأَسْماءِ هَذهِ المُسَمَّياتِ ، لأَنَّهم لَوْ أَجابوا بهذا الجَوابِ ، كانَ جوابُهُمْ عَلى قَدْرِ السُّؤالِ ، ولَكِنَّهُمْ أرادوا الاعْتِرافَ بالعَجْزِ عَنْ مَعْرِفَةِ أسماءِ تلكَ المُسَمَّياتِ عَلى أَبْلَغِ وَجْهٍ ، فَنَفَوْا عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَعْلَموا شَيْئاً غَيْرَ ما يُعَلِّمُهُمْ اللهُ تَعالى .

﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أيْ : أَنْتَ يا رَبَّنا العَليمُ بِكُلِّ شَيْءٍ لا تَخْفى عَلَيْكَ خافِيَةٌ ، الحَكيمُ في خَلْقِكَ وأَمْرِكَ وفي تَعْليمِكَ ما تَشاءُ ، فَأَفْعالُكَ كُلُّها حِكْمَةٌ .

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

وبَعْدَ أنِ اعْتَرَفَتِ الملائِكَةُ بِعَجْزِها عَنْ مَعْرِفَةِ أَسْماءِ المُسَمَّياتِ ، وجَّهَ سُبْحانَهُ وتَعالى الخِطابَ إلى آدمَ عَلَيْهِ السَّلامُ لِيُنَبِّئَهُمْ بِأَسْمائِهِم ، تِلْكَ الأَسْماءِ الَّتي لم تَعْرِفْها الملائِكَةُ لِيَظْهَرَ لَهُمْ فَضْلُ آدمَ ، ولِيَزْدادوا اطْمِئْناناً إلى ذلكَ الَّذي أوكَلَ إليهِ سُبْحانَهُ وتَعالى الخِلافَةَ عَلى الأَرْضِ ، ونَبَّأَهُمْ آدمُ بالأَسْماءِ ، فقالَ اللهُ تَعالى : ألمْ أَقُلْ لَكُمْ إنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ والأَرْضِ ، وأَعْلَمُ ما تُظْهِرونَ مِنْ أَقْوالٍ وأفْعالٍ ، وما تُسِرّونَ وتُضْمِرونَ في أَنْفُسِكُمْ .

وبَعْدَ ما عَرَّفَ سُبْحانَهُ وتَعالى الملائِكَةَ بمكانِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وسَبَبَ جَعْلِهِ خَليفَةً في الأَرْضِ ، أَمَرَهُمْ سُبْحانَهُ بالسُّجودِ لَهُ :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

وهذا السُّجودُ لَيْسَ سُجودَ عِبادةٍ ، فَإِنَّهُ لا يُعْبَدُ إلا اللهُ تَعالى . والسُّجودُ لُغةً : الخُضوعُ والانقيادُ ، ومِنْ مَظاهِرهِ أنْ يَخِرَّ الإنْسانُ نَحْوَ الأَرْضِ ويَضَعَ جَبْهَتَهُ عَلى الأَرْضِ ، وكانَ عِنْدَ بَعْضِ القُدَماءِ مِنْ تَحِيَّةِ النَّاسِ للمُلوكِ والعُظَماءِ ، ولمَّا جاءَ الإسلامُ بَيَّنَ أَنَّ التَّعظيمَ والسُّجودَ لا يَكونُ إلاّ لِلحَقِّ المَعْبودِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، فكانَ السُّجودُ لآدَمَ تَعظيماً لَهُ بِأَمْرٍ مِنْ رَبِّهِ .

﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ أيْ : سَجَدَ الملائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعونَ إلاّ إبْليسَ ، فَقَدْ أَبى السُّجودَ والانْقِيادَ لأَمْرِ اللهِ تَعالى ، واسْتَكْبَرَ فَلَمْ يَمْتَثِلْ أَمْرَ اللهِ تَعالى تَرَفُّعاً عَنْهُ ، وزَعْماً بِأَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ مِنْ حَيْثُ العُنْصرُ الّذي خَلَقَهُ اللهُ مِنهُ ، فَقَدْ خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرابٍ ، بَيْنَما خَلَقَهُ هو مِنْ نارٍ ، ولِذا قالَ : ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] ولَوْ لَم يُوَجِّهِ الأمْرَ إليهِ بالسُّجودِ لَمْ يَكُنْ عاصِياً ، ولَما اسْتَحَقَّ مِنَ اللهِ الخِزْيَ . فالأَمْرُ وُجِّهَ لِلمَلائِكَةِ كُلِّهِمْ ولإبْليسَ فَسَجَدوا ، وإبْليسُ أَبى السُّجودَ بِسَبَبِ اسْتِكبارِهِ عَلى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وبِسَبَبِ هذا كُلِّهِ كانَ مِنَ الكَافِرينَ الجاحِدينَ لِنِعْمَةِ اللهِ تَعالى ، والبَعيدينَ عَنْ رَحمةِ اللهِ ورضوانِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرَةٍ مِنْها :

١ـ تَفْضيلُ اللهِ تَعالى لآدمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وبالتَّالي للإنْسانِ كُلِّهِ ﴿ولَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ﴾ ولِذا فإنَّهُ لا بُدَّ مِنْ شُكْرِ اللهِ تَعالى عَلى هَذهِ النِّعْمَةِ العَظيمةِ . والشُّكْرُ لا يَكونُ إلاّ بالعِبادَةِ والطّاعةِ للهِ تَعالى .

٢ـ عَلى الإنْسانِ أنْ يَجْتَهِدَ في تَكْميلِ نَفْسِهِ بالعُلومِ المُفيدةِ ؛ لأنَّ اللهَ تَعالى جَعَلَنا مُسْتَعِدّينَ لِتَلَقّي العِلْمِ ، وبهِ شَرَّفْنا .

٣ـ واجبُ الإنْسانِ بَعْدَ أنْ يَتَعَلَّمَ أنْ يُعَلِّمَ هذا العِلْمَ للآخَرينَ ، فهُوَ يَتَلَقّى العِلْمَ ويَفْهَمُهُ ويَهْضُمهُ ، ثُمَّ يُعَلِّمُهُ لآخَرينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الأَسْماءُ الّتي عَلَّمَها اللهُ تَعالى لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٢ـ ماذا يُفيدُ فِعْلُ الأمْرِ في خِطابِ اللهِ الملائكةَ : ﴿أَنبِئُونِى﴾ ؟

٣ـ ما مَعْنى كَلِمَةِ : سُبْحانَكَ ؟

٤ـ لماذا قالتِ المَلائِكَةُ للهِ : ﴿لاَعِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ؟

٥ـ لماذا طَلَبَ سُبْحانَهُ وتَعالى مِنْ آدَمَ أنْ يُنْبِىءَ الملائِكَةَ بأسْماءِ الأَشْياءِ ؟

٦ـ هلْ كانَ سُجودُ الملائِكَةِ لآدَمَ سُجودَ عِبادَةٍ ؟ وَلِماذا ؟

٧ـ ذَكَرَتِ الآياتُ لإبليسَ ثلاثَ صِفاتٍ . اذْكُرْها .

٨ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ فَضْلَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ . وضِّحْ ذلِكَ مَعَ الدَّليلِ .

نَشاطٌ :

١ـ يُسْتَدَلُّ مِنَ الآياتِ عَلى أنَّ المَلائِكَةَ لا تَعْلَمُ الغَيْبَ . وضِّحْ ذلكَ واكتُبْهُ في دَفتَرِكَ .

٢ـ هناكَ آيةٌ في سورَةِ الكَهْفِ بيَّنَتْ أَنَّ إبْليسَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ كانَ مِنَ الجِنِّ . اسْتَخْرِجْها واكتُبْها في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الحادي عَشَرَ

سورةُ البَقرةِ ـ القِسْمُ التّاسِعُ

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

رَغَداً : سَعَةُ العَيْشِ .

أَزَلَّهُما : أصْلُهُ مِنَ الزَّلَلِ ، وهُوَ عُثورُ القَدَمِ ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في ارْتِكابِ الخَطيئَةِ ، يُقالُ : زَلَّ الرَّجُلُ إذا أخْطأَ .

مُسْتَقَرٌّ : مَوْضِعُ الاسْتِقرارِ والثَّباتِ .

ومتاعٌ : ما يَتَمتَّعُ بِهِ الإنْسانُ مِنَ الطّعامِ والشَّرابِ واللِّباسِ وغَيْرِهِ .

فَتابَ : التَّوْبَةُ : هِيَ الرُّجوعُ ، وتَعني رُجوعَ العَبْدِ عَنِ المَعْصِيَةِ للهِ تَعالى .

التَّفسيرُ :

عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ بِحكْمَتِهِ أرادَ إيجادَ هذا النَّوْعِ الإنْسانيِّ للاسْتِخْلافِ في الأَرْضِ ، وأنَّ اللهَ عَلَّمَهُ أسْماءَ الأشْياءِ ، وأمَرَ الملائِكَةَ بالسُّجودِ لَهُ .

بَعْدَ ذَلِكَ ذَكَرَتِ الآياتُ نِعْمَةً أُخْرى أنْعَمَها اللهُ تَعالى عَلى آدمَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وهِيَ إيواءُ آدَمَ وزَوْجِهِ في سَكَنٍ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

اتَّخِذِ الجَنَّةَ مَسْكَناً ، والمَقْصودُ بالجَنَّةِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ تِلْكَ الّتي أعَدَّها اللهُ تَعالى للمُؤْمنينَ يَوْمَ القِيامَةِ ، وبَيَّنَ لَهُما سُبْحانَهُ ، بأنَّهُ قَدْ أباحَ لَهما الأَكْلَ مِنْ ثمارِ الجَنَّةِ أَكْلاً رَغَداً واسِعاً هَنيئاً ، مِنْ أيِّ مَكانٍ ، إلاّ شَيئاً واحِداً نَهاهُما سُبْحانَهُ وتَعالى عَنْهُ ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أيْ : لا تَدْنوا مِنْ هَذهِ الشَّجَرةِ ، والمَقْصودُ مِنْ عَدَمِ قُرْبانِها ، عَدَمُ الأكْلِ مِنْها ، وعَبَّرَ بِعَدَمِ القُرْبِ ، لِلْمُبالَغَةِ ، ولِقَطْعِ كُلِّ وَسيلةٍ إلى ارْتِكابِ ما نُهوا عَنْهُ .

وقَدِ اخْتَلفوا في تَعيينِ نَوْعِ هَذهِ الشَّجَرةِ ، ولكنَّنا نَقولُ بأنَّهُ تَعالى أَبْهَم نَوْعَها لِعَدَمِ وُجودِ هَدَفٍ ومَقْصِدٍ مِنْ ذِكْرِهِ ، وربَّما كانَ في النَّهْي ابْتِلاءٌ وامْتِحانٌ منهُ تَعالى لِيُبيِّنَ أنَّ هذا الإنْسانَ عَلى اسْتِعدادٍ للمَيْلِ نحوَ الخَيْرِ أو نحوَ الشَّرِّ .

ثُمَّ بيَّنتِ الآياتُ ما وَقَعَ فيهِ آدمُ مِنْ خَطأ ، فقال تَعالى :

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

حَوَّلَهُما الشَّيْطانُ وزَحْزَحَهُما عَنِ الجَنَّةِ ، أو أنَّهُ حَمَلَهُما عَلى الزَّلَّةِ بِسَبَبِ أكْلِهِما مِنَ الشَّجَرةِ ، وقَدْ وَسْوَسَ إلَيْهِما إبليسُ عليهِ اللّعنةُ ، بأنْ يَأْكُلا مِنَ الشَّجَرةِ .

لَقَدْ وَجدَ إبْليسُ اللَّعينُ فُرْصَةً سانِحَةً لَهُ لِيُنفِّذَ ما تَوَعَّدَ بهِ آدمَ وذُرِّيَّتَهُ ، ولا شَكَّ في أنَّهُ كانَ عَلى عِلْمٍ بِأنَّ مُخالَفَتَهُما أَمْرَ ربِّهِما سَيَذْهَبُ بِكَثيرٍ مِنَ الثِّمارِ الّتي أكْرَمَهُما اللهُ تَعالى بها ، وسَيُعَرِّضُهُما لِعقوباتٍ ، وهذا ما كانَ ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أخْرَجَهُما مِنْ ذَلِكَ المكانِ ، أوْ ذَلِكَ النَّعيمِ الّذي كانا فيهِ . أذْنَبَ آدمُ عَلَيْهِ السَّلامُ وخالَفَ ربَّهُ فَأَكَلَ مِنَ الشَّجَرةِ ، فَجاءَتِ العُقوبَةُ مُباشَرَةً ، وهِي إخْراجُهُ مِنَ الجَنَّةِ ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ ﴾ أي : آدمَ وزَوْجَهُ ، وإبْليسَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ فالعَداوَةُ بَيْنَ آدمَ وذُرِّيَّتِهِ وإبْليسَ عَداوةٌ أَبَديَّةٌ ، لأنَّها نَشَأَتْ عَنْ حَسَدٍ وتَكَبُّرٍ مُنْذُ أَنْ أَمَرَ اللهُ إبْليسَ بالسُّجودِ لآدَمَ ، فَأَبى واسْتَكْبَرَ وقالَ أَنا خَيْرٌ مِنْهُ .

وبيَّنتِ الآياتُ لَهُمْ أنَّ مُسْتَقَرَّهُمْ وثَباتَهُمْ سَيَكونُ في الأَرْضِ ، وسَتكونُ الأَرْضُ مَوْضِعَ تَمتُّعِهِمْ . وهَذا يَدُلُّ عَلى أَنَّ اللهَ تَعالى مَهَّدَ الأَرْضَ وهَيَّأَها لِلْمَعيشةِ فيها والتَّمَتُّعِ بِها ، ويَدُلُّ عَلى أَنَّ هَذهِ الأَرْضَ لَيْسَتْ مَكانَ خُلودٍ لِلإنْسانِ ، وإنَّما الاسْتِقرارُ والتَّمَتُّعُ فيها سَيَكونُ إلى حينٍ ، وأَجَلٍ لا يَعْلَمُهُ إلاّ اللهُ تَعالى ، ولَكِنْ ما هُوَ مَوْقِفُ آدمَ بَعْدَ هذهِ العُقوبةِ ؟ هَلْ تَرَكَهُ ربُّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يائِساً

حَزيناً ؟ لا ، فإنَّ اللهَ تَعالى أرْحَمُ وأعْدَلُ مِنْ أَنْ يَتْرُكَ عَبْدَهُ هَكَذا ، فَقَدْ عَلَّمَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى كَلِماتٍ يَقولُها لِيَتوبَ عَلَيْهِ ، قالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

أَلْهَمَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنْ يَقولَ هذهِ الكَلِماتِ ، فَقالَها تائِباً مُنيباً إلى رَبِّهِ سُبْحانَهُ وتعالى ، أيْ قَبِلَ تَوْبَتَهُ ، لأَنَّهُ تَعالى هُوَ التَّوابُ ، الّذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبادِهِ ، الرَّحيمُ بِعبادِهِ الَّذينَ يُسيئونَ إليهِ ويُغْضِبونَهُ ؛ ولكنَّهُمْ يَرْجِعونَ عَنْ ذُنوبِهِمْ ويَتوبونَ . ثُمَّ يَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتعالى :

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

فَقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ هُنا الهُبوطَ مَرَّةً ثانِيَةً ، وذَلِكَ لأَنَّهُ سُبْحانَهُ أَرادَ أَنْ يُبيِّنَ لَنا حالَ المخُاطَبينَ ، حَيْثُ إنَّهُمْ سَوْفَ يَنْقَسِمونَ إلى مُهْتَدينَ وضالّينَ . والهُدى هُوَ كُلُّ ما يَدُلُّ عَلى الحَقِّ ، وهو ما وَرَدَ في كِتابِ اللهِ تَعالى وسُنَّةِ الرَّسولِ ﷺ ، فَمَنِ اتَّبَعَ طَريقَ الحَقِّ ، تَكونُ نَفْسُهُ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، لا يُصيبُهُ فَزَعٌ ولا غَمٌّ ، أَمّا الّذينَ كَفَروا وكَذَّبوا بآياتِ اللهِ تَعالى ، فإنَّ لَهُمْ نارَ جَهَنَّمَ خالِدينَ فيها .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِد الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عَداوةُ الشَّيطانِ للإنْسانِ عَداوةٌ أبَدِيَّةٌ ، ولِذا عَلى المُسْلِمِ عَدَمُ الاسْتِجابَةِ لِوَساوِسِهِ ، والابْتِعادُ عَنْ طَريقِهِ .

٢ـ الإنْسانُ كَثيرُ الخَطأ ، ولا يَخْلو مِنَ الذّنْبِ ، ولِذا عَلَيْهِ أَنْ يَتوجَّهَ دائِماً إلى اللهِ تَعالى بالتَّوْبَةِ الصّادِقَةِ والاسْتِغْفارِ مِنَ الذَّنْبِ .

٣ـ الّذي يَتَّبِعُ طَريقَ الحَقِّ يَشْعُرُ دائِماً بِطُمَأْنينةِ النَّفْسِ وراحَتِها ، أمّا مَنِ اتَّبَعَ طريقَ الضَّلالِ ، فَهُو دائِماً في حَيْرَةٍ وتيهٍ .



التَّقويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ أنْعَمَ اللهُ تَعالى عَلى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ بِنِعْمَةٍ عَظيمَةٍ ، لِيَسْتَطيعَ القِيامَ بِخِلافَةِ الأَرْضِ . ما تِلْكَ النّعْمَةُ ؟

٢ـ اخْتَرِ الإجابَةَ الصَّحيحَةَ فيما يَلي :

ـ الجَنَّةُ الّتي أُسْكِنَها آدمُ عَلَيْهِ السَّلامُ وزَوْجُهُ :

أـ جَنَّةٌ كانَتْ عَلى الأَرْضِ .

ب ـ الجَنَّةُ الّتي أَعَدّها اللهُ تَعالى لِلْمُؤْمِنينَ .

ج ـ جَنَّةٌ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ .

د ـ لا شَيْءَ مِمّا ذُكِرَ .

ـ سُجودُ الملائِكَةِ لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ كانَ :

أـ سُجودَ عِبادَةٍ .

ب ـ سُجودَ تَكْريمٍ وتَشْريفٍ .

ج ـ سُجودَ تَذلُّلٍ وخُضوعٍ .

د ـ جميعَ ما ذُكِرَ .

ـ الشَّجَرَةُ الّتي أَكَلَ مِنْها آدَمُ عَلَيْهِ السَّلامُ :

أـ شَجَرةُ تُفّاحٍ .

ب ـ شَجَرةُ بُرْتُقالٍ .

ج ـ شَجَرَةُ تينٍ .

د ـ لا نَعْلَمُ نَوْعَ الشَّجَرةِ ، لأنّ اللهَ تَعالى لَمْ يَذْكُرْها لَنا .

٣ـ ماذا كانَ مَوْقِفُ إبْليسَ عِنْدَما أُسْكِنَ آدَمُ وزَوْجُهُ الجَنَّةَ ؟

٤ـ كَيْفَ عاقَبَ اللهُ تَعالى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ وزَوْجَهُ بِسَبَبِ أَكْلِهِما مِنَ الشَّجَرَةِ ؟

٥ـ املأ الفَراغَ بما يُناسِبُهُ في كُلٍّ ممّا يَلي :

أـ أَمَـرَ اللهُ تَعـالـى . . . . . و . . . . و . . . . بالهُبوطِ مِنَ الجَنَّةِ .

ب ـ وَسْـــوَسَ الشَّيْطـــانُ لآدَمَ عَلَيْـــهِ السَّـــلامُ لِيُخْـــرِجَـــهُ مِـــنَ الجَنَّـــةِ بِسَبَبِ. . . . . .

ج ـ مَنِ اتَّبَعَ هُدى اللهِ تَعالى فإنَّ جَزاءَهُ. . . . . و . . . . .أَمَّا جَزاءُ الضَّالينَ والكافِرينَ فَهُوَ. . . . .

٦ـ ماذا يترتَّبُ على العِلْمِ اليَقينيِّ النافعِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ (١٢٠) مِنْ سورةِ طه ، والآيَةَ (٢٠) مِنْ سورةِ الأَعْرافِ ، واذْكُرْ وَجْهَ الشَّبَهِ بَيْنَهُا وبَيْنَ الآيةِ (٣٦) مِنْ هَذا الدّرْسِ .

٢ـ ما شُروطُ التَّوْبَةِ الصَّحيحةِ ؟ اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الثاني عَشَرَ

سورَةُ البَقرَةِ ـ القِسْمُ العاشِرُ

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

إسْرائيلَ	: هُوَ يَعْقوبُ بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .
أوْفوا بعَهْدي	: الوفاءُ بِعَهْدِ اللهِ : اتِّباعُ أوامِرِهِ تَعالى واجْتِنابُ نواهيهِ .
فارْهَبونِ	: خافوا اللهَ تَعالى ، ولا تَخافوا غَيْرَهُ .
لِما مَعَكُمْ	: التَّوْراةُ .
تَلْبِسوا	: تَخْلِطوا .
أقيموا الصَّلاةَ	: أدّوها مُسْتَوْفِيَةً لأَرْكانِها وشُروطِها وآدابِها .
وآتوا الزَّكاةَ	: ادْفَعوها لِمُسْتَحِقّيها .
البِرِّ	: كُلِّ أعمالِ الخَيْرِ .

التَّفسيرُ :

حَدَّثَتنا الآياتُ السّابِقَةُ عَنْ خَلْقِ الإنْسانِ ، وبَيَّنَتْ أَنَّهُ في هذهِ الدُّنْيا إمّا أَنْ يَهْتَدِيَ فَيَسيرُ في طريقِ الحَقِّ ، أوْ يَضِلَّ فَيَسيرُ في طريقِ الباطِلِ ، وَبَدأتِ الآياتُ هُنا تُخاطِبُ الأُمَمَ والشُّعوبَ التي وُجِدَتْ

عَلى الأَرْضِ ، والّتي بَعَثَ اللهُ تَعالى لَها الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَبَدَأَتْ بِذِكْرِ اليَهودِ ، لأَنَّهمْ أَقْدَمُ الشُّعوبِ الّتي حَمَلَتِ الكُتُبَ الإلهيّةَ ؛ ولأَنَّهم كانوا أَشَدَّ النّاسِ عَلى المُؤْمِنينَ صَحابَةِ الرَّسولِ ﷺ ومَنْ بَعْدَهُمْ . يُناديهِمْ سُبْحانَهُ وتَعالى فَيَقولُ لَهُم :

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

أيْ : يا أبناءَ يعقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وذُرِّيَّتَهُ ، ويُذَكِّرُهُمْ بِنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ ، بِأَنْ جَعَلَ النُّبوَّةَ فيهِمْ زَمَنا طويلاً ، ولِذلِكَ كانوا يُسَمّونَ أَنْفُسَهُمْ شَعْبَ اللهِ المُختارَ ، وهذه النِّعْمَةُ تَتطَلَّبُ مِنْهُمْ أَنْ يَشْكُروا اللهَ تَعالى ويُطيعوهُ ، ولَكنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ جَحَدوا نِعَمَهُ ، وآذَوْا نَبِيَّهُ مُحمَّداً ﷺ وأصْحابَهُ . ويَأْمُرُهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بالوَفاءِ بِعَهْدِ اللهِ تَعالى ، حتّى يُوَفِّيَ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى عَهْدَهُمْ . وعَهْدُ اللهِ تَعالى الّذي عَهِدَهُ إليْهِمْ ما وَرَدَ في الكُتُبِ المُنزَّلَهِ إِلَيْهِمْ ، بِأَنْ يَعْبُدوا اللهَ تَعالى ، ولا يُشْرِكوا بِهِ شَيْئاً ، وأَنْ يُؤْمِنوا بِرُسُلِهِ ، إِذْ قامَتِ الأَدِلَّةُ عَلى صِدْقِ هَؤلاءِ الرُّسُلِ ، وأَنْ يُؤْمِنوا بالرَّسولِ الّذي سَيَبْعَثُهُ اللهُ تَعالى مِنْ بَني إسْماعيلَ ، وهُوَ سَيِّدُنا مُحمَّدٍ ﷺ ، فإنْ هُمْ فَعَلوا ذَلِكَ وفَّى اللهُ لَهُمْ ما وَعَدَهُمْ بِهِ ، وهُوَ تَمْكينُهُمْ في الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ ، ونَصْرُهُمْ عَلى الأُمَمِ الكافِرَةِ ، وعُلوِّ الشَّأْنِ في الدُّنْيا والسَّعادةِ في الآخِرَةِ ، ولَكِنَّهُمْ لَمْ يوفوا بِعَهْدِ اللهِ تَعالى .

ويقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ أيْ : اجْعَلوا خَوْفَكُمْ مِنَ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، فلا تَخافوا عَلى مالٍ ولا مَتاعٍ ولا غَيْرِهِ ، وإنَّما خَصّوا اللهَ تَعالى وَحْدَهُ بالخَوْفِ والرَّهْبَةِ ، وقَدْ تَقدَّمَ ضَميرُ الفَصْلِ هُنا (وإيّايَ) لِيُفيدَ الاخْتِصاصَ ؛ اخْتِصاصَ اللهِ وَحْدَهُ بالخَوْفِ .

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ .

ثُمَّ دَعاهُمْ سُبْحانَهُ إلى أَنْ يُؤْمِنوا بالقُرْآنِ الكَريمِ الّذي جاءَ مُصَدِّقاً للتَّعاليمِ الّتي وَرَدَتْ عِنْدَهُمْ في التَّوراةِ مِنْ تَوْحيدِ اللهِ تَعالى ، والنَّهْيِ عَنِ الفَواحِشِ ، والأَمْرِ بالمَعْروفِ وغَيْرِ ذَلِكَ ، وأَنْ لا يُبادِروا إلى الكُفْرِ بالقُرْآنِ الكَريمِ .

وَوَجَّهَتْهُمُ الآياتُ الكَريمةُ إلى الإيمانِ بآياتِ القُرْآنِ الكَريمِ الدَّالَّةِ عَلى نُبوَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ ، وأَنْ لا يَسْتَبْدِلوا بِهدايةِ القُرْآنِ هذا الثَّمَنَ القَليلَ ، وهو المالُ والجاهُ ، فَهُوَ قَليلٌ لأَنَّهُ شَيْءٌ بَعيدٌ عَنِ الحَقِّ ، فَهُوَ قَليلٌ حَقيرٌ ، ولأَنَّهُمْ إذا ابْتَعدوا عَنِ الحَقِّ خَسِروا عُقولَهُمْ وأَرْواحَهُمْ وخَسِروا آخِرَتَهُمْ ، حيثُ تَحِلُّ عَلَيْهِمْ عُقوبَةُ اللهِ تَعالى ، ويَنْبَغي أَنْ يَجْعلوا تَقْواهُمْ للهِ تَعالى ، فَيَمْتَثِلوا لأَوامِرِهِ ويَنْتَهوا عَنْ نَواهيهِ ، حتَّى يَحْذروا عِقابَهُ وبَطْشَهُ .

﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝ ﴾ .

وطَلَبَ مِنْهُمْ سُبْحانَهُ وتعالى أَنْ لا يَخْلِطوا الحَقَّ ، الَّذي بَيَّنَتْهُ الكُتُبُ السَّماوِيَّةُ ، بالباطِلِ الّذي يَخْتَرِعونَهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ، إرْضاءً لأَهْوائِهِمْ ، وأَنْ لا يَكْتُموا الحَقَّ الّذي يَعْرِفونَهُ ، لِكَيْ يَصْرِفوا النَّاسَ عَنِ اتِّباعِهِ ، وهَؤلاءِ اليَهودُ خَلَطوا الحَقَّ بالباطِلِ ، وكَتَموا ذلكَ الحَقَّ ، وهُمْ يَعْلَمونَ بِأَنَّهُمْ يَسْلُكونَ طَريقاً مُعْوَجّاً .

وبَعْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُمْ سُبْحانَهُ بما يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ دينَهُمْ ، فَقَدْ أَمَرَهُمْ بِرُكْنَيْنِ مِنْ أَرْكانِ الإسْلامِ العَمليَّةِ ، إذا قاموا بِهِما لانَتْ قُلوبُهُمْ لِلْحَقِّ ، وازْدادَتْ خَشْيَتُهُمْ للهِ تَعالى ، وهُما : الأَوَّلُ : إقامَةُ الصَّلاةِ ؛ أَيْ : أَداؤُها مُسْتَوْفِيَةً لأَرْكانِها وشُروطِها ، وتُؤْتي نَتيجَتَها وثَمَرتَها وهِيَ النَّهْيُ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ، وهِيَ أَعْظَمُ العِباداتِ البَدَنيَّةِ . والثّاني : إيتاءُ الزَّكاةِ ، وهي أَعْظَمُ العِباداتِ الماليَّةِ .

ولا شَكَّ في أَنَّ مُحافظَةَ الإنْسانِ عَلى هذهِ العِباداتِ فيها تَطْهيرٌ لِلْقُلوبِ ، وتَأْليفٌ للنُّفوسِ ، وتَزْكِيَةٌ لِلْمَشاعِرِ ، وإذا قَصَّرَ الإنْسانُ فيهما لَحِقَهُ الخِزْيُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

وبَعْدَ كُلِّ هذهِ الأَوامِرِ الّتي أَمَرَهُمُ اللهُ تَعالى ، وَبَّخَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى فِعْلِهِمْ لأُمورٍ لا يُمْكِنُ أَنْ تَصْدُرَ عَنْ عاقِلٍ ، بَعْدَ أَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ تِلْكَ النِّعَمِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ ﴾ .

والاسْتِفْهامُ اسْتِنْكارٌ وتَوْبيخٌ لِهؤلاءِ اليَهودِ ، إذْ كَيْفَ يَليقُ بِهِمْ وهُمْ يَأْمُرونَ النّاسَ بالخَيْرِ أَنْ يَنْسوا أَنْفُسَهُمْ ، فلا يَفْعَلونَ ما يَأْمُرونَ النّاسَ بهِ ، والحالُ أَنَّهُمْ يَعْرِفونَ مِنْ كِتابِهِمُ التَّوراةِ عُقوبَةَ مَنْ يَقولُ الشَّيْءَ ولا يَفْعَلُهُ ؛ لِذا فإنَّ الآياتِ تُخاطِبُ عُقولَهُمْ ، وتُوَجِّهُهُمُ التَّوْجيهَ الحَسَنَ ، فَتَنْهاهُمْ عَنْ فِعْلِ ذَلِكَ ، فَتقولُ لَهُمْ : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَلَيْسَ عِنْدَكُمْ مِسْحَةُ عَقْلٍ لِتُفَكِّروا بما تَفْعلونَ ، كَيْفَ تَأْمُرونَ بِشَيْءٍ ولا تَفْعَلونَهُ أَنْتُمْ ؟

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُؤْمِنُ الصّادِقُ هُوَ الّذي يَتَّبعُ كُلَّ ما وَرَدَ في كِتابِ اللهِ تعالى فَيَمْتَثِلُ لأوامِرِهِ ويَنْتَهي عمّا نَهاهُ اللهُ عَنْهُ ، ويُؤَدّي ما فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ .

٢ـ المُؤْمِنُ الصّادِقُ هُوَ الّذي يَخْشى اللهَ تَعالى وَحْدَهُ ، ولا يَخْشى عَلى مَنْصِبٍ ولا عَلى رِزْقٍ .

٣ـ المُؤْمِنُ الصّادِقُ هُوَ الّذي يَلْتَزِمُ بِكُلِّ ما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى ، فلا يَتْرُكَ شَيْئاً لأنَّهُ لا يَتَّفِقُ مَعَ رَغْبَتِهِ وهَواهُ .

٤ـ المُؤْمِنُ الصّادِقُ هُوَ الّذي وافَقَ قَوْلَهُ عَمَلُهُ ، فلا يَقولُ ما لا يَفْعَلُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لماذا ابْتَدَأَتِ الآياتُ القُرْآنيَّةُ بالحَديثِ عَنِ اليَهودِ ؟

٢ـ ما النِّعَمُ الّتي أَنْعَمَها اللهُ تَعالى عَلى اليَهودِ كَما جاءَ في آياتِ الدَّرْسِ ؟

٣ـ ما عَهْدُ اللهِ تَعالى ؟

٤ـ أـ ما عَهْدُ اليَهودِ الّذي وَعَدهُمُ اللهُ بِوَفائِهِ إنْ هُمْ وَفّوا بِعَهْدِهِ ؟

ب ـ هلْ وَفّى اليَهودُ بِعَهْدِ اللهِ تَعالى ؟

٥ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ مَوْقِفَ اليَهودِ مِنَ الحَقِّ الَّذي بَعَثَهُ اللهُ إليْهِمْ . هاتِ ما ذَكَرَتْهُ الآياتُ .

٦ـ لِماذا أَمَرَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بإقامَةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ ؟

٧ـ ما مَعنى : إقامةِ الصّلاةِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الّتي تَدُلُّ عَلى ما قالَهُ سَيِّدُنا عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ لِبَني إسْرائيلَ عَنْ بِعْثَةِ مُحمَّدٍ ﷺ .

٢ـ نَعى سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى أُولئِكَ الَّذينَ يَقولونَ شَيْئاً ولا يَفْعَلونَهُ في سورَةِ الصَّفِّ ؟ ارْجِعْ إلى المُصْحَفِ واكْتُبْ هَذِهِ الآياتِ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الثالثَ عشَرَ

سورةُ البَقرَةِ - القِسْمُ الحادي عشَرَ

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

بالصَّبْرِ : بِحَبْسِ النَّفْسِ عَلى ما تَكْرَهُ .

الخاشِعينَ : الخاضِعينَ المُتَذَلِّلينَ للهِ تَعالى .

يَظنّونَ : يَتَيقَّنونَ .

اتَّقوا يَوْماً : احْذَروا يَوْمَ القِيامَةِ .

شَفاعَةٌ : وساطةٌ إلَيْها عِنْدَ اللهِ لِيَدْفَعَ عَنْهُمُ الضُّرَّ .

عَدْلٌ : فِدْيَةٌ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَتِ الآياتُ السّابِقَةُ سوءَ هَؤلاءِ اليَهودِ ، الّذينَ لَمْ يَنْفَعْهُمْ عَقْلُهُمْ للاهْتِداءِ إلى الحَقِّ ، ولَمْ تُذَكِّرْهُمْ تَوْراتُهُمْ وتَرْدَعْهُمْ عَنِ الباطِلِ ، أَرْشَدَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى إلى الطَّريقَةِ الصَّحيحَةِ للانْتِفاعِ بما جاءَ في كِتابِهِمْ ، ولِلْعَمَلِ بما هو نافِعٌ حتّى تَصِحَّ عَزائِمُهُمْ ، وتَطْهُرَ قُلوبُهُمْ، لَقَدْ أَمَرَتْهُمُ الآياتُ بما يلي :

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ ﴾ .

بالصَّبْرِ أَوَّلاً ، والّذي هُوَ احْتِمالُ ما يُصيبُ الإنْسانَ مِنْ مَكْروهٍ ، فَيَصْبِرُ عَلى الطَّاعَةِ ، عَلى الرُّغْمِ ممّا يُلاقيهِ في أدائِها مِنْ مَشَقَّةٍ ، ويَصْبِرُ عَلى تَرْكِ المَعْصِيةِ ، فَيَكُفَّ نَفْسَهُ عنها . والصَّبْرُ يَكونُ بِتَذَكُّرِ الإنْسانِ دائِماً وَعْدَ اللهِ تَعالى بالجَزاءِ الحَسَنِ لِمَنْ صَبَرَ عَنِ الشَّهَواتِ المُحرَّمَةِ ، مَعَ أنَّ النَّفْسَ تَميلُ إلَيْها ، وعَمَلِ الطّاعاتِ ، ويَكونُ بِتَفَكُّرِ الإنْسانِ دائماً بِأَنَّ المصائِبَ لا تَكونُ إلاّ بِقَضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ الخُضوعُ للهِ . والاسْتِعانَةُ بالصَّبْرِ تَكونُ باتِّباعِ الأَوامِرِ واجْتِنابِ النّواهي .

وأَمَرَتْهُمْ كَذلِكَ بالصَّلاةِ ، لأنَّ فيها نَهْياً عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ، وفيها مُراقَبَةُ اللهِ تَعالى في السِّرِّ والعَلَنِ ، وهذهِ الصَّلاةُ شاقَّةٌ وصَعْبَةٌ إلاّ عَلى الخاشِعينَ للهِ ، الخائِفينَ مِنْ عِقابِهِ الشَّديدِ ، قالَ ﷺ : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني في الصَّلاةِ »[1] وقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعالى هَؤلاءِ الخاشِعينَ بِأَنَّهُمْ يَظنّونَ أَنَّهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ مُلاقو رَبِّهِمْ ، وأَنَّهُمْ يَتَيَقَّنونَ أَنَّهُمْ راجِعونَ إليهِ وَحْدَهُ سُبْحانَهُ لِيُجازِيَهُمْ عَلى ما قَدَّموا مِنَ العَمَلِ الصّالِحِ ، وهُمُ الّذينَ لا تَشُقُّ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ ، فَيَسْتَعينونَ بها ، وَيَفْزَعونَ إلَيْها كُلَّما دَعَتْهُمُ الحاجَةُ إلى مُناجاةِ رَبِّهِمْ ، فَقَدْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ : « إذا حَزَبَهُ أمْرٌ فَزِعَ إلى الصَّلاةِ »[2] .

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ مَرَّةً أُخْرى لِمُناداةِ أُولئِكَ اليَهودِ ، وتَذْكيرِهِمْ بِنِعَمِ اللهِ تَعالى الكَثيرَةِ عَلَيْهِمْ ، وقَدْ ذَكَّرَتِ الآياتُ بَني إسْرائيلَ المُعاصِرينَ للرَّسولِ ﷺ بهذِهِ النِّعَمِ ؛ مَعَ أَنَّها كانَتْ لآبائِهِمْ ، لأنَّ النِّعَمَ عَلى الآباءِ نِعَمٌ عَلى الأَبْناءِ كَذلِكَ ، فَيقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ : ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ اذْكُروا تَفْضيلي إيَّاكُم عَلى العالَمينَ ، حيْثُ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِنِعَمٍ لَمْ يُنْعِمْها عَلى غَيْرِهِم ، وبَعَثَ فيهِمْ عَدَداً كبيراً مِنَ الأَنْبياءِ ، ونَجّاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ ، ولَمْ يُنْزِلْ بِهِمْ عُقوبَةَ الاسْتِئْصالِ مَعَ كَثْرَةِ مَعاصيهِمْ وعِظَمِ ذُنوبِهِمْ . قال تَعالى : ﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [البقرة : ٢١١] .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٢٨ حديث رقم ١٢٣١٥ والنسائي في السنن، باب عِشرة النساء، حديث رقم ٨٨٨٧ وقال الحافظ في الفتح ٣/ ١٥ حديث صحيح .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي الأول في السنن ٤/ ٤٤ بحاشية عون المعبود، والثاني في الجامع ١٠/ ٢٦٧ بحاشية تحفة الأحوذي .

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

بَعْدَ أَنْ ذَكَّرَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بما أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمٍ كَثيرةٍ وفَضَّلَهُمْ عَلى العالَمينَ في زمانِهِمْ ؛ حَذَّرَهُمْ مِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ العَظيمِ ، يَوْمِ القِيامَةِ ، مِنْ أَهْوالِهِ وعَذابِهِ ، هذا اليَوْمِ الّذي سَيَحْصُلُ فيهِ الحِسابُ والجَزاءُ ، حَيْثُ لا نَجاةَ مِنْ هذهِ الأَهْوالِ وهذا العَذابِ إلاّ بِتَقْوى اللهِ والإخْلاصِ لَهُ في كُلِّ الأَعْمالِ . وقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعالى هذا اليَوْمَ بِأَوْصافٍ عَظيمةٍ ، لَها وَقْعٌ شَديدٌ عَلى النَّفْسِ ، فَهذا اليَوْمُ لا تَجْزي فيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ، فالتَّصرُّفُ في ذَلِكَ اليَومِ والأَمْرُ كُلُّهُ للهِ ، ولَيْسَ فيهِ ما اعْتادَ عَلَيْهِ النّاسُ مِنْ دِفاعِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ .

وَوَصَفَ اللهُ تَعالى هذا اليومَ بِوَصْفٍ ثانٍ : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ فلا يُقْبَلُ مِنْ هذهِ النَّفْسِ أَنْ تَأْتِيَ بِشَفيعٍ يتوسَّطُ لَها ، ويَشْفَعُ لَها عِنْدَ اللهِ لِيَدْفَعَ عَنْها الضَّرَرَ ويَجْلِبَ لَها المَنْفَعَةَ ، وهَذا بالنِّسْبَةِ للكافِرينَ ، أَمّا المُؤْمِنونَ فإنَّ اللهَ تَعالى قَدْ يَأْذَنُ لِشافِعينَ أَنْ يَشْفَعوا لَهُمْ . قال تَعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه : ١٠٩] .

وفي هذا اليوم لا يُقْبَلُ مِنْ هذهِ النَّفْسِ كذلِكَ أَنْ تَدْفَعَ فِداءً أَوْ بَدَلاً ، إنْ هِيَ اسْتَطاعَتْ إحْضارَهُ ، ولَكِنّها لَنْ تَستطيعَ ذَلِكَ .

والكافِرونَ في هذا اليومِ (لا يُنْصَرونَ) فلا يَجِدونَ مَنْ يُعينُهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ عَذابِ اللهِ تَعالى .

وفي ما وَرَدَ في هذهِ الآياتِ ، رَدٌّ عَلى أُولئِكَ اليَهودِ الَّذينَ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ المُخْتارُ ، وأَنَّهُمْ في مَأْمَنٍ مِنْ عِقابِ اللهِ تَعالى بالرَّغمِ مِنْ فُسوقِهِمْ وعِصْيانِهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ نِعَمُ اللهِ تَعالى عَلى الإنْسانِ تَسْتَوْجِبُ شُكْرَهُ ، والشُّكْرُ لا يَكونُ إلاّ بالطّاعاتِ وامْتِثالِ أوامِرِ اللهِ واجْتِنابِ نَواهيهِ .

٢ـ كُلُّ إنْسانٍ مُحاسَبٌ أمامَ اللهِ تَعالى عَلى عَمَلِهِ ، فلا يُشْفَعُ لِنَفْسٍ إلاّ بِأَمْرِ اللهِ ، ولا يُقْبَلُ مِن نَفْسٍ فِدْيَةٌ لِتَفْتَدِيَ بِها مِنْ عَذابِ اللهِ .

٣ـ إنَّ اليَهودَ قومٌ اسْتَوجَبوا غَضَبَ اللهِ وعِقابَهُ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِنِعَمِ اللهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ أَمَرَ اللهُ تَعالى اليَهودَ بالاسْتِعانَةِ بِأَمْرَيْنِ لِكَيْ يَتحمَّلوا مَشاقَّ الحَياةِ . ما هُما ؟

٢ـ أ ـ ما مَعنى الصَّبرِ ؟

ب ـ ما أنواعُ الصّبْرِ ؟

٣ـ كَيْفَ يَستعينُ الإنْسانُ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ ؟

٤ـ أ ـ عَلى مَنْ فَضَّلَ اللهُ تَعالى بَني إسْرائيلَ ؟

ب ـ ما سَبَبُ تَفْضيلِهِمْ ؟

٥ـ ما معنى : شَفاعَةٌ ، عَدْلٌ ، يَظُنّونَ ؟

٦ـ وَصَفَتِ الآياتُ يَوْمَ القِيامةِ بِأُمورٍ ، ما هِيَ ؟

٧ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أنَّ الصَّلاةَ كبيرةٌ :

أ ـ ما معنى كَوْنِ إقامَةِ الصَّلاةِ كبيرةً ؟

ب ـ مَنِ الّذينَ لا تَكونُ الصَّلاةُ عَلَيْهِمْ كَبيرةً ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبِ الآيَةَ الَّتي تُبيِّنُ قَوْلَ اليَهودِ : نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وأَحِبّاؤهُ .

٢ـ قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الجاثية : ١٦ـ١٧] . ارْجِعْ إلى أحَدِ كُتُبِ التَّفْسيرِ ، واكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَعنى الآيَتيْنِ السّابِقَتَيْنِ مِنْ سورَةِ الجاثِيَةِ .

* * *

الدرس الرابع عشر

سورةُ البقرةِ - القسمُ الثاني عشر

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَسومونكُمْ : يُذيقونكُمُ العَذابَ ويُذِلّونكُمْ .

يَسْتَحيونَ نِساءَكُمْ : يَسْتَبْقونَ الإناثَ عَلى قَيْدِ الحياةِ .

بَلاءٌ : اخْتِبارٌ وامْتِحانٌ .

فَرَقْنا : فَصَلْنا ومَيَّزْنا .

واعَدْنا : أَمَرْنا موسى أنْ يَنْقَطِعَ لِمُناجاةِ ربِّهِ .

اتَّخَذْتُمُ العَجْلَ : عَبَدْتُمُ العِجْلَ .

التَّفسيرُ :

ذَكَرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ أَنَّ اللهَ تَعالى قَدْ أَنْعَمَ عَلى بَني إسْرائيلَ بِنِعَمٍ كَثيرةٍ ، وقَدْ جاءتِ الآياتُ هُنا لِتَفْصيلِ هَذِهِ النِّعَمِ ومِنْها :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

أوّلاً : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أيْ : اذْكُروا نِعْمَتي عَلَيْكُمْ ، وَقْتَ أَنْ أَنْجيناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، الَّذينَ كانوا يُعَذِّبونَكُمْ أَشَدَّ العذابِ ، لِيُذِلّوكُمْ ويَحْتَقِروكُمْ ، فَيقتُلونَ أَوْلادَكُمُ الذُّكورَ ، ويَسْتَبْقونَ الإناثَ أَحياءً لِيَقُمْنَ بِخِدْمَتِهِمْ ، لإِضْعافِكُمْ ، وإِذْلالِكُمْ ، إِذْ إِنَّ هذا الفِعْلَ يُؤَدّي إلى قَطْعِ نَسْلِ بني إِسْرائيلَ ، وفي ذٰلِكُمُ العَذابِ وتِلْكُمُ النَّتيجَةِ امْتِحانٌ لَكُمْ وابْتِلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، لِتَشْكُروا اللهَ وتَتْرُكوا مَعْصِيَتَهُ ، وفي هَذا بيانٌ لِلْيَهودِ بِأَنَّهُمْ كانوا مِنْ قَبْلُ أَذِلّاءَ وكانَ عَدوُّهُمْ في عِزٍّ . كانوا عَلى حَقٍّ ، وكانَ عَدوُّهُمْ عَلى باطِلٍ ، ولكنَّ اللهَ خَذَلَ الباطِلَ ونَصَرَ الحَقَّ ، فلا تَغْتَرّوا بِكَثْرةِ أَمْوالِكُمْ ، ولا بِقُوَّةِ سُلْطانِكُمْ ، ولا تَسْتَهينوا بالمُسْلِمينَ ، فإِنَّهُمْ عَلى حَقٍّ ، ومَنْ كانَ عَلى حَقٍّ ، فإِنَّ اللهَ ناصِرُهُ لا مَحالَةَ .

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

ثانياً : والنِّعْمَةُ الثّانِيَةُ ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أيْ : اذْكُروا أيْضاً مِنْ نِعَمِ اللهِ الّتي أَنْعَمَها عَلَيْكُم ، نِعْمَةَ انْفِصالِ البَحْرِ حينَ ضَرَبَهُ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِعَصاهُ ، فَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى موسى بِأَنْ يَرْحَلَ وقَوْمَهُ مِنْ مِصْرَ ، بَعْدَ تَعرُّضِهِمْ لِلأَذى ، فَخَرَجوا ، ولَكِنَّ فِرْعَوْنَ ـ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ ـ لَحِقَ بِهِمْ هُوَ وجُنودُهُ ، فَخافَ بَنو إِسْرائيلَ ولَجَأوا إلى موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فطَمْأَنَهُمْ بِأَنَّ مَعهُ ربَّهُ سَيَهديهِ إلى طَريقِ النَّجاةِ ، وأَمَرَهُ اللهُ بِأَنْ يَضْرِبَ بِعَصاهُ البَحْرَ ، فانْشَقَّ الماءُ ، وكانتْ كُلُّ جِهَةٍ مِنْ جِهَتي البَحرِ كالجَبَلِ العَظيمِ ، فَمَرَّ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ومَعَهُ بَنو إِسْرائيلَ مِنْ جِهَتَي البَحْرِ . فَأَنْجاهُمُ اللهُ تَعالى ، ولَمْ يَكْتَفِ بهذا فَقَط ، وَلكنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً عَظيمةً أُخْرى ، وهِيَ أَنَّهُ تَعالى أَهْلَكَ عَدُوَّهُمْ وأَغْرَقَهُ ، فأَغْرَقَ اللهُ سُبْحانَهُ فِرْعَوْنَ ومَنْ مَعَهُ جَميعاً ، وهُمْ يَنْظُرونَ ، ويُشاهِدونَ تِلْكَ المُعْجِزَةَ بأَعْيُنِهِمْ ، وأَحَسّوا عِنْدَ ذَلِكَ بالأَمْنِ والاطْمِئْنانِ ، وفي مُشاهَدَتِهِمْ لِهَلاكِ عَدُوِّهِمْ ما يَدْعوهُمْ لِلثَّباتِ والانْقِيادِ لأوامِرِ اللهِ ، وبَيانٌ لَهُمْ بِأَنَّ الّذي أَعَزَّهم ونَصَرَهُمْ بَعْدَ أَنْ كانوا أَذِلّاءَ ، قادِرٌ عَلى أَنْ يُذِلَّهُمْ ويُعِزَّ غَيْرَهُمْ إِنْ هُمْ لَمْ يَعْمَلوا بِشَرْعِهِ ويَنْقادوا إِلَيْهِ سُبْحانَهُ .

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

ثالثاً : ذَكَّرَتْهُمُ الآياتُ بِنِعْمَةٍ أُخْرى أَنْعَمَها اللهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَدْ طَلَبوا مِنْ نَبِيِّهِمْ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بَعْدَ أَنْ نَجّاهُمُ اللهُ تَعالى ، أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، لِيَعْمَلوا بِأَحْكامِهِ ،

فوَعَدَهُ اللهُ تَعالى أنْ يُعْطِيَهُ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ يَنْقَطِعَ لِعبادةِ اللهِ ومُناجاتِهِ أرْبَعينَ لَيْلَةً ، وذَهَبَ بَعْدَها لِميقاتِ ربِّهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، فاسْتَبطأَهُ بنو إسْرائيلَ واتَّخذوا عِجْلاً مِنْ ذَهَبٍ ، فَعَبدوهُ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى . ولا شَكَّ في أَنَّهُمْ ظَلَموا أنْفُسَهُمْ بِعبادةِ غَيْرِ اللهِ تَعالى ، ومَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ اللهَ تَعالى لَمْ يُعاجِلْهُمْ بالعُقوبَةِ ، بَلْ قَبِلَ تَوْبَتَهُمْ وعَفا عَنْهُمْ ، لِيَكونوا مِنَ الشّاكِرينَ المُوَحِّدينَ للهِ تَعالى الطّائِعينَ لَهُ .

وقَدْ ذَكَّرَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بهذِهِ النِّعْمَةِ ، لِيُبيِّنَ لَهُمْ بِأَنَّ تَكْذيبَهُمْ بِسيِّدِنا مُحمَّدٍ ﷺ ، ومُعانَدَتَهُمْ لِلحَقِّ ، لَيْسَ أَمْراً جَديداً عَلَيْهِمْ ، بَلْ هُو مَعهودٌ مِنْهُمْ مَعَ رُؤْيَتِهِمْ للآياتِ الواضِحَةِ .

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣ ﴾ .

رابعاً : وقَدْ ذَكَّرَتْهُمُ الآياتُ بِنعمةٍ رابعةٍ فيها صَلاحُ أُمورِهِمْ ، وهِيَ مِنَّةٌ عَظيمةٌ امْتَنَّها اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَهِيَ إيتاؤُهُمُ الكِتابَ ، وما فيهِ مِنَ الشَّرائِعِ والأَحْكام المفرِّقَةِ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ ، والحلالِ والحَرامِ ، لِيَكونَ سَبَباً في هِدايَتِهِمْ وعِبادَتِهِمْ للهِ تَعالى وحْدَهُ ، وإنَّ مِنْ كَمالِ اهْتِدائِهِمْ أَنْ يَعْرِفوا أنَّ ما جاءَ بِهِ مُحمَّدٌ ﷺ هُوَ هُدىً ونورٌ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُؤْمِنُ الحَقُّ يُسَلِّمُ بِقَضاءِ اللهِ تَعالى وقَدَرِه ، ويَتوكَّلُ عَلَيْهِ حَقَّ التَّوكُّلِ .

٢ـ قُدرَةُ اللهِ عَلى إهْلاكِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ لِطُغْيانِها وتَكَبُّرِها .

٣ـ إيمانُ أَهْلِ الكِتابِ لا يَكْمُلُ إلاّ بإيمانِهِمْ بِنُبُوَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ .

٤ـ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ عَلى الإنْسانِ ما أنْزَلَهُ عَلَيْه مِنْ كُتُبٍ لِيَهْتَديَ بها إلى طَريقِ الحَقِّ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ كَيْفَ عامَلَ آلُ فِرْعَوْنَ بني إسْرائيلَ ؟

٢ـ ما الضَّرَرُ الّذي يُمْكِنُ أَنْ يَلْحَقَ بِبني إسْرائيلَ نَتيجَةَ قَتْلِ أَوْلادِهِمُ الذُّكورِ ؟

٣ـ كَيْفَ نَجّى اللهُ تَعالى بَني إسْرائيلَ مِنْ فِرْعَونَ وجُنودِهِ ؟

٤ـ ضَعْ دائِرةً حَوْلَ رَمْزِ الإجابةِ الصَّحيحةِ :

ـ واعَدَ اللهُ تَعالى موسى عَليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

أـ خَمْسينَ ليلةً .

ب ـ ثَلاثينَ ليلةً .

ج ـ أرْبَعينَ ليلةً .

د ـ خَمْساً وعِشْرينَ ليلةً .

ـ مَعنى : يَسْتَحْيون نِساءكُمْ :

أـ يَقْتُلونَ النِّساءَ .

ب ـ يُحيونَهنَّ حَياةً طيِّبَةً .

ج ـ يُعيدونَ النِّساءَ إلى أَوْطانِهِنَّ .

د ـ يَتْرُكوهُنَّ أحياءَ لِلْخِدْمَةِ .

٥ـ كَيْفَ قابَلَ اللهُ تَعالى جُحودَ أُولئكَ اليَهودِ باتِّخاذِهِمُ العِجْلَ مَعْبوداً لَهُمْ ؟

٦ـ ما الفُرْقانُ الّذي أَعْطاهُ اللهُ لِموسى عَليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

نَشاطٌ :

ـ وَرَدتْ آيةٌ في كِتابِ اللهِ تُبيِّنُ ما فَعَلَ اللهُ تَعالى بِجَسَدِ فِرْعَوْنَ ، اسْتَخْرِجْها ، ذاكِراً اسْمَ السّورةِ ورَقْمَ الآيةِ ، واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الخامِسَ عَشَرَ

سورَةُ البَقرَةِ ـ القِسْمُ الثّالِثَ عَشَرَ

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

بارِئِكُمْ	خالِقِكُمْ ، الخالِقُ لِلْمَخْلوقاتِ بلا تَفاوُتٍ بَيْنَها .
جَهْرَةً	مُعايَنَةً وعَلانِيَةً .
الصّاعِقَةُ	كُلُّ أمْرٍ هائِلٍ وعَظيمٍ يَراهُ الرّائي فَيكونُ فيهِ هَلاكُهُ وذَهابُ عَقْلِهِ .
بَعَثْناكُمْ	أَحْيَيْناكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ .
الغَمامَ	السَّحابَ .
المَنَّ	مادةٌ صِمْغِيَّةٌ تَسْقُطُ عَنِ الشَّجَرِ ، طَعْمُها حُلْوٌ يُشْبِهُ طَعْمَ العَسَلِ .
السَّلْوى	طائِرٌ بَرِّيٌّ طَيِّبُ اللَّحمِ ، سَهْلُ الصَّيْدِ .

التَّفسيرُ :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

ما زالتِ الآياتُ تُحاوِرُ بني إسْرائيلَ وتُذَكِّرُهُمْ بما أَنْعَمَهُ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ ، فَيقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ

وتَعالى : اذْكُروا وَقْتَ أَنْ قالَ نَبِيُّكُمْ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لِمَنْ عَبَدَ العِجْلَ مِنْكُمْ : يا قوم إنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بعبادَةِ غَيْرِ اللهِ تَعالى ، حَيْثُ عَبَدتُمُ العِجْلَ الّذي لا يَتَكلَّمُ ، ولا يَسْمَعُ ولا يَعي ، وهُوَ مِنْ صُنْعِكُمْ أَنْتُمْ ، فإذا أرَدْتُمْ أَنْ تُكَفِّروا عَنْ خَطيئَتِكُمْ ، فَيَنْبَغي عَلَيْكُمْ أوّلاً أَنْ تَتوجَّهوا إلى رَبِّكُمْ بالتَّوْبَةِ الصّادِقَةِ الخالِصَةِ ، ومِنْ أَوَّلِ ما تَتطلَّبُهُ هذهِ التَّوْبَةُ تَرْكُ عِبادَةِ العِجْلِ الّذي عَمِلوهُ بأَيْديهِمْ ، والالْتِزامُ بعبادَةِ اللهِ تَعالى وحْدَهُ ، الّذي خَلَقَهُمْ وصَوَّرَهُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَهُمْ .

وَأَمَرَهُمْ ثانياً : أَنْ يَقْتُلوا أَنْفُسَهُمْ ، حتّى تكونَ تَوْبَتُهُمْ مَقبولَةً ، أي : أَنْ يَقْتُلَ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ العِجْلَ مَنْ عَبَدَهُ ، فالمَعْنى لِيَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، فإنَّ قَتْلَ المَرْءِ لأَخيهِ كَقَتْلِهِ لِنَفْسِهِ ، وهذا الّذي أَمَرَكُمْ بِهِ سُبْحانَهُ خَيْرٌ لَكُمْ ، لأَنَّهُ يُطَهِّرُكُمْ مِنْ رِجْسِ الشِّرْكِ الّذي دَنَّسْتُمْ بِهِ أَنْفُسَكُمْ ، ويَجْعَلُكُمْ أَهْلاً لما وَعَدَكُمْ بِهِ سُبْحانَهُ في الدُّنْيا ، وأَهْلاً لِثوابِهِ يَوْمَ القِيامةِ . قالَ تَعالى عَلى لِسانِ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ فَذَكَرَ كَلِمَةَ (بارىء) مرَّةً ثانِيةً ، لِيُشْعِرَهُمْ بِأَنَّ عِبادَةَ مَنْ بَرَأَهُمْ وخَلَقَهُمْ في أَحْسَنِ تَقويمٍ خَيْرٌ لَهُمْ في دُنياهُمْ وآخِرَتِهِمْ .

ثُمَّ قالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذهِ الجُمْلَةُ مِنْ كَلامِ اللهِ ، والجُمْلَةُ مَعْطوفَةٌ عَلى مَحذوفٍ ، تَقْديرُهُ : فَفَعَلْتُمْ ما أَمَرَكُمْ بِهِ موسى ، فَتابَ عَلَيْكُمْ ، إنَّهُ هُوَ التَّوابُ الرَّحيمُ . وفي هذا إخْبارٌ وثَناءٌ عَلى اللهِ تَعالى ، وما اتَّصَفَ بِهِ مِنْ عَفْوٍ ورَحْمَةٍ . وقَدْ أَكَّدْ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى ، حتّى لا يَشُكّوا في قَبولِ اللهِ تَعالى لِتَوْبَتِهِمْ ، وذلِكَ لِعِظَمْ جَريمَتِهِمْ ، ولولا رَحْمةُ الله تَعالى بِهِمْ لَعَجَّلَ بإهْلاكِهِمْ ، بِسَبَبِ ذُنوبِهِمْ الّتي مِنْ أَعْظَمِها الشِّرْكُ بِهِ .

وتَذْكُرُ الآياتُ نِعْمَةً أُخْرى أَسْبَغَها اللهُ عَلى بَني إسْرائيلَ ، عَلى الرُّغْمِ مِنْ مَطالِبِهِمُ المُتَعَنِّتَةِ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

اذْكُروا وَقْتَ أَنْ كابَرْتُم وجَحَدْتُمْ ، وتَجاوَزْتُمْ حُدودَكُمْ ، فَقُلْتُمْ لِنبِيِّكُمْ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ، ولَنْ نُقِرَّ بما جِئْتَنا بِهِ ، أَوْ نَعْمَلَ بما تَأْمُرُنا ، حتّى نَرى اللهَ عَياناً وعَلانيةً ، فَيَظْهَرُ أَمامَنا ويَأْمُرُنا بالإيمانِ بكَ وبما جِئْتَ بهِ . وفي طَلَبِهِمْ دليلٌ عَلى تَمرُّدِهِمْ وعِصْيانِهِمْ ، وقِلَّةِ اكْتِراثِهِمْ بما آتاهُمُ اللهُ مِنْ نِعَمٍ ، وما شاهَدوهُ مِنْ مُعْجِزاتٍ ، فهاهُمْ يَطْلُبونَ رُؤْيَةَ اللهِ عَياناً ، ولا يَكْتَفونَ بما يُشاهِدونَهُ مِنْ آثارٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ ، فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ إلاّ بِما يُشاهِدونَهُ ويَحُسّونَهُ ، وهذا لا شَكَّ دليلٌ عَلى غِلْظَةِ قُلوبِهِمْ .

ولِمُكابَرَةِ بَنى إسْرائيلَ وعِنادِهِمْ فاجَأَتْهُمْ عُقوبةُ اللهِ تَعالى ، ففورَ طَلَبِهِمْ هذا الطَّلَبَ مِنْ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ أَخَذَتْهُمُ الصّاعِقَةُ ، وهذا تَدُلُّ عَلَيْهِ (الفاءُ) في : (فَأَخَذَتْكُم) ، لأنَّها تَدُلُّ عَلى التَّعقيبِ ، فَحَلَّتْ بِهِمُ العُقوبةُ الّتي صَعَقَتْهُمْ وهُمْ يُشاهِدونَها بِعُيونِهِمْ ، وحَلَّ بِهِمُ الرُّعْبُ والخَوْفُ ،

قَبْلَ أَنْ يُصيبَهُمُ العَذابُ في أجْسادِهِمْ ، وَتَدُلُّ الآيَةُ عَلى أنَّ المَوْتَ قَدْ حَلَّ بِهِمْ بَعْدَ تِلْكَ الصّاعِقَةِ ، لِسوءِ أَدَبِهِمْ .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

ومَعَ ذلكَ كُلِّهِ فإنَّ اللهَ تَعالى مِنْ رَحْمَتِهِ بعبادِهِ ، أحْياهُمْ بَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ ، قالَ تَعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم ﴾ ، وثُمَّ : تَدُلُّ عَلى التَّراخي الزَّمَنيِّ ، أحْياهُمُ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ ، لَعَلَّهُمْ بَعْدَ هذهِ النّعْمَةِ يَشْكُرونَ اللهَ ، فَيُقْبِلونَ عَلى عِبادَتِهِ وطاعَتِهِ ، وطاعَةِ نَبِيِّهِ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

وهذهِ الآياتُ جاءتْ لِتُحَذِّرَ اليَهودَ الّذينَ كانوا مُعاصِرينَ للرَّسولِ ﷺ حتّى لا يَكونوا مِثْلَ آبائِهِمْ في سُوءِ الأَدَبِ مَعَ اللهِ ، فلا تَحِلُّ بِهِمُ العُقوبَةُ .

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

وتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتُحَدِّثَنا عَنْ نِعْمَةٍ أُخْرى أَنْعَمَها اللهُ عَلى بَنى إسْرائيلَ ، فَبَعْدَ أنْ بَعَثَهُمُ اللهُ مِنَ المَوْتِ ، تاهَ بَنو إسْرائيلَ ما بَيْنَ مِصْرَ والشَّامَ ، كَما قالَ تَعالى : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة : ٢٦] ، وكانوا في هَذهِ المُدَّةِ يُظِلُّهُمْ الغَمامُ لِيَقيهِمْ حَرَّ الشَّمْسِ ، وحَرارةَ الجَوِّ ، وأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بالطَّعامِ اللَّذيذِ ، مِنْ دونِ تَعَبٍ مِنْهُمْ في تَحْصيلِهِ ، وهُوَ المَنُّ والسَّلْوى ، وقالَ لَهُمْ كُلوا مِنْ هَذهِ الطَّيِّباتِ الّتي رَزَقْناكُمْ ، واشْكُروا اللهَ الّذي رَزَقَكُمْ هَذهِ النِّعَمَ ، إذْ لَوْلاها لَهَلَكْتُمْ ، ولَكِنَّكُمْ مَعَ ذَلِكَ كَفَرْتُمْ بِها ، فَظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ؛ لأَنَّكُمْ أَبْعَدْتُموها عَنْ طَريقِ الحَقِّ ، وهُمْ في هَذا لَمْ يَضرّوا اللهَ شَيْئاً ، فإنَّ اللهَ تَعالى لا تَضرُّهُ مَعصيةُ عاصٍ ولا تَنْفَعُهُ طاعَةُ مُطيعٍ ، ولا يَزيدُ في مُلْكِهِ عَدْلُ عادِلٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أَنْعَمَ اللهُ تَعالى عَلى الإنْسانِ بالعَقْلِ ، لِيُرْشِدَهُ إلى عِبادَتِهِ وَحْدَهُ ، وإلى أنَّ كُلَّ ما سِوى اللهِ هُوَ مِنْ صُنْعِ اللهِ تَعالى فلا يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ .

٢ـ التَّوْبَةُ الصّادِقَةُ هِيَ الّتي تُنَقّي المُؤْمِنَ مِنْ ذُنوبِهِ .

٣ـ الآياتُ المَبْثوثَةُ في الكَوْنِ ، كُلُّها تَدُلُّ عَلى وُجودِ الخالِقِ سُبْحانَهُ .

٤ـ لُطْفُ اللهِ ورَحْمَتُهُ بِعبادِهِ ، فلا يُعاجِلُهُمْ بالعُقوبَةِ ، بَلْ يُمْهِلُهُمْ عَلَّهُمْ يَرْشُدونَ .

٥ـ نِعَمُ اللهِ عَلى الإنْسانِ كَثيرةٌ ، وهِيَ تَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ ، وبالشُّكْرِ تَدومُ النِّعَمُ .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعنى كلمةِ البارِىء ؟

٢ـ أَرْشَدَ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قَوْمَهُ ، بَعْدَ عِبادَتِهِمُ العِجْلَ ، إلى أَمْرَيْنِ ، ما هُما ؟

٣ـ لماذا أكَّدَ سُبْحانَهُ وتَعالى قَبولَهُ التَّوْبَةَ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِقولِهِ : (اقْتُلوا أَنْفُسَكُمْ) ؟

٥ـ لِماذا طَلَبَ اليَهودُ مِنْ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَنْ يَروْا اللهَ جَهْرَةً ؟

٦ـ ما العِقابُ الّذي حَلَّ بِهِمْ نَتيجةَ طَلَبِهِمْ رُؤْيَةَ اللهِ ؟

٧ـ ما معنى : ثُمَّ بَعَثْناكُمْ ؟ وهلْ كانَ هذا مُباشَرَةً بَعْدَ مَوْتِهِمْ ؟

٨ـ أَنْعَمَ اللهُ عَلى بَني إسْرائيلَ بَعْدَ بَعْثِهِمْ بِنِعْمَتَيْنِ ، ما هُما ؟

نَشاطٌ :

١ـ مِنْ سوءِ أَدَبِ اليهودِ مَعَ نَبِيِّهِمْ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنَّهُمْ نادوْهُ باسْمِهِ (يا موسى) كَيْفَ كانَ يُنادي الصَّحابَةُ رسولَ اللهِ ﷺ ؟ اذْكُرِ الآيَةَ الّتي عَلَّمَتْهُمْ كَيْفَ يُخاطِبونَ الرَّسولَ ﷺ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ثَلاثَةَ أُمورٍ طَلَبَها مُشْرِكو العربِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ .

٣ـ بَيَّنَتْ آياتٌ أُخْرى مِنْ كِتابِ اللهِ ، أَنَّ اللهَ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ كَذلِكَ بالماءِ ، ما الَّذي فَعَلَهُ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ لِيَأْتِيَهُمْ بالماءِ ؟ اذْكُرِ الآيَةَ القُرْآنِيَّةَ الدّالَّةَ عَلى ذلِكَ .

* * *

الدَّرسُ السَّادِسَ عَشَرَ

سورةُ البقرةِ ـ القِسْمُ الرّابِعَ عشَرَ

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

رَغَداً	هَنيئاً ذا سَعَةٍ .
حِطةٌ	: حُطَّ عنّا ذُنوبَنا ، أيْ اغْفِرْ لَنا خَطايانا .
المُحْسِنينَ	مَنْ يَفْعلونَ ما يَجْمُلُ في نظَرِ العَقْلِ ، ويُحْمَدُ في لِسانِ الشَّرْعِ .
رِجْزاً	عَذاباً .
القَرْيَةَ	مَكانَ مُجْتَمعِ النّاسِ .
اسْتَسْقى	طَلَبَ السُّقْيا عِنْدَ عَدَمِ وُجودِ الماءِ أوْ حَبْسِ المَطَرِ .
تَعْثَوْا	تُفْسِدوا .

التَّفسيرُ :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

تَذْكُرُ الآياتُ نِعْمَةً عَظيمَةً أَنْعَمَها اللهُ عَلى بَني إسْرائيلَ ، وهِيَ تَخْليصُهُمْ مِنَ التّيهِ الّذي كانوا

فيهِ ، وإدْخالُهُمْ بَلْدَةً فيها الرَّغَدُ والعَيْشُ الهَنيءُ ، فَقَدْ أَمَرَهُمُ اللهُ تَعالى بِدُخولِ القَرْيَةِ ، الّتي يُرَجِّحُ المُفَسِّرونَ أَنَّها بَيْتُ المَقْدِسِ ، وأَباحَ لَهُمْ أنْ يَأْكُلوا مِنْ خَيْراتِها الوَفيرةِ ، أكْلاً هَنيئاً ، وأَمَرَهُمْ أَنْ يَدْخُلوا بابَ القَرْيَةِ خُشَّعاً ناكسي رُؤوسِهِمْ للهِ تَعالى ، ساجدينَ لَهُ شُكْراً عَلى خَلاصِهِمْ مِنَ التّيهِ ، وعلى ما أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمٍ ، مُتَوسِّلينَ إليهِ سُبْحانَهُ أَنْ يَحُطَّ عَنْهُمْ ذُنوبَهُمْ ، ويَغْفِرَ لَهُمْ خَطاياهُمْ ، ويُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ، فإنْ أَنْتُمْ فَعَلْتُمْ ما أَمَرَكُمْ اللهُ بِهِ وهوَ عَمَلٌ يَسيرٌ عَلَيْكُمْ ، وإنْ قُلْتُمْ ما أَمَرَكُمْ اللهُ بِقَوْلِهِ ، غَفَرَ اللهُ لَكُمْ وكَفَّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ ، وزادَ المُحْسِنَ مِنْكُمْ خَيْرَ الجَزاءِ ، ولَكِنْ ، هَلْ فَعَلَ اليَهودُ ما أَمَرَهُمْ اللهُ بِهِ ؟

لا ، لَمْ يَفْعَلوا ، فَمِنْ حَيْثُ الأَقوالُ بَدَّلوا القَوْلَ الّذي أَمَرَهُمْ اللهُ بِهِ ، وبَدَّلوا الفِعْلَ كَذلِكَ ، فَأَتوا بِقَوْلٍ آخَرَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ عَلى وَجْهِ العِنادِ والاسْتِهْزاءِ بِأَوامِرِ اللهِ تَعالى ، ودَخَلوا عَلى غَيْرِ الهَيْئَةِ الّتي أَمَرَهُمُ اللهُ بِها .

أَخْرَجَ البُخاريُّ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ : أَنَّهُ قالَ : « قيلَ لِبَني إسْرائيلَ : ادْخُلوا البابَ سُجَّداً وقولوا حِطَّةٌ ، فَبَدَّلوا ودَخَلوا يَزْحَفونَ عَلى أَسْتاهِهِمْ ، وقالوا : حَبَّةٌ في شَعيرةٍ »[1] .

ونَتيجَةً لِمُخالَفَتِهِمْ لأَمْرِ اللهِ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ رِجْزاً ، أَيْ : عذاباً مِنَ السَّماءِ ، وقَدْ كانَ هذا العَذابُ مِنَ السَّماءِ ، أَيْ : مِنْ فَوْقِهِمْ ، حتَّى لا يَسْتَطيعوا دَفْعَهُ أَوِ التَّخَلُّصَ مِنْهُ ، وهَذا العَذابُ نَزَلَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ وظُلْمِهِمْ وفِسْقِهِمْ ، أي : خُروجِهِمْ عَنْ طاعَةِ اللهِ تَعالى .

سِقايَةُ بني إسْرائيلَ :

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

ومِنَ النِّعَمِ الّتي أنْعَمَها اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ ، أَنَّهُمْ بَعْدَ أَنّ اشْتَدَّ عَطَشُهُمْ عِنْدَما كانوا في الصَّحراءِ القاحِلَةِ حيثُ لا ماءَ ولا ظِلَّ ولا شَجَرَ ، طَلَبوا مِنْ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ الماءَ ، فَتَوسَّلَ إلى اللهِ تَعالى في خُشوعٍ وخُضوعٍ وتَضَرُّعٍ ، أَنْ يَمُدَّهُمْ بالماءِ ، فَأَوْحى اللهُ لَهُ حينَ ذلكَ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصاهُ الحَجَرَ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ، فانْفَجَرَتْ مِنَ الحَجَرِ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً ، بِعَدَدِ أَسْباطِهِمْ ، فَقَدْ بَيَّنَتْ سورَةُ الأَعْرافِ أَنَّ اللهَ تَعالى قَدْ قَطَّعَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سِبْطاً أَيْ : فِرْقَةً ، وهذا هُوَ عَدَدُ أَولادِ سَيِّدِنا يَعقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ولِذا أَعْطاهُمُ اللهُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْناً ، مَعَ العِلْمِ أَنَّ عَيْناً واحِدَةً كانَ يُمْكِنُ أَنْ

(١) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب : (وإذ قلنا ادخلو هذه القرية) .

تَكْفيَهُمْ . وقَدْ عَلِمَ كُلُّ سِبْطٍ مِنْهُمْ مَكانَ العَيْنِ الّتي يَشْرَبُ مِنها ، وهذا لا شَكَّ يَدُلُّنا عَلى ما جُبِلَ عَلَيْهِ بَنو إسْرائيلَ مِنَ الحَسَدِ والنَّعْرَةِ العِرْقِيَّةِ الّتي يَمْقُتُها اللهُ ، أي : التَّعَصُّبُ ، إذْ كُلُّ فَرْدٍ مُتَعَصِّبٌ لِسِبْطِهِ ، فلا يَشْرَبُ إلاّ مِنَ العَيْنِ الّتي هِيَ لَهُ ، ويَدُلُّنا عَلى أَنَّهُمْ أُمَّةٌ مُتَفَرِّقَةٌ ، فَمَعَ أَنَّهُم مِنْ أبٍ واحِدٍ هُوَ يَعقوبُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، إلاّ أَنَّهُمْ تَفَرَّقوا إلى اثْنَتَي عَشْرَةَ سِبْطاً .

وبَعْدَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بالماءِ أَمَرَهُمْ أَنْ يَأْكُلوا مِمّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ مَنٍّ وسَلْوى ، وَلِيَشْرَبوا مِمّا رَزَقَهُمُ اللهُ تَعالى ، ولا يَعْثَوْا في هذهِ الأَرْضِ فَساداً ، حتّى لا تَتحوَّلَ تِلْكَ النِّعَمُ الّتي بَيْنَ أيْديهِمْ إلى نِقَمٍ ، بِسَبَبِ بَطَرِهِمْ وغُرورِهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الّذي يُبَدِّلُ أَوامِرَ اللهِ تَعالى ويُغيِّرُها هُوَ مِنَ الظّالِمينَ ، ويُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِسوءِ المَصيرِ .

٢ـ النِّعْمَةُ لابُدَّ وأَنْ تُقابَلَ بالشُّكْرِ . والبَطَرُ والغُرورُ هُوَ اسْتِعْمالُ النِّعْمةِ في غَيْرِ ما وُضِعَتْ لَهُ .

٣ـ اليَهودُ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ مَجْبولونَ عَلى حُبِّ المُخالَفَةِ لأوامِرِ اللهِ تَعالى ، وعلى التَّمْييزِ العُنْصُريِّ فيما بَيْنَهُمْ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ أَيُّ قَرْيَةٍ تِلْكَ الَّتي أَمَرَ اللهُ بني إسْرائيلَ دُخولَها ؟

٢ـ ما الَّذي أَمَرَهُمْ بِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى حينَ يَدْخُلونَ القَرْيَةَ ؟

٣ـ هَلِ اسْتَجابوا لأَمْرِ اللهِ تَعالى فَفَعلوا وقالوا كَما أَمَرَهُمْ ؟

٤ـ ما النَّتيجَةُ الّتي لَقِيَها بَنو إسْرائيلَ لِتَبْديلِهِمْ أوامِرَ اللهِ ؟

٥ـ لِماذا كانَ العَذابُ الّذي حَلَّ بِهِمْ نازِلاً مِنَ السَّماءِ ؟

٦ـ ما مَعنى : اسْتَسْقى موسى لِقَوْمِهِ ؟

٧ـ بِمَ أَمَرَ اللهُ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسّلامُ لإِسْقاءِ قَوْمِهِ ؟

٨ـ لِماذا أنْعَمَ اللهُ عَلى بَنى إسْرائيلَ باثْنَتي عَشْرَةَ عَيْناً ؟

٩ـ ما الّذي نَسْتَنْتِجُهُ مِنْ إعْطاءِ بَني إسْرائيلَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْناً ؟

١٠ـ ما الأوامِرُ الّتي أمَرَهُمْ بِها سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ أَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بالماءِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ قارِنْ بَيْنَ مَوْقِفِ اليَهودِ في طَلَبِهِمْ لِلنِّعَمِ مِنَ اللهِ تَعالى ، ومَوْقِفِ الصَّحابةِ مَعَ الرَّسولِ ﷺ ، هَلْ كانوا يَطْلُبونَ ، أَوْ أَنَّهُمْ كانوا يُقَدِّمونَ ما عِنْدَهُمْ ؟

٢ـ صِفْ حالَ اليَهودِ عِنْدَ دُخولِهِمُ القَرْيَةَ ، واكْتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حادِثَةً تَدُلُّ عَلى طَلَبِ الرَّسولِ ﷺ الماءَ مِنْ رَبِّهِ لِيَشْرَبَ أَصْحابُهُ .

* * *

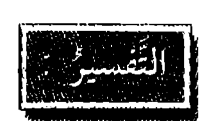
الدَّرْسُ السَّابِعَ عَشَرَ

سورةُ البقرةِ ـ القِسْمُ الخامِسَ عشَرَ

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

معاني المفردات

بَقْلِها	: ما تُنْبِتُهُ الأَرْضُ مِنَ الخُضَرِ مِمّا يَأْكُلُهُ النّاسُ والأَنْعامُ .
قِثّائِها	: القِثّاءُ نباتٌ يُشْبِهُ الخيارَ ، ويُسميّهُ العامّةُ (القِثَّة) و(الفقّوس) .
فومِها	: يُقالُ هِيَ الثّوْمُ المَعروفُ .
الذِّلَّةُ	: خُلُقٌ خَبيثٌ في النَّفْسِ ، وهُوَ ضِدُّ العِزَّةِ ، وهُوَ الهَوانُ والحَقارَةُ .
المَسْكَنَةُ	: الضَّعْفُ النَّفْسيُّ والفَقْرُ القَلْبيُّ الّذي اسْتَوْلى عَلى بَني إسْرائيلَ .
باءوا بِغَضَبٍ	: رَجَعوا مَصْحوبينَ بِغَضَبٍ منَ اللهِ .



﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

لَقَدْ جُبِلَ بَنو إسْرائيلَ عَلى البَطَرِ ، فَقَدْ مَلَكَ هذا البَطَرُ أَهْواءَهُمْ حتّى كانوا يَسْتَخِفّونَ بالأَمْرِ

العَظيمِ الّذي هَيّأَهُمُ اللهُ لَهُ ولا يُقيمونَ لَهُ وَزْناً ، وهُوَ التَّمَكُّنُ في الأَرْضِ المَوْعودَةِ ، والخُروجُ مِنَ الذُّلِّ الّذي كانوا فيهِ في مِصْرَ ، ومَعَ كَثْرَةِ ما شاهَدوا مِنْ آياتِ اللهِ الّتي تَدُلُّ عَلى صِدْقِ وَعْدِ اللهِ لَهُمْ ، إلاّ أَنَّهُمْ كانوا في رَيْبٍ مِنْ تِلْكَ الآياتِ ، وكانوا يَظُنّونَ أَنَّ سَيِّدَنا موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ خَدَعَهُمْ بإخْراجِهِمْ مِنْ مِصْرَ ، وجاءَ بِهِمْ إلى البَرِّيَةِ لِيُهْلِكَهُمْ ، فَلِذلِكَ اسْتَمَرّوا عَلى الإكْثارِ مِنَ الطَّلَبِ مِنْ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ ، حتّى يَيْأَسَ مِنْهُمْ ، فَيعودَ بِهِمْ إلى مِصْرَ .

وها هُمُ الآنَ يُواجِهونَ نَبِيَّهُمْ بِبَطَرٍ وبِسوءِ أَدَبٍ : ﴿ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ ﴾ وهو ما أَنْعَمَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ المَنِّ والسَّلْوى ، وهُمْ لَمْ يَقولوا هذا لأَنَّهُمْ مَلّوا مِنَ الطَّعامِ الواحِدِ ، ولكنَّهُمْ لِبَطَرِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ وجُحودِهِم ، بَعْدَ أَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ بالنِّعَمِ الكَثيرةِ ، قالوا لِنَبِيِّهِمْ ﴿لَن نَّصۡبِرَ﴾ بِكَلِمةِ ﴿لَن﴾ الّتي تُفيدُ تَأْكيدَ النَّفْيِ ، فَكَأَنَّهُمْ يَقولونَ لَهُ مُهَدِّدينَ هذا التّهديدَ الدّالَّ عَلى سوئِهِمْ ، لِيُلْجِئوهُ إلى دُعاءِ رَبِّهِ سَريعاً .

وانْظُرْ إلى سوءِ أَدَبِهِمْ في قَوْلِهِمْ لموسى عَلَيْهِ السّلامُ : ﴿ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ولَمْ يَقولوا : (ربَّنا) ، وهو يَدُلُّ عَلى عَدَمِ رُسوخِ الإيمانِ في قُلوبِهِمْ ، إذْ لَوْ أَنَّهم آمَنوا لَكَفَتْهُمُ الآياتُ ، ولَحَمِدوا اللهَ عَلى أَنْ نَجّاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وجُنودِهِ . قالوا لَهُ : سَلْ رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وقِثّائِها وفومِها وعَدَسِها وبَصَلِها ، ادْعُ ربَّكَ أَنْ يُخرِجَ لَنا مِمّا تُنْبِتُهُ الأَرْضُ مِنْ خُضَرٍ وفاكِهَةٍ وثَوْمٍ وعَدَسٍ وبَصَلٍ ، فقالَ لَهُمْ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : ﴿ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ﴾ بالاسْتِفْهامِ التَّوْبيخِيِّ ، أَتَتْرُكونَ شَيْئاً فيهِ خَيْرٌ لَكُمْ ، وتَطْلبونَ ما هُوَ أَخَسُّ وأَصْغَرُ قَدْراً . فالمَنُّ والسَّلوى أَكْثَرُ فائِدَةً ولَذَّةً لَهُمْ .

وقالَ لَهُمْ تَوْبيخاً : ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ ﴾ فإذا كانَ هذا ما تُريدونَهُ ، وَمِثْلُ هَذهِ الأَطْعِمَةِ لا تَكونُ في البوادي والصّحاري ، وإنّما تَكونُ في القُرى والأَمْصارِ ، فاهْبِطوا مِصْراً مِنَ الأَمْصارِ تَجدونَ فيهِ ما تُريدونَ ، وهذا المكانُ غَيْرُ مُعَيَّنٍ ، وموسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمْ يَسْأَلْ رَبَّهُ إجابَةَ طَلَبِهِمْ ؛ لأَنَّهُمْ كانوا مُتَعنِّتينَ بَطِرينَ .

العُقوبةُ الّتي حَلَّتْ بهِمْ :

بَيَّنَتِ الآيةُ بَعْدَ ذَلِكَ العُقوباتِ الّتي حَلَّتْ بِهِمْ ، بِسَبَبِ سوءِ أَدَبِهِمْ وفُجورِهِمْ :

أولاً : ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ وهَذا في الدُّنْيا ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ الذِّلَّةَ والمَسْكَنَةَ مُحيطةً بِهِمْ ، والذُّلَّ والصَّغارَ والهَوانَ . والمَسْكَنَةُ : الضَّعْفُ النَّفْسيُّ والفَقْرُ القَلْبيُّ الّذي يَسْتَوْلي عَلى الشَّخْصِ فَيَجْعَلُهُ يَحُسُّ بالهَوانِ . والفَرْقُ بَيْنَ الذِّلَّةِ والمَسْكَنةِ ، أَنَّ الذِّلَّةَ هوانٌ تكونُ أَسْبابُهُ خارِجَةً عَنْ الإنْسانِ ، كَأَنْ يُغْلَبَ عَلى أَمْرِهِ ، فَينْتَصِرَ عَلَيْهِ عَدُّوهُ فَيَغْلِبُهُ ، أَمّا المَسْكَنَةُ ، فَهِيَ هَوانٌ يَنْشَأُ مِنْ داخِلِ النَّفْسِ نَتيجةَ بُعْدِها عَنِ الحَقِّ واسْتيلاءِ الشَّهواتِ عَلَيْها .

وهَؤلاءِ اليَهودُ عاشوا زَمَناً طَويلاً مُسْتَعْبَدينَ مِنْ كَثيرٍ مِنَ الأُمَمِ ، فَأَكْسَبَهُمْ هذا الاسْتعبادُ ضَعْفاً نَفْسِيّاً ، بحيثُ صاروا لا يُفرِّقونَ بَيْنَ الحياةِ الذَّليلةِ والحياةِ الكَريمةِ .

ثانياً : ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وهَذا في الآخِرَةِ ، فَهُمْ في الدُّنْيا أَذِلّاءُ حَقيرونَ ، وفي الآخِرَةِ سَيَرْجعونَ مَصْحوبينَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، بِسَبَبِ أفْعالِهِمُ القَبيحَةِ .

أَمّا سَبَبُ هذهِ العُقوبَةِ فَقَدْ فَعَلَ بِهِمْ سُبْحانَهُ ذَلِكَ بِسَبَبِ جُحودِهِمْ لآياتِ اللهِ ، وبِسَبَبِ قَتْلِهِمُ لِلنَّبيّينَ وقَدْ جاءتِ الأَفْعالُ بصيغَةِ المُضارِعِ ، لِيَدُلَّ عَلى تَجَدُّدِ هَذا الأَفْعالِ مِنْهُمْ ، فَهيَ دَأَبُهُمْ كُلَّما جاءَهُمْ نَبيٌّ كَفَروا بِهِ وقَتَلوهُ . وقَدْ ذَكَرتِ الآيَةُ أَنَّ قَتْلَهُمْ لِلأَنْبياءِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وذَلِكَ أنَّ قَتْلَهُمْ لَهُمْ كانَ بِغَيْرِ وَجْهٍ يُعْتَدُّ بهِ في شَريعَتِهِمْ ، حيثُ وَرَدَ في شَريعَتِهِمْ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أو فَسادٍ في الأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَميعاً ، فَهُمْ قَدْ فَعَلوا هذا الفِعْلَ عَنْ عَمْدٍ وإصْرارٍ مَعَ عِلْمِهِمْ بِقُبْحِهِ .

فَما حَلَّ باليَهودِ مِنْ عُقوبَةٍ إذاً ، كانَ أوّلاً بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بآياتِ اللهِ ، وهذا هُوَ بِدايَةُ شُرورِهِمْ وآثامِهِمْ ، وبِسَبَبِ قَتْلِهِمْ لأَنْبياءِ اللهِ ثانياً . وثالثاً : لعِصْيانِهِمْ وخُروجِهِمْ عَنْ طاعةِ اللهِ تَعالى . ورابِعاً : لاعْتِدائِهِمْ وتَجاوُزِهِمْ الحُدودَ ، وعَدَمِ مُبالاتِهِمْ بِعُهودِ اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المصائِبُ لابُدَّ وأَنْ تُعَلِّمَ الإنْسانَ وتُخَلِّصَ نَفْسَهُ مِنَ التَّعلُّقِ بالدُّنْيا وما فيها .

٢ـ الرِّضا والقَناعَةُ بِكُلِّ ما يُنْعِمُ اللهُ بِهِ عَلى العَبْدِ فيهِ خَيْرُ الدُّنْيا والآخِرَةِ .

٣ـ مَنْ ساءَ أَدَبُهُ مَعَ اللهِ أَذَلَّهُ اللهُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الَّذي طَلَبَهُ بَنو إسْرائيلَ مِنْ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٢ـ ما السَّبَبُ الّذي جَعَلَهُمْ يَطلُبونَ أصْنافَ الطَّعامِ هذهِ ؟

٣ـ هَلْ كانَ ما طَلَبوهُ أفْضَلَ ممّا أعْطاهُمُ اللهُ مِنْ قَبْلُ ؟

٤ـ ما مَوْقِفُ سَيِّدنا موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ طَلَبِهِمْ هَذا ؟

٥ـ ما المَقصودُ بقولِهِ : اهْبطوا مِصْراً ؟

٦ـ هَلْ دعا لَهُمْ موسى ربَّهُ أَنْ يَرْزُقَهُمْ ما طَلَبوهُ ؟

٧ـ أعَدَّ اللهُ لِلْيَهودِ عَقوبةً دُنْيَوِيَّةً وأُخْرى أُخْرَوِيَّةً ، ما هُما ؟

٨ـ ما الأَسْبابُ الّتي جَعَلَتِ العُقوبَةَ تَحِلُّ بِهِمْ ؟

نَشاطٌ :

١ـ كَيْفَ تَستنتِجُ أنَّ المِصْرَ الّذي أُمِروا الهُبوطَ إليهِ لَيْسَ بلادَ مِصْرَ الّتي خَرَجوا مِنْها ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ مَوْضوعاً عَنْ تَآمُرِ اليَهودِ عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ ومُحاوَلَةِ قَتْلِهِ ، وضَعْهُ في مجلةِ الحائِطِ في المَدْرَسَةِ .

* * *

الدرس الثامن عشر

سورة البقرة ـ القسم السادس عشر

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

هادوا	: صاروا يَهوداً .
الصّابِئونَ	: قَوْمٌ مُوَحِّدونَ يَعتقدونَ بِتَأْثيرِ النُّجومِ ، ويُقِرّون بِبَعْضِ الأَنْبياءِ .
الطّورَ	: جَبَلٌ ناجى موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَيْهِ ربَّهُ .
خاسِئينَ	: الخُسوءُ : الطَّرْدُ والإِبْعادُ والزَّجْرُ .

التَّفسيرُ :

بَيَّنَتِ الآياتُ السّابقةُ حالَ أُولئِكَ اليَهودِ ، وما حَلَّ بِهِمْ مِنْ عُقوباتٍ بِسَبَبِ جُحودِهِمْ وكُفْرِهِمْ ، فَضَرَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ والمَسْكَنَةَ ، بِسَبَبِ ما اقْتَرَفَتْهُ أَيْديهِمْ ،وبِسَبَبِ عِصْيانِهِمْ واعْتِدائِهِمْ على حُدودِ ما شَرَعَ اللهُ تَعالى . وجاءَتِ الآياتُ هُنا لِتَسْتَثْنِيَ مِنْ حُكْمِ الآياتِ السّابِقَةِ بَعْضَ النّاسِ ، فإنَّ فَريقاً لَمْ يَفْعَلوا فِعْلَ يَهودٍ ، فَلَمْ تَنَلْهُمْ عُقوبَةُ اللهِ تَعالى . يقولُ تَعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

وقَدْ تَحدَّثَتِ الآياتُ عَنْ أَرْبَعِ فِرَقٍ مِنْ هَؤلاءِ النّاسِ :

الأولى : فِرْقَةُ الذينَ آمَنوا بالنَّبيِّ ﷺ وصَدَّقوهُ . وابْتَدَأَ بِهذِهِ الفِرْقَةِ ، لِيُبَيِّنَ أَنَّ الفَوْزَ بِرضا اللهِ تَعالى لا يُمْكِنُ أَنْ يَنالَهُ الإنْسانُ إلاّ بالإيمانِ الصّادِقِ ، والعَمَلِ الصّالحِ .

الثّانِيَةُ : الذينَ هادوا : أيْ دَخَلوا في اليَهودِيَّةِ ، والمَقْصودُ الفِرْقَةُ الّتي عُرِفَتْ بِهذا الاسْمِ ، مِمّنِ اتَّبعوا الأَنْبياءَ السّابِقينَ وآمَنوا بِهِمْ ، وعَبَدوا اللهَ وَحْدَهُ وساروا عَلى شَريعَتِهِ .

الثّالِثَةُ : النَّصارى : وهُمْ أَتْباعِ سَيِّدنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ويُرادُ بِهِمْ كَذلِكَ الفِرْقَةُ الّتي عُرِفَتْ بِهذا الاسْمِ ، واتَّبَعَتِ الأَنْبياءَ السّابِقينَ .

الرّابِعَةُ : فِرْقَةُ الصّابِئينَ : فِرْقَةٌ قَريبَةٌ إلى النَّصارى ، تُوَحِّدُ اللهَ تَعالى ، كانَتْ تَعْتَقِدُ بِأَنَّ الكَواكِبَ لها تَأْثيرٌ .

وقَدْ ذَكَرَ القُرآنُ هذهِ الفِرَقَ ، لِيُنَبِّهَ عَلى أَنَّ الإيمانَ الصَّحيحَ والعَمَلَ الصّالِحَ يَرْفَعانِ صاحِبَهُما إلى أعْظَمِ دَرَجاتِ الفَلاحِ ، حتّى لَوْ كانَ مِنْ قَبْلُ قَدْ بَلَغَ دَرَجَةً عَظيمةً في الكُفْرِ والفُجورِ ، فإنَّ الإيمانَ يَجُبُّ ، أيْ : يَمْحو ما قَبْلَهُ .

هَؤلاءِ كُلُّهُمْ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ باللهِ تَعالى إيماناً صَحيحاً ، وآمَنَ كَذلِكَ باليَوْمِ الآخِرِ ، وعَمِلَ العَمَلَ الصّالحَ ، الّذي يُصْلِحُ بِهِ نَفْسَهُ ، وشُؤونَهُ - والعَمَلُ الصّالحُ مَعْروفٌ عِنْدَ اليَهودِ والنَّصارى وغَيْرِهِمْ - فَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنونَ ، فإنَّ اللهَ تَعالى يُعامِلُهُمْ مُعامَلَةً واحِدَةً ، وهُوَ يُعامِلُهُمْ بِسُنَّةٍ واحِدَةٍ ، لا يُحابي فَريقاً عَنْ فَريقٍ ، ولا يَظْلِمُ فَريقاً كَذلِكَ ، وسُنَّتُهُ تَعالى هذهِ بِأَنَّ لَهُمْ أَجْرَهُمْ المَعْلومَ الّذي وَعَدَهُمُ اللهُ تَعالى عَلى لِسانِ رَسولِهِمْ ، ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذابِ اللهِ تَعالى في هذا اليَومِ ، الّذي يَخافُ فيهِ الكُفّارُ والفُجّارُ ، ولا هُمْ يَحْزَنونَ عَلى شَيْءٍ فاتَهُمْ .

وبَعْدَ أَنْ بَيَّنَتِ الآياتُ أَنَّ سَبيلَ النَّجاةِ لِجميعِ النّاسِ هُوَ الإيمانُ باللهِ والعَمَلِ الصّالِحِ ، ومِنْ جُمْلَتِهِمُ اليَهودُ ؛ فإنَّ الآياتِ تُواصِلُ حَديثَها مَعَ بَني إسْرائيلَ لِتُذَكِّرَهُمْ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعالى بِهِمْ ، مَعَ أَنَّهُمْ يَسْتَحِقّونَ عِقابَهُ ، ولكِنَّ اللهَ رَحِمَهُمْ فَأَمْهَلَهُمْ . قالَ تَعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

اذْكُروا يا بني إسْرائيلَ وَقْتَ أَنْ أَخَذَ اللهُ عَلَيْكُمُ العَهْدَ بِأَنْ تَعْبدوهُ وَحْدَهُ ، وتَتَّبِعوا ما جاءَ بِها

الرُّسُلُ . وما تَدُلُّ عَلَيْهِ الآيةُ أنَّهُمْ قَبلوا الإيمانَ وعاهدوا موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَيْهِ ، فَرَفَعَ الطّورَ فَوْقَهُمْ كأَنّهُ ظُلَّةٌ تُظِلّهُمْ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ ، فَكانَتْ آيةً عَظيمَةً تُقوّي الإيمانَ في نُفوسِهِمْ ، ولِذلكَ قالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ : ﴿ خُذُواْمَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ أيْ تَمَسَّكوا بما آتاكُمُ اللهُ تَعالى مِنَ التَّوْراةِ واعْمَلوا فيهِ بِجِدٍّ ونَشاطٍ ، وتَقَبَّلوهُ بِحُسْنِ اسْتِعدادٍ بِحِفْظِهِ والمُحافَظَةِ عَلى العَمَلِ بِهِ ، لأنَّ العَمَلَ هو الّذي يُرَسِّخُ العِلْمَ في النَّفْسِ ، فإنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ عَمَلٌ لَمْ تَكُنْ فائِدَةٌ مِنَ العِلْمِ .

رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ كَرَّمَ اللهُ وجْهَهُ أَنَّهُ قالَ : (يَهْتِفُ العِلْمُ بالعَمَلِ فإنْ أجابَهُ وإلاّ ارْتَحَلَ) . ولا شَكَّ في أنَّ المواظَبَةَ عَلى العَمَلِ بما أرْشَدَ إليْهِ الكِتابُ تَجْعَلُ النَّفْسَ مُتَّصِلَةً باللهِ تَعالى ، وتُشْعِرُ بِرَقابَةِ اللهِ تَعالى عَلَيْها ، فَتصِلُ إلى دَرَجَةِ التَّقْوى .

ما مَوْقِفُ اليَهودِ مِنْ هذهِ النِّعْمَةِ ؟

ولكنْ ماذا كانَ مَوْقِفُ بني إسْرائيلَ ؟ هَلْ عَمِلوا بالكِتابِ ؟ لا ، واللهِ ما عَمِلوا بهِ ، لأنَّ قُلوبَهُمْ صارَتْ كالحِجارَةِ ، وصارَ مِنْ دينِهِمْ دَيْدَنُهُمُ القَوْلَ والإعْراضَ ، وهاهُمْ كَما تُبَيِّنُ الآياتُ يَقولونَ ويُعْرِضونَ عَنْ طاعةِ اللهِ تَعالى ، ولِذلِكَ اسْتَحَقّوا عِقابَ اللهِ تَعالى ، ولكنَّ فَضْلَ اللهِ عَلى بَني إسْرائيلَ ورَحْمَتَهُ بِهِمْ حالَتْ دونَ نُزولِ العِقابِ بِهِمْ ، ولَوْلا ذلكَ لَخَسِروا سَعادةَ الدُّنْيا والآخِرَةِ .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

وقَدْ أباحَ اللهُ تَعالى لِبَني إسْرائيلَ العَمَلَ في أيّامِ الأُسْبوعِ السِّتَّةِ ، عدا يوم السَّبْتِ ، حيثُ فُرِضَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَفرَّغوا في هذا اليَوم للطّاعَةِ والعِبادَةِ ، ولكنَّهُمْ تَجاوزوا حَدَّهُمْ ، فَقَدْ وَرَدَ في سورَةِ الأَعْرافِ أنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الصَّيْدَ يومَ السَّبْتِ ، وقدْ أَلْهَمَ اللهُ تَعالى السَّمَكَ هذا الأَمْرَ بأَنَّهُمْ لا يَصيدونَ يَوْمَ السَّبْتِ ، فكانَتِ الأَسْماكُ تَأْتي إلى السَّواحِلِ القَريبَةِ مِنْهُمْ ، ولا تَأْتي بَقيَّةَ أَيّامِ الأُسْبوعِ ، وكانَ هذا ابْتِلاءٌ مِنَ اللهِ لَهُمْ ، ولَكنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ عَدَوْا في السَّبْتِ ، وصاروا يَصْطادونَ فيهِ ، ولَمْ يُؤثِّرْ فيهِمْ وَعْظُ الواعِظينَ ، فَكانَتْ عُقوبَتُهُمْ أَنْ قالَ اللهَ لَهُم : ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ إنَّ مَنْ يَعْتَدي عَلى شَرْعِ اللهِ تَعالى ويَجْرؤُ عَلى المَعاصي والمُنْكَراتِ بلا حياءٍ ولا خَجَلٍ ، يَنْزِلُ عَنْ صِفَةِ الإنْسانِ ويَصيرُ في مَرْتَبَةِ الحَيواناتِ الّتي لا تَفْقَهُ شَيْئاً ، وهذهِ العُقوبةُ كانَتْ عِبْرَةً ورَدْعاً لِكُلِّ مَنْ جاءَ بَعْدَهُمْ وارْتَكَبَ أَفعالَهُمْ ، عِبْرَةً زاجِرَةً لِمنَ كانَ في زَمَنِ الّذينَ لَحِقَتْ بِهِمُ العُقوبَةُ ، ولِمَنْ جاءَ بَعْدَهُمْ ، ومَوْعِظَةً لِمَنْ يَتَّقي اللهَ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإيمانُ باللهِ تَعالى والعَمَلُ الصّالحُ نَتيجَتُهُ دائِماً الأَمْنُ والطُّمَأْنينةُ وعَدَمُ الحُزْنِ عَلى ما فاتَ .

٢ـ العِلْمُ بالأُمورِ لابُدَّ وأَنْ يَتْبَعَهُ العَمَلُ بِها ، فَلَوْلا العَمَلُ لَذَهبَ العِلْمُ .

٣ـ مَنِ اجْتَرَأَ عَلى حُرُماتِ اللهِ تَعالى نَزَلَ إلى مَرْتَبةِ الحَيواناتِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أمْرَيْنِ يُمْكِنُ أَنْ يَرْفعا الإنْسانَ عِنْدَ اللهِ تَعالى . ما هُما ؟

٢ـ مَنِ الّذينَ هادوا والنَّصارى ؟ ولِماذا ذَكَرَتْهُمُ الآياتُ ؟

٣ـ ما المِيثاقُ الّذي أَخَذَهُ اللهُ تَعالى عَلى بَني إسْرائيلَ ؟

٤ـ ما الآيةُ والمُعْجزَةُ الّتي أراها اللهُ لِبَني إسْرائيلَ نَتيجَةَ إيمانِهِمْ ؟

٥ـ بِمَ أمَرَهُمُ اللهُ تَعالى بَعْدَ أَنْ أراهُمْ آيةَ رَفْعِ الجَبَلِ ؟

٦ـ هل بَقِيَ بنو إسْرائيلَ عَلى إيمانِهِمْ ؟ بَيِّنْ ذلِكَ .

٧ـ لِماذا لَمْ يُعاقِبْهُمُ اللهُ تَعالى نَتيجَةَ نَقْضِهِمْ لِلْميثاقِ ؟

٨ـ أيُّ أيامِ الأُسبوعِ حُرِّمَ عَلى بَني إسْرائيلَ العَمَلُ فيهِ ؟

٩ـ ما الَّذي فَعَلَهُ بَنو إسْرائيلَ يَوْمَ السَّبْتِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الحيلةَ الّتي سَلَكَها اليَهودُ للصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْتِ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعَ عَشَرَ

سورةُ البقرةِ - القِسْمُ السّابعَ عشَرَ

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةًۭ ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًۭا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌۭ لَّا فَارِضٌۭ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌۭ صَفْرَآءُ فَاقِعٌۭ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌۭ لَّا ذَلُولٌۭ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌۭ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

مَعاني المُفرَداتِ

هُزُواً : سُخْرِيَةً .

الجاهِلينَ : الجَهْلُ : فِعْلُ ما لا يَنْبَغي فِعْلُهُ .

فارِضٌ : المُسِنَّةُ الّتي انْقَطَعَتْ وِلادَتُها .

بِكْرٌ : الصَّغيرةُ الّتي لم تَحْمِلْ بَعْدُ .

عَوانٌ : المُتوسِّطَةُ في السِّنِّ .

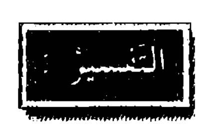
لا ذلولٌ : لا تَحْرُثُ الأَرْضَ ولا تَسْقي الزَّرْعَ .

مُسَلَّمَةٌ : سَلِمَتْ مِنَ العُيوبِ .

لا شِيَةَ : الشِّيَةُ : العَلامَةُ ، أي لا لَوْنَ فيها يُخالِفُ لَوْنَها .

الحَرْثَ : الأَرْضَ المُهَيَّأَةَ للزَّرْعِ .

تُثيرُ : تَقْلِبُ الأَرْضَ للزِّراعَةِ .



﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٦٧ ﴾ .

يقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى : اذْكُروا وَقْتَ أَنْ كانَ هُناكَ في أَسْلافِكُمْ قَتيلٌ ، وأَرادوا مَعْرِفَةَ قاتِلِهِ ، فقالَ لَهُمْ نَبيُّهُمْ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةًۖ ﴾ هَكذا قالَ لَهُمْ ، فالأَمْرُ مِنَ اللهِ تَعالى ولَيْسَ مِنْ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ ، ولكنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ اسْتَهْجَنوا ذَلِكَ ، ودُهِشوا بِسَفاهَةٍ وحَماقَةٍ وقالوا : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ ﴾ أيْ : أَتَجْعَلُنا مَوْضِعَ سُخْرِيَتِكَ يا موسى ؟ وهَذِهِ الجُمْلَةُ تَدُلُّنا على أَنَّ أُولَئِكَ لَيْسَ للهِ مَكانةٌ في قُلوبِهِمْ ، فَضْلاً عَلى أَنْ تَكونَ لِنبيِّهِ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؛ إِذْ كَيْفَ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَقولوا هَذا القَوْلَ لِمَنْ عَرَفوا صِدْقَهُ ، ولِمَنْ كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلٌ كَبيرٌ بَعْدَ اللهِ تَعالى ؟ ولكنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مَعَ ذَلِكَ ، يُجيبُهُمْ بِكُلِّ رِفْقٍ : ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فالمَقامُ لَيْسَ مَقامَ سُخْرِيَةٍ واسْتِهْزاءٍ ، وإِنَّما هُوَ مَقامُ تَبْليغِ أَحْكامِ اللهِ تَعالى ؛ لِذا فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَلْتَجِىءُ إلى اللهِ ، وَيَبْرَأُ إليْهِ أَنْ يَكونَ مِنَ السُّفَهاءِ الَّذينَ يَرْوونَ عَنْهُ الكَذِبَ والباطِلَ .

وهَذا الَّذي أَرْشَدَهُمْ إليهِ نَبيُّهُمْ كانَ كافِياً لِحَمْلِهِمْ عَلى أَنْ يَذْبَحوا أَيَّ بَقَرةٍ ، تَنْفيذاً لأَمْرِ ربِّهِمْ ، فَقَدْ أَمَرَهُمْ بِذَبْحِ أَيِّ بَقَرةٍ ، ولَكِنَّهُمْ طُبِعوا عَلى المَكْرِ والخِداعِ والتَّلاعُبِ بالأَلْفاظِ ، حتّى مَعَ مَنْ كانَ لَهُ أَعْظَمُ الفَضْلِ عَلَيْهِمْ ، ولِذا عادوا يَقولونَ لِنَبيِّهِمْ :

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١ ﴾ .

﴿ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ ﴾ اطْلُبِ مِنْ ربِّكَ ، ولَمْ يَقولوا : مِنْ ربِّنا ، وهَذا مِنْ سوءِ الأَدَبِ ، كما قُلْنا ، ولأَنَّهُ لَيْسَ للهِ تَعالى في نُفوسِهِمْ أَيُّ وَزْنٍ ، يَقولونَ : اطْلُبْ مِنْ رَبِّكَ أَنْ يُبيِّنَ حالَها ، فَأَكْثَروا مِنَ الأَسْئِلَةِ ، فقالَ لَهُمْ نَبيُّهُمْ : إِنَّها بَقَرَةٌ لَيْسَتْ بالكَبيرةِ ولا بالصَّغيرةِ ، بَلْ هِيَ وسَطٌ بَيْنَهُما . وفي هذهِ الإجابَةِ دَليلٌ عَلى غَباوةِ المُخاطَبينَ ، وعَدَمِ فَهْمِهِمْ للأَساليبِ المُوجَزَةِ ، فَلَمْ يَقُلْ لَهُمْ (إِنَّهَا بَقَرَةٌ عَوَانٌ) واكْتَفى ، بَلْ قالَ : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ ﴾ ولِذا افْعَلوا ما يَأْمُرُكُمْ بِهِ اللهُ ، ونَفِّذوهُ ، ولا تُضَيِّقوا عَلى أَنْفُسِكُمْ وتُكْثِروا مِنَ الأَسْئِلَةِ .

فَهَلِ اكْتَفوْا بِذَلِكَ ؟ لا ، ولكِنَّهُمْ عادوا يَسْأَلونَ عَنْ لَوْنِها ، حتّى يَسْهُلَ تَحْديدُها تَحْديداً دَقيقاً ـ كما يدَّعونَ ـ فأَجابَهُمْ بِأَنَّها بَقَرةٌ صَفراءُ فاقِعٌ لَوْنُها ، أي شَديدةُ الصُّفْرَةِ ، تُعْجِبُ في هَيْأَتِها ومَنْظَرِها وشَكْلِها النّاظِرينَ إليْها . وهَكذا عَرَفوا ما فيهِ الكِفايةُ عَنْ صِفاتِ هَذهِ البَقَرَةِ مِنْ حيثُ سِنُّها ولَوْنُها ، ومَعَ ذَلِكَ لَمْ تُكْفِهِمْ تِلكَ الأَوْصافُ ، فَعادوا للسُّؤالِ مَرَّةً أُخْرى أَنْ يَزيدَهُم إيضاحاً عَنْ هذهِ البَقَرةِ وحالِها ، فإنَّ البَقَرَ المَوْصوفَ بالصِّفاتِ الّتي ذَكَرَها لَهُمْ كَثيرٌ ، وقَدْ تَشابَهَ عَلَيْهِمْ ، ولا يَعْرِفونَ أيَّ بَقَرةٍ يَذْبَحونَ كما يَدَّعونَ ؛ ولِذا قالَ لَهُمْ : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أيْ : هِيَ بَقَرَةٌ سائِمةٌ نَفيسةٌ ، لَيْسَتْ مُذَلَّلةً ولا مُدَرَّبَةً على حَرْثِ الأَرْضِ أو سَقْيِ الزَّرْعِ ، سالمةٌ مِنَ العُيوبِ ، لَيْسَ فيها لَوْنٌ يُخالِفُ لَوْنَها الّذي هُوَ الصُّفْرَةُ الفاقِعَةُ .

وكأَنَّهُمُ اكْتَفوا بما سَمِعوا إذْ قالوا لِنَبيِّهِمْ : ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : الوَصْفِ الواضِحِ الّذي لا اشْتِباهَ فيهِ ، فَقَدْ تَميَّزَتِ البَقَرةُ مِنْ حَيْثُ سِنُّها ولَوْنُها ، وكَونُها لَيْسَتْ عامِلَةً ، وعِنْدَ ذَلِكَ ظَفِروا بِها فَذَبحوها بَعْدَما قارَبوا أنْ يَتْرُكوا ذَبْحَها ، ويَتْرُكوا ما أُمِروا بِهِ لِتَشَكُّكِهِمْ في ما يُرْشِدُهُمْ إليهِ نَبيُّهم موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ولِكَثْرةِ مُماطَلَتِهِم .

وجاءَتْ كَلِمةُ (كادَ) لِتَدُلَّ عَلى هذا التَّطويلِ المُفْرِطِ مِنْهُمْ ، وكَثْرَةِ أَسْئِلَتِهِمْ ومُماطَلَتِهِمْ وتَعنُّتِهِمْ . والخُلاصَةُ أَنَّهُمْ ذَبَحوها بَعْدَ تَوقُّفٍ وبُطْءٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الاسْتِهزاءُ بِأَمْرٍ مِنْ أُمورِ الدّينِ جَهْلٌ كَبيرٌ يُؤدّي إلى عَذابِ اللهِ تَعالى .

٢ـ اليَهودُ لا يُحْسِنونَ الظَّنَّ بِنَبيِّهِمْ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ولا بِرَبِّهِمْ وخالِقِهِمْ كذلِكَ ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ لَنا أنْ نُحْسِنَ الظَّنَّ بِهِمْ ؟

٣ـ الدّينُ دينُ يُسْرٍ ، فلا يَنْبَغي أَنْ نُشَدِّدَ عَلى أَنْفُسِنا حتَّى لا يُشَدِّدَ اللهُ عَلينْا .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لِماذا أَمَرَ اللهُ تَعالى بني إسْرائيلَ بِذَبْحِ بَقرةٍ ؟

٢ـ علامَ يَدُلُّ قَوْلُهم : أَتَتَّخِذُنا هُزُواً ؟

٣ـ ما مَعنى قولِهِ تَعالى : أعوذُ باللهِ أنْ أَكونَ مِنَ الجاهِلينَ ؟

٤ـ لِماذا طَلَبوا مِنْ نَبيِّهِمْ أوَّلاً أَنْ يُبيِّنَ لَهُمْ ما هِيَ هذهِ البَقَرَةُ ؟

٥ـ ما أوصافُ هذهِ البَقَرةِ مِنْ حيثُ سِنُّها ، ولَوْنُها ؟

٦ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : إنّها بَقَرةٌ لا ذَلولٌ تُثيرُ الأَرْضَ ولا تَسْقي الحَرْثَ .

٧ـ ما مَعنى قَوْلِهِ تَعالى : مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فيها ؟

٨ـ لِماذا جاءَ التَّعبيرُ بقولِهِ : وما كادوا يَفْعلونَ ؟

* * *

الدرس العشرون

سورةُ البقرةِ ـ القِسْمُ الثّامِنَ عَشَرَ

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

معاني المفردات :

ادّارَءْتُمْ   تَدافَعْتُم وتَخاصَمْتُمْ .

التفسير :

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ .

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ هنا الجِدالَ الّذي أثارَهُ بَنو إسْرائيلَ في مَعْرِفَةِ صِفاتِ البَقَرةِ الّتي أُمِروا بِذَبْحِها ، تُحدِّثُنا الآياتُ عَنِ السَّبَبِ الّذي أُمِروا لأَجْلِهِ أنْ يَذْبَحوا هَذهِ البَقَرةَ ، فَيقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى : اذْكُروا يا بَني إسْرائيلَ وَقْتَ أنْ قَتَلْتُمْ نَفْساً ، واخْتَلَفْتُمْ وتَنازَعْتُمْ في قاتِلِها ، ودَفَعَ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمُ التُّهْمَةَ عَنْ نَفْسِهِ .

ولَقَدْ جاءَ في الآياتِ أنَّ اللهَ تَعالى ذَكَرَ الأَمْرَ بِذَبْحِ البَقَرةِ ، ثُمَّ ذَكَرَ قَضيَّةَ قَتْلِ النَّفْسِ ، فَلماذا لَمْ تُذْكَرِ القَصَّةُ عَلى تَرْتيبِها ؟

والجَوابُ عَنْ ذَلِكَ ، أنَّ الآياتِ قَصَّتْ عَلَيْنا قَصَصَ بَني إسْرائيلَ لِيُعَدِّدَ ما كانَ مِنْهُمْ مِنْ

جناياتٍ ، وَلِيُقَرِّعَهُمْ عَلَيْها ، وقَدْ تَقدَّمَ الأَمْرُ بِذَبْحِ البَقَرةِ لِيُشَوِّقَ النُّفوسَ إلى مَعْرِفَةِ الحِكْمَةِ مِنْ وَراءِ الأَمْرِ بِذَبْحِها ، ثُمَّ جاءَ ذِكْرُ القَتيلِ وقِصَّةُ إحْيائِهِ ، فَهُما قِصّتانِ في قِصَّةٍ واحِدَةٍ .

وقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾ مَعَ أنَّ القاتِلَ واحِدٌ ، لأنَّ الأُمَّةَ في مَجْموعِها كالشَّخْصِ الواحِدِ . وأَسْنَدَ القَتْلَ إلى اليهودِ المُعاصِرينَ للنَّبيِّ مُحمَّدٍ ﷺ ، لأَنَّهُمْ مِنْ سُلالَةِ أُولئِكَ الّذينَ قَتلوا ، وهُمْ مِثْلُهُمْ تَماماً في الانْحِرافِ والضَّلالِ .

ويَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ : ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أيْ : أَنَّهُ سُبْحانَهُ مُظْهِرٌ ومُعْلِنٌ ما كانوا يُخْفونَهُ مِنْ أَمْرِ القَتيلِ الّذي قُتِلَ بَيْنَهُمْ . وقَدْ أَرْشَدَهُمُ اللهُ تَعالى إلى الوَسيلةِ الّتي يَعْرِفونَ بِها القاتِلَ ، إذْ قالَ لَهُمْ تَعالى :

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ .

﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أيْ : اضْرِبوا هذا الشَّخْصَ القَتيلَ بِبَعْضِ أَجْزاءِ البَقَرةِ الّتي ذَبَحْتُموها ، أيّاً كان هَذا الجُزْءُ ، دونَ تَعْيينٍ ، وفي هذا تَيْسيرٌ عَلَيْهِمْ مِنَ اللهِ كَذلِكَ ، فَلمّا ضَرَبوهُ بِها ، أَحْياهُ اللهُ فتَكَلَّمَ ، وأَخْبَرَ نَبيَّ اللهِ موسى عَلَيْهِ السّلامُ وقَوْمَهُ بِقاتِلِهِ .

ويَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ ، ومِثْلَ ذَلِكَ الإحياءِ العَجيبِ يُحيي اللهُ الموتى يَومَ القِيامَةِ ، ويُريكُمْ آياتِهِ الدّالَّةَ عَلى أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ، والّتي مِنْها ما شاهَدوهُ بأُمِّ أَعْيُنِهِمْ مِنْ إحْياءِ القَتيلِ بمجرَّدِ ضَرْبِهِ بِجُزْءٍ مِنَ البَقَرَةِ المَذْبوحَةِ ، وإِخْبارِهِمْ باسْمِ قاتِلِهِ ، وهذا كُلُّهُ كَيْ تَسْتَعْمِلوا عُقولَكُمْ فيما فيهِ خَيْرٌ ، وتُطيعوا اللهَ فيما أَمَرَكُمْ بِهِ ، وتَمْنَعوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اتِّباعِ أَهْوائِكُمْ .

مَوْقِفُ بَني إسْرائيلَ مِنَ المُعْجِزاتِ :

وبَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى هَذِهِ المُعْجِزَةَ العَظيمةَ ، الّتي تَهُزُّ القُلوبَ ، وتَبْعَثُ في النُّفوسِ الإيمانَ ، ذَكَّرَ هؤلاءِ الذينَ لَمْ تُحَرِّكْ تِلْكَ الآياتُ في أنْفُسِهِمْ ساكِناً ، لأنَّ قُلوبَهُمْ قاسِيَةٌ ، يَقولُ تَعالى :

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ .

ثُمَّ صَلُبَتْ قُلوبُكُمْ وغَلُظَتْ مِنْ بَعْدِ ما أراكُمُ اللهُ تِلْكَ المُعْجزاتِ الباهِرةَ ، الّتي مِنْها إحْياءُ القَتيلِ أَمامَ أَعْيُنِكُمْ ، فَهِيَ كالحِجارةِ في قَساوَتِها وصَلابَتِها ، بَلْ هِيَ أَشَدُّ قَسْوةً وصَلابةً مِنَ الحِجارَةِ ، وذَلِكَ أَنَّ الحِجارةَ ، مِنْها ما فيهِ ثُقوبٌ وخُروقٌ تَجْعَلُ الماءَ يَتدفَّقُ مِنْها كالأَنْهارِ ، فَتَعودُ بالمَنافِعِ العَظيمةِ عَلى النّاسِ والحَيوانِ والزَّرْعِ ، ومِنْها ما يَتصدَّعُ تَصدُّعاً قَليلاً ، فَتَنْبُعُ مِنْهُ العُيونُ واليَنابيعُ

فَتعودُ كَذلكَ بالمَنْفَعَةِ عَلى النّاسِ ، ومِنْها ما يَتردّى ويَسْقُطُ مِنْ رَأْسِ الجَبَلِ إلى الأَرْضِ مِنْ شِدّةِ خَشْيَتِها للهِ تَعالى .

هَذهِ هِيَ حالُ الحِجارةِ مَعَ قَساوتِها ؛ فإنّها تَعودُ بالمَنافِعِ عَلى الأَحياءِ ، أَمّا أَنْتُمْ يا بَني إسْرائيلَ فَقُلوبُكُمْ لا تَتأَثَّرُ بالمَواعِظِ ، والحِكَمِ الّتي مِنْ شَأْنِها أَنْ تَتَغلْغَلَ في نُفوسِ سامِعيها ؛ إنَّهُمْ لا أَثَرَ في قُلوبِهِمْ لِعِبْرَةٍ ، ولا مَوْعِظَةٍ فهي فَقَدَتِ التَّأَثُّرَ والانْفِعالَ ، وكأَنَّ أَصْحابَها هَبَطوا مِنْ دَرَجةِ الحَيوانِ إلى دَرجاتِ الجَمادِ .

ونَتيجةً لِذلِكَ ، فإِنَّ اللهَ لِهؤلاءِ ولِمَنْ سارَ عَلى دَرْبِهِمْ بالمِرْصادِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى حافِظٌ لأَعْمالِهِم مُحْصيها عَلَيْهِمْ ، سَيُحاسِبُهُمْ عَلَيْها ، وسَيُذيقُهُمْ ما يَسْتَحِقّونَ مِنْ عَذابٍ جَزاءَ جُحودِهِمْ لِنِعَمِ اللهِ ، وعِصْيانِهِمْ لأَمْرِهِ ولِقَسْوَةِ قُلوبِهِمْ ، فلا يَتدبَّرونَ ولا يَتَّعِظونَ بما يُشاهِدونَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ سُنَّةُ اللهِ تَعالى في الكَوْنِ أَنَّ الظّالِمَ والمُتَعدّي عَلى غَيْرِهِ ، لابُدَّ وأَنْ يُفْضَحَ ويَأْخُذَ جَزاءَهُ .

٢ـ اللهُ تَعالى قادِرٌ عَلى إحْياءِ المَوْتى .

٣ـ عَلى المُسْلِمينَ ألاّ يَكونوا كَبَني إسْرائيلَ في قَسْوَةِ قُلوبِهِمْ وإعْراضِهِمْ عَنِ الحَقِّ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما صِلَةُ هذهِ الآيةِ : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً﴾ ، بالآياتِ الواردة في الدَّرْسِ السّابِقِ ؟

٢ـ لِماذا ذَكَرَ اللهُ تَعالى قِصّةَ قَتْلِ النَّفْسِ بَعْدَ ذِكْرِ قِصَّةِ ذَبْحِ البَقَرةِ ؟

٣ـ لِماذا جاءَ التَّعبيرُ في الآيةِ : (وإذْ قَتَلْتُمْ) ، مَعَ أَنَّ القاتِلَ واحِدٌ ؟

٤ـ ما الَّذي أَمَرَهُمْ بِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى لِمَعْرِفَةِ القاتِلِ ؟

٥ـ ما المُعْجِزَةُ الّتي حَدَثَتْ بَعْدَ ضَرْبِهِمُ المَيِّتَ بِجُزْءٍ مِنْ أَجْزاءِ البَقَرةِ ؟

٦ـ هَلْ أَثَّرتْ تِلْكَ المُعجزةُ في قُلوبِ بَني إسْرائيلَ ؟ وضِّحْ ذَلِكَ .

٧ـ بِمَ شَبَّهَتِ الآياتُ قُلوبَ بني إسْرائيلَ ؟

٨ـ أيُّهما أشَدُّ قَسْوةً ، الحِجارةُ أمْ قُلوبُ بَني إسْرائيلَ ؟ وضِّحْ ذَلِكَ مَعَ الدَّليلِ .

٩ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أَنْواعاً لِلْحِجارَةِ ، لِتُبيِّنَ أَنَّها أَلْيَنُ مِنْ قُلوبِ بَني إسْرائيلَ . ما تِلْكَ الأَنْواعُ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ مِنْ سورةِ الحَشْرِ الدّالَّةَ عَلى تَصَدُّعِ الجِبالِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ .

* * *

الدَّرسُ الحادي والعشرونَ

سورةُ البقرةِ - القِسْمُ التّاسِعَ عَشَرَ

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَفَتَطْمَعونَ	: الطّمَعُ : تَعَلُّقُ النَّفْسِ بِالحُصولِ عَلى أمْرٍ تُحبُّهُ .
يُحَرِّفونَهُ	: التّحريفُ : الخُروجُ عَنِ الحَقِّ .
خَلا	: انْفَرَدَ .
فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ	: حَكَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكُمْ وقَضاهُ فيكُمْ .

التَّفسيرُ :

كانَ النَّبيُّ ﷺ وأصْحابُهُ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، يَرَوْنَ أَنَّ أَوْلى النّاسِ بالإيمانِ هُمُ اليَهودُ ، لأَنَّهُمْ مُوَحِّدونَ ومُصَدِّقونَ بالوَحْيِ والبَعْثِ ؛ ولِذلِكَ كانوا يَطْمَعونَ بِدُخولِهِمْ في الإسْلامِ ، فَدينُهُمْ أقْرَبُ الأديانِ إلى تَعاليمِ الإسْلامِ ، فَجاءَتِ الآياتُ لِتُبيِّنَ للرَّسولِ ﷺ وصَحابَتِهِ ؛ بأَنَّهُمْ لا يُمْكِنُ أَنْ يُؤْمِنوا ، ودليلُ ذلِكَ ما كانَ يَحْدُثُ مِنْ أَسْلافِهِمْ مَعَ نَبيِّهِمْ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ تمرُّدٍ وعِنادٍ ، وجُحودٍ وإنْكارٍ ، مَعَ أَنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الآياتُ الكَثيرةُ ، وحَلَّ بِهِمُ العِقابُ لِعَدَمِ امْتِثالِهِمْ لأَوامِرِ اللهِ ، وكانوا يَلْجَأُونَ لِنَبيِّهِمْ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لِيَرْفَعَ عَنْهُمُ العَذابَ ، ويَسْتَجيبَ لَهُمْ ،

فَيَدْعو اللهَ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمُ العَذابَ ، وفَوْرَ أَنْ يُرْفَعَ عَنْهُمْ يَعودونَ إلى سيرَتِهِمُ الأُولى مِنَ الجُحودِ والعِنادِ ، تَقولُ الآياتُ مُخاطِبَةً النَّبيَّ وصَحابَتَهُ رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِمْ .

﴿ ۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

أَتَطْمَعونَ وتَرْجونَ أَيُّها المُؤْمِنونَ بَعْدَ أَنْ ذَكَرْتُ لَكُمْ حالَ أُولئِكَ اليهودِ ، وما بَيَّنْتُهُ لَكُمْ مِمّا جُبلوا عَلَيْهِ مِنْ جُحودٍ ونُكْرانٍ ، أَنْ يَدْخُلوا في الإسْلام ، والحالُ أَنَّهُ كانَ فريقٌ مِنْ عُلَمائِهِمْ وأَحْبارِهِمْ يَسْمعونَ كلامَ اللهِ ، ثُمَّ يُحرِّفونَهُ عَنْ وَجْهِهِ الصَّحيح بَعْدَ ما حَفِظوهُ وفَهِموهُ ، وعَرَفوا صِحَّتَهُ ، فَهُمْ حَرَّفوا كلامَ اللهِ عَنْ تَعَمُّدٍ وإصْرارٍ وسوءِ قَصْدٍ مِنْهُمْ ، فَحالُهُمْ أَنَّهُمْ يَعْلَمونَ الصَّوابَ ، وهذا فيهِ ما فيهِ مِنَ النَّعْيِ عَلى هؤلاءِ ، لِتَعَمُّقِ الفُسوقِ والعِصْيانِ فيهِمْ . والهَمْزَةُ في قَوْلِهِ : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ للاسْتِنْكارِ ؛ اسْتِنْكارِ أَنْ يُؤْمِنوا ، وعِلَّةُ ذلكَ :

أَوّلاً : ما بَيَّنَتْهُ الآياتُ مِنْ سوءِ حالِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ وجُحودِهِمْ .

ثانياً : تَحريفُهُمْ لِكلامِ اللهِ عَنْ عِلْمٍ وتَعمُّدٍ .

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

ثُمَّ أَخْبَرَتِ الآياتُ عَنْ رذيلةٍ أُخْرى مِنْ رَذائِلِهِمْ ، إضافَةً إلى تَحريفِ الكِتاب ، وهِيَ ما جُبلوا عَلَيْهِ مِنَ النِّفاقِ والخِداع ، فَهُمْ إذا لَقوا الّذينَ آمَنوا ، قالوا لَهُمْ نِفاقاً وخِداعاً ، إنَّنا آمَنّا وصَدَّقْنا بما تُؤْمِنونَ مِنْ أَنَّ مُحمَّداً ﷺ ، أُنْزِلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ الكَريمُ ، ولَكِنَّهُمْ إذا انْفَرَدوا بَعْضُهم بِبَعْضٍ ، قالَ الّذينَ لَم يُنافِقوا ، لِلّذينَ نافَقوا ، وخَدَعوا المُؤْمِنينَ مُعاتِبينَ : أَتُخْبِرونَ المُؤْمِنينَ بما بَيَّنَهُ اللهُ لَكُمْ في كِتابِكُمْ بِما يَشْهَدُ بِأَنَّهُمْ عَلى حَقٍّ ، وأَنَّ رَسولَهُمْ حَقٌّ ، وكِتابَهُمْ حَقٌّ ، لِتَكونَ لَهُمُ الحُجَّةُ عَلَيْكُمْ يومَ القِيامَةِ ، أَتَفْعلونَ هَذا فلا تَعْقِلونَ أَنّ هذا الّذي تَقولونَ لِلمُؤْمِنينَ مِنْ أَنَّكُمْ آمَنْتُمْ بدينِهِمْ يُقيمُ الحُجَّةَ لَهُمْ عَلَيْكُمْ ؟ فَهُمْ لا يُريدونَ أَنْ يَعترِفَ أَحَدُهُمْ بِصِدْقِ دَعوةِ النَّبيِّ ﷺ ، والاسْتِفهامُ في قَوْلِهِ : ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ للإنْكارِ التَّوبيخيِّ .

ثُمَّ وَبَّخَهُمُ اللهُ تَعالى عَلى جَهْلِهِمْ بِحَقيقةِ عِلْمِهِ تَعالى ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

إنّهُمْ لَوْ كانوا مُؤْمِنينَ إيماناً صادِقاً بأَنَّ عِلْمَ اللهِ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شيءٍ : سِرِّهِمْ ، وعَلانِيَتِهِمْ ، لما نَهَوْا إخْوانَهُمُ اليَهودَ عَنْ تَحديثِ المُؤْمِنينَ بما وَرَدَ في التَّوْراةِ مِنْ صِفاتِ النَّبيّ ﷺ ، ومِنْ حَقائِقَ أَمْرَهُمُ اللهُ بِبَيانِها ونَهاهُمْ عَنْ كِتْمانِها .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ التَيْئيسُ مِنْ إيمانِ بَني إسْرائيلَ ودُخولِهِمْ في دينِ مُحمَّدٍ ﷺ .

٢ـ النِّفاقُ يَكونُ مِنَ الأُمَمِ في حالِ ضَعْفِ الإرادةِ وضَعْفِ العِلْمِ .

٣ـ الَّذي يُبَدِّلُ شَرْعَ اللهِ تَعالى ويُغيِّرُهُ عَنْ عَمْدٍ وقَصْدٍ فَجزاؤُهُ جَهنَّمُ خالِداً فيها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنى قولِهِ تَعالى : ﴿أَفَتَطْمَعُون﴾ ؟

٢ـ ما الّذي طَمِعَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وصَحابَتُهُ مِنَ اليَهودِ ؟

٣ـ ما مَعْنى الهَمْزَةِ في قَوْلِهِ تعالى : ﴿أَفَتَطْمَعُون﴾ ؟

٤ـ بيَّنَتِ الآياتُ أنَّ اليَهودَ لا يُمْكِنُ أَنْ يُؤْمِنوا بدينِ مُحمَّدٍ ﷺ لِسَبَبَيْنِ ، ما هُما ؟

٥ـ هَلْ كانَ اليَهودُ يُحرِّفونَ الآياتِ دونَ عِلْمٍ مِنْهُمْ ؟ بَيِّنْ ذَلِكَ مَعَ الدَّليلِ .

٦ـ اشْرَح قَولَهُ تَعالى : ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ﴾ .

٧ـ اسْتَنْتِجْ ما يَدُلُّ عليهِ قولُهُ تَعالى : ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ ما حُكْمُ التَّوْراةِ المَوجودَةِ الآنَ بَيْنَ أيدي اليَهودِ ؟ هَلْ هِيَ الّتي نَزَلَتْ عَلى موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٢ـ ارْجِعْ إلى كُتُبِ السّيرةِ وتَدَبَّرْ قِصَّةَ إسْلامِ عبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ ومَوْقِفَ اليَهودِ مِنْها ، واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الثّاني والعِشرونَ

سورةُ البَقرَةِ ـ القِسْمُ العِشْرونَ

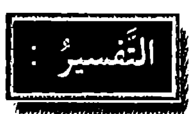
وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أُمِّيونَ لا يُحْسِنونَ القِراءَةَ والكِتابَةَ .

أَمانِيَّ أَكاذيبُ .

وَيْلٌ : دُعاءٌ عَلَيْهِمْ بالهَلاكِ .



التَّفسيرُ :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

تَحدَّثَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَنْ عُلَماءِ بَني إسْرائيلَ الّذينَ يُحَرِّفونَ كِتابَ اللهِ تَعالى . وتُحدِّثُنا الآياتُ هُنا عَنْ عامَّةِ بَني إسْرائيلَ ، فَهُمْ لا عِلْمَ لَهُمْ بِشَيءٍ مِنْ كِتابِ اللهِ تَعالى ، ولا مَعْرِفَةَ لَهُمْ بِأَحْكامِهِ ، فَهُمْ لا يَعْلَمونَ مِنْ كِتابِهِمْ سِوى أَكاذيبَ اخْتَلَقَها لَهُمْ عُلَماؤُهُمْ ، أَوْ أُمْنِيّاتٍ باطِلَةٍ ، فَهُمْ يَتوهَّمونَ أَنَّ اللهَ لا يُؤاخِذُهُمْ بِخطاياهُمْ ، وهُمْ لا يَعْرِفونَ مِنَ التَّوراةِ إلاّ ما يَقْرَؤونَهُ مِنْ قِراءاتٍ خالِيَةٍ مِنَ التَّدبُّرِ وعارِيَةٍ مِنَ الفَهْمِ ، وها نَحْنُ نَرى اليَهودَ والنَّصارى يَقْرَؤونَ كُتُبَهُمْ ، لا يَفْهَمونَ مِنْها شَيْئاً .

وهذهِ الأمانيُّ توجَدُ في كُلِّ الأُمَمِ في حالِ الضَّعْفِ والانْحِطاطِ ، يَفْتَخِرونَ بما بَيْنَ أيْديهِمْ مِنَ الشَّريعةِ وبِسَلَفِهِمُ الّذينَ كانوا مُهْتَدينَ ، ويَنْسَوْنَ أنفُسَهُمْ ، وهذا حالُ الأُمَّةِ المُسْلِمَةِ اليَوْمَ .

إنَّ أُمْنِيّاتِ بَني إسْرائيلَ ما هِيَ إلاّ مِنْ بابِ الأَوْهامِ الّتي لا تَسْتَنِدُ إلى دليلٍ ، فَهِيَ مِنْ بابِ الظَّنِّ ، والظَّنُّ لا يُغْني مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ، ومَعْرِفَةُ أُمورِ الدّينِ الّتي تَقومُ عَلى الإيمانِ الصَّحيحِ لا يَكْفي فيها مُجَرَّدُ الظَّنِّ ، فلابُدَّ فيها مِنَ العِلْمِ اليَقينيِّ .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

عُقوبَةُ الّذينَ يُحَرِّفونَ كَلامَ اللهِ :

انْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُحَدِّثَنا عَنْ سوءِ مَصيرِ أولئِكَ الّذينَ يُحَرِّفونَ كَلامَ اللهِ تَعالى ، يَقولُ سُبْحانَهُ : ويْلٌ وهَلاكٌ عَظيمٌ وخِزْيٌ لأُولئِكَ الأَحْبارِ مِنَ اليَهودِ ، الّذينَ يَكْتُبونَ الكُتُبَ بِأَيْديهِمْ ويُضيفونَ إليْها آراءَهُمُ الفاسِدَةَ ، وتَأْويلاتِهِمُ المُحرَّفَةَ ، ثُمَّ يُجْبِرونَ النّاسَ عَلى التَّعَبُّدِ بِها ، والعَمَلِ بما يَكْتُبونَ ، مُدَّعينَ أَنَّ ما وَرَدَ في هذهِ الكُتُبِ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، وهُوَ أَمْرٌ يَفْهَمونَهُ هُمْ وَحْدَهُمْ ، ولا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ فَهْمَهُ ، وبالتّالي يُقْبِلُ النّاسُ عَلَيْهِ ، لِجَهْلِهِمْ وغَباوَتِهِمْ ، وقَدْ فَعَلَ الأَحْبارُ ما فَعَلوا مِنَ التَّحريفِ والكَذِبِ لِيَحْصَلوا عَلى عَرَضٍ زائِلٍ مِنْ أَعْراضِ الدُّنْيا ، وذَلِكَ مِثْلَ أَخْذِ المالِ مِنَ النّاسِ ، أَوِ الطَّمَعِ في الرِّئاسَةِ والجاهِ ، أَوِ الادِّعاءِ بِأَنَّهُمْ مِنَ العُلَماءِ ، وهذا كُلُّهُ ثَمَنٌ قَليلٌ ، اسْتَوْجَبَ أَصْحابُهُ العذابَ مِنَ اللهِ تَعالى ، ولِذا قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ .

فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى يُهَدِّدُهمْ عَلى فِعْلِهِمْ ويَقولُ : الوَيْلُ والهَلاكُ لَهُم لِما حَرَّفوهُ وكَتَبوهُ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ولأَنَّهُمْ أَكَلوا أَمْوالَ النّاسِ بالباطِلِ فالهَلاكُ لَهُمْ ، لأَنَّ وَسيلَتَهُمُ الّتي اسْتَخْدَموها وهِيَ الكِتابَةُ باطِلَةٌ ، والغايةُ الّتي أرادوها كَذلِكَ باطِلَةٌ ، وهِيَ العَرَضُ الدُّنْيَويُّ الزّائِلُ .

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

وتَنْقُلُ الآياتُ لَنا شَيْئاً مِنْ أَباطيلِ اليَهودِ الّتي تَدُلُّ عَلى غُرورِهِمْ ، إذْ إنَّهُمْ قالوا : إنَّ النّار لَنْ تُصيبا ، ولَنْ نَذوقَ حَرَّها إلاّ أيّاماً قلائِلَ ، لا نَعْرِفُ عَدَدَ هذهِ الأَيّامِ ، فَقَدْ تَكونُ سَبْعَةَ أَيّامٍ ، وقَدْ تَكونُ ثَلاثينَ يَوْماً أَوْ أربعينَ ، فالقُرآنُ لَمْ يُبيِّنْ عَدَدَها ، المُهِمُّ أنَّها تَدُلُّ عَلى صَلَفِ اليَهودِ وغُرورِهِمْ ، ولِذلكَ يَأْمُرُ سُبْحانَهُ نَبيَّهُ مُحمَّداً ﷺ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ ويَقولَ لَهُمْ : هَلِ اتَّخَذْتُمْ مِنَ اللهِ تَعالى عَهْداً وَوَعْداً بِذلكَ ، حتّى يُوَفِّيَهِ لَكُمْ ؟ فإنَّ اللهَ تَعالى إذا وَعَدَ وَفّى ، أَمْ أَنَّكُمْ تَقولونَ عَلى اللهِ

الباطلَ ، فَتقولونَ شَيْئاً لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، والعِلْمُ بِمْثِلِ هٰذا الأَمْرِ لا يَكونُ إلا عَنْ طَريقِ الوَحْيِ . والقَوْلُ عَلى اللهِ بِغيرِ عِلْمٍ جُرْأَةٌ وافْتِراءٌ وكَذِبٌ وكُفْرٌ .

ثُمَّ أَبْطَلَ سُبْحانَهُ وتَعالى هَذا الادّعاءَ الّذي ادَّعوهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ .

وَبلى : حَرْفُ جَوابٍ يَجيءُ لإثباتِ فِعْلٍ ، ونَفْيِ ما قَبْلَهُ ، فَجاءَتْ لِتَنْفِيَ قَوْلَهُمْ أَنَّ النَّارَ لَنْ تَمَسَّهُمْ إلا أيّاماً مَعدودةً ، ولِتُثْبِتَ أَنَّ هذهِ النّارَ سَوْفَ تَمسُّهُمْ ، وسَوْفَ يَخْلُدونَ فيها كَذلِكَ .

فَتقولُ لَهُمُ الآيةُ : لَيْسَ الأَمْرُ كَما ادَّعيتُمْ أَيُّها اليَهودُ مِنْ أَنَّ النّارَ لَنْ تَمسَّكُمْ إلاّ أَيّاماً مَعْدودةً ، بَلْ إنَّكُمْ سَتَخْلُدونَ فيها ، إذْ إنَّ كُلَّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً ، وتَمادى وأَصَرَّ واسْتَمرَّ عَلَيْها ، فإنَّ مَصيرَهُ إلى جَهَنَّمَ خالِداً فيها .

وعليهِ فَمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحاً فإنَّ اللهَ تَعالى يُكَرِّمُهُ بِأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، فَهُمْ أَصْحابُها الّذينَ أَعدَّها اللهُ لَهُمْ ، وسَوْفَ يَخْلُدونَ فيها بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ ورَضوانٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ قِراءَةُ كِتابِ اللهِ تَعالى بِتدبُّرٍ وفَهْمٍ وَوَعْيٍ لما يَرِدُ فيهِ .

٢ـ الاقْتِداءُ بالسَّلَفِ الصّالِحِ في العَمَلِ بِشَريعَةِ اللهِ تَعالى .

٣ـ الحَقُّ هُوَ أَثْمَنُ الأَشْياءِ وأَغْلاها ، وكُلُّ ما يُباعُ بهِ الحَقُّ فَهُوَ ثَمَنٌ قَليلٌ زائِلٌ .

٤ـ إذا أَذْنَبَ العَبْدُ ـ وكُلُّ ابنِ آدَمَ خَطّاءٌ ـ عَلَيْهِ الإقْلاعُ عَنِ الذَّنْبِ ، والتَّوبةُ النَّصوحُ حتَّى لا تُحيطَ بهِ خَطاياهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما حالُ عوامِّ بَني إسْرائيلَ ؟

٢ـ ما مَعنى كَلِمَةِ : أمانِيّ ؟

٣ـ ما واجِبُ المُسْلِمينَ تُجاهَ كِتابِهِمْ ؟
٤ـ كَيْفَ كانَ عُلماءُ بَني إسْرائيلَ يَكْتُبونَ الكُتُبَ ؟
٥ـ ما هَدَفُ عَلماءِ بَني إسْرائيلَ مِنْ تَحريفِهِمْ كُتُبَهُمْ ؟
٦ـ ذَكَرَتِ الآياتُ شَيئاً مِنْ أباطيلِ بَني إسْرائيلَ ، ما تِلْكَ الأَباطيلُ ؟
٧ـ كَمِ المُدَّةُ الّتي ادَّعَتْ بَنو إسْرائيلَ أَنَّها سَتتعذَّبُها في النّارِ ؟
٨ـ كَيْفَ رَدَّ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى هَؤلاءِ اليَهودِ في الادِّعاءِ ؟
٩ـ مَنْ هُمْ أصْحابُ الجَنَّةِ ؟

* * *

الدرسُ الثالثُ والعشرونَ

سُورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الحادي والعِشْرونَ

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

ميثاقَ : الميثاقُ : العَهْدُ الشّديدُ المُؤكَّدُ .

اليَتامى : مُفْرَدُها : اليتيمُ ، وهُوَ مَنْ ماتَ أبوهُ مِنْ بني الإنْسانِ صَغيراً .

المَساكينِ : الّذينَ عَجِزوا عَنِ الكَسْبِ ولَيْسَ عِنْدَهُمْ ما يَكْفيهِمْ .

التَّفسيرُ :

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ .

ذَكَرَتِ الآيةُ السّابِقَةُ ما أعدَّهُ اللهُ تَعالى لأُولئِكَ اليَهودِ ، ولِكُلِّ مَنْ سارَ عَلى نَهْجِهِمْ ، فأَشْرَكَ باللهِ تَعالى وأحاطَتْ بِهِ خَطاياهُ ، وماتَ عَلى ذَلِكَ ، فَهؤلاءِ قَدْ أَعَدَّ لَهُمُ النّارَ الّتي سَيَخْلُدونَ فيها ، وهذهِ الآيةُ تَذْكُرُ أَهْلَ الإيمانِ والتَّقْوى ، وهَذا نَهْجُ القُرْآنِ الكَريمِ في الرَّبْطِ بَيْنَ المُتَضادّاتِ ، فَقَدْ ذَكَرَ وَصْفَ أَهْلِ النّارِ وفي المُقابِلِ يَذْكُرُ وَصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وهَذا أَيْضاً مِنْ بابِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ ؛ التَّرهيبِ مِنْ أَنْ نَكونَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ ، والتَّرغيبِ في أنْ نكونَ مِنْ أَصْحابِ الجَنَّةِ .

تَحدَّثَتِ الآيةُ الكَريمةُ عَنِ الّذينَ آمَنوا باللهِ ورُسُلِهِ ، ولَمْ يَكْتَفوا بِهذا فَقَط ، ولَكنَّهُمْ أَتْبَعوا

إيمانَهُمْ بالعَمَلِ الصّالِحِ ، فأَطاعوا أوامِرَ اللهِ تَعالى ، واجْتَنبوا نَواهيهِ ، فَهؤلاءِ هُمْ أَصْحابُ الجَنَّةِ وحْدَهُمُ الّذينَ سَيَخْلُدونَ فيها .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُحَدِّثَنا عَنْ رَذيلةٍ مِنْ رَذائِلِ أُولئِكَ اليَهودِ ، الّتي طُبِعوا وجُبلوا عَلَيْها وهِيَ نَقْضُ المواثيقِ ، وقَدْ ذَكَرَتْ سورَةُ البَقَرةِ في آياتِها الّتي مَرَّتْ بِنا كَيْفَ كانوا يَنْقُضونَ عُهودَ اللهِ ولا يُوفونَها .

وفِي هذهِ الآيةِ يَذْكُرُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبيِّهِ ﷺ ولِلْمُسْلِمينَ خَبَرَ أُولئِكَ اليهودِ الَّذينَ أَخَذَ اللهُ العَهْدَ عَلَيْهِمْ ، ويَتَمَثَّلُ هذا العَهْدُ في أُمورٍ عِدّةٍ :

١ـ أنْ لا يَعْبُدوا إلاّ اللهَ تَعالى وحْدَهُ ، ولا يُشْرِكوا مَعَهُ أَحداً ، وهذا هُوَ التَّوحيدُ للهِ ، الذي لابُدَّ لَهُ مِنْ هَذيْنِ الأَمْرَيْنِ :

أـ عِبادةُ اللهِ تَعالى .

ب ـ عَدَمُ الإشْراكِ مَعَ اللهِ تَعالى أَحَداً .

٢ـ ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وأَخَذَ عَلَيْهِمُ العَهْدَ أَنْ يُحْسِنوا إلى الوالِدَيْنِ إحْساناً . والإحْسانُ هُوَ البِرُّ ، أيْ : أنْ يَعْطِفَ الإنْسانُ عَلَيْهِما ، ويَرْعاهُما حَقَّ الرِّعايةِ ، ويُطيعَهُما في غَيْرِ مَعْصيَةِ اللهِ تَعالى ، فَهُما قَدْ بَذَلا لِلْمَوْلودِ كُلَّ عِنايةٍ وعَطْفٍ ، وقاما على شُؤونِهِ عِنْدَما كانَ ضَعيفاً جاهِلاً عاجِزاً لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعاً ، ولا يَسْتَطيعُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْها ضُرّاً ، وقَدْ كَفِلاهُ حتَّى قَدِرَ على الاسْتِقْلالِ ، والقِيامِ بِشُؤونِ نَفْسِهِ ، وهَذا هُوَ الإحْسانُ مِنَ الوالِدَيْنِ تُجاهَ وَلَدِهِما ، ولِذا لابُدَّ مِنْ مُقابَلَةِ هذا الإحْسانِ بالإحْسانِ إلَيْهِما ، ولابُدَّ للإنْسانِ مِنْ أَنْ يَشْكُرَ كُلَّ مَنْ ساعَدَهُ ، ولَيْسَ هُناكَ أَحَدٌ أَحَقُّ بالشُّكْرِ مِنَ الوالِدَيْنِ بَعْدَ اللهِ تَعالى .

٣ـ وأَخَذَ عَلَيْهِمُ العَهْدَ بِأَنْ يُحْسِنوا إلى ذي القُرْبى ، لأنَّ الإحْسانَ إلَيْهِمْ يُقَوّي الرَّوابِطَ بَيْنَ النّاسِ ، إذْ إنَّ الأُمّةَ تَتَكَوَّنُ مِنْ مَجموعةِ الأُسَرِ ، وصَلاحُ هذهِ الأُسَرِ يَعْني صَلاحَ الأُمّةِ ، وفَسادُ الأُسَرِ يَعْني فَسادَ الأُمّةِ ، ومَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بَيْتٌ لا تَكونُ لَهُ أُمّةٌ ، ومَنْ لَمْ يَكُنْ فيهِ خَيْرٌ لِوالِدَيْهِ وأَقْرِبائِهِ ، فلا يُرْجى مِنْهُ خَيْرٌ لأُمّتِهِ . ونِظامُ الفِطْرَةِ يَقْضي بِأَنَّ صِلَةَ القَرابةِ هِيَ أَمْتَنُ الصِّلاتِ ؛ لِذا جاءَ الدّينُ لِيُبيِّنَ حُقوقَ الأَقْرَبينَ .

٤ـ الإحسانُ لِلْيَتامى ؛ لأَنَّ الأَيْتامَ أعضاءٌ في جِسْمِ الأُمّةِ ، فإذا فَسَدَتْ أَخْلاقُهُمْ وساءَتْ أحوالُهُمْ ، لا شَكَّ وصَلَ الفَسادُ إلى الأُمّةِ كُلِّها .

٥ـ وأَخَذَ عَلَيْهِمُ العَهْدَ بِأَنْ يَحْسِنوا إلى المَساكينِ ، وهُمُ العاجِزونَ عَنْ كَسْبِ كِفايَتِهِمْ . والإحْسانُ إِلَيْهِمْ يَكونُ بالصَّدَقَةِ عَلَيْهِمْ ومُواساتِهِمْ في البَأْساءِ والضَّرَّاءِ ، ومَدِّ يَدِ العَوْنِ والمُساعَدَةِ لَهُمْ .

وهَكذا جاءَ أَمْرُ اللهِ بالإحْسانِ إلى الوالِدَيْنِ لِما لَهُما مِنْ فَضْلٍ على الإنْسانِ ، ثُمَّ الأَقارِبِ الّذينَ تَجْمَعُهُمْ بالإنْسانِ صِلَةُ قَرابةٍ مِنْ جِهَةِ الأُمِّ أو مِنْ جِهَةِ الأبِ ، ثُمَّ اليتامى لأنَّهُمْ بأمسِّ الحاجةِ إلى العَوْنِ ، لِفَقْدِهِمُ الأبَ الحاني ، ثُمَّ المساكينِ لِعَجْزِهِمْ عَنْ كَسْبِ ما يَكْفيهِمْ . بَعْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُمْ سُبْحانَهُ بِأَنْ يَقولوا للنّاسِ حُسْناً ، وهَذا حَقُّ النّاسِ عامَّةً وهُوَ النَّصيحَةُ لَهُمْ ، والأَمْرُ بالمَعروفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ ، وحُسْنُ العِشْرَةِ ، والقَوْلُ الجَميلُ فيهِمْ .

٦ـ وأَمَرَهُمْ سُبْحانَهُ بإقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ ، فلابُدَّ مِنَ المُداومَةِ على الصَّلاةِ بِخُشوعٍ ، والإخْلاصِ للهِ تَعالى ، ولابُدَّ مِنَ المُحافَظَةِ على أداءِ الزَّكاةِ لما فيها مِنْ تَطهيرٍ لِلْمالِ ، وإصْلاحٍ لِشُؤونِ المُجْتَمعاتِ . وهاتانِ العِبادتانِ إحْداهُما بَدَنيَّةٌ والأُخْرى ماليةٌ ، ذَكَرَهُما سُبْحانَهُ وتَعالى لِعِظَمِهِما ، ولِكَوْنِهِما تُعينانِ الإنْسانَ على إحْسانِ صِلَتِهِ بالخالِقِ والمَخْلوقِ .

هَلِ الْتَزَمَ اليَهودُ بِهذِهِ العُهودِ ؟

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ هذِهِ العُهودَ الّتي أَخَذَها على بَني إسْرائيلَ بَيَّنَتِ الآيةُ أَنَّهُمْ نَقَضوا عَهْدَ اللهِ ، وهَذهِ هِيَ عادَتُهُمْ ، ولِذلِكَ قالَ تَعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ ما كانَ مِنْكُمْ أيُّها اليَهودُ بَعْدَ أَنْ أَخَذَ اللهُ عَلَيْكُمُ المِيثاقَ الّذي يُحَقِّقُ لَكُمُ السَّعادَةَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، ما كانَ مِنْكُمْ إلاّ أنَّكُمْ تولَّيْتُمْ عَنِ العَمَلِ بِهِ ، وأَنْتُمْ في حالةِ الإعْراضِ عَنْهُ وعَدَمِ الاهْتِمامِ بِشَأْنِهِ ، تَوَلَّيْتُمْ إلاّ قَليلاً مِنْكُمْ ، وهذا فيهِ ما فيهِ مِنَ الإنْصافِ لأُولئِكَ الّذينَ حَفِظوا عَهْدَ اللهِ تَعالى وعَمِلوا بِهِ . ولا تَخْلو أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ مِنَ المُخْلِصينَ الّذينَ يُحافِظونَ على الحَقِّ ، ولَكِنَّ وُجودَ هذهِ القِلَّةِ لا يَمْنَعُ نُزولَ العِقابِ على الأُمَّةِ إذا فَشا فيها المُنْكَرُ وطَغى الأَكْثَرونَ فيها .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ التَّوحيدُ الخالِصُ يَعْني عِبادَةَ اللهِ تَعالى ، وَعَدَمَ الإشْراكِ بِهِ شَيْئاً .

٢ـ أَحَقُّ النّاسِ بالإحْسانِ هُمْ الوالِدانِ ، لما لَهُما مِنْ فَضْلِ الوِلادةِ والعَطْفِ والتَّرْبيةِ .

٣ـ الإحْسانُ إلى الأَقْرِباءِ يُقوّي المَحبَّةَ والمودَّةَ بَيْنَ النّاسِ .

٤ـ صَلاحُ المُجْتَمعاتِ يَكونَ في العِنايَةِ باليَتامى والحِفاظِ عَلى حُقوقِهِمْ ، والقِيامِ بِشُؤونِهِمْ ومُساعَدَةِ المَساكينِ .

٥ـ الأَمْرُ بالمَعْروفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ مِنْ واجِباتِ كُلِّ فَرْدٍ في المَجْتَمعِ المُسْلِمِ .

٦ـ بَقاءُ الأُمَّةِ عَزيزَةً مَرْهوبَةَ الجانِبِ يَكونُ بِمُحافَظَةِ الأُمَّةِ عَلى الأَخْلاقِ الفاضِلَةِ والعَمَلِ الصّالحِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الصِّفاتُ الّتي يَتَّصِفُ بِها أَهْلُ الجَنَّةِ ؟

٢ـ هَلْ يَنْفَعُ الإِنْسانَ إيمانٌ بلا عَمَلٍ ؟ وضِّحْ ذَلِكَ مِنْ خِلالِ الآياتِ .

٣ـ تَحدَّثَتِ الآياتُ عَنْ صِفَةٍ جُبِلَ عَلَيْها اليَهودُ ، ما تِلْكَ الصِّفَةُ ؟

٤ـ أَمَرَ اللهُ تَعالى بَني إِسْرائيلَ بِتَوْحيدِهِ ، ما الّذي يَتضمَّنُهُ هذا التَوْحيدُ ؟

٥ـ لِماذا جاءَ الأَمْرُ بالإِحْسانِ لِلْوالِدَيْنِ بَعْدَ الأَمْرِ بِعبادةِ اللهِ مُباشَرَةً ؟

٦ـ مَنْ هَمُ المساكينُ واليَتامى ؟ وبِماذا أَمَرَنا القُرْآنُ تُجاهَهُمْ ؟

٧ـ ما المَقصودُ بِقولِهِ تَعالى : ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ ؟

٨ـ هَلِ الْتَزَمَ اليَهودُ بالعُهودِ الّتي أخَذَها اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ ؟

نَشاطٌ :

١ـ قارِنْ بَيْنَ ما جاءَ في حَقِّ بَني إِسْرائيلَ ، وما جاءَ في حَقِّ المُؤْمِنينَ مِنْ أُمَّةِ مُحمَّدٍ ، مِنْ حيثُ : الإِيمانُ ، والأَعْمالُ ، والمَصيرُ . واكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ مِنْ سورةِ الإِسْراءِ الّتي تَأْمُرُ الإِنْسانَ بالإِحْسانِ إلى والديهِ .

* * *

الدَّرسُ الرَّابعُ والعِشرونَ

سورَةُ البَقرَةِ ـ القِسْمُ الثّاني والعِشْرونَ

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

معاني المُفرَداتِ

أقْرَرْتُمْ	: اعْتَرَفْتُمْ .
تَظاهَرونَ	: تَتَعاوَنونَ .
الإثْمِ	: الفِعْلِ الَّذي يَستَحِقُّ صاحِبُهُ الذَّمَّ .
العُدوانِ	: مُجاوَزَةُ الحدِّ في الظُّلْمِ .
أُسارى	: جَمعُ أسيرٍ .



عَرَفْتَ مِنَ الآياتِ السّابِقَةِ ما أمَرَ اللهُ تَعالى بِهِ بَني إسْرائيلَ ، وَهَذِهِ الآياتُ تُبَيِّنُ ما نَهى اللهُ تَعالى بَني إسْرائيلَ عَنْهُ ، وَأَخَذَ الميثاقَ عَلَيْهِمْ بِأَن لا يَقرَبوا تِلْكَ المَنهِيّاتِ ، وَلَكِنَّهُمْ نَقَضوا العَهْدَ .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ ﴾ يُخاطِبُ اليَهودَ الّذينَ كانوا في عَهْدَ النَّبيِّ ﷺ ، يُذَكِّرُهُمْ بِما كانَ مِنْ سَلَفِهِمْ ، وَما أصابَهُمْ ، وَهُمْ إنْ ساروا عَلى نَهْجِ السَّلَفِ فَسَيُصيبُهُمْ ما أصابَهُمْ كَذلِكَ ، إنْ خَيراً فَخَيرٌ وَإنْ شَرّاً فَشَرٌّ .

أَخَذَ اللهُ الميثاقَ على بَني إسْرائيلَ ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ﴾ أَيْ : لا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، وَلا يُخْرِجُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً مِنْ دارِهِ ، فَقَدْ جَعَلَ سُبْحانَهُ دَمَ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرادِ الأُمَّةِ كَأَنَّهُ دَمُ الآخَرِ ، حَتّى إذا سَفَكَهُ كَأَنَّهُ قَتَلَ نَفْسَهُ ، وإذا أَخْرَجَهُ مِنْ دارِهِ كَأَنَّهُ أَخْرَجَ نَفْسَهُ ، فَلا فَرْقَ بَيْنَ روحِهِ هُوَ وَدَمِهِ ، وروحِ أَخيهِ وَدَمِهِ .

وَيُبَيِّنُ سُبْحانَهُ بِأَنَّهُمْ قَدْ قَبِلوا العَمَلَ بِهذا الميثاقِ وَالتَزَموا بِهِ ، فَقَدِ اعْتَرَفوا بِهِ وَأَقَرّوهُ وَلَمْ يُنْكِروهُ ، فَكانَ مِنَ الواجِبِ عَلَيْهِمْ أنْ يوفوا بِهذا العَهْدِ ، وَلكِنَّهُمْ نَقَضوهُ ، فَماذا فَعَلوا ؟

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

بَيَّنَ القرآنُ ما فَعَلوهُ ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ ﴾ ها أَنْتُمْ يَقْتُلُ بَعضُكُمْ بَعْضاً كَما كانَ يَفْعَلُ الّذينَ كانوا قَبْلَكُمْ ، فَقَدْ كانَ يَهودُ بَني قَيْنُقاعٍ حَلَفاءَ لِلأَوْسِ وَأعداءً لإخوانِهِمْ في الدِّينِ بَني قُرَيْظَةَ وَبَني النَّضيرِ ، فَكانوا يَقْتَتِلونَ ، وَكانَ كُلُّ فَريقٍ مِنَ اليَهودِ يُظاهِرُ حُلَفاءَهُ مِنَ العَرَبِ ، وَيُعاوِنُهُمْ عَلى إخوانِهِ مِنَ اليَهودِ بِالإثْمِ كَالقَتْلِ والسَّلْبِ ، وَبِالعُدوانِ كَالإخراجِ مِنَ الدِّيارِ .

وَالعَجيبُ في أَمْرِ هؤُلاءِ اليَهودِ أَنَّهُمْ كانوا إذا اتَّفَقوا عَلى فِداءِ الأَسْرى ، يَفْدي كُلُّ فَريقٍ مِنَ اليَهودِ أَسْرى أَبْناءِ جِنْسِهِ مِنَ اليَهودِ ، وَإنْ كانوا مِنْ أَعْدائِهِ ، وَيَعْتَذِرونَ عَنْ هذا بِأَنَّهُمْ مَأْمورونَ في الكِتابِ بِفِداءِ أَسْرى شَعْبِ إسْرائيلَ ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ ﴾ فَإنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ يَأْسِروا عَدُوَّهُمْ مِنَ اليَهودِ ، يَفُكّونَ أَسْرَهُ بِدَفْعِ فِدائِهِ ، مَعَ أَنَّ هذا مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ ، لِكَوْنِهِمْ حالَفوا فَريقاً مِنَ العَرَبِ ، وَالحِلْفُ يَقْضي عَدَمَ خِداعِ مَنْ حالَفوهُ ، وَالقِتالِ مَعَهُمْ ، وَإخْراجِ أَعْدائِهِمْ مِنْ أَرْضِهِمْ . وَلِذلِكَ يَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ وَهُوَ قَضيَّةُ فِداءِ الأَسْرى ، ﴿ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ ﴾ وَهُوَ ما نَهاهُمْ اللهُ عَنْهُ مِنْ قَتْلِ أَبْناءِ جِنْسِهِمْ وَإخراجِهِمْ مِنْ دِيارِهِمْ . وما أَسْخَفَ هؤُلاءِ اليَهودَ ، وما

أَشَدَّ حماقَتَهُمْ ، فَهُمْ يَدَّعونَ الإيمانَ بِأُمورٍ هَيِّنَةٍ ، وَلَكِنَّهُمْ مَعْ ذلِكَ يَكْفُرونَ بِأمورٍ عَظيمَةٍ . إنَّ الإيمانَ لا يُمكْنُ أَنْ يَتَجَزَّأَ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِبَعْضِ ما وَرَدَ في كِتابِ اللهِ فَكَأَنَّهُ كَفَرَ بِكُلِّ ما في الكِتابِ . أوْ يَكونُ مَعَنى : ﴿تُفادُوهُم﴾ تَأْخُذونَ الفِدْيَةَ ، وَهُوَ مُحَرّمٌ عَلَيْكُمْ إخراجُهُمْ أَصْلاً وَبِالتَّالي افْتِداؤُهُمْ . واللهُ أَعْلَمُ .

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

وَيُبَيِّنُ سُبْحانَهُ وتَعالى العِقابَ الدُّنْيَوِيَّ والأُخْرَوِيَّ الّذي يَسْتَحِقُّهُ أُولئِكَ اليَهودُ الّذينَ يُؤْمِنونَ بِبَعْضِ الكِتابِ ، وَيَكْفُرونَ بِبَعْضٍ ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فَمَنْ يَنْقُضُ مَواثيقَ اللهِ تَعالى لَهُ الخِزْيُ والهَوانُ والعُقوبَةُ في هذِهِ الدُّنيا . وَقَدْ قَضَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعالى بِأَنَّهُ ما مِنْ أُمَّةٍ خَرَجَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها إلاّ وَيَحِلُّ بِها الخِزْيُ وَالهَوانُ ويَتَفَرَّقُ شَمْلُها ، وَلَيْسَ هذا فَقَط ، وَلكِنَّ العُقوبَةَ الشَّديدَةَ تَنْتَظِرُهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ جَزاءَ طُغْيانِهِمْ وَإِصرارِهِمْ عَلى السَّيِّئاتِ ، وَتَفْريقِهِمْ لأَحكامِ دينِهِمْ ، وَلِكَوْنِهِمْ باعوا آخِرَتَهُمْ بِثَمَنٍ قَليلٍ زَهيدٍ في هذِهِ الدُّنْيا ، وَلِذلِكَ اسْتَحَقّوا العَذابَ الشَّديدَ ، وَلَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمُ العَذابُ يَوْمَ القِيامَةِ ، وَلَنْ يَجِدوا وَلِيّاً وَلا نَصيراً يَنْصُرُهُمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإيمانُ يَقْتَضي أَنْ يُؤْمِنَ الإِنْسانُ بِكُلِّ ما جاءَ في كِتابِ اللهِ تَعالى وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ دونَ تَفْريقٍ .

٢ـ الأُمَّةُ الَّتي تَخْرُجُ عَنْ شَرْعِ اللهِ تَعالى ، يُصيبُها الخِزْيُ وَالذُّلُّ وَالهَوانُ في الدُّنيا ، وَالعَذابُ في الآخِرَةِ .

٣ـ الأُمَّةُ المُسْلِمَةُ كَأَنَّها جَسَدٌ واحِدٌ ، إذا اشْتَكى مِنْهُ عَضْوٌ تَداعى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّى وَالسَّهَرِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعنى المُفْرَداتِ التّاليَةِ :

أَقْرَرْتُم ، تَظاهَرون ، العُدوانِ .

٢ـ ما مَعنى : ﴿لاَ تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ ؟

٣ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ ؟ وهَلْ يُخْرِجُ الإِنسانُ نَفْسَهُ مِنْ دارِهِ ؟

٤ـ هَلْ قَبلَ اليَهودُ العَمَلَ بِما أَخَذَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ مِن ميثاقٍ ؟

٥ـ بيَّنَتْ الآياتُ ما الَّذي كانَ مِنَ اليَهودِ بَعْدَ أَنْ قَبلوا العَمَلَ بِالميثاقِ . وَضِّحْ ذلِكَ .

٦ـ ما مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾ ؟

٧ـ ما الجَزاءُ الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ تَعالى لِبَني إسْرائيلَ ؟



١ـ ما رأيُكَ في المَرْأَةِ الّتي تُصَلّي وتَخْرُجُ سافِرَةً مُتَبَرِّجَةً ؟ اكْتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ارْجِعْ إلى كِتاب سيرَةِ ابْنِ هِشامٍ ، واكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما حَلَّ بِيَهودِ بَني قَيْنُقاعٍ وَبَني النَّضيرِ وَبَني قُرَيْظَةَ مِنْ خِزْيٍ في الدُّنيا .

* * *

الدَّرسُ الخامِسُ والعِشرونَ

سُورَةُ البَقرَةِ - القِسْمُ الثَّالِثُ والعِشْرونَ

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

مَعاني المُفرداتِ :

قَفَّيْنا : أتْبَعنا .

البَيِّناتِ : الحُجَجَ الواضِحَةَ .

أَيَّدناهُ : قَوَّيناهُ .

روح القُدُسِ : جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ .

غُلْفٌ : جَمْعُ غِلافٍ ، أو أَغْلَفٌ ، وَهُوَ القَلْبُ الّذي لا يَعي وَلا يَفْهَمُ .



التَّفسيرُ :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ .

مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعالى وَرَحْمَتِهِ بالبَشَرِ ، أَنْ يَبْعَثَ لِلأُمَّةِ مَنْ يَعِظُها وَيُنْذِرُها ، لِتَتَّعِظَ وتَتَدبَّرَ ، فَإذا طالَ عَلَيْها الزَّمَنُ ، قَسَتْ قُلوبُ النّاسِ ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْمَوْعِظَةِ أَثَرٌ في نُفوسِهِمْ ، وَنَسوا ما أَمَرَهُمْ بِهِ اللهُ تَعالى ، وَحَرَّفوا كَلامَهُ ، وَهذا ما بَيَّنَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى في كِتابِهِ .

ولهذا فإِنَّهُ سُبْحانَهُ كانَ يُرْسِلُ الرُّسُلَ في كُلِّ أُمَّةٍ ، حَتّى لا يَطولَ عَلى النّاسِ الزَّمَنُ دونَ بَشيرٍ وَنَذيرٍ ، وَلا يَعْرِفُ التّاريخُ أُمَّةً جاءَها رُسُلٌ مُتَتابِعونَ بَعْضُهُمْ وَراءَ بَعْضٍ مِثْلَ بَني إِسْرائيلَ ، فَهُمُ الأُمَّةُ الّتي بُعِثَ لَها الرُّسُلُ الكَثيرونَ لَعَلَّهُمْ يَرْعَوونَ وَيَعودونَ إِلى شَرْعِ اللهِ تَعالى وَالعَمَلِ بِهِ ، وَلِذا جاءَتِ الآياتُ تُبَيِّنُ هذا الأَمْرَ ، بِأَنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنْزَلَ عَلى سَيِّدِنا موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الكِتابَ وَهُوَ التَّوْراةُ ، لِهِدايَةِ بَني إِسْرائيلَ ، وَلكِنَّهُمْ حَرَّفوها ، وَبَدَّلوها ، وَخالَفوا أَمْرَ اللهِ ، فَأَتْبَعَهُ اللهُ سُبْحانَهُ بِرُسُلٍ كَثيرينَ .

وَبَعَثَ لَهُمْ سَيِّدَنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَأَيَّدَهُ اللهُ تَعالى بِالحُجَجِ وَالبَراهينِ وَالآياتِ الّتي تَدُلُّ عَلى صِدْقِهِ ، وَصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ ، وَأَكْرَمَهُ بِإِنْزالِ الإِنْجيلِ ، وَأَيَّدَهُ بِروحِ القُدُسِ سَيِّدِنا جِبْريلَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ : فَأَضافَهُ إِلى أُمِّهِ رَدّاً عَلى الّذينَ يَزْعُمونَ أَنَّ سَيِّدَنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ لَهُ أَبٌ .

هل آمَنَ بَنو إِسْرائيلَ بالرُّسُلِ ؟

لَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ لِبَني إِسْرائيلَ كَثيراً مِنَ الرُّسُلِ ، وَلكِنْ هَلْ آمَنوا بِهِمْ ؟ وَما مَوْقِفُهُمْ مِنَ الرُّسُلِ ؟ تُوَبِّخُ الآياتُ بَني إِسْرائيلَ لأَنَّهُمْ كُلَّما جاءَهُمْ رَسولٌ يُبَلِّغُهُمْ أَوامِرَ رَبِّهِمْ ، الّتي لا تَهواها نُفوسُهُمْ ولا تُحِبُّها ، اسْتَكْبَروا عَنِ اتِّباعِ هذا الرَّسولِ وَالإِيمانِ بِهِ ، وَلَمْ يَكْتَفوا بِهذا فَقَط ، وَلكِنَّهُمْ كَذَّبوا بِبَعْضِ الرُّسُلِ ، وَقَتَلوا بَعْضَهُمْ ، فَلَقَدْ كَذَّبوا سَيِّدَنا عيسى وَمُحَمَّداً عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقَتَلوا سَيِّدَنا زَكَرِيّا وَيَحْيى عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَغَيْرَهُما الكَثيرُ .

وَقَدْ عَبَّرَ القُرآنُ الكَريمُ عَنْ القَتْلِ بِصيغَةِ المُضارعِ ﴿تَقْتُلُونَ﴾ لاسْتِحضارِ هذِهِ الصّورَةِ الفَظيعَةِ ، وَتَمثيلِها لِلقارِىءِ وَالسّامِعِ حَتّى يَتَصَوَّرَها كَأَنَّها تَحْدُثُ أَمامَهُ الآنَ ، فَيَسْتَبْشِعُ وَيَسْتَنْكِرُ هذا الفِعْلَ مِنْ هؤلاءِ اليَهودِ .

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

لَقَدْ طُبِعَ هَؤلاءِ اليَهودُ عَلى المُحاجَّةِ والمُعانَدَةِ ، وَلِذلِكَ سَجَّلَ عَلَيْهِمُ القُرآنُ قَوْلَهُمْ : ﴿ **وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ** ﴾ يَعْنونَ بِذلِكَ أَنَّهُمْ لا يَعْقِلونَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ ولا يَفْهَمونَهُ ، كَأَنَّ عَلى قُلوبِهِمْ غِطاءٌ يَحولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الفَهْمِ ؛ وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بِقَوْلِهِ : ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ وَبَلْ : لِلإِضْرابِ ، أَيْ : أَنَّ قُلوبَهُمْ لَيْسَتْ غُلْفاً لا تَفْهَمُ الحَقَّ بِطَبْعِها ، وَلكِنَّ اللهَ تَعالى هُوَ الّذي لَعَنَهُمْ ، أَيْ : أَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَذلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِالأَنْبياءِ السّابِقينَ ، وَبِالكِتابِ الّذي أُمِروا بِالعَمَلِ بِهِ ، فَتَرَكوهُ وَحَرَّفوهُ اتِّباعاً لأَهْوائِهِمْ ، وَهذا العَمَلُ كانَ سَبَباً لِقِلَّةِ إِيمانِهِمْ ، فَهُمْ يُؤْمِنونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وَيُحَرِّفونَ بَعْضَهُ الآخَرَ ، وَيَتْرُكونَ العَمَلَ بِهِ ، وإِيمانُهُمْ إِنَّما هُوَ قَوْلٌ بِلِسانِهِمْ تُكَذِّبُهُ أَعْمالُهُمْ ، فَلَيْسَ لِهذا

الإيمانِ سُلطانٌ عَلى قُلوبِهِمْ ، حَتَّى يَكونَ المُحَرِّكَ لَهُمْ فَتَكونَ أَعمالُهُمْ صالِحَةً ، وَلكِنَّ الّذي يُحَرِّكُهُمْ هَواهُمْ وَشَهواتُهُمْ ، وَهذا الإيمانُ لا قيمةَ لَهُ عِنْدَ اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِالبَشَرِ ، أَنَّهُ يَبْعَثُ لَهُمُ الرُّسُلَ ويُنَزِّلُ لَهُمُ الكُتُبَ لِهِدايَتِهِمْ ، وَلإِخْراجِهِمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ .

٢ـ الإيمانُ الَّذي يَكونُ قَوْلاً فَقَط ، وَلَمْ يُقِرَّهُ القَلْبُ ويُصَدِّقْهُ العَمَلُ ، إيمانٌ لا قيمَةَ لَهُ عِنْدَ اللهِ تَعالى .

٣ـ المكَذِّبونَ لأَنْبياءِ اللهِ ، وَلِما وَرَدَ في كِتابِ اللهِ تَعالى مَلْعونونَ مَطْرودونَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ معنى المُفْرداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ، أَيَّدْناهُ بروحِ القُدُسِ ، قُلوبُنا غُلْفٌ ، لَعَنَهُمْ .

٢ـ ما سُنَّةُ اللهِ تَعالى لِهِدايَةِ البَشَرِ ؟

٣ـ اذْكُرِ اسْمَ رَسولَيْنِ جاءا بَعْدَ سَيِّدِنا موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

٤ـ لِماذا أَضافَ سُبْحانَهُ وتَعالى عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى أُمِّهِ ؟

٥ـ بيَّنَتِ الآياتُ مَوْقِفَ اليَهودِ مِنْ رُسُلِ اللهِ تَعالى . وَضِّحْهُ مِنْ خِلالِ الآياتِ .

٦ـ طُبِعَ اليَهودُ عَلى المُجادَلَةِ وَالمعانَدَةِ ، بيِّنْ صورَةً لِذلِكَ مِنَ الآياتِ .

٧ـ ما مَعنى قَولِهِ تَعالى : ﴿فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ ارْجِعْ إلى سورَةِ الحَديدِ ، واكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الَّتي تَأْمُرُ المُؤْمِنينَ أَلاّ يَكونوا مِثْلَ أَهْلِ الكِتابِ الَّذينَ طالَ عَلَيْهِمُ الزَّمَنُ وقَسَتْ قُلوبُهُمْ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ خَمْسَةً مِنْ أَنْبياءِ بَني إِسْرائيلَ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ثَلاثاً مِنَ المُعْجِزاتِ الَّتي أَيَّدَ اللهُ بِها سَيِّدَنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

* * *

الدرس السادس والعشرون

سورة البقرة ـ القسم الرابع والعشرون

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَسْتَفْتِحونَ : يَسْتَنْصِرونَ .

اشْتَرَوْا : باعوا .

بَغْياً : ظُلْماً وَحَسَداً .

باءوا : رَجَعوا .

التَّفسيرُ :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

وَتَسْتَمِرُّ الآياتُ الكَريمَةُ في بَيانِ حَقيقَةِ ما عَلَيْهِ يَهودُ ، فَجاءَتْ هذِهِ الآياتُ تُبَيِّنُ رَذيلَةً أُخْرى مِنْ رَذائِلِهِمْ ، ألا وَهِيَ كَراهِيَّتُهُمُ الخَيْرَ لِلنَّاسِ ، وَذلِكَ لِما يَتَمتَّعونَ بِهِ مِنَ الأَنانِيَّةِ وَحُبِّ النَّفْسِ ، وَسَبَبُ هذا كُلِّهِ جُحودُهُمْ لِلْحَقِّ .

فالآياتُ الكَريمَةُ تُبيِّنُ أَنَّهُ لَمّا جاءَ النَّبيُّ ﷺ وَمَعَهُ القُرآنُ الكَريمُ الّذي أَكْرَمَهُ بِهِ اللهُ تَعالى وَأَكْرَمَ بِهِ النّاسَ ، وَكانَ هذا القُرآنُ مُصَدِّقاً لِما وَرَدَ في التَّوراةِ الّتي مَعَهُمْ ، أَيْ : جاءَ يُؤَيِّدُها وَيُوافِقُها في أُصولِ الدينِ ، وما يَخْتَصُّ بِبعْثَةِ النَّبيِّ ﷺ وَصِفَتِهِ ، حَيْثُ وَرَدُ في التَّوراةِ صِفاتُ النَّبيِّ المَبْعوثِ فَعَرَفَها اليَهودُ ، وَقَدْ كانوا إذا حَصَلَ نِزاعٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدائِهِمْ مِنَ الوَثَنِيّينَ يَسْتَنْصِرونَ عَلَيْهِمْ بِالنَّبيِّ المُنْتَظَرِ ، الّذي وَرَدَ وَصْفُهُ في التَّوراةِ ، وَيَدْعونَ اللهَ تَعالى أَنْ يَنْصُرَهُمْ بِهذا النَّبيِّ على أَعدائِهِمْ .

وَمَعَ مِنْ أَنَّهُمْ يَعْرِفونَ بِأَنَّ هُناكَ نَبيّاً سَيَجيءُ ، وَمَعَهُ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، مَعَ ذلِكَ لَمّا جاءَهُمْ هذا الّذي عَرَفوهُ كَفَروا بِهِ وَجَحَدوهُ ، وَالواجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤَيِّدوا هذِهِ المَعْرِفَةَ بالإيمانِ بِهِ ، وَلكِنَّ خَوْفَهُمْ وَحِرْصَهُمْ على الجاهِ والمالِ ، وَلأَنَّ الرَّسولَ جاءَ مِنَ العَرَبِ وَلَيْسَ مِنْهُمْ ، كُلُّ هذا جَعَلَهُمْ يَكْفُرونَ بِهِ ، وَلِذا وَبِسَبَبِ كُفْرِهِمْ حَلَّتْ عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةُ مِنَ اللهِ ، واسْتَحَقّوا الإبْعادَ والطَّرْدَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى .

وَقَدْ وَرَدَتْ في الآيَةِ كَلِمَةُ (كِتابٌ) في قَوْلِهِ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ ﴾ نَكِرَةً ، وَالتَّنْكيرُ هُنا زِيادَةٌ في التَّعْظيمِ وَالتَّشْريفِ لِهذا القُرآنِ الكَريمِ . وَقالَ تَعالى في وَصْفِ الكِتابِ ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ زِيادَةً في مَذَمَّةِ اليَهودِ ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَكْفُروا بِما يُخالِفُ كِتابَهُمْ ، وَلكِنَّهُمْ كَفَروا بِما يُوافِقُ الكِتابَ .

﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

وَهؤلاءِ اليَهودُ هُيِّئَتْ لَهُمُ الأَسْبابُ لِيَكونوا مِنَ المُؤْمِنينَ ، وَلكِنَّهُمُ اسْتَمَرّوا في الكُفْرِ بَغْياً وَحَسَداً وَحُبّاً في الرِّياسَةِ ، وَتَعَصُّباً لِجِنْسِهِمْ ، وَلِذا كانَ اخْتِيارُهُمْ لِلْكُفْرِ عَلى الإيمانِ ، بِمَنْزِلَةِ اخْتِيارِهِمُ الثَّمَنَ المَقْبوضَ عَلى السِّلْعَةِ ، فَأَنْفُسُهُمْ بِمَنْزِلَةِ السِّلْعَةِ ، وَكُفْرُهُمْ بِمَنْزِلَةِ الثَّمَنِ المَقْبوضِ ، وَهُمُ اخْتاروا هذا الثَّمَنَ ، فَبِئْسَ ما اخْتاروهُ .

وقَدْ عَبَّرَ سُبْحانَهُ بِصيغَةِ المُضارِعِ ﴿ أَن يَكْفُرُوا۟ ﴾ لِيَدُلَّ عَلى هذِهِ الطَّبيعَةِ الّتي فيهِمْ ، فَكُفْرُهُمْ مَتَجَدِّدٌ وَمُسْتَمِرٌّ ، وما زالوا مُنْحَرِفينَ عَنِ المَسْلَكِ الصَّحيحِ . وهذا الكُفْرُ كانَ بِدافِعِ الحِقْدِ وكَراهِيَةِ أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ الوَحيَ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، والحَسَدُ هُوَ تَمَنّي زَوالِ النِّعْمَةِ عَنِ الآخَرينَ وَهؤلاءِ حَسَدوا النَّبيَّ ﷺ عَلى نِعْمَةِ النُّبُوَّةِ ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ وكانَ مِنَ العَرَبِ .

ما مَصيرُهُمْ إزاءَ تَكْذيبِهِمْ بالرَّسولِ ﷺ ؟

يُبَيِّنُ سُبْحانَهُ وتَعالى في الآياتِ مَصيرَ هؤلاءِ اليَهودِ ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ أَيْ : رَجَعوا مِنْ أَجْلِ كُفْرِهِمْ وحَسَدِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَصحوبينَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، إضافَةً إلى الغَضَبِ الّذي لَحِقَهُمْ مِنْ قَبْلُ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِموسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقَدْ ذَكَرَتْ آياتُ سُورَةِ البَقَرَةِ هذا الغَضَبَ الّذي

لحِقَهُمْ مِنْ قَبْلُ ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ .

هذا الغَضَبُ المُزْدَوَجُ مِنَ اللهِ تَعالى يُصاحِبُهُ إِهانَةٌ وَذلٌّ بِسَبَبِ كُفْرِهِم ، ولِذا قالَ ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : (وَلَهُمْ) ، لِيُسَجِّلَ سَبَبَ هذا العَذابِ وعِلَّتَهُ ، وَهُوَ الكُفْرُ . وَهذا العَذابُ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، وَإِذا أَذْنَبَتْ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ أُتْبِعَ هذا الذَّنْبُ بِالعُقوبَةِ مِنَ اللهِ ، لِكَيْ يَعْتَبِرَ المُتَأَخِّرونَ بِما أَصابَ المُتَقَدِّمينَ .

حُجَجُ اليَهودِ لِعَدَمِ إِيمانِهِمْ بِالقُرْآنِ الكَريم :

إِنَّ مِنْ عادَةِ اليَهودِ العِنادَ وَتَقديمَ الحُجَجِ والاعتِذاراتِ ، وَقَدْ عَرَفْنا مِنْ قَبْلُ بِأَنَّهُمْ اعْتَذَروا بِأَنَّ قُلوبَهُمْ غُلْفُ لا تَعي ، ولا تَفْهَمُ شَيْئاً ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بِقَوْلِهِ :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ .

وهُنا يُبْدونَ عُذْراً آخَرَ لِعَدَمِ إِيمانِهِمْ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ يَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى : إِذ قيلَ لِهؤلاءُ اليَهودِ آمِنوا بِالقُرْآنِ الكَريمِ الّذي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالى عَلى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، والآياتُ ذَكَرَتْ المُنْزِلَ وَهُوَ اللهُ ، وَلَمْ تَذْكُرِ المُنْزَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، لِكَوْنِ الأَمْرِ مَعلوماً لِلجَميعِ ، أَوْ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الّذي يُؤْمِنُ بِالكِتابِ لابُدَّ وأَنْ يُؤْمِنَ بِالمُنْزَلِ عَلَيْهِ كَذلِكَ . هؤُلاءِ إِذا قيلَ لَهُمْ ذلِكَ ، اعْتَذَروا بِقَوْلِهِم : ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ أَيْ : نَحْنُ نُؤْمِنُ بِالتَّوْراةِ ، لأَنَّها أُنْزِلَتْ عَلَيْنا ، وَلِكنّا لا نُؤْمِنُ بِالقُرْآنِ المُنْزَلِ عَلى مُحَمَّدٍ ﷺ ، لأَنَّهُ أُنْزِلَ عَلى العَرَبِ وَلَيْسَ عَلَيْنا ، وَلِذا يُوَبِّخُهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ أَيْ : وَالحالُ أَنَّهُمْ يَكْفُرونَ بِما سِوى التَّوْراةِ ، وَبِما جاءَ بَعْدَها مِنْ كُتُبِ اللهِ تَعالى وَهوُ القُرْآنُ الكَريمُ ، مَعَ أَنَّ القُرْآنَ الكَريمَ جاءَ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ ، أيْ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلى نُبُوَّةِ النَّبيِّ ﷺ ، لأَنَّ التَّوْراةَ بَشَّرَتْ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَهؤُلاءِ اليَهودُ إِذَنْ كاذِبونَ في دَعواهُمْ ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ الّذي بَشَّرَتْ بِهِ تَوراتُهُمْ ، فَكَيْفَ يَكونُ الإِيمانُ بِكِتابِهِمْ باعِثاً عَلى الإِيمانِ بِما هُوَ حَقٌّ مِثْلُهُ ؟ لا بَلْ هُوَ الحَقُّ كُلُّهُ ، هَلْ يُعارِضُ الحَقُّ الحَقَّ ، حَتّى يَكونَ الإِيمانُ بِأَحَدِهِما موجِباً لِلكُفْرِ بِالآخَرِ ؟ ؟

ولِذا يَأْمُرُ اللهُ النَّبيَّ ﷺ أَنْ يُوَبِّخَ أُولئِكَ اليَهودَ الَّذينَ يَدَّعونَ الإِيمانَ بِكِتابِهِمْ ، وَمَعَ ذلِكَ يُخالِفونَهُ في أُمورٍ كَثيرَةٍ ، فَيَقولُ : قلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ : إِنْ كُنْتَمْ كَما تَدَّعونَ تُؤْمِنونَ بِكِتابِكُمُ الّذي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ ، فَلِماذا قَتَلْتُمْ أَنْبِياءَ اللهِ تَعالى مِنْ قَبْلُ ، مَعْ أَنَّ التَّوْراةَ حَرَّمَتْ عَلَيْكُمْ قَتْلَهُمْ وَأَمَرَتْكُمْ باتِّباعِهِمْ ؟ إِنَّ قَتْلَكُمْ لَهُمْ لَهُوَ أَكْبَرُ دَليلٍ عَلى أَنَّكُمْ لَسْتُمْ مُؤْمِنينَ كَما تَدَّعونَ .

وَقَدْ عَبَّرَ سُبْحانَهُ عَنِ القَتْلِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ (تَقْتُلونَ) بَدَلَ الفِعْلِ الماضي (قَتَلْتُمْ) ، مَعْ أَنَّ

القَتْلَ كانَ مِنْ آبائِهِمْ في الماضي ، وذلِكَ لاسْتِحْضارِ هذِهِ الصّورَةِ كَأَنَّها تَحْدُثُ الآنَ ، وَكَأَنَّهُمْ ما زالوا يَقْتُلونَ ، وذلِكَ أَنَّ اليهودَ في عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ ساروا عَلى طَريقِ أَسْلافِهِمْ وآبائِهِمْ نَفْسِهِ ، راضونَ عَنْ قَتْلِ أسْلافِهِمْ لِلأَنْبِياءِ ، وما داموا راضينَ عَنْهُمْ فَهُمْ في مَنْزِلَةِ القاتِلينَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُسْلِمُ يُطَهِّرُ نَفْسَهُ مِنَ الحَسَدِ وَالحِقْدِ وَالكَراهِيَّةِ والبُغْضِ لِلآخَرينَ .

٢ـ الّذي يَرضى بِالمُنْكَراتِ ، وإِنْ لَمْ يَقْتَرِفْها ، هُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ فَعَلَها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعاني المُفْرداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :
يَسْتَفْتِحونَ ، باءوا ، بَغْياً ، كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ .

٢ـ هَلْ كانَ اليَهودُ يَعلَمونَ بِأَنَّ نَبِيّاً سَيُبْعَثُ لَهُمْ بَعْدَ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٣ـ بِماذا كانَ اليهودُ يُهَدِّدونَ أَعْداءَهُمْ قَبْلَ مَجيءِ النَّبِيِّ ﷺ ؟

٤ـ لِماذا وَرَدَتْ كَلِمَةُ (كِتابٌ) نَكِرَةً في قَوْلِهِ : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُم كِتَابٌ﴾ ؟

٥ـ ما مَوْقِفُ اليَهودِ مِنْ بَعْثِ النَّبِيِّ ﷺ ؟

٦ـ اسْتَنْتِجْ سَبَبَ تَكذيبِ اليَهودِ بِالرَّسولِ ﷺ .

٧ـ ما مَصيرُ اليَهودِ لِتَكْذيبِهِمْ بِالرَّسولِ ﷺ ؟

٨ـ يَدَّعي اليَهودُ أَنَّ عَدَمَ إيمانِهِمْ بِالقُرآنِ الكَريمِ كانَ لِسَبَبٍ ما . ما هُوَ ذلِكَ السَّبَبُ في رِأْيِهِمْ ؟

٩ـ بِماذا وَبَّخَ النَّبِيُّ ﷺ هؤُلاءِ اليَهودَ ؟

١٠ـ هَلْ قَتَلَ اليَهودُ في عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ الأَنْبِياءَ ؟ وَضِّحْ لِماذا قالَ لَهُمْ : ﴿فَلِمَ تَقتُلُونَ﴾ ؟

* * *

الدَّرْسُ السَّابِعُ والعِشْرون

سورة البقرة - القسم الخامس والعشرون

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

معاني المفردات :

البينات	المُعْجزاتِ الواضِحاتِ .
اتخذتم العجل	جَعَلْتُموهُ إلهاً تَعْبُدونَهُ مِنْ دونِ اللهِ .
أُشربوا في قلوبهمُ العجل	امْتَزَجَ حُبُّ عِبادَةِ العِجْل بِقُلوبِهِمْ .

التَّفْسيرُ :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

إِنَّ رَذائِلَ هؤُلاءِ اليَهودِ كَثيرةٌ ، تُنْبِىءُ عمّا جُبلَتْ عَلَيْهِ نُفوسُهُمْ مِنْ بُغْضٍ لِلحَقِّ وكَراهيةٍ لَهُ ، وجُحودٍ وعِنادٍ ، وَلِذا تَجِدُ هذهِ الآياتِ الكَثيرةَ تُحَدِّثُنا عَنْهُمْ ، حَتَّى نَعرِفَهُم ونَحْذَرَهُم ، وَلكِنَّنا مَعَ ذلِكَ ما زِلْنا نَأْمَلُ بِسَلام مَعَهُمْ ، وَما نَزالُ نَأمَلُ بِخَيرٍ مِنْهُمْ ، ولَنْ يكونَ هذا أَبَداً ، فَإذا كانَ هذا فِعْلُهُمُ الَّذي حَدَّثَتْنا الآياتُ عَنْهُ مَعَ أَنْبيائِهِمْ ، فَكَيْفَ يَكونونَ مَعَ المُسلمينَ اليَومَ ؟!! وآياتُ الدَّرْسِ تُبَيِّنُ شَيْئاً مِنْ أَخْلاقِهِمْ ، فَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ تَعالى لَهُمْ سَيِّدَنا موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الَّذي أَيَّدَهُ بِالمُعجِزاتِ الدّالَّةِ على صِدْقِهِ ، وَما أَكْثَرَها .

وهذهِ كُلُّها قَدْ سَمّاها اللهُ تَعالى(بيِّناتٍ) ، لأنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ مِنَ البَشَرِ أَنْ يَأتِيَ بِها ، وَهِيَ واضِحَةٌ في الدَّلالَةِ على صِدْقِ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَأَنَّ الَّذي يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ هُو اللهُ وَحْدَهُ ، لكِنَّهُمْ ما لَبِثوا أَن اتَّخذوا العِجْلَ إلهاً عَبَدوهُ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى ، بَعْدَ أَنْ تَرَكَهُمْ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لِميقاتِ رَبِّهِ ، لِيأتِيَهُمْ بتعاليمِ دينِ اللهِ الَّذي جاءَهُمْ بِهِ .

لَقَدْ عَبَدوا العِجْلَ الَّذي صَنَعَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ مِنَ الحِليِّ والذَهَبِ ، ذلِكَ العِجْلَ الَّذي لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً ولا نَفْعاً ، عَبَدوهُ وَهُمْ ظالِمونَ لأَنْفُسِهِمْ ، وَساروا في طَريقِ الضَّلالِ ، وتَرَكوا عِبادَةَ اللهِ الَّذي أَكْرَمَهُمْ بما أَكْرَمَهُمْ بِهِ ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالنِّعَمِ الكَثيرَةِ . عَبَدوا عِجْلاً جماداً صَنَعوهُ بِأَيديهِمْ لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً ولا نَفعاً ، عَبَدوهُ وَهُمْ ظالِمونَ .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

لَقَدْ أَخَذَ اللهُ تَعالى المِيثاقَ على هؤُلاءِ اليَهودِ أَنْ يَعْمَلوا بما وَرَدَ في التَّوراةِ مِنْ أَحْكامٍ ، ويُؤمِنوا بِكُلِّ ما وَرَدَ فيها ، وَأَيَّدَهُمْ بآيَةٍ عَظيمَةٍ مِنْ آياتِهِ سُبْحانَهُ ، لِكَيْ يُقَوّيَ إيمانَهُمْ وَيَتَقَبَّلوا ما وَرَدَ في التَّوراةِ بِرَغبَةٍ مِنْهُمْ ، هذِهِ الآيَةُ هِيَ رَفْعُ الطّورِ فَوْقَهُمْ كَما تَحَدَّثَتِ الآياتُ مِنْ قَبْلُ ، وَقَدْ أَمَرَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بِقولِهِ : ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ أَمَرَهُمْ بالفَهْمِ لِما وَرَدَ في التَّوراةِ والطّاعةِ لها ، وَقَدْ أَمَرَهُمْ في آيةٍ أُخرى سَبَقَتْ في هذِهِ السورةِ فَقط بِحِفْظِ ما وَرَدَ في التَّوراةِ بِقولِهِ : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ ﴾ ، والمَقْصودُ بِقولِهِ : (اسْمعوا) سَماعاً بِتَدَبُّرٍ يَتْبَعُهُ اسْتِجابَةٌ للأَمْرِ .

وَلكِنْ بِماذا أَجابوا ؟ وَماذا كانَ رَدُّهُمْ ؟ لَقَدْ قالوا : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ فَهُمْ قَدْ قَبِلوا الميثاقَ وَفَهِموهُ ، ولكِنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلوا بِما وَرَدَ فيهِ ، وتَلَقَّوْهُ بِالعِصيانِ ، فَلِسانُ حالِهِمْ يَقولُ : نَحْنُ قَدْ سَمِعْنا وفَهِمْنا ما قُلْتَهُ لَنا ، ولكنَّنا عَصَينا أوامِركَ ، ولَنْ نُطيعَكَ فيما تقولُهُ لَنا وتَأمُرُنا بِهِ .

ومِنْ أَسْوأ مَعاصيهِمُ الَّتي عَصوا اللهَ بِها عِبادَتَهُمْ للعِجْلِ ، حَتّى خالَطَ وَمَزَجَ حُبُّ العِجْلِ قُلوبَهُمْ ، وهذِهِ اسْتِعاراتُ القُرآنِ الكَريمِ ، فَقَدْ شَبَّهَ حُبَّهَمْ للعِجْلِ الَّذي خالَطَ نُفوسَهُمْ حَتّى اسْتَقَرَّ في قُلوبِهِمْ بِالشَّرابِ الَّذي يُحِبُّهُ الإنسانُ فَيَشرَبُهُ ، ويُخالِطُ هذا الشَّرابُ جَسَدَهُ فَيَسري في شرايينِهِ .

وقَدْ عَبَّرَتِ الآياتُ عَنْ حُبِّهِمْ للعِجْلِ ب(أُشْرِبوا) ، لِتَدُلَّ على أَنَّ حُبَّهُمْ لَهُ بَلَغَ مَبلَغاً كَبيراً ، فَصارَ يَسري في قُلوبِهِمْ ، فَكَأَنَ أَحَداً أَشْرَبَهُمْ هذا الحُبَّ لِلعِجْلِ ، وقالَ : (بِكُفْرِهِمْ) لِيدُلَّ على أَنَّ حُبَّهُمْ لِلعِجْلِ ناشِىءٌ عَنْ كُفْرِهِمْ وَجُحودِهِمْ ، فَهُوَ كُفْرٌ قَدْ سَبَقَهُ كُفْرٌ وَجُحودٌ .

وَيَأمُرُ اللهُ تَعالى النَّبيَّ ﷺ بِتوبيخِ هؤُلاءِ اليَهودِ بِقولِهِ : ﴿ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

قَلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ مُوَبِّخاً لَهُمْ : بِئسَ هذا الإيمانُ الَّذي تَدَّعونَهُ ، والَّذي يَأمُرُكُمْ أَنْ تَقْتُلوا الأنبياءَ ، وتَعْبُدوا العِجْلَ ، وتَعْصوا أَوامِرَ اللهِ تَعالى ، وتُكَذِّبوا بالقُرآنِ الكَريمِ وبالنَّبيِّ مُحَمَدٍ ﷺ .

لَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابقةُ في سورَةِ البَقَرَةِ قَضِيَّةَ عِبادَةِ اليَهودِ العِجْلَ ، وأَخْذَ الميثاقِ عَلَيْهِمْ ، وَرَفْعَ الطّورِ ، وذُكِرَتْ هُنا كَذلِكَ ، وَلكنْ هذا ليسَ مِنْ قَبيلِ التَّكرارِ ؛ فَالعِباراتُ والأسلوبُ كُلٌّ مِنْها مُخْتَلِفٌ ، والسِّياقُ كذلكَ مختَلِفٌ ، فَقَد كانَ السِّياقُ مِن قَبْلُ سِياقَ ذِكْرٍ للنِّعَمِ الَّتي أَنْعَمَها اللهُ عَلَيْهِمْ ، ولَكنَّهم قابَلوا هذه النِّعَمَ باتِّخاذِ العِجْلِ ، وفي هذهِ الآياتِ ، يُبَيِّنُ بِأَنَّ اللهَ تَعالى أَرسلَ لَهُمُ المُعْجزاتِ الواضِحاتِ البَيِّناتِ لِيُقَوِّيَ إيمانَهُمْ ، وَيَزدادَ اعْتصامُهُمْ بِدينِ اللهِ ، ولكِنَّهُمْ كَفَروا بِها ، واتَّبَعوا أهواءَهُمْ وشَياطينَهُمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الَّذي يَسيرُ في طَريقِ الضَّلالِ وَالجُحودِ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ .

٢ـ الإِيمانُ بِاللهِ يَقْتَضي إِطاعَتَهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى في كُلِّ ما يَأْمُرُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الآياتُ البَيِّناتِ الّتي أَيَّدَ اللهُ تَعالى بها سَيِّدَنا موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٢ـ لِماذا وَصَفَ اللهُ تَعالى المُعْجزَةَ ، بِأَنَّها بيِّنَةٌ ؟

٣ـ ما الجَريمَةُ الشَّنيعَةُ الَّتي ارْتَكَبَها اليَهودُ في حَقِّ رَبِّهِمْ ؟

٤ـ بِماذا وَصَفَ اللهُ تَعالى أُولئِكَ الَّذينَ عَبَدوا العِجْلَ ؟

٥ـ ما الَّذي أَخَذَهُ اللهُ عَلى بَني إِسْرائيلَ ؟

٦ـ أَيَّدَ اللهُ تَعالى بَني إِسْرائيلِ بِآيَةٍ عَظيمَةٍ ، ما هِيَ ؟ وَما الحِكْمَةُ مِنها ؟

٧ـ أ ـ بِمَ أَمَرَ اللهُ تَعالى بَني إِسْرائيلَ بَعْدَ أَنْ رَفَعَ فَوْقَهُمُ الطّورَ ؟

ب ـ هَلْ التَزَموا بأَوامِرِ اللهِ تَعالى ؟ وَضِّحْ ذلِكَ .

٨ـ ما مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلعِجلَ﴾ ؟ ولِماذا عَبَّرَ بِهذِهِ الصّيغَةِ ؟
٩ـ بيِّنْ نَوْعَ البَيانِ في كَلِمَةِ (أُشْرِبوا).
١٠ـ هَلْ يُمْكِنُ وَصْفُ اليَهودِ بِأَنَّهُمْ مُؤْمِنونَ ؟ وَبِمَ وَصَفَ اللهُ إيمانَهُمْ ؟



ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ثَلاثَ آياتٍ جاءَ بِها موسى عَلَيْهِ السَّلامُ .

* * *

الدَّرسُ الثامنُ والعشرونَ

سورةُ البقرةِ ـ القسمُ السادسُ والعشرونَ

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

معاني المُفْرَداتِ :

خالِصَةً : سالِمَةً مِنَ الشَّوائِبِ .

حَياةٍ : الحَياةِ الدُّنْيا .

يُعَمَّرُ : يَطولُ عُمُرُهُ .

بِمُزَحْزِحِهِ : مُبْعِدِهِ .

التَّفسيرُ :

عَرَفْنا مِنْ قَبْلُ أَنَّ اليَهودَ ادَّعَوْا بِأَنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ المُخْتارُ ، وَأَنَّهُمْ لَنْ تَمَسَّهُمُ النّارُ إِلاّ أَيّاماً مَعدوداتٍ ، وَبِالتّالي لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاّ مَنْ كانَ يَهودِيّاً ؛ وَجاءَتْ هذِهِ الآياتُ تُحاجِجُ أُولئِكَ اليَهودَ في ادِّعائِهِمْ هذا .

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ .

يَقولَ سُبْحانَهُ وتَعالى : ، قُلْ يا مُحَمَّدُ ﷺ لأُولئِكَ الّذينَ يَدَّعونَ أَنَّهُمْ سَوْفَ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ ،

وَسَتكونُ هذه الجَنَّةُ لَهُمْ وَحْدَهُمْ مِنْ دونِ النّاسِ ، قُلْ لَهُمْ : إِنْ كانَ الأَمْرُ كَما تَقولونَ فَتَمنَّوْا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ فيما تَدَّعونَ . وَالتَّمَنّي هُوَ ارتياحُ النَّفْسِ وَرَغْبَتُها القَوِيَّةُ في الشَّيْءِ ، بِحَيْثُ أَنَّها تُريدُهُ ، وَتُحِبُّ أَنْ يَصيرَ لَها ، ويُمْكِنُ أَنْ يَكونَ تَمني الأَمْرِ بالقَلْبِ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكونَ بِاللِّسانِ ، وَالمَقْصودُ هُنا التَّمَنّي باللِّسانِ ، أَيْ اذْكُروا بِأَلْسِنَتِكُمْ أَيُّها اليَهودُ لَفْظاً يَدُلُّ على أَنَّكُمْ تُحِبّونَ المَوْتَ ، وَلا تَرْغَبونَ في هذهِ الحياةِ الدُّنْيا ، وَأَنَّكُمْ تُريدونَ أَنْ تُقْبِلوا عَلى اللهِ تَعالى لِتَنالوا ثَوابَهُ وَنَعيمَهُ ، وَذلِكَ أَنَّ ما في الدُّنيا قَليلٌ وَحَقيرٌ بِالنِّسْبَةِ لِما في الآخِرَةِ ، فَمَنْ أَحَبَّ الآخِرَةَ تَمَنّى أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَيْها .

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

وَتُبَيِّنُ الآياتُ القُرآنِيَّةُ أَنَّ اليَهودَ لَنْ يَتَمنَّوْا المَوْتَ أَبَداً ، لا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَلا بِقُلوبِهِمْ ، وذلِكَ بِسَبَبِ ما اقْتَرَفَتْهُ أَيْديهِمْ مِنْ آثامٍ وَشُرورٍ ، كَما حَدَّثَتْنا الآياتُ مِنْ قَبْلُ ، فَقَدْ كَذَّبوا رَسولَهُمْ ، وَجَحَدوا نِعْمَةَ اللهِ تَعالى ، وَعَبَدواْ العِجْلَ ، وَقَتَلوا أَنْبياءَهُمْ ، وَمَنْ فَعَلَ كُلَّ هذهِ الآثامِ ، لا يُمْكِنُ أَنْ يُحِبَّ المَوْتَ أَوْ يَتَمنّاهُ ، وَاللهُ عَليمٌ بِهؤُلاءِ الظّالِمينَ لدينِ اللهِ ولأَنْفُسِهِمْ وَلِلْحَقِّ ، لا تَخْفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ مِنْ سَيِّئاتِهِمْ واعتِداءاتِهِمْ .

وهذِهِ الآيَةُ نَفَتْ تَمنيّ اليَهودَ المَوْتَ بِكَلِمَةِ (لَنْ) الّتي تُفيدُ التَّأْبيدَ ، أَيْ : لَنْ يَتَمنّوْهُ أَبداً لا عاجِلاً وَلا آجِلاً . وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ قَوْلُهُ : (لَوْ تَمنوْا المَوْتَ لَشَرِقَ أَحَدُهُمْ بِريقِهِ) . وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ : « لَوْ أَنَّ اليَهودَ تَمَنَّوْا المَوْتَ لَماتوا ، وَلَرَأَوْا مَقاعِدَهُمْ مِنَ النّارِ »[1] .

وفي الآيَةِ إِعْجازٌ غَيْبِيٌّ ، إِذْ أَخْبَرَتْ أَنَّهُمْ لَنْ يَتَمنَّوْا المَوْتَ ، وهذا ما كانَ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ تَمَنّوْا المَوْتَ لَنَقَلَ أَهْلُ الكِتابِ وَغَيْرُهُمْ هذا الأَمْرَ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ عَنْهُمْ ذلِكَ .

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ .

وَبيَّنَتِ الآياتُ بَعْدَ ذلِكَ حَقيقَةَ هؤُلاءِ اليَهودِ ، في حُبِّ الخُلودِ إِلى الأَرْضِ ، وَحُبِّ البَقاءِ في هذِهِ الدُّنْيا ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، لَتَجِدَنَّ يا مُحَمَّدُ هؤْلاءِ اليَهودَ الّذينَ يَزْعُمونَ أَنَّ الدّارَ الآخِرَةَ خالِصَةً لَهُمْ أَشَدَّ حِرْصاً عَلى الحَياةِ وما فيها مِنْ مَتاعٍ ، وَهُمْ أَشَدُّ النّاسِ كَراهِيَةً لِلمَوْتِ ، فَهُمْ حَريصونَ عَلى هذهِ الحَياةِ الدُّنْيا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ حَتَّى مِنَ المُشْرِكينَ الّذينَ لا يُؤْمِنونَ بِالبَعْثِ ، وَلِذلِكَ هُمْ يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يُعَمَّروا في هذِهِ الحَياةِ الدُّنيا زَمَناً طَويلاً كَما يَقولُ سُبْحانَهُ :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده .

﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ .

وَمِنْ حِرْصِ هؤلاءِ عَلى الحَياةِ أَنَّهُمْ يُضَحّونَ مِنْ أَجْلِها بِكُلِّ شَيْءٍ ، بِدينِهِمْ وَكَرامَتِهِمْ ، وَقَدْ نُكِّرَتْ كَلِمَةُ « حَياةٍ » هُنا فَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ « الحَياةَ » لِتَحقيرِ أُولئِكَ اليَهودِ ، فَهُمْ حَريصونَ عَلى الحَياةِ مَهْما كانَتْ ، سَواءٌ أَكانَتْ حَياةَ أَمْنٍ وَطُمَأْنينَةٍ أَمْ حَياةَ بُؤْسٍ وَشَقاءٍ وَذُلٍّ ، وَلَوْ قالَ « الحَياةَ » لَكانَ المَقْصودُ أَنَّهُمْ يَحْرِصونَ عَلى الحَياةِ الكَريمَةِ ، وَهذا غَيْرُ مُرادٍ هُنا .

وَفي الآيَةِ كَذلِكَ زِيادَةُ تَوْبيخٍ لِليَهودِ فَقَدْ قالَ تَعالى : ﴿ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ أَيْ : هُمْ أَحْرَصُ النّاسِ عَلى حَياةٍ ، وَأَحْرَصُ كَذلِكَ مِنَ الّذينَ أَشْرَكوا ، وَقَدْ أَفْرَدَ اللهُ سُبْحانَهُ المُشْرِكينَ بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّهُمْ مِنْ النّاسِ تَوْبيخاً لِليَهودِ ـ كَما قُلنا ـ فَإِذا كانوا أَشَدَّ حِرْصاً عَلى الحَياةِ مِنْ أُولئِكَ المُشْرِكينَ الّذينَ لا يُؤْمِنونَ بِكِتابٍ وَلا نَبِيٍّ وَلا حِسابٍ وَلا عِقابٍ وَلا بَعْثٍ ، فَهُمْ لا شَكَّ مُسْتَحِقّونَ لِلتَّوْبيخِ ، لأَنَّهُمْ حَرِصوا عَلَيْها مَعَ إيمانِهِمْ بِالبَعْثِ وَالحِسابِ وَالعِقابِ .

وَبَيَّنَتِ الآياتُ مِثالاً عَلى الحِرْصِ الّذي كانَ مِنَ اليَهودِ ؛ إِذْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ، يَتَمنّى أَحَدُهُمْ لَوْ أَنَّهُ يَعيشُ في هذِهِ الدُّنْيا أَلْفَ سَنَةٍ أَوْ أَكْثَرَ ، وَفي هذا تَعْبيرٌ عَنِ المُبالَغَةِ في الكَثْرَةِ ، مِمّا يَدُلُّ على مُغالاةِ هؤُلاءِ اليَهودِ في التَّهالُكِ عَلى هذِهِ الدُّنيا ، وَحِرْصِهِمْ عَلى الحَياةِ وَلَوْ كانَتْ حَياةَ ذُلٍّ لا راحَةَ فيها وَلا هَناءَ ، لأَنَّهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهُمْ مُخالِفونَ لِكِتابِ اللهِ تَعالى ، وَيَتَوقَّعونَ سُخْطَ اللهِ وَعِقابَهُ ، فَيَرَوْنَ أَنَّ هذِهِ الدُّنيا مَعَ ما فيها مِنَ المُنَغِّصاتِ ، خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ الآخِرَةِ .

وَلكِنْ مَهْما طالَ عُمْرُ اليَهودِيِّ في هذِهِ الدُّنيا ، فَإِنَّ ذلِكَ لَنْ يُبْعِدَهُ عَنْ عَذابِ اللهِ تَعالى وَعِقابِهِ ، فَهُوَ مَهما طالَ عُمْرُهُ ، لابُدَّ مَيِّتٌ ، وَلا بُدَّ أَنْ سَيُلاقي اللهَ تَعالى الّذي سَيُحاسِبُهُ على أَعمالِهِ وَيَجْزيهِ بِها ، فَاللهُ سُبْحانَهُ ﴿ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ فَهُوَ تَعالى يُبْصِرُ أَعْمالَهُمْ وَيُحْصيها عَلَيْهِمْ ، وَسَيُحاسِبُهُمْ عَلَيْها يَومَ القِيامَةِ ، وَفي هذا تَهديدٌ وَوعيدٌ لِهؤُلاءِ اليَهودِ وَلِكُلِّ مَنْ سارَ عَلى دَرْبِهِمْ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الدُّنيا دارُ مَمَرٍّ ، لا دارَ مَقَرٍّ ، فَالعاقِلُ الّذي يَعْمَلُ في دُنياهُ لآخِرَتِهِ .

٢ـ المُسْلِمُ يَحْرِصُ عَلى الحَياةِ العَزيزَةِ الكَريمَةِ .



التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعنى المُفْرَداتِ التّالِيَةِ :

خالِصَةً ، يُعَمَّرُ ، مُزَحْزِحِهِ .

٢ـ ادَّعى اليَهودُ بِأَنَّهُمْ لَنْ يَدْخُلوا النّارَ إلاّ أيّاماً مَعدوداتٍ ، فَأَمَرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُكَذِّبَ دَعواهُمْ . وَضِّحْ ذلِكَ .

٣ـ أـ ما مَعنى قَولِهِ : ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوتَ﴾ ؟ وَهَلِ التَّمَنّي يَكونُ بِالقَلْبِ أَوْ اللِّسانِ فَقَط ؟

ب ـ هَلْ تَمَنّى اليَهودُ المَوْتَ ؟ ولِماذا ؟

٤ـ كَيْفَ عَرَفْنا أَنَّ اليَهودَ لَمْ يَتَمَنوا المَوْتَ فيما بَعْدُ ؟

٥ـ بَيَّنَتِ الآياتُ أَنَّ اليَهودَ أَشَدُّ النّاسِ حِرْصاً عَلى الحَياةِ ، ما نَوْعُ تِلْكَ الحَياةِ الَّتي يَحْرِصونَ عَلَيْها ؟

٦ـ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ حِرْصاً عَلى الحَياةِ : اليَهودُ أَمِ الَّذين أَشْرَكوا ؟

٧ـ ما المُدَّةُ الَّتي يَتَمَنّى اليَهودُ أَنْ يَعيشوها في الحياةِ الدُّنيا ؟

٨ـ هَلْ طولُ البَقاءِ في الدُّنيا يُنْجي الإنسانَ مِنْ عَذابِ الآخِرَةِ ؟ وَضِّحْ ذلِكَ .

٩ـ ما مَعنى قَوْلِهِ : ﴿بَصِيرٌۢ بِمَا يَعمَلونَ﴾ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ الكَريمَةَ الَّتي تُشْبِهُ هَذِهِ الآياتِ مِنْ سورَةِ الجُمُعَةِ .

* * *

الدَّرسُ التَّاسِعُ والعِشرونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السّابِعُ والعِشْرونَ

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

جِبْريلَ : المَلَكُ المُوَكَّلُ بِالوَحْيِ الَّذي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلى الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ .

مُصَدِّقاً : مُؤَيِّداً لِلكُتُبِ السَّماوِيَّةِ .

التَّفْسيرُ :

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

أَخْرَجَ الإِمامُ البُخاريُّ في صَحيحِهِ عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : سَمِعَ عَبْدُ اللهِ بنُ سَلامٍ بِقُدومِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ في أَرْضٍ يَخْتَرِفُ ـ أَيْ يَجْني ثِمارَها ـ فَأَتى النَّبِيَّ ﷺ فَقالَ لَهُ : إِنّي سائِلُكَ عَنْ ثَلاثٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلاّ نَبِيٌّ ، فَما أَوَّلُ أَشْراطِ السّاعَةِ ؟ وَما أَوَّلُ طَعامِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وَما يَنْزِعُ إِلى أَبيهِ أَوْ إِلى أُمِّهِ ؟ قالَ : أَخْبَرَني بِهِنَّ جِبْريلُ آنِفاً . قالَ : جِبْريلُ ؟ قالَ : نَعَمْ ، قالَ ذلِكَ عَدُوُّ اليَهودِ مِنَ المَلائِكَةِ ، فَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ هذِهِ الآيَةَ : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ثُمَّ قالَ : أَمّا أَوَّلُ أَشْراطِ السّاعَةِ فَنارٌ تَحْشُرُ النّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلى المَغْرِبِ ، وَأَمّا أَوَّلُ طَعامِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَزِيادَةُ كَبِدِ الحوتِ . وَإِذا سَبَقَ ماءُ الرَّجُلِ ماءَ المَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدُ ، وَإِذا سَبَقَ ماءُ المَرْأَةِ نَزَعَتْ .

فَقالَ عَبْدُ اللهِ : أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاّ اللهَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسولُ اللهِ ، يا رَسولَ اللهِ إِنَّ اليَهودَ قَوْمُ بَهْتٍ ، وَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَموا بِإِسْلامي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ يَبْهَتوني ، فَجاءَتِ اليَهودُ ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَيُّ رَجُلٍ فيكُمْ عَبْدُ اللهِ ؟ قالوا : خَيْرُنا وَابْنُ خَيرِنا ، وَسَيِّدُنا وابْنُ سَيِّدِنا . قالَ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بنُ سَلام ؟ فَقالوا : أَعاذَهُ اللهُ مِنْ ذلِكَ ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ فَقالَ : أَشْهَدُ أَنْ لا إِلـهَ إلا اللهَ ، وَأَنَّ مُحَمّداً رَسولُ اللهِ ، فَقالوا : شَرُّنا وَابْنُ شَرِّنا ، وانْتَقَصوهُ ، قالَ فَهذا الّذي كُنْتُ أَخافُ يا رَسولَ اللهِ .

لَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ حُجَجَ بَني إِسْرائيلَ في عَدَمِ إيمانِهِمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَبِالقُرآنِ الكَريمِ ، فَزَعَموا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنونَ إِلاّ بِما أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ ، وَزَعَموا أَنَّهُمْ لا حاجَةَ لَهُمْ لِلإيمانِ بِالقُرآنِ الكَريمِ ؛ لأَنَّهُمْ ناجونَ في الآخِرَةِ وَلَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ تَعالى ، فَأَبْطَلَتِ الآياتُ ما زَعَموا وَرَدَّتْ عَلَيْهِمْ ، وَهاهُمْ هُنا يَحْتَجّونَ بِحُجَّةٍ أُخرى فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِالقُرآنِ ، لأَنَّ المَلَكَ الّذي نَزَلَ عَلَيْهِ وَجاءَ بِالقُرآنِ ، هُوَ عَدُوُّهُمْ جِبْريلُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَجاءَتِ الآياتُ هُنا تَرُدُّ مَزاعِمَهُمْ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، رَدّاً عَلَيْهِمْ وَتَوْبيخاً لَهُمْ : مَنْ كانَ عَدُوّاً لِجِبْريلَ ، فَإِنَّ جِبْريلَ عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ نَزَلَ بِالقُرآنِ عَلى قَلْبِكَ يا مُحَمَّدُ ، فَإِنْ عادى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ جِبْريلَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، فَهُوَ إِذَنْ عَدُوٌّ لِوَحْيِ اللهِ تَعالى الّذي يَشْمَلُ التَّوراةَ وَغَيْرَها ، فَلَوْ أَنْصَفَ أَهْلُ الكِتابِ لأَحَبّوا جِبْريلَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَشَكَروا لَهُ صَنيعَهُ في كَوْنِهِ يُنْزِلُ عَلَيْهِمْ ما يَنْفَعُهُمْ .

وَقَدْ قال سُبْحانَهُ : ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ لِيُبَيِّنَ لَنا أَنَّ السَّبَبَ في تَمَكُّنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ تِلاوَةِ القُرآنِ ، وتَبْليغِهِ لِلنّاسِ ، هُوَ أَنَّ اللهَ تَعالى ثَبَّتَهُ في قَلْبِهِ . وَقالَ : ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ تَوْبيخاً لِليَهودِ عَلى عَداوَتِهِمْ لِجِبْريلَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، فَهُوَ قَدْ نَزَّلَ القُرآنَ عَلى مُحَمَّدٍ بِإِذْنِ اللهِ ، لا مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ ، فَالعاقِلُ مَنْ أَحَبَّ جِبْريلَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، إِذْ إِنَّهُ جاءَ بِالقُرآنِ بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ تَعالى .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وَهذا عائِدٌ عَلى القُرآنِ الّذي نَزَّلَهُ اللهُ عَلى قَلْبِ النَّبِيِّ ، أَيْ حالَ كَوْنِهِ مُوافِقاً لِلكُتُبِ الّتي سَبَقَتْهُ في الأُصولِ ، الّتي تَدْعو إِلَيْها مِنَ التَّوْحيدِ واتِّباعِ الحَقِّ وَالعَمَلِ الصّالِحِ ، وَمُطابِقاً لِما فيهِ مِنَ البِشاراتِ بِالنَّبِيِّ الّذي سَيَأْتي مِنْ أَبْناءِ سَيِّدِنا إِسماعيلَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَاللهُ يُريدُ مِنْ هَؤُلاءِ اليَهودِ أَنْ يُؤْمِنوا بِالقُرآنِ ، لأَنَّهُ جاءَ مُطابِقاً لِما وَرَدَ في كُتُبِهِمْ .

ثُمَّ قال : ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَهذِهِ حُجَجٌ كَذلِكَ عَلى اليَهودِ ، فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ تَعالى هادِياً إِلى طَريقِ الفَلاحِ مِنَ الضَّلالاتِ وَالبِدَعِ ، وَالعاقِلُ الّذي لا يَرْفُضُ الهِدايَةَ الّتي تَأْتيهِ وَتُنْقِذُهُ مِنَ الضَّلالِ الّذي هُوَ غارِقٌ فيهِ ، حَتّى لَوْ كانَ الواسِطَةُ في مَجيءِ هذِهِ الهِدايَةِ هُوَ عَدُوُّهُمْ كَما يَدَّعونَ .

وَهذا الّذي نَزَلَ بِهِ جِبْريلُ كَذلِكَ ، جاءَ بُشْرى لِلمُؤْمِنينَ ، يُبَشِّرُهُمْ بِرِضا اللهِ تَعالى عَنْهُمْ في

الدُّنيا وَالآخِرَةِ ، وَيُنْذِرُ الضّالينَ بِسُخْطِ اللهِ تَعالى وَغَضَبِهِ .

ثُمَّ أَقامَتِ الآياتُ حُجَّةً أُخرى عَلى أُولئِكَ اليَهودِ فَقالَ :

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ .

أَيْ : مَنْ كَفَرَ بِاللهِ تَعالى وَخالَفَ أَوامِرَهُ وَنَواهيهِ ، وَعادى مَلائِكَةَ اللهِ تَعالى ، بِإِنْكارِ فَضائِلِهِمْ وَوَصْفِهِمْ بِما يُقَلِّلُ مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَمَنْ عادى رُسُلَ اللهِ بِأَنْ كَذَّبَهُمْ ، وَأَلْحَقَ بِهِمُ الأَذى وَالقَتْلَ ، وَمَنْ عادى جِبْريلَ الّذي نَزَلَ بِالوَحيِ ، وَميكالَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى عَدُوٌّ لِهؤلاءِ المُعانِدينَ . وَجَزاءُ ذلِكَ فَإِنَّ اللهَ تَعالى سَيُعامِلُهُمْ مُعامَلَةَ الأَعْداءِ ، وَسَوْفَ يَحِلُّ عَلَيْهِمْ غَضَبُ اللهِ تَعالى وَسَخَطُهُ ، وَسَيُجازيهِمْ عَلى كُفْرِهِمْ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ .

وَقَدْ أَفْرَدَ اللهُ تَعالى جِبْريلَ وَميكالَ بِالذِّكْرِ ، مَعَ أَنَّهُما مِنْ جُمْلَةِ المَلائِكَةِ ، تَسْجيلاً عَلى هؤُلاءِ اليَهودِ بِالغَباوَةِ ، فَهُمْ يُعادونَ جِبْريلَ ، وَيُوالونَ ميكائيلَ ، فَأَرادَ سُبْحانَهُ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ بِأَنَّ مُعاداةَ أَحَدِ المَلائِكَةِ مُعاداةٌ لِلجَميعِ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ ـ المُؤْمِنُ بِحَقٍّ ، هُوَ الَّذي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وَلا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنَ المَلائِكَةِ وَالرُّسُلِ .

٢ ـ كُلُّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الإِنسانُ كانَ ظاهِراً أَمْ باطِناً يَكونُ لَهُ أَثَرُهُ في نَفْسِ هذا الإِنسانِ ، فَيُزَكّي نَفْسَهُ أَوْ يُدَسّيها ، وَبِالتّالي إِمّا أَنْ يَسْعَدَ في الآخِرَةِ أَوْ يَشْقى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ ـ أ ـ جاءَ أَحدُ أَحبارِ اليَهودِ إِلى النَّبيِّ ﷺ لِيَسْتَفْسِرَ عَنْ بَعْضِ الأُمورِ ، مَنْ هُوَ ؟

ب ـ ما الأُمورُ الَّتي سَأَلَها عَبْدُ اللهِ بنُ سَلامٍ لِلنَّبيِّ ﷺ ؟

٢ ـ بِماذا أَجابَ الرَّسولُ ﷺ عَمّا سَأَلَهُ عَنْهُ عَبْدُ اللهِ بنُ سَلامٍ ؟

٣ـ ما مَوْقِفُ اليَهودِ مِنْ عَبْدِ اللهِ بنِ سَلامٍ قَبْلَ إسْلامِهِ وَبَعْدَهُ ؟

٤ـ ذكرتِ الآياتُ حُجَّةً مِنْ حُجَجِ بَني إسْرائيلَ لِعَدَمِ إيمانِهِمْ بالقُرآنِ الكَريمِ ، ما تِلْكَ الحُجَّةُ ؟

٥ـ نَاقَشَتِ الآياتُ الكَريمَةُ اليَهودَ في عَداوَتِهِمْ لِجِبْريلَ عَلَيْهِ السَّلامُ في أُمورٍ عِدَّةٍ ، بَيِّنْها ؟

٦ـ مَنْ هُوَ ميكالُ ؟ وَهَلْ كانَ عَدُوّاً لِبَني إسْرائيلَ ؟

٧ـ بِماذا يَتَّصِفُ الكافِرونَ الَّذين عاداهُمُ اللهُ تَعالى ؟

٨ـ لِماذا أَفْرَدَ اللهُ تَعالى جِبْريلَ وَميكالَ بالذِّكْرِ ، مَعَ أَنَّهُمْ ، مِنْ جُمْلَةِ المَلائِكَةِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما تَسْتَنْتِجُهُ مِنْ مَوْقِفِ اليَهودِ مِنْ عَبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ .

٢ـ مَنْ ميكائيلُ ؟ ومَا الوَظيفَةُ المُناطَةُ بِهِ ؟ اكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الثلاثونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّامِنُ والعِشْرونَ

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الفاسِقونَ	الخارِجونَ عَنْ حُدودِ اللهِ وَفِطْرَةِ اللهِ .
نَبَذَهُ	طَرَحَهُ ونَقَضَهُ .

التَّفسيرُ :

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ أُولَئِكَ اليَهودَ كافِرونَ ، وَذَلِكَ لِمُعاداتِهِمْ جِبْريلَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَمَنْ عاداهُ فَقَدْ عادى أَنْبياءَ اللهِ ، بَلْ عادى اللهَ تَعالى كَذَلِكَ . وَلَقَدْ جاءَتْ آياتُ الدَّرْسِ لِتُحاجَّ أُولَئِكَ اليَهودَ الّذينَ يَكْفُرونَ بِالقُرآنِ ، لِكَونِهِ لَمْ يُنَزَّلْ عَلَيْهِمْ ، أَوْ لِكَوْنِهِ جاءَ بِهِ عَدوُّهُمْ جِبْريلُ عَلَيهِ السَّلامُ كَما يَدَّعونَ ، فَيَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ مُؤَكِّداً بِكَلِمَةِ (وَلَقَدْ) : ﴿ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ أَيْ : أَنه سُبْحانَهُ وتَعالى قَدْ أَنْزَلَ عَلى نَبِيِّهِ مُحمَّدٍ ﷺ آياتٍ واضِحاتٍ ، مُعْجِزاتٍ ، فَهَذا القرآنُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِندِ اللهِ ، وَهُوَ في نَفْسِهِ آياتٌ واضِحَةٌ مُعْجِزَةٌ ، لا تَحتاجُ إِلى أُمورٍ أُخرى تُوَضِّحُهُ وتَشْهَدُ لَهُ بِالصِّدْقِ ، وَما كانَ بَيِّناً وَاضِحاً أَوْلى بِالقَبولِ مِمَّا يَحْتاجُ إِلى بَيانٍ وَإِيضاحٍ .

وَإِنَّ وضُوحَ هَذا القُرآنِ وَبَيانَهُ كَانَ يَنبَغي أَنْ يَحمِلَ النّاسَ عَلى الإيمانِ بِهِ وَفَهْمِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ كَفَروا بِهِ فَهُمْ فاسِقونَ ، لأَنَّهُ لا يَكفُرُ بِهَذا القُرآنِ إِلاّ الفاسِقونَ الّذينَ خَرَجوا عَنْ هِدايَةِ الفِطْرَةِ وَنورِها ، وَانْغَمَسوا في الظُّلُماتِ . وَبَعْدَ هَذا يُبَيِّنُ سُبْحانَهُ وتَعالى أَمْرَينِ مِنْ أُمورِ هَؤلاءِ اليَهودِ :

الأَوَّلُ : إِنَّنا يَنْبَغي أَنْ لا نَثِقَ بِهِمْ أَبَداً لِمَا عُرِفوا بِهِ مِنْ نَقْضِ العُهودِ ، والغَدْرِ ، فَكَمْ مَرَّةً نَقَضوا العُهودَ وَالمواثيقَ الّتي أَخَذَها اللهُ عَلَيْهِم ، وَكَمْ مَرَّةً غَدَروا بِنَبِيِّهِمْ مُوسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَكَمْ عَاهَدوا رَسُولَ اللهِ فَنَقَضوا العُهودَ كَذَلِكَ .

الثّانِيْ : أَنَّهُ لا رَجاءَ في إيمانِ أَكْثَرِ أُولئِكَ اليَهودِ ، لأَنَ الضَّلالَةَ قَدْ مَلَكَتْ عَلَيْهِمْ أَمْرَهُمْ . فَقَدْ بايَعوا النَّبيَّ عِنْدَما جاءَ إِلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ عَلى النَّصْرِ ، وَعَلى أَنَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُسْلِمينَ النُّصْحَ وَالنَّصيحَةَ والبِرَّ دُونَ الإِثْمِ ، وَلكِنَّهُمْ نَقَضوا العُهودَ .

تَقولُ الآياتُ : (أَوَ كُلَّما) ، فالهَمْزَةُ للاسْتِنكارِ وَالتَّوبيخِ ، وَالواوُ للعَطْفِ ، وَمَعْنى الآيَةِ : كَفَروا بالآيَاتِ البَيِّناتِ وَقالوا ما قالوا ، وَكُلَّما عاهَدوا عَهْداً نَبَذوهُ وَراءَ ظُهورِهِمْ ، وَلَمْ يَعْمَلوا بِهِ فَهْمْ لا يُؤْمِنونَ ، أَيْ : فَهُم لا عُهودَ لَهُمْ لأَنَّهُمْ لا إِيمانَ لَهُمْ أَصْلاً .

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ .

وذَكَرَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ حالاً جَديدَةً مِنْ أَحْوَالِ اليَهودِ ، وَهِيَ عِلَّةٌ لِجَميعِ ما صَدَرَ عَنْهُمْ مِنْ شَناعاتٍ وَجَرائِمَ في مُعاداتِهِمُ النَّبيِّ وَجَحْدِهِمْ لِما جاءَ بِهِ مِنْ آياتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَهِيَ أَنَّ فَريقاً مِنْهُمْ قَدْ تَرَكوا كِتَابَهُمْ ـ الّذي يَحْتَجُّونَ بِهِ ، وَيُفاخِرونَ النَّاسَ بِهِ لِكَوْنِهِ أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ ـ وَتَرَكوا هَذا الكِتابَ وَنَبَذوهُ وَراءَ ظُهورِهِمْ . وَلَمّا جاءَهُمُ الرَّسولُ ﷺ بالقُرآنِ الكَريمِ الّذي يُؤَيِّدُ مَا مَعَهُمْ في التَّوْراةِ مِنْ بِشاراتٍ تُبَشِّرُ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وذِكْرٍ لِصِفاتِهِ ، تَرَكوا هَذا الجُزْءَ مِنَ الكِتابِ الّذي يُبَشِّرُ بالرَّسولِ ﷺ ، وَيَأْمُرُهُمْ بالإِيمانِ بِهِ واتِّباعِهِ ، كَما تَرَكوا كِتابَهُمْ مِنْ قَبْلُ . فَفي الآيَةِ تَشْبيهٌ لِتَرْكِهِمْ لِلعَمَلِ بِما في التَّوْراةِ بِمَنْ يُلقي الشَّيءَ وَراءَ ظَهْرِهِ وَحَذَفَ المُشَبَّهَ وَأَبْقى المُشَبَّهَ بِهِ ، وَكَما هُوَ مَعْلُومٌ فَإِنَّ تَرْكَ جُزْءٍ مِنَ الكِتابِ كَتَرْكِهِ كُلِّهِ .

ثُمَّ يَقولُ سُبْحانَهُ عَنْ أُولئِكَ اليَهودِ : ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : نَبَذُوهُ وَتَركوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمونَ أَنَّهُ كِتابُ اللهِ تَعالى ، فَهُمْ نَبَذوهُ مُكابَرَةً وَعِناداً ، ومَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضى عِلْمِهِ فَهُوَ وَالجاهِلُ سَوَاءٌ في جُحودِ الحَقِّ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ القُرآنُ الكَريمُ مُعْجزَةٌ بيِّنَةٌ واضِحَةٌ ، يَحْمِلُ دَلائِلَ صِدْقِهِ في آياتِهِ .

٢ـ الوَفاءُ بِالعَهْدِ صِفَةٌ مِنْ صِفاتِ المُؤمِنينَ ، فالمُؤْمِنُ إذا حَدَّثَ صَدَقَ ، وَإِذا عاهَدَ أَوْفى وَلَمْ يَغْدُرْ كالمُنافِقينَ وَاليَهودِ .

٣ـ جَميعُ الرُّسُلِ السَّابِقينَ بَشَّروا بِالنَّبِيِّ ﷺ ، وَجاءَ القُرآنُ الكَريمُ لِيُؤَكِّدَ ذلِكَ ، لِذا لابُدَّ مِنَ الإِيمانِ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ كَيْفَ رَدَّ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى أُولئِكَ اليَهودِ الَّذينَ لا يُؤمِنونَ بِالقُرآنِ ؟

٢ـ بِمَ وَصَفَتِ الآياتُ الَّذينَ يَكْفرونَ بآياتِ اللهِ ؟

٣ـ ذَكَرَتِ الآياتُ الكَريمَةُ أَمْرَينِ مِنْ أُمورِ اليَهودِ ، ما هُما ؟

٤ـ ما مَعْنى قَوْلِهِ : نَبَذَهُ فَريقٌ مِنْهُمْ ؟

٥ـ ما مَعْنَى الاسْتِفْهامِ في قَوْلِهِ : أَوَكُلَّما ؟

٦ـ ما الَّذي فَعَلَهُ اليَهودُ لَمَّا جاءَهُمُ الرَّسولُ ﷺ بالقُرآنِ ؟

٧ـ هَلْ نَبَذَ اليَهودُ التَّوْراةَ كُلَّها وَرَاءَ ظُهورِهِمْ ؟ وضِّحْ ذَلِكَ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيْفَ نَقَضَ كُلٌّ مِنَ الآتِيَةِ عَهْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ :

١ـ يَهُودُ قَينُقاعٍ . ٢ـ يَهُودُ بَني النَّضيرِ . ٣ـ يَهُودُ بَني قُرَيْظَةَ .

* * *

الدَّرسُ الحادي والثَّلاثونَ

سورةُ البقرةِ - القِسْمُ التّاسِعُ والعِشْرونَ

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تَتلو : تَتَقَوَّلُ وتَكْذِبُ .

عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ : عَلى مُلْكِهِ وَفي زَمانِهِ .

بابِلَ : مَدينَةٌ بِالعراقِ يُنْسَبُ إليها السِّحْرُ .

فِتْنَةٌ : ابْتِلاءٌ واخْتِبارٌ .

اشْتَراهُ : قَبِلَهُ وَعَمِلَ بِهِ .

خَلاقٍ : نَصيبٍ مِنَ الخَيْرِ .

شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ : باعوها .



﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ .

ذَكَرَتْ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ أُولَئِكَ اليَهُودَ نَبَذوا كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهورِهِمْ ، وَهَذِهِ الآيَةُ تُبَيِّنُ أَنَّهُمُ اتَّبَعوا مَا تَتْلوهُ الشَّياطينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ . والشَّياطينُ يُقْصَدُ بها مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ ، كَما قالَ تَعالى : ﴿ شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

وَ ﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أَيْ : عَلى عَهْدِ مُلْكِهِ وَفي زَمانِهِ ، فَقَدْ تَقَوَّلَتِ الشَّياطينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلامُ الأَقاوِيلَ الكَثيرَةَ مِنْها : أَنَّ الشَّرَ في مُلْكِ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلامُ كانَ في خاتَمِهِ ، وَأَنَّ هَذا الخاتَمَ قَدِ اسْتَولَى عَلَيْهِ بَعْضُ الشَّياطينِ ، حينَما تَصَوَّرَ بِصورَةِ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وأَخَذَهُ مِنَ امْرَأَتِهِ وَجَلَسَ في مَجْلِسِهِ للحُكْمِ .

وَمِنْها أَنَّ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلامُ جَمَعَ كُتُبَ السِّحْرِ مِنَ النّاس ، ودَفَنَها تَحْتَ كُرْسِيِّهِ ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَها النّاسُ وتَناقَلوها ، وادّعوْا أَنَّهُ كانَ يَتَعاطى السِّحْرَ ، وَأَنَّهُ كانَ يُسَخِّرُ بِهِ الإِنْسَ والجِنَّ والرِّيحَ .

ومِنْها أَنَّهُ دَفَنَ تَحتَ كُرْسِيِّهِ كُتُباً في العُلوم ، فَلَمّا اسْتَخْرَجوها ، أَشاعَ الشَّياطِينُ أَنَّها كُتُبُ سِحْرٍ ، وَصارَ الدَّجّالونَ بَعْدَ ذلِكَ يَدَّعونَ أُموراً كَثيرَةً وَيَقولونَ إنَّها مَوْجودَةٌ في تِلْكَ الكُتُبِ ، وهَكَذا ادَّعتِ الشَّياطينُ أَنَّ مُلْكَ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قامَ عَلى السِّحْرِ ، وَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ارتَدَّ آخِرَ عُمُرِهِ وَعَبدَ الأَصْنامَ وَبَنى لَها المَعابِدَ ، فِجاءَتِ الآياتُ تُبَرِّىءُ سَيِّدَنا سُلَيْمانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، مِنْ كُلِّ شُبْهَةِ نَقْصٍ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمْ يَكْفُرْ ، وَلَمْ يَرْتَدَّ ـ كَما ادَعَوْا ـ وَلَمْ يَتَعاطَ السِّحْرَ الّذي نَسَبوهُ إِلَيْهِ زوراً وَبُهْتاناً ، ثُمَّ قالَ : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ أَيْ : أَنَّ فَريقاً مِنَ اليَهودِ نَبَذوا كِتابَ اللهِ واتَّبَعوا ما تَتْلوا الشَّياطينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ ، وَكَأَنَّ سائِلاً يَسْأَلُ : لِماذا اتَّبَعَ اليَهودُ أُولئِكَ الشَّياطينَ الّذينَ تَقَوَّلوا عَلى مُلْكِ سَيِّدِنا

سُلَيْمانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟ فَأَجابَ عَلى سَبيلِ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ : ﴿ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ أَيْ : يَجْعَلونَ النّاسَ يَتعلَّمونَ السِّحْرَ ، لِيَفْتِنوهُمْ بِهِ ، وَيُضِلُّوهُمْ عَنْ طَريقِ الحَقِّ .

ما السِّحْرُ ؟

السِّحْرُ في الُّلغَةِ كُلّ ما دَقَّ وَخَفِيَ ، يُقالُ سَحَرَهُ ، بمَعْنى : خَدَعَهُ ، وَقَدْ وَصَفَ القُرآنُ السِّحْرَ بِأَنَهُ تَخَييلٌ يُقْصَدُ مِنْهُ خِداعُ العَيْنِ ، فَقَدْ قَالَ سُبْحانَهُ وتَعالى عَنْ حِبالِ السَّحَرَةِ في زَمَنِ سَيِّدِنا مُوسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ٦٦] ، وقَدْ رُوِيَ أَنَّ المَقْصودَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [الفلق : ٤] أَنَّهُمُ السَّحَرَةُ .

وَعَلى رَأيِ جُمْهورِ العُلَماءِ أَنَّ السِّحْرَ لَهُ حَقيقَةٌ ، ذَكَرَهُ اللهُ تَعالى في كِتابِهِ ، وذَكَرَ أَنَّهُ مِمَّا يُتَعَلَّمُ ، وَأَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَقَدْ حَذَّرَ الإِسْلامُ مِنْ تَعاطي السِّحْرِ ، وقَدْ جاءَتِ التَّعاليمُ الإِسْلاميَّةُ بِذَمِّهِ وَتَحْريمِهِ .

﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ﴾ أَيْ : يُعَلِّمونَ النَّاسَ السِّحْرَ ، وَيُعَلِّمونَهُمْ ما أُنْزِلَ عَلى المَلَكَيْنِ .

وَبابِلُ مَدينَةٌ بِالعِراقِ ، اخْتُصَّتْ بِالذِّكْرِ لأَنَّها كانَتْ أَكْثَرَ البِلادِ عَمَلاً لِلسِّحْرِ ، وَكانَ سَحَرَتُها قَدِ اتَّخذوا السِّحْرَ وَسيلَةً لِتَسْخيرِ العامَّةِ في أَبْدانِهِمْ وَعُقولِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ ، ثُمَّ جَعَلوهُمْ يَعْبُدونَ الأَصْنامَ والكَواكِبَ . وَهاروتُ وماروتُ اسْمُ المَلَكَيْنِ ، كَلَّفَهُما اللهُ تَعالى تَعْليمَ النّاسِ السِّحْرَ وَأُمورَهُ لِيُدْرِكوا أَنَّ تَعَلُّمَ السِّحْرِ أمرٌ هَيِّنٌ سَهْلٌ ، لا كما كانَ يَتصوَّرُ بَعْضُ النّاسِ أَنَّهُ لا يَنالُهُ إلاّ أَذْكِياؤُهُمْ وأَفْذاذُهُمْ .

ما عَلَّمَهُ المَلَكانِ لِلنَّاسِ :

يُبَيِّنُ سُبْحانَهُ ما كانَ يَنْصَحُ بِهِ المَلَكانِ النّاسَ الّذينَ يُريدونَ تَعلُّمَ السِّحْرِ ، فَهُما لا يُعَلِّمانِ أَحَداً مِنَ النّاسِ السِّحْرَ ، إلاّ وَيَقولانِ لَهُ ناصِحينَ : إِنَّ ما نُعَلِّمُكَ إِيّاهُ مِنْ ضُروبِ السِّحْرِ هُوَ أَمْرٌ ابتَلى اللهُ بِهِ النّاسَ واخْتَبَرَهُمْ بِهِ ، لِتَمْييزِ الطّائِعِ مِنَ العاصي ، فَمَنْ عَمِلَ بِهِ ضَلَّ عَنْ طَريقِ الحَقِّ وَغَوى ، وَمَنْ تَرَكَهُ سارَ عَلى طريقِ الهُدَى ، ويُحَذِّرونَهُمْ مِنْ تَعَلُّمِ ما هُوَ كُفْرٌ بِاللهِ تَعالى .

وَقَدْ كانَ المَلَكانِ يَقولانِ لِلنّاسِ ذلِكَ إِبقاءً على اعْتِقادِ النّاسِ فيهِما . وفي أَيّامِنا يوجَدُ دَجّالونَ كَثيرونَ يُعَلِّمونَ النّاسَ السِّحْرَ ، وَيُوهِمونَهُمْ أَنَّهُمْ صالِحونَ ، فَيُعَلِّمونَ النّاسَ مَثَلاً الكِتابَةَ لِلحُبِّ والبُغْضِ ، ويَقُولونَ للمُتَعَلِّمِ : نُوصيكَ أَلاّ تَكْتُبَ هذا لِتَجْعَلَ امْرَأَةً تُحبُ غَيرَ زَوْجِها ، وَلا تَكْتُبْ لأَحَدِ الزَوجَيْنِ أَنْ يَبْغُضَ الآخَرَ ، بَلْ تَجْعَلُ هَذا لِلمَصْلَحةِ العامةِ ، أَيْ لِلحُبِّ بيْنَ الزَّوْجَينِ ، وهُمْ كاذِبونَ فيما يَقولونَهُ ويَفْتَرونَهُ .

وَلكِنْ ما الّذي تَعَلَّمَهُ أُولَئِكَ اليَهودُ مِنَ المَلَكيْنِ ؟ يَقولُ سُبْحانَهُ بِأَنَّهُمْ تَعَلَّموا : ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أيْ : يَتَعَلَّمونَ مِنَ المَلَكيْنِ ما وُضِعَ لأَجْلِ التَّفْريقِ بَيْنَ الزَّوجَيْنِ ، وَهُوَ ما يُسَّميهِ الدَّجالونَ(كِتابَ البَغيضَةِ) ، والآيَةُ الكَريمَةُ لَم تُبَيِّنْ لَنا نَوْعَ ما يَتَعَلَّمونَهُ ، أَهُوَ تَمائِمُ أم رُقَىً ، أَم غَيْرُ ذلكَ ، وَلِذا نَسْكُتُ عَمّا سَكَتَ عَنْهُ القُرآنُ ولا نَبْحَثُ فيهِ ، إنَّما هُوَ أَمْرٌ تَعَلَّموهُ وَكَفَى .

وبَعْدَ حِكايَةِ السِّحْرِ هذِهِ يَقولُ سَبْحانَهُ : ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ : إنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ أَيُّ قُوَّةٍ وَقُدْرَةٍ ، وَلكِنَّهُمْ يَفْعَلونَ ما يُوهِمونَ بِهِ النَّاسَ أَنَّ قُدْرَتَهُمْ خارِقَةٌ ، وأَنَّها فَوْقَ مَقْدِرَةِ البَشَرِ ، وَأَنَّ اللهَ مَنَحَهُمُ القُوَّةَ والقُدْرَةَ ، ولكِنْ لا بُدَّ وأَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ ، أَنَّهُ إنِ اتفَقَ أَنْ أُصيبَ بِضَرَرٍ مِنْ أَعمالِ السِّحْرِ ، فَإِنَّما ذَلِكَ بِإذنِ اللهِ تَعالى ، أَيْ : بِسَبَبٍ مِنَ الأَسْبابِ الَّتي رَبَطَ اللهُ تَعالى بِها مُسَبِّباتِها ، فَهُو سُبْحانَهُ الَّذي يوجِدُ المُسَبِّباتِ حينَ حُصولِ الأَسْبابِ .

وَقَدْ قَالَ سُبْحانَهُ : ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ : إنْ شاءَ اللهُ تَعالى حَصَلَ الضَّرَرُ ، وَإِنْ شاءَ مَنَعَهُ ، ثُمَّ يُبَيِّنُ سُبْحانَهُ أَنَّ أُولَئِكَ الَّذينَ يَتَعلَّمونَ السِّحْرَ لِلأَذى وَلِلتَّفْرِقَةِ بَيْنَ النَّاسِ ، يَتَعلَّمونَ ما يَضُرُّهُمْ وَيَضُرُّ النّاسَ ، فَهُوَ مُحَرَّمٌ يُعاقِبُ اللهُ تَعالى عَلَيْهِ يَوْمَ القِيامَةِ ، وَمَنْ عُرِفَ أَنَّهُ يُؤذي النّاسَ ، مَقَتَهُ النّاسُ ، وَقاموا عَلَيْهِ .

وَما يَتَعَلَّمُهُ النّاسُ عادَةً قَدْ يَكونُ ضَاراً مِنْ جِهَةٍ ، ولكِنَّهُ نَافِعٌ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ، ولكِنَّ هَذا السِّحْرَ لَيْسَ فِيهِ نَفْعٌ أَبَداً ، وَلِذا قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ فَهُوَ ضَرَرٌ بَحْتٌ لَيْسَ فِيهِ أَيُّ نَفْعٍ ، وَنَحْنُ نَرَى اليَوْمَ أَنَّ الّذينَ يَنْتَحِلونَ السِّحْرَ مِهْنَةً لَهُمْ ، هُمْ أَفْقَرُ النّاسِ لِلسّعادَةِ ، وَأَحْقَرُهُمْ وَأَخْبَثُهُمْ ، وَالعاقِلُ مِنَ النَّاسَ هُوَ الّذي يَعْلَمُ أَنَّ الشَّقِيَّ ، لا يُمْكنُ أَنْ يَهَبَ السّعادَةَ لِلآخَرينَ ، لأَنَّ فاقِدَ الشَّيءِ لا يُعْطيهِ ، فَإِنَّ هَؤْلاءِ السَّحَرَةَ أَشْقِيَاءٌ ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَهَبوا سَعادَةً لِغَيْرِهِمْ .

وَهَذا هُوَ حالُهُمْ في الدُّنْيا ، فَكَيْفَ يَكُونُ حالُهُمْ في الآخِرَةِ ؟ يَقُولُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ لَقَدْ عَلِمَ أُولَئِكَ اليَهُودُ ، أَنَّ الّذينَ نَبَذوا كِتابَهُمْ واتَّبَعوا السِّحْرَ ، فَفَضَّلوا السِّحْرَ عَلى ما آتاهُمْ اللهُ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ الحَقِّ وَأَحْكام الشَّريعَةِ ، الّتي تُوصِلُ إِلى السَّعادَةِ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، أَقُولُ : لَقَدْ عَلِموا أَنَّ مَنِ اخْتَارَ السِّحْرَ لَيْسَ لَهُ نَصيبٌ في نَعيمِ الآخِرَةِ ، أَيْ : في الجَنَّةِ ، لأَنَهُمْ قَدِ اخْتاروا طَريقَ الضَّلالِ ، فَهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّ التَّوْراةَ قَدْ حَرَّمَتْ عَلَيْهِم تَعَلُّمَ السِّحْرِ أَوْ تَعْليمَهُ ، وشَدَّدَتِ العُقوبَةَ على مُرْتَكِبيهِ ، وَعَلى مُتَّبعي الجِنِّ والشَّياطينِ وَالكُهّانِ . ثُمَّ قالَ تَعالى :

﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : لَبِئْسَ ما باعوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ بِالسِّحْرِ . وقَدْ عَبَّرَ سُبْحانَهُ عَنْ بَيْعِ الإيمانِ بِبَيْعِ النَّفْسِ ، لأَنَّ النَّفْسَ خُلِقَتْ لِمَعْرِفَةِ الدينِ وَالعَمَلِ

بِهِ ، أَيْ : أَنَّهُمْ لَوْ كانوا يَعْلَمونَ حُرْمَةَ السِّحْرِ ، عِلْماً يَصْدُرُ عَنِ اعْتِقادٍ لَهُ أَثَرٌ في النَّفْسِ ، لما ارتَكَبوهُ وَلا أَصَرّوا عَلَيْهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وَصَفَهُمْ أَوّلاً بِالعِلْمِ : ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ ، ثُمَّ نَفَى عَنْهُمُ العِلْمَ ، لأَنَّ العالِمَ بِالشَّيْءِ إذا لَمْ يَعْمَلْ بِموجِبِ عِلْمِهِ ، فَهُوَ في مَنْزِلَةِ الجاهِلِ تَماماً .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ تَنْزيهُ الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ ، وَمِنْهُمْ سَيِّدُنا سُلَيْمانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وَسِحْرٍ .

٢ـ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ بِإِذْنِ اللهِ تَعالى ، فَلَوِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ على أَنْ يَضرّوا أَحَداً لَنْ يَضُرّوهُ إِلاّ بِما كَتَبَهُ اللهُ تَعالى عَلَيْهِ ، وَلَوِ اجْتَمَعوا على أَنْ يَنْفَعوهُ لَمْ يَنْفَعوهُ إلا بِما كَتَبَهُ اللهُ تَعالى لَهُ .

٣ـ مِنْ سُنَّةِ اللهِ تَعالى في الحَياةِ الابْتلاءُ ، لِتَمْييزِ الطائِعِ مِنَ العاصي .

٤ـ السَّاحِرُ مِنْ أَخْبَثِ النَّاسِ نَفْساً ، فَهُوَ لا يَتَعلَّمُ إلاَّ ما يُوقِعُ الضَّرَرَ بِالنَّاسِ ، وَلِذا يُحَرَّمُ على المُسْلِمِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْهِ وَيَسْتَعينَ بِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ ما مَعْنَى كَلِمَةِ : تَتْلوا ؟

٢ـ تَقَوَّلَتِ الشَّياطِينُ عَلى عَهْدِ مُلْكِ سُلَيْمانَ أَقاوِيلَ كَثيرَةً ، اذْكُر ثَلاثَةً مِنْها .

٣ـ كَيْفَ أَبْرَأَتِ الآياتُ سَيِّدَنا سُلَيْمانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ مِمّا نَسَبوهُ إِلَيْهِ ؟

٤ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ .

٥ـ مَا السِّحْرُ ؟ وَما حَقِيقَتُهُ ، ؟ وَما حُكْمُهُ ؟

٦ـ مَا الَّذي أُنْزِلَ عَلى الملَكَيْنِ ؟

٧ـ أَيْنَ تَقَعُ مَدِينَةُ بَابِلَ ؟ وَلِمَ خُصَّتْ بِالذِّكْرِ هُنا ؟

٨ـ ما الأُمورُ الَّتي عَلَّمَها المَلَكانِ لِلنَّاسِ ؟

٩ـ هَلْ عَمِلَ اليَهودُ بِمَا تَعَلَّموهُ مِنَ المَلَكَيْنِ ؟

١٠ـ هَلْ يُمْكِنُ لِلسِّحْرِ أَنْ يُؤَثِّرَ في الإِنْسانِ ؟ وَضِّحْ ذَلِكَ .

١١ـ بَيَّنَتِ الآياتُ أَنَّهُ لا يُصيبُ الإِنْسانَ إلاّ ما كَتَبَهُ اللهُ لَهُ ، هاتِ النَّصَ القُرآنِيَّ الَّذي يَدُلُّ عَلى ذَلِكَ .

١٢ـ بِمَ وَصَفَ اللهُ تَعالى السِّحْرَ ؟

١٣ـ ما نَتيجَةُ مَنْ عَمِلَ بِالسِّحْرِ وَنَبَذَ كِتابَ اللهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ؟

١٤ـ لِماذا عَبَّرَتِ الآياتُ عَنْ بَيْعِ الإيمانِ بِبَيْعِ النَّفْسِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ حَدِيثاً نَبَوِيّاً يُبَيِّنُ إِثْمَ مَنْ ذَهَبَ إِلى العَرَّافينَ وَصَدَّقَهُمْ .

٢ـ عَدَّ النَّبِيُّ ﷺ السِّحْرَ مِنَ الكَبائِرِ ، هَاتِ حَدِيثاً يَدُلُّ عَلى ذَلِكَ .

* * *

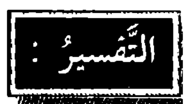
الدَّرْسُ الثاني والثلاثونَ

سورةُ البَقرَةِ ـ القِسْمُ الثّلاثونَ

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

لَمَثوبَةٌ	: اسْمُ مَصْدَرٍ مِنْ أثابَ ، إذا أَعْطى الثَّوابَ .
راعِنا	: أَيْ راعِنا سَمْعَكَ ، بِمعنى : اسْمَعْ ما نُريدُ أَنْ نَسْأَلَكَ عَنْهُ .
انْظُرْنا	: أَمْهِلْنا وانْتَظِرْ ما يَكونُ مِنْ شَأْنِنا .
يَوَدُّ	: الوُدُّ : مَحَبَّةُ الشَّيْءِ وَتَمَنّي وُقوعِهِ .



﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ تَعالى ، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ لَنا أَنَّ اليَهودَ تَرَكوا كِتابَهُمْ وَراءَ ظُهورِهِم ، واتَّبَعوا السِّحْرَ ، يَقولُ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنوا الإيمانَ الحَقَّ بِكِتابِهِمُ الّذي جاءَ فيهِ البِشارَةُ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، والأَمْرُ باتِّباعِهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ اتَّقَوا اللهَ تَعالى ، وذَلِكَ بِالعَمَلِ بِما جاءَ في كِتابِ اللهِ مِنْ أَوامِرَ ، والابْتِعادِ عَمّا نَهاهُمُ اللهُ تَعالى عَنْهُ ، كانَتْ لَهُمُ المَثوبَةُ مِنَ اللهِ ؛ أَيْ : الثَّوابُ العَظيمُ ، الّذي هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِمّا يَتَوَقَّعونَهُ مِنْ مَنافِعَ وَمَصالِحَ دُنْيَوِيَّةٍ .

وَكَلِمَةُ (مَثُوبَةٌ) ، جَوابُ الشَّرْطِ (لَوْ) ، وَقَدْ جاءَتْ هُنا الجُمْلَةُ اسْمِيَّةً لِلدَّلالَةِ عَلى ثَباتِ هَذِهِ المَثُوبَةِ واسْتِقْرارِها ، وَجاءَتْ (مَثُوبَةٌ) كَذلِكَ نَكِرَةً وَلَمْ تَأْتِ مُعَرَّفَةً (مَثُوبَةُ اللهِ) ، لِتُفيدَ التَّقْليلَ .
وَالمَعْنى : أَنَّ شَيْئاً قَليلاً مِنْ ثَوابِ اللهِ تَعالى في الآخِرَةِ الدَّائِمَةِ خَيْرٌ مِنْ مَتاعٍ كَثيرٍ في الدُّنْيا الفانِيَةِ .
ثُمَّ قال تَعالى : ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ ، فَهُمْ يَتَّبِعُونَ الظُّنونَ وَيَعْتَمِدونَ عَلى تَقْليدِ غَيْرِهِمْ ، وَلَيْسوا عَلى عِلْمٍ صَحيحٍ ، فَلَوْ كانوا يَعْلَمونَ عِلْماً صَحيحاً ، لَظَهَرَ أَثَرُ هذا العِلْمِ ، واتَّبَعوا الرَّسولَ ﷺ ، وَلَما اسْتَبْدَلوا السِّحْرَ بالإِيمانِ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

وَيَنْتَقِلُ القُرآنُ الكَريمُ لِخِطابِ المُؤْمِنينَ في قَضِيَّةٍ لَها عَلاقَةٌ بِما كانَ بَيْنَ المُؤْمِنينَ واليَهودِ ، فَالآياتُ السَّابِقَةُ كانَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْ ماضي اليَهودِ ، وَهُنا جاءَ الحَديثُ عَنْ أَمْرٍ حالِيٍّ حَدَثَ في عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ . يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِلمُؤْمِنينَ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فَيَصِفُهُمْ بِهَذا الوَصْفِ المُحبَّبِ إِلى النُّفوسِ ، لِحَثِّهِمْ عَلى العَمَلِ بِما يَأْمُرُهُمْ بِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَالانْتِهاءِ عَمّا يَنْهاهُمْ عَنْهُ : ﴿ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا ﴾ وَهَذِهِ الكَلِمَةُ كانَتْ تَدورُ عَلى أَلْسِنَةِ الصَّحابَةِ في خِطابِ الرَّسولِ ﷺ .
وَالمَعْنى المَفْهومُ مِنَ الكَلِمَةِ : أَيْ اسْمَعْ لَنا ما نُريدُ أَنْ نَسْأَلَ عَنْهُ ونُراجِعَكَ القَوْلَ فيهِ ، لِنَفْهَمَهُ عَنْكَ . ويَبْدو أَنَّ اليَهودَ ـ قاتَلَهُمُ اللهُ تَعالى ـ اسْتَغَلُّوا هَذِهِ الكَلِمَةَ ، وَحَرَّفوها عَنْ مَوْضِعِها كَما قالَ تَعالى : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ٤٦] ، فَهُمْ قَد اسْتَغَلُّوا هذهِ الكَلِمَةَ لِيُؤْذوا الرّسولَ ﷺ ولِيَشْتُموهُ ، فَكانوا يَقولونَ لَهُ : (يا مُحَمَّدُ راعِنا) ، وَيَعنونَ بِها الرُّعونَةَ الّتي هِيَ الحُمْقُ والخِفَّةُ ، ولِذلِكَ نَهى اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى المُؤْمنينَ مِنَ اسْتِخْدامِ هَذِهِ الكَلِمَةِ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلى كَلِمَةٍ أُخْرى ، لِئلاّ يَتَّخِذَها اليَهودُ سَبيلاً لِسَبِّ النَّبِيِّ ﷺ . فَقالَ تَعالى : ﴿ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا ﴾ وَفي هَذِهِ الكَلِمَةِ مَعْنى الإِنْظارِ وَالمُراقَبَةِ ، والإِمْهالِ ، فَهيَ تُفيدُ مَعْنى كَلِمَةِ راعِنا ، لَكِنَّها لا تَحْتَمِلُ مَعْنىً آخَرَ يَسْتَخْدِمُهُ هَؤلاءِ اليَهودُ .

وَتُخْتَمُ الآيَةُ الكَريمَةُ بِقَولِهِ تَعالى : ﴿ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لِيُبَيِّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّ كُلَّ ما يَصْدُرُ عَنِ اليَهودِ مِنْ إِساءَتِهِمُ الأَدَبَ مَعَ الرَّسولِ ﷺ ، إِنَّما هُوَ نَتيجَةٌ لِكُفْرِهِم . ولا شَكَّ أَنَّ كُلَّ كافِرٍ نَتيجَتُهُ العذابَ الأَليمَ الموجِعَ أَشَدَّ الوَجَعِ يَومَ القِيامَةِ ، وَهكَذا كُلُّ مَنْ كَفَرَ بِالرَّسولِ ﷺ وَأَساءَ الأَدَبَ مَعَهُ ، فَلَهُ عَذابٌ أَليمٌ .

﴿مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ الكَرِيمَةُ لِمُواساةِ الرَّسولِ ﷺ وَالمُؤْمِنينَ ، بَعْدَ أَنْ أَساءَ هؤُلاءِ اليَهودُ الأَدَبَ مَعَ الرَّسولِ ﷺ وَمَعَ المُؤْمِنينَ ، فَيَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ : إِنَّ هؤُلاءِ اليَهودَ الَّذينَ أَخْبَرْتُكُمْ عَنْ كَثيرٍ مِنْ أُمورِهِمْ ، يَنْبَغي عَلَيْكُم أَنْ لا تُبالوا بِعَداوَتِهِم وَتَكْذيبِهِمْ ، وَلا يَضُرُّكُمْ كُفْرُهُمْ ، فَهُمْ لا يُحِبّونَ الخَيْرَ لَكُمْ أَبَداً ، ولا يُريدونَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكُم ذلِكَ الخَيْرُ مِنْ رَبِّكُم ، وذلِكَ لِحَسَدِهِم لَكُمْ ، وَحِقْدِهِمْ عَلَيْكُم . وَيُقْصَدُ بِالخَيْرِ هُنا كُلُّ نِعْمَةٍ ، وَمِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ النِّعَمِ : القُرْآنُ الكَريمُ ، فَهُوَ أَعْظَمُ الخَيْراتِ ، أَخْرَجَ اللهُ بِهِ المُؤْمِنينَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ ، ونَظَّمَ لَهُمْ أُمورَ حَياتِهِم ، وَوَحَّدَ شُعوبَهُمْ وَكَلِمَتَهُمْ ، وَطَهَّرَ نُفوسَهُمْ ، وَعُقولَهَمْ مِنَ الوَثَنِيَّةِ . وَهؤُلاءِ اليَهودُ حَسَدوا العَرَبَ ، لأَنَّهُمْ كانوا يَوَدُّونَ أَنْ تَكونَ النُّبُوَّةُ فيهِمْ ، وَأَنْ يُنَزَّلَ الكِتابُ عَلَيْهِم كَذلِكَ ، وَلكِنَّ اللهَ تَعالى يَرُدُّ عَلَيْهِم ، ويُبَيِّنُ لَنا جَهْلَهُمْ وَحَسَدَهُمْ فَيَقولُ : ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فَهوَ سُبْحانَهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وَمَنْ ضِمْنَ هَذِهِ الرَّحْمَةِ : النُّبُوَّةُ والرِّسالَةُ ، والهِدايَةُ والنَّصْرُ ، فَقَدِ اخْتَصَّ سَيِّدنا مُحَمَّداً ﷺ بِالنُّبُوَّةِ ، واخْتَصَّ أُمَّةَ العَرَبِ كَذلِكَ ، بِنُزولِ القُرآنِ الكَريمِ عَلَيْهِم ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى ذُو الفَضْلِ العَظيمِ ، إِذ إِنَّ كُلَّ خَيْرٍ يَنالُهُ الإِنْسانُ في دِينِهِ ودُنْياهُ إِنَّما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى .

وَفي هَذِهِ الآياتِ تَنْبيهٌ لِلحاسِدينَ بِأَنْ يَنْتَهوا عَنْ حَسَدِهِمْ لِلآخَرينَ ، وَتَعْريضٌ بِأُولئِكَ اليَهُودِ الَّذينَ حَسَدوا الرَّسولَ ﷺ عَلى النُّبوَّةِ ، وَبِذلِكَ حَذَّرَتِ الآياتُ المُؤْمِنينَ مِنَ اليَهودِ ، وَبَشَّرَتْهُمْ بِأَنَّهُم ما داموا مُتَمَسِّكينَ بِكِتابِهِمْ فَلَنْ يَضُرَّهُمُ اليَهُودُ وَحَسَدُهُمْ وَعَداوُهُمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عَدَمُ اتِّباع الظَّنِّ الَّذي لا يُغْني مِنَ الحَقِّ شَيئاً ، واتِّباعُ العِلْمِ الصَّحيحِ المؤدِّي إِلى الحَقِّ .

٢ـ إِساءَةُ الأَدَبِ مَعَ الرَّسولِ ﷺ ، إِساءةٌ لِلأَدَبِ مَعَ اللهِ تَعالى ، لأَنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوى ؛ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوْحى .

٣ـ الحاسِدُ لِغَباوَتِهِ يَكونُ ساخِطاً عَلى اللهِ تَعالى ، وَمُعْتَرِضاً عَلَيْهِ إِنْ أَنْعَمَ عَلى المَحْسودِ ، وَاللهُ تَعالى هُوَ صاحِبُ التَّصَرُّفِ المُطْلَقِ في الإِعْطاءِ وَالمَنْعِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ مَا مَعْنى : ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّن عِندِ ٱللهِ خَيرٌ﴾ ؟ وَلِماذا جاءَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ نَكِرَةٌ وَلَمْ تَأتِ مُعَرَّفَةً ؟

٢ـ اسْتَنْتِجْ سَبَبَ خَتْمِ الآيَةِ الأُولى (١٠٣) بِقَوْلِهِ : ﴿لَّو كَانُواْ يَعلَمُونَ﴾

٣ـ مَا السِّرُّ مِنْ خِطابِ المُؤْمِنينَ بِقَوْلِهِ : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ أَمَنُواْ﴾ ؟

٤ـ لِماذا نَهَى اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ عَنْ قَوْلِ كَلِمَةِ : (رَاعِنا) ؟

٥ـ مَا الفَرْقُ بَيْنَ كَلِمَةِ (رَاعِنا) ، وَكَلِمَةِ : انْظُرْنا ؟

٦ـ خُتِمَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ، مَا عَلاقَةُ هَذِهِ الخَاتَمَةِ بِنَهْيِ المُؤْمِنينَ عَنْ قَوْلِ كَلِمَةِ رَاعِنا ؟

٧ـ تَحَدَّثَتْ الآيَةُ الأَخِيرَةُ (١٠٥) عَنْ صِفَةٍ لِليَهودِ ، ما تِلْكَ الصِّفَةُ ؟

٨ـ مَا مَعْنى كَلِمَةِ : خَيرٌ ؟

٩ـ لِماذا حَسَدَ اليَهُودُ العَرَبَ ؟ وَما الَّذي يُريدونَهُ وَيَتَمَنَّوْنَهُ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اذْكُرْ أَمْراً آخَرَ حَرَّفَهُ اليَهودُ وَبَدَّلوهُ .

٢ـ وَرَدَ في كُتُبِ السُّنَّةِ كَيْفَ كَانَ اليَهودُ يُسَلِّمونَ عَلى الرَّسولِ ﷺ ، هاتِ حَديثاً يُبَيِّنُ ما كانوا يَقولونَ ، وَكَيْفَ كانَ الرَّسولُ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ .

* * *

الدَّرسُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ

سورةُ البَقرَةِ - القِسْمُ الحادي والثّلاثون

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

نَنْسَخْ : النَسْخُ لُغَةً : النَّقْلُ ، وَالإِزالَةُ ، واصْطِلاحاً : رَفْعُ الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ بِدَليلٍ شَرْعِيٍّ جاءَ بَعْدَهُ .

نُنْسِها : أَصْلُ النِّسيانِ : التَّرْكُ .

وَليٍّ : مالكٍ أَوْ مُتولٍّ لأُمورِكُمْ .

يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بالإيمانِ : يُفَضِّلِ الكُفْرَ عَلى الإيمانِ .

التَّفسيرُ :

الآياتُ الكَريمَةُ ما زَالتْ تُحاجِجُ أُولئِكَ اليَهُودَ الَّذينَ يُثيرونَ الكَثيرَ مِنَ الشُّبُهاتِ حَوْلَ القُرآنِ الكَريمِ ، وَمِنْ هَذِهِ الشُّبُهاتِ إِنْكارُ أَنْ يَكونَ في القُرآنِ نَسْخٌ ، فَجاءَتِ الآياتُ تُناقِشُهُمْ في هذِهِ القَضِيَّةِ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ ، أَيْ : أَيُّ شَيءٍ نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ ، وَأَيُّ شَيءٍ قَدَّرْنا أَنْ يَنْساهُ النَّاسُ

مِنْ آيَةٍ ـ حُكْماً أَوْ لَفْظاً أَوْ هُما مَعاً ـ فَإِنَّا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنَ الآيَةِ الّتي أرَدْنا نَسْخَها ، أَوْ أَرَدْنا أَنْ نُنْسِيَها النّاسَ ، وَلِذا قَالَ تَعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ أَيْ : نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنَ المَنْسِيَّةِ ، أَوْ مِثْلِها .

والمَقْصودُ بِالخَيريَّةِ في قَولِهِ : (خَيْرٍ مِنْها) تَرجِعُ إلى ثَوابِ العَمَلِ بِها ، فَقَدْ يَكونُ ثَوابُ العَمَلِ بالآيَةِ النّاسِخَةِ أَكْثَرَ مِنْ ثَوابِ العَمَلِ بِالمنسوخَةِ قَبْلَ نَسْخِها ، أَوْ مِثْلِها في الثَّوابِ .

النَّسْخُ إذنْ بَيانُ انْتِهاءِ الحُكْمِ المُسْتَفادِ مِنَ الآيَةِ المَتْلُوَّةِ ، وَحِكْمَتُهُ أَنَّ الأَحْكامَ ما شُرِعَتْ إلاّ لِمَصْلَحَةِ النّاسِ ، وَهَذِهِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ الزَّمانِ والمَكانِ ، فَإِذا شُرِعَ حُكْمٌ في وَقْتٍ كانَتِ الحاجَةُ ماسَّةً إِلَيْهِ ، ثُمَّ زالَتِ الحاجَةُ ، فَمِنَ الحِكْمَةِ نَسْخُهُ وَتَبديلُهُ بِحُكْمٍ يوافِقُ الوَقْتَ الآخَرَ ، فَيَكونُ خَيراً مِنَ الأَوَّلِ أَوْ مِثْلِهِ في الفائِدَةِ لِلعِبادِ .

ثُمَّ أَقامَتِ الآياتُ الدَّليلَ عَلى إمْكانِيَّةِ النَّسْخِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، وَالخِطابُ هُنا لِلرَّسولِ ﷺ ، وَالمَقْصودُ بِهِ المُؤْمِنونَ الّذينَ كانوا يَمْتَعِضونَ مِنْ مُضايَقاتِ اليَهودِ ، وَمِمّا يَقولونَهُ مِنْ إِنْكارِ النَّسْخِ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ بِأَنَّهُ مالِكٌ لِجَميعِ الكائِناتِ ، وَهُوَ المُتَصرِّفُ في أُمورِها ، وَالقادِرُ عَلى كُلِّ شَيءٍ لا يُسْتَنْكَرُ عَلَيْهِ نَسْخُ الأَحْكامِ ، فَهِيَ داخِلَةٌ في قُدْرَتِهِ تَعالى .

ثُمَّ ذَكَرَتِ الآياتُ دَليلاً عَلى كَمالِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى وَهُوَ :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ مالِكُ جَميعِ الكائِناتِ العُلويَّةِ ؛ أَيْ : السَّماواتِ وَما فيها ، وَالسُّفْلِيَّةِ ، أَيْ : الأَرْضِ وَما فيها ، وَهُوَ المُتَصَرِّفُ في أُمورِ المَخْلوقاتِ ، يُجْريها حَسَبَ ما تَقْتَضيهِ المَصْلَحَةُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ سُبْحانَهُ بِما يَتَعَبَّدُ بِهِ البَشَرُ مِنْ ناسِخٍ أَوْ مَنْسوخٍ ، لِذا لَيْسَ عَلى البَشَرِ إلاّ طاعَةُ أَوامِرِ اللهِ تَعالى وَاجْتِنابُ نَواهيهِ ، فَلَهُ سُبْحانَهُ أَنْ يَنْسَخَ ما يَشاءُ مِنَ الأَحْكامِ ، وَهؤلاءِ اليَهودُ لَمْ يُقَدِّروا اللهَ تَعالى حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ زَعَموا أَنّ اللهَ تَعالى مِنَ المُحالِ أَنْ يَنْسَخَ حُكْماً ، وَاللهُ تَعالى يَمْحو ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ ما يَشاءُ حَسَبَ ما تَقْتَضيهِ حِكْمَتُهُ وَمَشيئَتُهُ فَهُوَ سُبْحانَهُ الّذي يَتَوَلّى أُمورَ النّاسِ ، وَيُعينُهُمْ عَلى أَعدائِهِمْ ، وَمَنْ كانَ اللهُ وَلِيَّهُ وَنَصيرَهُ عَلِمَ يَقيناً أَنَّ اللهَ تَعالى لا يَفْعَلُ إلاّ ما هُوَ خَيْرٌ لِلإِنْسانِ في دُنْياهُ وَآخِرَتِهِ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَحذيرِ المُؤْمِنينَ مِنْ وَساوِسِ أُولئِكَ اليَهودِ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ .

أَمْ هُنا للاسْتِفْهام وَهي تُفيدُ الإنْكارَ ، وَالمعنى : أَتُريدونَ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَنْ تَسْأَلوا رَسُولَكُمْ أَنْ يَجيئَكُمْ بِآياتٍ كَما فَعَلَ قَومُ مُوسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، الَّذينَ كانوا يَطْلُبونَ مِنْ نَبِيِّهِمْ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِالآياتِ البيِّناتِ ، تَعَنُّتاً مِنْهُمْ وَتَكَبُّراً وَجُحوداً ، فَقالوا لَهُ مَثَلاً : (أرنا اللهَ جَهْرَةً) ، وَقالوا : (اجْعَلْ لَنا إلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةً) ، إنَّهُ لا يَجوزُ لَكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَنْ تَقْتَرِحوا عَلى نَبِيِّكُمْ مُقْتَرَحاتٍ تَتَنافى مَعَ إيمانِكُمْ ، فالإيمانُ الحَقُّ يَتَطَلَّبُ مِنْكُمُ التَّسْليمَ التّامَّ بِما يأتيكُمْ مِنْ رَسُولِكُمْ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَتَعْمَلوا ما يأْمُرُكُمْ بِهِ ، وَتَنْتَهوا عَمّا يَنْهاكُمْ عَنْهُ ، وَالحَذَرَ الحَذَرَ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَنْ تَكونوا مِثْلَ يَهودٍ في تَعَنُّتِهِمْ مَعَ رَسولِهِمْ .

وَأَتْبَعَ سُبْحانَهُ التَّحْذيرَ بِالوَعيدِ لأُولئِكَ ، فَقالَ تَعالى : ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ مَنْ يَتْرُكْ تِلْكَ الآياتِ البَيِّنَةِ الَّتي أَنْزَلَها اللهُ تَعالى حَسَبَ ما تَقْتَضيهِ حِكْمَتُهُ ، وَما تَقْتَضيهِ مَصالِحُ البَشَرِ ، مَنْ تَرَكَ هَذِهِ الآياتِ وَطَلَبَ غَيْرَها مِنَ الآياتِ تَعَنُّتاً وَتَكَبُّراً وَعِناداً لِلرَّسولِ ﷺ ، فَقَدِ اخْتارَ الكُفْرَ عَلى الإيمانِ ، وَاسْتَحَبَّ العَمى عَلى الهُدى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ النَّسْخُ واقِعٌ في كِتابِ اللهِ تَعالى لِحِكْمَةٍ تَقْتَضيها مَصْلَحَةُ البَشَرِ .

٢ـ الآياتُ النّاسِخَةُ قَدْ تَكونُ خَيراً مِنَ المَنْسوخَةِ في ثَوابِ العَمَلِ ، أَوْ مِثْلَها في الخَيْرِيَّةِ .

٣ـ كَمالُ قُدرَةِ اللهِ تَعالى وَكَمالُ عِلْمِهِ بِما يَصْلُحُ لِلبَشَرِيَّةِ .

٤ـ مِنْ كَمالِ الإيمانِ ، العَمَلُ بِما يَأْمُرُ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ ، والانْتِهاءُ عَمّا نَهى عَنْهُ ، وَعَدَمُ التَّعَنُّتِ في السُّؤالِ .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ عَرِّفِ النَّسْخَ لُغَةً واصْطِلاحاً .

٢ـ ما مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : نُنْسِها ؟

٣ـ ما المَقْصودُ بِالخَيْرِيَّةِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿نَاتِ بِخَيرٍ مِّنهَآ﴾ ؟

٤ـ ذَكَرَتِ الآياتُ دَليلاً عَلى أَنَّ اللهَ تَعالى يَنْسَخُ الأَحْكامَ في القُرآنِ ، هَاتِ هَذا الدّليلَ .

٥ـ لِمَنِ الخِطابُ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَلَم تَعلَم أَنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ ؟

٦ـ ماذا تَسْتَنْتِجُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَلَم تَعلَم أَنَّ ٱللهَ لَهُ مُلكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرضِ﴾ ؟

٧ـ ما مَعْنى (أَمْ) في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَم تُرِيدُونَ أَن تَسئَلُواْ﴾ ؟

٨ـ ما الَّذي سَأَلَهُ قَوْمُ مُوسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٩ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ نَهْيِ المُؤْمِنينَ عَنْ سُؤالِ نَبِيِّهِمْ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَسْئِلَةً لا خَيْرَ فيها ؟

١٠ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلكُفرَ بِٱلإِيمَانِ فَقَد ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ .

نَشاطٌ :

ـ نَهى رَسولُ اللهِ ﷺ عَنْ : قِيلَ وَقالَ وَكَثْرَةِ السُّؤالِ ، اشْرَحْ هَذِهِ الكَلِماتِ ، واكْتُبِ الحَديثَ عَلى لَوْحَةٍ في غُرْفَةِ الصَّفِّ .

* * *

الدَّرسُ الرَّابِعُ والثَّلاثونَ

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسمُ الثّاني والثّلاثونَ

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

وَدَّ : تَمَنّى .

الحَقُّ : الثّابِتُ ، وَالمُرادُ بِهِ الإِسْلامُ .

حَسَداً : الحَسَدُ : قَلَقٌ يُصيبُ النَّفْسَ إِذا رَأَتْ نِعْمَةً عَلى إِنسانٍ ، فَتَمنّى الحاسِدُ زَوالَ هَذِهِ النِّعْمَةِ عَنْهُ .

أَمانِيُّهُمْ : شَهَواتُهُمُ الباطِلَةُ .

تَبَيَّنَ : اتَّضَحَ وظَهَرَ .

بُرْهانَكُمْ : حُجَّتَكُمْ .

فاعْفوا : العَفْوُ : تَرْكُ العِقابِ عَلى الذَّنْبِ .

أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله : أَخْلَصَ نَفْسَهُ وَعِبادَتَهُ لله .

واصْفَحوا : الصَّفْحُ : تَرْكُ المُؤاخَذَةِ عَلى الذَّنْبِ .



التَّفسيرُ :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

نَهَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ المُؤْمِنينَ عَنْ أَنْ يَكونوا مِثْلَ اليَهودِ ، وَجاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ العِلَّةَ في ذَلِكَ ، وَهِيَ ما يُضمِرُهُ أُولئِكَ اليَهودُ مِنَ الشَّرِّ لِلمُؤْمِنينَ ، فَكَثيرٌ مِنْهُمْ يُحِبُّونَ وَيَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَرْتَدَّ أُولئِكَ المُؤْمِنونَ فَيَتْرُكوا الإيمانَ وَيَنْتَقِلوا إِلى الكُفْرِ كَما كانوا قَبْلَ مَجيءِ الرَّسولِ ﷺ . وهَذا الأَمْرُ ناشِىءٌ عَنْ حَسَدِ اليَهودِ لِلمُؤْمِنينَ وَبُغْضِهِمْ لَهُمْ ، وَحِقْدِهِمْ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ لِيُبَيِّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ اليَهودَ كانَ مِنْهُمْ هَذا الخُلُقُ الذَّميمُ بِطَبيعَةٍ فيهِمْ ، وَلَيْسَ مِمَّا أَمَرَهُمْ بِهِ كِتابُهُمْ ، فَإِنَّ التَّوْراةَ قَدْ نَهَتْ عَنْ هَذا الخُلُقِ الذَّميم . وَالحَسَدُ كانَ مِنْهُمْ لِخُبْثِ أَنْفُسِهِمْ وَسوءِ طِباعِهِمْ . وَتَدُلُّ الجُمْلَةُ كَذَلِكَ عَلى أَنَّهُمْ في قَرارَةِ أَنْفُسِهِمْ يَعْتَقِدُونَ صِحَّةَ هَذا الدِّينِ الإِسْلاميِّ ، ولِذلِكَ حَسَدوا المُؤْمِنينَ عَلى أَنْ كانَ هَذا الدِّينُ فيهِمْ . وَبَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّ المُسْلِمينَ عَلى حَقٍّ باتِّباعِهِمْ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَقَدْ وَرَدَتْ صِفاتُ الرَّسولِ ﷺ في التَّوْراةِ ، وَبَشَّرَتْ بِهِ ، فَكُفْرُ أُولئِكَ اليَهودِ لَمْ يَكُنْ عَنْ جَهْلٍ ، وَإِنَّما كانَ عَنْ عِنادٍ وَتَكَبُّرٍ وَحَسَدٍ .

ثُمَّ أَمَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى المُسْلِمينَ أَنْ يُقابِلوا شَرَّ هَؤُلاءِ اليَهودِ بالعَفْوِ وَالصَّفْحِ ، فَقالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى : عَلَيْكُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ أَنْ تُعامِلوا هَؤُلاءِ اليَهودَ بِمحاسِنِ الأَخْلاقِ ، فَلا تَرْفَعوا السُّيوفَ في وُجوهِهِمْ ، ولا تُقاتِلوهُمْ حَتّى يَأْذَنَ لَكُمْ اللهُ ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْفوا عَنْهُمْ بِأَنْ تَتْركوا عِقابَ المُذْنِبِ ، وَتَصْفَحوا عَنْهُ بِتَرْكِ لَوْمِهِ وَتَعْنيفِهِ .

وَالمَقْصودُ بِأَمرِ اللهِ هُنا ، الإِذْنُ لِلمُسْلِمينَ بِقتالِ اليَهودِ ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى بالعَفْوِ وَالصَّفْحِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ المُؤْمِنينَ مَعَ قِلَّتِهِمْ هُمْ أَصْحابُ القُدْرَةِ وَالقوَّةِ ، لأَنَّ الصَّفْحَ لا يَكونُ إِلاّ مِنَ القادِرِ القَوِيِّ فَكَأَنَّهُ يَقولُ لَهُمْ : لا تَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ أَهْلِ الكِتابِ ، فَأَنْتُمْ عَلى قِلَّتِكُمْ أَقْوى مِنْهُمْ ، وذَلِكَ لِما أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الحَقِّ ، وَأَهْلُ الحَقِّ مُؤَيَّدونَ بِعِنايَةِ اللهِ تَعالى وَرِعايَتِهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ القادِرُ عَلى أَنْ يَهَبَكُمُ القُوَّةَ العَظيمَةَ الَّتي تَتَضاءَلُ أَمامَها كُلُّ قُوى الشَّرِّ وَالبَغْيِ ، وَهُوَ القادِرُ عَلى أَنْ يُثَبِّتَكُمْ لِتَتَغَلَّبوا عَلى أَعْدائِكُمْ .

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

الوَسائِلُ الّتي تُحَقِّقُ النَّصْرَ :

ذَكَرَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ بَعْضَ الوَسائِلِ الّتي تُحَقِّقُ النَّصْرَ الّذي وَعَدَهُمْ بِهِ اللهُ تَعالى وَهذِهِ هِيَ :

١ـ إقامَةُ الصّلاةِ : تِلْكَ العِبادَةُ البَدَنِيَّةُ الّتي توَثِّقُ الإِيمانَ في نَفْسِ المُصلِّي الّذي يُناجي رَبَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَتُؤَلِّفُ بَيْنَ قُلوبِ المُؤْمِنينَ الّذينَ يَجْتَمِعونَ لِلصَّلاةِ ، بِتَعارُفِهِمْ وَتُنَزِّهُ النَّفْسَ عَنِ الوقوعِ في الفَحْشاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ .

٢ـ إيتاءُ الزَّكاةِ : وَهِيَ عِبادَةٌ ماليَّةٌ تُؤَلِّفُ بَيْنَ قُلوبِ الأَغْنياءِ والفُقَراءِ ، فَتَتَحَقَّقُ الوِحْدَةُ لِلأُمَّةِ . فالصَّلاةُ فيها إِصْلاحٌ لِلفَرْدِ ، وَالزَّكاةُ فيها إِصْلاحٌ لِلمُجْتَمَعِ .

هاتان الوَسيلَتانِ هُما أَسْبابُ النَّصْرِ في الدُّنْيا ، وَكَذَلِكَ مِنْ أَسْبابِ السَّعادَةِ في الآخِرَةِ ، وَلِذا جاءَ في الآياتِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يَخْفى عَلَيْهِ عَمَلُ عامِلٍ مَهْما قَلَّ أَوْ كَثُرَ ، وَسَواءٌ كانَ خَيْراً أَوْ شَرّاً .

مَزاعِمُ أَهْلِ الكِتابِ :

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتُبَيِّنَ لَنا مَزاعِمَ أُخْرى مِنْ مَزاعِمِ أَهْلِ الكِتابِ ، تِلْكَ المَزاعِمِ الّتي أَرادوا مِنْها تَضْليلَ كُلِّ مَنْ لَيْسَ مِنَ اليَهودِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ ﴾ ، وَالضَّميرُ في (قالوا) يَعودُ إِلى اليَهودِ وَالنَّصارى ، فَقَدْ قالتِ اليَهودُ : لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاّ مَنْ كانَ يَهودِيّاً ، وَقالتْ النَّصارى : لَنْ يَدخُلَ الجَنَّةَ إِلاّ مَنْ كانَ نَصْرانِيّاً ، وَما زالوا حَتّى يَوْمِنا هَذا يَقولونَ هَذا القَوْلِ ، وَيَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ ﴾ وَهِيَ جُمْلَةٌ جاءَتْ تُبَيِّنُ أَنَّ ما يَدَّعيهِ هَؤُلاءِ ما هُوَ إلاّ أَمانٍ يَتَمَنَّوْنَها عَلى اللهِ تَعالى بِغَيْرِ حَقٍّ وَلا بُرْهانٍ . ثُمَّ أَمَرَتِ الآياتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُطالِبَهُمْ بِالدَّليلِ عَلى صِحَّةِ ما يَدَّعونَ فَيَقولُ لَهُمْ : ﴿ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ في ادِّعائِكُمْ أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاّ اليَهُودِيُّ أَوْ النَّصرانِيُّ ، فَهاتوا دَليلَكُمْ وَبُرْهانَكُمْ عَلى صِحَّةِ ما تَقولونَ . وَفي هذا ما فيهِ مِنَ التَّكْذيبِ لِهؤُلاءِ المُدَّعينَ .

ثُمَّ أَبْطَلَتِ الآياتُ قَوْلَهُمْ مِنْ طَريقٍ آخَرَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ و(بَلى) حَرْفٌ يُذْكَرُ في الجَوابِ لإِثْباتِ النَّفْيِ في الكَلامِ السَّابِقِ ، فَجاءَتْ تُثْبِتُ ما نَفَوْهُ ، وَهُوَ عَدَمُ دُخولِ الجَنَّةِ إلاّ لِمَنْ كانَ يَهودِيّاً أَوْ نَصْرانِيّاً ، أَيْ : بَلى إِنَّهُ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ لَمْ يَكُنْ هوداً أَوْ نَصارى ، إِذْ رَحْمَةُ اللهِ تَعالى لا تَخْتَصُّ لِشَعْبٍ دونَ شَعْبٍ ، بَلْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ ، وانْقادَ للهِ تَعالى وأَخْلَصَ في عَمَلِهِ وَعِبادَتِهِ ، فَالعَمَلُ لابُدَّ وأَنْ يَكونَ خالِصاً للهِ وَحْدَهُ ، وَلا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكونَ مُطابِقاً لِلشَّريعَةِ الإِسْلامِيَّةِ .

الإيمانُ وَحْدَهُ ، كَما تُبَيِّنُ الآيَةُ ، لا يَكْفي لِنَجاةِ الإِنْسانِ مِنَ النّارِ ، بَلْ لابُدّ مِنَ العَمَلِ الصَّالِحِ . إِنَّ هَؤُلاءِ الّذينَ أَسْلَموا وُجوهَهُمْ للهِ ، وَهَمْ مُحْسِنونَ لا خَوفٌ عَلَيْهِم ، فَلا تُساوِرُ نُفوسَهُمُ المَخاوِفُ وَلا الأَحْزانُ ، كَما هُوَ حالُ البَعيدينَ عَنْ دِينِ اللهِ تَعالى ، فَهُمْ في خَوْفٍ دائِمٍ مِمّا يُمْكِنُ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ ، وفي حُزْنٍ مِمّا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ مَصائِبَ ، بِسَبَبِ ما قَدَّمَتْهُ أَيْديهِمْ .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وذَكَرَتِ الآياتُ بَعْدَ ذلِكَ ما دَأَبَ عَلَيْهِ أَهْلُ الكِتابِ في تَضْليلِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ فاليَهودُ يَعْتَقِدونَ أَنَّ النَّصارى لَيْسَتْ على شَيءٍ مِنَ الدِّينِ ، فَهُمْ قَدْ كَفَروا بِالمَسيحِ عَلَيْهِ السلام ، مَعَ أَنَّ تَوْراتَهُمْ بَشَّرَتْ بِهِ .

﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أَيْ : لَيْسوا عَلى شَيءٍ مِنَ الدِّينِ الصَّحيحِ ، وَكُلُّ فَريقٍ يَقولُ ما يَقولُهُ وهُمْ يَتْلونَ الكِتابَ ، فَكلُّ فَريقٍ يَقولُ هذا القَوْلَ ، وَالحالُ أَنَّهُمْ يَتْلونَ الكِتابَ ، فَالتَّوْراةُ بَشَّرَتْ بِعيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَالإِنْجيلُ جاءَ فِيهِ ، بِأَنَّهُ جاءَ مُتَمِّماً لِلتَّوْراةِ .

ثُمَّ قال سُبْحانَهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ أَيْ : مِثْلَ هَذا القَوْلِ الّذي لَيْسَ عَلَيْهِ دَليلٌ وَلا بُرْهانٌ ، قالَ الجاهِلونَ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثانِ ، مِثْلَ قَوْلِ اليَهودِ والنَّصارى مِنْ تَكْذيبِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً وَتَكْذيبِ المُؤْمِنينَ ، وَالحَقُّ وَراءَ كُلِّ هَذِهِ المَزاعِمِ ، فَهُوَ إِيمانٌ خالِصٌ وَعَملٌ صالِحٌ ، وَلَوِ اهْتَدى النّاسُ إِلى هَذا لَما تَفَرَّقوا في الدِّينِ .

وَبَيَّنَتِ الآياتُ أَخيراً أَنَّ اللهَ هُوَ العَليمُ بِما عَلَيْهِ كُلُّ فَريقٍ مِنْ حَقٍ وَباطِلٍ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَحْكُمُ

بَيْنَهُمْ ، وَلَمْ تُبَيِّنِ الآياتُ بِماذا يَحْكُمُ ، فَالمَفْعولُ بِهِ هُنا مَحْذُوفٌ لِيُفيدَ التَّعْميمَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ في كُلِّ أمْرٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الحَسَدُ خُلُقٌ ذَميمٌ نَهى عَنْهُ القُرْآنُ وَالسُّنَّةُ الشَّريفَةُ ، وَيَنْبَغي عَلى المُؤْمِنِ تَجَنُّبُهُ .

٢ـ أكْمَلُ المُؤْمِنينَ إيماناً أَحْسَنُهُمْ أَخْلاقاً .

٣ـ النَّصْرُ عَلى الأَعْداءِ لا يَكونُ إلاّ بِالالْتِزامِ بِشَرْعِ اللهِ تَعالى مِنْ إقامَةِ صَلاةٍ وإيتاءِ زَكاةٍ .

٤ـ الجَنَّةُ مَثْوىً لِلمُؤْمِنِ المُخْلِصِ في عَمَلِهِ .

٥ـ التَّقْليدُ في أُمورِ الدِّينِ بَاطِلٌ ، فَلا يَجوزُ لإنسانٍ أَنْ يُقَرِّرَ أَمْراً في الدِّينِ إلاّ إذا كانَ عَلَيْهِ دَليلٌ .

٦ـ العَداوَةُ بَيْنَ اليَهودِ وَالنَّصارى عَداوَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ ، وَكُلُّ فَريقٍ يُحاوِلُ تَضْليلَ الفَريقِ الآخَرِ دائِماً .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ لِماذا يَتَمَنّى اليَهودُ ارتِدادَ المُؤْمِنينَ عَنْ دينِهِمْ ؟

٢ـ مَا مَعنى الحَسَدِ ؟

٣ـ عَلامَ يَحْسُدُ اليَهودُ المُؤْمِنينَ ؟

٤ـ أَمَرَتِ الآياتُ المُؤْمِنينَ بِمُقابَلَةِ الشَّرِّ بِالخَيْرِ ، وضِّحْ ذَلِكَ .

٥ـ مَا الحِكْمَةُ مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعالى المُؤْمِنينَ بِالعَفْوِ وَالصَّفْحِ ؟

٦ـ ذَكَرَتِ الآياتُ وَسائِلَ يُمكِنُ عَنْ طَريقِها تَحْقيقُ النَّصْرِ ، ما تِلْكَ الوَسائِلُ ؟

٧ـ بَيِّنْ سِرَّ التَّعْبيرِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّن خَيرٍ﴾ .

٨ـ مَنِ المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَقَالُواْ لَن يَدخلَ ٱلجَنَّةَ إِلاَّ مَن كانَ هُوداً﴾ ؟

٩ـ قالَ اللهُ تَعالى : ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ :

أ ـ مَنْ هُمُ الَّذينَ لا يَعْلَمونَ ؟

ب ـ ماذا قالَ هَؤُلاءِ الَّذينَ لا يَعْلَمونَ ؟

ج ـ مَنِ المَقْصودُ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿مِثْلَ قَوْلِهِم﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبِ الآيَةَ الدَّالَّةَ عَلى مَعْرِفَةِ اليَهودِ لِلنَّبِيِّ ﷺ .

٢ـ اكْتُبِ الآيَةَ الدَّالَّةَ عَلى أَنَّ عيسى عليهِ السلامُ جاءَ مُصَدِّقاً لِلتَّوْراةِ .

* * *

الدَّرسُ الخامِسُ والثَّلاثونَ

سورةُ البَقرةِ ـ القِسمُ الثّالِثُ والثَّلاثونَ

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

معاني المفردات :

أَظْلَمُ : الظُّلْمُ : وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ .

مساجِدَ : مَوْضِعُ السُّجودِ وَعِبادَةِ اللهِ .

خَرابِها : أَنْ تَكونَ مُهَدَّمَةً مُعَطَّلَةً .

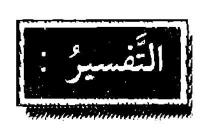
خِزْيٌ : ذُلٌّ وَهوانٌ وَصغارٌ .

فَثَمَّ : فَهُنالِكَ .

سُبْحانَهُ : تَنْزيهٌ للهِ تَعالى عَنِ اتِّخاذِ الوَلَدِ .

قانِتونَ : مُطيعونَ خاضِعونَ وَمُنْقادونَ للهِ تَعالى .

بَديعُ السَّماواتِ : مُبْدِعُها وَمُخْتَرِعُها عَلى غَيْرِ مِثالٍ سابِقٍ .



﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

عُنِيَ الإِسْلامُ أَوّلَ ما عُنِيَ ببناءِ المَساجِدِ الّتي يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللهِ تَعالى ، وَالقِيامُ عَلَيْها ، وَقَدْ جاءَتْ هذِهِ الآياتُ تَنْعى عَلى أُولَئِكَ الّذينَ مَنَعوا أَنْ يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ في المَساجِدِ ، وَسَعَوْا في هَدْمِها وَتَعْطيلِها .

وَالآياتُ ما زالَ سِياقُها في أَهْلِ الكِتابِ ، وَمَنْ هُمْ عَلى شاكِلَتِهِمْ مِنَ الوَثَنِيِّينَ ، الّذينَ خَرَّبوا المَساجِدَ وَهَدَموها ، وَلِذَلِكَ يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ وَمَنْ : لِلاسْتِفهامِ ، وَهُوَ يُفيدُ النَّفْيَ ، وَالمَعنى : لا أَحَدَ أَشَدُّ ظُلْماً عِنْدَ اللهِ مِنْ هَذا الّذي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ الآياتُ .

وَذِكْرُ اللهِ كِنايَةٌ عَمّا يُؤَدّى فِيها مِنَ العِباداتِ ؛ إِذْ إِنَّ العِباداتِ كُلَّها فِيها ذِكْرٌ للهِ تَعالي .

وَمَعْنى الآيَةِ : لا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ تَجَرَّأَ وَتَعدَّى عَلى اللهِ تَعالى وخالَفَ أَمْرَهُ ، وَذَلِكَ بِأَنْ مَنَعَ العِبادَةَ في المَساجِدِ ، وَسَعى في خَرابِها ، وَذَلِكَ بِهَدْمِها وَتَعْطيلِ شَعائِرِ الدِّينِ فيها ، لِما في ذلِكَ مِنَ انْتِهاكٍ لِحُرْمَةِ الدِّينِ ، يُؤَدي إِلى نِسيانِ النَّاسِ الرَّقيبَ المُهَيْمِنَ عَلَيْهِم ، وَبالتّالي تَفْشو فيهِمُ المُنْكَراتُ وَالفَواحِشُ ، وَأَكْلُ الحُقوقِ ، وسَفْكُ الدِّماءِ . وَالصَّلاةُ كَما بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى تَنْهى عَنْ الفَحْشاءِ وَالمُنْكَرِ .

المَساجِدُ إِذَنْ هِيَ الأَماكِنُ الّتي يُعْبَدُ فِيها اللهُ تَعالى ، وَلِذا لا يَجوزُ أَبَداً هَدْمُها ، وَمِنْ سَماحَةِ الإِسْلامِ أَنَّ الشَّريعَةَ الإِسْلامِيَّةَ نَهَتْ عَنْ هَدْمِ كَنائِسِ أَهْلِ الكِتابِ وَبِيَعِهِمْ وَصَوامِعِهِمْ ، لِكَوْنِها بُنِيَتْ لِذِكْرِ اللهِ تَعالى .

ثُمَّ قالَ في شَأْنِ هَؤُلاءِ الّذينَ اعْتَدَوْا عَلى المَساجِدِ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ ﴾ أَيْ : أَنَّ أُولَئِكَ الّذينَ حالوا بَيْنَ المَساجِدِ وَذِكْرِ الله تَعالى وَسَعَوْا في خَرابِها ، كانَ يَنْبَغي عَلَيْهِمْ أَنْ يَدْخلوها خائِفينَ مِنَ اللهِ تَعالى خاضِعينَ لَهُ ، شَديدي الخَشْيَةِ مِنْهُ ، فَكَيْفَ بِهِمْ يَدْخُلونَها مُفْسِدينَ وَمُخَرِّبينَ ؟ لَوْ كانَ عِنْدَهُمْ مِسْحَةُ عَقْلٍ ، لَعَرَفوا أَنَّ عِبادَةَ اللهِ تَعالى لَيْسَ فِيها إِلاّ النَّفْعُ في دينِهِمْ وَدُنْياهُمْ وَآخِرَتِهِمْ ، وَأَنَّ في تَرْكِها كُلَّ الضَّرَرِ في دينِهِم وَدُنْياهُمْ وَآخِرَتِهِمْ كَذَلِكِ .

لِذا نَجِدُ أَنَّ الآيَةَ خُتِمَتْ بِبَيانِ عاقِبَةِ أُولَئِكَ المُخَرِّبينَ لِمَساجِدِ اللهِ ، بِأَنَّ لَهُمْ في الدُّنْيا خِزْياً ،

وأنَّ لَهُمْ في الآخِرَةِ عَذاباً عَظيماً ، فالذُّلُّ وَالهَوانُ في الدُّنْيا ، وَالعَذابُ العَظيمُ في الآخِرَةِ ، بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وَتَطاوُلِهِمْ عَلى بُيوتِ اللهِ .

وَقَدْ حَدَّثَنا التَّاريخُ عَمّا حلَّ بالّذينَ خَرَّبوا مَساجِدَ اللهِ ؛ حَدَّثَنا التَّاريخُ مَثَلاً عَنِ الرُّومانِيِّينَ الّذينَ دَخَلوا بَيْتَ المَقْدِسِ بَعْدَ المَسيحِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِقِيادَةِ تيطَسَ ، فَهَدَموا بَيْتَ المَقْدِسِ ، فَتَقَسَّمَتْ دَوْلَتُهُمْ ، وَشَتَّتَ اللهُ تَعالى مُلْكَهُمْ ، ولِحَقَهُمُ الذُّلُّ والهَوانُ عَلى يَدِ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ دَخَلوا البِلادَ .

وَمِمّا يَأْسى لَهُ القَلْبُ وَتَدْمَعُ لَهُ العَيْنُ ، أَنَّنا نَجِدُ أَعْداءَ هَذا الدِّينِ يَهْدِمونَ الكَثيرَ مِنَ المَساجِدِ في شَتَّى بِقاعِ العالَمِ عَلى مَرْأىً وَمَسْمَعٍ مِنَ المُسْلِمينَ ، وَيُحوِّلونَ المَساجِدَ إلى أَماكِنَ لِلَّهْوِ وَالبَغْيِ ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاّ باللهِ .

وَما دامَتِ الآياتُ تَحَدَّثَتْ عَنْ المَساجِدِ ، الّتي هِيَ أَماكِنُ لِلعِبادَةِ ،وَكَثيرٌ مِنْ أَهْلِ المِلَلِ يَدَّعونَ أَنَّ العِبادَةَ لا تَجوزُ إلاّ في المَساجِدِ ، بَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ العِبادَةَ تَصِحُّ في شَتَّى بِقاعِ الأَرْضِ ، سَواءٌ أكانَتْ داخِلَ المَسْجِدِ أَمْ خارِجَهُ :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ .

وَالمَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ مَكانُ شُروقِ الشَّمْسِ وَغُروبِها ، وَالمَقْصودُ هُنا جَميعُ جِهاتِ الأَرْضِ ، أَيْ : أَيُّ مَكانٍ تَسْتَقْبِلونَهُ في صَلاتِكُمْ سَواءٌ أَكانَ مِنَ المَشْرِقِ أَمْ مِنَ المَغْرِبِ ، أَمْ مِنْ غَيْرِها مِنَ الجِهاتِ ، وَتَوجَّهْتُمْ مِنْهُ إلى القِبْلَةِ الّتي أَمَرَكُمْ اللهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْها ، فَأَنْتُمْ مُتَوَجِّهونَ إلى اللهِ تَعالى ، فَأَيْنَما حَلَّ الإِنْسانُ واسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ المَطْلوبَةَ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ .

وَالوَجْهُ صِفَةٌ للهِ تَعالى نُؤْمِنُ بِها دونَ أَنْ نَبْحَثَ عَنْ تَكْييفِها ، وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿إِنَّ ٱللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لِبيانِ سِعَةِ مُلْكِ اللهِ تَعالى ، وَسِعَةِ تَيْسيرِهِ عَلى العِبادِ ، لِكَوْنِهِ أَباحَ لِلمُسْلِمَ أَنْ يُصَلِّيَ في جَميعِ بِقاعِ الأَرْضِ ، وَقَدْ بَيَّنَ الرَّسولُ أَنَّهُ مِمّا اخْتُصَّ بِهِ أَنَّهُ ﷺ « جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهوراً »[1] ، وَهُوَ سُبْحانَهُ عَليمٌ بِالمُتَوَجِّهِ إِليهِ أَيْنَما كانَ .

افْتِراءاتُ أَعْداءِ الدِّينِ :

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُحَدِّثَنا عَنْ أَقاويلِ هَؤُلاءِ الضّالِّينَ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ .

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَدًا﴾ وَالآيَةُ مَعْطوفَةٌ عَلى ما قالَهُ اليَهودُ وَالنَّصارى : ﴿وقالوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ

(١) أخرَجَهُ البُخاري/ كتاب جعلت لي الأرض مسجداً ، ومسلم ح (٨٠٨) كتاب التيمم ، باب قوله تعالى : ﴿فإن لم تجدوا ماءً فتيمموا..﴾ ، والنسائي (٤٢٩) كتاب التيمم بالصعيد .

إلاّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى﴾ ، ﴿وَقالتِ اليَهودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيءٍ﴾ ، ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ وَالآيَةُ عَامَةٌ في كُلِّ مَنِ ادَّعى للهِ وَلَداً ، فَقَدْ ادَّعى اليَهُودُ بَأَنَّ عُزَيْراً ابنُ اللهِ ، وادَّعى النَّصارى بِأَنَّ المَسيحَ ابنَ مَرْيَمَ ابنُ اللهِ تَعالى ، وادّعى المُشْرِكونَ بِأَنَ للهِ بناتٍ ، وَلا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكونَ هَذا القَوْلُ صَدَرَ مِنْ جَميعِ هَذِهِ الفِرَقِ أَمْ مِنْ بَعْضِ الأَفْرادِ .

وَيَرُدُّ اللهُ تَعالى هَذا القَوْلَ بِقَوْلِهِ : ﴿سُبحَانَهُ﴾ أَيْ : تَنْزيهاً لَهُ تَعالى عَنْ أَنْ يَكونَ لَهُ وَلَدٌ . وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ قَوْلُهُ : « لا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلى أَذىً سَمِعَهُ مِنَ اللهِ ، إِنَّهُمْ يَجْعَلونَ لَهُ وَلَداً ، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعافيهِمْ »[1] .

وَيَقولَ سُبْحانَهُ رَداً عَلَيْهِم :

١ـ ﴿بَل لَّهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرضِ كُلٌّ قَانِتُونَ﴾ إِنَّ ما زَعَموهُ باطِلٌ ، فَإِنَّ الوالِدَ يَحْتاجُ إلى الوَلَدِ وَيَرْغَبُ فِيهِ ، لِيَعْتَزَّ بِهِ ، وَيُحيْي ذِكْرَهُ ، وَلِيَسْتَعينَ بِهِ عَلى القِيامِ بِأَعْباءِ الحَياةِ ، وَاللهُ تَعالى مُنَزَّهٌ عِنْ أَمْثالِ هذِهِ الأُمورِ ، لأَنَّ جَميعَ ما في السَّماواتِ وَالأَرْضِ مُلْكٌ للهِ تَعالى ، قانِتٌ لِعِزَّتِهِ وَجَلالِهِ ، خاضِعٌ لِسُلْطانِهِ تَعالى ، مُنْقادٌ لإرادَتِهِ تَعالى .

٢ـ وَتَرُدُّ عَلَيْهِمُ الآياتُ كَذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعالى :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

إنَّ اللهَ تَعالى أَبْدَعَ السَّماواتِ والأَرْضَ ، أَيْ : أَنْشَأَها وَأَوْجَدَها عَلى غَيرِ مِثالٍ سابِقٍ ، فَهُوَ المُبْدِعُ لَهُما وَلِجَميعِ المَخْلوقاتِ فيهما ، فَكَيْفَ صَحَّ أَنْ يُنْسَبَ إليهِ شَيءٌ مِنْهُما ، وَهُوَ الوَلَدُ ، تَعالى اللهُ عَمّا يَقولونَ عُلُوّاً كَبيراً . وَهُوَ سُبْحانَهُ إذا أَرادَ إيجادَ أَمْرٍ وَإِحْداثَهُ ، فَإِنَّما يَأْمُرُهُ أَنْ يَكونَ مَوْجوداً فَيَكونَ كَما أَرادَ اللهُ تَعالى ، فَالتَّوالُدُ إِذَن مُحالٌ مِنْ جانِبِهِ تَعالى ، فَهُوَ وَاحِدٌ أَحَدٌ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المَساجِدُ هِيَ الأَماكِنُ الّتي جُعِلَتْ لِعبادَةِ اللهِ تَعالى ، فَيَنْبَغي عَلى المُسلِمينَ عِمارَتُها وَالحَيْلولَةُ دُونَ خَرابِها وَهَدْمِها .

---

(١) أخرَجهُ أحمد ، ح (١٩٥٢٧) وح (١٩٦٣٣) من المسند .

٢ـ عِنْدَ دُخولِ المَسْجِدِ ، عَلى الإِنْسانِ أَنْ يَدْخُلَ وَهُوَ يَعْلَمُ بِأَنَّهُ يُقْبِلُ عَلى اللهِ تَعالى ، فَيَشْعُرُ بِالخِشْيَةِ وَالخَوْفِ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَيَدْخُلُ بِسَكِينَةٍ وَهُوَ يَرْجو رَحْمَتَهُ تَعالى وَمَغْفِرَتَهُ .

٣ـ عِبادَةُ اللهِ تَعالى والّتي مِنْها الصَّلاةُ ، لا تَكونُ في المَسْجِدِ فَقَط ، وَإِنَّما في أَيِّ بُقْعَةٍ مِنْ بِقاعِ الأَرْضِ .

٤ـ اللهُ تَعالى مُنَزَّهٌ عَنْ اتِّخاذِ الوَلَدِ ، فَهُوَ مالِكُ السَّماواتِ والأَرْضِ وَما بَيْنَهُما .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّالِيَةِ :

وَمنْ أَظْلَمُ ، وَسَعَى في خَرابِها ، للهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ ، قانِتونَ .

٢ـ لِماذا جَعَلَ اللهُ تَعالى الّذي يَمْنَعُ ذِكْرَ اللهِ في المَساجِدِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ ظُلْماً ؟

٣ـ هَلْ دَعا الإِسْلامُ لِلحِفاظِ عَلى مَساجِدِ المُسْلِمينَ فَقطْ ؟ بَيِّنْ ذَلِكَ .

٤ـ كَيْفَ يَنْبَغِي عَلى الإِنْسانِ أَنْ يَدْخُلَ المَساجِدَ ؟

٥ـ ما جَزاءُ المُخَرِّبينَ لِلمَساجِدِ ؟

٦ـ بَيَّنَتِ الآياتُ أَنَّ المَساجِدَ لَيْسَتْ وَحْدَها هِيَ الأَماكِنُ الّتي يُعْبَدُ فِيها اللهُ تَعالى ، وَضِّحْ ذَلِكَ .

٧ـ مَنْ هُمُ الَّذينَ ادَّعوْا للهِ تَعالى الوَلَدَ ؟

٨ـ كَيْفَ رَدَّتِ الآياتُ عَلى أُولَئِكَ الَّذينَ ادَّعوا الوَلَدَ للهِ تَعالى ؟

٩ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ هُناكَ آيَةٌ حَدَّدتْ صِفاتِ الّذينَ يَعْمُرونَ المَساجِدَ ، اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ سورَةَ الإِخْلاصِ .

* * *

الدَّرسُ السَّادِسُ والثَّلاثونَ

سورةُ البَقرَةِ ـ القِسْمُ الرّابِعُ والثَّلاثونَ

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۘ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

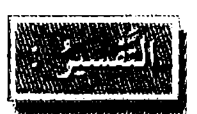
مَعاني المُفْرَدات

لَوْلا : كَلِمَةٌ لِحَضِّ الفاعِلِ عَلى الفِعْلِ ، وَمعناها : هَلاّ .

آيَةٌ : دَليلٌ وَحُجَّةٌ وَبُرهانٌ .

تَشابَهَتْ : تَماثَلَتْ .

يوقِنونَ : اليَقينُ : هُوَ العِلْمُ القائِمُ عَلى دَليلٍ .



التَّفسير

رَدَّتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَلى أُولَئِكَ الَّذينَ يَدَّعونَ أَنّ للهِ وَلَداً ، وَتَرُدُّ هَذِهِ الآياتُ عَلى الَّذينَ أَنْكَروا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، سَواءٌ أَكانوا يَهُوداً أَمْ نَصارى أَمْ مُشْرِكينَ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۘ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ عِلْماً نافِعاً ، فَهُمْ جاهِلونَ بِالكِتابِ وَالشَّرائِعِ قالوا : **﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾**

أَيْ : هَلاّ يُكَلِّمُنا اللهُ مُشافَهَةً دونَ واسِطَةٍ ، فَيُخْبِرُنا بِأَنَّكَ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِهِ ، كَما كَلَّمَكَ يا مُحَمَّدُ مَعَ أَنَّكَ بَشَرٌ مِثْلُنا ﴿ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾ أَيْ : تَأْتِينا بِبُرْهانٍ وَدَليلٍ عَلى صِدْقِكَ في ادِّعائِكَ النُّبُوَّةَ . وَقَدْ طَلَبوا ما طَلَبوا تَعَنُّتاً وَجُحوداً ، وَعِناداً واسْتِكْباراً ، وَقَدْ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِم بِقَوْلِهِ : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ مِثْلَ هَذا القَوْلِ الّذي قالَهُ الكافِرونَ المُتَعَنِّتونَ ، قالَ الجاحِدونَ الّذينَ كانوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَقَد كَذَّبوا هُمْ كَذَلِكَ رُسُلَهُمْ ، وَتَعَنَّتوا في طَلَبِ الآياتِ . وَفي هَذا تَسْلِيَةٌ لِلرَّسولِ ﷺ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ الرَّسولُ الّذي كَذَّبَهُ قَوْمُهُ فَقَط ، بَلْ إِنَّ الرُّسُلَ الّذينَ كانوا مِنْ قَبْلِهِ كُذِّبوا مِنْ أَقْوامِهِمْ كَذَلِكَ .

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى السَّبَبَ في اتِّحادِ أَقْوالِ الجاحِدينَ في عَصْرِ الرَّسولِ ﷺ ، مَعَ أَقْوالِ الّذينَ كانوا مِنْ قَبْلِهِمْ فَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيْ : تَماثَلَتْ قُلوبُ هَؤُلاءِ وَقُلوبُ مَنْ قَبْلَهُمْ في العَمى وَالقَسْوَةِ ، وَالعِنادِ ، فَقَدْ ساوَى الطُّغْيانُ بَيْنَهُمْ ، إِذْ إِنَّ الكُفْرَ مِلَّةٌ واحِدَةٌ ، وَإِنْ تَعَدَّدَتْ طُرُقُهُ واخْتَلَفَتْ وُجوهُهُ ، فَإِنَّ آثارَهُ مُتَشابِهَةٌ ، فَقَدْ طَلَبَ قَوْمُ سَيِّدِنا مُوسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ نَبِيِّهِمْ أَنْ يَرَوْا اللهَ جَهْرَةً ، وَقالَتِ النَّصارى : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ وَقالَ المُشْرِكونَ ما ذَكَرَهُ سُبْحانَهُ عَنْهُمْ هُنا .

ثُمَّ سَلَّى سُبْحانَهُ وتَعالى نَبِيَّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ لَمْ يَتْرُكِ النَّاسَ بِلا آيَةٍ ولا بُرْهانٍ ، بَلْ بَيَّنَ لِلنّاسِ الآياتِ العَظيمَةَ عَلى يَدَيْ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَهَذِهِ الآياتُ لا تَدَعُ لِعاقِلٍ لَدَيْهِ الاسْتِعْدادُ لِلْعِلْمِ وَاليَقينِ مَجالاً لِلشَّكِّ أَوِ الرَّيْبِ ، وَلَكِنَّ المُعانِدينَ وَالمُكابِرينَ سَيَبْقى كُلُّ واحِدٍ فيهِمْ يَتَبَجَّحُ بِطَلَبِ الآياتِ .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ .

وَيُؤَكِّدُ سُبْحانَهُ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِأَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللهِ تعالى ، وَهُوَ الدينُ الصَّحيحُ الّذي اشْتَمَلَ على الأَحْكام الصّادِقَةِ ، لِتُبَشِّرَ بِالثَّوابِ مَنْ آمَنَ وَأَطاعَ اللهَ ، وتُنْذِرَ مَنْ عَصى وَكَفَرَ بِالعِقابِ : ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ يا مُحَمَّدُ ، فَإِنَّ وَظيفَتَكَ أَنْ تُبَشِّرَ وَتُنْذِرَ ، وَلا يَضُرَّنَّكَ بَعْدَ ذلِكَ تَكذيبُ المُكَذِّبينَ الّذينَ يُساقونَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَجُحودِهِمْ إِلى الجَحيمِ : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] وَفي هَذا ما فيهِ مِنَ التَّسْلِيَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ لِئَلا يَضيقَ صَدْرُهُ مِنَ المُكَذِّبينَ بِهِ .

وَقَدْ كانَ النَّبِيُّ يُحِبُّ وَيَتَمَنَّى أَنْ يُبادِرَ أَهْلُ الكِتابِ إِلى الإِيمانِ بِهِ ، وَأَنْ لا يَرَى مِنْهُمُ المُكابَرَةَ وَالمُعانَدَةَ ، وَلِهذا شَقَّ عَلَيْهِ أَنْ يَرَى إِعْراضَ اليَهودِ وَالنَّصارى عَنْ دَعْوَتِهِ مَعَ مُوافَقَتِهِ لَهُمْ في أَصْلِ دِينِهِمْ ، وَمَقْصَدِهِ مِنْ تَوْحيدِ للهِ تَعالى ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبِيِّهِ مُبَيِّناً حَقيقَةَ هَؤُلاءِ اليَهودِ وَالنَّصارى ، بِأَنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنوا أَبَداً ، فَقالَ تعالى :

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ .

بَيَّنَ اللهُ تعالى حَقيقَةَ ما عَلَيْهِ هَؤُلاءِ مِنَ البُعْدِ والجَفاءِ ، وَأَعْلَمَ نَبيَّهُ وَالمُؤْمِنينَ أَنَّ رضاهُمْ مُتَوَقِّفٌ عَلى أَمْرٍ مُسْتَحيلٍ ، وَهُوَ دُخولُ النَّبيِّ في مِلَّةِ اليَهودِيَّةِ أَوِ النَّصْرانِيَّةِ ، فَهُمْ يَرْضونَ عَنْكَ إِذا اتَّبَعْتَهُمْ وَسِرْتَ مَعَهُمْ .

وَفي هذِهِ الآيَةِ دَليلٌ على أَنَّ اليَهودَ والنَّصارى كُلُّ فَريقٍ مِنْهُمْ قَدْ تَعَصَّبَ لِتَقاليدِهِ ـ مَعَ أَنَّهُمْ مُتَّحِدونَ في أَصْلِ الدِّينِ ـ واتَّخَذَ دينَهُ جِنْسيَّةً لا يُرْضيهِ مِنْ أَحَدٍ شَيءٌ إِلاّ الدُّخولَ فيها ، ولِذلِكَ قالَ تَعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ أَيْ : ما هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّقاليدِ وَالأَهْواءِ الّتي غَيَّروا بِها وَجْهَ الدِّينِ الواحِدِ . وَتَأْمُرُ الآياتُ النَّبيَّ أَنْ يَرُدَّ على هَؤُلاءِ فَيَقولَ لَهُمْ : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ فَالهُدى الصَّحيحُ هُوَ هُدى اللهِ الّذي أَنْزَلَهُ عَلى أَنْبيائِهِ ، وَما أَنْتَ عَلَيْهِ يا مُحَمَّدُ هُوَ هُدى اللهِ الحَقِّ ، وَلَيْسَ ما جاءَ على أَلسِنَةِ اليَهودِ والنَّصارى مِمّا أَمْلَتْهُ عَلَيْهِم أَهْواؤُهُمْ ، وَقَدْ قَصَرتِ الآياتُ هُدى اللهِ على الدِّينِ الحَقِّ الّذي جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ .

وَيَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، إِنْ أَرَدْتَ اسْتِرْضاءَهُمْ يا مُحَمَّدُ فَهُمْ لَنْ يَرْضوْا عَنْكَ حَتّى تَتَّبِعَ أَهْواءَهُمْ ، وَلئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الّذي جاءَكَ يا مُحَمَّدُ مِنَ العِلْمِ اليَقينيِّ المُؤَيَّدِ بِالوَحْيِ الإِلهِيِّ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى لَنْ يَنْصُرَكَ وَلَنْ يَتولَّى شُؤونَكَ .

وَنَجِدُ أَنَّهُ تَعالى قالَ لِنَبيِّهِ ﷺ : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : (إِذا اتَّبَعْتَ) . وَالفَرْقُ بَيْنَ (إِنْ) وَ (إِذا) أَنَّ (إِنْ) تَكونُ لِلأَمْرِ المشْكوكِ في وُقوعِهِ ، وَ(إِذا) تَكونُ لِلأَمْرِ المُتَحَقِّقِ وُقوعِهِ ، واتِّباعُ النَّبيِّ لأَهْواءِ اليَهودِ والنَّصارى أَمْرٌ غَيْرُ مَتَحَقِّقٍ أَبَداً ، بَلْ هُوَ مُسْتَحيلٌ ، لأَنَّ الرَّسولَ ﷺ مَعْصومٌ ، وَلكِنْ هُوَ في الحَقيقَةِ خِطابٌ لِلمُسْلِمينَ كافَةً في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُؤْمِنُ الحَقُّ هُوَ الّذي تَكْفيهِ الآياتُ القُرآنيَّةُ الّتي تُخاطِبُ عَقْلَهُ وَقَلْبَهُ ، والكافِرُ هُوَ الّذي يُعانِدُ وَيَسْتَكْبِرُ وَيُطالِبُ بِالمَزيدِ مِنَ الآياتِ .

٢ـ الكُفْرُ مِلَّةٌ واحِدَةٌ ، وَإِنْ تَعَدَّدَتْ صُورُهُ واخْتَلَفَتْ أَشْكالُهُ ، وَهُوَ دائِماً في عَداءٍ مَعَ الحَقِّ الّذي لَيْس لَهُ إِلاَّ صورَةٌ واحِدَةٌ .

٣ـ عَلى المُسْلِمِ أَنْ يَأْمُرَ بِالمَعْروفِ وَيَنْهى عَنِ المُنْكَرِ وَيَدعو إلى عِبادَةِ اللهِ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ حِسابُ النّاسِ عَلى كُفْرِهِمْ أَوْ إيمانِهِمْ .

٤ـ اليَهودُ والنَّصارى يَحْرِصونَ دائِماً عَلى إِخْراجِ المُسْلِمِ مِنْ دينِهِ ، لِيَظَلَّ إِنْساناً بِلا دِينٍ وَلا عَقيدَةٍ .

٥ـ اليَهودُ والنَّصارى كُلُّ فَريقٍ مِنْهُمْ مُتَعَصِّبٌ لِدينِه ، مَعَ أَنَّهُمْ لَيسوا عَلى الحَقِّ ، وَالأَحْرى بِالمُسْلِمِ أَنْ يَنْتَصِرَ لِدينِهِ ، لأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَلى حَقٍّ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ مَنِ الَّذينَ لا يَعْلَمونَ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ؟

٢ـ ما الآياتُ الّتي طَلَبَها هَؤُلاءِ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ؟

٣ـ كَيْفَ تَشَابَهَتْ قُلوبُ الكافِرينَ زَمَنَ الرَّسولِ مَعَ قُلُوبِ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟

٤ـ كَيْفَ رَدَّتِ الآياتُ عَلى أُولَئِكَ الَّذينَ عانَدوا في طَلَبِ الآياتِ ؟

٥ـ ما صِلَةُ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ﴾ بِما قَبْلَها ؟

٦ـ اسْتَنْتِجْ ما تَدُلُّ عَلَيْهِ هذِهِ الآيَةُ : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ .

٧ـ ما سِرُّ التَّعْبيرُ بـ (إِنْ) في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ ؟

٨ـ لِمَنَ الخِطابُ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ ؟

٩ـ ما الّذي يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ تَعالى : ﴿إِنَّ هُدَى ٱللهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَطالِبَ المُشْرِكينَ مِنَ الرَّسولِ ﷺ الّتي بَيَّنَتْها سورَةُ الإِسْراءِ .

٢ـ اكْتُبِ الآيَةَ مِنْ سورَةِ الإِسراءِ الدَّالَّةَ عَلى مَطْلَبِ الكُفّارِ مِنَ الرَّسولِ ﷺ لاتِّخاذِهِ خَليلاً صَديقاً .

* * *

الدَّرسُ السَّابعُ والثَّلاثونَ

سورةُ البَقرَةِ ـ القِسْمُ الخامِسُ والثَّلاثون

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

حَقَّ تِلاوَتِهِ : يَفْهمونَ أسرارَهُ ، ويَفْقَهونَ حِكْمَةَ تَشْريعِهِ .

تَجْزي : تَقْضي .

عَدْلٌ : فِدْيَةٌ .

التَّفسيرُ :

الآياتُ السَّابِقَةُ بَيَّنَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ لا يُرجى مِنْهُمْ إيمانٌ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَعِنادِهِمْ ، وَجاءَتْ هذِهِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ أَنَّ هُناكَ نَفراً مِنْهُمْ يُرجى إِيمانُهُمْ ، وَهُمُ الَّذينَ يَتَدَبَّرونَ كِتابَهُمْ وَيُميِّزون الحَقَّ وَالباطِلَ .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ طائِفَةٌ تَقْرَأُ التَّوْراةَ قِراءَةً فِيها تَفَهُّمٌ ، وَتَدَبُّرٌ ، وتَفَقُّهٌ لأَسْرارِها وَحِكَمِها ، وَلا تَتَّبِعُ آراءَ أُولَئِكَ الذينَ حَرَّفوا التَّوْراةَ وَحَملوها عَلى غَيْرِ مَحْمَلِها ، أُولَئِكَ يا مُحَمَّدُ هُمُ الَّذينَ يُقَدِّرونَ ما جِئْتَ بِهِ مِنَ الدِّينِ الصَّحيحِ ، وَيَعْقِلونَ أَنَّ

هَذا هُوَ الحَقُّ ، فَيُؤْمِنونَ بِهِ إيماناً لا رَيْبَ فِيهِ ، وَيَهْتَدونَ بَهَدْيِهِ . وَمِنْ هَؤُلاءِ الَّذينَ آمَنوا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ عَبْدُ اللهِ بنُ سَلام .

وَمِنْ عادَةِ القُرآنِ ـ كَما عَرَفْتَ ـ أَنَّهُ إذا تَحَدَّثَ عَنْ الطَّائِفَةِ المُؤْمِنَةِ ، يُتْبِعُها بِالحَديثِ عَنِ الطَّائِفَةِ الكاذِبَةِ ، وَذَلِكَ لِلرَّبْطِ بَيْنَ الأَضدادِ ، وَهُوَ مِنْ أَساليبِ التَّرْغيبِ وَالتَّرْهيبِ ، فَهؤلاءِ المُؤْمِنونَ عَقَلوا الكِتابَ وَتَدَبَّروهُ ، وَلا شَكَّ في أَنَّهُمْ كانوا مِنَ المُفْلِحينَ ، أَمّا الفَريقُ الآخَرُ وَهُمْ : (مَنْ يَكْفُرُ بِهِ) ، أَيْ مَنْ يَكْفُرُ بِما أُنْزِلَ عَلى مُحَمَّدٍ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ الحَقُّ ـ وَهُمْ كُثْرٌ ـ فَقَدْ غَيَّروا وَبَدَّلوا وَحَرَّفوا ، وَأَنْكَروا ما جاءَهُمْ مِنَ الحَقِّ ، فَهؤُلاءِ خَسِروا سَعادَةَ الدُّنْيا وَالمَجْدَ والسِّيادَةَ الَّتي يُعْطيها اللهُ تَعالى لِمَنْ يَنْصُرُ دينَهُ ، وَخَسِروا سَعادَةَ الآخِرَةِ ، إِذْ فَوَّتوا عَلى أَنْفُسِهِمُ النَّعيمَ العَظيمَ الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ لِلمُؤْمِنينَ ، وَأَوْرَدوا أَنْفُسَهُمْ نارَ جَهَنَّمَ .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

مِنْ هُنا فَإِنَّ الَّذينَ يَتْلونَ كِتابَ اللهِ تَعالى دونَ أَنْ يَتَدَبَّروا مَعانيهِ ، لا إيمانَ عِنْدَهُمْ ، لأَنَّهُمْ لا يَفْقَهونَ كَلامَ اللهِ وَلا تَصِلُ مَوْعِظَتُهُ إلى قُلوبِهِمْ ، إِذِ القُرآنُ مَليءٌ بِالعِبَرِ وَالعِظاتِ الَّتي لابُدَّ وأَنْ يَسْتَفيدَ مِنْها الإِنْسانُ العاقِلُ ، فَقَدْ قالَ تَعالى :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء : ٨٢] ، وَقالَ : ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩] ، وَلِلأَسَفِ نَجِدُ أَنَّ هذِهِ الأُمَّةَ اليَوْمَ ، مَعَ كُلِّ تِلْكَ العِبَرِ وَالعِظاتِ ، تُعْرِضُ عَنِ الآياتِ ، وَتَتَّبِعُ في أُمورِها كُلِّها الأُمَمَ الغَرْبِيَّةَ ، فيما يَنْفَعُها وَما لا يَنْفَعُها ؛ وَسَبَبُ ذلِكَ أَنَّهُمْ يَقْرؤُونَهُ أَوْ يَسْمَعونَهُ وَلكِنَّهُ لا يُجاوِزُ تَراقيهِمْ ، ولا يُحْدِثُ في نُفوسِهِمْ أَثَراً ، فَهؤُلاءِ لا يَجِدونَ في القُرآنِ شِفاءً وَلا دَواءً .

وَبَعْدَ أَنْ أَقامَتِ الآياتُ الحُجَجَ عَلى أَهْلِ الكِتابِ ، ناداهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بِتَلَطُّفٍ وَبِما يُحِبُّونَ مِنَ الأَسْماءِ ، مُذَكِّراً إِيّاهُمْ بِنِعَمِهِ الكَثيرَةِ الَّتي أَنْعَمَها اللهُ عَلَيْهِم ، والَّتي حَدَّثَتْنا سورَةُ البَقَرَةِ عَنْ كَثيرٍ مِنْها ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

إِنَّ مِنْ كَرَمِ اللهِ تَعالى بِالنِّعَمِ العَظيمَةِ ، أَنْ فَضَّلَهُمْ عَلى غَيْرِهِمْ مِنَ الشُّعوبِ ، وَجَديرٌ بِهِمْ أَنْ يَتَّعِظوا بِالكِتابِ الَّذي خَصَّهُمُ اللهُ تَعالى بِهِ ، وَجَديرٌ بِهِمْ أَنْ يَتَدبَّروهُ وَيَعْمَلوا بِما جاءَ فيهِ ، وَلِذا عادَتِ الآياتُ تُذَكِّرُهُمْ هُنا مَرَّةً أُخْرى بِنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِم .

واتَّقوا يا بَني إِسْرائيلَ يا مَنْ بَدَّلْتُمْ كِتابَ اللهِ وَحَرَّفْتُموهُ ، وَكَذَّبْتُم بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، اتَّقوا يَوْماً

لا تَقْضي فِيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئَاً مِنَ الحُقوقِ الّتي لَزِمَتْها ، فَلا تُؤْخَذُ نَفْسٌ بِذَنْبِ أُخرى وَلا تَدْفَعُ عَنْها شَيْئاً ، ولا يُؤْخَذُ مِنَ نَفْسٍ فِدْيَةٌ لِتَفْدِيَ نَفْسَها وَتَنْجوَ مِنْ نارِ جَهَنَّمَ ، وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ ، إذْ إنَّ أَهْلَ الكِتابِ كانوا يَعْتَقِدونَ بِشَفاعَةِ أَنْبيائِهِمْ لَهُمْ ، وَلَنْ يَأْتِيهِمْ كَذلِكَ ناصِرٌ يَنْصُرُهُمْ فَيَمْنَعُ عَنْهُمُ العَذابَ يَوْمَ القِيامَةِ ، وَهَكَذا يُخْبِرُهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّ هَذِهِ الأُمورَ كُلَّها لا تُنْجي الإِنْسانَ ، فَفِي الآخِرَةِ تَكونُ الأُمورُ الآتِيَةُ :

١ـ لا تُؤْخَذُ نَفْسٌ بِذَنْبِ نَفْسٍ أُخْرى .

٢ـ لا يُقْبَلُ مِنْ أَحدٍ فِدْيَةٌ يَوْمَ القِيامَةِ .

٣ـ لَنْ يَكونَ هُناكَ شَفيعٌ فَيَشْفَعُ إلاّ بِإِذْنِ اللهِ تَعالى .

٤ـ لَنْ يَكونَ هُناكَ كَذَلِكَ ناصِرٌ يَنصُرُ مِنْ دُونِ اللهِ تَعالى .

فما الأَمْرُ الّذي تَكونُ فيهِ النَّجاةُ ؟

إِنَّ الأَمْرَ الّذي يُنَجّي الإِنْسانَ مِنْ عَذابِ يَوْمٍ عَظيمٍ ، هُوَ اتِّباعُهُ طَريقَ الحَقِّ وَالهِدايَةِ . وَفي هذهِ الآيَةِ تَرْهيبٌ لِمَنْ كانَ على صِفَةِ هَؤُلاءِ ، وَلِغَيْرِهِمْ كَذلِكَ ، لِيَحْرِصوا على أَنْ لا يَكونوا مِنْهُمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ تِلاوَةُ القُرآنِ الكَريمِ بِتَدَبُّرٍ وَتَفَهُّمٍ ، وَالعَمَلُ بما جاءَ فيهِ .

٢ـ الجاهِلُ بِمعاني القُرآنِ الكَريمِ لا يُعْذَرُ أَمامَ اللهِ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْأَلَ أَهْلَ الذِّكْرِ والعِلْمِ لِيُبَيِّنوا لَهُ آياتِ القُرآنِ .

٣ـ لا يَقومُ مَقامَ الاهْتِداءِ واتِّباعِ طَريقِ الحَقِّ شَيءٌ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيامَةِ ، لا فِدْيَةٌ ولا شَفاعَةُ شافِعٍ ، ولا نَصْرُ ناصِرٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَنِ المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ ؟

٢ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تعالى : ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾ .

٣ـ يَقولُ سُبْحانَهُ عَنِ الَّذينَ آتاهُمْ الكِتابَ : ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ، ما الشَّيءُ الّذي يُؤْمِنونَ بِهِ ؟

٤ـ ما نَتيجَةُ الكُفْرِ بِكتابِ اللهِ تَعالى ؟

٥ـ يَقولُ سُبْحانَهُ عَنِ الكافِرينَ : ﴿فَأُوْلائِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ ، ما الّذي خَسِرَهُ هَؤُلاءِ الَّذينَ تَحَدَّثَتْ عَنْهُمُ الآيَةُ ؟

٦ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أُموراً لا يُمْكِنُ أَنْ تُغْنِيَ عَنِ الاهْتِداءِ وَالإيمانِ ، ما هِيَ ؟

٧ـ بيِّنِ الفائِدَةَ مِنْ قِراءَةِ القُرآنِ الكَريمِ بِتَدَبُّرٍ ؟

نَشاطٌ :

١ـ وَرَدَ حَديثٌ عَنِ النَّبيِّ ﷺ يُمثِّلُ فيهِ حالَ القارِئينَ لِلقُرآنِ بِطَعْمِ بَعْضِ الثِّمارِ وَرائِحَتِها ، اكْتُبِ الحَديثَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ جاءَ في الآياتِ (٤٧ و٤٨) مِنْ سورَةِ البَقَرةِ ما يُشْبِهُ ما وَرَدَ هُنا ، هَلْ في ذلِكَ تِكْرارٌ ، ارْجِعْ إِلى تَفْسيرِ المَنارِ (جـ١/ ص ٤٥٠) لِتَجِدَ الإِجابَةَ عَنْ هَذا السُّؤَالِ ، واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الثَّامِنُ والثَّلاثونَ

سورةُ البَقرَةِ ـ القِسْمُ السّادِسُ والثّلاثون

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

ابْتَلى : الابْتِلاءُ : الاخْتِبارُ والامْتِحانُ .

بكلماتٍ : بأوامِرِ اللهِ ونواهيهِ .

فأتَمَّهُنَّ : أدّاهُنَّ وقامَ بِهِنّ عَلى وَجْهِ الكَمالِ .

إماماً : رَسولاً يَقْتَدي بِكَ النّاسُ .

البَيْتَ : بَيْتَ اللهِ الحرامِ في مَكَّةَ المُكَرّمةِ .

مَثابةً : مَكاناً يَرْجِعُ إليهِ النّاسُ ويأْمَنونَ فيهِ .

أَمْناً : مَوْضِعَ أَمانٍ .

عَهِدْنا : وصَّيْنا .

العاكِفينَ : المُقيمينَ فيهِ .

التَّفسيرُ :

أَقامَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ الحُجَّةَ عَلى أَهْلِ الكِتابِ لِعَدَمِ إيمانِهِمْ بِالنَّبِيِّ الّذي بَشَّرَتْ بِهِ رُسُلُهُمْ ، وَلِتَلاعُبِهِمْ بِأُمورِ دينِهِمْ ، وَجاءَتْ هذِهِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ أَنّ هَذا الإِسْلامَ الّذي يُنْكِرُهُ أَهْلُ الكِتابِ لَهُ أَصْلُ

يُجلُّهُ أهْلُ الكِتابِ وَيَحْتَرمونَهُ ، وَكَذَلِكَ العَرَبُ جَميعاً ، ألا وَهُوَ مِلَّةُ إبراهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَاللهُ سُبْحانَهُ يَذْكُرُ هُنا أَهْلَ الكِتابِ الَّذينَ يَدَّعونَ أَفْضَلِيَّتَهُمْ عَلى غَيْرِهِمْ مِنَ الشُّعوبِ ، وَيَدَّعونَ أَنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ المخْتارُ ؛ يُذَكِّرُهُمْ بِأَنَّهُمْ وَالعَرَبَ جَميعاً يَلْتَقونَ عِنْدَ نَسَبٍ واحِدٍ ، يوصِلُهُمْ بِسَيِّدِنا إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ .

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ ﴾ وَالخِطابُ في هَذِهِ الآياتِ لِلمُشْركينَ ، فَقَدْ أَقامَ اللهُ تَعالى الحُجَّةَ مِنْ قَبْلُ عَلى أَهْلِ الكِتابِ ، وهُنا يُقيمُ الحُجَّةَ عَلى المُشْركينَ الَّذينَ يَنْتَسِبونَ إلى إسْماعيلَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ويَفْتَخِرونَ ببنائِهِ الكَعْبَةَ ، وَلِذا لابُدَّ وأَنْ يَكونَ العَرَبُ كَما كانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ . يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى : اذْكُرْ يا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ وَلأَهْلِ الكِتابِ وَقْتَ أَنْ ابْتَلى اللهُ تَعالى إبْراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ ، أَيْ امْتَحَنَهُ واخْتَبَرَهُ بِما كَلَّفَهُ بِهِ مِنَ الأَوامِرِ والنَّواهي فَأَدّاها عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَأَتى بِها عَلى وَجْهِ الكَمالِ ، كَما قالَ تَعالى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٧] .

وَقَدْ جاءَتِ الفاءُ في قَوْلِهِ : ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ وَهِيَ تُفيدُ التَّعْقيبَ ، لِتُبَيِّنَ أَنَّ سَيِّدَنا إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ امْتَثَلَ عَلى الفَوْرِ ، وَهذا دَليلٌ على شِدَّةِ عَزْمِهِ وَقُوَّةِ يَقينِهِ .

﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ وَالجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ ، جاءَتْ لِتُبَيِّنَ ما مَنَّ اللهُ بِهِ على إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ نِعَمٍ وَرِفْعَةٍ في الشَّأْنِ ، وَالمَعْنى : إنِّي جاعِلُكَ يا إبْراهيمُ رَسولاً يُؤْتَمُّ بِكَ ، وَيُقْتَدى بِهَدْيِكَ إلى يَوْمِ القِيامَةِ ، فَدَعا عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ النّاسَ إلى تَوحيدِ اللهِ تَعالى وَالبَراءَةِ مِنَ الشِّرْكِ ، وَهَذِهِ هِيَ الحَنيفِيَّةُ السَّمْحَةُ .

وَهَذِهِ الجُمْلَةُ جاءَتْ جَواباً عِنْ سُؤَالٍ يُمْكِنُ أَنْ يَخْطُرَ في نَفْسِ السَّامِعِ ، فَجاءَ الجَوابُ ، قالَ : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ واجْعَلْ يا رَبُّ مِنْ ذُرِّيَّتي أَئِمَّةً يُقْتَدى بِهِمْ . وَهَذا مِمّا فُطِرَ عَلَيْهِ الإنْسانُ أَنْ يَتَمَنّى الخَيْرَ لِذُرِّيَّتِهِ فَهُوَ يَرْجو أَنْ يَكونَ ابْنُهُ أَفْضَلَ مِنْهُ ، وَقالَ : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ (الّتي) تُفيدُ التَّبْعِيضَ ، لأَنَّهُ يَعْلَمُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، أَنَّهُ لَنْ تَكونَ الذُّرِّيَّةُ كُلُّها على طَريقِ الحَقِّ ، فَسَيَكونُ هُناكَ ضَالّونَ كافِرونَ .

وَلكِنْ بِماذا أَجابَ اللهُ سَيِّدَنا إبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ؟ هَذا سُؤَالٌ أَيْضاً يَخْطُرُ في بالِ السَّامِعِ ؛ لِتَأْتِيَ الإجابَةُ عَنْ سُؤَالِهِ ، فَيَقولُ لَهُ سُبْحانَهُ : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قالَ سُبْحانَهُ : إنِّي قَدْ عاهَدْتُكَ وَأَجَبْتُكَ على طَلَبَكَ يا إبْراهيمُ ، وَسَأَجْعَلُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ أَئِمَّةً لِلنّاسِ ، وَلكِنَّ عَهْدِيَ هَذا بالإمامَةِ لا يَنالُهُ الظَّالِمونَ ، إذِ الظَّالِمُ لا يَصْلُحُ أَنْ يَكونَ إماماً يَقْتَدي بِهِ النّاسُ ، فَالإمامَةُ الصّالِحَةُ لا تَكونُ إلاّ لِذَوي النُّفُوسِ الفاضِلَةِ الّتي تَأْمُرُ أَصْحابَها بِالأَعْمالِ الصَّالِحَةِ ، وَتَرُدُّهُمْ عَنِ الشُّرورِ وَالآثامِ ،

وَمِنْ أَهَمْ أَعْمالِ الإمام رَفْعُ الظُّلْمِ وَالفَسادِ حَتّى يَسودَ الأَمْنُ والطُمَأْنينَةُ بَيْنَ النّاسِ ، وَالظّالِمُ لا يُمْكِنُهُ فِعْلُ هَذا ، لأَنَّ فاقِدَ الشَّيءِ لا يُعْطيهِ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتُحَدِّثَنا عَمّا مَنَّ اللهُ بِهِ على العَرَبِ مِنْ جعْلِ البَيْتِ الحَرام مَرْجعاً لِلنّاسِ يَقْصِدونَهُ ، وَجَعْلِهِ مَكاناً آمِناً يَطْمَئِنُّ إِليْهِ النّاسُ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ أَيْ : اذْكُروا حينَ جَعَلْنا البَيْتَ الحَرامَ لِلنّاس يَثوبونَ إِليهِ لِلعِبادَةِ ، وَيَقْصُدونَهُ لأداءِ المناسِكِ ، وَجَعْلناهُ آمِناً يَطْمَئِنُّ أَهْلُهُ بِهِ ، وَلا يَخافونَ مِنْ مَكْروهٍ يُصيبُهُمْ في البَيْتِ الحَرام ، فَإِنَّ النَّاسَ يُعَظِّمونَ هَذا المَكانَ فلا يَسفِكونَ الدِّماءَ فيهِ .

وَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ حَيْثُ جاءَ الفِعْلُ بصيغَةِ الأَمْرِ : (واتَّخِذوا) ، وَذَلِكَ كَيْ يَفْهَمَ كُلُّ سامِعٍ وكُلُّ تالٍ لِلآيَةِ الكَريمَةِ أَنَّ الأَمْرَ مُوَجَّهٌ إِلَيْهِ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ ، وَلَيْسَ مُوَجَّهاً فَقَط إلى سَلَفِهِمْ في عَهْدِ إِبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ ، وَالمَقامُ : هُوَ الحَجَرُ الَّذي كانَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ يَقِفُ عَلَيْهِ عِنْدَ بناءِ الكَعْبَةِ لَمّا ارْتَفَعَ الجدارُ ، وَمَعْنى اتِّخاذِهِ مُصَلَّىً : القَصْدُ إلى الصَّلاةِ عِنْدَهُ . عَنْ جابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ طَافَ بِالبَيْتِ سَبْعاً وصَلّى خَلْفَ المَقامِ رَكْعَتَيْنِ[1] .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ أَيْ وَصَّيْنا إِبْراهيمَ وإِسْماعيلَ عَلَيْهِما السَّلامُ أَنْ يُطَهِّرا البَيْتَ الحَرامَ ، ومَعْنى تَطْهيرِهِ : صِيانَتُهُ مِنْ كُلِّ مالا يَليقُ بِبُيوتِ اللهِ تَعالى مِنَ الرِجْسِ المَعْنَويِّ كَالشِرْكِ باللهِ وَعِبادَةِ الأَصنامِ ، والرِّجْسِ الحِسِّيِّ مِثْلَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ والتَّنازُعِ حينَ يُؤَدِّي النَّاسُ العِباداتِ في البَيْتِ الحَرامِ .

وَالطَّائِفونَ : هُمْ المُتَقَرِّبونَ إِلى اللهِ تَعالى بِالطَّوافِ حَوْلَ الكَعْبَةِ ، والعاكِفونَ : المُقيمونَ في الحَرَمِ بِقَصْدِ العِبادَةِ ، والرُّكَّعِ السُّجودِ : هُمْ المُصَلُّونَ الَّذينَ يَرْكَعونَ للهِ ويَسْجُدونَ لَهُ .

وَقَدْ ذَكَرَتْ هذهِ الآيَةُ جَميعَ أَصْنافِ العابِدينَ في البَيْتِ الحَرام :

١ـ الطَّائِفونَ : الَّذينَ يَأتونَ لِحَجٍّ أَوْ لِعُمْرَةٍ ثُمَّ يَنْصَرِفونَ إلى بُلْدانِهِمْ .

٢ـ العاكِفونَ : الَّذينَ يُقيمونَ في الحَرَمِ بِقَصْدِ الإكْثارِ مِنَ العِبادَةِ في المَسْجِدِ .

٣ـ المُصَلُّونَ : الَّذينَ يَتَقَرَّبونَ إِلى اللهِ بِالصّلواتِ سَواءٌ أَكانَتْ فَرْضاً أَمْ نوافِلَ .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم/ كتاب الحج .

دروس وعبر :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإمامَةُ لا يَنالُها مَنْ دَنَّسَ نَفْسَهُ ودَسَّاها بِالظُلْمِ وَقَبيحِ الصِّفاتِ ، إِنَّما يَنالُها مَنْ كَمُلَتْ أَخْلاقُهُ وَصَفَتْ نَفْسُهُ .

٢ـ مِنْ كَمالِ الإِيمانِ الإلتِزامُ بأوامِرِ اللهِ تَعالى ونَواهيهِ عَلى أَكْمَلِ وَجْهٍ وَأَتَمِّهِ .

٣ـ جَعَلَ اللهُ البَيْتَ الحَرامَ آمِناً يَأمَنُ فِيهِ النَّاسُ عَلى نُفوسِهِمْ وَأمْوالِهِمْ وَأَعْراضِهِمْ ، وهذِهِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى .

٤ـ البَيْتُ الحَرامُ مَكانٌ لِعبادةِ اللهِ تَعالى ، يَنْشَغِلُ فيهِ النَّاسُ بِالطَّوافِ حَوْلَ الكَعْبَةِ والسَّعْي بَيْنَ الصَفا والمَروةِ ، والصَّلاةِ والدُّعاءِ .

٥ـ مِنَ السُّنَّةِ صَلاةُ رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الطَّوافِ عِنْدَ مَقامِ سَيِّدنا إِبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعانِيَ المُفْرَداتِ التّالِيةِ :

الِابتِلاءُ ، فَأَتَمَّهُنَّ ، إماماً ، مَثابَةً ، العاكِفينَ .

٢ـ ما الكَلِماتُ الَّتي ابتَلى بِها اللهُ إِبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٣ـ بَيِّنْ مَعْنى : الحَنيفِيَّةِ السَّمْحَةِ .

٤ـ ما مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ ؟ وَبِماذا أَجابَ اللهُ تَعالى ؟

٥ـ ما سِرُّ التَّعبيرِ بِـ(مِنْ) في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ ؟

٦ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ : ﴿وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ مُبَيِّناً لِمَ جاءَ الفِعْلُ(اتَّخِذوا) بِصيغَةِ الأَمْرِ .

٧ـ كَيْفَ يَكونُ تَطهيرُ البَيْتِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ ؟

٨ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أَصْنافَ العابِدينَ في البَيْتِ الحَرامِ ، فَمَنْ هُمْ ؟



ـ مَنِ الأَنْبياءُ الَّذينَ نَالوا النُّبوَّةَ وَالإِمامَةَ مِنْ ذُرِّيَّةِ سَيِّدنا إِبْراهيمَ ﷺ ؟ اكْتُبْ أَسْماءَ ثَلاثَةٍ مِنْهُمْ .

الدَّرسُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ السّابعُ والثّلاثونَ

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَضْطَرُّهُ	: أَدْفَعُهُ وأَسوقُهُ .
القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ	: أساسَ الكَعْبَةِ المُشرَّفَةِ .
مُسْلِمَيْنِ لَكَ	: مُنْقادَيْنِ خاضِعَيْنِ مُخْلِصَيْنِ لَكَ .
أَرِنا مَناسِكَنا	: عَرِّفْنا شَرائِعَ عِبادَتِنا مِنْ حَجٍّ وَغَيْرِهِ .
يُزَكِّيهِمْ	: يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الشِّرْكِ والمعاصي وسيِّءِ الأَخْلاقِ .
العَزيزُ	: القَوِيُّ الغالِبُ .
الحَكيمُ	: الّذي لا يَفْعَلُ إلاّ ما تَقْتَضيهِ المَصْلَحَةُ .

التَّفسيرُ :

ذَكَّرَ سُبْحانَهُ وتَعالى العَرَبَ بِنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ ، وذَلِكَ بِجَعْلِ البَيْتِ الحَرامِ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً ، ويُذَكِّرُهُمْ هُنا سُبْحانَهُ بِدُعاءِ سَيِّدِنا إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِأَنْ يَجْعَلَ اللهُ هذا البَلَدَ آمِناً ، وَكَيْفَ

أَنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى اسْتَجابَ لَهُ . يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ .

﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ اذْكُرْ يا مُحَمَّدُ ﷺ أو يا مَنْ تَتْلو كِتابَ اللهِ تَعالى ، وَقْتَ أَنْ تَوَجَّهَ إِبْراهيمُ ﷺ إِلى رَبِّهِ بِالدُعاءِ وَالتَّضَرُّعِ بِأَنْ يَجْعَلَ اللهُ تَعالى البَيْتَ الحَرامَ آمِناً ، يَأْنَسُ إِلَيْهِ النّاسُ وَيَأْمَنونَ فيهِ مِنَ الخَوْفِ ؛ آمِناً مِنْ أَنْ يَدْخُلَهُ الجَبابِرَةُ فَيَعيثوا فيهِ فَساداً ، وَآمِناً كَذلِكَ مِنْ أَنْ تَحِلَّ فيهِ عُقوبَةٌ إِلهيَّةٌ كَما يَحْدُثُ في غَيْرِهِ مِنَ البُلْدانِ وذَلِكَ كَالزَّلازِلِ ، وَالخَسْفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَقَدِ اسْتَجابَ اللهُ تَعالى لِسَيِّدِنا إِبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ما طَلَبَهُ مِنْهُ ، وَدَعا كَذلِكَ عَلَيْهِ السَّلامُ رَبَّهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أَسْأَلُكَ يا رَبُّ أَنْ تَرْزُقَ أَهْلَ هَذا البَلَدِ الَّذينَ يُؤْمِنونَ بِكَ ، وَيُؤْمِنونَ بِاليَوْمِ الآخِرِ ، مِنَ الثَّمَراتِ ما يَسُدُّ حاجاتِهِمْ وَيُغْنيهِمْ عَنِ الاحْتِياجِ لِغَيْرِكَ . وَقَدْ خَصَّ عَلَيْهِ السَّلامُ المُؤْمِنينَ ، تَرْغيباً لأَهْلِ مَكَّةَ بِالحِرْصِ عَلى الإِيمانِ ، لأَنَّهُمْ إِذا عَلِموا أَنَّ دَعْوَةَ إِبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ خاصَّةٌ بِالمُؤْمِنينَ ، تَجَنَّبوا الكُفْرَ وابْتَعَدوا عَنْهُ ، أَوْ قَدْ يَكونُ كَذَلِكَ تَأَدُّباً مَعَ اللهِ تَعالى ؛ إِذْ إِنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ لِلمُؤْمِنينَ فَقَط ، وذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعالى قالَ لَهُ مِنْ قَبْلُ : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وَقَدْ خَصَّ هُنا سُبْحانَهُ الإِيمانَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ، وذَلِكَ أَنَّها أَصْلُ المَعْرِفَةِ ، فَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، فَقَدْ آمَنَ بِكُلِّ ما سِواهُما مِنَ الأَرْكانِ .

ثُمَّ بَيَّنَتِ الآياتُ مَصيرَ الكافِرينَ :

﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ﴾ وَفي الآيَةِ حَذْفٌ مَفْهومٌ مِنَ السِّياقِ ، وَهَذا مِنْ بَلاغَةِ القُرآنِ في الإِيجازِ ؛ إِذِ الجُمْلَةُ (وَمَنْ كَفَرَ) مَعْطوفَةٌ عَلى المَحْذوفِ ، أَيْ قالَ اللهُ تَعالى : يا إِبْراهيمُ قَدْ أَجَبْتُ دَعوَتَكَ وَرَزَقْتُ المُؤْمِنينَ مِنْ هذا البَلَدِ وَرَزَقْتُ الكافِرينَ أَيْضاً ، وَلٰكِنِّي أُمَتِّعُ الكافِرينَ بِهذا الرِّزْقِ زَمَناً قَليلاً مَحْدوداً وَقَصيراً ، وَهُوَ زَمَنُ وُجودِهِمْ في الدُّنْيا ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمَ القِيامَةِ أَسوقُهُمْ سَوْقاً اضْطِرارِيّاً لا خِيارَ لَهُمْ فيهِ إِلى عَذابِ النّارِ ، وبِئْسَ المَصيرُ النّارُ لِهؤُلاءِ . وَإِذا كانَ اللهُ تَعالى يَرْزُقُ المُؤْمِنينَ لِكَوْنِهِمْ أَهْلاً لأَنْ يُنْعِمَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ خَيْرٍ ، فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يُمَتِّعُ الكافِرينَ بِالرِّزْقِ لِيَسْتَدْرِجَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَهَذا دَليلٌ عَلى أَنَّ عَمَلَ الإِنْسانِ اخْتِيارِيٌّ ، وَبِالتّالي فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يُعَذِّبُ الكافِرينَ عَلى هَذا الطَّريقِ الَّذي ساروا فيهِ مِنَ الكُفْرِ والجُحودِ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُحدِّثَنا عَنْ دَعْوَةٍ ثالِثَةٍ دَعاها إِبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

أَيْ : واذْكُرْ يا مُحَمَّدُ ﷺ أَوْ يا مَنْ تَتْلو كِتابَ اللهِ ، وَقْتَ أَنْ بَدَأَ إِبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِمُعاوَنَةِ ابْنِهِ إِسْماعيلَ ﷺ بِوَضْعِ أَساساتِ الكَعْبَةِ ، وَهُما يَتَضَرَّعانِ إِلى اللهِ تَعالى ، وَيَقولونَ يا رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنّا أَقْوالَنا وَأَعْمالَنا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّميعُ لأَقوالِنا ، العَليمُ بِأَعْمالِنا وَبنيّاتِنا فِيها .

وَفي هذهِ الآيَةِ دَليلٌ عَلى أَنَّهُما عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، هُما أَوَّلُ مَنْ بَنَيا الكَعْبَةَ المُشَرَّفَةَ ، وَوَضَعا الأُسُسَ لَها ، فَما يُروى مِنْ أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ حَجَّ إِلى البَيْتِ ، وَمِنْ أَنَّهُ في زَمَنِ سَيِّدِنا نوحٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قَدِ ارْتَفَعَ وَقْتَ الطّوفانِ إِلى السَّماءِ ثُمَّ عادَ وَرَجَعَ إِلى الأَرْضِ ، فَهَذِهِ كُلُّها رِواياتٌ لا أَساسَ لَها مِنَ الصِّحَةِ ، فَالكَعْبَةُ المُشَرَّفَةُ لَمْ تُبْنَ إِلاّ عَلى يَدِ إِبْراهيمَ وإِسْماعيلَ عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ .

وَيَسْتَمِرّانِ عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ بِالدُّعاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلى اللهِ تَعالى قائِلينَ :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ ﴾ والإِسْلامُ : الإِخْلاصُ للهِ تَعالى في الاعْتِقادِ والعَمَلِ ، وَالإِخْلاصُ للهِ ، أَنْ لا يَتَوَجَّهُ المُسْلِمُ بِقَلْبِهِ إِلاّ إِلى اللهِ تَعالى ، وَلا يَسْتَعينُ بِأَحَدٍ إِلاّ بِاللهِ .

والإِخْلاصُ في العَمَلِ : أَنْ يَقْصُدَ بِعَمَلِهِ مَرْضاةَ اللهِ تَعالى ، لا اتِّباعَ الهَوى وإِرْضاءَ الشَّهْوةِ .

سَأَلَ كُلُّ واحِدٍ مِنَ النَّبِيِّينَ العَظيمينِ لِنَفْسِهِ أَنْ يَكونَ مُخْلِصاً للهِ تَعالى مُنْقاداً ، وخاضِعاً لَهُ ، في اعْتِقادِهِ وَعَمله ، وسَأَلا هذا الأَمْرَ كذلكَ لِذُرِّيَّتِهِما ، أَي : واجْعَل مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً كإِسْلامِنا لِيَسْتَمِرَّ الإِسْلامُ والانْقيادُ والخَضوعُ للهِ بِقوَّةِ الأُمَّةِ وتَعاوُنِ الجَماعَةِ ، وقَدْ أَجابَ اللهُ هذا الدُّعاءَ ، فَجَعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما سَيِّدَنا مُحَمَّداً ﷺ وأَتْباعَهُ ، ودَعَوا اللهَ تَعالى أَنْ يُرِيَهُما مَناسِكَهُما ، أَيْ : أَنْ يُعلِّمَهُما مَواضِعَ النُّسُكِ ، الّذي هُوَ في غايَةِ العُبوديَّةِ والطاعَةِ للهِ ، واسْتُعْمِلَتِ المناسِكُ وشاعَ اسْتِعمالُها في أَعْمالِ الحَجِّ كَالطَّوافِ والسَّعْي وغَيْرِهِما .

﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ والتَّوبَةُ هِيَ النَّدَمُ عَلى الذَّنْبِ والإِقْلاعُ عَنْهُ ، والعَزْمُ عَلى عَدَمِ العَوْدَةِ إِليهِ ، وَردِّ المَظالِمِ إِلى أَهْلِها .

ومَعْنى : تُبْ علينا : أَيْ : وَفِّقنا للتَّوبَةِ ، وتَقَبَّلْ هذهِ التَّوبةَ مِنّا ، فَإِنَّكَ يا رَبُّ كَثيرُ القَبولِ لِتَوبةِ المُنيبينَ إِليكَ ، وذَلِكَ بِتوفيقِهِمْ لِحُسْنِ العَمَلِ ، فَتَمْحوَ عَنْهُمُ الذَّنْبَ الّذي اقتَرَفوهُ ، وتَرْحَمَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بالإِحسانِ إِليهِمْ ، والإِنْعامِ عَلَيْهِمْ بِجَنَّاتِ النَّعيمِ يومَ القيامَةِ ، وبِرِعايَتِكَ ولُطْفِكَ بِهِمْ في الدُّنيا .

وخَتَمَ نبيُّ اللهِ إبراهيمُ ونبيُّهُ إسْماعيلُ عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، دُعاءَهُما بِدَعوةٍ فيها خَيْرُ النَّاسِ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، وَهيَ :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ .

ربَّنا أَرْسِلْ في هذِهِ الأُمَّةِ المُسْلِمَةِ ، ومِنْ تِلكَ الذُّريَّةِ المُؤْمِنَةِ رَسولاً مِنْ أنْفُسِهِمْ ، حتّى يَكونَ أشْفَقَ عَلَيْهِمْ، ولِيَكونوا أعِزّاءَ بِهِ ، وقَدْ أَجابَ اللهُ دَعْوَتَهُما وأَرْسَلَ خاتِمَ الأنْبياءِ سَيِّدَنا مُحمّداً ﷺ .

ويَكونُ مِنْ حالِ هذا النَّبيِّ أَنَّهُ يَتْلو عَلَيْهِمُ الآياتِ المَتْلُوَّةَ النّازِلَةَ عَنْ طَريقِ الوَحْيِ ، ويُريهِمُ الآياتِ الكَوْنِيَّةَ الّتي يَراها الإنْسانُ أَمامَهُ ، فَيَسْتَدِلُّ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ ، ويُعَلِّمُهُمُ الحِكْمَةَ ، وهِيَ العِلْمُ النافِعُ المَصْحوبُ بالعَمَلِ الصَحيحِ .

والكِتابُ والسُّنَّةُ هُما أَعْظَمُ ما أُعْطيهِما الإنْسانُ ، إذْ هُما يُنَظِّمانِ شُؤونَ الحَياةِ لِلبَشَرِيَّةِ ، ويُبَيِّنانِ ما يَصْلُحُ لها في الدُّنيا والآخِرَةِ ، فإنْ تَمَسَّكَ بِهِما الإنسانُ فَلَنْ يَضِلَّ أبَداً .

وحالُ هذا النَّبيِّ أيضاً أنَّهُ يُزَكّي النّاسَ ، أيْ : يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الشِّرْكِ والمَعاصي ، وما لا يَليقُ أَنْ يَتَّصِفَ بِهِ الإنْسانُ العاقِلُ .

ويَخْتَتِمانِ دُعاءَهُما بِوَصفِ اللهِ تَعالى بالعِزَّةِ والحِكْمَةِ : ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ، العَزيزُ القَويُّ الّذي لا يَغْلِبُهُ غالِبٌ ولا يفوتُهُ هارِبٌ ، والحَكيمُ في أفْعالِهِ في عِبادِهِ ، فلا يَفْعَلُ إلا ما تَقْتَضيهِ مَصْلَحَتُهُمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ نِعَمُ اللهِ تَعالى عَلى المُؤْمنينَ دائِمَةٌ ومُسْتَمِرَّةٌ إلى يومِ القيامةِ ، أَمّا الكافِرونَ فَيُمَتِّعُهُمْ في الدُّنيا ، ثُمَّ يَسوقُهُمْ إلى نارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ القيامَةِ .

٢ـ أَصْلُ الإيمانِ ؛ الإخلاصُ في الاعتِقادِ والعَمَلِ للهِ تَعالى .

٣ـ كَيْ يَكونَ الإنْسانُ مَوْضِعَ عِنايَةِ اللهِ ورِضاهُ ، لا بُدَّ وأَنْ يُزَكّيَ نَفْسَهُ بِمكارِمِ الأَخْلاقِ ، ويَرَقّي قَلْبَهِ بالاعتِقادِ الصّالحِ .

٤ـ المُؤْمِنُ لا يُحِبُّ الخَيْرَ لِنَفْسِهِ فَقَط ، بَلْ يُحِبُّهُ ويَرْجوهُ لِذُرِّيَّتِهِ ولِجَميعِ المُسْلِمينَ الأَحْياءِ مِنْهُم والأَمواتِ .

٥ـ التَّضَرُّعُ إلى اللهِ تَعالى والدُّعاءُ إليهِ بِالمَغْفِرَةِ مِنَ الذُّنوبِ ، إذِ الإنْسانُ كَثيرُ الخَطَأ ، وخَيْرُ الخَطّائينَ التَّوّابونَ .

٦ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى بالأُمَّةِ أنْ بَعَثَ فيها رَسولاً مِنْ أنْفُسِهِمْ لِيُعَلِّمَهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ ويُطَهِّرَ أنْفُسَهُمْ مِنَ الأدْناسِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ مَعانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

فَأُمَتِّعُهُ قَليلاً ، ثُمَّ أَضْطَرُّهُ ، يَرْفَعُ القَواعِدَ ، الحِكْمَةَ ، يُزَكيهِمْ .

٢ـ أنْعَمَ اللهُ عَلى البَيْتِ الحَرامِ بِالأمْنِ ، ما المَقْصودُ بِالأمْنِ هُنا ؟ ومِمَّ كانَ ؟

٣ـ لماذا خَصَّ سَيِّدُنا إبْراهيمُ الرِّزْقَ بالثَّمَراتِ عَلى المُؤْمنينَ فقَط ؟

٤ـ هَلْ يَرْزُقُ اللهُ المُؤْمِنينَ فقَط دونَ الكافِرينَ ؟

٥ـ لِمَ يَرْزُقُ اللهُ تَعالى الكافِرينَ ؟

٦ـ هَل الكافرُ مُجْبَرٌ في السَّيرِ في طَريقِ الضَّلالِ ؟

٧ـ مَتى كانَ أولُ بِناءٍ لِلكَعْبَةِ المُشرَّفةِ ؟

٨ـ بيِّنِ المَقْصودَ بالإخْلاصِ في الاعْتِقادِ ، والإخْلاصِ في العَمَلِ .

٩ـ ما المَقْصودُ بِالتَّوبةِ ؟ وما شُروطُها ؟

١٠ـ لِمَ سَأَلَ إبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ رَبَّهُ أنْ يَكونَ الرَّسولُ المَبْعوثُ مِنْ أنْفُسِ النّاسِ ؟

١١ـ اذْكُرْ ما طَلَبَهُ إبْراهيمُ وإسْماعيلُ عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ رَبِّهِما مَرَّتَيْنِ كَما جاءَ في الآياتِ ، مَعَ ذِكْرِ الدَّليلِ .

نَشاطٌ :

١ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ تَوجُّهِ العَبْدِ إلى رَبِّهِ بِالدُّعاءِ لِيُقْبَلَ مِنْهُ عَمَلُهُ ؟ اكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبِ الحَديثَ الشَّريفَ الدّالَّ على أنَّ مُحَمَّداً ﷺ دعوةُ أبيهِ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ .

* * *

الدرس الأربعون

سورةُ البَقرَةِ ـ القِسْمُ الثّامِنُ والثّلاثونَ

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَرْغَبُ عَنْ : يُعْرِضُ وَيَنْصَرِفُ وَيَكْرَهُ .

مِلَّةِ : المِلَّةُ : الشَّريعَةُ والطَّريقُ .

سَفِهُ نَفْسَهُ : امْتَهَنَها واسْتَخَفَّ بِها ، وَأَهْلَكَها واحْتَقَرَها ، وَالسَّفَهُ خِفَّةٌ في العَقْلِ .

اصْطَفَيناهُ : اخْتَرناهُ لِرِسالَتِنا .

أَسْلَمَ : أَخْلَصَ العِبادَةَ للهِ ، وَخَضَعَ وَتَذَلَّلَ وانْقادَ لَهُ .

اصْطَفى : اخْتارَ .

الدِّينَ : دينَ الإِسلامِ .

التَّفسيرُ :

بعدَ أنْ ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ ما كانَ مِنْ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَإِسْماعيلَ مِنْ بناءٍ لِلْكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ ، وبَيَّنَتْ حِرْصَهُما على ذُرِّيَّتِهِما ، وَتَضَرُّعَهُما للهِ تعالى بِأَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ رُسُلاً يَدْعونَهُمْ إلى ما فيهِ خَيْرُهُمْ في دُنْياهُمْ وَآخِرَتِهِمْ ، بَيَّنَتْ هَذِهِ الآياتُ أَنَّ الدِّينَ الصَّحيحَ الَّذي كانَ عَلَيْهِ إبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، هُوَ التَّوْحيدُ الخالِصُ للهِ تَعالى ، وَانْقيادُ القَلْبِ إِلَيهِ تعالى ، وَالإِخْلاصُ لَهُ بالعَمَلِ ، والَّذي يُلْزِمُ الإِنْسانَ بِتَعْظيمِ بَيْتِ اللهِ تَعالى وإِقامَةِ المَناسِكِ فيهِ .

قالَ تَعالى :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ .

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ ومَنْ : اسْمُ استِفهامٍ في مَحَلِّ مُبْتَدَأ مَرْفوع ، خَبَرُهُ قَوْلُهُ : (يَرْغَبُ) ، وَالمعْنَى : مَنْ يُعْرِضُ وَيَنْصَرِفُ عَنْ مِلَّةِ سَيِّدِنا إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، أَيْ شَريعَتِهِ وَطَريقَتِهِ الّتي هِيَ التَّوْحيدُ الخالِصُ للهِ تَعالى ، إلاّ الّذي امْتَهَنَ نَفْسَهُ واسْتَخَفَّ بِها ، وَظَلَمَها حَيْثُ تَرَكَ طَريقَ الحَقِّ واتَّبَعَ طَريقَ الضَّلالِ .

إنَّ مِلَّتَكُمْ أَيُّها النّاسُ هِيَ مِلَّةُ أَبيكُمْ إبراهيمَ الّذي تَنْتَسِبونَ إِلَيهِ ، وَتَفْتَخِرونَ بِذلِكَ النَّسَبِ ، فَكَيْفَ تَرْغَبونَ الآنَ عَنْ هذِهِ المِلَّةِ ، فَتَحُطّونَ مِنْ مُسْتَوى عُقولِكُمْ إلى مُسْتَوىً لا يَليقُ بِكُمْ ، فَتَدَّعونَ أَنَّ هُناكَ أَوْلِياءَ لَكُمْ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى ، وَهُمْ لا يَمْلِكونَ لَكُمْ ضَرّاً ولا نَفْعاً ، وَلا يَمْلِكونَ حَياةً ولا مَوْتاً ولا نُشوراً ، فَلَوْ كانَ عِنْدَكُمْ مِسْحَةُ عَقْلٍ ، لاتَّبَعْتُمْ مُحَمَّداً عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، لأَنَّهُ جاءَ بِما جاءَ بِهِ إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؛ وذَلِكَ أَنّا اخْتَرْنا إبْراهيمَ ﷺ لِلرِّسالَةِ وَهِدايَةِ النّاسِ وَإِرْشادِهِمْ إلى طَريقِ الحَقِّ ، وَاخْتَرْناهُ لِيَكونَ إماماً لِلنّاسِ ، وَجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِ الكِتابَ وَالنُّبُوَّةَ في هذِهِ الدُّنيا ، أَمّا في الآخِرَةِ : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ، فَهُوَ في الآخِرَةِ مِمَّنْ شُهِدَ لَهُمْ بِالخَيْرِ والصَّلاحِ ، وَفي هذا بِشارَةٌ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَلِكُلِّ مَنْ سارَ عَلى مِلَّةِ سَيِّدنا إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

وَتُبَيِّنُ الآياتُ سَبَبَ كَوْنِ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ الصّالِحينَ . فَالآيَةُ هُنا جاءَتْ إجابَةً عَنْ سُؤالٍ مُقَدَّرٍ في ذِهْنِ القارِئِ ، وَهُوَ : لِمَ جَعَلَ اللهُ تَعالى إبْراهيمَ مِنَ المُصْطَفَيْنَ في الدُّنيا وَالصّالِحينَ في الآخِرَةِ ؟ فَقالَ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

أَيْ : اصْطَفى اللهُ تَعالى إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَمَرَهُ بِطاعَتِه وَإسلامِ وَجْههِ إِلَيْهِ في كُلِّ حالٍ ، وَالانقيادِ وَالتَّذَلُّلِ وَالخُضوعِ لَهُ سُبْحانَهُ ، مَعْ أَنَّ أَباهُ وَقَوْمَهُ ـ كَما يُحَدِّثُنا القُرآنُ ـ كانوا يَعْبُدونَ أَصْناماً ، وَيَعْكُفونَ عَلى عِبادَةِ هذِهِ الأَصْنامِ ، وَيُقَدِّمونَ لَها القَرابينَ وَالهَدايا ، إلاّ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمْ يَنْشَأْ عَلى ما كانَ عَلَيْهِ أَبوهُ وَقَوْمُهُ ، بَلْ عَرَفَ بِطَريقِ الدَّلائِلِ وَالآياتِ الكَوْنِيَّةِ أَنَّ هُناكَ خالِقاً حَكيماً لِلكَوْنِ ، فَأَسْلَمَ لَهُ وَجْهَهُ وانقادَ لَهُ ، وَلِذا قالَ : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، أَيْ أَخْلَصْتُ ديني للهِ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨ـ٨٢] .

وَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّ سَيِّدَنا إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قَدْ كَمُلَتْ نَفْسُهُ ، ونَزَّهَها عَنْ

كُلِّ سوءٍ وَشِرْكٍ ، بَيَّنَتِ الآياتُ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلامُ لَمْ يَكْتَفِ بِهذا ، بَلْ أَرادَ أَنْ يَعُمَّ هذا الخَيْرُ غَيْرَهُ مِنْ أَبْنائِهِ ، فَأَمَرَهُمْ بِالحَقِّ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ .

وَالضَّميرُ في : (بِها) يَعودُ إِلى تِلْكَ المِلَّةِ الحَنيفيَّةِ الَّتي كانَ عَلَيْها إِبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، أَيْ : وَصّى إِبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ بِالمِلَّةِ وَالخِصالِ الحَسَنَةِ بَنيهِ إِسماعيلَ وَإِسْحقَ عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَحَفيدَهُ يَعْقوبَ وَهُوَ ابْنُ إِسحقَ عَلَيْهِما صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ ، إِذْ قالَ لَهُمْ : إِنَّ اللهَ اصْطَفى لَكُمْ هذا الدِّينَ ، أَيْ اخْتارَهُ لَكُمْ بِأَنْ هَداكُمْ إِلَيْهِ ، وَجَعَلَ الوَحْيَ وَالنُّبُوَّةَ فيكُمْ . ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ، فَاثْبُتوا عَلى هذا الدِّينِ وَحافِظوا عَلَيْهِ ، واسْتَقيموا عَلى أَمْرِهِ ، وَلا تُفارِقوهُ وَلَوْ لِبُرْهَةٍ قَصيرَةٍ حَتَّى يَأْتِيَكُمُ المَوْتُ ، فَلَرُبَّما تَأْتيكُمْ مَنِيَّتُكُمْ وَأَنْتُمْ مُفارِقونَ لِهذا الدِّينِ ، فَالإِنسانُ لا يَضْمَنُ حَياتَهُ ، وَلا يَعْلَمُ مَتى يَحينُ أَجَلُهُ ، فَلابُدَّ وأَنْ يَكونَ مُسْتَعِدّاً دائِماً لِمُلاقاةِ رَبِّهِ عَلى هذِهِ المِلَّةِ الصَّحيحَةِ ، فَإِذا أَصْبَحَ لا يَنْتَظِرُ المَساءَ ، وَإِذا أَمْسى فَلا يَنْتَظِرُ الصَّباحَ .

وَهذِهِ الآياتُ فيها دَلالَةٌ وَإِرشادٌ إِلى أَنَّ مَنْ كانَ مُنْحَرِفاً عَنِ الإِسْلامِ ، عَلَيْهِ أَنْ لا يَيْأَسَ وَعَلَيْهِ المُبادَرَةُ وَالإِسراعُ في الرُّجوعِ إِلى اللهِ ، وَالتَّمَسُّكِ بِالدِّينِ الحَقِّ ، وَالاعْتِصامِ بِحَبْلِ اللهِ المَتينِ ، فَبابُ التَّوْبَةِ مَفتوحٌ أَمامَ كُلِّ إِنسانٍ ، مَهْما اقْتَرَفَ مِنْ ذُنوبٍ وَآثامٍ ، ما دامَ أَخْلَصَ للهِ ، وَنَدِمَ عَلى ما كانَ مِنْهُ ، وَعَزَمَ أَنْ لا يَعودَ إِلَيْهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإِسلامُ هُوَ الانْقِيادُ وَالخُضوعُ للهِ ، وإِخلاصُ الاعْتِقادِ وَالعَمَلِ لَهُ .

٢ـ ما جاءَ بِهِ مَحَمَّدٌ ﷺ هُوَ ما جاءَ بِهِ إِبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ تَوحيدٍ خالِصٍ للهِ تَعالى .

٣ـ اتِّباعُ مِلَّةِ إِبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سَبَبٌ في صَلاحِ الإِنسانِ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ .

٤ـ مِنْ كَمالِ الإِيمانِ أَنْ يُحِبَّ الإِنْسانُ الخَيْرَ والصَّلاحَ والهِدايَةَ لِغَيْرِهِ كَما يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ .

٥ـ الثَّباتُ عَلى طَريقِ الحَقِّ وَالدِّينِ وَالحِفاظُ عَلَيْهِ ، وَالاسْتِعدادُ لِيَومِ القِيامَةِ ، حَتّى لا تَأْتِيَ الإِنسانَ المَنِيَّةُ وَهُوَ تارِكٌ لِلحَقِّ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّالِيةِ :

يَرْغَبُ عَنْ ، مِلَّةِ إبراهيمَ ، سَفِهَ نَفْسَهُ ، اصْطَفَيناهُ .

٢ـ ما إعْرابُ : مَنْ يَرْغَبُ ؟

٣ـ اسْتَنْتِجْ ما تَدُلُّ عَلَيْهِ الآيَةُ : ﴿وَمَن يَرغَبُ عَن مِلَّةِ إبرَاهيم إلاَّ مَن سَفِهَ نَفسَهُ﴾ .

٤ـ ما المَكانَةُ الّتي أُعْطيها سَيِّدُنا إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ ؟

٥ـ لِماذا جَعَلَ اللهُ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ الصَّالِحينَ في الآخِرَةِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبِ الآيَةَ الكَريمَةَ الّتي تَدُلُّ على أَنَّ إبراهيمَ كانَ مُسْلِماً حَنيفاً .

٢ـ اكْتُبْ حَديثاً شَريفاً يَدُلُّ عَلى أَنَّ التَّوْبَةَ تَمْحو الذُّنوبَ .

٣ـ اكْتُبْ قِصَّةً مِمّا قَصَّهُ عَلَينا الرَّسولُ ﷺ تَدُلُّ عَلى أَنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ التّائِبِ مَهما عَظُمَ ذَنْبُهُ ، وَضَعْها على مَجَلَّةِ الحائِطِ في مَدْرَسَتِكَ .

* * *

الدرسُ الحادي والأربعون

سورةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ التّاسِعُ والثَّلاثونَ

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

شُهَداءَ : حاضِرينَ .

أُمَّةٌ : جَماعَةٌ .

خَلَتْ : مَضَتْ وَذَهَبَتْ .

لَها ما كَسَبَتْ : جَزاءَ مَا عَمِلَتْ .

التَّفسيرُ :

ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَصَّى أَبْناءَهُ بِأَنْ يَتَّبِعوا المِلَّةَ الحَنيفيَّةَ السَّمْحَةَ ، وَهؤلاءِ أَوْصَوْا أَبْناءَهُمْ بِما أَوْصاهُمْ بِهِ أَبوهُمْ ، وَلِذا جاءَتِ الآياتُ هُنا تُؤَكِّدُ هذهِ الوَصِيَّةَ ، وتُقيمُ الحُجّةَ على أَهْلِ الكِتابِ الّذينَ بَدَّلوا وَحَرَّفوا في دينِهِمْ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ .

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾ ، أَمْ : بِمَعْنى بَلْ ، وَالاسْتِفهامُ وَبَلْ هِيَ لِلإِضْرابِ الانْتِقاليِّ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَضْرِبُ صَفْحاً عَمّا يَدَّعيهِ اليَهودُ أَوِ النَّصارى مِنْ أَنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ

والسَّلامُ كانَ يَهودِيّاً أَوْ نَصْرانِيّاً ، وَيَنْتَقِلُ إِلى بَيانِ ما وَصّى بِهِ سَيِّدُنا يَعقوبُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَبْناءَهُ ، والاسْتِفهامُ اسْتِنْكارِيٌّ تَوْبيخِيٌّ ، وَالمَعْنى : لَمْ تَكونوا شُهَداءَ وَحاضِرينَ إِذْ حَضَرَ يَعقوبَ المَوْتُ ، وَقالَ لِبَنيهِ ما قالَ ، فَلِمَ تَدَّعونَ أَنَّ إِبراهيمَ ويَعقوبَ عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ كانا يَهودِيَّيْنِ .

إِذَنْ هذِهِ الآيَةُ جاءَتْ لِتُبَيِّنَ أَنَّ يَعقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ عَلى مِلَّةِ إِبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَلَيْسَ يَهودِيّاً ، كَما يُريدُ اليَهودُ وَالنَّصارى ، فَيقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ : أَكُنْتُمْ يا مَعْشَرَ اليَهودِ وَالنَّصارى المُكَذِّبينَ مُحَمَّداً الجاحِدينَ نُبُوَّتَهُ ، شُهوداً حينَ حَضَرَ يَعْقوبَ المَوْتُ ؟ أَيْ : وَقْتَ أَنْ أَشْرَفَ عَلى المَوْتِ وَحَضَرَتْهُ عَلاماتُهُ ؟ لا ، أَنْتُمْ لَمْ تَحْضُروا ذلِكَ ، فَلا تَدَّعوا عَلَيْهِ الأَباطيلَ وَتَنْسِبوهُ إِلى اليَهودِيَّةِ وَالنَّصرانِيَّةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ إِلاّ بالحَنيفيَّةِ السَّمْحَةِ الّتي وَصّاهُ بِها أَبوهُ إِبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

وَلكِنَ بِماذا وَصّى يَعقوبُ بَنيهِ ؟ تَجيءُ الآياتُ لِتُجيبَ عَنْ هذا السّؤالِ الّذي قَدْ يَرِدُ في ذِهْنِ القارِىءِ : ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾ ، سَأَلَ عَمّا يَعْبُدونَ مِنْ بَعْدِهِ سُؤالَ تَقْريرٍ ، لِيَشْهدوا عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالتَّوْحيدِ الخالِصِ ، وَلِيَأْخُذَ عَلَيْهِمُ العَهْدَ وَالميثاقَ بِالثَّباتِ عَلى هذا الطَّريقِ ، وأَنْ يَكونَ مَقْصِدُهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ تَعالى في جَميعِ أَعمالِهِمْ . وبِماذا أَجابَ الأَبْناءُ أَباهُمْ ؟ قالَ تَعالى : ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ .

قالوا لِيَعقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : إِنَّنا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ ، حَيْثُ عَرَفوا الإِلهَ بِإِضافَتِهِ إِلى يَعقوبَ وَالأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؛ وَذلِكَ لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذينَ انْفَرَدوا بِعِبادَةِ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وَدَعوا النّاسَ إِلى عِبادَتِهِ ، في الوَقْتِ الّذي انْتَشَرَتْ فيهِ عِبادَةُ آلِهَةٍ كالأَصْنامِ وَالكَواكِبِ وَغَيْرِها .

وَسَيِّدُنا إِسماعيلُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ هُوَ عَمُّ يَعقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَسُمِّيَ أَباً ، لأَنَّ « عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبيهِ » كَما أَخْبَرَ رَسولُ اللهِ ﷺ .

﴿ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أَيْ نَعْبُدُ اللهَ إِلهاً واحِداً ونَخُصُّهُ بِالعِبادَةِ ، لا نُشْرِكُ مَعَهُ أَحَداً ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ وَالحالُ أَنَّنا مُنقادونَ خاضِعونَ وَمُسْتَسْلِمونَ للهِ تَعالى ، وَحْدَهُ دونَ غَيْرِهِ . وَقَدْ قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ (لَهُ) لِيُفيدَ الاخْتِصاصَ ، أَيْ : نَخُصُّهُ سُبْحانَهُ وَحْدَهُ بِالانْقِيادِ لَهُ .

هذِهِ وَصِيَّةُ نَبِيِّ اللهِ يَعقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، يُوصي بِوَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى ، والإِخْلاصِ في العَقيدَةِ وَالعَمَلِ لله تَعالى وَحْدَهُ . وَقَدْ جاءَتْ هذهِ الآياتُ لِتُقَرِّرَ حَقيقَةَ الدِّينِ وَتُؤَكِّدَها ، فَقَدْ كانَتْ قَبائِلُ العَرَبِ تَدَّعي كُلُّ قَبيلَةٍ أَنَّ لَها ديناً خاصّاً ، وَأَنَّ دينَها هُوَ الحَقُّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كانَ يَفْتَخِرُ بِانْتِسابِهِ لِنَبِيِّ اللهِ إِبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، مَعَ أَنَّهُ كانَ يَعْبُدُ الأَوْثانَ ، وكَذلِكَ كانَ اليَهودُ وَالنَّصارى كُلٌّ مِنْهُمْ يَدَّعي لَهُ ديناً وَيَدَّعي أَنَّ دينَهُ هُوَ الحَقُّ ، فَجاءَتْ هذِهِ الآيَةُ لِتَرُدَّ على هؤُلاءِ كُلِّهِم ، وَتَدُلَّ أَنَّ

دينَ اللهِ الحَقِّ واحِدٌ ، وَهُوَ التّوْحيدُ والاسْتِسْلامُ للهِ والخُضوعُ والإذْعانُ لَهُ ، وبِهذا كانَ يُوصي الأَنْبياءُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَبْناءَهُمْ وَأَقوامَهُمْ .

وَيَقولُ سُبْحانَهُ حِكايَةً عَنْ هذِهِ الزُّمْرَةِ الكَريمَةِ العَظيمَةِ مِنَ الأَنْبياءِ :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ .

تِلْكَ : اسْمُ إِشارَةٍ لِلبَعيدِ ، جاءَ هُنا لِلدَّلالَةِ عَلى عَظَمَةِ هذِهِ الزُّمْرَةِ . يَقولُ سُبْحانَهُ : تِلْكَ الجَماعَةُ مِنَ النّاسِ : سَيِّدُنا يَعقوبُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَآباؤُهُ وَأَبناؤُهُ قَدْ مَضَتْ وَذَهَبَتْ مِن هذا العالَمِ ، لَها جَزاؤُها عِنْدَ اللهِ تَعالى عَلى ما عَمِلَتْ ، وكَذلِكَ أَنْتُمْ أَيُّها الكافِرونَ المُنْكِرونَ ، لَكُمْ جَزاؤُكُمْ عَلى ما كَسَبْتُمْ مِنْ عَمَلٍ ، وَلا تُسْأَلونَ يومَ الحِسابِ وَالجَزاءِ عَمّا كانَ أُولئِكَ الأَنْبياءُ يَعْمَلونَ ، كَما أَنَّهُمْ هُمْ كَذلِكَ لا يُسْأَلونَ عَمّا تَعْمَلونَ ، فَكُلٌّ يُجازى على عَمَلِهِ ، فَلا يَنْتَفِعُ أَحَدٌ بِعَمَلِ غَيْرِهِ ، وَلا يَتَضَرَّرُ كَذلِكَ أَحَدٌ مِنْ عَمَلِ غَيْرِهِ .

وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ هذِهِ القَضِيَّةَ لِيَفْهَمَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ لا يَنْبَغي أَنْ يَتَّكِلَ عَلى عَمَلِ آبائِهِ ، فَإِذا كانَ الأَبُ صالِحاً ، فَلا غَضاضَةَ إذا كانَ الابْنُ سَيِّئاً سائِراً في طَريقِ الضَّلالِ كَما يَتَوهَّمونَ ، وَذلِكَ يَشْفَعُ لابْنِهِ ، فَيَنْجوَ يومَ القِيامَةِ ، فَجاءَتْ هذِهِ الآيَةُ لِتُبَيِّنَ أَنَّ صلاحَ الأَنْبياءِ لَنْ يَنْفَعَ الأَقوامَ ، وَلَنْ يَنْفَعَ أَبناءَهُمْ كَذلِكَ إذا تَرَكوا طَريقَ الحَقِّ . وَقَدْ ذَكَرَ لَنا القُرآنُ الكَريمُ مِثالاً عَلى ذلِكَ سَيِّدَنا نوحاً عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مَعَ ابنِهِ الكافِرِ ، حَيْثُ بَيَّنَ لَهُ تَعالى أَنَّهُ عَمَلٌ غَيرُ صالِحٍ وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ .

وَلَقَدْ بَيَّنَتْ هذِهِ الآياتُ أَنَّ أُصولَ الدِّينِ واحِدَةٌ مُنْذُ بَعَثَ اللهُ تَعالى آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَكُلُّ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَكَذلِكَ نَبِيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ جاءَ بِهذِهِ العَقيدَةِ ، وَدَعا إلى عِبادَةِ اللهِ تَعالى ، وإِلى تَصديقِ الأَنْبياءِ الَّذينَ كانوا قَبْلَهُ ، وَالإيمانِ بِالبَعْثِ ، وَبِنَعيمِ الجَنَّةِ وَعَذابِ الآخِرَةِ ، وَحَضَّ عَلى مَكارِمِ الأَخْلاقِ ، أَمّا ما عَدا ذلِكَ مِنَ المُعامَلاتِ وَالعِباداتِ ، فَإِنَّ الشَّرائِعَ تَخْتَلِفُ فيها ، وَلِذا فَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وَمِنْ هُنا جاءَتْ شَريعَةُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأُمورٍ جَديدَةٍ لَمْ تَكُنْ قَدْ شُرِعَتْ مَثَلاً لِقَوْمِ سَيِّدِنا موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، أَوْ قَوْمِ سَيِّدِنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَمَعَ ذلِكَ فَهُناكَ تَشْريعاتٌ اتَّفَقَتْ عَلَيْها الكُتُبُ السَّماوِيَّةُ كُلُّها ، واخْتِلافُ الشَّرائِعِ إِنَّما يَكونُ لاخْتِلافِ الزَّمانِ والمَكانِ والنّاسِ ، فَما يَصْلُحُ لِقَوْمٍ لا يَصْلُحُ لِغَيْرِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يَصْلُحُ لَهُمْ .

دروس وعبر :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أَنَّ سَيِّدَنا إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ جاءَ بالمِلَّةِ الحَنيفيَّةِ السَّمْحَةِ ، فَهُوَ لَيْسَ يَهودِيّاً ولا نَصرانِيّاً كَما يَدَّعي المُنْكِرونَ .

٢ـ الخُضوعُ والانْقِيادُ وَالإِخْلاصُ في القَوْلِ وَالعَمَلِ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ للهِ تَعالى وَحْدَهُ .

٣ـ كُلُّ إنسانٍ مُحاسَبٌ عَلى عَمَلِهِ ، فَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ، فَلَنْ يَنْفَعَ ابْناً صَلاحُ أَبيهِ إذا لَمْ يَكُنْ صالِحاً ، وإنْ كانَ الأَبُ نَبِيّاً .

٤ـ الدِّينُ واحِدٌ مِنْ لَدُنِ بِعْثَةِ سَيِّدِنا آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ حَتّى بِعْثَةِ سَيِّدِنا مُحمَّدٍ ﷺ ، وَلكِنَّ الشَّريعَةَ المُتَمَثِّلَةَ بِالعِباداتِ وَالمُعامَلاتِ هِيَ الّتي تَخْتَلِفُ .



التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعنى (أَمْ) في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَم كُنتُم شُهَدَاءَ﴾ .

٢ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿أَمْ كُنتُم شُهَدَاءَ إِذ حَضَرَ يَعقُوبَ ٱلمَوتُ﴾ .

٣ـ مَنِ المُخاطَبُ في هذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ ؟

٤ـ ما الّذي كانَ مِنْ يَعقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسّلامُ حينَ حَضَرَهُ المَوْتُ ؟

٥ـ بِماذا أَجابَ أَبْناءُ يَعقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أَباهُمْ ؟

٦ـ لِمَ أَضافوا الإلهَ إلى أَبيهِمْ وَأَجْدادِهِمْ مِنَ الأَنْبياءِ ؟

٧ـ لِماذا قالَ أَبناءُ سَيِّدِنا يَعقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : ﴿آبائِكَ إِبراهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ وَإِسحَقَ﴾ مَعَ أَنَّ إسماعيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ لَيْسَ أَباهُمْ ؟

٨ـ اسْتَخْلِصِ الحِكْمَةَ مِنْ ذِكْرِ وَصِيَّةِ يَعقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لِبَنيهِ ، مُبَيِّناً حَقيقَةَ هذِهِ الوَصِيَّةِ ؟

٩ـ مَنِ المَقْصودُ بِاسْمِ الإشارَةِ (تِلْكَ) ؟

١٠ـ بيِّنْ ما يَدُلُّ عَليْهِ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَت وَلَكُم مَّاكَسَبتُم وَلاَ تُسأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعمَلُونَ﴾ .



نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ آيَةً كَريمَةً تَدُلُّ على أَنَّ كُلَّ إِنسانٍ يُسْأَلُ عَنْ عَمَلِهِ فقَط .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الّتي بيَّنَتْ أَنَّ ابْنَ نوحٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ ، واسْمَ السّورَةِ ، وَرَقْمَ الآيَةِ .

* * *

الدَّرسُ الثّاني والأربَعونَ

سورَةُ البَقرَةِ ـ القِسْمُ الأرْبَعونَ

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

حَنيفاً : مائِلاً عَنِ الباطِلِ إلى طَريقِ الحَقِّ .

الأَسْباطِ : أَولادِ سَيِّدِنا يَعقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَأَحفادِهِ .

شِقاقٍ : عَداوَةٍ وَمُخالَفَةٍ .

صِبْغَةَ اللهِ : دينَ اللهِ الَّذي فَطَرَنا عَلَيْهِ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ بَيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ وِحْدَةَ الأَديانِ ، فَكُلُّ الأَنْبياءِ جاءوا بدينِ اللهِ وَدَعْوَةِ النّاسِ للإيمانِ بِهِ ، وَجاءَتْ هذهِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ جَهْلَ أَهْلِ الكِتابِ في هذهِ القَضِيَّةِ ، فَكُلٌّ يَدَّعي أَنَّ دينَهُ يَخْتَلِفُ عَنْ دينِ الآخَرِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الصَّوابُ ، فَكُلُّ فَريقٍ يَدَّعي الإيمانَ لِنَفْسِهِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ .

قالَ فَريقٌ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى لِلمُؤْمنينَ ولأَهْلِ الكِتابِ وَالمُشْرِكينَ كونوا هوداً أَوْ نَصارى ،

وَفي هذا بَيانٌ لِتَفرُّقِ الطّائِفَتَيْنِ في الدِّينِ ، وَتَعَصُّبِ كُلِّ طائِفَةٍ لِدينِها ، فَاليَهودُ يَدْعونَ إلى اليَهودِيَّةِ الّتي هُمَ عَلَيْها ، ويَقْصُرونَ الهِدايَةَ عَلَيْها وَحْدَها ، وَالنَّصارى يَدْعونَ إلى النَّصرانِيَّةِ الّتي هُمْ عَلَيْها وَيقْصُرونَ كَذلِكَ الهِدايَةَ عَلَيْها ، وَهذا المَعنْى بَيَّنَتْهُ كَلِمَةُ (أَوْ) الّتي جاءَتْ لِلتَّنْويع .

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴾ . وَيُبَيِّنُ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّهُ لَوْ كانَ ما يَقولونَ صَحيحاً لَما كانَ إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مُهْتَدِياً ، فَهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهُ إمامُ المُهْتَدينَ ، وَمَعَ ذلِكَ لَمْ يَكُنْ يَهودِيّاً ولا نَصرانِيّاً ، فَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ (وَيا مَنْ عَرَفْتَ طَريقَ التَّوْحيدِ ، مائِلاً عَنْ الباطِلِ إلى الحَقِّ ، وَقَدْ جاءَ الكَلامُ هُنا بـ (بَلْ) الّتي هِيَ لِلإِضْرابِ الإِبْطالِيِّ ، لإِبْطالِ ما ادَّعاهُ كُلٌّ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى ، وَبَيانِ أَنَّ سَيِّدَنا إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسّلامُ لَمْ يَكُنْ أَبَداً مِمَّنْ يُشْرِكُ مَعَ اللهِ تَعالى وَثَناً أَوْ صَنَماً أَوْ بَشَراً ، وَفي هذا تَعريضٌ بِاليَهودِ والنَّصارى الّذينَ قالوا عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، أَوِ المَسيحُ ابْنُ اللهِ .

ثُمَّ أَرْشَدَ سُبْحانَهُ المُؤْمِنينَ إلى اتِّباعِ مِلَّةِ إبراهيمَ وَأَبْنائِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَقالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ :

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ .

الأَسْباطِ : هُمْ أَولادُ يَعقوبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، الاثنا عَشَرَ ، كَما قالَ تَعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ [الأعراف : ١٦٠] ، ومَعْنى الآيةِ : ادْعوا أَيُّها المُؤْمِنونَ إلى أَصْلِ الأَدْيانِ السَّماوِيَّةِ كُلِّها ، وهو التَّسْليمُ بِنُبُوَّةِ الأَنْبياءِ وَالمُرْسَلينَ ، وَقولوا : آمَنّا بِنُبُوَّةِ جَميعِ الأَنْبياءِ والمُرْسَلينَ مَعَ الخُضوعِ والتَّسْليمِ لِرَبِّ العالَمينَ .

فَلا نُكَذِّبُ أَحَداً مِنْهُمْ فيما ادّعاهُ وَدَعا إِلَيْهِ في عَصْرِهِ ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَمّا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ ضِياعٍ أَوْ تَحْريفٍ ، فَإِنّ ذلِكَ لا يَضُرُّنا ، لأَنَّ الإيمانَ المَطلوبَ مِنّا إيمانٌ إجمالِيٌّ ، أَمّا ما أُنْزِلَ عَلَيْنا فَالمَطْلوبُ مِنّا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ إيماناً تَفْصيلِيّاً .

رَوى الإمامُ البُخارِيُّ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ كانوا يَقْرَؤونَ التَّوراةَ بِالعِبْرانِيَّةِ وَيُفسِّرونَها بِالعَرَبِيَّةِ لأَهْلِ الإِسْلامِ ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لا تُصَدِّقوا أَهْلَ الكِتابِ وَلا تُكَذِّبوهُمْ وَقولوا آمَنّا بِاللهِ . . . . » .

وَقَدْ عَبَّرَ سُبْحانَهُ وتَعالى في جانِبِ الإيمانِ بِموسى وَعيسى عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، بِالإيمانِ بِما أوتِيَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما ، كَما قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ [الإسراء : ١٠١] ، وَقالَ : ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ [البقرة : ٨٧] .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : لا نُؤْمِنُ بِبَعْضِ الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، كَما فَعَلَ اليَهودُ الذين آمَنوا بموسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَمَنْ قَبْلَهُ ، أَمَّا مَنْ جاءَ بَعْدَ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فَقَدْ كَفَروا بهِ ، فَلَمْ يُؤْمِنوا بِعيسى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَكَما قالَ النَّصارى الّذينَ كَفروا بِمُحَمَّدٍ ﷺ كَذلِكَ ، فَهؤلاءِ مُتَّبِعونَ لأَهوائِهِمْ وَشَياطينِهِمْ ، أَمّا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ، فَهُمْ مُؤْمِنونَ بِجَميعِ الأَنْبياءِ مُنْذُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ حَتّى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِم صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ جَميعاً ، وَهُمْ خاضِعونَ مُذْعِنونَ للهِ تَعالى بِالطّاعَةِ وَالعُبودِيَّةِ ، وَهذا هُوَ الإيمانُ الصَّحيحُ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ إِنْ آمَنوا بِما يُؤْمِنُ بِهِ المُؤْمِنونَ فَقَدْ ساروا في طَريقِ الهِدايَةِ الصَّحيحِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ .

إنْ آمَنَ أَهْلُ الكِتابِ الإيمانَ الصَّحيحَ باللهِ تَعالى وَما أُنْزِلَ عَلى النَّبِيّينَ ، وَما أُنْزِلَ عَلى سَيِّدنا مُحَمَّدٍ ، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ هُنا (بِمِثْلِ) أَيْ بِكُلِّ ما تُؤْمِنونَ بِهِ ، وَذلِكَ أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ طَرَأَ عَلى إيمانِهِمْ بِاللهِ تَعالى بَعْضُ النَّزَعاتِ الوَثَنِيَّةِ ، وَأَضاعوا أَصْلَ دينِهِمْ ، وَهُوَ التَّوْحيدُ وَالإِخْلاصُ للهِ تَعالى وَتَزْكِيَةُ النَّفْسِ وَتَطْهيرُها ، وَالتَّأليفُ بَيْنَ النّاسِ ، وَتَمَسَّكوا بِبَعْضِ الأُمورِ البَعيدَةِ عَنْ دينِهِمْ وَزادَ كُلُّ فَريقٍ في دينِهِ كَما يَحْلو لَهُ ، فَبَعُدوا بِذلِكَ عَنْ المَقْصِدِ الأَساسِيِّ لِلدِّينِ ، وَهُوَ تَوْحيدُ اللهِ تَعالى ، فَبَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّ حَقيقَةَ الدِّينِ واحِدَةٌ ، لا تَخْتَلِفُ بَيْنَ نَبِيٍّ ونَبِيٍّ .

وَهكذا يُبَيِّنُ سُبْحانَهُ أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ إِنْ آمَنوا بِمِثْلِ ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ ، فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا وَأَعْرَضوا عَمّا يَدْعوهُمْ سُبْحانَهُ إِلَيْهِ ، وَهُوَ الرُّجوعُ إِلى أَصْلِ دينِ الأَنْبياءِ وَهُوَ كَما قُلْنا التَّوْحيدُ والإِخلاصُ للهِ تَعالى وَتَزْكِيَةُ النَّفْسِ وتَطْهيرُها والتَّأْليفُ بَيْنَ النّاسِ ـ فَهُمْ في شِقاقٍ ، أَيْ أَنَّ أَمْرَهُمْ مَحْصورٌ في العَداوَةِ وَالمُشاقَّةِ ، إِذْ كُلُّ فَريقٍ يُعادي الآخَرَ .

وَيُبَشِّرُ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسّلامُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ تَثْبيتاً لَهُ ولِلمُؤْمِنينَ عَلى ما هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الحَقِّ ، أَيْ سَيَكْفيكَ اللهُ إيذاءَ أَهْلِ الكِتابِ وَمَكْرَهُمْ وَشَرَّهُمْ ، وَيُؤَيِّدُ سُبْحانَهُ دَعْوتَكَ وَيَنْصُرُ أُمَّتَكَ ، وَقَدْ أَنْجَزَ اللهُ تَعالى ما وَعَدَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ وَأُمَّتَهُ .

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ .

وَبَعْدَ ذلِكَ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّهُ صَبَغَنا وَفَطَرَنا عَلى الاسْتِعْدادِ لِلحَقِّ والإيمانِ بِما جاءَ بِهِ الأَنْبياءُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَعَدَمِ اتِّباعِ الأَهواءِ وَآراءِ الرُّؤَساءِ البَعيدَةِ عَنِ الحَقِّ ، فَهذِهِ فِطْرَةُ اللهِ

تَعالى ، وَلا أَحَدَ يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ صِبْغَتُهُ أَحْسَنَ مِنْ صِبْغَةِ اللهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ الّذي يَصْبُغُ وَيَفْطُرُ عِبادَهُ عَلى الإيمانِ وَيُطَهِّرُهُمْ مِنْ أَدْرانِ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ ، وَيُنَجّيهِمْ مِنْها ، وَفي هذا كُلِّهِ تَعْريضٌ بِأَهْلِ الكِتابِ الَّذينَ أَضافوا ما أَضافوا إِلى دينِهِمْ ، وَحَرَّفوا وَبَدَّلوا ، فَهذا مِنَ البَشَرِ وَلَيْسَ مِنْ صِبْغَةِ اللهِ تَعالى ، فَإِنَّهُ تَعالى قَدْ فَطَرَ النّاسَ عَلى الإِخْلاصِ وَحُبِّ الخَيْرِ والاعْتِدالِ . ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم : ٣٠] .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَولِ اللهِ : ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ ، أَيْ : نَخُصُّ اللهَ تَعالى وَحْدَهُ بِالعِبادَةِ ، وَلَيْسَ كَما فَعَلَ أَهْلُ الكِتابِ الّذينَ اتَّخَذوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دونِ اللهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إِنَّ سَيِّدَنا إِبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ حَنيفاً مُسْلِماً مُتَّبِعاً لِدينِ اللهِ تَعالى ، وَلَمْ يَكُنْ يَهودِيّاً ولا نَصرانِيّاً .

٢ـ المُؤْمِنُ الصّادِقُ لا يُفَرِّقُ بَيْنَ الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَهُوَ يُؤْمِنُ بِجَميعِ الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

٣ـ إِنَّ الأَنْبياءَ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ جاءوا جَميعاً بِأَصْلٍ واحِدٍ ، وَهُوَ التَّوْحيدُ والإِخْلاصُ للهِ تَعالى وَتَزْكِيَةُ النُّفوسِ وَالتَّأْليفُ بَيْنَ القُلوبِ .

٤ـ فِطْرَةُ اللهِ تَعالى الّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها ، هِيَ تَوْحيدُ اللهِ وَالإخلاصُ ، وَحُبُّ الخَيْرِ والاعْتِدالُ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما الَّذي ادَّعاهُ اليَهودُ والنَّصارى كَما بَيَّنَتْ آياتُ الدَّرْسِ ؟

٢ـ بَيِّنْ ما نَسْتَفيدُهُ مِنْ كَلِمَةِ (أَوْ) في قَولِهِ تَعالى : ﴿كُونُواْ هُوداً أَو نَصارَى﴾ .

٣ـ كَيْفَ رَدَّ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى اليَهودِ والنَّصارى في دَعْوَتِهِمْ لليَهودِيَّةِ أَوْ النَّصْرانِيَّةِ ؟

٤ـ بِماذا أَمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِمْ ؟

٥ـ مَنْ هُمُ الأَسْباطُ ؟

٦ـ اشْرَحْ مَعنى قَوْلَهُ تَعالى : ﴿لا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِّنْهُم وَنَحنُ لَهُ مُسلِمُونَ﴾ .

٧ـ اسْتَنْتِجْ ما تَدُلُّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ (بِمِثْلِ) في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَإِن آمَنُواْ بِمِثلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهتَدَواْ﴾ .

٨ـ ما مَعْنى : ﴿فَسَيَكفِيكَهُمُ اللهُ﴾ ؟ وما البِشارَةُ الّتي وَرَدَتْ في هذِهِ الكَلِمَةِ وما يَتْبَعُها ؟

٩ـ ما صِبْغَةُ اللهِ الّتي صَبَغَ النّاسَ عَلَيْها ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيْفَ نُبَرْهِنُ عَلى أَنَّ إِبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ما كانَ يَهودِيّاً ولا نَصّرانِيّاً .

٢ـ اشْرَحْ قَوْلَ الرَّسولِ الوارِدَ في شَرْحِ الآيَةِ (١٣٦) واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ بَيِّنْ كَيْفَ اتَّخَذَ أَهْلُ الكِتابِ أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دونِ اللهِ ، اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الثَّالِثُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ البَقرَةِ ـ القِسْمُ الحادي والأَرْبَعونَ

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَتُحاجّونَنا : المُحاجَّةُ : المُجادَلَةُ .

مُخْلِصونَ يَقْصِدونَ بِنِيّاتِهِمْ وَأَعْمالِهِمْ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى .

خَلَتْ ذَهَبَتْ وانْقَضَتْ .

التَّفسيرُ :

بَيَّنَتِ الآياتُ السّابِقَةُ أَنَّ المِلَّةَ الصَّحيحَةَ هِيَ مِلَّةُ سَيِّدِنا إِبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَهِيَ لَيْسَتْ يَهودِيَّةً وَلا نَصْرانِيَّةً ، وَإِنَّما هِيَ تَوْحيدُ اللهِ تَعالى ، وهِيَ بَريئَةٌ مِنْ تِلْكَ العاداتِ والتَّقاليدِ الّتي أَدْخَلَها النّاسُ إِلى الدِّينِ ، وَطَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَأَصحابِهِ وَأُمَّتِهِ اتِّباعَ هذِهِ المِلَّةِ الصَّحيحَةِ ، وَجاءَتْ هذِهِ الآياتُ تُبَيِّنُ الحُجَّةَ في ذَلِكَ . فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ .

قُلْ يا مُحَمَّدُ لأَهْلِ الكِتابِ أَتَدَّعونَ أَنَّ الدِّينَ الحَقَّ هُوَ اليَهودِيَّةُ والنَّصرانِيَّةُ ، وَتَدَّعونَ أَنَّهُ لَنْ

يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاّ مَنْ كانَ هُوداً أوْ نَصارى ، وَيُجادِلونَ في هذا الأَمْرِ . وَالهَمْزَةُ في (أَتُحاجّونَنا) لِلاسْتِفْهام الاسْتِنْكارِيِّ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ هذا الأَمْرَ ، وَيُقيمُ الحُجَجَ القاطِعَةَ عَلى عَدَمِ صِحَّةِ ما يَقولَهُ أَهْلُ الكِتابِ ، وَهذِهِ الحُجَجُ هِيَ :

١ـ ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ يُقَرِّرُ سُبْحانَهُ هذِهِ الحقيقَةَ الّتي لا يُمْكِنُ إنْكارُها ، وَهِيَ أَنَّ اللهَ تَعالى رَبُّ العالَمينَ ، وَهُوَ رَبُّ المُؤْمِنينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ، وَهُوَ أَيْضاً رَبُّ اليَهودِ والنَّصارى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ خالِقُ الخَلْقِ ، وَالجَميعُ مَخلوقاتُهُ ، وَلكِنَّ المَخْلوقاتِ تَتَفاضَلُ في أَعْمالِها ، وَلِذلِكَ قالَ سُبْحانَهُ مُعلِّماً المُؤْمِنينَ : ﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ آثارُ أعمالِنا تَعودُ عَلَيْنا ، فَإِنْ كانَتْ أَعْمالُنا خَيِّرَةً عادَتْ عَلَيْنا بِالخَيْرِ ، وَإِنْ كانَتْ شَرّاً عادَتْ عَلَيْنا بِالشَّرِّ ، كَما أَنَّ آثارَ أَعمالِكُمْ تَعودُ عَلَيْكُمْ كَذلِكَ ، فَكُلٌّ مِنّا يَخْتَصُّ بِآثارِ أَعمالِهِ ، وَقَدْ دَلَّ عَلى هذا المَعنى تَقَدُّمُ الجارِّ والمَجْرورِ : (لَنا) وَ (لَكُمْ) ، فَنَتيجَةُ أَعمالِنا عائِدَةٌ عَلَيْنا وَحْدَنا ، وَنَتيجَةُ أَعمالِكُمْ عائِدَةٌ عَلَيْكُمْ وَحْدَكُمْ كَذلِكَ .

إِذَنْ كَما أَنَّ اللهَ هُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ ، فَنَتَساوى مَعَكُمْ في أَنَّنا مُخْلوقاتٌ للهِ ، لابُدَّ وأَنْ نَتَساوى مَعَكُمْ في الجَزاءِ عَلى الأَعمالِ الّتي يَعَمَلُها كُلُّ فَريقٍ ، وَالتَّفاضُلُ في المَنْزِلَةِ عِنْدَ اللهِ تَعالى إِنَّما يَكونُ بِالأَعْمالِ الصّالِحَةِ فَقَط وَالإِخلاصِ فيها .

﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ نَحْنُ المُسْلِمونَ مُوَحِّدونَ للهِ تَعالى لَهُ في العَمَلِ وَالعِبادَةِ ، أَمّا أَنْتُمْ فَقَدِ اتَّكَلْتُمْ عَلى أَسْلافِكُمُ الصّالِحينَ ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُفَعاءُ وَوُسطاءُ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، وانْحَرَفْتُمْ عَنِ الطَّريقِ الحَقِّ ، الّذي هُوَ التَّقَرُّبُ إِلى اللهِ بالأَعْمالِ الصّالِحَةِ .

٢ـ الحُجَّةُ الثّانِيَةُ الّتي جاءَتْ رَدّاً عَلى أَهْلِ الكِتابِ في ادِّعائِهِمْ :

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

جاءَتِ الآيَةُ تُبْطِلُ دَعوى أَهْلِ الكِتابِ في أَنَّ أَسلافَهُمْ مِنَ الأَنْبياءِ كانوا هوداً أَوْ نَصارى ، فَيَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ مُنْكِراً عَلَيْهِمْ ، أَتَدَّعونَ ما ادَّعَيْتُموهُ لاخْتِصاصِكُمْ بِالقُرْبِ مِنَ اللهِ تَعالى ، أَمْ لأَنَّ أَسْلافَكُمُ الأَنْبياءَ كانوا عَلى اليَهودِيَّةِ أَوِ النَّصْرانِيَّةِ ؟

إِذا كانَ هذا الّذي تَدَّعونَهُ فَأَنْتُمْ كاذِبونَ فيما تَقولونَ ، فَإِنَّ إِبراهيمَ وإِسماعيلَ وَإِسْحقَ وَيَعقوبَ وَالأَسْباطَ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمْ يَكونوا يَهوداً أَوْ نَصارى ؛ إِذْ إِنّ هَذَيْنِ الاسْمَيْنِ اليَهودِيَّةِ والنَّصرانِيَّةِ ، كانا بَعْدَ هؤلاءِ الأَنْبياءِ ، فَاليَهودِيَّةُ ما كانِتْ إلاّ بَعْدَ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَالنَّصرانِيَّةُ ما كانَتْ إلاّ بَعْدَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، العَقْلُ إِذَنْ يَشْهَدُ بِكَذِبِكُمْ يا أَهْلَ الكِتابِ .
ثُمَّ قالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ :

﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ ﷺ على سَبيلِ التَّوبيخ لَهُمْ : أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بما كانَ عَلَيْهِ هؤُلاءِ الأَنْبياءُ ، أَم اللهُ هُوَ الأَعْلَمُ بذلِكَ دونَكُمْ ؟ ولا شَكَّ في أَنَّهُمْ لَنْ يَدَّعوا أَنَّهُمْ أَعْلَمُ بذلِكَ مِنَ اللهِ تَعالى ، بَلْ سَيَقولونَ إنَّ اللهَ أَعْلَمُ بِذلِكَ ، وَإذا كانَ الأَمْرُ كَذلِكَ فَدَعواكُمْ لا أَساسَ لَها ، وَبذلِكَ أَقامَتِ الآيَةُ عَلَيْهِمْ حُجَّةً ثانِيَةً .

٣ـ وَأَقامَ عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ حُجَّةً ثالِثَةً بِرَدِّ ما ادَّعوهُ ، وَهِيَ قَولُهُ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ والاسْتِفْهامُ : (وَمَنْ) إنْكارِيٌّ يُفيدُ النَّفيَ ، أَيْ : لا أَحَدَ أَشَدُّ ظُلْماً مِمَّنْ يَكْتُمُ شَهادَةً مُثْبَتَةً في كِتابِ اللهِ تُبَشِّرُ بِأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ نَبِيّاً مِنْ بَني إخْوَتِهِمْ وَهُمُ العَرَبُ أَبْناءُ سَيِّدِنا إسماعيلَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَهُمْ قَدْ كَتَموا هذا الأَمْرَ قَبْلَ بِعْثَةِ الرَّسولِ ﷺ وبَعْدَ بِعْثَتِهِ كَذلِكَ ، وما يَزالونَ حَتّى اليَوْمَ يُنْكِرونَ هذا الأَمْرَ .

إنَّ أَهْلَ الكِتابِ ما هُمْ إلاّ مُجادِلونَ في الحَقِّ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ ، فَهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَمَعَ ذلِكَ يُنْكِرونَ ، وإنَّ ظُلْمَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ قَدْ انْتَهى بِهِمْ إلى آخِرِ حُدودِ الظُّلْمِ ، وَهُوَ كِتمانُ شَهادَةِ اللهِ تَعالى تَعَصُّباً لِجِنْسِهِمْ وَكَراهِيَةً لِغَيْرِهِمْ ، فَهُمْ يُريدونَ أَنْ يَكونَ النَّبِيُّ مِنْهُمْ ، وَلِذا وَبَّخَهُمْ سُبْحانَهُ هَنا بهذا التَّوبيخِ ، وَاتَّجَهَ بالوَعيدِ لَهُمْ : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ لَنْ يَتْرُكَكُمْ ، بَلْ يُعَذِّبُكُمْ أَشَدَّ العَذابِ ، وَهُوَ عالِمٌ مُحيطٌ بِكُلِّ ما تَعْمَلونَ . وَتُعَقِّبُ الآياتُ أَخيراً بِالحَديثِ عَنْ جَماعَةِ الأَنْبِياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِقَولِهِ تَعالى :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ .

إنَّ جَماعَةَ الأَنْبِياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ قَدْ مَضَتْ وانْقَضَتْ بِالمَوْتِ ، لَها عِنْدَ اللهِ تَعالى ما كَسَبَتْ مِنَ الخَيْرِ ، وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ مِنَ الشَّرِّ ، وَلا يَنْفَعُها غَيْرُ صالِحِ أَعمالِها ، وَلا يَضُرُّها سِوى سَيِّىءِ الأَعمالِ ، كَذلِكَ الأَمْرُ بِالنِّسْبَةِ لَكُمْ يا أَهْلَ الكِتابِ لَنْ يَنْفَعَكُمْ إلاّ صالِحُ أَعْمالِكُمْ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَسْلُكوا طَريقَ العَمَلِ الصّالِحِ والإيمانِ الحَقِّ .

إنَّ إبراهيمَ وَبَنيهِ وَحَفَدَتِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ قَدْ مَضَوْا إلى رَبِّهِمْ بِسَلامَةِ قُلوبِهِمْ وَإخلاصِهِم في أَعمالِهِمْ ، وانْقَطَعَتِ النِّسْبَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ جاءَ بَعْدَهُمْ ، وَكُلٌّ واحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ مَجْزِيٌّ بِعَمَلِهِ ، لا يَنْفَعُ أَحَداً مِنْهُمْ عَمَلُ غَيْرِهِ .

إنَّ جَهْلَ بَعْضِ النّاسِ جَعَلَهُمْ يَعْتَمِدونَ في طَلَبِ سَعادَةِ الآخِرَةِ على كَراماتِ الصّالِحينَ ، فَجاءَ القُرآنُ لِيُبَيِّنَ أَنْ السَّعادَةَ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ مُرْتَبِطَةٌ ارْتِباطاً وَثيقاً بِالكَسْبِ وَالعَمَلِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ روحُ الدِّينِ الإلهِيِّ هُوَ التَّوْحيدُ وَالإخلاصُ ، وَكُلُّ أَمْرٍ أَمَرَ بِهِ الدِّينُ ، الغَرَضُ مِنْهُ إصلاحُ القُلوبِ وَالعُقولِ بِسَلامَةِ الاعْتِقادِ وحُسْنِ القَصْدِ .

٢ـ السَّعادَةُ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ مُرْتَبِطَةٌ ارْتِباطاً وَثيقاً بِالعَمَلِ الصّالِحِ .

٣ـ الجَزاءُ إنَّما سَيَكونُ عَلى العَمَلِ وَالكَسْبِ ، وَلَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يَتَوسَّطَ أَوْ يَشْفَعَ لأَحَدٍ عِنْدَ اللهِ تَعالى إلاّ بِإذْنِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَنِ المُخاطَبُ في الآيةِ الكَريمَةِ : ﴿قُل أَتُحَاجُّونَنَا﴾ ؟

٢ـ ما مَعنى الهَمْزَةِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾ ؟

٣ـ أَقامَتِ الآياتُ الكَريمَةُ بَعْضَ الحُجَجِ عَلى اليَهودِ وَالنَّصارى ، لادِّعائِهِمْ أَنَّ دينَهُمْ هُوَ الحَقُّ ، هاتِ الحُجَّةَ الأولى مُوَضِّحاً لَها .

٤ـ لِماذا تَقَدَّمَ الجارُّ وَالمَجرورُ (لَنا) ، (لَكُمْ) ؟

٥ـ بِمَ يَكونُ التَّفاضُلُ في المَنْزِلَةِ عِنْدَ اللهِ تَعالى ؟

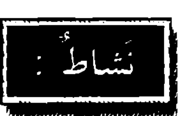
٦ـ هاتِ الحُجَّةَ الثّانِيَةَ الّتي أَقامَتْها الآياتُ عَلى اليَهودِ وَالنَّصارى .

٧ـ ما المَقْصودُ بَقَولِهِ تَعالى : ﴿قُل أَأَنتُم أَعلَمُ أَمِ اللهُ﴾ ؟ وَما مَعنى الاسْتِفهامِ هُنا ؟

٨ـ كَيْفَ كَتَمَ اليَهودُ وَالنَّصارى شَهادَةَ اللهِ تَعالى الّتي أَثْبَتَها في كِتابِهِ ؟ وما مَعنى الاسْتِفهامِ ؟

٩ـ بَيِّنْ مَعنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿تِلكَ أُمَّةٌ قَد خَلَتْ﴾ .

١٠ـ هاتِ ما تَسْتَخْلِصُهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿تِلكَ أُمَّةٌ قَد خَلَت لَهَا مَا كَسَبَت وَلَكُم مَّا كَسَبتُم﴾ مِنَ الدُّروسِ وَالعِبَرِ .



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ مِنْ سورَةِ الحُجُراتِ الدّالَّةَ عَلى أَنَّ الكَرامَةَ عِنْدَ اللهِ بِالتَّقْوى .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ مِنْ سورَةِ الصَّفِّ الدَّالَّةَ على تَبشيرِ سَيِّدِنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِبِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

* * *

الدَّرسُ الرَّابعُ والأربعونَ

سورةُ البَقرةِ ـ القِسْمُ الثّاني والأَرْبعونَ

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

السُّفَهاءُ	: السَّفَهُ : الخِفَّةُ في العَقْلِ الَّذي يُؤَدّي إلى الطَّيْشِ والجَهْلِ .
وَلاهُمْ	: صَرَفَهُمْ .
قِبْلَتِهِمْ	: الجِهَةِ الّتي يَسْتَقْبِلُها الإنْسانُ في الصَّلاةِ .
أُمَّةً وَسَطاً	: مُتَوَسِّطينَ مُعْتَدِلينَ .
القِبْلَةَ الّتي كُنْتَ عَلَيْها	: التَّوَجُّه إلى بَيْتِ المَقْدِسِ .
يَنْقَلِبُ على عَقِبَيْهِ	: يَرْتَدُّ عَنِ الإسْلامِ وَيَرْجِعُ إلى الكُفْرِ .

التَّفسيرُ :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ .

جاءَتْ هذِهِ الآياتُ الكَريمَةُ لِتُبَيِّنَ سِرّاً مِنْ أَسْرارِ هذا الدِّينِ ، الّذي كانَ أَهْلُ الكِتابِ في غَفْلَةٍ عَنْهُ

وَجَهْلٍ بِهِ ، وَهُوَ سِرُّ تَحويلِ القِبْلَةِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إلى الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ ، فَالآياتُ مَتَّصِلَةٌ بِما قَبْلَها ، لِكَوْنِها جاءَت في مُحاجَّةِ أَهْلِ الكِتابِ وَمُجادَلَتِهِمْ في أَمْرِ الدِّينِ الّذي مالوا وَانْحَرَفوا عَنْهُ .

وَقَدْ كانَ النَّبيُّ ﷺ يَسْتَقْبِلُ بَيْتَ المَقْدِسِ في صَلاتِهِ ، كَما كانَ يُصلّي الأَنْبياءُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ قَبْلُ ، وَلكِنَّهُ كانَ يَتَمَنّى أَنْ يَتَوجَّهَ في صَلاتِهِ إلى الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ .

أَخْرَجَ الإمامُ البُخاريُّ عَنِ البَراءِ بنِ عازِبٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ صَلّى إلى بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْراً أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْراً ، وَكانَ رَسولُ اللهِ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ ، وَأَنَّهُ صَلّى أَوَّلَ صَلاةٍ صَلاّها العَصْرَ ، وَصَلّى مَعَهُ قَوْمٌ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّن كانَ مَعَهُ فَمَرَّ عَلى أَهْلِ المَسْجِدِ وَهُمْ راكِعونَ ، فَقالَ : أَشْهَدُ بِاللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ جِهَةَ مَكَّةَ ، فَداروا كَما هُمْ قِبَلَ البَيْتِ ، وَكانَ اليَهودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ ، إِذْ كانَ يُصَلّي قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ ، فَلَمّا وَلّى وَجْهَهُ قِبَلَ البَيْتِ أَنْكَروا ذَلِكَ(١) .

لَقَدِ اسْتَجابَ اللهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ ، وَلَبّى رَغْبَتَهُ ، فَحَوَّلَ القِبْلَةَ إلى الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ .

وَلكِنْ ما مَوْقِفُ اليَهودِ وَالمُنافِقينَ وَالمُشْرِكينَ البَعيدينَ عَنْ دينِ اللهِ تَعالى ، مِنْ تَحويلِ القِبْلَةِ ؟

إِنَّ اليَهودَ وَمَنْ هُمْ عَلى شاكِلَتِهِمْ في بُعْدِهِمْ عَنْ دينِ اللهِ ، قابَلوا هذا الأَمْرَ بِالاسْتِهْزاءِ وَإِثارَةِ الشُّبُهاتِ ، لِتَشْكيكِ المُسْلِمينَ في عَقيدَتِهِمْ ، فَتارَةً تَجِدُ المُشْرِكينَ يَقولونَ إِنَّ مُحَمّداً قَدْ تَحيَّرَ في دينِهِ ، ويوشِكُ أَنْ يَرْجِعَ إلى دينِنا كَما رَجَعَ إلى قِبْلَتِنا وَهِيَ الكَعْبَةُ ، وَتارَةً يَقولُ المُنافِقونَ : ما بالُ المُسْلِمينَ كانوا عَلى قِبْلَةٍ ثُمَّ تَرَكوها ؟ ، وَيَقولُ اليَهودُ : إِنَّ القِبْلَةَ الأولى ، وَهِيَ بَيْتُ المَقْدِسِ إِنْ كانَتْ عَلى حَقٍّ فَقَدْ تَرَكْتُمْ أَيُّها المُسْلِمونَ الحَقَّ ، وَإِنْ كانَتْ عَلى باطِلٍ فَعِبادَتُكُمُ السّابِقَةُ باطِلَةٌ ، وَلَوْ كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيّاً حَقّاً ما تَرَكَ قِبْلَةَ الأَنْبياءِ قَبْلَهُ وَتَحَوَّلَ إلى قِبْلَةٍ غَيْرِها .

وَهؤلاءِ كُلُّهُمْ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعالى بِالسَّفاهَةِ ، سَفاهَةٍ في الرَّأْيِ ، وَسَفاهَةٍ في الأَخْلاقِ ، هؤُلاءِ السُّفَهاءُ سَيَقولونَ : أَيُّ شَيْءٍ لِهؤُلاءِ المُسْلِمينَ حَوَّلَهُمْ وَصَرَفَهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الّتي كانوا عَلَيْها ، وَهِيَ قِبْلَةُ الأَنْبياءِ مِنْ قَبْلُ ؟ وَ (ما) هُنْا لِلاسْتِفهامِ الإِنْكارِيِّ التَّعَجُّبِيِّ . فَبِماذا أَجابَ اللهُ تَعالى هؤُلاءِ المُنْكِرينَ ؟

إِنَّ هؤُلاءِ السُّفَهاءِ يَعْتَقِدونَ أَن القِبْلَةَ هِيَ الأَصْلُ في الدِّينِ مِنْ حَيْثُ هِيَ الصَّخْرَةُ المَعْنِيَّةُ ، أَوِ البِناءُ المُعَيَّنُ ، فَأَرادَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ صَخْرَةَ بَيْتِ المَقْدِسِ لَيْسَتْ بِأَفْضَلَ مِنْ سائِرِ الصُّخورِ ، فَلَقَّنَ نَبِيَّهُ ﷺ حُجَّةً يَرُدُّ بِها عَلى أُولئِكَ المُنْكِرينَ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ﴾ أَجِبْهُمْ يا مُحَمَّدُ أَنَّ الجِهاتِ كُلَّها للهِ تَعالى ، وَلا فَضْلَ لِجِهَةٍ عَلى جِهَةٍ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لَمْ

(١) أخرجه البخاري باب (الصلاة من الإيمان/ كتاب الإيمان) .

يُخَصِّصْ جِهَةً مِنْها لِتَكونَ لِمَنْ شاءَ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ الّذي ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : يُرْشِدُ اللهُ مَنْ يَشاءُ إِرْشادَهُ إِلى الطَّريقِ المُسْتَقيمِ ، الّذي لا اعوِجاجَ فيهِ ، العِبْرَةُ ـ إِذَنْ ـ لَيْسَتْ بِالجِهَةِ وَلٰكِنْ بِتَوجُّهِ القُلوبِ إِلى اللهِ تَعالى ، والالْتِزامِ بِتَنفيذِ أَمْرِ اللهِ تَعالى . ثُمَّ وَصَفَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الأُمَّةَ الإِسْلامِيَّةَ بِأَنَّها أُمَّةٌ خَيِّرَةٌ عادِلَةٌ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ .

أَيْ : خِياراً وَعُدولاً ؛ وَذٰلِكَ أَنَّ الزِّيادَةَ على المَطْلوبِ في الأَمْرِ إِفراطٌ ، وَالنَّقْصَ عَنْهُ تَفريطٌ ، وَفي الإِفراطِ وَالتَّفْريطِ مَيْلٌ عَنْ الطَّريقِ الصَّحيحِ ، فَالمُسْلِمونَ خِيارٌ عُدولٌ لأَنَّهُمْ وَسَطٌ ، لَيْسوا مِنَ المُغالينَ في الدِّينِ المُفْرِطينَ ، وَلا مِنَ المُقَصِّرينَ المُفَرِّطينَ ، وهٰذِهِ هِيَ الصِّفَةُ تُخَوِّلُكُمْ لأَمْرٍ عَظيمٍ وَمَسْؤوليَّةٍ كُبْرى : ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ، أَيّ : لِتَشْهَدوا أَمامَ اللهِ على أُولٰئِكَ الذين غالَوْا في الدِّينِ ، وَأُولٰئِكَ الذينَ فَرَّطوا في جَنْبِ اللهِ تَعالى ، وَأَشْبَعوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ اللَّذاتِ ، وَادَّعوا أَنَّهُ لَيْسَ هُناكَ حَياةٌ إِلا الحَياةُ الدُّنيا وَلَيْسَ هُناكَ آخِرَةٌ .

فَالمُسْلِمونَ يَسْبقونَ الأُمَمَ كُلَّها بِالاعْتِدالِ وَالتَّوَسُّطِ في الأُمورِ ، فَهُمْ يُعْطونَ كُلَّ ذي حَقٍّ فَيُؤَدّونَ حُقوقَ اللهِ ، وَحُقوقَ أَنْفسِهِمْ ، وَحُقوقَ أَجْسامِهِمْ ، وَحُقوقَ أَقْرِبائِهِمْ ، وَحُقوقَ سائِرِ المُسْلِمينَ .

﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ القُدْوَةُ وَالمَثَلُ الأَعْلى لأُمَّتِهِ ، فَمَنِ اتَّبَعَ سيرَةَ الرَّسولِ ﷺ وَشَريعَتَهُ كانَ مِنَ الأُمَّةِ الوَسَطِ ، الَّذينَ يَشْهَدُ لَهُمْ رَسولُهُمْ بِأَنَّهُمْ عَمِلوا بِسُنَّتِهِ ﷺ ، وَأَنَّهُمُ اسْتَقاموا عَلى الصِّراطِ المُسْتَقيمِ ، فَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ .

وَقَدْ أَعْلَمَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ والمُؤْمِنينَ بِما سَيَكونُ مِنَ المُنْكِرينَ ، وَلَقَّنَهُمُ الحُجَّةَ الّتي يَرِدّونَ بِها عَلَيْهِمْ ، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ هُمْ في مَنْزِلَةِ الشُّهداءِ وَالمُحَكَّمينَ عَلى هَؤلاءِ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ لا يَقِفوا عِنْدَ ظَواهِرِ الأُمورِ ، فَالقِبْلَةُ الّتي وُجِّهوا إِلَيْها لا شَأْنَ لَها في ذاتِها ، وَلٰكِنَّ العِبْرَةَ فيها اجْتِماعُ الأُمَّةِ كُلِّها عَلى قِبْلَةٍ واحِدَةٍ ، وَمِنْ ثُمَّ اجْتِماعُهُمْ عَلى أَمْرِ الرَّسولِ ﷺ . وَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ ﴾ ما جَعَلْنا القِبْلَةَ الّتي كُنْتَ عَلَيْها يا مُحَمَّدُ وَهِيَ بَيْتُ المَقْدِسِ ، إِلاّ اخْتِباراً لِلنّاسِ ، لِيَتَبَيَّنَ الثّابِتُ عَلى إِيمانِهِ ، فَتُعْلَموا أَنْتُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ المُتَّبِعونَ لِلرَّسولِ ﷺ وَتُعْلِموا كَذٰلِكَ الّذي ارْتَدَّ عَنْ دينِهِ وَعادَ إِلى الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ كانَ مُسْلِماً ، وَالمُرادُ بِالعِلْمِ في قَوْلِهِ تَعالى : (لِنَعْلَمَ) عِلْمَ وُقوعٍ وَوُجودٍ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الجَزاءُ ، وَذٰلِكَ أَنَّ عِلْمَ اللهِ قَديمٌ فَهُوَ سُبْحانَهُ يَعْلَمُ الأَشْياءَ قَبْلَ وُقوعِها أَنَّها سَتَقَعُ ، وَيَعْلَمُها بَعْدَ وُقوعِها أَنَّها وَقَعَتْ .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ وَإِنْ كانَ التَّحَوُّلُ عَنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلى الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ لَكَبيرَةُ الشَّأْنِ ، شاقَّةٌ ثَقيلَةٌ عَلى مَنْ أَلِفَ التَّوَجُّهَ إِلى القِبْلَةِ الأولى ، ذَلِكَ أَنَّ الإِنْسانَ إِذا أَلِفَ أَمْراً ما شَقَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحوَّلَ عَنْهُ ، وَبالتّالي فَإِنَّ التَّحُوَّلَ مِنَ القِبْلَةِ الأولى أَمْرٌ شَديدٌ وَشاقٌ عَلى النّاسِ ، لكِنَّها لَيْسَتْ كَذلِكَ عَلى الّذينَ هَداهُم اللهُ تَعالى بِمَعْرِفَةِ أَحكام دينِهِ وَسِرِّ تَشْريعِهِ ، فَعَلِموا أَنَّ تَعَبُّدَهُمْ للهِ تَعالى لا يَكونُ إلاّ بِطاعَتِه سُبْحانَهُ ، وعَلِموا أَنَّ أَيَّ جِهَةٍ لَيْسَتْ مُعَظَّمَةً لِذاتِها ، وَلكِنْ لأَمْرٍ آخَرَ قَدْ يَكونُ ـ كَما قُلْنا ـ اجْتِماعُ الأُمَّةِ كُلِّها عَلى هذِهِ القِبْلَةِ لِيَكونَ سَبَباً في اتِّحادِهِمْ وَجَمْعِ كَلِمَتِهِمْ .

وَيَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ما كانَتْ كَلِمَةُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ تَقْضي بِإِضاعَةِ إِيمانِكُمْ الذي يَحُثُّكُمْ وَيَحُضُّكُمْ على اتِّباع الرَّسولِ ﷺ في الصَّلاةِ ، وَفي التَّوَجُّهِ في الصَّلاةِ إِلى قِبْلَةٍ ما ، فَلَوْ كانَ تَحويلُ القِبْلَةِ يُضيعُ إيمانَ النّاسِ وَالثَّوابَ المُتَرَتِّبَ عَلى الإيمانِ لَما حَوَّلَها سُبْحانَهُ ، وَفي هذا بُشْرى لِلمُؤْمِنينَ ، بِأَنَّهُ لَنْ يُضيعَ أَيَّ أَجْرٍ ، ما دامَ أَيُّ عَمَلٍ يَصْدُرُ مِنْهُمْ يَكونُ باعِثُهُ الإيمانَ واتِّباعَ الرَّسولِ ﷺ وَتَنْفيذَ أَمْرِ اللهِ تَعالى .

وَقَدْ أَخْرَجَ الإِمامُ البُخارِيُّ عَنِ البَراءِ بِنِ عازِبٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ ماتَ عَلى القِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ رِجالٌ وَقُتِلوا ، فَلَمْ نَدْرِ ما نَقولُ فيهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُضيعَ إيمانَكُمْ﴾ .

وهذِهِ طَبيعَةُ المُسْلِمِ ، لا يُحِبُّ الخَيْرَ لِنَفْسِهِ فَقَطْ ، وَلكِنَّهُ يُحِبُّهُ لِغَيْرِهِ كَذلِكَ ، فَقَدْ حُوِّلَتِ القِبْلَةُ الآنَ ، وَتَوَجَّهَ المَوْجودونَ إِلى القِبْلَةِ الجَديدَةِ . فَما بالُ أَصحابِنا الَّذينِ ماتوا قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ القِبْلَةُ ، وَقَدْ كانوا يُصَلّونَ إِلى بَيْتِ المَقْدِسِ وَلَمْ يَتَوجَّهوا إِلى الكَعْبَةِ ، هَلْ مَعنى ذَلِكَ أَنَّهُ لَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنَ الإيمانِ ؟

فَبَيَّنَ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّ اللهَ لا يُضيعُ عَمَلَ أَحَدٍ ما دامُ هذا العَمَلُ مُنْبَثِقاً عَنِ الإيمانِ ، وَطاعَةَ اللهِ وَرَسولِهِ ﷺ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ رَؤوفٌ بِالنّاسِ لا يُضيعُ لأَحَدٍ مِثْقالَ ذَرَّةٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الجِهاتُ كُلُّها للهِ تَعالى ، وَهُوَ سُبْحانَهُ لَهُ أَنْ يَخْتارَ جِهَةً مُعَيَّنَةً يَأْمُرُ النّاسَ بِالتَّوجُّهِ إِلَيْها .

٢ـ تَحويلُ القِبْلَةِ كانَتْ ابْتِلاءً واخْتِباراً لِلنّاسِ ، لِيَعْلَمَ الثّابِتَ عَلى دينِهِ مِنْ غَيْرِهِ .

٣ـ المُؤْمِنونَ شُهَداءُ عَلى النّاسِ لأَنَّهُمْ أُمَّةٌ مُعْتَدِلَةٌ في كُلِّ أُمورِها .

٤ـ إِنَّ اللهَ تَعالى يَقْبَلُ عَمَلَ العَبْدِ ما دامَ الباعِثُ إِلَيْهِ الإيمانَ وطاعةَ اللهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

السَّفَهاءُ ، ما وَلاّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ ، أُمَّةً وَسَطاً ، يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ .

٢ـ جاءَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ قَضِيَّةٍ خَطيرَةٍ عَظيمَةٍ ، ما تِلكَ القَضِيَّةُ ؟

٣ـ ما الَّذي كانَ يَوَدُّهُ الرَّسولُ ﷺ ؟

٤ـ هَلِ اسْتَجابَ لَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى وَلبّى رَغْبَتَهُ ؟ وَضِّحْ ذلِكَ .

٥ـ كَيْفَ قابَلَ اليَهودُ ـ لَعَنَهُمُ اللهُ ـ أَمْرَ تَحويلِ القِبْلَةِ ؟

٦ـ بِمَ وَصَفَ اللهُ تَعالى هؤلاءِ المُنْكِرينَ ؟

٧ـ ناقَشَتِ الآياتُ اليَهودَ المُنْكِرينَ لِتَحويلِ القِبْلَةِ ، هاتِ ما ذَكَرَتْهُ الآياتُ .

٨ـ بِمَ وَصَفَ اللهُ تَعالى الأُمَّةَ الإِسْلامِيَّةَ ؟

٩ـ بِماذا تَسْبِقُ الأُمَّةُ الإِسْلامِيَّةُ الأُخْرى ؟

١٠ـ عَلى ماذا يَشْهَدُ النَّبِيُّ ﷺ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيكُم شَهِيداً﴾ ؟

١١ـ وَضِّحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿إلاَّ لِنَعلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبيهِ﴾ .

١٢ـ كَيْفَ كانَتِ القِبْلَةُ شاقَّةً وَكَبيرَةً عَلى جَماعَةٍ مِنَ النّاسِ ؟ وَما مَوْقِفُ المُسْلِمينَ مِنْ ذلِكَ ؟

١٣ـ ما المَقْصودُ بِقَولِهِ تَعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم﴾ ؟ وَعَمَّنْ تَتَحَدَّثُ الآيَةُ ؟

١٤ـ بَيَّنَتِ الآياتُ أَنَّ العِبْرَةَ لَيْسَتْ في التَّوَجُّهِ إلى قِبْلَةٍ ما ، ما الحِكْمَةُ الّتي أَرادَها اللهُ تَعالى مِنْ ذَلِكَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ هاتِ حَديثاً عَنِ الرَّسولِ ﷺ يَدُلُّ عَلى مَسؤولِيَّةِ الإنْسانِ عَنْ كُلِّ ما حَوْلَهُ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ هاتِ آيَةً مِنْ كِتابِ اللهِ تَدُلُّ عَلى خَيْرِيَّةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ، والسَّبَبَ في كَونِها كَذلِكَ ، واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الخامِسُ والأرْبَعونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ والأَرْبَعونَ

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تَقَلُّبَ وَجْهِكَ	: تَطَلُّعَكَ وَتَرَدُّدَ نَظَرِكَ إلى جِهَةِ السَّماءِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ .
فَلَنُوَلِّيَنَّكَ	: فَلَنُوَجِّهَنَّكَ .
شَطْرَ	: نَحْوَ وجْهَهِ .
أَهواءَهُمْ	: جَمْعُ هَوَىً ، وَهُوَ ما تَميلُ إِلَيْهِ نُفوسُهُمْ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ كانَ النَّبِيُّ ﷺ ـ كَما قُلْنا مِنْ قَبْلُ ـ يَتَطَلَّعُ لِتَحويلِ القِبْلَةِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلى الكَعْبَةِ ، وكَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَنْتَظِرُ هذا الأَمْرَ ، لأَنَّ الكَعْبَةَ كانَتْ قِبْلَةَ أَبيهِ إِبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ ، وَهُوَ قَدْ جاءَ لإِحْياءِ مِلَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقَدْ كانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَتَطَلَّعُ لأَنْ يُؤْمِنَ بِهِ العَرَبُ ، إِذا كانَتْ قِبْلَتَهُ الكَعْبَةُ ، فَهُمْ أَكْثَرُ النّاسِ اسْتِعداداً لِقَبولِ الإِيمانِ ، وَيَوَدُّ أَنْ يُخالِفَ اليَهودَ كَذلِكَ في قِبْلَتِهِمْ ، وَهُمُ الذينَ كانوا يَقولونَ إِنَّ مُحَمّداً يُخالِفُنا في دينِنا وَيَتَّبِعُ قِبْلَتَنا ، يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ :

﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ .

﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ ﴾ أَيْ : نرى تَرَدُّدَ نَظَرِكَ جِهَةَ السَّماءِ حيناً بَعْدَ حينٍ ، وَمَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، تَطَلُّعاً إلى نُزولِ الوَحْيِ عَلَيكَ ، وَتَوَقُّعاً لِما أُلْقِيَ في نَفْسِكَ مِنْ تَحويلِ القِبْلَةِ : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ ﴾ فَلَنجْعَلَنَّكَ يا مُحَمَّدُ تَتَحوَّلُ إلى قِبْلَةٍ تَرْضاها وَتُحِبُّها ، فَها نَحْنُ قَدْ أَجَبْناكَ إلى ما طَلَبْتَ وَأَعطَيناكَ ما سَأَلْتَ : ﴿ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ ﴾ أَيْ : تَوَجَّهْ في صَلاتِكَ جِهَةَ المَسْجِدِ الحَرامِ . وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ (المَسْجِدَ الحَرامَ) وَلَمْ يَذْكُرِ (الكَعْبَةَ) ، لأَنَّ المَطلوبَ مِنَ المُسْلِمِ إذا كانَ بَعيداً عَنِ الكَعْبَةِ بِحَيْثُ لا يَراها ، أَنْ يُراعِيَ جِهَةَ الكَعْبَةِ فَقَطْ ، وَلا يَجِبُ اسْتِقبالُ عَيْنِ الكَعْبَةِ إلاّ لِمَنْ يَراها ، فَمَنْ يُصَلّي داخِلَ المَسْجِدِ الحَرامِ يَتَوجَّهُ إلى الكَعْبَةِ مِنْ جَميعِ الجِهاتِ ، بِحَيْثُ تَقَعُ عَيْنُهُ عَلَيْها .

ثُمَّ أَمَرَ سُبْحانَهُ عامَّةَ المُؤْمِنينَ بِاسْتِقبالِ الكَعْبَةِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ ﴾ في أَيِّ مَكانٍ كُنْتُمْ فَاسْتَقْبِلوا المَسْجِدَ الحَرامَ بِوُجوهِكُمْ في صَلاتِكُمْ ، وهَذا دَليلٌ على أَنَّ المُسْلِمينَ يُصَلّونَ في بِقاعِ الأَرْضِ المُخْتَلِفَةِ إلى جَميعِ الجِهاتِ ، فَكُلُّ أَهْلِ بَلَدٍ يَتَوجَّهونَ إلى المَسْجِدِ الحَرامِ ، فَقَدْ يَقَعُ المَسْجِدُ جِهَةَ المَشْرِقِ لِبَلَدٍ ، أَوْ جِهَةَ المَغْربِ لِبَلَدٍ آخَرَ وهَكذا ، أَمَّا غَيرُ المُسْلِمينَ فَالنَّصارى لا يَتَوجَّهونَ إلاّ إلى جِهَةِ المَشْرِقِ ، واليَهودُ لا يَتَوجَّهونَ إلاّ إلى جِهَةِ بَيْتِ المَقْدِسِ .

لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ بِالتَّوَجُّهِ إلى المَسْجِدِ الحَرامِ ، وَأَتْبَعَهُ بِأَمْرِ المُؤْمِنينَ بِذلِكَ مَعْ أَنَّ عادَةَ القُرآنِ الكَريمِ أَنْ يَجْعَلَ الأَمْرَ الَّذي يُؤْمَرُ بِهِ النَّبيُّ ﷺ لَهُ خاصَّةً وَلأُمَّتِهِ عامَّةً .

إنَّ حادِثَةَ نَقْلِ القِبْلَةِ ، كانَتْ حادِثَةً كَبيرَةً ، اسْتَتْبَعتْ فِتْنَةً عَظيمَةً ، فَأَرادَ اللهُ تَعالى أَنْ يُعْلِمَ المُؤْمِنينَ بِعِنايَتِهِ بِها ، وَيُقَرِّرَها في أَنْفُسِهِمْ ، فَأَكَّدَ الأَمْرَ وَشَرَّفَهُمْ بِالخِطابِ مَعَ خِطابِ الرَّسولِ ﷺ لِتَقْوى قُلُوبُهُمْ وتَطْمَئِنَّ نُفوسُهُمْ ، وَيَتَلَقَّوْا تِلكَ الفِتْنَةَ الّتي أَثارَها المُنافِقونَ وَالكافِرونَ وَاليَهودُ ، بِالثَّباتِ عَلى اتِّباعِ أَوامِرِ اللهِ تَعالى ، ولِئَلاّ يُتَوهَّمَ أَنَّ هذا الأَمْرَ خاصٌّ بِالرَّسولِ ﷺ .

ثُمَّ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ يَعْلَمونَ أَنَّ التَّحويلَ إلى الكَعْبَةِ هُوَ الحَقُّ الّذي لا رَيْبَ فيه ، فَقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾ فَهَؤُلاءِ الَّذينَ يُنكِرونَ تَوَجُّهَكُمْ في صَلاتِكُمْ جِهَةَ الكَعْبَةِ ، لَيَعْلَمونَ أَنَّ هذا الأَمْرَ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، كَما أَنَّ عِنْدَهُمُ الآياتِ البَيِّناتِ الدَّالَّةَ عَلى أَنَّ مُحمَّداً رَسولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَهُمْ مَعْ ذَلِكَ

يَفْتِنونَ ضِعافَ المُؤْمنينَ عَنْ دينِهِمْ ، وَيُثيرونَ الشُّكوكَ في نُفوسِهِمْ ، وَمِنْ ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى كَذِبَ هَؤلاءِ المُنْكِرينَ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ العَليمُ بِظَواهِرِ الخَلْقِ وَبَواطِنِهِمْ ، وَالرَّقيبُ عَلى الأَعْمالِ ، فَيُجازي كُلَّ عامِلٍ بِما عَمِلَ ، إِنْ خَيْراً فَخَيْرٌ ، وإِنْ شَرّاً فَشَرٌّ ، وَفي قَوْلِ اللهِ تَعالى : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ تَهْديدٌ وَوَعيدٌ شَديدٌ لأَهْلِ الكِتابِ عَلى عِنادِهِمْ ، وإِثارَتِهِمُ الفِتَنَ . وَبَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّ هؤلاءِ المُنْكِرينَ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَنْ يُؤْمِنوا بِكَ أَبَداً يا مُحمَّد مَهما جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ آياتٍ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ ﴾ وَاللهِ لَوْ جِئْتَ يا مُحَمَّدُ بِكُلِّ بُرهانٍ وَحُجَّةٍ تَدُلُّ عَلى صِدْقِكَ وَنُبُوَّتِكَ ، ما تَبِعوا قِبْلَتَكَ كَما لَمْ يَتَّبِعوا دينَكَ ، وَإِنَّ تَرْكَهُمْ لاتِّباعِكَ يا مُحَمَّدُ ، لَيْسَ عَنْ شُبْهَةٍ يُمْكِنُ دَفْعُها بِالحُجَجِ وَالبَراهينِ ، وَلكِنَّهُمْ خالَفوكَ عِناداً وَمُكابَرَةً .

وَكَما أَيْأَسَ اللهُ تَعالى النَّبِيَّ ﷺ مِنَ اتِّباعِ أَهْلِ الكِتابِ لِقِبْلَتِهِ ، أَيْأَسَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى مِنَ اتِّباعِ النَّبِيِّ ﷺ قِبْلَتَهُمْ : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ ﴾ فَأَنْتَ يا مُحَمَّدُ عَلى قِبْلَةِ إِبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الّذي يُجِلُّونَهُ ، وَلا يَخْتَلِفونَ في حَقيقَةِ مِلَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَكانَ الأَجْدَرُ بِهِمْ أَنْ يُصَدِّقوا بِما جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ ، لأَنَّهُ جاءَ يُحْيي ما كانَ عَلَيْهِ جَدُّهُمْ إِبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ ﴾ فَكُلٌّ مِنْهُمْ مُتَعَصِّبٌ لِقِبْلَتِهِ ، مُقَلِّدٌ تَقْليداً أَعمى لِطائِفَتِهِ ، لا يَحيدُ عَنْ شَعائِرِه أَبَداً حَتّى لَوْ كانَتْ باطِلَةً بَعيدَةً عَنْ الحَقِّ ، فَالنَّصارى مُتَمَسِّكونَ بِقِبْلَتِهِمْ ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَتَّجِهوا في صَلاتِهِمْ إِلى جِهَةٍ أُخْرى ، وَاليَهودُ مُتَمَسِّكونَ بِقِبْلَتِهِمْ لا يُمْكِنُ أَنْ يَتَوَجَّهوا إِلى جِهَةٍ غَيْرِها . ثُمَّ قال سُبْحانَهُ : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : عَلى فَرَضِ أَنْ وافَقْتَهُمْ فيما يُريدونَ ، وَصَلَّيْتَ إِلى قِبْلَتِهِمْ مُجاراةً لَهُمْ ، وَحِرْصاً مِنْكَ عَلى أَنْ يَتَّبِعوكَ وَيُؤْمِنوا بِكَ ، مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ الحَقُّ اليَقينُ بِالنَّصِّ القاطِعِ ، وَالعِلْمِ الّذي لاشَكَّ فيه ، إِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ هذا وَلَنْ تَفْعَلَهُ يا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ إِذاً مِنَ الظّالِمينَ البَعيدينَ عَنْ الحَقِّ .

وَقَدْ ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ بِأَنَّ التَّعْبيرَ بِـ (إِنْ) لِما هُوَ غَيْرُ مُحَقَّقٍ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ حاشاهُ أَنْ يَتَّبِعَ اليَهودُ والنَّصارى وَغَيْرَهُمْ ، وَلكِنْ هذا وَعيدٌ شَديدٌ لِغَيْرِهِ مِمَّنْ يَتَّبِعُ الهَوى ، وَيُحاوِلُ اسْتِرضاءَ النّاسِ بِمُجاراتِهِمْ عَلى ما هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الباطِلِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لَقَدْ تَعَبَّدَنا اللهَ سُبْحانَهُ وَتَعالى فَأَمَرَنا بِالتَّوَجُّهِ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرامِ حَيْثُما كُنّا في أَيِّ بُقْعَةٍ مِنْ بِقاعِ الأَرْضِ ، فَعَلَيْنا بِقَبولِ أَوامِرِ اللهِ تَعالى دونَ جِدالٍ .

٢ـ اليَهودُ يَعْلَمونَ عَنْ مُحَمَّدٍ ودينِهِ ما يَجْعَلُهُمْ يُؤْمِنونَ بِهِ ، وَلكِنَّهُمْ يُنْكِرونَ وَيَجْحَدونَ .

٣ـ إِنَّ الحَقَّ قَوِيٌّ بِذاتِهِ ، فَمَنْ عَدَلَ عَنْهُ وَجارى أَهْلَ الكِتابِ فَهُوَ ظالِمٌ .

٤ـ اتِّباعُ أَهْواءِ النّاسِ وَمُجاراتُهُمْ عَلى الباطِلِ ، وَلَوْ كانَ لِغايَةٍ سَليمَةٍ ، مِثْلَ تَأْليفِ قُلوبِهِمْ لِلدُّخولِ في الإِسْلامِ ، ظُلْمٌ عَظيمٌ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لِمَ كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَطَلَّعُ لِتَحويلِ القِبْلَةِ إِلى البَيْتِ الحَرامِ ؟

٢ـ ما مَعنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؟

٣ـ هَلْ أَجابَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ ؟ وَماذا قالَ لَهُ ؟

٤ـ لِمَ ذَكَرَتِ الآياتُ المَسْجِدَ الحَرامَ ، وَلَيْسَ الكَعْبَةَ ؟

٥ـ هَلْ كانَ الأَمْرُ بِالتَّوَجُّهِ إِلى المَسْجِد الحَرام خاصّاً بِالنَّبِيِّ ﷺ ؟ وَضِّحْ ذلِكَ .

٦ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ خِطابِ الرَّسولِ ﷺ بِتَوَلِّيهِ جِهَةَ المَسْجِدِ الحَرامِ ثُمَّ خِطابِ المُؤْمِنينَ بِذلِكَ ؟

٧ـ هَلْ كانَ يَعْلَمُ أَهْلُ الكِتابِ أَنَّ التَّحَوُّلَ إِلى المَسْجِدِ الحَرامِ حَقٌّ ؟ وَلِمَ كانوا يُثيرونَ الشُّبُهاتِ ؟

٨ـ بِمَ تَوَعَّدَ اللهُ أَهْلَ الكِتابِ ؟ وَلِماذا تَوَعَّدَهُمْ ؟

٩ـ أَيْأَسَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ مِنْ إيمانِ أَهْلِ الكِتابِ ، هاتِ الآيَةَ الَّتي تَدُلُّ عَلى ذلِكَ مُوَضِّحاً لَها .

١٠ـ لا يُمْكِنُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَتَّبِعَ قِبْلَةَ أَهْلِ الكِتابِ أَوْ أَنْ يَتَّبِعوا قِبْلَتَهُ ، وَضِّحْ سَبَبَ ذلِكَ مِنْ خِلالِ الآيةِ .

١١ـ مَنِ المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَمَا بَعضُهُم بِتَابِعٍ قِبلَةَ بَعضٍ﴾ ؟
١٢ـ هَلْ يُمْكِنُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَتَّبِعَ أَهواءَ أَهْلِ الكِتابِ ؟ وَلِمَ خاطَبَهُ بِذلِكَ في الآيَةِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ جاءَ في كِتابِ اللهِ تَعالى بَعْضُ الأَوامِرِ الخاصَّةِ لِلَّرسولِ بِأُسْلوبٍ خاصٍّ ، هاتِ آيتَيْنِ ، واكْتُبْهُما في دَفْتَرِكَ .
٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ سورَةَ (الكافِرونَ) .

* * *

الدَّرْسُ السَّادِسُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الرَّابِعُ والأَرْبَعونَ

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَكْتُمونَ : يُخْفونَ .

المُمْتَرينَ : الشّاكّينَ المُتَرَدِّدينَ .

وِجْهَةٌ : قِبْلَةٌ .

مُوَلّيها : مائِلٌ إِلَيها بِوَجْهِهِ .

التَّفْسيرُ :

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ .

ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ يَعْلَمونَ أَنَّ ما جاءَ بِهِ النَّبِيُّ مِنْ أَمْرِ القِبْلَةِ حَقٌّ ، وَلٰكِنَّهُمْ

يُنْكِرونَ هذا الحَقَّ عِناداً واسْتِكباراً ، وَتَذْكُرُ هذِهِ الآياتُ إنْكارَهُمْ لِما هُوَ أَعْظَمُ وَأَشَدُّ مَعَ مَعْرِفَتِهِمْ وَعِلْمِهِمْ لَهُ ، وَهُوَ النَّبيُّ ﷺ ، فَهُمْ يَعْرِفونَهُ مِنْ صِفاتِهِ الّتي ذُكِرَتْ في كُتُبِهِمْ وَبَشَّرَتْ بِهِ رُسُلُهُمْ ، وَهذِهِ الصِّفاتُ لا تَنْطَبِقُ عَلى أَحَدٍ غَيْرِهِ ، فَهُمْ يَعرِفونَ مَثَلاً أَبْناءَهُمُ الّذينَ هُمْ مِنْ أَصْلابِهِمْ . وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنْ سَلام ـ رَضي اللهُ عَنْهُ ـ وَهُوَ مِنْ عُلَماءِ اليَهودِ الّذينَ أَسْلَموا : أَنا أَعْلَمُ بِهِ مِنّي بابْني ، فَقالَ لَهُ عَمَرُ بنُ الخَطّابِ ـ رَضي اللهُ عَنْهُ ـ : لِمَ ؟ قالَ : لأَنّي لَسْتُ أَشُكُّ في مُحَمَّدٍ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، أَمّا وَلَدي فَلَعلَّ والِدَتَهُ خانَتْ .

وَإِنَّ مِنْهُمْ فَريقاً يَكْتُمُ الحَقَّ وَيُخْفيهِ ، هذا الحَقَّ الّذي لا مِرْيَةَ فيهِ ، وَيَتَمادونَ في إِخْفائِهِ وَجُحودِهِ وَهُمْ يَعْلَمونَ ما يَتَرَتَّبُ عَلى هذا الأَمْرِ مِنْ سوءِ المَصيرِ ، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَكْتُموا الحَقَّ كُلُّهُمْ ، إِذْ مِنْهُمْ مَنِ اعتَرَفَ بِالحَقِّ ، وَآمَنَ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَحَدَهُ وأَنْكَرَهُ . وبَيَّنَ سُبْحانَهُ لِلنَّبيِّ ﷺ تَثبيتاً لَهُ أَنَّهُ عَلى الحَقِّ :

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ .

الحَقُّ هُوَ ما أَتاكَ مِنْ رَبِّكَ وَحْياً ، لا ما يَدَّعيهِ وَيفْتَريهِ اليَهودُ والنَّصارى ، فَالقِبْلَةُ الّتي وَجَّهَكَ اللهُ تَعالى نَحْوَها ، هِيَ القِبْلَةُ الحَقُّ الّتي كانَ عَلَيْها إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . فاعْمَلْ بما أَمَرَكَ اللهُ ، وَلا تَكونَنَّ مِنَ المُمْتَرينَ . وَالشَّكُّ لَيْسَ مَقْصوداً مِنَ الرَّسولِ ﷺ ، فَالمَقْصودُ بِهِ أُمَّةُ الرَّسولِ ﷺ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ لَها قِبْلَتُها الخاصَّةُ بِها الّتي تَتَوَجَّهُ إِلَيْها ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ .

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جِهَةٌ تُوَلّيها في صلاتِها ، حَيْثُ تَوَجَّهَ إبراهيمُ وإسْماعيلُ عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ إِلى الكَعْبَةِ ، وَتَوَجَّهَ بَنو إسْرائيلَ إِلى بَيْتِ المَقْدِسِ ، وَتَوَجَّهَ النَّصارى إِلى المَشْرِقِ ، فَالقِبْلَةُ إِذاً لَيْسَتْ أَمْراً ثابِتاً حَتّى يُثيرَ أَهْلُ الكِتابِ هذِهِ الفِتْنَةَ والشُّبُهاتِ حَوْلَها ، وَإِذا كانَتِ القِبْلَةُ لَيْسَتِ مِنَ الأُصولِ الّتي تَتَّفِقُ عَلَيْها الأُمَمُ ، وَهِيَ مِنَ الفُروعِ الّتي اخْتَلَفَتْ بِاخْتِلافِ الأُمَمِ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تُبادِروا إِلى فِعْلِ أَنواعِ الخَيْرِ ، وَأَنْ يَكونَ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ سَبّاقاً إِلى الخَيْرِ ، كَما قالَ تَعالى : وفي ذَلِكَ فَلْيَتَنافَسِ المُتَنافِسونَ . ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ . [المطففين : ٢٦] .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ .

وبَعْدَ أَنْ أَمَرَ سُبْحانَهُ بالاسْتِباقِ إِلى الخَيْراتِ ، ذَكَرَ الجَزاءَ عَلى ذَلِكَ ، لِيُبيِّنَ أَنَّ الجزاءَ إِنَّما يَكونُ عَلى فِعْلِ الخَيْرِ أَوْ تَرْكِهِ ، وَلَيْسَ عَلى كَوِنِ إِنسانٍ في بَلَدٍ ، وَآخَرُ في بَلَدٍ آخَرِ ، فَأَيْنَما تَكونوا فَإِنَّ اللهَ تَعالى يَأْتي بِكُمْ ، وَيَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الحِساب ، فَالبِلادُ وَالجِهاتُ لا شَأْنَ لَها عِنْدَ اللهِ . وَإِنَّما الشَّأْنُ لِعَمَلِ الخَيْرِ ، وَفي هذا وَعْدٌ وَبِشارَةٌ لِمَنْ يُطيعُ أَمْرَ اللهِ تَعالى ، وَوَعيدٌ لِمَنْ عَصى اللهَ تَعالى ، وَهُوَ سُبْحانَهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ، لا يُعْجِزُهُ حَشْرُ النّاسِ مَهما تَعَدَّدَتْ بُلدانُهُمْ وَجِهاتُهُمْ .

ثُمَّ انْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَأْمُرَ النَّبيَّ ﷺ مَرَّةً ثانِيَةً بِالتَّوَجُّهِ إِلى المَسْجِدِ الحَرام في أَيِّ مَكانٍ كانَ ، وَفي أَيِّ زَمانٍ ، فَالحُكْمُ عامٌ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ ، وَبَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ هذا التَّوَلّي إِلى المَسْجِدِ الحَرامِ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ أَيْ : إِنَّ تَوَليّكَ هُوَ الحَقُّ الثّابِتُ المُحْكَمُ بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ .

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فَأَنْتُمْ أَيُّها المُخاطَبونَ تَحْتَ نَظَرِ اللهِ تَعالى ، لَيْسَ غافِلاً عَنْ أَعْمالِكُمْ .

وَذَكَرَ الأَمْرَ بِالتَّحَوُّلِ إِلى المَسْجِدِ الحَرام مَرَّةً ثالِثَةً ، وَلكِنْ ما الحِكْمَةُ مِنْ ذِكْرِ هذا الأَمْرِ ثَلاثَ مَرّاتٍ هُنا ؟ هُناكَ مَنْ يَقولُ أَنَّ هذا كانَ لِلتَّأْكيدِ ، وَلكِنَّنا حينَما نُمْعِنُ النَّظَرَ نَجِدُ أَنَّ الآياتِ الكَريمَةَ لَمْ تُذْكَرْ لِلتَّأْكيدِ فَقَط ، وَإِنَّما كانَ لِكُلِّ واحِدَةٍ مِنْها غَرَضُها الّذي تُؤَدّيهِ ، وَغايَتُها الّتي تَقْصِدُ إِلَيْها ؛ وَنَحْنُ نَعْلَمُ خُطورَةَ هذِهِ القَضِيَّةِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّها جاءَتْ تَلْبِيَةً لِرَغْبَةِ النَّبيِّ ﷺ ، وَمِنْ حَيْثُ ما فيها من تَميُّزِ المُسْلِمينَ وَاسْتِقلالِ شَخْصِيَّتِهِمْ ، حَتّى في عِبادَتِهِمْ ، وَلَقَدْ كانَ تَحويلُ القِبْلَةِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلى الكَعْبَةِ أَوَّلَ نَسْخٍ في الإِسْلامِ ، لذا وَجَدْنا هذِهِ العَنايَةَ في شَأْنِ هذا التَّحويلِ ، وَمَعَ ذَلِكَ كانَ لِكُلِّ آيَةٍ مَغْزىً خاصٌّ بِها .

فَالآيَةُ الأولى جاءَتْ تُبَيِّنُ لِلنَّبيِّ ﷺ وَالمُؤْمِنينَ ، أَنَ هذِهِ القِبْلَةَ الّتي تَمَنَّيْتُموها وَرَغِبْتُمْ فيها ـ وَقَدْ عَلِمَ اللهُ بِذلِكَ مِنْكُمْ ـ اسْتَجابَ اللهُ لَكُمْ فَوَجَّهَكُمْ إِلَيْها .

وَأَمّا الآيَةُ الثّانِيَةُ ، فَلَقَدْ كانَ الآمْرُ فيها لِبَيانِ قَضِيَّةٍ أُخرى ، وَهِيَ أَنَّ هذِهِ القِبْلَةَ الّتي أَمَرَكُمُ اللهُ أَنْ تَتَحوَّلوا إِلَيْها ، لَنْ تُنْسَخَ أَبَداً وَهِيَ القِبْلَةُ الباقِيَةُ ؛ لِذلِكَ قالَ تَعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ وَأَمّا الآيَةُ الثّالِثَةُ فَجاءَتْ تُبَيِّنُ أَنَّ الهَدَفَ مِنْ هذا الأَمْرِ بِالتَّحَوُّلِ إِلى هذِهِ القِبْلَةِ ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقْطَعوا دابِرَ كُلِّ قَوْلٍ ، فَلا يَبْقى لِلنّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ . وَالمُرادُ بِالنّاسِ هُنا أَهْلُ الكِتابِ وَالمُشْرِكونَ والمُنافِقونَ ، ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ، هذا التَحوُّلُ وَالتَّوَجُّهُ لِئَلا يَكونَ عَلَيْكُمْ حُجّةٌ لأَحَدٍ مِنَ اليَهودِ إلاّ لِلمُعاندينَ مِنْهُمْ ، الَّذينَ يَقولونَ ما تَرَكَ قِبْلَتَنا إلاّ مَيْلاً إلى دينِ قَوْمِهِ وَحُبّاً لِبَلَدِهِ ، وَلَوْ كانَ عَلى الحَقِّ لَلَزِمَ قِبْلَةَ الأَنْبياءِ قَبْلَهُ ، وَقَدْ أَطْلَقَ اللهُ تَعالى عَلى قَوْلِ المُعانِدينَ حُجَّةً ، لأَنَّهُمْ ساقوا كَلامَهُمْ سِياقَ الحُجَّةِ ، فَهؤُلاءِ لا تَخْشَوْهُمْ في تَوَجُّهِكُمْ إِلى الكَعْبَةِ ، لأَنَّ كَلامَهُمْ لا يَسْتَنِدُ إِلى حُجَّةٍ ، وَاخْشَوْا اللهَ وَحْدَهُ ، لأَنَّهُ القادِرُ عَلى جَزائِكُمْ ، وَفي خَشْيَتِكُمْ لي ما يُؤَدّي إِلى إِتْمامِ نِعْمَتي عَلَيْكُمْ بِالهِدايَةِ والسَّدادِ وَالرَّشادِ .

دروس وعبر

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ منها :

١ـ تَعَنُّتُ أَهْلِ الكِتابِ وَإِصرارُهُمْ عَلى الكُفْرِ مَعَ مِنْ عِلْمِهِمْ بِالحَقِّ وَبِنُبُوَّةِ الرَّسولِ ﷺ .

٢ـ الصِّراعُ بَيْنَ الحَقِّ وَالباطِلِ قائِمٌ إلى يَوم الدّينِ .

٣ـ الفِتَنُ تُنيرُ الطَّريقَ لأَهْلِ الحَقِّ ، إِذْ إِن أَهْلَ الباطِلِ يُثيرونَ الشُّبُهاتِ ، وَيَبْحَثونَ عَنِ الهَفَواتِ ، وَطالِبُ الحَقِّ يَسْتَفيدُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ ، وَيَبْحَثُ عَنِ العِبْرَةِ .

٤ـ امْتِثالُ أَوامِرِ اللهِ تَعالى نِعْمَةٌ عَظيمَةٌ ، وَتكونُ هذِهِ النِّعمَةُ أَكْمَلَ وَأَتَمَّ إذا كانَتِ الحِكْمَةُ ظاهِرَةً في هذا الأَمْرِ الإلهيِّ ، وَإِذا كانَ فيهِ شَرَفٌ للأُمَّةِ .

٥ـ التَّنافُسُ في عَمَلِ الخَيْرِ ، التَّقَرُّبُ إِلى اللهِ بِالعِباداتِ وَالطّاعاتِ .

٦ـ خَشْيَةُ اللهِ تَعالى مِنَ أَعْظَمِ الأُمورِ الدّالَّةِ عَلى صِدْقِ المُؤْمِنِ ، وَهِيَ تُجَنِّبُ الأُمَّةَ الكَثيرَ مِنَ الزَّلاتِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ يُنْكِرونَ أَمْراً عَظيماً ، ما هذا الأَمْرُ ؟

٢ـ هَلْ كانَ أَهْلُ الكِتابِ يَعْرِفونَ النَّبيَّ ﷺ ؟ اذْكُرْ دَليلَ ذلِكَ مِنَ الآياتِ الكَريمَةِ .

٣ـ كَيْفَ كانَتْ مَعْرِفَتُهُمْ لِلنَّبيِّ ﷺ أَكْثَرَ مِنْ مَعْرِفَتِهِمْ لأَبْنائِهِمْ ؟

٤ـ ما مَعْنى : ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ ؟ وَهَلْ هذا مَقْصودٌ في حَقِّ النَّبيِّ ﷺ ؟

٥ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ﴾ .

٦ـ ذَكَرَتِ الآياتُ الجَزاءَ الَّذي أَعَدَّهُ اللهُ تَعالى لِهؤلاءِ الَّذينَ يَتَسابَقونَ في الخَيراتِ ، وَضِّحْ ذلِكَ .

٧ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ ذِكْرِ تَحويلِ القِبْلَةِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ في السّورَةِ الكَريمَةِ ؟

٨ـ ما المَنافِعُ المَرْجُوَّةُ مِنَ التِزامِ المُسْلِمينَ بِالتَّوَجُّهِ إِلى البَيْتِ الحَرامِ كَما ذَكَرَتْها الآياتُ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أَسماءَ بَعْضِ اليَهودِ الَّذينَ أَسْلَموا وَاتَّبَعوا مُحَمَّداً ﷺ .

* * *

الدرس السابع والأربعون

سورة البقرة ـ القسم الخامس والأربعون

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

معاني المفردات :

يُزَكِّيكُمْ	يُطَهِّرُكُمْ مِنَ الشِّرْكِ ، ويَرْفَعُ مِنْ أخْلاقِكُمْ .
الحِكْمَةَ	سُنَّةَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، أو حُسْنَ الفَهْمِ عَنْهُ .
بالصَّبْرِ	بتَوْطينِ النَّفْسِ عَلى احْتِمالِ المَكارِهِ .
لَنَبْلُوَنَّكُمْ	لَنَخْتَبِرَنَّكُمْ وَنَمْتَحِنَنَّكُمْ .
مُصيبَةٌ	أَمْرٌ مَكْروهٌ .

التَّفسيرُ :

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ .

ما زالَ السِّياقُ ، سِياقُ تَحويلِ القِبْلَةِ ، فهو سُبْحانَهُ يَقولُ إنَّهُ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ أيُّها المؤمِنونَ

باسْتيلائِكُمْ عَلى بَيْتِهِ الّذي جَعَلَهُ قِبْلَةً لَكُمْ ، وتَطهيرِكُمْ إيّاهُ مِنْ عِبادَةِ الأَصْنام والأَوْثانِ ، وهُوَ البَيْتُ الّذي جَعَلَهُ في بلادِكُمْ ، وَجَعَلَهُ مَوْضِعَ فَخْرِكُمْ وعِزِّكُمْ ، كَما أَتَمَّ تِلْكَ النِّعْمَةَ عَلَيْكُمْ بإرْسالِهِ رَسولاً مِنْكُمْ ، فالكافُ في (كَما) للتَّشبيهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ قَدْ أَكْرَمَ العَرَبَ بِأَنْ جَعَلَ الرَّسولَ ﷺ مِنْهُمْ ، وهَذِهِ نِعْمَةٌ لَيْسَ بَعْدَها نِعْمَةٌ .

وهَذا الرَّسولُ لَهُ صِفاتٌ عَظيمةٌ تَدُلُّ عَلى عَظَمَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فَهُوَ رَسولٌ مِنْكُمْ ومِنْ صِفاتِهِ :

١ـ ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ وتِلاوَةُ الآياتِ قِراءَتُها ، والمَقْصودُ بِها آياتُ القُرْآنِ الكَريمِ المتلوَّةُ . وهَذِهِ الآياتُ تَدُلُّ عَلى دينِ التَّوْحيدِ وطُرُقِ الهِدايَةِ الّتي جاءَ بِها محمَّدٌ ﷺ إنّما هِيَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى ، وهَذِهِ الجُمْلَةُ كَذلِكَ تَدُلُّ عَلى صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ ، فَهُو أُمِّيٌّ لا يَقْرَأُ ولا يَكْتُبُ ، ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ جاءَ يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِ اللهِ العظيمةَ .

وقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِهذا الرَّسولِ الّذي يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِهِ ، لأَنَّهُ في ذَلِكَ يَهْديهِمْ إلى الحَقِّ المَصْحوبِ بالدَّليلِ والبُرْهانِ العَقْلِيِّ ، ولَيْسَ بالتَّسليمِ دونَ تَبَصُّرٍ وفَهْمٍ .

٢ـ الصِّفَةُ الثّانِيَةُ ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ يُطَهِّرُ نُفوسَكُمْ مِنَ الأَخْلاقِ السَّيئَةِ ، ومِنَ الرّذائِلِ الّتي تَمْقُتُها النَّفْسُ ، ويُحلّي نُفوسَكُمْ بالأَخْلاقِ الحَميدَةِ ، فَقَدْ كانَ مِنْ رَذائِلِهِمْ دَفْنُهُمْ لِبَناتِهِمْ وهُنَّ أَحْياءُ ، وَقَتْلُهُمْ لأولادِهِمْ خَوْفاً مِنَ الفَقْرِ ، وسَفْكُ دماءِ بَعْضِهِمْ لأَتْفَهِ الأَسْبابِ ، وعلى رَأْسِ هَذِهِ الرَّذائِلِ الشِّرْكُ باللهِ .

فَرَسولُ اللهِ ﷺ زَكّى المُسْلِمينَ بِتِلْكَ الأَخْلاقِ الكَريمةِ العالِيَةِ ، فَمَلَكوا الشُّعوبَ وفَتَحوا البُلْدانَ ، وكانوا الأَئِمّةَ ، والقادَةَ لأَعْظَمِ الشُّعوبِ . وهَذِهِ الصِّفَةُ تَتَعلَّقُ بِتَهذيبِ الأَخْلاقِ .

٣ـ وانْتَقَلَ بَعْدَ ذِكْرِ الأَخْلاقِ وهِيَ تَربيةٌ بالقُدْوَةِ ، إلى قَضِيَّةِ التَّعليمِ ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ يُعَلِّمُكُمُ القُرْآنَ الكَريمَ ، فَيُبَيِّنُ لَكُمْ ما خَفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ معانٍ وأَسْرارٍ وحِكَمٍ ، لِتَهْتَدوا بِهَدْيِهِ ، والحِكْمَةُ هِيَ العِلْمُ المُقْتَرِنُ بِأَسْرارِ الأَحْكامِ ومَنافِعِها ، الباعِثُ عَلى العَمَلِ ، والمَقْصودُ بِها السُّنَّةُ الّتي جاءَتْ مُفَصِّلَةً لِمُجْمَلِ القُرْآنِ الكَريمِ ، مُبَيِّنَةً لِمُبْهَمِهِ ، فَكانَتْ سيرَةُ الرَّسولِ ﷺ العَمَلِيَّةُ في بَيْتِهِ ومَعَ أَصْحابِهِ ومَعَ أَعْدائِهِ خَيْرَ هادٍ للأُمَّةِ .

لَقَدْ أرادَ الرَّسولُ ﷺ أَنْ يَكونَ صَحابَتُهُ فُقَهاءَ حُكَماءَ أَذْكِياءَ ، فالعِلْمُ وَحْدَهُ لا يَكْفي ، ولَكِنْ لابُدَّ مِنْ فِقْهٍ يَفْهَمونَ بِهِ أَسْرارَ الحُكْمِ .

٤ـ ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، أيْ : إنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يُعَلِّمُكُمْ مَعَ الكِتابِ والحِكْمَةِ ما لا يُمْكِنُكُمْ مَعْرِفَتُهُ ، إلاّ عَنْ طَريقِ الوَحْيِ ، وذَلِكَ مِثْلُ الأَخْبارِ الغَيْبِيَّةِ ، وسِيَرِ الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وأَحْوالِ الأُمَمِ ، ويُعَلِّمُكُمْ كَذلِكَ كَيْفَ تَكونُ شُؤونُكُمْ مَعَ العالَمِ ، ويُعَلِّمُكُمْ

سِياسَةَ الحُروبِ ويُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَعْلَموهُ مِنْ شُؤونِ أَنْفُسِكُمْ .

وَهَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ اللهِ تَعالى فالواجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُقابِلوها بِما يَليقُ بِها ، ولِذلِكَ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ .

أيْ اذْكُروني بِأَلْسِنَتِكُمْ بالحَمْدِ والتَّسْبيحِ والتَّمْجيدِ وتَلاوةِ آياتي ، واذْكُروني بِقُلوبِكُمْ بِتَفَكُّرِكُمْ في الدَّلائِلِ الدَّالَّةِ عَلى ذاتي وصِفاتي ، وبِتَفَكُّرِكُمْ في تَكاليفي وأَحْكامي وأَوامِري ونَواهِيَّ ، وأَسْرارِ مَخْلوقاتي ، فالتَّفَكُّرُ يُقوِّي مِنْ إيمانِ الإنْسانِ ويُصَفِّي نَفْسَهُ ويُزَكِّيها .

واذْكُروني بِجوارِحِكُمْ ، وذلِكَ بالقِيامِ بِما أَمَرْتُكُمْ بِهِ ، واجْتِنابِكُمْ ما نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ ، فإذا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ ذَكَرْتُكُمْ بالرِّعايَةِ والنُّصْرَةِ ، وصَلاحِ الحالِ في الدُّنْيا ، والرَّحْمَةِ وعَظيمِ الثَّوابِ في الآخِرَةِ . وأيُّ شَيْءٍ أعْظَمُ للإِنْسانِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَعالى ، وأعْظِمْ بحالِ الإنْسانِ إذا كانَ الّذي يَذْكُرُهُ هُوَ خالِقُ العِبادِ كُلِّهِمْ .

أَخْرَجَ الإمامُ البُخاريُّ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « يقول اللهُ تَعالى أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدي بي ، وأنا مَعَهُ حينَ يَذْكُرُني ، فإنْ ذَكَرَني في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسي ، وإنْ ذَكَرَني في مَلأٍ ذَكَرْتُهُ في مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وإنْ تَقَرَّبَ إليَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعاً ، وإنْ تَقَرَّبَ إليَّ ذِراعاً تَقَرَّبْتُ إليهِ باعاً ، وإنْ أَتاني يَمْشي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً »[1] .

هَكَذا عَلَّمَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنَ كَيْفَ يَحْفَظُ اللهُ تَعالى نِعمَهُ عَلَيْهِ : ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ ، ثُمَّ عَلَّمَهُ أيْضاً كَيْفَ يَزيدهُمُ سُبْحانَهُ مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ ، فَقالَ تَعالى : ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ اشْكُروا لي هَذِهِ النِّعَمَ بالعَمَلِ ، بِأَنْ تَسْتَعْمِلوا تِلْكَ النِّعَمَ فيما خُلِقَتْ لَهُ ، وبِأَنْ تُطيعوني في السِّرِّ والعَلَنِ ، وبِأَنْ تَعْتَرِفوا بإحْساني إلَيْكُمْ ، ولا تَكْفُروا هَذِهِ المِنَنَ وتَجْحَدوها ، وتَسْتَعمِلوها فيما حَرَّمْتُهُ عَلَيْكُمْ ، قالَ تَعالى : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إبراهيم : ٧] ، وفي هذا تَحْذيرٌ للإنْسانِ مِنْ أَنْ يَكْفُرَ باللهِ وبِنِعَمِهِ فَيَحِلُّ عَلَيْهِ ما حَلَّ بالأُمَمِ الأُخْرى ، الّتي كَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ تَعالى ، فَأَذاقَها اللهُ لِباسَ الجوعِ والخَوْفِ .

الابتلاءُ سُنَّةُ اللهِ في الحياةِ :

لَقَدْ أنْعَمَ اللهُ تَعالى عَلى الإنْسانِ بِنِعَمٍ كَثيرةٍ ، تِلْكَ الّتي عَدَّدَها عَلَيْنا سُبْحانَهُ وتَعالى ، وقَدْ عَلَّمَنا سُبْحانَهُ كَيْفَ نَحْفَظُ تِلْكَ النِّعَمُ مِنَ الزَّوالِ ، ولَيْسَ هَذا فَقَط ، بَلْ عَلَّمَنا كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يُنْعِمَ اللهُ عَلى

---

(١) صحيحه البخاري ، حديث رقم ٦٧٩٠ .

الإنْسانِ بزيادَةِ تِلْكَ النِّعَمِ ، ولَكنَّ هَذِهِ النِّعَمَ تُقْرَنُ دائِماً بضُروبٍ مِنَ البَلاءِ ، وأَلْوانٍ مِنَ المصائِبِ ، أَعْظَمُها ما يُلاقيهِ الإنْسانُ مِنَ أَهْلِ الباطِلِ ومُقاوَمَتِهِمْ لِلْحَقِّ وأَهْلِهِ وأحبّائِهِ ، لِذا كانَ لابُدّ بَعْدَ الأَمْرِ بالشُّكْرِ مِنَ الأَمْرِ بالصَّبْرِ .

يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ .

اسْتَعينوا عَلى إقامَةِ دينِكُمْ والدِّفاعِ عَنْهُ وعَلى فِعْلِ الطّاعاتِ وتَرْكِ المعاصي ، وعَلى احْتِمالِ المَكارِهِ ، وسائِرِ ما يَشُقُّ عَلَيْكُمْ مِنَ مَصائِبِ الحياةِ ، بالصَّبْرِ أَوّلاً . والصَّبْرُ أَنْواعٌ : صَبْرٌ عَلى الطّاعاتِ ، وصَبْرٌ عَنْ المعاصي ، وصَبْرٌ عَلى المَصائِبِ والمكارِهِ الّتي تُصيبُ الإنْسانَ . ولِعِظَمِ الصَّبْرِ ذَكَرَهُ القُرْآنُ الكَريمُ سَبْعينَ مَرَّةً .

والصَّبْرُ مَلَكَةٌ اكْتِسابِيَّةٌ تُمَكِّنُ الإنْسانَ مِنَ الثَّباتِ والاحْتِمالِ ، فَتُهَوِّنُ عَلى صاحِبِها كُلَّ ما يُمْكِنُ أَنْ يُلاقيهِ في سَبيلِ الحَقِّ ونُصْرَتِهِ .

وأَمَرَ سُبْحانَهُ كَذلِكَ بالاسْتِعانَةِ بالصَّلاةِ المَقْرونَةِ بالخُشوعِ والإخْلاصِ والتَّذَلُّلِ والمحَبَّةِ للهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج : ١٩-٢٢] ، وقالَ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، وقال سُبْحانَهُ : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] ، إذاً لَيْسَ المَقْصودُ بالصَّلاةِ مُجَرَّدُ الحَرَكاتِ مِنْ رُكوعٍ وسُجودٍ ، ولَكِنْ لابُدَّ مِنْ أَنْ تُؤَدى بكامِلِ أَرْكانِها ، والّتي مِنْ أهمِّها الخُشوعُ وحَضورُ القَلْبِ مَعَ اللهِ ، ولابُدَّ أَنْ تُؤتي ثِمارَها فَتَنْهى الإنْسانَ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ .

وكِلا هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ فيهِ خُضوعٌ واسْتِسلامٌ للهِ ، فالصَّبْرُ أَشَدُّ الأَعْمالِ الباطِنَةِ عَلى البَدَنِ ، والصَّلاةُ أَشَدُّ الأَعْمالِ الظّاهِرَةِ عَلَيْهِ .

وقَدْ خَتَم سُبْحانَهُ الآيَةَ بقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ فَهُمْ مَوْعودونَ مِنَ اللهِ تَعالى بالنَّصْرِ والمَعونَةِ ، ومَنْ كانَ اللهُ مُعينَهُ وناصِرَهُ فَلا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ ، وتِلْكَ سُنَّةُ اللهِ في الحياةِ . ولَمْ يَقُلْ لَهُمْ سُبْحانَهُ (إنَّ اللهَ مَعَكُمْ) ولكنَّهُ قالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ لِيُفيدَ أَنَّ مَعونَتَهُ إِنَّما تَصِلُ إِلَيْهِمْ ، إذا صارَ الصَّبْرُ وصْفاً مُلازِماً لَهُمْ . وأَعْظَمُ ما يُسْتَعانُ عَلَيْهِ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ :

١ـ القَتْلُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى وفي سَبيلِ دَعْوَةِ الحَقِّ ، فقالَ تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ .

أيْ : لا تَقولوا في شَأْنِ مَنْ قُتِلَ في سَبيلِ إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تعالى ، ونُصْرَةِ دينِه إنَّهُمْ أَمْواتٌ ، بَلْ

هُمْ أَحياءٌ في عالَمْ غَيْرِ عَالَمِكُمْ ، ولَكِنْ لا تَشْعرونَ بحَياتِهِمْ ، ولا تَحُسّونَهُمْ بِمَشاعِرِكُمْ ، فَهِيَ حَياةٌ غَيْبِيَّةٌ تَمتازُ بِها أَرْواحُ الشُّهَداءِ ، حَيْثُ يُرْزَقونَ ويَنْعُمونَ ، ولا نَعْرِفُ حَقيقةَ هذهِ الحَياةِ ، ولا الرِّزْقَ الّذي يَكونُ فيها . قالَ تَعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٦٩ـ١٧١] .

٢ـ وممّا يُسْتَعانُ عَلَيْهِ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ ، المَصائبُ الّتي يَبْتَلي اللهُ بِها النّاسَ ويَمْتَحِنُهُمْ بِها .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ .

أَيْ : واللهِ لَنَخْتَبِرَنَّكُمْ بِبَعْضِ ضُروبٍ :

أـ الخَوْفِ ، وهُوَ ذَلِكَ الغَمُّ الّذي يَلْحَقُ بالنَّفْسِ لِتَوقُّعِها مَكْروهاً ، ومِنْ أَشَدِّ ما تَضْطَرِبُ لَهُ النَّفْسُ خَشْيَتُها مِنْ أَنْ تَقَعَ تَحْتَ يَدِ الأَعْداءِ .

ب ـ ونَخْتَبِرُكُمْ أيضاً بما يُصيبُكُمْ مِنَ الجوعِ ونَقْصِ الثِّمارِ والأَمْوالِ والأَنْفُسِ ، وقَدْ حَدَثَ هَذا مَعَ رسولِ اللهِ وصِحابَتِهِ فابْتَلاهُمُ اللهُ بالخَوْفِ مِنَ العَدوِّ ، وابْتَلاهُمْ بِالجوعِ حتّى كانَ أَحَدُهُمْ يَشُدُّ بَطْنَهُ بالحَجَرِ مِنْ شِدَّةِ الجوعِ ، وابْتَلاهُمْ بِمَوْتِ مَنْ يُحبّونَ مِنَ الأَبْناءِ والآباءِ .

وإنَّما كانَتْ هَذِهِ الابْتِلاءاتُ لِيُوَطِّنوا أَنْفُسَهُمْ على الصَّبْرِ ، فإذا أَصابَتْهُمْ هَذِهِ الأُمورُ لَمْ يَجْزَعوا ولَمْ يَحْزَنوا ، وإذا ما صَبَروا اسْتَحقّوا عَظيمَ الثَّوابِ مِنَ اللهِ تَعالى ، ولِذَلِكَ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ .

أيْ : بَشِّرِ الصّابِرينَ الّذينَ يَقولونَ هَذِهِ المَقولَةَ الّتي تُعَبِّرُ عَنْ إيمانِهِمْ بِقَضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ ؛ بَشِّرْهُمْ بالظَّفَرِ والنَّصْرِ وحُسْنِ العاقِبَةِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وبَشِّرْهُمْ بالرَّحْمَةِ العَظيمَةِ والإِحْسانِ الجَزيلِ ، فَهُمْ إذا نَزَلَتْ بِهِمْ مُصيبَةٌ في نُفوسِهِمْ أَوْ أَوْلادِهِمْ أَوْ أَموالِهِمْ ، سَلَّموا تَسْليماً مُطْلَقاً للهِ بِقُلوبِهِمْ وأَلْسِنَتِهِمْ وقالوا : ﴿ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ .

أَخْرَجَ الإِمامُ مُسْلمُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْها ـ أَنَّها قالَتْ : سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ يَقولُ : « ما مِنْ عَبْدٍ تُصيبُهُ مُصيبَةٌ فَيقولُ : إنّا للهِ وإنّا إليهِ راجعونَ ، اللّهُمَّ أَجِرْني في مُصيبَتي واخْلُفْ لي خَيْراً مِنْها ، إلاّ آجَرَهُ في مُصيبَتِهِ ، وأَخْلَفَ لَهُ خَيْراً مِنها »[1] .

---

(١) صحيح مسلم ، باب ما يقال عند المصيبة ، حديث رقم ٩١٨ .

ما نَتيجَةُ أُولئِكَ الصّابِرينَ ؟

يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ .

أُولئِكَ الصّابِرونَ لَهُمْ مَغفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ومَدْحٌ على ما فَعَلوا ، ورَحْمَةٌ يَجدونَ أَثَرَها في قُلوبِهِمْ عِنْدَ حُلولِ المَصائِبِ ، وفي رَحْمَةٍ يَحْسِدُ الكافِرونَ عَلَيْها المُؤْمِنينَ ، لأنَّ الكافِرَ مَحْرومٌ مِنْ هذهِ الرَّحْمَةِ ، فإذا نَزَلَتْ بِهِ مُصيبَةٌ ضاقَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ بما رَحُبَتْ ، حتّى أنَّهُ يَتَمنّى أَنْ يَخْلُصَ مِنْ حَياتِهِ لِعِظَمِ ما يَحِلُّ بِهِ ، وأُولئِكَ هُمْ وَحْدَهُمُ المُهْتَدونَ إلى الحَقِّ والصَّوابِ ، وسَيَفوزونَ بالخَيْرِ والرَّحْمَةِ والرّاحَةِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ بالشُّكْرِ تَدومُ النِّعَمُ ، وبالكُفْرِ تَزولُ الأُمَمُ وتَحِلُّ النِّقَمُ .

٢ـ الأَعْمالُ العَظيمَةُ لا تَنْجَحُ إلاّ بالثَّباتِ والدَّأَبِ عَلَيْها ، ومَدارُ ذَلِكَ الصَّبْرُ ، ومَنْ صَبَرَ فَهُوَ عَلى سُنَّةِ اللهِ ، واللهُ مَعَهُ يُسَهِّلُ لَهُ العَسيرَ ، ويَجْعَلُ لَهُ فَرَجاً مِنْ ضيقِهِ .

٣ـ الابْتِلاءُ سُنَّةُ اللهِ في الحياةِ ، والمُؤْمِنُ المُهْتَدي مَنْ قابَلَ تِلْكَ المَصائِبَ بالصَّبْرِ .

٤ـ المُؤْمِنُ يُسَلِّمُ بَقَدَرِ اللهِ تَعالى ، وإذا أصابَتْهُ مُصيبَةٌ قالَ : إنّا للهِ وإنّا إليهِ راجِعونَ .



التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ذَكَرَتِ الآياتُ صِفاتٍ للنَّبيِّ ﷺ ، اذْكُرْ هَذهِ الصِّفاتِ مَعَ الدَّليلِ .

٢ـ ما المَقْصودُ بِقولِهِ تَعالى : ﴿وَيُزَكِّيكُم﴾ ؟

٣ـ ما الحِكْمَةُ في قولِهِ تَعالى : ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ؟

٤ـ كَيْفَ يَنْبَغي عَلى المُسْلِمينَ أَنْ يُقابِلوا نِعْمَةَ اللهِ العَظيمةَ الّتي أنْعَمَ بِها عَلَيْهِمْ .

٥ـ كَيْفَ يَكونُ ذِكْرُ اللهِ تَعالى لِمَنْ ذَكَرَهُ ؟

٦ـ ما المقصودُ بالصَّبْرِ ؟ وما أنواعُ الصَّبْرِ ؟

٧ـ لِماذا أَمَرَتِ الآياتُ بالاسْتِعانةِ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ ؟

٨ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أَمْراً عَظيماً يَنْبغي للمُسْلِمِ أَنْ يَسْتَعينَ عَلَيْهِ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ ، ما هذا الأَمْرُ ؟

٩ـ ما المَقْصودُ بِحياةِ الشُّهداءِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ ؟

١٠ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أَنَّ اللهَ تَعالى يَبْتَلي الإنْسانَ بِبَعْضِ صُنوفِ الابْتِلاءاتِ ، اذْكُرْ بَعْضَ هَذِهِ الأُمورِ ؟

١١ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ هذهِ الابْتِلاءاتِ الّتي يَبْتَلي اللهُ بِها الإنْسانَ ؟

١٢ـ ما الجَزاءُ الّذي أعَدَّهُ اللهُ للصّابِرينَ ؟ وما دَليلُ ذَلِكَ ؟



١ـ هناكَ آياتٌ كَوْنِيَّةٌ مَرْئِيَّةٌ تَدُلُّ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ ، اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ثَلاثاً مِنْها .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ خَمْساً مِنَ الرَّذائِلِ الّتي كانَ العَرَبُ يَتَمسَّكونَ بِها قَبْلَ الإِسْلامِ ، وجاءَ الإسلامُ وغَيَّرَها .

٣ـ هُناكَ آياتٌ كَثيرةٌ كانَتْ تَشْكُلُ عَلى الصَّحابةِ ، فلا يَفْهمونَها ، ويَرْجِعونَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ، اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مِثالَيْنِ لِذلِكَ .

٤ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ سورةَ قُرَيْشٍ ، وبَيِّنْ مِنْها نِعَمَ اللهِ عَلى الإنْسانِ .

٥ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ سورَةَ العَصْرِ .

٦ـ اكْتُبِ في دَفْتَرِكَ بِإيجازٍ ما لَحِقَ بالرَّسولِ ﷺ وبالمُؤْمِنينَ عِنْدَما قاطَعَتْهُمْ قُرَيْشٌ في شِعْبِ بَني هاشِمٍ .

٧ـ هَلْ يَتنافى الحُزْنُ مَعَ الصَّبْرِ ، أَجِبْ عَنْ ذَلِكَ مِنْ خِلالِ ذِكْرِكَ لِما كانَ مِنَ الرَّسولِ ﷺ حينَ حَضَرَتِ الوَفاةُ ابْنَهُ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ .

٨ ـ وَرَدَتْ آيةٌ كَريمةٌ عِنْدَ الحَديثِ عَنْ بَني إسْرائيلَ بقولِهِ تَعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴾ ، وَوَرَدَت بِحَقِّ المُؤْمِنينَ آيةٌ بِقَوْلِ اللهِ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ ، تَدَبَّرِ الآيَتيْنِ ، وَبَيِّنْ ما خَصَّ اللهُ بِهِ المُؤْمِنينَ مِنْ أَتْباعِ مُحمّدٍ ﷺ .

* * *

الدَّرسُ الثّامِنُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ البَقرَةِ ـ القِسْمُ السّادِسُ والأَرْبَعونَ

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الصّفا والمَرْوةَ	: جَبلانِ صَخْريّانِ صغيرانِ قُرْبَ الكَعْبَةِ ، يَسْعى بَيْنَهُما الحُجّاجُ والمُعْتَمِرونَ .
الحَجُّ	: لغة : القَصْدُ ، واصْطِلاحاً : قَصْدُ البَيْتِ الحرامِ لأداءِ المَناسِكِ المَعروفَةِ .
شعائِرِ	: الشّعائرُ : مَعالِمُ الدّينِ .
العُمْرةَ	: زيارَةَ البَيْتِ المُعَظّمِ عَلى وَجْهٍ مَخْصوصٍ .
لا جُناحَ	: لا إثْمَ .
يَلْعَنُهُمْ	: اللّعنةُ : الطّرْدُ والإبْعادُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ تَحدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنْ قَضيَّةِ تَحويلِ القِبْلَةِ ، وتَتحدَّثُ هَذِهِ الآياتُ عَنْ شَعيرةٍ مُتَّصِلَةٍ بالبَيْتِ الحَرامِ وهِيَ مناسكُ الحَجِّ . يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ .

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ إنَّ هَذينِ المَوْضِعَيْنِ مِنْ عَلاماتِ دينِ اللهِ تَعالى ، وكُلُّ ما يَقومُ بِهِ المُسْلِمُ مِنْ أعمالِ الحَجِّ ، تُسَمّى شَعائِرَ ، وكلُّ ما تَعبَّدْنا اللهَ بِهِ مِنْ صلاةٍ وحَجٍّ تُسمّى شَعائِرَ ، ولَكِنْ غَلَبَ اسْتِعمالُ هَذِهِ الكَلِمَةِ على أعْمالِ الحَجِّ ، فقدْ قالَ تَعالى : ﴿ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ ، والصَّفا والمَرْوَةُ شَعيرتانِ مِنْ شَعائِرِ الحَجِّ أَمَرَنا اللهُ بالسَّعْي بَيْنَهما ، يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ مَنْ أدّى فَريضَةَ الحَجِّ ، أو أدّى العُمْرَةَ ، فلا يَتَحرَّجُ مِنَ السَّعْي بَيْنَ الصَّفا والمَرْوَةِ ، وذلِكَ لأنَّ المُشْرِكينَ كانوا يُحْرِمونَ لِصَنَمِهِمُ الّذي يُسَمّى (مناةَ) ، ثُمَّ يَسْعَوْنَ بَيْنَ الصَّفا والمَرْوةِ لِيَتَمَسَّحوا وَيَتَبرَّكوا بِصَنَمَيْنِ كانا عَلَيْهما ، فاعْتَقَدَ المُسْلِمونَ أنَّهُمْ إنْ سَعَوْا بَيْنَ الصَّفا والمَرْوَةِ ، فَكَأَنَّهُمْ عَظَّموا تِلْكَ الأَصْنامَ ، فَبيَّنَ لَهُمْ سُبْحانَهُ أنْ لا حَرَجَ عَلَيْهِمْ في ذلِكَ ، وإنَّ السَّعْيَ لابُدَّ مِنْهُ في الحَجِّ والعُمْرَةِ .

أخْرجَ الإمامُ البُخاريُّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ : سَأَلْتُ عائِشَةُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْها ـ فَقُلْتُ لَها : أَرأيْتِ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ فواللهِ ما عَلى أحَدٍ جُناحٌ أَنْ لا يَطوَّفَ بالصَّفا والمَرْوَةِ! قالَتْ : بِئْسَ ما قُلْتَ يا ابنَ أُخْتي! إنَّ هذهِ الآيَةَ لوَ كانتْ كما أَوَّلْتَها لَكانَتْ : لا جُناحَ عَلَيْهِ أنْ لا يَطَّوَّفَ بِهما ، ولَكِنَّ الآيَةَ أُنْزِلَتْ في الأنْصارِ ، كانوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِموا يُهِلّونَ لِمناةَ الطّاغِيَةِ ، الّتي كانوا يَعْبُدونَها عِنْدَ المَشْعَرِ ، فَكانَ مِنَ أَهَلَّ يَتَحرَّجُ أنْ يَطوفَ بالصَّفا والمَرْوَةِ ، فَلَمّا أَسْلَموا سَأَلوا رَسولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذلِكَ ؟ فَقالوا : يا رَسولَ اللهِ ، إنّا كُنّا نَتحرَّجُ أَنْ نَطوفَ بَيْنَ الصَّفا والمَرْوَةِ فأَنْزَلَ اللهُ تَعالى الآياتِ .

﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ مَنْ تَطوَّعَ في هَذِهِ الشّعائِرِ والمناسِكِ ، فَزادَ على الفَريضةِ ، فَكرَّرَ الحَجَّ أَكْثَرَ مِنْ مَرّةٍ ، أوِ اعْتَمَرَ وكَرَّرَ العُمْرَةَ ؛ فإنَّ اللهَ تَعالى يُجازيهِ بالإحْسانِ إحْساناً . وقَدْ عَبَّرَ سُبْحانَهُ وتَعالى عَنْ الإحْسانِ بالشُّكْرِ ؛ وذلِكَ لِتَعْويدِ النّاسِ الآدابَ العالِيَةَ والأَخْلاقَ الحَسَنَةَ ، إذْ إنَّ مَنفعةَ عَمَلِهِمْ عائِدَةٌ إلَيْهِمْ وَحْدَهُمْ ، ومَعَ ذلِكَ فَقَدْ شَكَرَهُمُ اللهُ تَعالى على هَذِهِ الأَعْمالِ ، أَفَبَعْدَ هذهِ النِّعَمِ الكَثيرةِ الّتي يُنْعِمُ اللهُ بها عَلَيْنا ؛ نُقابِلُها بالجُحودِ والنُّكْرانِ ؟ وهَلْ يَليقُ بالإنْسانِ أنْ لا يَشْكُرَ نِعْمَةَ مَنْ أَسْدى إليهِ المَعروفَ وغَمَرَهُ بالنِّعَمِ ؟

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

وبَعْدَ أَنْ تَحدَّثَتِ الآياتُ عَنْ تِلْكَ الشّعائِرِ الّتي تُؤدّى في البَيْتِ الحَرامِ ، أَتْبَعَها سُبْحانَهُ بِبيانِ

عاقِبَةِ أُولئكَ الّذينَ يَجْحَدونَ نِعَمَ اللهِ تَعالى ، فَيُحاوِلونَ كِتْمانَ الآياتِ الواضِحَةَ البَيِّنَةَ الّتي أَنْزَلَها اللهُ تَعالى ، فَأَهْلُ الكِتابِ يُخْفونَ ما أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ سواءً ما كانَ يَتعلَّقُ بِصِفاتِ النَّبِيِّ ﷺ الّتي ذُكِرَتْ في كُتُبِهِمْ ، والّتي لا تَنْطَبِقُ إلاّ على الرَّسولِ ﷺ ، حيثُ حَذَفوا الكَثيرَ مِنَ الصِّفاتِ المَذْكورَةِ في التَّوراةِ ، والبِشاراتِ الّتي بَشَّرَتْ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، أَمْ ما كانَ يَتعلَّقُ بِبَعْضِ الأَحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ ، حَيْثُ أَخْفَوْا مَثَلاً ما يَتعلَّقُ بِحُكْمِ الزّاني ، وقَدْ كانوا عِنْدَ تَرجَمَةِ كُتُبِهِمْ يُحَرِّفونَ الكَلِمَ ، فَيُتَرْجِمونَ الكَلِمَةَ بِغَيْرِ مَعناها الحَقيقيِّ ، ويُؤَوِّلونَ الكَلِمَ تَأْويلاً بَعيداً عَنِ الحَقِّ ، اتِّباعاً لأَهْوائِهِمْ ؛ هَؤلاءِ الّذينَ يَكْتُمونَ ما أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالى وبَيَّنَهُ وَوَضَّحَهُ للنّاسِ في الكِتابِ الّذي يَتْلوهُ النّاسُ ، وقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعالى نَتيجةً لِكِتْمانِهِمُ اللَّعْنَ والطَّرْدَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ويَلْعَنُهُمْ كَذلِكَ كُلُّ مَنْ تَكونُ مِنْهُ اللَّعنَةُ كالملائِكَةِ والرُّسُلِ والنّاسِ والمُؤْمِنينَ .

وهَذِهِ الآيَةُ عامّةٌ شامِلَةٌ في كُلِّ مَنْ يَكْتُمُ عِلْماً فَرَضَ اللهُ تَعالى بَيانَهُ للنّاسِ ، فَقَدْ أَخْرَجَ الإمامُ البُخاريُّ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ : إنَّ النّاسَ يَقولونَ أَكْثَرَ أبو هُريرَةَ ـ أَيْ : مِنْ روايةِ الحَديثِ ـ ولَوْلا آيتانِ في كِتابِ اللهِ ما حَدَّثْتُ حَديثاً ، ثُمَّ تَلا قَوْلَهُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾[1] .

فَكُلُّ مَنْ يَكْتُمُ آياتِ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِهذِهِ اللَّعْنَةِ . وعَدَمُ الكِتْمانِ يَتَطَلَّبُ الدَّعْوَةَ إلى الخَيْرِ والأَمْرَ بالمَعْروفِ والنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ ، فَقَدْ لَعَنَ اللهُ تَعالى بَني إِسْرائيلَ الّذينَ كانوا لا يَنْهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَقالَ : ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ ﴾ [المائدة : ٧٩] وقالَ سُبْحانَهُ في شَأْنِ المُسْلِمينَ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وبَعْدَ هذا التَّرهيبِ فَتَحَ سُبْحانَهُ وتَعالى بابَ التَّوْبَةِ للنّاسِ تَرْغيباً لَهُمْ في الفَوْزِ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعالى فَقالَ :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ .

تَرْغيباً للقُلوبِ الواعِيَةِ الّتي تَخافُ سَخَطَ اللهِ تَعالى وعِقابَهُ ، فَبيَّنَ أَنَّ اللهَ يَتوبُ على مَنْ كانَ يَكْتُمُ عِلْماً ويَرْحَمُهُ إذا فَعَلَ أُموراً عِدَّةً :

الأَوّلُ : التَّوْبَةُ الخالِصَةُ للهِ تَعالى ، والإنابةُ إلَيْهِ .

الثّاني : إِصْلاحُ حالِهِ ، وذَلِكَ بالتَّقرُّبِ إلى اللهِ تَعالى بالعَمَلِ الصّالِحِ .

---

(١) أخرجه البخاري ، حديث رقم ١١٨ .

الثّالثُ : بيانُ ما أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالى ، وعَدَمُ كِتْمانِهِ .

هَؤلاءِ هُمُ الّذينَ يَتوبُ عَلَيْهِمْ سُبْحانَهُ وتَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ التَّوّابُ الرَّحيمُ ، وكُلَّما أَذْنَبَ العَبْدُ وتابَ ورَجَعَ إلى اللهِ ، قَبِلَ اللهُ تَوْبَتَهُ ، فأيُّ تَرْغيبٍ أَبْلَغُ مِنْ هذا التَّرغيبِ في الرّجوعِ إلى اللهِ والإنابَةِ إليْهِ ؟

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ شُكْرُ المُنْعِمِ سُبْحانَهُ عَلى ما يُسْديهِ مِنْ نِعَمٍ ، رُكْنٌ عَظيمٌ مِنْ أرْكانِ عِمْرانِ البَشَرِيَّةِ ، لأنَّهُ يَشْحَذُ العَزائِمَ ويوجِدُ التَّنافُسَ بَيْنَ أَصْحابِ الهِمَمِ .

٢ـ الالتِزامُ بِشَعائِرِ اللهِ تَعالى ، إعْلاءٌ لِدينِهِ سُبْحانَهُ ، ونِكايَةٌ ومُخالَفَةٌ لِلشَّيْطانِ وأَتْباعِهِ .

٣ـ مَنْ كَتَمَ شَيْئاً مِمّا أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالى ، أَوْ تَرَكَ الأَمْرَ بالمَعْروفِ والنَّهيَ عَنْ المُنْكَرِ ، فَقَدْ طُرِدَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى .

٤ـ بالتَّوْبَةِ الصّادِقَةِ الخالِصَةِ والعَمَلِ الصّالِحِ والأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنْ المُنْكَرِ يَفوزُ الإنْسانُ بالرَّحْمَةِ والمَغْفِرَةِ مِنَ اللهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

شعائرِ ، الحَجَّ ، العُمْرَةَ ، لا جُناحَ .

٢ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تعالى : ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ .

٣ـ لِماذا كانَ المُسْلِمونَ يَتحرَّجونَ مِنَ السَّعْي بَيْنَ الصَّفا والمَرْوةِ ؟

٤ـ ما المَقصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً﴾ ؟

٥ـ ما مَعنى : ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ ؟ .

٦ـ لِماذا عَبَّرَتِ الآيةُ عَنِ الإحْسانِ بالشُّكْرِ ؟

٧ـ ما الأُمورُ الّتي يَكْتُمُها أَهْلُ الكِتابِ مِمّا أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ ؟

٨ـ هَلْ قَوْلُهُ تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا﴾ خاصٌّ بِفِئَةٍ مُعيَّنةٍ وزَمَنٍ مُعَيَّنٍ ؟

٩ـ اكْتُبْ ما تَستنتِجُهُ مِنْ هَذهِ الآيةِ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ . . . .﴾ ؟

١٠ـ ما النَّتيجَةُ الّتي أعَدّها اللهُ لِمَنْ يَكْتُمُ الآياتِ البيِّناتِ ؟

١١ـ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ الإنْسانُ الّذي كَتَمَ عِلْماً مِنْ أُولئِكَ الّذينَ يَتوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ويَرْحَمُهُمْ ؟ أَجِبْ مِنْ خِلالِ الآياتِ الكَريمَةِ الّتي وَرَدَتْ في الدَّرْسِ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حُكْمَ السَّعْي بَيْنَ الصّفا والمَرْوةِ في الحَجِّ والعُمْرَةِ .

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ اسْمَ أَوّلِ مَنْ سَعى بَيْنَ الصَّفا والمَرْوَةِ ، ولماذا كانَ ذَلِكَ .

* * *


التفسير المنهجي
الجُزْءُ الثّاني
مِنَ الآيةِ ١٦١ مِنْ سورَةِ البَقرَةِ ـ إلى نهايةِ سورَةِ البَقرَةِ

قائمة المحتويات

قائمة المحتويات

الدَّرسُ الأوَّلُ

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ السَّابِعُ والأَرْبَعونَ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يُنْظَرونَ : يُمْهَلونَ .

اخْتِلافِ اللّيلِ والنَّهارِ : تَعاقُبُهُما .

الفُلْكِ : السُّفُنِ .

تَصْريفِ الرِّياحِ : تَوْجيهِها .

التَّفسيرُ :

بَيَّنَتِ الآياتُ السّابِقَةُ أنَّ الكافِرينَ الّذينَ يَكْتُمونَ آياتِ اللهِ تَعالى اسْتَحَقّوا اللَّعْنَةَ مِنَ اللهِ تَعالى ، ومِنَ اللّاعِنينَ ، واسْتَثْنَتِ الّذينَ تابوا إلى اللهِ تَوْبَةً صادِقَةً وأَصْلَحوا بالعَمَلِ الصالِحِ ، وبَيَّنوا للنّاسِ ما كانوا يَكْتُمونَهُ . وبَيَّنَتْ هذهِ الآياتُ أنَّ اللَّعْنَ الأَبَديَّ الّذي يُخلِّدُ صاحِبَهُ في نارِ جَهنَّمَ ، لا يَكونُ إلاّ لِمَنْ ماتَ كافِراً ، قالَ تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ أُولئِكَ الّذينَ كَتَموا الحَقَّ وصَفَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بالكُفْرِ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وَصَفَهُمْ بِأَشْنَعِ وصْفٍ وهو الكُفْرُ ، ولِيَدْخُلَ في الحُكْمِ كُلُّ كافِرٍ ، هَؤلاءِ الّذينَ كَفَروا ﴿ وماتوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ و هِيَ جُمْلَةٌ حالِيةٌ ، أيْ : ظَلّوا على كُفْرِهِمْ حتّى المَوْتِ ، اسْتَحَقّوا بِذلِكَ لَعْنَةَ اللهِ تَعالى والطَّرْدَ مِنْ رَحْمَتِهِ تَعالى ، واسْتَحَقّوا كَذلِكَ لَعْنَةَ الملائِكَةِ ﴿ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ والمَقصودُ بالنّاسِ مُؤْمِنُهُمْ وكافِرُهُمْ ، إذْ إنَّ الكُفّارَ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً يَوْمَ القيامةِ .

والسِّرُّ في ذِكْرِ لَعْنَةِ المَلائِكَةِ والنّاسِ ، مَعَ أنَّ لَعْنَةَ اللهِ تعالى تَكْفي لِخِزْيِهِمْ وذُلِّهِمْ ، هو بيانُ أنَّ جَميعَ مَنْ يَعْلَمُ أحْوالَ هَؤلاءِ الكافِرينَ مِنَ العوالِمِ العُلْوِيَّةِ ـ وهُمُ المَلائِكَةُ ـ والعوالِمِ السُّفْلِيَّةِ ـ وهُمُ النّاسُ أجْمَعونَ ـ يَراهُمْ مَحِلاًّ لِلَعْنَةِ اللهِ تَعالى ومَقْتِهِ ، فلا يَرْأَفُ لِحالِهِمْ ، ولا يَشْفَعُ لَهُمْ شافِعٌ ، فَهُمْ قَدِ اسْتَحقّوا اللَّعْنَ ، عِنْدَ جَميعِ مَنْ يَعْقِلُ ويَعْلَمُ . أُولَئِكَ اسْتَحقّوا اللّعنَ خالِدينَ وماكِثينَ في هَذهِ اللَّعْنَةِ ، ومَتى خَلَدوا ومَكَثوا في نارِ جَهَنَّمَ ، لا يَسْتَطيعونَ الخَلاصَ مِنْ نارِها وحَرِّها ولَهيبِها وعَذابِها ، ولا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ هَذا العذابِ أبَداً ، ولا هُمْ كَذلِكَ يُنْظَرونَ ، بِمَعْنى : يُمْهَلونَ لِيَتوبوا ويَعْمَلوا صالِحَ الأعْمالِ ، فإنَّ الكُفْرَ الّذي اسْتَحَقّوا بِهِ هذا العَذابَ هُوَ نَتيجَةُ ما اكْتَسَبوا مِنْ جِنايةٍ على الحَقِّ ، وتَدْسِيَةِ النَّفْسِ وعَدَمِ تَزْكِيَتِها .

وبِذلكَ تَكونُ الآياتُ الكريمةُ قَدْ حَذَّرَتْ مِنْ كِتْمانِ الحَقِّ ، والكُفْرِ باللهِ تَعالى ، وفَتَحَتْ أبْوابَ التَّوْبَةِ أمامَ النّاسِ ، لِيُقْبِلوا على اللهِ تَعالى تائِبينَ ، صادِقينَ في نِيّاتِهِمْ . وانْتَقَلَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتُبَيِّنَ أنَّ الّذي شَرَعَ هذا الدّينَ ، الّذي كَفَرَ بِهِ أولئِكَ هُوَ إلهٌ واحِدٌ لا مَعْبودَ سِواهُ ، ولا يَنْبَغي أنْ تُكْتَمَ هِدايَتُهُ لِلْبَشَرِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي : إلهُكُمْ وَمَعبودُكُمُ الّذي يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ هو إلهٌ واحِدٌ ، لا إلهَ مُسْتَحِقٌّ لَها إلاّ هُوَ الرَّحمنُ الرَّحيمُ ، فَهُوَ المُنْعِمُ بِجلائِلِ النِّعَمِ ، وهُوَ مُديمُ هذِهِ النِّعَمِ ، بحيثُ لا تَنْتَهي ، فَعَلَيْكُمْ أنْ لا تُشْرِكوا مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ .

والشِّرْكُ نَوْعانِ :

١ـ شِرْكٌ في الأُلوهيَّةِ والعِبادَةِ ، وذَلِكَ بِأنْ يَعْتَقِدَ الإنْسانُ أنَّ في الخَلْقِ مَنْ يُشارِكُ اللهَ ويُعينُهُ في أفْعالِهِ ، فَيتوجَّهُ إليهِ في الدُّعاءِ مَع اللهِ ، أو يَدْعوهُ مِنْ دونِ اللهِ .

٢ـ شِرْكٌ مِنْ تَحليلٍ وتَحريمٍ مِنْ غَيْرِ كِتابِ اللهِ ، كَما قالَ تَعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ هَذيْنِ الوَصْفَيْنِ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ بَعْدَ ذِكْرِ الوَحْدانِيَّةِ ، وذَلِكَ لأنَّ السّامِعَ يَحْضُرُ في ذِهنِهِ مَعنى الغَلَبةِ والقَهْرِ وسَعَةِ المَقْدِرَةِ عِنْدَ سَماعِهِ ﴿إِلَهٌ واحِدٌ﴾ مِمّا يَجْعَلُ قَلْبَهُ في هَيْبَةٍ وخَشْيَةٍ . ذَكَرَ سُبحانَهُ ما يَدُلُّ على عَظَمَتِهِ وسُلْطانِهِ ثمَّ ذَكَرَ بَعْدَهُ ما يَدُلُّ على إحسانِهِ بالخَلْقِ ورَأْفَتِهِ بِهِمْ فَهُوَ الرَّحْمنُ الرَّحيمُ .

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ .

وانْتَقلتِ الآياتُ لِتُبيّنَ لَنا بَعْضَ الآياتِ الكَوْنِيَّةِ الدّالَّةِ على وَحْدانيَّةِ اللهِ تَعالى وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ لِتكونَ بُرْهاناً لِمَنْ يَعْقِلُ ، وهذهِ الأَدِلَّةُ المُشاهَدَةُ هِيَ :

١ـ خَلْقُ السّماواتِ : هذهِ السّماواتُ رَفَعَها سُبْحانَهُ وتَعالى بِغَيْرِ عَمَدٍ ، وَزَيَّنها بالمَصابيحِ الّتي جَعَلَها رُجوماً للشّياطينِ ، وخَلَقَ فيها تِلْكَ الشَّمْسَ والقَمَرَ ، تِلْكَ الشَّمسَ الَّتي فاضَتْ أَنْوارُها على الأَرْضِ فَكانَتْ سَبَباً لِحياةِ الكائناتِ الحَيَّةِ .

٢ـ خَلْقُ الأَرْضِ : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٢٠] فَهِيَ في جِرْمِها ومادَّتها وشَكْلِها وعَوالِمِها المُختلِفَةِ مِنْ جَمادٍ ونَباتٍ وحَيوانٍ ، لِكُلٍّ مِنْها نِظامٌ عَجيبٌ .

٣ـ اخْتِلافُ اللّيلِ والنَّهارِ : بمعنى تَعاقُبُهُما ، حَيْثُ يَجيءُ كُلُّ واحِدٍ ويُذْهِبُ الآخَرَ ، ويَطولُ هَذا ، ويَقْصُرُ ذاكَ ، تَبَعاً لاخْتِلافِ المطالِعِ صَيْفاً وشِتاءً ، وكذلِكَ تَخْتَلِفُ الفُصولُ باخْتِلافِ هذِهِ المَطالِعِ .

وَقَدْ ذُكِرَتْ هذِهِ الآيَةُ بَعْدَ ذِكْرِ خَلْقِ السّماواتِ والأَرْضِ ، وذلِكَ لأنَّ اخْتِلافَ اللّيْلِ والنّهارِ ناتِجٌ عَنْ مُقابَلَةِ الأَرْضِ للشَّمْسِ وحَرَكَتِها حَوْلَها .

٤ـ الفُلْكُ الّتي تَجْري في البَحْرِ بما يَنْفَعُ النّاسَ : وهِيَ السُّفُنُ ، وقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ هذهِ الآيَةَ هُنا بَعْدَ ذِكْرِ اخْتِلافِ اللّيلِ والنَّهارِ ، وذَلِكَ لأنَّ المُسافِرينَ في البَحْرِ هُمْ أَشَدُّ النَّاسِ حاجَةً إلى تَحديدِ تَعاقُبِ اللّيلِ والنَّهارِ ، وهُمْ أَحْوَجُ النّاسِ إلى مَعْرِفَةِ الأَوْقاتِ وتَحديدِ الجِهاتِ ، لأَنَّهُمْ إنْ جَهِلوا هذا الأَمْرَ أَحاطَ بِهِمْ خَطَرٌ شَديدٌ ، ولِذلِكَ كانَ مِنَ الضَّروريِّ لِرُبّانِ السَّفينَةِ أَنْ يَكونَ على مَعْرِفَةٍ وإطِّلاعٍ بما يُسَمّى (عِلْمَ النُّجوم) .

وهَذِهِ السُّفُنُ تَسيرُ في البَحْرِ ، لِيَنْتَفِعَ النّاسُ بِها في تِجاراتِهِمْ وأَسْفارِهِمْ . إنَّ هَذِهِ السُّفُنَ هِيَ مِنْ صُنْعِ الإنْسانِ ، ولكنَّ اللهَ تَعالى هُوَ الّذي خَلَقَ تِلْكَ الأَجْزاءَ الّتي صُنِعَتْ مِنْها السُّفُنُ ، وهُوَ الّذي يُسَخِّرُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ فيهِ السُّفُنُ مُقْبِلَةً ومُدْبِرَةً ، مَعَ شِدَّةِ أَهْوالِهِ إذا هاجَ وماجَ ، وهُوَ الّذي جَعَلَ

السُفُنَ تَشُقُّ الأَمْواجَ وتَصِلُ بِأَهْلِها إلى بَرِّ السَّلام بإذنِ اللهِ تَعالى .

٥ـ ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ ﴾ : فهُوَ سُبْحانَهُ الّذي يُنْزِلُ الماءَ مِنَ السَّماءِ ؛ هذا الماءَ الّذي يَتوالَدُ مِنْ تَصاعُدِ بُخارِ الماءِ بوساطَةِ الماءِ مِنْ خِلالِها بإذنِ اللهِ ،ويكونُ هذا الماءُ سَبَباً في حَياةِ الأَرْضِ الّتي كانَتْ مَيْتَةً جَدْباءَ ، فَيَنْبُتُ فيها النَّباتُ ، وتأْتيها الحيواناتُ لِتَأْكُلَ مِنْ نَباتِها . وهَذا كُلُّهُ مِنْ أعْظَمِ الأَدِلَّةِ على وَحْدانِيَّةِ المُبْدِعِ سُبْحانَهُ وتَعالى . قالَ تَعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] .

٦ـ ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ﴾ أيْ : تَوْجيهِ الرِّياحِ بِحَسَبِ الإرادَةِ الإلهيَّةِ وِفْقَ السُّنَنِ الكَوْنِيَّةِ ، فَمِنْ هذِهِ الرّياحِ ما يُصَرِّفُها اللهُ لِتَلْقيحِ النَّباتاتِ ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر : ٢٢] ، ومِنْها الرّيحُ العَقيمُ ، وَقَدْ تَهُبُّ الرّيحُ مِنْ جِهَةٍ واحِدةٍ ، وقَدْ تَهُبُّ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ جِهةٍ ، وقَدْ تَكونُ سَبَباً في الدَّمارِ فَتكونُ ريحَ شَرٍّ ، وقَدْ تَكونُ رِياحَ بُشْرى وخَيْرٍ .

٧ـ ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : الغَيْمِ الّذي ذُلِّلَ لإنْزالِ المَطَرِ ، وقَدْ ذُكِرَتْ هَذِهِ الآيَةُ بَعْدَ ذِكْرِ تَصْريفِ الرّياحِ ، لأنَّ الرِّياحَ هِيَ الّتي تُثيرُ السَّحابَ وتَجْمَعُهُ وتَسوقُهُ إلى المكانِ الّذي يُريدُ اللهُ إنْزالَ المَطَرِ عَلَيْهِ ، فَتكونُ هذِهِ السُّحُبُ بهذا الشَّكْلِ البَديعِ الّذي نَراهُ آيةً عَظيمةً تَدُلُّ على وَحدانِيَّةِ اللهِ تَعالى .

هَذِهِ الآياتُ كُلُّها والظَّواهِرُ ، فيها العِبَرُ والمَواعِظُ لِمَنْ كانَ يَعْقِلُ ويَتدبَّرُ ، ويُدرِكُ أسْرارَ هذا الكَوْنِ ، ويُمَيِّزُ بَيْنَ الضّارِ والنّافِعِ ، وَيَسْتَدِلُّ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى مِمّا يَراهُ في الكَوْنِ مِنْ إتْقانٍ وإحْكامٍ ، فَتَبارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخالِقينَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مَتى ماتَ الإنْسانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ ، وحُرِمَ مِنَ الرُّجوعِ إلى الحَقِّ ، ومِنْ تَزْكِيَةِ نَفْسِهِ ، واسْتَحَقَّ الخُلودَ في النّارِ ، إنْ ماتَ كافِراً ، ولِذا على العاقِلِ أنْ يُبادِرَ إلى التَوْبَةِ وعَمَلِ الخَيْرِ .

٢ـ الآياتُ المَبْثوثةُ في هَذا الكَوْنِ الفَسيحِ كُلُّها ناطِقَةٌ بِوَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى ، لِما فيها مِنْ إحْكامٍ وإبْداعٍ وإتْقانٍ ، والعاقِلُ مَنْ تَدَبَّرَ وآمَنَ ، والجاهِلُ مَنْ أدْبَرَ وغَفِلَ وكَفَرَ .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لماذا وَصَفَتِ الآياتُ الّذينَ كَتَموا الحَقَّ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ؟

٢ـ ما نَتيجةُ كُفْرِ الكافِرينَ ؟

٣ـ لِمَ ذَكَرتِ الآياتُ لَعْنَةَ الملائِكَةِ والنّاسِ ، مَعَ أنَّ لَعْنَةَ اللهِ كافيةٌ لإذْلالِهِمْ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بالنّاسِ ؟ هَلْ هُمُ المُؤمِنونَ أمِ الكافِرونَ ؟

٥ـ بيِّنْ أنْواعَ الشِّرْكِ باللهِ تَعالى .

٦ـ لِماذا ذُكِرَ وصْفُ ﴿ٱلرَّحْمَانُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بَعْدَ وَصْفِ الوَحْدانِيَّةِ ؟

٧ـ ذَكرتِ الآياتُ بَعْضَ الدّلائِلِ الكَوْنيّةِ على وَحْدانِيّةِ اللهِ تَعالى . عدِّدْ هذهِ الآياتِ .

٨ـ بيِّنْ سِرَّ تَرتيبِ هذهِ الآياتِ ، ولِماذا جاءتْ بِهذا التّرتيبِ البَديعِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ الآيةَ الّتي تُبيِّنُ أَنَّ الكافِرينَ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً واسْمَ السّورَةِ ورَقمَ الآيةِ .

٢ـ اكتبْ في دَفْترِكَ ما يَدُلُّ على وَحدانِيَّةِ اللهِ ممّا تَراهُ على هَذهِ الأرْضِ .

٣ـ كَثُرَ الحَديثُ عَنِ اللّيلِ والنَّهارِ في كِتابِ اللهِ تَعالى . اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ثلاثَ آياتٍ مَعَ ذِكْرِ مَواضِعِها في القُرآنِ .

٤ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الدُّعاءَ الّذي عَلَّمَنا إيّاهُ رَسولُنا ﷺ عِنْدَ هُبوبِ الرّيحِ .

٥ـ اجْمَعْ بَعْضَ المَشاهِدِ الكَوْنيّةِ الدالَّةِ على قُدْرَةِ اللهِ وَوَحدانِيَّتِهِ ، وضَعْها في مَجلةِ الحائِطِ في مَدرَسَتِكَ .

* * *

الدَّرسُ الثّاني

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّامِنُ والأَرْبَعونَ

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَنْداداً	: أَمْثالاً مِنَ الأَوْثانِ يَعْبُدونَها مِنْ دونِ اللهِ .
تَقطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبابُ	: تَفكَّكتِ الرَّوابِطُ الّتي كانَتْ بَيْنَهُمْ في الدُّنْيا .
كَرَّةً	: عَوْدَةً إلى الدُّنْيا .
حَسَراتٍ	: جَمْعُ حَسْرَةٍ ، وهي : النَّدَمُ الشَّديدُ .

التَّفسيرُ :

ذَكَرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ بَعْضَ الأَدِلَّةِ على وَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى ، تِلْكَ الأَدِلَّةَ الّتي يَتَفَكَّرُ بِها العاقِلونَ وَيَتَدَّبرونَها ، أَمّا غَيْرُهُمْ فَهُمْ يُعْرِضونَ عَنْها ويَغْفَلونَ ولا يَتدبَّرونَ .

وهذهِ الآياتُ جاءَتْ لِتُبيِّنَ حالَ الّذينَ لا يَعْقِلونَ الآياتِ ، ولا يَتفَكَّرونَ في خَلْقِ اللهِ تَعالى ، فَكَفروا بهِ وَعَبدوا غَيْرَهُ . قال تَعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ أيْ : مِنَ النّاسِ مَنْ لا يعقِلُ تِلْكَ الآياتِ الّتي تَدُلُّ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى وقُدْرَتِهِ ، وَقَدْ بَلَغَتْ بِهِمُ الجَهالَةُ والسُّخْفُ ، أَنَّهُمْ يَتَّخِذونَ مِنْ دونِ اللهِ أنْداداً ، أي : يَخْضَعونَ لِمَخْلوقاتٍ يَدَّعونَ أنَّها مُماثِلَةٌ ومُشابِهَةٌ للهِ تَعالى ـ تَعالى اللهُ عمّا يَقولونَ عُلوّاً كَبيراً ـ في النَّفْعِ والضَّرِ ، فَهُمْ يُحبُّونَ ويُعَظِّمونَ تِلْكَ المَخلوقاتِ ويُسَوّونَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللهِ تَعالى في الطّاعَةِ والتَّعظيمِ ، وَيَتقرَّبونَ إلَيْها ، وقَدْ كانَ المُشْرِكونَ كَما تُحَدِّثُنا الآياتُ القُرْآنيَّةُ يَعْتَقِدونَ بأنَّ اللهَ تَعالى هُوَ المُنْفَرِدُ بالخَلْقِ والتَّدبيرِ ، ولَكِنَّهُمْ يَجْعَلونَ الأَنْدادَ وُسَطاءَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ اللهِ تعالى ، بِحَيْثُ يُقرِّبونَهُمْ إلى اللهِ تَعالى ، ويَشْفَعونَ لَهُمْ عِنْدَهُ ، وَيَقْضونَ حاجاتِهِمْ .

والأَنْدادُ لَيْسَتِ الأَصْنامَ والأَوثانَ وَحْدَها ، ولَكِنَّها تَشْمَلُ الرُّؤَساءَ الّذينَ يَخْضَعُ لَهُمْ بَعْضُ النّاسِ خُضوعاً دينيّاً . فالنِّدُّ هوَ المَثيلُ الّذي يُطْلَبُ منهُ ما لا يُطْلَبُ إلاّ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، أو يُؤْخَذُ عَنْهُ ما لا يُؤْخَذُ إلاّ مِنَ اللهِ تَعالى .

هَؤلاءِ المُشْرِكونَ يُحِبُّونَ الأَنْدادَ كَحُبِّهِمْ للهِ تَعالى ، ولَكِنَّ المُؤْمِنَ أَشَدُّ حُبّاً للهِ تَعالى ، إذْ إنَّ مِنْ أَسْبابِ الحُبِّ اعْتِقادُ المُحِبِّ أَنَّ في المَحبوبِ قُدْرَةً فَوْقَ قُدْرَتِهِ ،مَعَ ثِقَتِهِ بأنَّهُ يَهْتَمُّ لأَمْرِهِ ويَعْطِفُ عَلَيْهِ ، بحيْثُ يَلْجَأُ إليهِ عِنْدَ الحاجَةِ ويَستعينُ بهِ ، والمُؤْمِنونَ يُؤْمِنونَ بِقُوَّةِ الخالِقِ وقُدْرَتِهِ ، ويَعْتَقِدونَ بِصِفَةِ الرَّحْمَةِ الشامِلَةِ ، والصِّفاتِ الكامِلةِ ، والمَشيئَةِ النّافِذَةِ ، والتَّصَرُّفِ المُطْلَقِ في تَسْخيرِ الأَسْبابِ والمُسَبِّباتِ ، وهَذا كُلُّهُ يَجْعَلُ حُبَّهُمْ للهِ تَعالى أعْظَمَ مِنْ كُلِّ حُبٍّ ، فهو حُبٌّ خاصٌّ بهِ سُبْحانَهُ لا يُشْرِكونَ فيهِ غَيْرَهُ ، وهُوَ حُبٌّ ثابتٌ ، أمّا المُشْرِكونَ فَهُمْ يُشْرِكونَ معَ اللهِ أنْداداً يُحِبّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، ثُمَّ إنَّ حُبَّهُمْ هَذا مُتَزَعْزِعٌ لا ثَباتَ فيهِ .

ثُمَّ انْتَقَلَتِ الآياتُ للتَّحَدُّثِ عَنْ وَعيدِ أُولئِكَ الّذينَ اتَّخذوا الأَنْدادَ :

﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ أيْ : لوْ يَرى أُولئِكَ المُشْرِكونَ حينَ يُشاهِدونَ العَذابَ الّذي أَعَدَّهُ اللهُ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، أنَّ القُدْرَةَ كُلَّها للهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وأنَّ الأَنْدادَ لَمْ تَفْعَلْ لَهُمْ شَيْئاً ، وأَنَّ عَذابَهُ الّذي يُصيبُ بهِ المُتَخبِّطينَ في ظُلُماتِ الشِّرْكِ شَديدٌ ، لَوْ يَعْلَمونَ ذلِكَ لَرَأَوْا ما لا يوصَفُ مِنَ الأَهْوالِ والشَّدائِدِ ، ولَتَحَسَّروا ولَنَدِموا أَشَّدَ النَّدَمِ ، فَجَوابُ (لَوْ) الشَّرْطِيَّةِ مَحذوفٌ في الكلامِ لِتَذْهَبَ النَّفْسُ في تَقديرِهِ كُلَّ مذْهَبٍ .

إنَّ هؤلاءِ المُشْرِكينَ سَوْفَ يَعْلَمونَ أنّهُ لَنْ يُغْنِيَ عَنْهُمْ أَحَدٌ مِنَ اللهِ شيْئاً يَوْمَ القِيامَةِ ، فالقُوَّةُ للهِ تَعالى ، وَلَنْ تَنْفَعَهُمُ الأَنْدادُ ولَنْ تُخَفِّفَ عَنْهُمُ العَذابَ ، ولَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ شَفيعٌ ، إنّهُمْ لَوْ رأَوْا العَذابَ لَعَلِموا أنَّ هذِهِ القُوَّةَ الّتي تُدَبِّرُ عالَمَ الآخِرَةِ ، هِيَ عَيْنُ القُوَّةِ الّتي تُدَبِّرُ عالَمَ الدُّنيا ، وأنَّهُمْ كانوا

ضالّينَ حينَ لَجَأوا إلى قُوّةٍ أُخْرى سِوى قُوّةِ اللهِ ، وأشْرَكوا مَعَهُ تعالى أنْداداً .

التّابِعونَ والمَتبوعونَ :

قُلْنا إنّ الأَنْدادَ قَدْ يَكونونَ أُولئكَ الرُّؤساءَ الّذينَ يَأمُرونَ ويَنْهَونَ ويُحَلِّلونَ ويُحَرِّمونَ لِغَيْرِهِمْ ، فَيكونُ هُناكَ أَتباعٌ ومَتبوعونَ ، ولِذا انْتَقلَتِ الآياتُ لِتَتحدَّثَ عَنْ هذِهِ القَضيَّةِ . قالَ تَعالى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ .

أيْ : اذْكُرْ أَيُّها العاقِلُ لِتَتَّعِظَ وتَعْتَبِرَ ، حالَ أُولئِكَ الكافِرينَ يَوْمَ القيامةِ ، إذ يَتَبرّأُ الرُّؤساءُ الّذينَ يَأمُرونَ ويَنْهَونَ ، يَتَبرأونَ مِنْ مَرْؤوسيهِمْ ومِنْ أَتْباعِهِمْ ، عِنْدَما يَرَوْنَ جَميعاً العَذابَ الّذي أعَدّهُ اللهُ تَعالى لَهُمْ ، وعِنْدَما تَتقطّعُ الصِّلاتُ والرَّوابِطُ بَيْنَهُمْ في الدُّنْيا ، حيْثُ كانَ الرّئيسُ يَأمُرُ ، والتّابِعُ يُطيعُ ويَخْضَعُ لَهُ ، ويَتَمَسَّحُ بِهِ مُقابِلَ مالٍ أوْ مَنْصِبٍ يَعِدُهُ بِهِ .

وفي قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ اسْتِعارةٌ تَمْثيليّةٌ ، إذْ شبّهَتْ هَيْأَتَهُمْ عندَ خَيْبَةِ أَمَلِهِمْ حينَ لَمْ يَجِدوا النَّعيمَ الّذي تَعِبوا مِنْ أجْلِهِ مُدَّةَ حَياتِهِمْ ، ولَكِنَّهُمْ وَجَدوا العَذابَ ، شَبَّهَهُمْ بحالِ الّذي يَصعَدُ إلى نَخْلَةٍ لِيَجْنِيَ مِنْ ثِمارِها التي تَعِبَ لأجْلِها طَوالَ السَّنةِ ، ولكنَّهُ عِنْدَ صُعودِهِ تَقَطَّعَ بِهِ السَّبَبُ وهُوَ الحَبْلُ ، فَسَقَطَ هالِكاً ، فهؤلاءِ كَذَلِكَ قَدْ عَلِموا أنْ لا نَجاةَ لَهُمْ مِنْ عَذابِ اللهِ ، كَمَثَلِ السّاقِطِ الّذي لا تُرْجى لَهُ سَلامَةٌ .

ثُمَّ بَيَّنتِ الآياتُ ما قالَهُ الأَتْباعُ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ﴾ أيْ : قالَ التّابِعونَ لَيْتَ لَنا رَجْعَةً إلى الدُّنيا ، فَنَتّبِعُ سَبيلَ الحَقِّ ، ونَسيرُ في طريقِ التّوحيدِ للهِ تَعالى ، ونَهتدي بِكتابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبيِّهِ ﷺ ، ثُمَّ نَعودُ إلى مَكانِ الحسابِ ، فَنتبرّأُ مِنْ هَؤلاءِ الضّالّينَ الّذينَ اتّبعناهُمْ مِنْ قَبْلُ ، كَما تَبرأوا مِنّا ، ولِنُشْفي غَيْظَنا مِنْهُمْ ، لأنّهُم خَذَلونا وأَوْردونا مَوارِدَ التَّهْلُكَةِ والعَذابِ الأَليمِ ، ولكنْ هَيْهاتَ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ كَما أراهُمُ اللهُ تَعالى العَذابَ الّذي عَرَفوا عَنْ طريقِهِ أنَّ القُوَّةَ للهِ جميعاً ، سَيُريهِمْ أعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عليْهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، أي : سَيُريهِمْ أعْمالَهُمُ السَّيئةَ الّتي كانَ لَها أَسْوَأُ الأَثَرِ في نُفوسِهِمْ ، حيثُ جُعِلَتِ النُّفوسُ مُسْتَعْبَدَةً لِغَيْرِ اللهِ تَعالى ، وهَذا لَنْ يُورِثَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ إلاّ حَسْرَةً وشَقاءً .

وبَيّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى عاقِبَتَهُمْ : ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أيْ : ما هُمْ بِخارِجينَ مِنْ تِلْكَ النّارِ

الّتي عوقِبوا بِها بِسَبَبِ شِرْكِهِمْ ، فَهُمْ مُسْتَقِرّونَ فيها ، فَلَنْ يَخْرُجوا مِنْها إلى الدُّنْيا ولا إلى الجَنَّةِ كَذلِكَ .

لَقَدْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ الكَريمةُ عَنْ قَضيَّةٍ خَطيرةٍ هيَ قَضيَّةُ التَّبعيَّةِ ، وقَدْ ذُكِرَتْ كَثيراً في القُرآنِ الكَريمِ ، ورَكَّزَتْ عَلَيْها قِصَّةُ سَيِّدِنا موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . إنَّ هذِهِ التَّبعيَّةَ يَنْشأُ عَلَيْها الأَبْناءُ وهُمْ يَرْتَضِعونَ لَبَنَها الآسِنَ ، كَما يَرْتَضِعونَ حَليبَ أُمَّهاتِهِمْ ، وهَكَذا يُوَرِّثُها الآباءُ للأَبْناءِ ، ولا يَسْلَمُ مِنْها إلاّ مَنْ عَصَمَ اللهُ ، وكانَ ذا شَخصيَّةٍ قَويَّةٍ وإيمانٍ صادقٍ ، إنَّ مِنْ أَخْطَرِ مُشْكِلاتِ هذهِ التَّبعيَّةِ وأبْرَزِ عُقَدِها أنَّها لَيْسَتْ صِراعاً بَيْنَ فِئتينِ اثْنَتَيْنِ : فِئةِ المُسْتَكْبرينَ ، وفِئةِ المُسْتَضْعَفينَ ، ولكِنَّ الأَخْطَرَ مِنْ ذَلِكَ أنَّ هَذِهِ التَّبَعيَّةَ تُصْبِحُ صِراعاً بَيْنَ أَبْناءِ الفِئةِ الواحِدَةِ ، لا أَعْني الفِئَةَ المُسْتَكْبِرَةَ ، وإنّما أعْني الفِئَةَ المُسْتَضعَفَةَ نَفسَها ، فإنَّ هذهِ الفِئةَ المُسْتَضعفَةَ سَيَكونُ مِنْها الشُّرَطُ ، والحَرَسُ ، والعيونُ ، وأكْثَرُ مِنْ ذلِكَ سَيكونُ أولئِكَ جَميعاً في خِدْمَةِ الفِئةِ القويَّةِ ، حرْباً على قَوْمِهِمْ ، يتحسّسونَ أخْبارَهُمْ ويَتجسّسونَ عَلَيْهِمْ ، فيا وَيْلَ المُستضعَفينَ مِنَ الأَقوياءِ ، ويا وَيْلَ المُسْتَضعَفينَ مِنَ المستضعَفينَ ، وقَبْلَ ذَلِكَ يا وَيْلَ المُستضعَفينَ مِنَ اللهِ!!

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُؤْمِنونَ حَقّاً هُمُ الّذينَ يُوَحِّدونَ اللهَ تَعالى بالعِبادَةِ ويَخُصّونَهُ بالحُبِّ ، فلا يَأْخُذونَ أَحْكامَهُمْ ودِينَهُمْ إلاّ عَنْ طَريقِ الوَحْيِ الّذي جاءَهُمْ مِنْ عندِ اللهِ .

٢ـ إنَّ المَتْبوعينَ والتّابِعينَ بَعْضُهُمْ فِتْنَةٌ لِبَعْضٍ ، وَسَيتبرّأُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَلْيَحْرِصِ المُسْلِمُ على أنْ تَكونَ لَهُ شَخْصيَّتُهُ القَويَّةُ المُميَّزَةُ المُعْتَزَّةُ باللهِ ورسولهِ ﷺ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

أَنْداداً ، حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ ، وَتقطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبابُ ، لو أَنَّ لَنا كَرَّةً .

٢ـ ما المَقْصودُ بالأَنْدادِ الّتي يَتَّخِذُها النّاسُ مِنْ دونِ اللهِ ؟

٣ـ مَنْ هُمُ النّاسُ الّذينَ ذَكَرَتْهُمُ الآيةُ ؟

٤ـ فَرِّقْ بَيْنَ حُبِّ المُؤْمِنينَ للهِ تَعالى ، وحُبِّ المُشْرِكينَ للأَنْدادِ .

٥ـ بِمَ تَوَعدَّتِ الآياتُ أُولئِكَ الّذينَ اتَّخذوا الأَنْدادَ ؟

٦ـ أيْنَ جَوابُ الشَّرْطِ في قَوْلِهِ تَعالى : (ولَوْ يَرى) ؟

٧ـ ما الأَمْرُ الّذي سَيَعْلَمُهُ أُولئِكَ المُجْرِمونَ حينَ يَرَوْنَ العذَابَ ؟

٨ـ كَيْفَ سَيَكونُ حالُ الأَتْباعِ والمَتْبوعينَ يَوْمَ القيامةِ ؟

٩ـ وضِّحِ الصّورَةَ البَيانيَّةَ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ .

١٠ـ ما الّذي تَمَنّاهُ الأَتْباعُ حينَ رُؤْيَتِهِمْ لِلْعَذابِ ؟ ولِمَ يَتَمَنَّوْنَ ذَلِكَ ؟

١١ـ بَيَّنَتِ الآياتُ نَتيجةَ الأَتْباعِ والمَتْبوعينَ يَوْمَ القيامةِ ، وضِّحْ ذَلِكَ .

١٢ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ حديثِ القُرْآنِ عَنْ قَضيَّةِ التَّبَعِيَّةِ ؟

نشاط :

١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الدّالَّةَ على أنَّ الكافِرينَ كانوا يَعْبُدونَ الأَصْنامَ لِتُقَرِّبَهُمْ إلى اللهِ زُلْفى .

٢ـ اكتبْ في دَفْترِكَ آيةً قُرْآنيةً تَدُلُّ على أنَّ الكافِرينَ يَتَمَنَّوْنَ الرُّجوعَ إلى الدُّنْيا .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ الّتي تَحَدَّثَتْ عَنْ قِصَّةِ التَّبَعِيَّةِ في سورَةِ الأَعْرافِ ، وسورةِ سَيِّدِنا إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ .

٤ـ ارْجِعْ إلى تَفْسير ابنِ كَثيرٍ . واقْرَأْ تَفْسيرَ قَولِهِ تَعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان : ٢٧] واكْتُبْ مُناسَبَةَ النُّزولِ وتَفْسيرَ الآياتِ في مَجلّةِ المَدْرَسَةِ .

* * *

الدرس الثالث

سورةُ البَقَرةِ - القِسْمُ التّاسِعُ والأَرْبَعونَ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

حلالاً	: ما أَباحَهُ الشّرْعُ وأَذِنَ في تَناوُلِهِ وهُوَ ضِدُّ الحَرامِ .
طيّباً	: مُسْتَلذّاً مُسْتَطاباً تُقْبِلُ النُّفوسُ عَلَيْهِ .
خُطُواتِ	: أَثَرَ الشَّيْطانِ وَوساوِسَهُ .
أَلْفَيْنا	: وَجَدْنا .
مَثَلُ	: المَثَلُ : الصِّفَةُ والشَّأْنُ .
يَنْعِقُ	: مِنَ النّعيقِ وهُوَ الصِّياحُ .

التَّفسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنْ أُولئِكَ الّذينَ اتَّخذوا الأَنْدادَ ، وبَيّنَتْ لنا أنّ هَؤلاءِ الأَنْدادَ قَدْ يَكونونَ الرُّؤساءَ الّذينَ يُحِلّونَ للنّاسِ ، ويُحَرِّمونَ عَلَيْهِمْ كَما يَشاءونَ ، وقَدْ جاءَتْ هذهِ الآياتُ لِتُبيِّنَ أنَّ اللهَ تَعالى خالِقَهُمْ ومُربّيهِمْ هُوَ الّذي يُحَلِّلُ ويُحَرِّمُ ، ويُبيحُ لَهُمُ الأَكْلَ مِمّا في هَذِهِ الأَرْضِ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ لا يَتَّبِعوا خُطُواتِ الشّياطينِ ؛ شياطينِ الإِنْسِ وشَياطينِ الجِنِّ . قالَ تَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ أي : يا أيُّها النّاسُ ، لَقَدْ أباحَ اللهُ تَعالى لَكُمْ أَنْ تَأْكُلوا مِمّا تَحْويهِ الأَرْضُ مِنَ المَطْعوماتِ الّتي أحلّها اللهُ لَكُمْ ، والّتي تَسْتَلِذُّها النُّفوسُ الطّاهِرَةُ الكَريمَةُ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَتَمتّعوا بهذِهِ الطَّيِّباتِ مِنْ غَيْرِ إسْرافٍ ، وأَنْ تَشْكُروا اللهَ تَعالى على ما رَزَقَكُمْ مِنْ نِعَمٍ .

والأَمْرُ في قولِهِ : ﴿كُلُوا﴾ للإباحَةِ ، أي : أباحَ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَأْكُلوا مِمّا تَشاؤونَ مِمّا هُوَ حلالٌ لَكُمْ ، وقالَ تَعالى : ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا ﴾ وَمِنْ هُنا للتَّبْعيضِ ، لأنَّهُ لَيْسَ كُلُّ ما في الأَرْضِ يُؤْكَلُ ، ففي الأَرْضِ أَتْرِبَةٌ وحِجارَةٌ وغَيْرُها مِمّا لا يَأْكُلُهُ النّاسُ .

وَقَدْ بَيَّنَتِ آياتُ القُرآنِ الكَريمِ وسُنَّةُ الرَّسولِ ﷺ ما حَرَّمَهُ اللهُ تَعالى على النَّاسِ .

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تَعالى النّاسَ أَنْ لا يَتَّبعوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ ، فقالَ تَعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي : لا تَتَّبعوا آثارَ الشَّيْطانِ وزَلّاتِهِ ووساوِسَهُ وطُرُقَهُ الّتي يُحَرِّمُ بها الحَلالَ ، ويُحِلُّ بها الحَرامَ ، والّتي يَقْذِفُها في صُدورِ بَعْضِ النّاسِ ، فَتَجْعَلُهُمْ يَنْتَقِلونَ مِنَ الطّاعاتِ إلى المعاصي ، فإنَّ هذا الشَّيطانَ عَدوٌّ لَكُمْ بَيِّنُ العَداوةِ ، وَوساوِسُ الشَّيطانِ كَثيرةٌ ، وقَدْ يُوَسْوِسُ للنّاسِ أَنْ يُحِلُّوا ما حَرّمَ اللهُ أَوْ يُحَرِّموا ما حَلَّلَ اللهُ ، وَلَيسَ المَقْصودُ بالشَّيطانِ شَيطانَ الجِنِّ وَحْدَهُ ، ولكِنْ يُقْصَدُ بهِ شياطينُ الإِنْسِ وهُمُ الرُّؤساءُ ، الّذينَ يُغْوونَ النّاسَ عَنِ الحَقِّ ، ويُزَيِّنونَ لَهُمُ الباطِلَ ، قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] .

وَقَدْ قَالَ تَعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ ﴾ لأَنّ الشَّيْطانَ لا يَأْمُرُ بالشَّيْءِ مَرَّةً واحِدَةً ، ولكنَّهُ يُخْرِجُ الإِنْسانَ مِنْ دينهِ خُطْوَةً خُطْوَةً ، فَهُوَ يَبْدَأُ بِأَمْرٍ بَسيطٍ ، فإذا اتَّبَعَهُ الإنسانُ أَمَرَهُ بما هُوَ أَعْظَمُ ، وهَكَذا حتَّى يُخْرِجَهُ عَنْ دينهِ .

ثُمَّ بَيَّنَتِ الآياتُ كَيْفِيَّةَ عَداوةِ هَذا الشَّيطانِ ، فَقَالَ تَعالى :

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ .

فالشَّيْطانُ :

١ـ يَأْمُرُ بالسّوءِ والفَحْشاءِ : فَهُوَ يَتسَلّطُ عَلَيْكُمْ ، ويَأْمُرُكُمْ أَنْ تَفْعَلوا ما يَسوؤكُمْ في دُنياكُمْ وآخِرَتِكُمْ ، فَقَدْ يُقْدِمُ الإنْسانُ على شَرٍّ يَأْمُرُهُ بِهِ الشَّيْطانُ ، فإذا فَعَلَهُ فاجَأَهُ السُّوءُ وعَاجَلَهُ الضَّرَرُ ، فَقَدْ يُوَسْوِسُ لَكَ الشَّيْطانُ أَنْ تَتْرُكَ دِراسَتَكَ وأَنْ لا تَتعلَّمَ ، فَكَمْ مِنْ مُتَعلِّمٍ أَضاعَ وَقْتَهُ ومالَهُ ولَمْ

يَسْتَفِدْ شَيْئاً ، حتّى إذا اتّبعْتَهُ فيما يُوسْوِسُ لَكَ وَقَعَتْ في سوءٍ عَظيمٍ ، وَضيَّعت حياتَكَ بلا طائلٍ .

وهذا الشَّيْطانُ كَذلِكَ يَأمُرُكُمْ بالفَحشاءِ ، والفَحْشاءُ أقْبَحُ وأشَدُّ مِنَ السّوءِ ، فَهُوَ يُزيِّنُ للنّاسِ شُرْبَ الخَمْرِ ، والزِّنا ، والغيبَةَ والنَّميمَةَ ، وَغَيرَ ذَلِكَ مِنَ الفواحِشِ الّتي يَقَعُ فيها الإنْسانُ فَيُضَيِّعُ دُنياهُ وآخِرَتَهُ .

٢ـ ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فَهذا الشَّيْطانُ يَأمُرُكُمْ أنْ تَقولوا على اللهِ تَعالى في دينِهِ ما لا تَعْلَمونَ عِلْمَ اليَقينِ أنَّ اللهَ شَرَعَهُ لَكُمْ ، مِنْ عَقائِدَ أو شَعائِرَ دينيَّةٍ ، أو يُحَلِّلُ لَكُمْ ما حَرَّمَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ أو يُحَرِّمُ ما أحَلَّهُ اللهُ لَكُمْ ، في هذا كُلِّهِ اعْتداءٌ على حَقِّ الرُّبوبيَّةِ في التَّشريعِ ، وَهذا أقْبَحُ ما يَأْمُرُ بهِ الشَّيْطانُ .

وَبَعْدَ أنْ نَهى اللهُ تَعالى النّاسَ عَنِ اتِّباعِ خُطواتِ الشَّيطانِ وبيَّنَ لَهُمْ مَظاهِرَ عَداوَتِهِ ، أتْبَعَ ذَلِكَ بِبَيانِ حالِ طائِفَةٍ مِنَ النّاسِ الّذينَ اتَّبعوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ ، وَقَلَّدوا آباءَهُمْ في الشِّرْكِ والجَهالةِ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ .

أيْ : إذا قيلَ لِهَؤُلاءِ الَّذينَ اتَّبَعوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ مِنَ المُشْرِكينَ ، والَّذينَ يَقولونَ على اللهِ بِغَيرِ عِلْمٍ ولا بُرْهانٍ ، إذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبعوا ما أنْزَلَهُ اللهُ على رسولِهِ مِنَ الوَحْيِ ، ولا تَتَّبعوا مِنْ دونِهِ أحَداً ، لَمْ يَسْتَمِعوا لِهذا القَوْلِ ، بلْ قالوا إنَّا نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيهِ سادَتَنا وكُبراءَنا وشُيوخَنا وآباءَنا وأجْدادَنا ، فَجَنَحوا إلى التّقليدِ وإلْغاءِ عُقولِهِمْ ، و(بَلْ) للإِضْرابِ الإبْطاليِّ ، أي أضْرَبوا عَنْ قَوْلِ الرّسولِ ﷺ لَهُمْ : ﴿ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إضْرابَ إعْراضٍ من دونِ حُجّةٍ إلاّ لأنّهُ مُخالِفٌ لِما وَجَدوا عَلَيْهِ آباءَهُمْ مِنَ الشِّرْكِ والضَّلالِ . وَبيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بُطْلانَ قَوْلِهِمْ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ والهَمْزَةُ للاسْتِفْهامِ الإنْكاريِّ ، والواوُ للحالِ ، أي أيَتَّبعونَ ما وَجَدوا عَلَيْهِ آباءَهُمْ والحالُ أنَّ آباءَهُم لا يَعْقِلونَ شَيْئاً مِنْ عقائِدِ الدّينِ وعِباداتِهِ ، ولا يَهْتَدونَ إلى طريقِ الصّوابِ ، فَهؤلاءِ ألْغَوْا عُقولَهُمُ الّتي تَهْديهِمْ إلى وُجودِ الخالِقِ سُبْحانَهُ مِنْ خِلالِ الأدلَّةِ الكَوْنيّةِ حَوْلَهُمْ ، وكُلُّ مَنْ عِنْدَهُ مِسْحَةُ عَقْلٍ لا يُمْكِنُ أنْ يَفْعَلَ فِعْلَهُمْ ويَسيرَ في طَريقِهِمْ ، فَما مَثَلُهُمْ إلاّ كَمَثَلِ البَهائِمِ الّتي لا تَعْقِلُ شَيْئاً ، يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ .

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ أيْ : مَثَلُ هَؤلاءِ الكافِرينَ في

تَقليدِهِمْ لآبائِهِمْ ورُؤَسائِهِمْ ، وبَقائِهِمْ على ما هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلالِ وعَدَمِ سَماعِهِمْ لِنِداءِ الحَقِّ ، وتَأمُّلِهِمْ في الأدِلَّةِ القرآنيَّةِ والكَوْنِيَّةِ ، مَثَلُ البَهائِمِ تَماماً ، الّتي يَنْعِقُ عَلَيْها الرّاعي ويَسوقُها إلى المَرْعى ويَدْعوها إلى الماءِ ويَزْجُرُها ، فَتَستَجيبُ دَعْوَتَهُ ، وتَنْزَجِرُ بِزَجْرِهِ ، وهي لا تَعْقِلُ شَيْئاً مِمّا يَقولُهُ ولا تَفْهَمُ لَهُ مَعْنىً ، إنّما تَسْمَعُ أصواتاً تُقْبِلُ لِسَماعِ بَعْضِها ، وتُدْبِرُ لِسَماعِ صَوْتٍ آخَرَ ، وذَلِكَ بالتَّعوُّدِ ، ولا تَعْقِلُ سَبَباً لإقْبالِها وإدْبارِها .

وهَذا المَثَلُ الَّذي ضَرَبَهُ اللهُ تَعالى يَزيدُ الإنْسانَ السّامِعَ لآياتِ اللهِ مَعْرِفةً بِأَحوالِ الكُفّارِ ، ويَجْعَلُ الكافِرَ يَحْقِرُ نَفْسَهُ إذا سَمِعَ هذا الأَمْرَ عَنْهُ ، حيْثُ يَصيرُ كالبَهيمَةِ في تَقْليدِهِ لآبائِهِ دونَ تَفْكيرٍ وَوَعيٍ وتَدبُّرٍ ، ويَكونُ في هذا نهايَةُ الزَّجْرِ والرَّدْعِ لِمَنْ يَسْلُكُ مَسْلَكَ التَّقليدِ ، ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ زيادةً في تَبْكيتِهِمْ وتَقْريعِهِمْ ، أي : هُمْ صُمٌّ عَنِ اسْتِماعِ دَعْوَةِ الحَقِّ ، بُكْمٌ عَنْ إجابَةِ الدّاعي إليْها ، عُمْيٌ عَنْ آياتِ صِدْقِها وصِحَّتِها ، فَهُمْ لإعْراضِهِمْ عَنِ الهادي لَهُمْ إلى ما يَنْفَعُهُمْ ويُنَجّيهِمْ مِنَ العَذابِ صاروا بِمَنْزِلَةِ مَنْ فَقَدَ حَواسَّهُ ، فَأَصْبَحَ لا يَسْمَعُ ولا يَنْطِقُ ، ولا يُبْصِرُ ، فَهُمْ لا يَعْقِلونَ لِعَمَلِهِمْ مبدأً ولا غايةً ، بَلْ يَنقادونَ إلى غَيْرِهِمْ كَما هُوَ شَأْنُ الحَيوانِ ، ومِنْ ثُمَّ اتَّبَعوا مَنْ لا يَعْقِلونَ ولا يَهتدونَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الحُكْمُ للهِ تَعالى وَحْدَهُ ، فَلا مُحَلِّلَ ولا مُحَرِّمَ إلاّ اللهُ .

٢ـ أباحَ اللهُ تَعالى للنّاسِ الطَّيِّباتِ ، الّتي تَسْتَلِذُّها النُّفوسُ السَّليمَةُ ، وَحَرَّمَ عَليْهِمُ الخَبائِثَ الّتي تَسْتَقْذِرُها النُّفوسُ السَّليمَةُ الطَّيِّبَةُ .

٣ـ الشَّيْطانُ عَدوٌّ للإنْسانِ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ آدَمَ ، وهُوَ لا يَنْفَكُّ في إغْواءِ الإنْسانِ وتَزيينِ الباطِلِ والفَحشاءِ لَهُ .

٤ـ التَّقليدُ بِلا عَقْلٍ ولا فَهْمٍ مِنْ شَأْنِ الكافِرِ ، أَمّا المُؤْمِنُ فَهُوَ يَعْقِلُ دينَهُ ويَعْرِفُهُ بِنَفْسِهِ ، ويَقْتَنِعُ بِصِحَّتِهِ .



التقويم :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَا مَعْنى الأَمْرِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿كُلوا﴾ ؟ وَلِمَ جاءَتْ (مِنْ) في قَوْلِهِ : ﴿مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ؟

٢ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ، وما سِرُّ التَّعبيرِ بِكَلِمَةِ ﴿خُطُوَاتِ﴾ ؟

٣ـ بيَّنَتِ الآياتُ بَعْضَ المَظاهِرِ لِعَداوَةِ الشَّيْطانِ ، وضِّحْها كَما ذَكَرَتْها الآياتُ .

٤ـ تَحدَّثتِ الآياتُ عَنْ طائِفَةٍ اتَّبَعَتْ خُطواتِ الشَّيْطانِ ، مَنْ هِيَ تِلْكَ الطّائِفَةُ ؟

٥ـ ما مَعنى كَلِمَةِ ﴿بَل﴾ ؟

٦ـ بِمَ أَمَرَتِ الآياتُ المُشْرِكينَ ؟ وبماذا أجابوا ؟

٧ـ ضَرَبَتِ الآياتُ مَثَلاً للمُشْرِكينَ المقلِّدينَ لآبائِهِمْ ، هاتِ هَذا المَثَلَ .

٨ـ لِمَ وَصَفَتِ الآياتُ المُشْرِكينَ بَعْدَ ذَلِكَ بأَنَّهُمْ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ ؟ وهَلْ هُمْ كَذَلِكَ حَقيقةً ؟

نشاط :

١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ الّتي بيَّنَ فيها سُبْحانَهُ وتَعالى ما حَرَّمَهُ اللهُ على النّاسِ مِنْ مَطْعوماتٍ .

٢ـ اكتبْ في دفْتَرِكَ الآيةَ مِنْ سورةِ الحَشْرِ الّتي تُبيِّنُ تَوريطَ الشَّيْطانِ للإِنْسانِ .

* * *

الدَّرْسُ الرَّابِعُ

سورةُ البقرةِ ـ القسمُ الخمسون

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ

أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ : ذُكِرَ عِنْدَ ذَبْحِهِ غَيْرُ اللهِ كالأَصْنامِ وغَيْرِها .

عادٍ : العادي ؛ المُتَجاوِزُ قَدْرَ الضَّرورَةِ .

إثْمَ : الإِثْمُ : الذَّنْبُ والمَعْصِيةُ .

بالهُدى : بالشَّرائِعِ الّتي أَنْزَلَها اللهُ على لِسانِ أنْبيائِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

شِقاقٍ : عَداءٍ وتنازُعٍ .

التَّفْسيرُ :

خاطَبَتِ الآياتُ السّابِقَةُ النّاسَ جَميعاً بِأَنْ يَأْكُلوا مِمّا أَحَلّهُ اللهُ لَهُم ، واسْتَطابَتْهُ النُّفوسُ السَّليمةُ ، وخاطَبَتْ آياتُ الدّرسِ المُؤمِنينَ خاصّةً بِأَنْ يَأكُلوا مِنَ الطَّيِّباتِ ، لأَنَّهُمْ هُمُ الأَحَقُّ بالفَهْمِ وأَحْرى بالاهْتِداءِ ، وأَوْلى بالتَّكْريمِ والتَّشْريفِ . قالَ تَعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ .

فيا مَنْ آمَنَ باللهِ تَعالى ومِلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ ، وهذا النِّداءُ مُحبَّبٌ للمُؤمِنينَ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يَحُثُّهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى فيهِ على الاستِجابَةِ ، ومَنْ مِنّا لا يُحِبُّ أنْ يَكونَ مِمّنْ يُناديهِمُ اللهُ تَعالى بِهذا الوَصْفِ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ويَأْمُرُهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى أنْ يَأكلوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقَهُمُ اللهُ . والطَّيِّباتُ ما طابَ كَسْبُهُ مِنَ الحَلالِ ، ويَسْتَلْزِمُ مِنْ ذَلِكَ عَدَمُ تَحريمِ شَيْءٍ مِمّا أَحَلَّهُ اللهُ تَعالى ، والامْتِناعُ عَنْ أكْلِهِ تَعذيباً للنَّفْسِ ، وفي هذا تَنْبيهٌ لِلْمُؤْمِنينَ كَيْلا يَكونوا كالمُشْرِكينَ ، الّذينَ أُبيحَتْ لَهُمْ خَيْراتُ الأَرضِ ، فَصاروا يُحَرِّمونَ بَعْضَها ويُحَلِّلونَ بَعْضَها الآخَرَ ، وفيهِ تَنْبيهٌ لَهُم أَنْ يَأكُلوا مِمّا أَحَلَّهُ اللهُ لَهُمْ ، وأَنْ لا يُضَيِّقوا على أَنْفُسِهِمْ .

﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ ﴾ إنَّ النِّعَمَ لا بُدَّ وأَنْ تُقابلَ بالشُّكْرِ حتّى تَدومَ على صاحِبها ، فاشْكُروا اللهَ الّذي خَلَقَ لَكُمْ هذهِ الطَّيِّباتِ ، وسَهَّلَ عَلَيْكُمْ أَسْبابَ الحُصولِ عَلَيْها ، واعْتَرِفوا بِفَضْلِ اللهِ عَلَيْكُمْ مُعَظِّمينَ لَهُ تَعالى . والشُّكْرُ يَكونُ باتِّباعِ شَرْعِهِ سُبْحانَهُ في طَلَبِ الطَّيِّباتِ واسْتِخْراجِها ، وفي اسْتِعْمالِها فيما خُلِقَتْ لَهُ ، وفي الثَّناءِ عَلَيْهِ سُبْحانَهُ الّذي أَنْعَمَ بِها وأَحَلَّها ، وفي اعْتِقادِكُمْ أَنَّ هَذهِ الطَّيِّباتِ إنَّما هِيَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وإِحْسانِهِ ، وهذا كُلُّهُ لَنْ يَكونَ إلاّ إذا عَبَدْتُمُ اللهَ وَحْدَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وآمَنْتُمْ بِتفرُّدِهِ بالسُّلْطَةِ والتَّدْبيرِ ، وقَدْ تَقَدَّمَ ضَميرُ الفَصْلِ (إيّاهُ) لِيُفيدَ التَّخصيصَ ، أي : إنْ كُنْتُمْ تَخصّونَهُ بالعِبادةِ وَحْدَهُ ، وجوابُ الشَّرطِ (إنْ) مَحذوفٌ مَفهومٌ مِنَ السِّياقِ ، وتَقْديرُ الكَلامِ ؛ إنْ كُنْتُمْ تَخصّونَ اللهَ وَحدَهُ بالعِبادَةِ ، فاشْكُروهُ على نِعَمِهِ الّتي أَنْعَمَ بِها عَلَيْكُمْ .

وَقَدْ أَخْرَجَ الإمامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ :

« إنَّ اللهَ لَيَرْضى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْها ، أو يَشْرَبَ الشُّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْها »[١] .

وَبَعْدَ هَذا بيَّنَتِ الآياتُ ما لَيْسَ مِنَ الطَّيِّباتِ مِنَ الأَطْعِمَةِ ، الّتي حَرَّمَها اللهُ تَعالى عَلَيْنا ، وذلِكَ لِتَجَنُّبِها والحَذَرِ مِنْها ، فَقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ .

بَدَأَها بِكَلِمَةِ ﴿إِنَّمَا﴾ الّتي تُفيدُ الحَصْرَ ، أي : حَصْرَ الأَطْعِمةِ المُحرَّمَةِ في هذهِ الأَنواعِ الّتي سَتَذْكُرها الآيَةُ الكريمةُ .

---

(١) رواه الإمام مسلم في الصحيح ، حديث رقم (٢٧٣٤) .

١ـ والمَيْتَةُ : ما ماتَ حَتْفَ أَنْفِهِ ، أَوْ قُتِلَ بطَريقَةٍ غَيْرِ مَشْروعَةٍ كالمُنْخَنِقَةِ والمَوْقوذَةِ والمُتَرَدِّيَةِ والنَّطيحَةِ وما أَكَلَ السَّبُعُ ، وَقَدْ حُرِّمَتِ المَيْتَةُ لأَنَّ الطِّباعَ السَّليمةَ تَسْتَقْذِرُها ، ولأَنَّها يُتَوَقَّعُ الضَّررُ مِنْها ، فَهِيَ إمّا أنْ تَكونَ ماتَتْ لِمَرَضٍ فيها ، وقَدْ يَكونُ هذا المَرَضُ مُؤذِياً ، وإمّا أَنَّها ماتَتْ بسَبَبِ عِلَّةٍ عارِضَةٍ ، والمَوْتُ الفُجائيُّ يَقْتَضي بَقاءَ الأَشْياءِ الضَّارَّةِ في جِسْمِها ، إضافَةً إلى ذلكَ فإنَّها لم تُذْبَحْ بِطَريقَةٍ شَرْعِيَّةٍ ، ولِذا بَقِيَ الدَّمُ الفاسِدُ فيها ، وهذا كُلُّهُ فيهِ ما فيهِ مِنَ الضَّررِ على الإنْسانِ .

٢ـ الدَّمُ : ويُقْصَدُ بهِ الدّمُ المَسْفوحُ ، الّذي يَسيلُ مِنَ الدّابّةِ حينَ ذَبْحِها ، وهَذا الدَّمُ مُسْتَقْذَرٌ تَعافُهُ النَّفْسُ السَّليمَةُ ، وهُوَ حامِلٌ لِلجَراثيمِ ، وما فيهِ خَطَرٌ على الإنْسانِ .

٣ـ لَحْمُ الخِنْزيرِ : وهُوَ لَحْمٌ قَذِرٌ كَذَلِكَ ، فالخِنْزيرُ يَتَغذّى على القاذوراتِ والنَّجاساتِ ، وهُوَ يَشْتَمِلُ على دُودةٍ تَضُرُّ بِبَدَنِ آكِلِهِ ، وهذا ما أثْبَتَهُ العِلمُ الحَديثُ ، وقَدْ تَكونُ هناكَ حِكَمٌ كَثيرَةٌ ما زِلْنا نَجْهَلُها لِتَحْريمِ لَحْم الخِنْزيرِ ، ولِذَلِكَ نَحْنُ نُسَلِّمُ بالتَّحريمِ دونَ أسبابٍ . والتَّحريمُ يَشْمَلُ لَحْمَ الخِنزيرِ وشَحْمَهُ وجِلْدَهُ ، وشَعْرَهُ .

٤ـ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بهِ : وهو ما يُذْبَحُ ويُقَدَّمُ للأَصْنام ، وَقَدْ كانوا يَرْفَعونَ أَصْواتَهُمْ بِذِكْرِ اسْمِ الصَّنَمِ الّذي يَذبَحونَ لأَجْلِهِ ، فَيَقولونَ : يا مَناةَ أو يا هُبَل ، وهذا كُلّهُ مُحَرَّمٌ ، لأَنَّ فيهِ إشْراكاً مَعَ اللهِ تَعالى ، فَكُلُّ ما ذُكِرَ اسْمُ غَيْرِ اللهِ عَلَيْهِ أو ما ذُبِحَ تَقَرُّباً لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ حرامٌ . هذِهِ الأُمورُ هِيَ الّتي حَرَّمَها اللهُ تَعالى ، والأمورُ الثَّلاثَةُ الأُولى حُرِّمَتْ لِعِلَّةٍ ذاتيَّةٍ فيها ، والأَمْرُ الرّابِعُ حُرِّمَ لأَمْرٍ خارِجٍ ، وهُوَ ذِكْرُ غيرِ اسْمِ اللهِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : مَنِ الْتَجأَ واحْتاجَ إلى أَكْلِ شيْءٍ مِمّا حرَّمَهُ اللهُ تَعالى ، وذَلِكَ بأنْ لا يَجِدَ غَيْرَ هذا المُحَرَّمِ ، وخافَ على نَفْسِهِ مِنَ المَوتِ جوعاً ، وكانَ غَيْرَ راغِبٍ في المُحَرَّم وغَيرَ ساعٍ في فسادٍ ، وكَذلِكَ غَيْرَ مُتَجاوِزٍ ما يَسُدُّ جوعَهُ ويَحْفَظُ حياتَهُ ، فلا يأْكُلُ إلاّ ما يَسُدُّ رَمَقَهُ ، فإنْ أَكَلَ مِنْ هذهِ المُحرَّماتِ فلا إثمَ عَلَيْهِ ، ولا حَرَجَ ؛ وذَلِكَ إنّ إلقاءَ نَفْسهِ إلى التَّهْلُكَةِ بالموْتِ جوعاً ، أَشَدُّ ضَرراً مِنْ أَكْلِ المَيْتَةِ أوْ غَيْرِها . وحِفْظُ النَّفْسِ الإنْسانِيَّةِ مِنَ الضَّروراتِ الخَمْسِ الّتي حافَظَ الإسْلامُ عَلَيْها .

﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : إنّ اللهَ يَغْفِرُ لِعِبادِهِ خَطأَهُمْ في تَقْديرِ الضَّرورَةِ ، رَحيمٌ بِهِمْ إذْ رَخَّصَ لَهُمْ في تَناوُلِ المُحَرَّماتِ للضَّرورَةِ ، ولَمْ يُوقِعْهُمْ في الحَرَجِ والعُسْرِ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ أَنَّ بَعْضَ الرُّؤساءِ الّذينَ حَرَّموا ما لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ ، وأَحَلّوا ما لَمْ يُحِلَّهُ اللهُ ، قَدْ كَتَموا ما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى إمّا بِتَأويلِهِ أوْ تَرْكِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾ أي : إنَّ الّذينَ يُخْفونَ شَيْئاً مِمّا أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالى فلا يُبَلِّغونَهُ للنّاسِ ، أو يُخْفونَ مَعْناهُ عَنْهُمْ بتَأْويلِهِ أوْ تَحْريفِهِ ، أوْ وَضْعِ آرائِهِمْ مَوْضِعَ كَلامِ اللهِ تَعالى ، ويَسْتَبْدِلونَ بِما يَكْتُمونَهُ ثَمَناً قَليلاً مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا وحُطامِها ، وسُمِّيَ قَليلاً ، لأنَّ كُلَّ عِوَضٍ عَنِ الحَقِّ فَهُوَ قليلٌ ، إذْ إنَّ أَخْذَهُ يُفَوِّتُ على نَفْسِهِ سَعادَةَ الحَقِّ الدّائِمَةِ بِدَوامِ المُحافَظَةِ عَلَيْهِ ، والتّارِكُ لِلْحَقِّ وإنْ تَمَتَّعَ بِثَمَنِ الباطِلِ ، فَإِنَّ هذا إِنَّما يَكونُ إلى أَمَدٍ قَريبٍ ، لأَنَّ مَتاعَ الحياةِ الدُّنْيا في الآخِرَةِ قَليلٌ .

إنَّ نَتيجَةَ أولئِكَ الّذينَ كَتَموا ما أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالى :

١ـ ما يَأكُلُونَ في بُطونِهِمْ مِنْ ثَمَنِ بَيْعِ الحَقِّ واسْتِبْدالِهِ إلاّ ما يُؤَدّي بِهِمْ إلى النّارِ ، ولَنْ تَمْلأَ بُطونَهُمْ ولَنْ يُشْبِعَ جَشَعَهُمْ إلاّ النّارُ الّتي تَكويها ، وفي هَذِهِ الجُمْلَةِ تَمْثيلٌ لِحالَةِ أُولئِكَ الكُفّارِ ، فَقَدْ مَثَّلَ لِحالِهِمْ في أَكْلِهِمْ ذَلِكَ الثَّمَنَ القَليلَ الّذي سَيُفْضي بِهِمْ إلى النّارِ بحالَةِ مَنْ يَأْكُلُ النّارَ نَفْسَها ، إلاّ أنَّ العَذابَ الحاصِلَ مِنْ أَكْلِ النّارِ يَقَعُ عَنْدَما تَمْتَلِىءُ بِها بُطونُهُمْ . والعَذابُ الحاصِلُ مِنْ أَكْلِ المالِ الحَرامِ يَقَعُ يَوْمَ القِيامَةِ وذَلِكَ بإحْراقِهِ بِنارِ جَهَنَّمَ .

٢ـوهَؤلاءِ عَقاباً لَهُمْ ، لا يُكَلِّمُهُمْ اللهُ تَعالى يَوْمَ القِيامَةِ ، كلاماً تَطْمَئِنُّ بِهِ نُفوسُهُمْ وتَنْشَرِحُ لَهُ صُدورُهُمْ ، وإنّما يُكَلِّمُهُمْ بما يُخْزيهِمْ ويَفْضَحُهُمْ ، ففي عَدَمِ كَلامِهِ لَهُمْ سُبْحانَهُ كِنايَةٌ عَنْ غَضَبِهِ عَلَيْهِمْ ، وإنَّ مِنْ عادَةِ المُلوكِ إذا غَضِبوا مِنْ أحَدٍ ، أعْرَضوا عَنِ المَغضوبِ عَلَيْهِ ولَمْ يُكَلِّموهُ .

٣ـ ولا يَزَكِّيهِمُ اللهُ تَعالى ، أي لا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ الكُفْرِ والذُّنوبِ ، بالمَغْفِرَةِ والصُّلْحِ ، فَهُمْ قَدْ ماتوا كافِرينَ مُصرّينَ على كُفْرِهِمْ ، ولِذا لَنْ يَغْفِرَ اللهُ تَعالى لَهُمْ .

٤ـ ولَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ ، وعَذابٌ شَديدٌ موجِعٌ ، بِسَبَبِ كِتْمانِهِمُ الحَقَّ ، وقَدْ تَقَدَّمَ الجارُّ على المَجرورِ ﴿لَهُم﴾ لِيُفيدَ خُصوصِيَّتَهُمْ بِهذا العذابِ هُمْ ومَنْ كانَ على شاكِلَتِهِمْ .

ويَقولُ سُبْحانَهُ وصْفاً للكاتِمينَ للحَقِّ :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ أي : أُولَئِكَ الّذينَ كانَ جَزاؤُهُمْ ما قَصَّهُ اللهُ عَلَيْنا ، هُمُ الّذينَ تَرَكوا الهُدى ، الّذي جاءَ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، والْتَزَموا في مُقابِلِهِ بالكُفْرِ والضَّلالِ ، وهَذا دليلٌ على غَبائِهِمْ وانطِماسِ بَصيرَتِهِمْ ، إذْ لَوْ كانَ عِنْدَهُمْ مِسْحَةُ عَقْلٍ ما اسْتَبْدَلوا

الباطِلَ بالْحَقِّ ، والعذابَ بالمَغْفِرةِ ، فَهُمْ قَدْ باعوا ما يوصِلُهُمْ إلى رَحْمَةِ اللهِ ومَغْفِرَتِهِ وتَرَكوهُ وراءَ ظُهورِهِمْ ، واسْتَبْدَلوا بِهِ الباطِلَ الّذي يوصِلُهُمْ إلى عذابِ اللهِ تَعالى .

ويُبَيِّنُ اللهُ تَعالى شِدَّةَ صَبْرِهِمْ على النّارِ ، وفيهِ تَعْجيبٌ لِلْمُؤْمِنينَ ، فَقالَ تَعالى : ﴿ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ إنَّ هَذا العَذابَ الّذي يَنالُهُ أُولَئِكَ المُبْطِلونَ بِسَبَبِ إنْكارِهِمْ وتَكْذيبِهِمْ لِهَذا الكتابِ الّذي جاءَ بالحَق ، والحَقُّ لا يُغالَبُ ومَنْ غالَبَهُ غُلِبَ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ ذلِكَ العذابُ الأَليمُ قَدْ حَلّ بِهَؤلاءِ الأشْقياءِ بِسَبَبِ كِتمانِهِمْ ما أَنْزَلَهُ اللهُ في كِتابِهِ مِنَ الحَقِّ ، وإنّ الّذينَ اخْتَلَفوا في الكِتابِ الّذي نَزَّلَهُ اللهُ لِجَمْعِ الكَلِمَةِ على اتِّباعِ الحَقِّ ، لَفي شِقاقٍ بَعيدٍ ، فلا يُمْكِنُ أَنْ يَهْتَدوا إلى الحَقِّ ، لأَنَّ كَلامَهُمْ يُخالِفُ الآخَرَ بما ابْتَدَعوهُ مِنْ آراءَ تُناسِبُ أَهْواءَهُمْ ، فَكُلٌّ مِنْهُمْ يَأْخُذُ بِرَأْيِهِ ويَتْرُكُ رَأْيَ غَيْرِهِ ، لأَنَّهُ لا يُناسِبُ هَواهُ ، وهُم جَميعاً يَبْتَعِدونَ عَنِ الحَقِّ الّذي جاءَهُمْ في كتابِ اللهِ العزيزِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

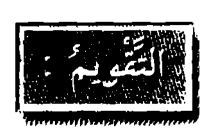
تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وُجوبُ أَكْلِ الحَلالِ وتَرْكِ الحَرامِ ، طاعَةً للهِ تَعالى وتَسْليماً لأَمْرِهِ ، وَوُجوبُ شُكْرِ المُنْعِمِ على نِعَمِهِ .

٢ـ حافَظَ الإسْلامُ على حياةِ الإنْسانِ مِنَ الهَلاكِ ، فَأَباحَ لَهُ أنْ يَأْكُلَ مِمّا هُوَ مُحَرَّمٌ عِنْدَ الضَّرورَةِ ، وهَذا مِنْ رَحْمَةِ هذا الدّينِ .

٣ـ المُؤْمِنونَ لا بُدَّ وَأَنْ يَكونوا أُمّةً واحِدَةً مُتَّحِدَةٍ ، ولا يَنْبَغي أَنْ يَكونوا شِيَعاً ومَذاهِبَ شَتّى ، فإنَّ دينَ اللهِ تَعالى واحِدٌ .

٤ـ المُؤْمِنُ مُطالَبٌ بِبَيانِ شَرْعِ اللهِ تَعالى ، وعَدَمِ كِتْمانِهِ ، وأَنْ لا يَقولَ على اللهِ ما لا يَعْلَمُ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ مَعْنى المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

طيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ ، أُهِلَّ بهِ ، غَيْرَ باغٍ ولا عادٍ .

٢ـ ماذا يُفيدُ الأَمْرُ في قَولِهِ تَعالى : ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ؟

٣ـ كَيْفَ يَكونُ شُكْرُ اللهِ تَعالى على ما رَزَقَنا مِنَ الطَّيِّباتِ ؟

٤ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ تَحريمِ المَيْتَةِ ؟

٥ـ لِماذا حَرَّمَ اللهُ ما أُهِلَّ بهِ لِغَيْرِهِ ؟

٦ـ مَتى يُباحُ للإنْسانِ أنْ يَأْكُلَ مِمّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَيْهِ ؟

٧ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿يَشْتَرُون بِهِ ثَمناً قَلِيلاً﴾ .

٨ـ ذَكَرَتِ الآيةُ نَتيجَةً حَتْمِيَّةً لأولئِكَ الّذينَ يَكْتُمونَ ما أَنْزَلَ اللهُ ، ما تِلْكَ النّتيجَةُ الّتي أعَدَّها اللهُ لَهُمْ ؟

٩ـ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَىٰ ٱلنَّارِ﴾ كَيْفَ يَكونُ صَبْرُ الكافِرِ على النارِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ أباحَ لَنا الإسْلامُ مَيْتَتَيْنِ ودَمَيْنِ ، ما هُما ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ما الضَّروراتُ الخَمْسُ الّتي حافَظَ الإسْلامُ عَلَيْها لِيُؤَمِّنَ للإنْسانِ حَياةً سَليمَةً ؟ اكْتُبْها في دفْتَرِكَ .

* * *

الدرس الخامس

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ الحادي والخَمسونَ

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

معاني المُفْرداتِ :

البِرَّ : اسْمٌ جامِعٌ لِكُلِّ خَيْرٍ .

ابنِ السَّبيلِ : المُسافِرُ المُنْقَطِعُ عَنْ مالِهِ ووَلَدِهِ وَوَطَنِهِ .

في الرِّقابِ : فَكُّ الرِّقابِ وتَخْليصُها مِنَ العُبودِيَّةِ والرِّقِّ .

البَأْساءِ : ما يُصيبُ النّاسَ في أَمْوالِهِمْ وهُوَ الفَقْرُ .

الضَّراءِ : ما يُصيبُ النّاسَ في أَنْفُسِهِمْ كالمَرَضِ .

حينَ البَأْسِ : وَقْتَ القِتالِ في سَبيلِ اللهِ .

التَّفسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ الكَريمَةُ في الدُّروسِ السّابِقَةِ عَنْ تَحويلِ القِبْلَةِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إلى المَسْجِدِ الحَرامِ ، وبَيَّنَتْ أَنَّ اليَهودَ قَدْ أثاروا الفِتَنَ والشُّبُهاتِ حَوْلَ هَذِهِ القَضِيَّةِ ، وَطالَ خَوْضُهُمْ فيها حَتّى شَغَلوا المُسْلِمينَ بِها ، وكانَ أَهْلُ الكِتابِ يَرَوْنَ أَنَّ الصَّلاةَ إلى غَيْرِ قِبْلَتِهِمْ لا تُقْبَلُ عِنْدَ اللهِ ، ولا يَكونُ صاحِبُها على دينِ الأَنْبياءِ ، وكانَ المُسْلِمونَ يَرَوْنَ أَنَّ الصَّلاةَ إلى المَسْجِدِ الحَرامِ هِيَ كُلُّ

شَيْءٍ ، لأَنَّهُ قِبْلَةُ سَيِّدِنا إِبْراهيمَ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسَّلامُ ، فَبَيَّنَ اللهُ تَعالى لَهُمْ أَنَّ مُجَرَّدَ تَولِيَةِ الوُجوهِ قِبَلَ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ لَيْسَ هُوَ البرُّ ، وأَنَّ اسْتِقبالَ القِبلَةِ إنّما شُرِعَ لِجَمْعِ النّاسِ وتَوْحيدِهِمْ وتَذْكيرِهِمْ بالصَّلاةِ والإِعْراضِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوى اللهِ تَعالى ، فالقِبْلَةُ لَمْ تُشْرَعْ لِذاتِها . قالَ تَعالى :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ .

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ ، والبِرُّ كُلُّ ما يُتَقَرَّبُ بِهِ إلى اللهِ تَعالى مِنَ الإيمانِ والأَخلاقِ والأَعْمالِ الصّالِحَةِ ، وتَوْجيهِ الوُجوهِ إلى المَشْرِقِ أوِ المَغْرِبِ لَيْسَ هُوَ البِرُّ ، فيقولُ سُبْحانَهُ : إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ هُوَ البِرَّ ، ولَكِنَّ البِرَّ يَتَمَثَّلُ في الأُمورِ التّالِيَةِ :

أولاً : الإيمانُ باللهِ تَعالى واليوم الآخِرِ والمَلائِكَةِ والكِتابِ والنَّبيينَ : فَأَصْلُ البرِّ هُوَ الإيمانُ باللهِ الّذي هوَ أساسُ كُلِّ بِرٍّ ، وأَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ ، وهُوَ التَّصْديقُ بِأَنَّهُ تَعالى الواحِدُ الفَرْدُ الصَّمَدُ ، الّذي لا تَعنوا الوُجوهُ إلاّ لَهُ ، ولا تَتَّجِهُ القُلوبُ بالعِبادَةِ إلاّ إِلَيْهِ .

وَذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ الإيمانَ باليوم الآخِرِ ، وهُوَ التَّصديقُ بالبَعْثِ وما يَقَعُ بَعْدَهُ مِنْ حِسابٍ وثَوابٍ وعِقابٍ . إنَّ الإيمانَ المَطْلوبَ مِنَ الإنْسانِ لَيْسَ مُجَرَّدَ مَعْرِفَةٍ ، ولكِنَّ هذهِ المَعْرِفَةَ لا بُدَّ أَنْ تَمْلُكَ العَقْلَ بالبُرْهانِ ، والنَّفْسَ بالإِذْعانِ ، حَتّى يَكونَ اللهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إلى المُؤْمِنِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

إِنَّ القُرْآنَ الكَريمَ يَذْكُرُ الإيمانَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ كَثيراً ، ويَقْرِنُ بَيْنَهُما فالإيمانُ باللهِ أساسُ المَعْرِفَةِ كَما قُلْنا ، وغايَتُها الإيمانُ باليومِ الآخِرِ .

ثُمَّ أَمَرَ سُبْحانَهُ بالإيمانِ بالملائِكَةِ ، الّذي هُوَ أصلُ الإيمانِ بالوَحْيِ والنُّبُوَّةِ ، فَمَنْ أَنْكَرَها أَنْكَرَ كُلَّ ذَلِكَ ، فالمَلَكُ هُوَ الّذي يَنْزِلُ بالوَحْي على الأَنْبياءِ بإِذْنِ اللهِ تَعالى ، لِيُبَيِّنَ أُمورَ الدّينِ .

والإِيمَانُ بالكُتُبِ السَّماوِيَّةِ الّتي جاءَ بِها الأَنْبياءُ ، يَتَطَلَّبُ امْتِثالَ ما فيها مِنْ أوامِرَ ونَواهٍ ، والإيمانُ بالأَنْبياءِ يَتَطَلَّبُ الاهْتِداءَ بِهَدْيِهِمْ والتَّخَلُّقَ بِأَخْلاقِهِمْ ، والتَّأَدُّبَ بآدابِهِمْ ، هَذِهِ هِيَ أَرْكانُ الإيمانِ الّتي لا بُدَّ للإِنْسانِ مِنْ أَنْ يُصَدِّقَ بِها ، حتّى يَكونَ ذا عقيدَةٍ سَليمَةٍ تَصِلُ إلى الفَلاحِ والسَّعادَةِ ، وهذِهِ هِيَ أُصولُ الإيمانِ .

ثانياً : الأَعْمالُ الصّالِحَةُ ؛ فَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَتِ الآيَةُ أُصولَ الإيمانِ الّذي هوَ مِنَ البرِّ ، أَتْبَعَتْها بِذِكْرِ أُصولِ الأَعْمالِ الّتي هِيَ ثَمَرَةُ الإيمانِ ، وَيَتَمَثَّلُ ذلِكَ في :

١ ـ ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ أيْ :

أعْطى المالَ على حُبِّهِ الشّديدِ لِذلِكَ المالِ لِمَنْ هُمْ في أمَسِّ الحاجَةِ لِذَلِكَ المالِ ، رَحْمَةً بِهِمْ وشَفَقَةً عَلَيْهِمْ ، وهُمْ :

أ . ذوو القُرْبى : وهُمْ أَحَقُّ النّاسِ بالبِرِّ ؛ إذِ الإنْسانُ يَتأَلَّمُ دائِماً لحالِ أقْرِبائِهِ عِنْدَ الفاقَةِ وشِدَّةِ الحاجَةِ ، أَكْثَرَ مِمّا يَتَأَلَّمُ لِرُؤْيَةِ غَيْرِهِمْ ، وفي إعْطائِهِمْ إحْسانٌ وصِلَةٌ لِلرَّحِمِ ، فَمَنْ قَطَعَ رَحِمَهُ ، وامْتَنَعَ عَنْ مُساعَدَتِهِمْ ، وهُوَ يَتَمَتَّعُ بِنِعْمَةٍ وَفَضْلٍ مِنَ اللهِ ، بَعُدَ عَنِ الدّينِ والفِطْرَةِ .

أخرجَ التِّرْمِذيُّ عَنْ سُلَيْمانَ بنِ عامِرٍ قالَ ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ الصَّدَقَةَ على المِسْكينِ صَدَقَةٌ وعلى ذي الرَّحِمِ اثْنَتانِ : صَدَقَةٌ وصِلَةٌ »[1] .

ب ـ اليَتامى : جَمْعُ يَتيمٍ ، وهُوَ مَنْ فَقَدَ أباهُ بالموتِ ، ولَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ بَعْدُ ، وهَؤلاءِ في حاجةٍ شَديدَةٍ إلى الإحْسانِ إلَيْهِمْ ، حتّى لا تَسوءَ حالُهُمْ ، وتَفْسُدَ تَرْبِيَتُهُمْ ، فَيَكونونَ ضَرَراً على أنْفُسِهِمْ وعلى المُجْتَمَعِ .

ج ـ المَساكينُ : والمِسْكينُ مَنْ لا يَمْلِكُ شَيْئاً مِنَ المالِ ، أو يَمْلِكُ مالا يَكْفي حاجَتَهُ ، وهَؤلاءِ في حاجَةٍ إلى العِنايَةِ والرِّعايَةِ ، وهُمْ في الغالِبِ لا يَسْأَلونَ النّاسَ شيْئاً ، حِفْظاً على كَرامَتِهِمْ .

وجاء في الحديث الشريف : « لَيْسَ المِسْكينُ الّذي يَطوفُ على النّاسِ فَترُدُّهُ الْلُقْمَةُ والْلُقْمَتانِ ، والتَّمْرَةُ والتَّمْرَتانِ ، قالوا : فَما المِسْكينُ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : الّذي لا يَجِدُ غِنىً يُغْنِيهِ ، ولا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ ، ولا يَسْأَلُ النّاسَ شَيْئاً »[2] .

د ـ ابنُ السَّبيلِ : وهُوَ المُسافِرُ الّذي انْقَطَعَتْ بِهِ السُّبُلُ ، وقَدْ أَمَرَ الشّارِعُ بِمُعاوَنَتِهِ ومُواساتِهِ ، حتّى يَسْتَطيعَ الوُصولَ إلى بَلَدِهِ ومالِهِ ، وفي هذا تَنْبيهٌ لِلْمُسْلِمينَ ، بِأَنَّهُمْ وإنِ اخْتَلَفَتْ أوطانُهُمْ فَهُمْ كالجَسَدِ الواحِدِ ، يَنبَغي أنْ يَكونَ بَيْنَهُمُ التَّعاطُفُ والتَّعاونُ على مَتاعِبِ الحياةِ .

هـ ـ السّائِلينَ : والسّائِلُ هُوَ الّذي اضْطُرَّ للطَّلَبِ مِنَ النّاسِ لِشِدَّةِ حاجَتِهِ . والسُّؤالُ علامةُ الحاجَةِ غالِباً ، ولكنْ لا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ حالِهِ ، وخاصَّةً أنّنا الآنَ في زَمَنٍ كَثُرَ فيهِ السّائِلونَ الّذينَ امْتَهَنوا هذِهِ المِهْنَةَ مَعَ عَدَمِ حاجَتِهِمْ للمالِ .

و ـ في الرِّقابِ : أي : في تَخْليصِ الأَسْرى مِنْ أَيْدي العَدوِّ بِفِدائِهِمْ بالمالِ ، أو تَخْليصِ الأَرِقّاءِ بِشِرائِهِمْ وإِعْتاقِهِمْ . وقَدْ جَعَلَ الإسْلامُ هذا النَّوْعَ مِنَ الْبَذْلِ واجباً على المُسْلِمينَ ، وفي هذا أَكْبَرُ دَليلٍ على رَغْبَةِ الإسْلام في فَكِّ الرِّقابِ ، وتَحْريرِهِمْ ، لأنَّ الإنْسانَ في نَظَرِ الشَّرْعِ خُلِقَ حُرّاً ، وقَدْ قالَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ : « مَتى اسْتَعْبَدْتُمُ النّاسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُمْ أمّهاتُهمْ أَحْراراً » .

---

(١) الترمذي ، باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة ، حديث رقم ٦٥٨ .

(٢) أخرجه ابن خزينة في صحيحه في باب الصدقة ، حديث رقم ٢٣٦٣ ، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٣٨٤ .

وقَدْ أَغْفَلَ كَثيرٌ مِنَ النّاسِ هذِهِ الحُقوقَ الّتي ذَكَرَها القُرْآنُ الكَريمُ ، ولَوْ أَنَّهُمْ أدّوها لَكانوا خَيْرَ الأُمَمِ ، ولَدَخَلَ كثيرٌ مِنَ الأُمَمِ في دينِ اللهِ ، لِما يَرَوْنَ مِنْ عَلاقَةٍ وَثيقَةٍ وَصِلَةٍ قَويَّةٍ بَيْنَ المُسْلِمينَ .

٢ـ الأَمْرُ الثّاني مِنْ تلكَ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ : إقامُ الصّلاةِ ، والمَقْصودُ ؛ أداؤُها على أَحْسَنِ وَجْهٍ بِكامِلِ أرْكانِها ، وبِحَيْثُ تُؤتي الصّلاةُ ثمارَها ، فَمِنْ أرْكانِها الخُشوعُ فيها ، بِحَيْثُ يَعي الإنْسانُ صَلاتَهُ ، فلا تَكونُ مُجَرَّدَ حَرَكاتٍ يَقومُ بها ، ومِنْ ثِمارِها تَحَلّي المُسْلِمِ بالأَخْلاقِ الفاضِلَةِ ، وبُعْدُهُ عَنِ الرَّذائِلِ ، فَلا يَقْتَرِفُ فاحِشاً ولا مُنْكَراً ، ولا يَكونُ هَلوعاً ولا جَزوعا ولا بَخيلاً ، ولا يَخْشى في اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ .

إيتاءُ الزّكاةِ بمعنى : دفعُ الزّكاةِ المَفْروضَةِ . وإقامُ الصّلاةِ وإيتاءُ الزَّكاةِ يَأْتِيانِ غالِباً مُقْتَرِنَيْنِ في كتابِ اللهِ تَعالى ؛ وذلكَ أنَّ الصّلاةَ تُهَذِّبُ الرّوحَ ، والمَالُ قرينُ الرّوحِ ، فإيتاءُ الزّكاةِ رُكْنٌ عَظيمٌ مِنْ أعْمالِ البِرِّ ، وقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ إيتاءَ الزَّكاةِ المَفروضَةِ بَعْدَ ذِكْرِ إيتاءِ المالِ على حُبّهِ لِبَعْضِ الأَصْنافِ ، وفي هَذا دَليلٌ على أنَّ هُناكَ حُقوقاً في المالِ سِوى الزَّكاةِ ، وذَلِكَ أنَّ الحاجَةَ إذا بَلَغَتْ بِطائِفَةٍ مِنَ الأُمَّةِ حدّاً عظيماً ، وَجَبَ على الأَغْنِياءِ سَدُّ هَذِهِ الحاجَةِ ، ولَوْ زادَ هذا القَدْرُ على الزَّكاةِ المَفْروضَةِ .

ثالثاً : التَّحَلّي بالأَخْلاقِ الكَريمَةِ . انْتَقَلَتِ الآياتُ بعدَ ذَلِكَ ، لِذِكْرِ الأَخْلاقِ الّتي لا بُدَّ وَأنْ يَتَحلّى بِها المُسْلِمُ ، والّتي هِيَ ثَمَراتٌ للإيمانِ والعَمَلِ الصّالِحِ ، ومِنْ ذَلِكَ :

١ـ الوَفاءُ بالعَهْدِ : الوَفاءُ بالعَهْدِ يَشْمَلُ ما يُعاهِدُ عليْهِ النّاسُ بَعْضَهُمْ بَعْضاً ، وما يُعاهِدُ عليهِ المُؤْمِنونَ رَبَّهُمْ مِنَ السَّمْعِ والطّاعَةِ لِما جاءَ في دينِهِمْ ، وهذِهِ العُهودُ لا بُدّ مِنَ الوَفاءِ بِها ، إذْ إنَّ فيها حِفْظاً لِكيانِ المُجْتَمَعِ مِنْ أنْ يَنْفَرِطَ عِقْدُهُ ، وفي عَدَمِ الوفاءِ بالعَهْدِ هَدْمٌ لِنِظامِ المُجْتَمَعِ وانْعِدامِ الثِّقَةِ بَيْنَ أفْرادِهِ .

٢ـ الصَّبْرُ : وقَدْ قالَ تَعالى : ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ وقَدْ تَحَدَّثَتْ آياتٌ سابِقَةٌ عَنِ الصَّبرِ ، وأَهَمِّيَّتِهِ في دروسٍ سابِقَةٍ . والصَّبْرُ مَحْمودٌ في جَميعِ الأَحْوالِ ، إلاّ أنَّ القُرآنَ الكَريمَ خَصَّ هذهِ المواضِعَ الثّلاثَةَ ؛ لأَنَّ مَنْ صَبَرَ فيها كانَ في غَيْرِها أصْبَرَ ، ثُمَّ إنَّ هَذِهِ الحالاتِ هِيَ أشَدُّها على ذَلِكَ الإنْسانِ أنْ يُصابَ في نَفْسِهِ أو مالِهِ ، أو دينِهِ ووطَنِهِ ، والفَقْرُ إذا اشْتَدَّ بالإنْسانِ ضاقَ بِهِ صَدْرُهُ ، وكادَ يُودي بِهِ إلى الكُفْرِ ، والمَرَضُ إذا أصابَ البَدَنَ أضْعَفَ الهِمَمَ والأَخْلاقَ ، وفي الحَرْبِ تَعَرُّضٌ للهَلاكِ والمَوتِ ، فَهذِهِ كُلُّها قَرَنَها سُبْحانَهُ وتَعالى بالصَّبْرِ ؛ صَبْرِ الإنْسانِ على الفاقَةِ والفَقْرِ ، وصَبْرِهِ على ما يُصيبُهُ مِنْ مَرَضٍ ، وصَبْرِهِ في الحَرْبِ . والصَّبْرُ في القِتالِ يَظْهَرُ عِنْدَما يَلْتَقي الجَمْعانِ وتَشْتَدُّ الحَرْبُ ، وبَعْضُ النّاسِ لا يَستَطيعُ البَقاءَ فَيلوذُ بالفِرارِ ، أوْ يَسْتَسْلِمُ لِلْعَدوِّ ، ولِذا جَعَلَ الإسلامُ مِنَ الكَبائِرِ الفرارَ يَومَ الزَّحْفِ .

هذِهِ الأُمورُ الّتي ذَكَرهَا القُرْآنُ هِيَ جَوامِعُ الخَيْرِ ، وهِيَ البِرُّ كُلُّ البرِّ ، فَلَيْسَ البرُّ مُجَرَّدَ التَّوَجُّهِ إلى جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ سَواءً أكانَتْ إلى المَشْرِقِ أمْ إلى المَغْرِبِ . وَقَدْ جَمَعَتْ هَذهِ الآيَةُ بَينَ أصولِ الإيمانِ وأُصولِ الأَعْمالِ ، وأُصولِ الأَخْلاقِ ، وبيَّنَتْ كَيْفَ يَنْبَغي أنْ تَكونَ علاقةُ العبْدِ مَعَ رَبِّهِ ، وعَلاقَتُهُ مَعَ نَفْسِهِ ، وعلاقَتُهُ مَعَ الآخَرينَ كَيْ يَحوزَ الْخَيْرَ ، ويَكونَ أَهْلاً للبرِّ .

إنَّ الّذينَ قاموا بِما أَمَرَهُمُ اللهُ تَعالى بِهِ مِنْ بِرٍّ ، والتَزَموا بِهِ على الوَجْهِ الّذي أَرادَهُ اللهُ تَعالى إنَّ هؤلاءِ قدْ وَصَفَهُمُ اللهُ بِوَصْفَيْنِ عَظيمَيْنِ :

١ـ أُولَئِكَ الّذينَ صَدَقوا في دَعْواهُمُ الإيمانَ ، فَلَمْ يُؤْمِنوا بِأَقوالِهِم فَقَط ، وإنَّما بِقُلوبِهِمْ وجَوارِحِهِمْ كذلكَ .

٢ـ وأولَئِكَ هُمُ المُتَّقونَ ، هَؤلاءِ الّذينَ الْتَزَموا بِما ذَكَرَ اللهُ ، هُمْ وحْدَهُمُ المُتَّقونَ الّذينَ عَمِلوا بالتَّنزيلِ ، وخافوا مِنَ الجَليلِ سُبْحانَهُ ، واسْتَعَدُّوا ليومِ الرّحيلِ ، أولئِكَ الّذينَ هيَّأوا باطِنَهُمْ لِلْحَقِّ سُبْحانَهُ كَما يُحِبُّونَ أنْ يكونَ ظاهِرُهُمْ أمامَ الخَلْقِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، منها :

١ـ الإنْسانُ لا يَكونُ مُؤمِناً إلاّ إذا كانَ حُبُّهُ للهِ ورَسولِهِ ﷺ أشَدَّ مِنْ حُبِّ ما سِواهُما ، واطْمَأَنَّ قَلْبُهُ بِذِكْرِ اللهِ ، وابْتَعَدَ عَنِ المَعاصي .

٢ـ الأَعْمالُ الصّالِحَةُ هِيَ ثَمرةُ الإيمانِ الصَّحيحِ وتَرْجَمَةٌ لَهُ .

٣ـ المُجْتَمَعُ الآمِنُ ، هُوَ الّذي يَكونُ التّعاونُ والتّآلُفُ والتَّوادُّ والتَّراحُمُ بَيْنَ أفْرادِهِ ، إذْ هُوَ كالجَسَدِ الواحِدِ إذا اشْتَكى مِنْهُ عُضوٌ تَداعى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى .

٤ـ المُجْتَمَعُ الفاضِلُ والآمِنُ هُوَ الّذي يَتَحَلّى أفْرادُهُ بِأَخْلاقيّاتِ الرَّسولِ ﷺ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقصودُ بالبَرِّ ؟ وما عَلاقَةُ ما جاءَ في الآيةِ هُنا بِقَضيَّةِ تَحويلِ القِبْلَةِ ؟

٢ـ مِنْ جَوامِعِ البِرِّ ما ذَكَرَتْهُ الآيةُ مِنْ أُصولِ الإيمانِ ، ما تِلْكَ الأُصولُ ؟

٣ـ ما الإيمانُ المَطْلوبُ مِنَ الإنْسانِ ؟

٤ـ إيتاءُ المالِ لِمُسْتَحقّيهِ مِنْ جوامِعِ البِرِّ ، مَنْ هُمُ المُسْتَحِقّونَ لهذا المالِ ؟

٥ـ لِمَ قَدَّمَتِ الآياتُ ذوي القُرْبى ؟

٦ـ مَنْ هُوَ المِسْكينُ وابْنُ السَّبيلِ ؟

٧ـ ما المَقْصودُ بإقامِ الصَّلاةِ ؟

٨ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أُصولَ الأَخلاقِ الّتي يَنْبَغي على الإنْسانِ أنْ يَتَحَلّى بِها . ما تِلْكَ الأُصولُ ؟

٩ـ بماذا وَصَفَتِ الآياتُ أولئكَ الّذينَ الْتَزموا بِجَوامِعِ البِرِّ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ آيَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ مِنْ كِتابِ اللهِ قَرَنَ فيهما بَيْنَ الإيمانِ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ .

٢ـ اكتبْ مِنْ سورَةِ الضُّحى الآيَةَ الدّالَّةَ على إكرامِ اليَتيمِ .

٣ـ مِنْ خِلالِ الآيَةِ الكريمةِ ﴿ ۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ .

أـ حَدِّدِ النَّصَ الّذي بَيَّنَ عَلاقَةَ الإنْسانِ مَعَ رَبِّهِ ، وعلاقَتَهُ مَعَ نَفْسِهِ ، وعلاقَتَهُ مَعَ الآخَرينَ .

ب ـ اكْتُبْ مَوْضوعاً حَوْلَ الآيةِ المَذْكورَةِ وَضَعْهُ على مَجلَّةِ الحائِطِ في مَدْرَسَتِكَ .

* * *

الدرس السادس

سورةُ البَقَرةِ - القِسْمُ الثّاني والخَمْسونَ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

معاني المُفْرداتِ :

كُتِبَ	: فُرِضَ .
القِصاصُ	: العُقوبَةُ بالمِثْلِ مِنْ قَتْلٍ أو جَرْحٍ .
عُفِيَ	: مِنَ العَفْوِ وَهُوَ إِسقاطُ العُقوبَةِ .
أُولي الأَلْبابِ	: أَصْحابِ العُقولِ .

التَّفْسيرُ :

ذَكَرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ أَنَّ البِرَّ هُوَ الّذي يَجْمَعُ أَلْوانَ الخَيْرِ الكَثيرَةَ ، وقَدْ بَدَأَتْ هَذِهِ الآياتُ تَتَحدَّثُ عَنْ بَعْضِ الأَحْكامِ العَمَلِيَّةِ الّتي لا بُدَّ مِنْها لِصلاحِ النّاسِ وصَلاحِ المُجْتَمَعِ ، ومِنْ أَهَمِّ هذهِ الأَحْكامِ ، الحِفاظُ عَلى أَمْنِ النّاسِ وحَياتِهِمْ ودِمائِهِمْ ، ولِذا فَقَدْ بَدَأَتْ آياتُ هَذِهِ السّورَةِ ببيانِ حُكْمِ القِصاصِ . قالَ تَعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ .

افتُتِحَتْ هذِهِ الآياتُ بهذا النّداءِ المُحَبَّبِ إلى نُفوسِ المُؤْمِنينَ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وبيَّنَتْ لَهُم أنَّ اللهَ تَعالى قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمُ القِصاصَ ، الّذي هُوَ العُقوبَةُ بالمِثْلِ مِنْ قَتْلٍ أَوْ جَرْحٍ ؛ ذَلِكَ أنَّ الاعْتِداءَ قَدْ يَقَعُ على نَفْسِ الإنْسانِ ، وذَلِكَ بِقَتْلِهِ وإزْهاقِ روحِهِ ، وقَدْ يَقَعُ على عُضْوٍ مِنَ الإنْسانِ ، وذَلِكَ كَكَسْرِ يَدِهِ ، أَوْ فَقْءِ عَيْنِهِ ، أو قَطْعِ أُذُنِهِ ، أَوْ جَرْحِهِ ، وهَكَذا .

والحديثُ هُنا عَنِ النَّوْعِ الأَوَّلِ ، وهُو القِصاصُ في القَتْلى ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ تَعالى القِصاصَ الّذي هُوَ قَتْلُ القاتِلِ عُقوبَةً لَهُ على جَريمَتِهِ ، إذْ أَنَّهُ اعْتَدى على النَّفسِ الإنْسانِيَّةِ ، ومَعْروفٌ أَنَّ دَمَ الإنْسانِ مَعْصومٌ كَما قالَ النَّبِيُّ ﷺ .

وقَدْ راعى الإسْلامُ قَضِيَّةَ المُساواةِ في القَتْلِ ؛ إذْ لا يَجوزُ قَتْلُ غَيْرِ القاتِلِ ، كَما لا يَجوزُ الإسرافُ في القَتْلِ كَأَنْ يُقْتَلَ القاتِلُ ومَعَهُ غَيْرُهُ مِنْ أَقارِبِهِ .

وقَدْ وجَّهَ سُبْحانَهُ الخِطابَ للمُؤْمِنينَ ، مَعَ أَنَّ تَنْفيذَ الحُكْمِ إنّما يَكونُ إلى أولياءِ الأُمورِ ، وذلِكَ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أنَّ الحُكّامَ إنْ لَمْ يُنَفِّذوا شَرْعَ اللهِ ، فَعَلَيْهِمْ تَبَعَةُ ذَلِكَ ، وعلى الأُمّةِ مُطالبَتُهُمْ تَنْفيذَ شَرْعِ اللهِ تَعالى :

﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾ إنَّ هذا القِصاصَ لَيْسَ فيهِ جَوْرٌ ولا ظُلْمٌ ، إنّما فيهِ العَدْلُ المُطْلَقُ والمُساواةُ ، فإذا قَتَلَ حُرٌّ حُرّاً ، يُقْتَلُ بِهِ هُوَ لا أَحَدٌ غَيْرُهُ ، وإذا قَتَلَ عَبْدٌ عَبْداً يُقْتَلُ هو بِهِ أيْضاً ، لا سَيِّدُهُ ، ولا أَحَدٌ مِنْ أحْرارِ القَبيلةِ ، وكَذَلِكَ إذا قَتَلَتِ امْرأةٌ المرأةَ ، تُقْتَلُ هِيَ ، ولا يُقْتَلُ أَحَدٌ آخَرُ بَدَلاً عَنْها ، وهَذا كُلُّهُ خِلافاً لِما كانَتْ عَلَيْهِ الجاهِلِيَّةُ .

فَالقِصاصُ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ على القاتِلِ نَفْسِهِ أيّاً كان ، ولَيْسَ على أحدٍ مِنَ القَبيلَةِ ، وبِهذا الحُكْمِ أَلْغَتِ الشَّريعَةُ عادةَ الثَّأْرِ الّتي كانَتْ شائِعَةً في الجاهِلِيّةِ .

وقَدْ ذَكَرَ المُفَسِّرونَ أنّهُ كانَ في الجاهِلِيّةِ بَيْنَ حَيَّيْنِ مِنَ العَرَبِ دماءٌ ، وكانَ لأَحَدِهِما طَوْلُ أيْ : فَضلٌ وشَرَفٌ على الآخَرِ ، فَأَقْسَموا لَنَقْتُلَنَّ الحُرَّ مِنْكُمْ بالعَبْدِ والذَّكَرَ بالأُنْثى ، ولمّا جاءَ الإسْلامُ تَحاكَموا إلى الرّسولِ ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَبارأوا أيْ : يَتساووْا في القِصاصِ .

ثُمَّ ذَكَرَتِ الآياتُ حُكْماً يَفْتَحُ بَيْنَ القاتِلِ وأوْلِياءِ المَقتولِ باباً مِنَ التَّراضي ، فَقَدْ أباحَ الإسْلامُ لَهُمْ أَنْ يَعْفوا ، ويُسْقِطوا عَنْهُ العُقوبَةَ ، ويَأْخُذوا مُقابِلَ ذلكَ الدِّيَةَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ﴾ فَالقاتِلُ عَمْداً إذا أَسْقَطَ عَنْهُ وَلِيُّ القَتيلِ

القِصاصَ ، عَنْ رِضىً وقَبِلَ الدِّيَةَ بَدَلَ القِصاصِ ، فَمِنَ الواجِبِ على وليِّ الدَّمِ أنْ يَتَّبِعَ العَدْلَ في أخْذِ الدِّيَةِ مِنَ القاتِلِ ، فلا يُطالِبُهُ بأكْثَرَ مِنْ حَقِّهِ ، والواجِبُ كذلِكَ على أولياءِ القاتِلِ أنْ يَدْفَعَ الدِّيَةَ بالحُسْنى ، فلا يُماطِلُ في الدَّفْعِ ، ولا يَبْخَسُ وليَّ المَقْتولِ كَذَلِكَ حَقَّهُ ، فَقوْلُهُ تَعالى : ﴿ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وَصيَّةٌ لِوَلي الدّمِ أنْ يَكونَ عادِلاً رَفيقاً في مُطالبَةِ القاتِلِ بِدَفْعِ الدِّيَةِ ، وقَوْلُهُ تَعالى : ﴿ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ وصِيَّةٌ مِنْهُ للقاتِلِ بأَنْ يَدْفَعَ الدِّيَةَ لِوليِّ الدَّمِ دونَ تَسْويفٍ أو مُماطَلَةٍ .

وقَدْ سمّى القُرآنُ الكَريمُ القاتِلَ أخاً لِوَليِّ المقتولِ ، لِيُذَكِّرَهُمْ بالأُخوَّةِ الإنْسانِيّةِ والأُخوّةِ النّابعَةِ مِنَ العَقيدةِ الإسْلاميّةِ ، فَيُثيرُ لَدى كلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ هذا الإحْساسَ ، فَيَقَعُ بَيْنَهُمُ العَفْوُ والاتِّباعُ بالمَعروفِ والأداءُ بالإحْسانِ .

وَجاءَتْ كَلِمَةُ ﴿شَيْءٌ﴾ التي تَعْني القِصاصَ نَكِرَةً ، وذَلِكَ لِتُفيدَ التَّقليلَ ، أي : فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخيهِ شَيءٌ مِنَ العَفْوِ والتَّجاوُزِ ولَوْ أقَلَّ القَليلِ ، تمَّ العَفْوُ وسَقَطَ القِصاصُ ووَجَبَتِ الدِّيَةُ .

وَقَدْ بيَّنَتِ الآياتُ الحِكْمَةَ مِنْ هذا التَّشريعِ، فقالَ سُبحانَهُ : ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي : ذَلِكَ الحُكْمُ الّذي شَرَعْناهُ لَكُمْ مِنَ العَفوِ عَنِ القاتِلِ ، والاكْتِفاءِ بِقَدَرٍ مِنَ المالِ ، تَخْفيفٌ ورُخْصَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ورَحْمَةٌ لَكُمْ مِمّا كَتَبَهُ اللهُ على الأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وأيُّ رَحْمَةٍ أفْضَلُ مِنَ العَطْفِ والعَفْوِ والامتِناعِ عَنْ سَفْكِ الدِّماءِ .

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : مَنِ اعْتَدى وانْتَقَمَ مِنَ القاتِلِ بَعْدَ العَفْوِ والرِّضى بالدِّيَةِ ، فَلَهُ عذابٌ أليمٌ مِنْ ربِّهِ يَوْمَ القيامَةِ .

وبعدَ أنْ ذَكَرَتِ الآياتُ الحِكْمَةَ مِنَ العَفْوِ ، والتَّحْذيرَ مِنَ الغَدْرِ ، وتَوّعَدَ اللهُ الغادِرَ بِعَذابٍ أليمٍ ، أرْشَدَتْ إلى بيانِ الحِكْمَةِ في القِصاصِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ .

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ إنَّ لَكُمْ في القِصاص حَياةً عَظيمَةً هَنيئَةً ، وهَذا مَفْهومٌ مِنْ تَنْكيرِ كَلِمَةِ ﴿حَيَاةٌ﴾ إذ فيهِ صِيانَةُ النّاسِ مِنَ اعْتِداءِ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ ، فَمَنْ عَلِمَ أنَّهُ إذا قَتَلَ نَفْساً يُقْتَلُ بِها ، يَرْتَدِعُ عَنِ القَتْلِ فيَحْفَظُ حياةَ مَنْ أرادَ قَتْلَهُ وحياةَ نَفْسِهِ .

وقَدْ نُقِلَ عَنِ العرَبِ كَلِماتٌ تُفيدُ مَعْنى الآيةِ ، فَقالوا : (القَتْلُ أَنْفى لِلقَتْلِ) ، ومَعَ أنَّ هذِهِ مِنْ أفْصَحِ كلامِ العَرَبِ ، إلا أَنَّ الآيَةَ أبْلَغُ وأفْصَحُ مِنْها ، وفيها الكَثيرُ مِنَ الفَوائِدِ ، فإنَّ الآيَةَ جَعَلَتْ سَبَبَ الحياةِ القِصاصَ ، الّذي هُوَ القَتْلُ على وَجْهِ التَّساوي ، أمّا ما قالَهُ فُصَحاءُ العَرَبِ : (القَتْلُ أَنْفى لِلقَتْلِ) فَقَدْ جَعَلَتْ سَبَبَ الحياةِ القَتْلَ وَمِنَ القَتْلِ ما يَكونُ ظُلْماً ، فلا يَكونُ نافياً لِلقَتْلِ ، بَلْ يَكونُ سَبَباً في زِيادَتِهِ .

وقَدْ خَصَّ سُبْحانَهُ بِهذا الخطابِ ﴿ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وهُمْ أَرْبابُ العُقولِ ، للدَّلالَةِ على أَنَّ الّذي

يَفْهَمُ قيمةَ الحياةِ ، ويَتَدَبَّرُ عواقِبَ الأُمورِ ، ويَفْقَهُ سِرَّ هذا الحُكْمِ وما يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ المَصْلَحَةِ والحِكْمَةِ هُوَ صاحِبُ العَقْلِ الرّاجِحِ .

وإنَّ مَنْ يُنْكِرُ القِصاصَ والحِكْمَةَ مِنْهُ ، وأَثَرَهُ في تَثْبيتِ دعائِمِ الأمْنِ يَعيشُ بَيْنَ النّاسِ بعَقْلٍ غَيْرِ سليمٍ ، فَنَحْنُ نَرى ونُشاهِدُ أَنَّ القَتْلَ في ازْديادٍ ، وعُقوبَةُ القاتِلِ بالسِّجْنِ لمُدةٍ مِنَ الزَّمَنِ ، عُقوبَةٌ غَيْرُ رادِعَةٍ ؛ ولِذا فإنَّ الناسَ لا يأْمَنونَ على حَياتِهِمُ الّتي هِيَ ضَرورَةٌ مِنْ ضَروريّاتِ الدّينِ ، فالقِصاصُ فيهِ حَياةٌ وأَمْنٌ واسْتِقْرارٌ للنّاسِ .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بقولِهِ تَعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أيْ : شَرَعْنا لَكُمْ هذهِ الأَحْكامَ لعلَّكُمْ تَتَّقونَ اللهَ وتَكُفّونَ عَنْ سَفكِ الدّماءِ ، إذِ العاقِلُ يَحْرِصُ على الحياةِ السَّعيدَةِ الكَريمَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُساواةُ في القِصاصِ مِنَ القاتِلِ ، فالقاتِلُ يُقتَلُ ، لا أَحَدَ غَيْرُهُ .

٢ـ دَعْوَةُ القُرْآنِ الكَريمِ لأَوْلياءِ المَقتولِ في العَفْوِ ، لأَنَّهُ أَقْرَبُ إلى صَفاءِ القُلوبِ ، وجَمْعِ النُّفوسِ على الإخاءِ والتَّعاطُفِ والتَّسامُحِ .

٣ـ تَحْريمُ ما يُسَمّى بالثَّأْرِ الّذي يَكونُ ضَحاياهُ كَثيرينَ سواءٌ مِنْ أَهْلِ القاتِلِ أمْ أَهْلِ المَقتولِ .

٤ـ القِصاصُ الّذي شَرَعَهُ اللهُ تَعالى فيهِ الحِفاظُ على حَياةِ النّاسِ وأَمْنِهِمْ واسْتِقْرارِهِمْ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ معانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

كُتِبَ القِصاصُ ، عُفِيَ ، اعْتَدى .

٢ـ الاعْتِداءُ على الإنْسانِ لَهُ صورتانِ ، ما هُما ؟

٣ـ ما الأَمْرُ الّذي وَجَهَّتْ إِلَيْهِ الآياتُ الخِطابَ في قَضيَّةِ القِصاصِ ؟

٤ـ إلى مَنْ وَجَّهَ اللهُ الخِطابَ في آياتِ القِصاصِ ؟ ما المَقْصودُ بقولِهِ تَعالى : ﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ﴾ ؟ وعَلامَ تَدُلُّ الآيَةُ ؟

٥ـ ذَكَرَتِ الآياتُ حُكْماً يَفْتَحُ بَيْنَ القاتِلِ وأَولياءِ المَقْتولِ باباً مِنَ التَّراضي ، ما هذا الحُكْمُ ؟

٦ـ لِمَ سَمّى القُرْآنُ القاتِلَ أخاً لِوَلِيِّ المَقْتولِ ؟

٧ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ تَشْريعِ العَفْوِ عَنِ القاتِلِ ؟ وما الحِكْمَةُ مِنْ تَشْريعِ القِصاصِ ؟

٨ـ اعْقِدْ مُقارنَةً بَيْنَ قولِهِ تَعالى : ﴿وَلَكُمْ في ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ وقَوْلِ العَرَبِ : القَتْلُ أَنْفى لِلقَتْلِ .

٩ـ مَنْ أُولو الأَلْبابِ ؟ ولِماذا ذُكِروا في هذهِ الآياتِ ؟

نَشاطٌ

١ـ بَيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ دَمَ الإنْسانِ مَعْصومٌ إلاّ بإحْدى ثَلاثٍ ، ما تِلكَ الثَّلاثُ ، اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أنْواعَ القَتْلِ ، ومِقدارَ الدِّيَةِ لِكُلِّ نَوْعٍ .

٣ـ ارْجِعْ إلى تَفسيرِ « روحِ المَعاني » للآلوسي ، واكْتُبِ في دَفْتَرِكَ ما جاءَ فيهِ مِنْ أَفْضَلِيَّةِ الآيةِ القُرْآنيَّةِ على قولِ العَرَبِ .

* * *

الدرس السابع

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ والخَمْسونَ

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

معاني المفردات :

خَيْراً : مالاً كثيراً .

الوَصِيَّةُ : كُلُّ شَيْءٍ يُؤْمَرُ بِفِعْلِهِ وتَنْفيذِهِ بَعْدَ المَوْتِ .

جَنَفاً : خَطَأً .

إثْماً : تَعَمُّدَ الظُّلْمِ .

التفسير :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنِ القِصاصِ ، وهُنا تَتحدَّثُ عَنْ حُكْمٍ آخَرَ مِنَ الأَحْكامِ وهُوَ ما يَتعلَّقُ بالوَصيَّةِ . قالَ تَعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى : فُرِضَ عَلَيْكُمْ أَيُّها المؤْمِنونَ إذا حَضَرَتْ أَحَدَكُمْ أَسْبابُ المَوْتِ وعَلاماتُهُ ، وكانَ قدْ تَرَكَ وراءَهُ مالاً كثيراً لِوَرَثَتِهِ سواءً أكانوا أَبْناءً أَمْ زَوْجَةً أمْ غَيْرَهُمْ ، فُرِضَ عَلَيْكُمْ في هَذِهِ الحالَةِ أَنْ توصوا بشيءٍ مِنْ هذا المالِ والخَيْرِ لِلْوالِدَيْنِ والأَقْرَبينَ ، وذلِكَ رِعايةً لِحَقِّهِمْ

وحاجَتِهِمْ ، بحيْثُ تَكونُ هذِهِ الوصيّةُ بالوَجْهِ المَعروفِ الّذي لا يُسْتَنْكَرُ لِقِلَّتِهِ ، فلا يَكونُ قليلاً لا يَفي بالحاجَةِ ، ولا يُسْتَنْكَرُ كَذَلِكَ لِكثْرَتِهِ ، إذْ إنَّهُ سَيَضُرُّ عِنْدَ ذَلِكَ بالوَرَثَةِ ، ويَنْبَغي أَنْ تَكونَ الوَصِيَّةُ بالعَدْلِ ، وهَذِهِ الوَصِيَّةُ على هذا الوَجْهِ تُعَدُّ حقّاً على المُتَّقينَ ، الّذينَ اتَّقوا اللهَ تَعالى ، وخَشوا مِنْهُ .

وقَدْ جاءَ الحَديثُ عَنِ الوَصِيَّةِ بِهذا الأُسلوبِ ، لِتَوجيهِ النَّاسِ إلى وُجوبِ تَغْييرِ ما كانَ مُنْتَشِراً بَيْنَهُمْ مِنْ عاداتِ الجاهلِيَّةِ ، فَقَدْ كانوا يَمْنَعونَ أَقْرِباءَهُمْ مِنَ المالِ تَوهُّماً مِنْهُمْ أَنَّ هذا القَريبَ كانَ يَتمنَّى المَوْتَ لِصاحِبِ المالِ ، لِيَصيرَ ذَلِكَ المالُ إليْهِ .

وَرُبَّما فَضَّلوا بَعْضَ أقارِبِهِمْ على بَعْضٍ ، فَيُؤَدّي هَذا إلى التَّباغُضِ والتَّحاسُدِ بَيْنَ الأَقْرباءِ ، وقَدْ جاءَتْ ﴿كُتِبَ﴾ بصيغَةِ الماضي المَبْنِيِّ لِلْمَجْهولِ ، وحُذِفَ الفاعِلُ للعِلْمِ بِهِ ، وهُوَ اللهُ تَعالى ، أيْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْكُمْ إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ المَوْتُ ، وقَدْ خَصَّ اللهُ تَعالى هذا الحَقَّ بالمُتَّقينَ تَرْغيباً لَهُمْ في الرِّضا بِحُكْمِ اللهِ تَعالى ، فما كانَ مِنْ شَأْنِ المُتَّقينَ حَرِيٌّ بالنّاسِ أَنْ يَفْعَلوهُ ويَتأسَّوا بِهِ ، لأَنَّهُمْ إنْ أَهْمَلوهُ وتَرَكوا العَمَلَ بهِ ، حُرِموا مِنْ أَنْ يَكونوا مِنَ المُتَّقينَ .

هَلْ تَصِحُّ الوَصِيَّةُ للوارِثِ ؟

ذَهَبَ جُمْهورُ العُلَماءِ إلى أنَّ الوَصِيَّةَ للوارِثِ لا تَصِحُّ ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : « إنَّ اللهَ أَعْطى كُلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، ألا لا وَصِيَّةَ لِوارِثٍ »[1] . ولِذا فَقَدْ ذَكَروا أنَّ هذِهِ الآيَةَ مَنْسوخَةٌ بآيَةِ المواريثِ في سورةِ النّساءِ ، وقَدْ ذَكَرَ الإمامُ البُخاريُّ في صَحيحِهِ عَنِ ابنِ عباسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ قالَ : كانَ المالُ للولدِ وكانَتِ الوَصِيَّةُ للوالدَيْنِ ، فَنَسَخَ اللهُ مِنْ ذلِكَ ما أحَبَّ ، فَجَعَلَ للذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ، وجَعَلَ للأَبوينِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما السُّدُسَ ، وجَعَلَ للمَرْأَةِ الثُّمُنَ والرُّبُعَ ، وللزَّوْجِ الشَّطرَ والرُّبُعَ[2] .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَوعَّدَ مَنْ يُبَدِّلُ الوَصِيَّةَ ، بِأُسْلوبٍ وطَريقةٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِما اللهُ تَعالى ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ ﴾ .

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ ﴾ أيْ : مَنْ غَيَّرَ هذا الّذي أَوْصى بهِ المُتوفّى ، وذَلِكَ بالزِّيادَةِ في الموصى بهِ ، أوِ النَّقْصِ مِنْهُ ، أو كَتَمَهُ مِنْ بَعْدِ أنْ عَلِمَ وتَحَقَّقَ مِنْ هَذِهِ الوَصِيَّةِ ، وقَدْ عَبَّرَتِ الآياتُ عَنِ العِلْمِ بالسَّماعِ ، لأَنَّ السَّماعَ طريقٌ لِلْعِلْمِ ، فَمَنْ بَدَّلَ أَوْ غَيَّرَ في الوَصِيَّةِ ، فإنَّما إثْمُ ذلِكَ التَّغْييرِ عَلَيْهِ ، لأَنَّهُ بتَغْييرِ الوَصِيَّةِ وتَبْديلِها ، يَكونُ قدْ خانَ الأَمانَةَ وخالَفَ شَريعَةَ اللهِ

---

(١) أخرجه الترمذي/ كتاب الوصايا ، باب: ما جاء لا وصية لوارث ، حديث رقم ٢١٢٠، والنسائي حديث رقم (٣٥٨١)/ كتاب الوصايا، باب : إبطال الوصية للوارث ، وأبو داود ، حديث رقم (٢٤٨٦)/ كتاب الوصايا، باب: ما جاء في الوصية للوارث .

(٢) أخرجه البخاري ، باب : لا وصية لوارث برقم ٢٥٩٦ .

تَعالى ، أمّا الموصي فَلَنْ يَلْحَقَهُ شيْءٌ مِنَ الإِثْمِ عِنْدَ ذَلِكَ ، لأَنَّهُ قَدْ أدّى ما عليهِ ، فَقَدْ أَوصى كَما أرادَ اللهُ تَعالى .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لِتُشْعِرَ بالوَعيدِ الشَّديدِ لِكُلِّ مَنْ غَيّرَ وبَدَّلَ بهذا الحَقِّ الّذي أوْجَبَهُ اللهُ تَعالى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَهُوَ سَميعٌ لِوَصِيّةِ الموصي ، عَليمٌ بِما يَقَعُ فيها مِنْ تَبْديلٍ وتَحْريفٍ .

مَتى يَجوزُ تَعديلُ الوَصِيّةِ ؟

قالَ تَعالى :

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾ .

اسْتَثْنَتِ الآياتِ مِنْ إِثْمِ التَّبْديلِ حالةً يَجوزُ فيها التَّغْييرُ والتَّبديلُ[١] ، وهِيَ إذا ما رأى الوَصيُّ أَنَّ الموصي قَدْ حادَ في وَصِيَّتِهِ عَنْ حُدودِ العَدْلِ ، فَلَهُ حينئذٍ أَنْ يُصْلِحَ في الوَصِيّةِ بحيثُ يَجْعَلُها مُتَّفِقَةً مَعَ ما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى ، فلو رأى في الوَصِيّةِ مَيْلاً عنِ الحَقِّ خَطأً أو عَمْداً ، وأَصْلَحَ بَيْنَ الموصى لَهُمْ بِرَدِّهِمْ إلى شَرْعِ اللهِ تَعالى فلا إِثْمَ عَلَيْهِ في هذا التَّغْييرِ ، فالضّميرُ في (بَيْنَهُم) عائِدٌ عَلى الموصى لهُمْ ، أي : أَصْلَحَ الوَصِيُّ بَيْنَ الموصى لَهُمْ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أيْ : إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ لِمَنْ يَتوبُ ، ويَرْجِعُ إلى اللهِ تَعالى ، ويَغْفِرُ لِمَنْ يُصْلِحُ بَيْنَ النّاسِ ، ويُصْلِحُ في تِلْكَ الوَصِيّةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الأَقْرَبونَ أوْلى بالمَعروفِ ، فَعلى الإنْسانِ أَنْ يَصِلَهُمْ ، ويَقْضيَ حاجاتِهِمْ .

٢ـ الوَصِيَّةُ للوالِدَيْنِ مَنْسوخَةٌ بآيةِ المواريثِ .

٣ـ لا بُدَّ مِنْ تَنْفيذِ الوَصِيّةِ وعَدَمِ التَّبْديلِ والتَّغْييرِ فيها ، إلاّ إنْ كان فيها ظُلْمٌ وإجْحافٌ بِحَقِّ أحَدٍ .

---

(١) الإصلاحُ يكونُ بتَوْجيهِ الموصي للّتي هي أقْوَمُ ، وذلكَ بالعَدْلِ في الوَصِيّةِ ، و التَّغْييرُ والتَّبديلُ لَيْسَ إصْلاحاً .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بِحُضورِ المَوْتِ ؟

٢ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أنَّ الوَصِيَّةَ للوالِدَيْنِ والأَقْرَبينَ يَنْبغي أنْ تَكونَ بالمَعروفِ ، ما حُدودُ هذا المَعْروفِ ؟

٣ـ لِماذا جاءَ الحديثُ عَنِ الوَصِيَّةِ بهذا الأُسلوبِ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ.......﴾ ؟ ولِمَ جاءَ الفِعْلُ الماضي مَبْنِيّاً لِلمَجهولِ ؟

٤ـ خَصَّتِ الآياتُ هَذا الحَقَّ الّذي ذَكَرَتْهُ على المُتَّقينَ ، ما الحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ ؟

٥ـ هلْ تَصِحُّ الوَصِيَّةُ للوارِثِ ؟ بَيِّنْ ذَلِكَ .

٦ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تعالى : ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ .

٧ـ لِمَ خُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ؟

٨ـ هَلْ يَجوزُ تَبْديلُ الوَصِيَّةِ وتَغْييرُها ؟ ومَتى ؟

نشاطٌ :

ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ آياتِ المواريثِ مِنْ سورةِ النِّساءِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّامِنُ

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ الرابعُ والخَمْسونَ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

معاني المفردات

الصِّيامُ : لُغَةً الإمْساكُ ، وشَرْعاً : الإمْساكُ عَن شَهَواتِ البَطْنِ والفَرْجِ وما يَقومُ مَقامَهُما مِنْ طُلوعِ الفَجْرِ الصّادِقِ إلى غُروبِ الشَّمْسِ .

يُطيقونَهُ : مِنَ الطّاقةِ ، وهِيَ القُدْرَةُ على الشَّيْءِ .

الفُرْقانِ : الّذي يُفَرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ ، وهُوَ القُرْآنُ الكَريمُ .



لَقَدْ بيَّنَتْ سورَةُ البَقَرَةِ وَجوهَ البرِّ كما ذُكِرَ في السّابِقِ ، وبَدَأَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِذِكْرِ الأَحْكام التَشريعيَّةِ الّتي كَلَّفَ اللهُ بِها المُسْلِمينَ ، وذَكَرَ مِنْ تِلْكَ التَّكاليفِ القِصاصَ والوَصِيَّةَ ، وهاهِيَ الآياتُ تُحَدِّثُنا عَنِ الصِّيامِ . قالَ تَعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ .

بَدَأَتِ الآياتُ بِهذا النِّداءِ الرَّبانيِّ : ﴿يا أيُّهَا ٱلَّذِينَ أَمَنُوا﴾ الّذي يَنْطَوي عَلى غَرَضٍ تَرْبَوِيٍّ ، وهُوَ تَنْبيهُ المؤْمِنينَ إلى أنَّ ما بَعْدَ النِّداءِ أَمْرٌ ، جَديرٌ بالعِنايةِ والاهْتِمامِ ، وقَدْ مَرَّتْ مَعَنا آياتٌ كثيرةٌ ابْتَدَأَتْ بِهذا النِّداءِ .

وهَكذا كُلُّ نِداءٍ للمُؤْمِنينَ فيهِ توْجيهٌ إلى أنَّ ما يُلْقى عَلَيْهِمْ بَعْدَ النِّداءِ مِمّا كَلَّفَهُمْ اللهُ بهِ جَديرٌ بالعِنايَةِ والتَّنْفيذِ .

وقَدْ وَصَفَهُمُ اللهُ بالإيمانِ ، تَنْشيطاً لَهُمْ وتَرْغيباً لَهُمْ ، لِيُنَفِّذوا ما أَمَرَهُمُ اللهُ بهِ أو نَهاهُمْ عَنْهُ ، بِنُفوسٍ تَمْلؤُها الطُّمأْنينَةُ ، وقلوبٍ يَمْلؤُها الإيمانُ ، كيفَ لا ؟ وهاهُمْ يَسْمَعونَ رَبَّهُمْ يُثْني عَلَيْهِمْ بأَنَّهُمُ المُؤْمِنونَ ، فكَأَنَّ هَذا الوَصْفَ يَهيبُ ويَرْتَفِعُ بِهِمْ حتَّى تَصيرَ هَذِهِ التَّكاليفُ الإلهيَّةُ مَأْلوفَةً لَدَيْهِمْ ، يُؤَدّونَها كَما أَمرَ اللهُ تَعالى .

وبَعْدَ هذا النِّداءِ ، يُوَجِّهُ اللهُ تَعالى إلَيْهِمْ هَذا الأَمْرَ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي : فُرِضَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ ، ولَسْتُمْ أَنْتُمْ أَوَّلَ أُمَّةٍ يُفْرَضُ عَلَيْهِمْ ، ولَكِنَّهُ عِبادَةٌ كُلِّفَتْ بِها الأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ ، فَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَوْلَهُ : « خيرُ الصِّيامِ صِيامُ داودَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، كانَ يَصومُ يَوْماً ويُفْطِرُ يَوْماً ، ولا يَفِرُّ إذا لاقى »[1]

وَلَكِنَّ الصَّوْمَ الّذي كُتِبَ على الأُمَمِ الأُخرى هُوَ نَفْسُهُ الصَّوْمُ الّذي كُتِبَ عَلَيْنا ، باسْتِثْناءِ أَكْلَةِ السّحورِ ، وحُرْمَةِ تَناوُلِ الطَّعامِ بَعْدَ النَّوْمِ في لَيْلِ رَمَضانَ .

ثُمَّ يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وتِلْكُمْ هِيَ غايَةُ الصَّوْمِ ، إنَّها التَّقْوى ، فالتَّقْوى هِي ثَمَرَةُ العِبادَةِ ، وهِيَ ثَمَرَةُ الصَّوْمِ ، يَتَّصِفُ بِها المُسْلِمُ إذا كانَ باطِنُهُ عامِراً بِمُراقَبَةِ اللهِ تَعالى ، وفي ذِكْرِ هذهِ الجُمْلَةِ : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تنبيهٌ على شَأْنِ الصَّوْمِ وفَضْلِهِ ومَنْزِلَتِهِ ، فَمَنْ أَكْرَمَهُ اللهُ بالتَّقوى لا بُدَّ وَأَنْ يَكونَ مُنْتَهِياً عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ، زَكِيَّ النَّفْسِ ، باحِثاً عَنْ كُلِّ ما يَنْفَعُهُ مِنْ أُمورِ الدُّنيا والآخِرَةِ ، فما أَعْظَمَ فَريضَةَ الصَّوْمِ . ولَعَلَّ هذا هُوَ السَّبَبُ في أنَّ الصَّوْمَ كانَ للهِ دونَ غَيْرِهِ مِنَ العِباداتِ ، واللهُ تَعالى أَعْلَمُ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصوم ، باب : صوم داود عليه السلام ، رقم الباب ٥٨ .

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ .

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ المَقْصودُ باليَوْم هُنا النَّهارُ دونَ اللّيْلِ ، وقَدْ يُطْلَقُ الْيَوْمُ على النَّهارِ وحْدَهُ دونَ اللَّيلِ ، كَما في قولهِ تَعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٧] .

أَمّا وَصْفُ الأَيّام بأَنَّها مَعْدوداتٌ ، فَفيهِ إشارةٌ إلى قِلَّتِها مِنْ جِهَةٍ ، وكَوْنِها مُنْضَبِطَةً مِنْ جِهَةٍ أُخْرى . وقَدْ قالوا : إنَّ كُلَّ ما ذَكَرَهُ اللهُ بهذا الوَصْفِ ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ فإنَّهُ لا يَزيدُ عَنْ أرْبَعينَ .

وأَكْثَرُ المُفَسِّرينَ على أنَّ الأَيامَ المَعدودَةَ هِيَ أَيّامُ شَهْرِ رَمَضانَ ، ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ هذه رُخْصَةٌ مِنَ اللهِ تَعالى لأَصْحابِ الأَعْذارِ الّذينَ يَشُقُّ عَلَيْهِمُ الصَّوْمُ ، فالمَريضُ والمُسافِرُ إنْ أَفْطَرا فلا حَرَجَ عَلَيْهِما ، وعَلَيْهِما قضاءُ ما أَفْطَراهُ مِنْ أيّامٍ بَعْدَ شَهْرِ رَمضانَ .

ثُمّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ولا يُقْصَدُ بالآيَةِ هُنا الشَّيْخُ الهَرِمُ والعَجوزُ ، أو أحدٌ مِنْ أصْحابِ الأَعْذارِ الّذينَ لا يَستَطيعونَ الصَّومَ ، ومَعْنى الآيةِ : الّذينَ يستَطيعونَ الصَوْمَ ، ولَكنْ بِمَشَقَّةٍ إذا لَمْ يُريدوا أَنْ يَصوموا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُخْرِجوا الفِدْيَةَ .

﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ أيْ : إذا زادوا على هَذهِ الفِدْيَةِ فَذَلِكَ خَيْرٌ لَهُمْ ، ومَعَ أَنَّهُمْ مُخَيَّرونَ بَيْنَ الصَّوم والفِدْيَةِ ، فإنَّ الصَّوْمَ خَيْرٌ لَهُمْ ، أي : الأَفْضَلُ لَهُمْ أَنْ يَصوموا ، فإنَّ صَوْمَهُمْ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ أنْ يُفْطِروا ويُخْرِجوا الفِدْيةَ .

وقَدْ كانَ هَذا الحُكْمُ أوَّلاً ، التخييرُ بَيْنَ الصَّوْم والإفْطارِ مَعَ دَفْعِ الفِدْيَةِ ، رُويَ عَنْ سَلَمَةَ بنِ الأَكْوَعِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَوْلَهُ : « لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيَةُ : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ كانَ مَنْ أَرادَ أَنْ يُفْطِرَ يُفْدي حتَّى نَزَلَتِ الآيَةُ الّتي بَعْدَها فَنَسَخَتْها » وفي رِوايةٍ « كُنَّا في رَمَضانَ على عَهْدِ رَسولِ اللهِ ﷺ مَنْ شاءَ صامَ ومَنْ شاءَ أَفْطَرَ فافتدَى بِطعامِ مِسْكينٍ حتى نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ »[١]

وَأَخْرَجَ البُخاريُّ عَنْ ابنِ أبي لَيْلى قالَ : حَدَّثَنا أَصْحابُ مُحَمَّدٍ : نَزَلَ رَمَضانُ ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ ، فَكانَ مَنْ أَطْعَمَ كُلَّ يَوْمٍ مِسْكيناً تَرَكَ الصَّوْمَ مِمَّنْ يُطيقُهُ ، وَرَخَّصَ لَهُمْ في ذَلِكَ فَنَسَخَتْها : ﴿ وَأَن

---

(١) أخرجه مسلم/ كتاب الصوم ، باب : نسخ قوله (وعلى الذين يطيقونه . . .) (٢٥/ ١١٤٥) .

﴿تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فأُمِروا بالصَّوْمِ[1] .

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ .

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنَّ الصَّوْمَ الّذي فَرَضَهُ على المُؤْمِنينَ أيّاماً مَعدوداتٍ ، بَيَّنَ في هَذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ أنَّ هَذِهِ الأيّامَ المَعْدوداتِ شَهْرُ رَمَضانَ ، وَهَذا تَدَرُّجٌ فيهِ تَرْبِيَةٌ لِلنَّفْسِ وَتَشْويقٌ ، حَيْثُ قالَ أوْلاً : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ فصارَتِ النُّفوسُ تَوّاقَةً لِتَعْرِفَ هَذا الصِّيامَ الَّذي كُتِبَ ، فقالَ :

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وهذِهِ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، أَنْ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الصَّوْمَ في الشَّهْرِ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ فيهِ كِتابَهُ ، فَقَدْ حازَ رمَضانُ هَذِهِ الفَضائِلَ ، أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ القُرْآنَ وكانَ هَذا الإنْزالُ حينما كانَ النّبيُّ ﷺ في غارِ حراءٍ ، ثُمَّ فَرَضَ فيهِ الصَّوْمَ في السَّنَةِ الثّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ ، فَبَيْنَ نُزولِ أوَّلِ آياتٍ مِنَ القُرْآنِ وهِيَ : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وفَرْضِ الصَّوْمِ خَمْسَةَ عَشَرَ عاماً . وقَوْلُهُ : ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ مَعناهُ : ابْتَدأَ نُزولُ القرآنِ على قَلْبِكَ أيُّها النَّبيُّ في هَذا الشَّهْرِ ، وقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعالى هذا القُرْآنَ بِوَصْفَيْنِ :

فَهُوَ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ على اخْتِلافِ أجْناسِهِمْ ولُغاتِهِمْ وأَعْصارِهِمْ وأَمصارِهِمْ ، وهَذا دليلٌ على عُمومِ رِسالَتِهِ عليهِ وعلى آلِهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وأنّها للنَّاسِ كافّةً ، ودَليلٌ عَلى أنَّ هَذا القَرْآنَ فيهِ المَنْهَجُ القَويمُ للإنسانيَّةِ كُلِّها ، لَنْ تَنالَ الخَيْرَ إلاّ بِهِ ، فَكُلَّما ابْتَعَدَتِ الإنْسانِيَّةُ عَنْهُ عاشَتْ شَقاءً وجَحيماً .

أمّا الوصْفُ الثّاني فَقَوْلُهُ سُبْحانَهُ : ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ والبَيِّناتُ هِيَ المُعْجزاتُ الّتي لا يَستَطيعُ أَحَدٌ إنْكارَها ، وهَذِهِ البَيِّناتُ مُتَّفِقَةٌ مَعَ هَدْيِ الأَنْبياءِ مِنْ قَبْلُ ، ثُمَّ هِيَ فارِقَةٌ بَيْنَ الإيمانِ والكُفْرِ ، والحَقِّ والباطِلِ ، والخَيْرِ والشَّرِّ لِمَنْ تَأَمَّلَها وتَدَبَّرَها ، فالقُرْآنُ هُدىً ، والقُرْآنُ بَيِّناتٌ ، ومَعْنى هَذا أَنَّ هُناكَ مَقْصَدَيْنِ عَظيمَيْنِ لِهذا الكتابِ الكَريمِ ، أوَّلُهُما : كَوْنُهُ هِدايَةً للنَّاسِ ، والثّانِيَةُ : كَونُهُ مُعْجزاً ، وسَتظَلُّ هِدايَتُهُ وإعْجازُهُ مَدى الدَّهْرِ .

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ذُكِرَتْ هذِهِ الجُمْلَةُ مِنْ قَبْلُ ، ولَكِنْ لِمَ ذُكِرَتْ مَرَّةً ثانيةً ؟ والجَوابُ : أَنَّ ذِكْرَها هُنا كانَ أمراً لا بُدَّ مِنْهُ ، فَقَدْ عَرَفْنا مِنْ قَبْلُ أَنَّ قَوْلَهُ سُبْحانَهُ : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ مَنْسوخٌ ، فَقَدْ يَتَوَهَّمُ كَثيرٌ مِنَ النّاسِ أنَّ النَّسخَ

---

(١) أخرجه البخاري/ كتاب الصوم ، باب (وعلى الذين يطيقونه فدية) رقم الباب ٣٨ ، حديث رقم ١٨٤٧ .

لَيسَ لِقَوْلِهِ سُبْحانَهُ : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ فَحَسْبُ ، وإنّما الآيةُ كُلُّها مَنسوخَةٌ ومِنْ جُمْلَتِها : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ وهِيَ الّتي ذُكِرَتْ مِنْ قَبْلُ ، فَمِنْ أَجْلِ أنْ لا يَكونَ هذا التَّوَهُّمُ ، ذَكَرَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى هذِهِ الجُمْلَةَ الكريمةَ : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ ليُبَيِّنَ أنَّ حُكْمَ المريضِ والمسافِرِ باقٍ غيرُ منسوخٍ .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ وهَذا المَبْدَأُ يَنْتَظِمُ جميعَ التَّشريعاتِ الإسلاميَّةِ وجَميعَ التَّكاليفِ ، فاللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ما جَعَلَ عَلَيْنا في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، وجَميلٌ أنْ تُذْكَرَ هَذِهِ الجُمْلَةُ عَقِبَ فَرْضِ الصّومِ ، لِتُدْرِكَ أنَّ الصَّوْمَ إنَّما فَرَضَهُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى مِنْ أَجْلِ خيْرِنا وسعادَتِنا في الدُّنيا والآخِرَةِ .

﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

إكْمالُ العِدَّةِ ، هُوَ إتْمامُ صَوْمِ هذا الشَّهْرِ لِمَنْ مَنّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِتوفيقِهِ للصَّوْم .

وتَكْبيرُ اللهِ تَعالى هُوَ ذِكْرُ اللهِ تَعالى وتَعظيمُهُ على نِعْمَةِ الهِدايةِ ، وهَلْ هُناكَ نِعْمَةٌ أعْظَمُ مِنْها ؟ فَقَدْ هَداكُمْ إلى الأَحْكامِ الّتي فيها سعادَتُكُمْ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، والشُّكْرُ هُوَ على نِعْمَةِ الصّيامِ ، ونِعْمَةِ اليُسْرِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ فَرَضَ اللهُ تَعالى الصَّوْمَ ؛ لأنَّ فيهِ صلاحاً للنَّفْسِ الإنْسانِيَّةِ ، إذْ إنَّ غايةَ الصَّومِ وحِكْمَتَهُ تَحقيقُ تَقوى اللهِ تَعالى .

٢ـ رَحْمَةُ اللهِ تَعالى بالنَّاسِ ، وذَلِكَ بالتَّيسيرِ على مَنْ لا يسْتَطيعُ الصَّوْمَ ، والتَّرْخيصِ لَهُ بالإفْطارِ ودَفْعِ الفِدْيَةِ أو القَضاءِ .

٣ـ قِراءةُ القرآنِ الكريمِ وصِيامُ رمضانَ أمْرانِ مُتَلازِمانِ ؛ ولِذا كانَ فَرْضُ الصَّوْمِ ونُزولُ القُرْآنِ في شَهْرِ رَمَضانَ .

٤ـ القُرْآنُ الكريمُ جاءَ هِدايةً للنَّاسِ ، فَلَنْ تَنالَ الإنْسانِيَّةُ الخَيْرَ إلاّ إذا تَمَسَّكَتْ بالقُرْآنِ ، وإنِ ابْتَعَدَتْ عَنْهُ عاشَتْ في شَقاءٍ وجَحيمٍ .

٥ـ الصّائِمُ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ على صِلَةٍ باللهِ تَعالى ، فَهُوَ مُمْسِكٌ عِنْ شَهْوتي الفَرْجِ والبَطْنِ ، لِسانُهُ وقَلْبُهُ يَلْهَجُ بِذِكْرِ اللهِ تَعالى وتَعْظيمِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّن السِّرَّ في مَجيءِ النِّداءِ : ﴿يَا أَيُّها ٱلَّذِينَ أَمَنُوا﴾

٢ـ هَلْ كانَ فَرْضُ الصَّوْمِ على أُمَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فقط ؟ بَيِّنْ ذَلِكَ مِنْ خِلالِ الآياتِ .

٣ـ شَرَعَ اللهُ تَعالى الصَّوْمَ لِتَحْقيقِ التَّقْوى عِنْدَ الصّائِمينَ : وضِّحْ ذَلِكَ .

٤ـ ما المَقْصودُ بالأَيّامِ المَعْدودَةِ ؟

٥ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تعالى : ﴿وَعَلَىٰ ٱلَّذِينَ يطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طعَامُ مِسْكِينٍ﴾ ، وهَلِ الآيَةُ مَنْسوخَةٌ ؟ وَلِماذا ؟

٦ـ متى فُرِضَ الصَّوْمُ ؟ وكَيْفَ كانَ التَّكْليفُ في بِدايةِ الفَريضَةِ ؟

٧ـ بِمَ وصَفَ اللهُ تَعالى القُرْآنَ الكريمَ ؟

٨ـ ما مَعنى كَوْنِ القُرْآنِ هُدىً للنّاسِ ؟

٩ـ لِمَ ذُكِرَ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ. . . . .﴾ مَرَّتَيْنِ ؟

١٠ـ ما معْنى : ولِتُكْمِلوا العِدَّةَ ، ولِتُكبِّروا اللهَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيتيْنِ بُدِأَتا بهذا النِّداءِ ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أَمَنُوا﴾ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الحَديثَ القُدُسِيَّ الّذي يُبَيِّنُ أَنَّ الصَّوْمَ للهِ تَعالى .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ تَحْديدَ يَوْمِ الصَّوْمِ بدايَةً ونِهايَةً .

٤ـ ما السَّفَرُ الّذي يُبيحُ للإنْسانِ الإفْطارَ في رَمَضانَ ؟ اكْتُبْ تَحْديدَهُ في دَفْتَرِكَ .

٥ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مِقْدارَ الفِديَةِ لِمَنْ أَفْطَرَ في رَمَضانَ .

٦ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ صيغَةَ التَّكْبيرِ ليومِ العيدِ الّتي يَقولُها المُسْلِمُ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ

سورةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الخامِسُ والخَمْسون

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

لَيْلَةَ الصِّيامِ	: اللّيْلةَ الّتي يُصْبحُ فيها المَرْءُ صائِماً .
الرَّفثُ	: كَلِمَةٌ جامِعَةٌ لِكُلِّ ما يُريدُهُ الرَّجُلُ مِنَ المَرْأةِ مِنْ جماعٍ وغَيْرِه .
لباسٌ	: اللّباسُ : المُلابَسَةُ والمُخالَطَةُ .
تَخْتانونَ	: مُراوَدَةُ الْخِيانَةِ ، وهي تَحريكُ شَهْوَةِ الإنْسانِ لِتَحريكِ الخيانَةِ .
الخَيْطُ الأَبيضُ	: أوّلُ ما يبدو مِنْ بياضِ النّهارِ .
الخَيْطُ الأَسْوَدُ	: ما يَمْتَدُّ مِنْ سوادِ اللّيلِ معَ بياضِ النَّهارِ .
عاكِفونَ	: ماكِثونَ في المَسْجِدِ طاعةً للهِ وتَقرُّباً إلَيْهِ .
حُدودُ اللهِ	: الأَحْكامُ الّتي شَرَعَها اللهُ لِعِبادِهِ .

أَمَرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ المؤْمنينَ بإِكْمالِ عِدَّةِ الصَّوْمِ ، وحَثَّتْهُمْ على تَكْبيرِ اللهِ تَعالى وتَعْظيمِهِ شُكراً للهِ تَعالى ، وبَعْدَ ذَلِك عقَّبَتْ بِذِكْرِ الدُّعاءِ ، وفي هذا إرْشادٌ إلى أَهَمِيَّةِ الدُّعاءِ لِمَنْ هَذَّبَ نَفْسَهُ بالصِّيامِ ، وزَكّى قَلْبَهُ بالقُرْآنِ ، وهُو إرشادٌ كَذلِكَ إلى قُرْبِ اللهِ تَعالى مِنَ الصّائِمِ القائِمِ المُتَدَبِّرِ لِكتابِ رَبِّهِ سُبْحانَهُ .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ أيْ : ذَكِّرْ أيُّها الرّسولُ ﷺ عبادِيَ بما يَجِبُ أَنْ يُراعوهُ في هذهِ العبادَةِ وغَيْرِها ، فَعَلَيْهِمْ بالطّاعَةِ والإخْلاصِ والتَّوَجُّهِ إلى اللهِ تَعالى وحْدَهُ بالدُّعاءِ ، وأَخْبِرْهُمْ يا مُحمَّدُ أنَّ اللهَ قَريبٌ مِنْهُمْ ، لَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ حِجابٌ ، ولا وليٌّ ولا شفيعٌ يُوصِلُ دُعاءَهُمْ وعِبادَتَهُمْ للهِ ، ولَيْسَ كَما يفْعَلُ النَّصارى الّذينَ يَذْهَبونَ إلى رِجالِ الدّينِ عِنْدَهُمْ ، فَيَعْتَرِفونَ بِذُنوبِهِمْ ، ولِيَتَوسَّلوا لَهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعالى بالمَغْفِرَةِ .

إنَّ اللهَ تَعالى قَريبٌ مِنْ عِبادِهِ ، فَقَدْ أحاطَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ ، فَهُوَ يَسْمَعُ أَقْوالَهُمْ ويَرى أعْمالَهُمْ فَلَيْسَ بحاجَةٍ إلى وساطةٍ بَيْنَهُ وبَيْنَ عِبادِهِ ، فلا بُدَّ للعَبْدِ مِنْ أنْ يتوجَّهَ مُباشَرةً إلى اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، لِيَطْلُبَ منهُ حاجتَهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى الّذي خَلَقَهُ ، ويَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ .

ومَعْنى قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ تَمْثيلٌ لِكامِلِ عِلْمِهِ تَعالى ، بِأَفْعالِ عِبادِهِ وأَقْوالِهِمْ واطِّلاعِهِ على سائِرِ أَحْوالِهِمْ ، بِحالِ مَنْ قَرُبَ مَكانُهُ مِنْهُمْ .

وَقَدْ وَرَدَ في الصَّحيحيْنِ عَنْ أَبي موسى الأَشْعَرِيّ قالَ : كُنّا مَعَ النَّبيِّ ﷺ في سَفَرٍ فَجَعَلَ النّاسُ يَجْهَرونَ بالتَّكْبيرِ ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ : « أَيُّها النّاسُ ، أرْبِعوا على أَنْفُسِكُمْ ؛ أي : ارْفِقوا بها ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعونَ أَصَمّاً ولا غائباً ، إنَّكُمْ تَدْعونَ سَميعاً بَصيراً وهُوَ مَعَكُمْ ، والّذي تَدْعونَهُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ راحِلَتِهِ[1] .

والدُّعاءُ المَطْلوبُ هُوَ الدُّعاءُ بالقَوْلِ مَعَ التّوجُّهِ بالقَلْبِ ، وذَلِكَ إثْرَ الشُّعورِ بالحاجَةِ إلَيْهِ ، وتَذَكُّرِ عَظَمَةِ اللهِ تَعالى وجَلالِهِ ، ولِذا فَقَدْ وَصَفَ النَّبيُّ ﷺ الدُّعاءَ بِأَنَّهُ العِبادَةُ[2] .

---

(١) صحيح البخاري/كتاب الدعاء ، باب : ما يكره من رفع الصوت في التكبير، حديث رقم ٢٨٣٠ ومسلم في باب : استحباب خفض الصوت بالذكر ، حديث رقم ٢٧٠٤ . .

(٢) أخرجه ابن حبان في الصحيح ، حديث رقم ٨٩٠ وهو عند الترمذي برقم ٢٩٦٩ وقال : حديث صحيح ، وعند أبي داود برقم ١٤٧٩ وفي مسند أحمد ٤/ ٢٦٧ . .

وَإِجابَةُ الدُّعاءِ تكونُ مِمَّنْ أَخْلَصَ للهِ وفَزِعَ إليهِ ، سواءٌ وَصَلَ الأَمْرُ الّذي طَلَبَهُ أمْ لمْ يَصِلْ ، فَعَنْ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ : « ما مِنْ مُسْلِمٍ يَدعو اللهَ - عَزّ وجَلَّ - بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فيها إثْمٌ ولا قطيعةُ رَحِمٍ إلاّ أعْطاهُ اللهُ بها إحدى ثَلاثِ خِصالٍ ، إمّا أنْ يُعَجِّلَ إليهِ دَعْوَتَهُ ، وإمَّا أنْ يَدَّخِرَها لهُ في الآخِرَةِ ، وإمّا أنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السّوءِ مِثْلَها»[1] .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ أيْ : لَقَدْ وَعَدْتُكُمْ يا عِبادي بأنْ أُجيبَ دُعاءَكُمْ إذا دَعَوْتُموني ، وعَلَيْكُمْ أَنْتُمْ أَنْ تَسْتَجيبوا لأَمْري ، وأنْ تَقِفوا عِنْدَ حُدودي ، وأنْ تَثْبُتوا على إيمانِكُمْ بي ، لَعَلَّكُمْ بِذلِكَ تَصِلونَ إلى ما فيهِ رُشْدُكُمْ وسعادَتُكُمْ في الحياتَيْنِ العاجِلَةِ والآجِلَةِ ، وأَمَرَهُمْ سُبْحانَهُ بالإيمانِ بَعْدَ الأَمْرِ بالاستِجابةِ ، فَهُوَ أَوَّلُ مراتِبِ الدَّعْوَةِ ، وأَوْلى الطّاعاتِ بالاسْتِجابَةِ .

لَقَدْ جَمَعَ اللهُ بَيْنَ الإيمانِ والإذْعانِ للأَمْرِ والنَّهْيِ والرُّشْدِ ، والرَّشادُ ضِدُّ الفَسادِ ، والغَيِّ ، فَمَنْ يَصومُ مَثَلاً اتِّباعاً للعادَةِ ومُوافَقَةً لِغَيْرِهِ فإنَّ صَوْمَهُ لا يُعَدُّ للتَّقْوى والرَّشادِ ، ورُبَّما زادَهُ فَساداً في أَخْلاقِهِ ، فالأَعْمالُ إذا لمْ تَكُنْ صادِرَةً بروحِ الإيمانِ لا يُرْجى مِنْ صاحِبِها أنْ يَكونَ راشِداً مُهْتَدِياً .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْحَديثِ عَنْ بَعْضِ أَحْكامِ الصّيامِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ .

لَقَدْ جاءَتْ هذِهِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ ما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى لِعِبادِهِ خِلالَ شَهْرِ الصَّوْمِ ؛ مِنْ إباحَةِ الجماعِ لَيْلاً ، وجَوازِ الأَكْلِ والشُّرْبِ حتَّى يَتَبَيَّنَ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ ، فَقَدْ أَخْرَجَ الإمامُ البُخاريُّ عَنِ البَراءِ قالَ : لمّا نَزَلَ صَوْمُ رَمضانَ كانوا لا يَقْرَبونَ النِّساءَ رَمضانَ كُلَّهُ ، وكانَ رجالٌ يَخونونَ أَنْفُسَهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالى : ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾[2] .

فالمَقْصودُ رَفْعُ ما تَوَهَّمَهُ بَعْضُ الصّحابَةِ مِنْ أَنَّ الأَكْلَ والشُّرْبَ أو الجِماعَ لا يَجوزُ ما داموا قَدْ ناموا بَعْدَ أَنْ أَفْطَروا .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣/ ١٨ رقم ١١١٤٩ .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٤٢٣٨ .

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ أيْ : رَخَّصَ لَكُمْ في مباشَرَتِهِنَّ لَيْلَةَ الصّيام ، لِما بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُنَّ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ المُخالَطَةِ والمُعاشَرَةِ ، الّتي تَجْعَلُ مِنَ العَسيرِ عَلَيْكُمْ أنْ تجْتَنِبوهُنَّ ، وتَجْعَلُ مِنَ الصَّعْبِ الصَّبْرُ عَلَيْهِنَّ . وقَدْ جاءَ هذا التّعْبيرُ لأنَّ كلا الزَّوْجَيْنِ يَسْكُنُ إلى صاحبِهِ ، ويَكونُ مِنْ شِدَّةِ القُرْبِ منهُ كالثّوْبِ الّذي يَلْبَسُهُ ، فَجَعَلَ اللِّباسَ كِنايَةً عَنِ الزَّوْجِ ، لِكَوْنِهِ سِتْراً لِنَفْسِهِ ولِزَوْجِهِ أنْ يَظْهَرَ مِنْهُما سوءٌ ، كما أنَّ اللِّباسَ سِتْرٌ يَمْنَعُ أنْ يَبْدوَ مِنْهُ السَّوْءَةُ ، وفي هذا التَّعبيرِ القُرْآنيِّ ما فيهِ مِنَ اللّطافَةِ والأَدَبِ وسُموِّ التَّصوُّرِ لِما بَيْنَ الرَّجُلِ وزَوْجِهِ مِنْ شِدَّةِ اتِّصالٍ ومَودَّةٍ ، واسْتِتارِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُما بصاحِبِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعالى : ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ إنَّ الاخْتِيانَ مُراوَدَةُ الخِيانَةِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لَمْ يَقُلْ تَخونونَ أَنْفُسَكُمْ ، لأَنَّهُ لمْ تَكُنْ مِنْهُمْ خِيانَةٌ ، بَلْ كانَ مِنْهُمُ الاخْتِيانُ ، الّذي هو تَحَرُّكُ شَهْوَةِ الإنْسانِ لِتَحرّي الخيانَةِ ، وهذا هُوَ المَشارُ إليْهِ بقولِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ ومَعْنى الآيةِ : عَلِمَ اللهُ تَعالى أنَّكُمْ كُنْتُمْ تُراوِدونَ أنْفُسَكُمْ على مُباشَرَةِ نِسائِكُمْ ليْلاً ، وعلى الأَكْلِ بَعْدَ النّوْمِ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ الفَجْرُ الصّادِقُ ، بَلْ إنَّ بَعضَكُمْ قَدْ فَعَلَ ذلِكَ ، فَكانَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أنْ أَباحَ لَكُمُ الأَكْلَ والشُّرْبَ والجِماعَ في ليالي الصِّيامِ ، وأنَّهُ قَبِلَ تَوْبَتَكُمْ ، وعفا عَنْ مُخالَفَتِكُمْ لِما كُنْتُمْ تَعْتَقِدونَ أَنَّهُ غيرُ مُباحٍ لَكُمْ .

﴿ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ الأَمْرُ للإباحَةِ ، ولَفْظُ (الآنَ) يُطْلَقُ حَقيقةً على الوَقْتِ الّذي يَكونُ الإنْسانُ فيهِ ، وقَدَ يَقَعُ على الماضي القَريبِ مِنهُ ، وعلى المُسْتَقبَلِ القَريبِ الوقوعِ ، تَنْزيلاً لَهُ مَنْزِلَةَ الحاضِرِ ، وهُو المَقْصودُ هُنا ، فَقَدْ أَباحَ اللهُ مُباشَرَةَ أزواجِهِمْ في ليالي رَمَضانَ بَعْدَ أنْ كانَ مُحرَّماً عَلَيْهِمْ ، فَضْلاً منهُ تَعالى ورَحْمَةً بِهِمْ ، أيْ : باشِروهُنَّ واطْلبوا بِتِلْكَ المُباشَرَةِ ما قَدَّرَهُ اللهُ تَعالى لَكُمْ بِمُقْتَضى الفِطْرَةِ ، مِنْ جَعْلِ المُباشَرَةِ سَبَباً للنَّسْلِ ، ولإِحْصانِ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ ، وتَعفُّفِهِما عَنِ الحَرامِ .

﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ والمَعْنى : يُباح لَكُمُ الأَكْلُ والشُّرْبُ والمُباشَرَةُ عامَّةَ اللَّيلِ ، حتَّى يَظْهَرَ بَياضُ النّهارِ مِنْ سوادِ اللَّيلِ ، ويَتَبيَّنَ بِطُلوعِ الفَجْرِ الصّادِقِ .

ثُمَّ قالَ تَعالى : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ أيْ : ثُمَّ اسْتَمِرّوا في صِيامِكُمْ إلى ابْتِداءِ اللَّيلِ بِغُروبِ الشَّمْسِ ؛ إذِ اللَّيلُ لَيْسَ بِوَقْتٍ للصِّيام ، وكَلِمَةُ (إلى) لانتهاءِ الغايةِ ، أيْ : أنَّ الصَّوْمَ يَنتَهي عِنْدَ دُخولِ اللّيلِ ، وجاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا﴾ لِتُفيدَ التَّراخي الزَّمنيَّ ، إذْ هناكَ مُدَّةٌ مِنَ الزَّمَنِ بَيْنَ الإمْساكِ عَنِ الطّعامِ وقْتَ الفَجْرِ ، وإباحَةِ الأَكْلِ .

وقولُهُ تَعالى : ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ ﴾ اسْتِثْناءٌ مِنْ عُمومِ إباحَةِ المُباشَرَةِ ، الّتي فُهِمَتْ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ ﴾ أيْ : لا تُباشِروا النِّساءَ حالَ عُكوفِكُمْ في المساجِدِ للعبادَةِ ، إذْ إنَّ المُباشَرَةَ تُبْطِلُ الاعْتِكافَ ولَوْ ليْلاً ، كَما تُبْطِلُ الصِّيامَ نَهاراً .

وَقَدْ يَسْأَلُ السّائِلُ : كَيْفَ يَكونُ هذا والمُعْتَكِفُ في المَسْجِدِ ، ومِنَ المُحالِ أنْ يَكونَ في المَسْجِدِ جِماعٌ ؟ وهَذا القَوْلُ صَحيحٌ ، فَلَيْسَ مَعنى الآيةِ الكريمَةِ النَّهْيُ عَنِ الجماعِ حينَ الاعْتِكافِ في المَسْجِدِ ، فهَذا أمْرٌ لا يَجوزُ ولا يُحِلُّهُ مُسْلِمٌ ، فَمِنَ المَعْلومِ بَداهةً أنَّ الجُنُبَ يَحْرُمُ عَلَيْهِ عُبورُ المَسْجِدِ ، فَضْلاً عنِ الُّلبْثِ فيهِ ، فما مَعنى الآيَةِ ؟ إنَّ المُعْتَكِفَ يَجوزُ لَهُ أَنْ يَخْرُجَ لِقضاءِ حاجَةٍ وأَكْلٍ وَشُرْبٍ ، وهَذا يَكونُ في بَيْتِهِ بالطَّبْعِ ، فالآيَةُ الكَريمَةُ تُحَذِّرُ هذا المُعْتَكِفَ إذا ذَهَبَ إلى بيْتِهِ ، مِنْ أنْ يُباشِرَ أَهْلَهُ بِشَهْوَةٍ ، هَذا مَعنى الآيةِ الكَريمَةِ ، فإنْ فَعَلَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ بَطُلَ اعْتِكافُهُ .

وقَدْ أَجْمَعَ العُلَماءُ على أَنَّ الاعْتِكافَ لا يَكونُ إلاّ في المَساجِدِ ، بناءً على ما وَرَدَ في الآيَةِ القُرْآنِيَّةِ .

﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ ﴾ أيْ : أنَّ هذِهِ الأَحْكامَ ، هِيَ حُدودُ اللهِ تَعالى وأحْكامُهُ ، والحَدُّ هُوَ الحاجِزُ بَيْنَ شيْئيْنِ لِيَمْنَعَ دُخولَ أحَدِهِما بالآخَرِ ، وسُمِّيَتِ الأَحْكامُ الّتي شَرَعَها اللهُ حُدوداً لأنَّها تَحْجِزُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ ، أيْ : تِلْكَ الأَحْكامُ الّتي شَرَعْناها لَكُمْ مِنْ إيجابِ الصَّوْمِ ، وتَحريمِ الأَكْلِ والشُّرْبِ والجِماعِ في النَّهارِ ، وإباحَةِ ذلِكَ في اللَّيلِ ، هِيَ حُدودُ اللهِ الّتي لا يَحِلُّ لَكُمْ مُخالَفَتُها ، ولِذا قالَ : ﴿ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ ﴾ مُبالَغَةً في التَّحذيرِ ، إذِ النَّهْيُ عَنِ القُرْبِ مِنَ الشَّيءِ نَهْيٌ عَنِ إتيانِهِ بالأَولى .

وَقَدْ بيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً ، وحِمى اللهِ مَحارِمُهُ ، فَمَنْ رَتَعَ حَوْلَ الحِمى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فيهِ .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ أيْ : مثلَ ذَلِكَ البَيانِ الجامِعِ الّذي بَيَّنَ اللهُ بِهِ حُدودَهُ الّتي أَمَرَكُمْ بالْتِزامِها ، ونَهاكُمْ عَنْ مُخالَفَتِها ، بيَّنَ لَكُمْ آياتِهِ ، وهي أدِلَّتُهُ وحُجَجُهُ حتَّى تَصْرِفوا أَنْفُسَكُمْ عَمّا يُؤَدِّي بِكُمْ إلى العُقوبَةِ ، وتَكونوا على تَقوىً مِنَ اللهِ ، وهذِهِ غايَةُ الصَّوْمِ وحِكْمَتُهُ ؛ تَقوى اللهِ تَعالى ، فَيُعَمِّرُ الإنْسانُ باطِنَهُ وظاهِرَهُ بِخَشْيَةِ اللهِ تَعالى ، وذَلِكَ بِتَنْفيذِ كُلِّ ما أَمَرَ اللهُ تَعالى بهِ ، والانْتِهاءِ عَنْ كُلِّ ما نَهى اللهُ عَنْهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، منها :

١ـ الأَحْكامُ العَمَلِيَّةُ شَرَعَها سُبْحانَهُ وتَعالى لِتَقْوِيَةِ الإيمانِ وإصْلاحِ النَّفْسِ ، وهَذا يَكونُ بِذِكْرِ اللهِ وتَعْظيمِهِ والتَّوَجُّهِ إليهِ بالدُّعاءِ والضَّراعَةِ .

٢ـ الدُّعاءُ مُخُّ العِبادَةِ ، فلا بُدَّ مِنَ الطَّلَبِ باللِّسانِ مَعَ التَّوَجُّهِ بالقَلْبِ إلى اللهِ تَعالى ، فالدُّعاءُ باللِّسانِ هُوَ أثَرُ الشُّعورِ بالحاجَةِ إلى اللهِ ، وفَزَعُ القَلْبِ إليْهِ .

٣ـ الأَعْمالُ إذا لَمْ تَكُنْ صادِرَةً بِروحِ الإيمانِ لا يُرْجى أَنْ يَكونَ صاحِبُها مَهْدِيّاً راشِداً .

٤ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبادِهِ الصّائِمينَ أنْ أباحَ لَهُمُ الأَكْلَ والشُّرْبَ والجِماعَ لَيْلاً ، وحَرَّمَ اللهُ الطَّعامَ والشَّرابَ والنِّكاحَ وأَصْبَحَ الطَّعامُ آخِرَ اللَّيْلِ مُسْتَحَبّاً وهو السّحورُ ، وأَصْبَحَ فارِقاً بَيْنَ صَوْمِنا وَصَوْمِ أَهْلِ الكِتابِ في النَّهارِ فقط .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما صِلَةُ الصّوْمِ بِالدُّعاءِ ؟

٢ـ ما المَقْصودُ بقَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ؟ وعَلى ماذا يَدُلُّ ذَلِكَ ؟

٣ـ كَيْفَ يَكونُ تَوجُّهُ الإنْسانِ إلى اللهِ تَعالى بالدُّعاءِ ؟

٤ـ أعْطى اللهُ تَعالى الّذي يَدْعوهُ واحِدَةً مْنْ ثَلاثِ خِصالٍ ، ما تِلْكَ الخِصالُ ؟ وما دَليلُ ذَلِكَ ؟

٥ـ هاتِ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ قولُهُ تَعالى : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ .

٦ـ بَيِّنْ الصُّورَةَ البَديعيَّةَ في التَّعْبيرِ : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ .

٧ـ ما مَعنى : ﴿كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ ؟

٨ـ ما مَعْنى الأَمْرِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿بَاشِرُوهُن﴾ ، ﴿أَتِمُّوا﴾ ؟

٩ـ عَلامَ تَدُلُّ كَلِمَةُ (إلى وثُمَّ) في قَوْلِهِ تعالى : ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ ؟

١٠ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ بيِّنِ كَيْفَ يَكونُ الدُّعاءُ هو العِبادَةُ ، واكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ قَرَنَ النَّبيُّ ﷺ بَيْنَ الدُّعاءِ والصَّوْمِ ، بَيِّنْ ذَلِكَ بِذِكْرِكَ للْحَديثِ الدّالِ على هذا الأَمْرِ واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ هاتِ حديثاً عَنِ الرَّسولِ ﷺ يَدُلُّ على اسْتِحْبابِ تَعْجيلِ الفِطْرِ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٤ـ كَيْفَ يَكونُ الاعْتِكافُ ؟ وأيْنَ يَكونُ ؟ اكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ العاشِرُ

سورةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السَّادِسُ والخَمْسونَ

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

تَأْكلوا : تَأْخُذوا وتَسْتولوا .

بالباطلِ : منْ دونِ حَقٍّ .

تُدْلوا : تُلقوا .

الإِثْم : شَهادَةِ الزّورِ أو اليَمينِ الفاجِرَةِ .

الأَهِلَّةِ : جَمْعُ هِلالٍ ، وسُمِّيَ القَمَرُ كَذَلِكَ لأَنَّ النّاسَ يَرْفَعونَ أَصْواتَهُمْ بالذِّكْرِ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ .

مواقيتُ : واحِدُها مِيقاتٌ ، وهُوَ الزَّمَنُ المُقَدَّرُ المُعيَّنُ .

التَّفْسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنْ أَحْكامِ الصِّيامِ ، وجاءَتْ هذهِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ حُرْمَةِ أَكْلِ الإنْسانِ مالَ غَيْرِهِ مِنْ دونِ حَقٍّ ، قَالَ تَعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ أي : لا يَأْكُلْ بَعْضُكُمْ مالَ بَعْضٍ ، وقَدْ جاءَ اللّفظُ ﴿أَمْوَالَكُم﴾

إشْعاراً بِوحْدَةِ الأُمَّةِ وتَكافُلِها ، وتَنْبيهاً على أَنَّ احْتِرامَ مالِ الآخَرينَ ، هُوَ احترامٌ وحِفْظٌ لمالِ الإنْسانِ ، كما أنَّ التَّعدّي على مالِ أحَدٍ ، جِنايةٌ على الأُمَّةِ الّتي يَكونُ هَذا الشَّخْصُ أحَدَ أعْضائِها ، فإذا أباحَ لِنَفْسِهِ اسْتِحلالَ مالِ غَيْرِهِ وأَكَلَهُ ، جَرَّأَ غَيْرَهُ على اسْتِحْلالِ أَكْلِ مالِهِ .

إنَّ الشَّريعةَ الإسلاميَّةَ ، تَحُثُّ الإنْسانَ على اكْتِسابِ المالِ مِنَ الطُّرُقِ المَشْروعَةِ الصَّحيحَةِ الّتي لا تَضُرُّ أحداً ، وقَدْ أجْمَلَ القُرْآنُ الأَكْلَ بالباطِلِ ؛ لأنّهُ مِنَ الأُمورِ المَعروفَةِ للنّاسِ بِوجوهِهِ الكَثيرَةِ ، فَهُوَ يَتَحقَّقُ في كُلِّ أخْذٍ للمالِ بِغَيْرِ رِضىً مِنَ المَأْخوذِ مِنْهُ .

وبَعْدَ أنْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى الأَكْلَ مُجْمَلاً عامّاً ، ذَكَرَ نَوْعاً خَصَّهُ سُبْحانَهُ بالنَّهي ، مَعَ أنَّهُ داخِلٌ في النَّهي عَنِ الأَكْلِ ، لِما يَقَعُ مِنْ الشُّبْهَةِ فيهِ لِبَعْضِ النّاسِ ، إذْ يَعْتَقِدُ بَعْضُهُمْ أنَّ الحاكِمَ الّذي يَنْبَغي أنْ يَكونَ مُنَفِّذاً لِشَرْعِ اللهِ ، إذا حَكَمَ لإنْسانٍ ولَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ ، فإنّهُ يَحِلُّ لَهُ أخْذُ مالِ غَيْرِهِ بهذا الحُكْمِ ، ولا يَكونُ مِنَ الباطِلِ ، فقال تَعالى :

﴿ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ أيْ : ولا تُلْقوا بِأَمْوالِكُمْ إلى الحُكّامِ رَشْوَةً لَهُمْ ، لِتَأْخُذوا بَعْضاً مِنْ أَمْوالِ غَيْرِكُمْ بِوساطَةِ يَمينٍ فاجِرَةٍ تَحْلِفونَها أوْ شَهادَةِ زورٍ ، أوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمّا تُثْبِتونَ بِهِ أنَّكُمْ على حَقٍّ فيما تَدَّعونَ ، وأَنْتُمْ تَعلمونَ أنَّكُمْ على الباطِلِ ، وذَلِكَ أنَّ الاسْتعانَةَ بالحُكّامِ على أَكْلِ الأَموالِ بالباطِلِ حَرامٌ ، وإنَّ حُكْمَ الحاكِمِ على ما يَدُلُّ عليهِ الظّاهِرُ مِنْ أَمْرِ القَضيَّةِ ، لا يُحِلُّ في الواقعِ حَراماً ، ولا يُحَرِّمُ حَلالاً ، فَقَدْ أَخْرَجَ الإمامُ البُخاريُّ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عنْها ـ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ، أَنّهُ سَمِعَ خُصومَةً بِبابِ حُجْرَتِهِ ، فَخَرَجَ إلَيْهِمْ فَقالَ : « إنّما أَنا بَشَرٌ ، وإنّهُ لَيأتيني الخَصْمُ ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أنْ يكونَ أبْلَغَ مِنْ بعضٍ ، فَأَحْسَبُ أنَّهُ قَدْ صَدَقَ ، فَأَقْضي لَهُ بِذَلِكَ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فإنّما هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النّارِ فَلْيَأْخُذْها أوْ لِيَتْرُكْها[1]

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتتحدَّثَ عَمّا يَتَعَلَّقُ بالأَهِلَّةِ ، إذْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنِ الصَّوْمِ وشَهْرِ رَمضانَ ، والصَّوْمُ والإفْطارُ مُقْتَرِنٌ بالهِلالِ ، ولِذا جاءَتِ الآياتُ هُنا لِتَتحدَّثَ عَنِ الأَهِلّةِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ .

أيْ : يَسْأَلُكَ بَعْضُ النّاسِ عَنِ الحِكْمَةِ مِنْ خَلْقِ الأَهِلَّةِ ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الصَّحابَةَ سَأَلوا الرَّسولَ ﷺ : مابالُ الهِلالِ يَبدو ـ أوْ يَطْلُعُ ـ دَقيقاً مِثْلَ الخَيْطِ ثُمَّ يَزيدُ حَتّى يَعْظُمَ ويَسْتَديرَ ، ثُمَّ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب : المظالم والغصب ، باب : إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه ، حديث رقم ٢٣٢٦ .

لا يَزالُ يَنْقُصُ ويَدِقُّ حتّى يَعودَ كَما كانَ ، لا يَكونُ على حالٍ واحِدٍ ، فقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبيِّهِ ﷺ بأنَّ هَذِهِ الأَهِلَّةَ قَدْ خَلَقَها اللهُ تَعالى لِتكونَ مَعالِمَ للنَّاسِ يُوَقِّتونَ بها أُمورَهُمُ الدُّنْيَوِيَّةَ فَيُحَدِّدونَ بها أَوْقاتَ زُروعِهِمْ وتجارَتِهِمْ ، وآجالَ عُقودِهِمْ في المُعامَلاتِ ، ويَعْرِفونَ بِها أوقاتَ عباداتِهِمْ كالصِّيامِ والزَّكاةِ والحَجِّ .

وَقَدْ خَصَّ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الحَجَّ بالذِّكْرِ ، مَعَ أَنّ الأَهِلَّةَ مَواقيتٌ لِعباداتٍ أُخرى ـ كَما قُلْنا ـ للتَّنْبيهِ على أنَّ الحَجَّ مَقْصورٌ وقْتُ أدائِهِ على الوقْتِ الّذي عَيّنَهُ لَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، فلا يَجوزُ تَغييرُ وقْتِهِ ، كَما كانَتِ العَرَبُ تَفْعَلُ ، إذْ كانوا يَنْقُلونَ ما شاءوا مِنَ الأَشْهُرِ الحُرُمِ الأَرْبَعَةِ إلى شَهْرٍ آخَرَ مِنْ غَيْرِ الأَشْهُرِ الحُرُمِ .

وخَصَّ الشارِعُ المواقيتَ بالأَهِلَّةِ وأَشْهُرِها ـ وهي الأَشْهُرُ القَمَرِيَّةُ ـ ولَمْ يَذْكُرِ الشَّمْسَ وأَشْهُرَها ، لأَنَّ الأَشْهُرَ القَمَرِيَّةَ تُعْرَفُ بِرُؤْيَةِ الهِلالِ ، وذَلِكَ ما لا يَخْفى على أَحَدٍ مِنَ العامَّةِ ، أو للعالِمين بِدَقائِقِ الفَلَكِ .

وفي الكلام ضَرْبٌ مِنْ عِلْمِ البَديع ، الّذي يُسمّى أُسْلوبَ الحَكيم ، فَقَدْ سَأَلَ الصَّحابَةُ عَنِ الهِلالِ ما بالُهُ يَبْدو صَغيراً ثُمَّ يَعودُ كَما بَدَأَ ؟ فكانَ سُؤالُهُمْ عَنِ السَّبَبِ والعِلَّةِ ، ولَكِنَّ القُرْآنَ الكَريمَ قالَ : ﴿ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ وهَذا فيهِ مِنَ الحِكْمَةِ ما فيهِ ، فَكَأَنَّهُ سُبْحانَهُ يَقولُ لَهُمْ : حَرِيٌّ بِكُمْ أَنْ تَسْأَلوا عَمّا يَمَسُّ واقِعَكُمْ ، وعمّا أَنْتُمْ بِحاجَةٍ إليْهِ .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ وفي هذا إبْطالٌ لِما كانوا يفْعَلونَهُ في الجاهِلِيَّةِ ، وهِيَ أَنَّهُمْ إذا عادوا مِنْ حَجِّهِمْ لا يَدْخُلونَ بُيوتَهُمْ مِنْ أَبْوابِها ، بَلْ يَنْقُبونَ نَقْباً مِنْ ظُهورِها ويَدْخُلونَ ، فَقَدْ أَخْرَجَ البُخاريُّ عَنِ البراءِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ : « نَزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ فينا ، كانَتِ الأَنْصارُ إذا حَجّوا لَمْ يَدْخلوا مِنْ قِبَلِ أَبوابِ بُيوتِهِمْ ولَكِنْ مِنْ ظُهورِها ، فجاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ فَدَخَلَ قِبَلَ بابِهِ فكأَنّهُ عُيِّرَ بِذَلِكَ »[1] .

يَقولُ لَهُمْ سُبْحانَهُ ، لَيْسَ البِرَّ ما كُنْتُمْ تَفْعلونَهُ في الجاهِلِيَّةِ مِنْ دُخولِكُمُ البُيوتَ مِنْ ظُهورِها عِنْدَ إحرامِكُمْ ، أو عَوْدَتِكُمْ مِنْ حَجِّكُمْ ، ولَكِنَّ البِرَّ الحَقَّ الجامِعَ لأُمورِ الخَيْرِ ، إنَّما يَكونُ في تَقوى اللهِ تَعالى ، وذَلِكَ بِأَنْ تَمْتَثِلوا أوامِرَهُ ، وتَجتَنِبوا نواهيهِ ، وإذا ثَبَتَ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَأْتوا البُيوتَ مِنْ أبوابِها .

وفي الآيةِ اسْتِعارةٌ تَمْثيلِيَّةٌ حَيْثُ شُبِّهَتْ حالةُ الّذي يُعنى بغَيْرِ ما يَعْنيهِ ويَنْشَغِلُ بغَيْرِ واقِعِهِ ، ويُعْطي الأَوْلَوِيّةَ في البَحْثِ لِما مِنْ شَأْنِهِ أنْ يُبْحَثَ فيهِ ، كَما هُوَ شَأْنُ الأُمَّةِ اليَوْمَ ـ شَبَّهَ حالَ هَذا بحالِ الّذي يَأتي البَيْتَ مِنْ ظَهْرِهِ ، فَهُوَ مُضطَرٌ أنْ يَنْقُبَ ويُخَرِّبَ لِيَسْتَطيعَ دُخولَ البيْتِ ، وكانَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ

---

(١) أخرَجه البخاري في صحيحه ، حديث رقم ١٧٠٩ ، باب قوله تعالىٰ (وأتوا البيوت من أبوابها) .

يَلِجَ البَيْتَ مِنْ بابِهِ ، فَهُوَ أيْسَرُ مِنْ جِهَةٍ ، وَلَيْسَ فيهِ الضَّرَرُ والخَرابُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُوَجِّهُ النَّاسَ إِلى مُباشَرَةِ الأُمورِ مِنْ وُجوهِها الّتي يَجِبُ أنْ تُباشَرَ عَلَيْها وأنْ لا يَعْكِسوا ، والمُرادُ مِنْ ذَلِكَ تَوْطينُ النُّفوسِ ورَبْطُ القُلوبِ على أنَّ جميعَ أفْعالِ اللهِ حِكْمَةٌ وصَوابٌ .

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أَمَرَ سُبْحانَهُ بالتَّقْوى ، وهِيَ تَتَضَمَّنُ القِيامَ بِكُلِّ ما أَمَرَ اللهُ تَعالى بهِ ، واجْتِنابِ كُلِّ ما نَهى عَنْهُ ، فافْعَلوا ـ أَيُّها المُؤْمِنونَ ـ ذَلِكَ ، لِتكونوا مِنَ المُفْلِحينَ الفائِزينَ بالحياةِ المُطْمَئِنَّةِ في الدُّنْيا والنَّعيمِ الخالِدِ في الآخِرَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حُرْمَةُ أَكْلِ أمْوالِ النَاسِ بالباطِلِ ، وحُرْمَةُ الرَّشْوَةِ للحُكَّامِ والرُّؤساءِ ، لِيُعْطوا الرّاشي مالَ غَيْرِهِ .

٢ـ حُكْمُ الحاكِمِ على ما يَدُلُّ عَلَيْهِ الظَاهِرُ لا يُحِلُّ حراماً ولا يُحَرِّمُ حلالاً .

٣ـ يَنْبَغي على الإنْسانِ أنْ يَهْتَمَّ ويَنْشَغِلَ بِما يَمَسُّ واقِعَهُ ، وما هُوَ بِحاجَةٍ إليهِ ، ويَتْرُكَ الانْشِغالَ بِما لا يَنْفَعُهُ ولا يَعودُ عَلَيْهِ بِفائِدَةٍ .

٤ـ الّذي يَلْتَزِمُ بِما أَمَرَهُ اللهُ بهِ ، ويَجْتَنِبُ كُلَّ ما نَهاهُ عَنْهُ ، فازَ بالحياةِ السَّعيدةِ المُطْمَئِنَّةِ في الدُّنْيا ، والنَّعيمِ الخالِدِ في الآخِرَةِ .



التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيّنِ الحِكْمَةَ مِنْ مَجيءِ كَلِمَةِ : ﴿أَمْوَالَكُم﴾ بَدَلَ أَمْوالِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً .

٢ـ ما المَقْصودُ بالباطِلِ ؟ وما هِيَ وجوهُهُ ؟

٣ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تعالى : ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ .

٤ـ لماذا خَصَّتِ الآياتُ الحُكّامَ هُنا ؟

٥ـ هاتِ ما تَسْتَنْتِجُهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ .

٦ـ ما صِلَةُ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلأَهِلَّةِ﴾ بما سَبَقَ ؟

٧ـ ما سَبَبُ نُزولِ هذِهِ الآيةِ : ﴿ ۞ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ؟

٨ـ لماذا خَصَّ القُرْآنُ الأَهِلَّةَ بالذِّكْرِ ؟

٩ـ بَيِّنِ الصُّورةَ البَديعيَّةَ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ. . . .﴾ .

١٠ـ بيَّنَتِ الآياتُ عادةً مِنْ عاداتِ الجاهِلِيَّةِ ، ما هِيَ ؟ وكَيْفَ أَبْطَلَتْها الآياتُ ؟

١١ـ ما نَوْعُ الاسْتِعارَةِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّبِأَن تَأْتوا ٱلْبُيُوتَ. . . . . .﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ لأَكْلِ المالِ بالباطِلِ صُوَرٌ كَثيرةٌ ، اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أَرْبعاً مِنْها .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الأَشْهُرَ القَمَرِيَّةَ وحَدِّدِ الأَشْهُرَ الحُرُمَ مُرَتَّبَةً .

* * *

الدرس الحادي عشر

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ السابِعُ والخَمْسونَ

وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

معاني المُفْرَداتِ :

ولا تَعْتَدوا : ولا تَتَجاوزوا الحدَّ فيما أَمرَ اللهُ بهِ أو نَهى عَنْهُ .

ثَقِفْتُموهُمْ : أدْرَكْتُموهُمْ وظَفَرْتُمْ بِهِمْ .

الفِتْنَةُ : الابْتِلاءُ ، وهِيَ ما كانَ يَفْعَلُهُ المشْرِكونَ مِنْ إيذاءٍ وتَعْذيبٍ للْمُسْلِمينَ لِرَدِّهِمْ عَنْ دينِهِمْ .

جزاءُ : الجزاءُ : ما وَقَعَ في مُقابَلَةِ الإحْسانِ أو الإساءَةِ .

العُدوانِ : الاعْتِداءُ والظُّلْمُ ، والمُرادُ بِهِ القَتْلُ .

الشّهْرُ الحرامُ : سُمِّيَ كَذَلِكَ لأنّهُ يَحرُمُ فيهِ ما يَحِلُّ في غَيْرِهِ مِنَ القِتالِ .

الحُرُماتُ : ما يَجِبُ احْتِرامُهُ والمُحافَظَةُ عَلَيْهِ .

قِصاصٌ : القِصاصُ : مُقابَلَةُ الشّيْءِ بِمِثْلِهِ .



التفسير :

تحدَّثَتِ الآياتُ عَنِ الصّيامِ وما يَتَّصِلُ بهِ مِنْ أَحْكامٍ ، وأَتْبَعَتْهُ بالحَديثِ عَنِ الأَهِلَّةِ ، وتَوْجيهِ النّاسِ إلى ما يَمَسُّ واقِعَهُمْ ، ولَيْسَ هُناكَ أَكْثَرُ مَساساً لَهذا الواقِعِ الّذي تَعيشُهُ الأُمَّةُ مِن قِتالِ أَعْدائِها ، والدِّفاعِ عَنْ دِينِها وأَرْضِها وشَرَفِها وعِزِّها .

إنَّ الصَّوْمَ والجِهادَ مُتَّصِلٌ بَعْضُهُما بِبَعْضٍ في كتابِ اللهِ ، وهُما كَذلِكَ في واقِعِ المُسْلِمينَ ، ولِذا فإنّنا نَجِدُ أَنَّ العامَ الّذي فُرِضَ فيهِ الصّومُ هو العامُ الثّاني لِلْهِجْرَةِ ، وهُوَ العامُ الّذي سَجَّلَ فيهِ المُسْلِمونَ بإذْنِ اللهِ نَصْراً مُؤَزّراً : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] .

قَالَ تَعالى :

﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى : أَيُّها المُؤْمِنونَ ، قاتِلوا في سَبيلِ اللهِ تَعالى الّذين يقاتِلونَكُمْ ، ولْيَكُنْ قِتالُكُمْ إعْزازاً لِدينِ اللهِ تَعالى وإعْلاءً لِكَلِمَتِهِ ، لا لِهوى النَّفْسِ وشَهَواتِها . أَخْرَجَ الإمامُ البُخاريُّ أنَّ أعرابِيّاً أَتى النَّبيَّ ﷺ فَقالَ : « يا رَسولَ اللهِ : الرَّجُلُ يُقاتِلُ لِلمَغْنَمِ ، والرّجُلُ يُقاتِلُ ليُذْكَرَ ، والرَّجُلُ يُقاتِلُ ليُرى مَكانَهُ - أي : لِيَتحدَّثَ النّاسُ بِشَجاعَتِهِ ولِيَظْهَرَ بَيْنَهُمْ - أيُّ ذَلِكَ في سَبيلِ اللهِ ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : مَنْ قاتَلَ لِتكونَ كَلِمَةُ اللهِ هِي العُليا فَهُوَ في سبيلِ اللهِ »[1] .

﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أيْ : ولا تَعْتَدوا بالقِتالِ فَتَبْدَءوهُمْ بهِ ، ولا في القَتْلِ فَتَقْتُلوا مَنْ لا يُقاتِلُ مِنَ النِّساءِ والصِّبيانِ ، والشُّيوخِ والمَرْضى ، ولا مَنْ أَلْقى إلَيْكُمُ السَّلَمَ ، وكَفَّ عَنْ حَرْبِكُمْ ، ولا تَخْرُبوا بَيْتاً ولا تَقْطَعوا شَجرَةً ، فإنَّ الاعْتِداءَ مِنَ الأُمورِ الّتي لا يُحِبُّها اللهُ تَعالى .

﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ ﴾ .

﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ أيْ : إذا نَشَبَ القِتالُ بَيْنَكُمْ وبَيْنَ الكُفّار فاقْتُلوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُموهُمْ وَظَفِرْتُمْ بِهِمْ ، ولا يَصُدَّنَّكُمْ عَنْهُمْ شَيْءٌ ، فَهُمْ بَدَءوكُمْ بالعُدْوانِ ، وتَمَنَّوْا لَكُمْ كُلَّ شَرٍّ وسوءٍ .

﴿ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أيْ : أَخْرِجوهُمْ مِنَ المكانِ الّذي أخْرَجوكُمْ مِنْهُ ، وهُوَ مَكّةُ المُكَرَّمَةُ ، إذْ إنَّ المُشركينَ أَخْرَجوا النَّبيَّ ﷺ وأَصْحابَهُ مِنْها ، فَقَدْ أَنْزَلوا بِهِمْ صُنوفَ العَذابِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ، حديث رقم ٢٩٥٨ .

وَفَتَنوهُمْ ، حتّى اضْطَرّوهُمْ للخُروجِ مِنْها ، وفي هَذا تَهْديدٌ للْمُشرِكينَ وَوَعْدٌ لِلمُسْلِمينَ بِفَتْحِ مَكّةَ المُكَرَّمَةِ .

﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ هذهِ هِيَ العِلّةُ في الإِذْنِ بِقِتالِ المُشْرِكينَ ، أيْ : أنَّ فِتْنَتَهُمْ إيّاكُمْ عِنْ دينِكُمْ بالإيذاءِ والتَّعْذيبِ ، وإخراجَكُمْ مِنْ وَطَنِكُمْ ومُصادَرَةَ أَمْوالِكُمْ أشَدُّ على الإنْسانِ مِنْ إيذائِهِ واضْطِهادِهِ وتَعْذيبِهِ وصدِّهِ عَنْ دينِهِ ،فَهذا أشَدُّ قُبْحاً عِنْدَ اللهِ تَعالى مِنَ القَتْلِ ، فَليسَ هُناكَ بلاءٌ أشدُّ على الإنْسانِ مِنْ إيذائِهِ واضْطِهادِهِ وتَعْذيبِهِ وصدِّهِ عَنْ دينِهِ ،فَهذا أشَدُّ على الإنسانِ مِنْ قَتْلِهِ ، يَدُلُّ لِذلِكَ أنَّ كَثيرينَ مِمّنْ يَتَعَرَّضونَ للأَذى والاضْطهادِ يَتَمَنَّوْنَ أنْ يَموتوا فَيكونُ ذَلِكَ خَيْراً لَهُمْ مِنَ الإهانَةِ والتّعذيبِ .

ثُمَّ نَهَتِ الآياتُ المُؤْمِنينَ عَنْ قِتالِ المُشْرِكينَ عِنْدَ المسجِدِ الحرامِ مُراعاةً لِحُرْمَتِهِ ، ما دامَ المُشْرِكونَ لَمْ يَبْدَءوهُمْ بالقِتالِ عِنْدَهُ ، أمّا إنْ قاتَلوهُمْ عِنْدَهُ فلا حَرَجَ على المُسْلِمينَ مِنْ قِتالِهِمْ عِنْدَهُ ، لأنَّ البادِىءَ بالقِتالِ هُوَ المُنْتَهِكُ لِحُرْمَةِ المَسْجِدِ ، وهُمُ المُشْرِكونَ ، ولَسْتُمْ أنْتُمْ أيُّها المؤْمِنونَ ، لأنَّكُمْ تُدافِعونَ عَنْ أنْفُسِكُمْ ، وقَدْ قالَ تَعالى : ﴿ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ ولَمْ يَقُلْ (قاتِلوهُمْ) تَبشيراً للمُؤْمِنينَ بالغَلَبَةِ عَلَيْهِمْ ، وإشْعاراً بِأنَّ المُشْرِكينَ في حالةٍ مِنَ الضَّعْفِ ، فَهُمْ لِضَعْفِهِمْ بِحاجَةٍ إلى قَتْلِهِمْ ولَيْسَ قِتالِهِمْ .

﴿ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أيْ : مِثْلُ هَذا الجَزاءِ العادِلِ مِنَ القَتْلِ والرَّدْعِ ، يُجازي اللهُ الكافِرينَ الّذينَ قاتَلوا المُؤْمِنينَ وأَخْرَجوهُمْ مِنْ ديارِهِمْ . وقَدْ جَرَتْ سُنّةُ اللهِ تَعالى بِأَنْ يُجازِيَ الكافِرينَ مِثْلَ هذا الجَزاءِ ، ويُعذِّبَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ التَّعْذيبِ ، فَهُمْ قَدْ تَعدّوْا حُدودَ اللهِ تَعالى الّتي شَرَعَها ، فَهُمُ الظّالِمونَ لأَنْفُسِهِمْ .

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أيْ : إنِ انْتَهوْا عَنْ مُقاتَلَتِكُمْ ، أو عَنِ الكُفْرِ ، فَكُفّوا عَنْهُم ولا تَتَعرّضوا لَهُمْ ، فإنَّ اللهَ يَقْبَلُ مِنْهُمْ عَمَلَهُمْ ، لأَنَّهُ رَحيمٌ بِعِبادِهِ يَغْفِرُ لَهُمْ ما قَدْ سَبَقَ .

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ والفِتْنَةُ هُنا الشّرْكُ وما يَتْبَعُهُ مِنْ أَذى المُشرِكينَ لِلْمُسْلِمينَ واضْطِهادِهِمْ وتَعْذيبِهِمْ ، والدّينُ هُوَ ما يُتَعَبَّدُ اللهُ بهِ ، أي : الدّينُ الصَّحيحُ الّذي شَرَعَهُ اللهُ لِعِبادِهِ على لسانِ نَبيِّهِمْ مُحَمّدٍ ﷺ ، لِيَتَوَصّلوا بهِ إلى الصَّلاحِ في الحالِ أو الفلاحِ في المآلِ .

أيْ : قاتِلوا أُولَئِكَ المشركينَ حتّى تُزيلوا الشِّرْكَ ، وتَكْسِروا شَوْكَةَ المُشرِكينَ ، بِحَيْثُ

لا يَستَطيعونَ بهِ فِتْنَةَ أَهْلِ الحَقِّ ، وحتّى يَكونَ الدّينُ الظاهِرُ والمُنْتَشِرُ في الأَرْضِ هُوَ الدّينُ الّذي شَرَعَهُ اللهُ تعالى على لِسانِ نَبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

إنّ المُشْرِكينَ لَيْسَ في حَقِّهِمْ إلاّ الإسْلامُ أوِ السَّيْفُ ، وقَدْ أَخْرَجَ البُخاريُّ عَنْ ابنِ عُمَرَ : أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النّاسَ حتّى يَشْهَدوا أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ ، وأَنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللهِ ، ويُقيموا الصَّلاةَ ويُؤْتوا الزَّكاةَ ، فإنْ فَعَلوا ذَلِكَ عَصَموا مِنّي دماءَهُمْ وأمْوالَهُمْ إلاّ بِحَقِّ الإسْلامِ وحِسابُهُمْ على اللهِ »[1] .

وَقَدْ مَكَّنَ اللهُ لِلْمُؤْمِنينَ في الأَرْضِ ، فَفَتَحوا مَكَّةَ وحَطَّموا الأَصْنامَ ، وكانَ الدّينُ كُلُّهُ للهِ تَعالى ، وجاءَ الحَقُّ وزَهَقَ الباطِلُ .

﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ أيْ : إنِ امْتَنَعوا عَنْ قِتالِكُمْ ولَمْ يُقْدِموا عَلَيْهِ ، وأَذْعَنوا لِتعاليمِ الإسْلامِ ، عِنْدَ ذَلِكَ كُفّوا عَنْ قِتالِهِمْ ، فما داموا قَدْ أَسْلَموا فَقَدِ ارْتَفَعَ عَنْهُمْ وَصْفُ الظُّلْمِ ، وما دامَ هَذا الوَصْفُ قَدِ انْتَفى عَنْهُمْ فَلا يَصِحُّ أَنْ تُقاتِلوهُمْ ، فالقِتالُ لا يَكونُ إلاّ للظّالِمينَ تَأْديباً لَهُمْ . ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ هذا بَيانٌ لِلحِكْمَةِ في إباحَةِ القِتالِ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ ، وبَيانٌ مِنَ اللهِ تَعالى بأَنَّ مُراعاةَ حُرْمَةِ هذِهِ الأَشْهُرِ واجِبَةٌ في حَقِّ مَنْ يَصونُ حُرْمَتَها مِنَ الكافِرينَ ، أمّا مَنِ انْتَهَكَ هذهِ الحُرْمَةَ فلا بُدَّ مِنْ مُعاقَبَتِهِ .

وقَدْ خَرَجَ المُسْلِمونَ مَعَ النَّبيِّ ﷺ لأداءِ العُمْرَةِ في شَهْرِ ذي القِعْدَةِ ، فَصَدَّهُمُ المُشْرِكونَ عَنْ وصولِ مَكَّةَ ، وَوَعَدَهُمُ اللهُ تَعالى بدُخولِها وأداءِ العُمْرَةِ فيها ، وبَيَّنَ لَهُمْ بأَنَّ هذا الشَّهْرَ الّذي تُؤدّون فيهِ عُمْرَةَ القَضاءِ ، يُقابِلُ ذَلِكَ الشَّهْرَ الّذي صَدَّكُمْ فيهِ المُشْرِكونَ عَنْ دُخولِ المَسْجِدِ الحَرامِ ، فإذا بَدَأوا بانْتِهاكِ حُرْمَتِهِ بِقِتالِكُمْ ، فلا تُبالوا في أنْ تُقاتِلوا فيهِ دِفاعاً عَنْ أَنْفُسِكُمْ ، فَهُمُ الّذينَ بَدَأوا بانْتِهاكِ حُرْمَةِ هَذا الشَّهْرِ .

ويَجِبُ مُقاصَصَةُ المُشْرِكينَ على انْتِهاكِ حُرْمَةِ هَذا الشَّهْرِ ، وذَلِكَ بِمُقابَلَتِهِمْ بالمِثْلِ ، لِيَكونَ شَهْرٌ بِشَهْرٍ جَزاءً وِفاقاً ، فَهُمْ قَدِ انْتَهَكوا حُرْمَةَ الشَّهْرِ ، وذَلِكَ بأَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ البيتِ الحَرامِ ، وأَرادوا أَنْ يَتَعرَّضوا لَكُمْ بالقِتالِ ، ولِذَلِكَ افْعَلوا بِهِمْ مِثْلَما فَعَلوا بِكُمْ . وأَكَّدَ سُبْحانَهُ وتَعالى هَذا المَعْنى بِقَوْلِهِ : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أيْ : مَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ وظَلَمَكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب قوله تعالىٰ (فإن تابوا وأقاموا الصلاة) حديث رقم ٢٥ .

فَجازوهُ باعْتِدائِهِ وقابِلوهُ بِمِثْلِ ما اعْتَدى عَلَيْكُمْ ، مِنْ دونِ حَيْفٍ أوْ تَجاوزٍ لِلْحَدِّ الّذي أباحَهُ اللهُ تَعالى لَكُمْ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ اتَّقوا اللهَ تَعالى ، واحْذَروا أنْ تَعْتَدوا بِما لَمْ يُرَخِّصْ لَكُمْ ، واعْلَموا أنَّ اللهَ معَ الّذينَ يَمْتَثِلونَ أوامِرَهُ بالمَعونَةِ والتَّأييدِ والنَّصْرِ والتَّمْكينِ والغَلَبَةِ على الأَعْداءِ تَأْييداً لِدينِهِ وإعْلاءً لِكَلِمَتِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الصِّيامُ والجِهادُ أَمْرانِ مُتلازِمانِ ، لا يَنْفَكُّ أَحَدُهُما عَنِ الآخَرِ ، إذْ حَرِيٌّ بالصّائِمِ أنْ يَكونَ إعصارَ حَقٍّ ، وعاصِفَةَ خَيْرٍ تَقْتَلِعُ جُذورَ الباطِلِ والشَّرِّ .

٢ـ فتنَةُ الإنْسانِ بإيذائِهِ وعَذابِهِ وصَدِّهِ عَنْ دينِهِ أشَدُّ عِنْدَ اللهِ مِنْ قَتْلِهِ .

٣ـ المَسْجِدُ الحَرامُ لَهُ حُرْمَتُهُ وهَيْبَتُهُ ، فلا يَجوزُ القِتالُ فيهِ ، ولا يُباحُ التَّعرُّضُ لِشَيْءٍ فيهِ بالأَذى إلاّ إذا قُوتِلَ المُسْلِمونَ فيهِ .

٤ـ قِتالُ الأَعْداءِ كَقِتالِ المُجْرِمينَ يَجِبُ أنْ يَكونَ بِلا هَوادَةٍ ولا تَقْصيرٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنِ الصِّلَةَ بَيْنَ الجِهادِ والصَّوْمِ .

٢ـ شاءَ اللهُ تَعالى أنْ تَكونَ أشْهَرُ المَعارِكِ في شَهْرِ رَمَضانَ . ما الحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ ؟

٣ـ ما المَقْصودُ بالقِتالِ في سَبيلِ اللهِ ؟ ومَتى يَكونُ ذَلِكَ ؟

٤ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ .

٥ـ ما العِلَّةُ في الإذْنِ بالقِتالِ ؟

٦ـ ما حُكْمُ القِتالِ في المَسْجِدِ الحرامِ ؟

٧ـ ما مَعْنى الفِتْنَةِ في قولِهِ تَعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ؟ وكَيْفَ يَكونُ الدّينُ للهِ ؟

٨ـ بيِّنْ مَوْقِفَ الإسْلامِ مِنَ المُشْرِكينَ .

٩ـ ذَكَرَتِ الآياتُ الحِكْمَةَ مِنَ القِتالِ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ ، هاتِ ما ذَكَرَتِ الآياتُ .

١٠ـ اسْتَنْتِجِ الحِكْمَةَ مِنْ خَتْمِ هذهِ الآياتِ بِقَوْلِهِ تعالى : ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾



١ـ اكْتُبْ أسْماءَ خَمْسِ مَعارِكَ حَدَثَتْ في شَهْرِ رَمَضانَ .

٢ـ في أي سَنَةٍ هِجْرِيَّةٍ كانَتْ عُمْرَةُ القَضاءِ ؟ ولِماذا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ وَصِيَّةَ أَبي بَكْرٍ الصِّديقِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ لأُسامَةَ بن زيدٍ حينَ بَعَثَهُ أَميراً على الجَيْشِ .

* * *

الدَّرسُ الثّاني عَشَرَ

سورَةُ البَقَرةِ - القِسْمُ الثّامِنُ والخَمْسونَ

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

التَّهْلُكَةِ	: الهَلاكُ ، والمُرادُ بهِ تَرْكُ الجِهادِ .
أحْصِرْتُمْ	: الإحْصارُ : الحَبْسُ والتَّضييقُ والمَنْعُ .
الهَدْيَ	: ما يَهديهِ الحاجُّ أو المعْتَمِرُ إلى البيْتِ الحرامِ مِنْ أنعامٍ لِيُذْبَحَ ، ويُوَزَّعَ عَلى الفُقراءِ .
مَحِلَّهُ	: المَحِلُّ : مَكانُ الحُلولِ والنُّزولِ .
تَمَتَّعَ	: التَّمتُّعُ : أنْ يَنْويَ العُمْرَةَ ، ويَتَحلَّلَ ثُمَّ يَنْوي الحَجَّ .
حاضري المَسْجِدِ الحَرام	: هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ وما دونَها إلى المَواقيتِ .

التَّفسيرُ :

أَمَرَتِ الآياتُ السّابقَةُ المُؤْمِنينَ بالجَهادِ بالنَّفْسِ ، وأَتْبَعَتْ ذَلِكَ بالأَمْرِ بالجهادِ بالمالِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ .

﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أيْ : ابْذُلوا المالَ لِتَأْمينِ وَسائِلِ الدّفاعِ عَنْ حِمى الدّينِ والوَطَنِ ، وذَلِكَ بِشِراءِ السّلاحِ والعَتادِ وما يَلْزَمُ للحُروبِ .

﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ أيْ : أنَّكُمْ إنْ لَمْ تَبْذُلوا في سبيلِ اللهِ تَعالى لِنُصْرَةِ دينِهِ كُلَّ ما تَسْتَطيعونَ ، فَقَدْ أَهْلَكْتُمْ أَنْفُسَكُمْ .

أَخْرَجَ التِّرْمِذيُّ عِنْ ابنِ عُمْرَ قالَ : « كُنّا بِمَدينَةِ الرُّوم القُسْطَنطينةِ ، فَأَخْرَجوا لَنا صَفّاً عَظيماً مِنَ الرّومِ ، فَخَرَجَ إلَيْهِمْ مِنَ المُسلِمينَ مِثْلُهُمْ ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمينَ على صَفِّ الرُّوم حتّى دَخَلَ فيهِمْ ، فَصاحَ النّاسُ وقالوا : سُبْحانَ اللهِ يُلْقي بِيَدَيْهِ إلى التَّهْلُكَةِ ؟ فقامَ أبو أَيّوبِ الأَنْصارِيُّ فَقالَ : أَيُّها النّاسُ إنَّكُمْ لَتُؤوّلونَ هذِهِ الآيَةَ هذا التَّأويلَ ، وإنّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ فينا مَعْشَرَ الأَنْصارِ ، لَمّا أَعَزَّ اللهُ الإسلامَ وكَثُرَ ناصِروهُ ، فقالَ بَعْضُنا لِبَعْضٍ سِرّاً دونَ رسولِ اللهِ ﷺ : إنَّ أَمْوالَنا قَدْ ضاعَتْ ، وإنَّ اللهَ قَدْ أعَزَّ الإسْلامَ ، وكَثُرَ ناصِروهُ ، فَلَوْ أَقَمْنا في أَموالِنا فَأَصْلَحْنا ما ضاعَ مِنْها ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالى على نبيِّهِ يَرُدّ عَلَيْنا ما قُلْناهُ : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ فكانَتِ التَّهْلُكَةُ الإقامَةُ على الأَموالِ وإِصْلاحُها وتَرْكُ الغَزْوِ . قال الرّاوي : فما زالَ أبو أيّوبٍ شاخصاً في سبيلِ اللهِ حتّى دُفِنَ بأَرْضِ الرّومِ[1] .

والباء في (بِأَيْدِيكُمْ) تُفيدُ مَعْنى السَّبَبيةِ ، لا تُلقوا بأَنْفُسِكُمْ بسَبَبِ ما اقْتَرَفَتْهُ أيْديكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ . وخُتِمَتِ الآيَةُ بالأَمْرِ بالإحْسانِ : ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَحْسِنوا أعمالَكُمْ وأَتْقِنوها لأنّه سُبْحانَهُ وتَعالى يُحِبُّ المُحْسنينَ .

وبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنِ الجهادِ الأَكْبَرِ وهُوَ القِتالُ ، انْتَقَلَتْ لِلْحَديثِ عَنِ الجهادِ الّذي لا شَوْكَةَ فيهِ وهُوَ الحَجُّ ، يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾ .

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ المُرادَ بإتْمام الحَجِّ والعُمْرَةِ ، الإِتْيانُ بِهِما تامَّيْنِ كامِلَيْنِ ، وذَلِكَ يَكونُ ظاهِراً بأَداءِ المَناسِكِ على وجْهِها المَشْروعِ ، وباطِناً ، بالإِخْلاصِ للهِ تَعالى دونَ قَصْدِ الكَسْبِ أوِ

(١) رواه الترمذي في السّنن ، حديث رقم ٢٩٧٢ .

التِّجارَةِ أو الرِّياءِ والسُّمْعَةِ . والتِّجارَةُ لا تَتعارَضُ مَعَ الإخْلاصِ ، إذا لَمْ يُقْصَدُ الذَهابُ إلى مَكَّةَ لِذاتِ التِّجارَةِ .

وَمَعْنى الآيةِ : ائْتوا الحَجَّ والعُمْرَةَ كاملي الأَرْكانِ والشُروطِ والآدابِ ، خالِصيْنَ لوَجهِ اللهِ تَعالى . والحَجُّ ـ كما نَعْلَمُ ـ مِنَ أرْكانِ الإسْلام ، فَهُوَ فَرْضٌ على الإنْسانِ القادِرِ ، مرَّةً في العُمْرِ ، أمّا العُمْرَةُ ، فَلَيْسَ هُناكَ دَليلٌ على وُجوبِها ، فَهِيَ تُعَدُّ مِنَ السُّنَنِ . وأرْكانُ العُمْرةِ وأَفعالُها الّتي هِيَ الإِحْرامُ والطَّوافُ والسَّعْيُ ، تَدْخُلُ في ثنايا أَفْعالِ الحَجِّ وأَرْكانِهِ .

وَقَدْ كانَ الحَجُّ مَعْروفاً في الجاهِلِيَّةِ مِنْ عَهْدِ سَيّدِنا إبراهيمَ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وجاءَ الإسْلامُ وأَقَرَّهُ ، وَوَضَعَ لَهُ الأَحْكامَ وأسمى الآدابِ ، وأزالَ ما فيهِ مِنْ ضُروبِ الشِّرْكِ والمُنْكَراتِ .

وأَوَّلُ حِجَّةٍ حَجَّها المُسْلِمونَ كانَتْ سَنَةَ تِسْعٍ ؛ وذَلِكَ بإمْرَةِ سَيّدنا أبي بَكْرٍ الصِّدّيقِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ تَمهيداً لِحِجَّةِ النَّبيّ ﷺ ، وقَدْ أَمَرَ النَّبيُّ ﷺ أبا بَكْرٍ أَنْ يُؤَذِّنَ بالمُشْرِكينَ ألاّ يَحُجَّ بَعْدَ هذا العامِ مُشْرِكٌ ، ولا يَطوفَ بالبيتِ عُرْيانٌ .

﴿ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ ﴾ أَيْ : إنْ مُنِعْتُمْ وأَنْتُمْ مُحْرِمونَ ، مِنْ إتمامِ النُّسُكِ ، سواءٌ أكانَ الحَجُّ أم العُمْرَةُ ، وسَواءٌ مُنِعْتُمْ بِسَبَبِ عَدّوٍ أَوْ مَرَضٍ أو وَحْشٍ يَعْتَرِضُ الطَّريقَ ، أَمْ قُطّاعِ الطُرُقِ ، إنْ مُنِعْتُمْ مِنْ إتْمامِ النُّسُكِ وأَرَدْتُمُ التَّحَلُّلَ مِنَ الإحرامِ عَلَيْكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ تَذْبَحوا ما تَيسَّرَ مِنَ الهَدْيِ ، سَواءٌ أكانَ شاةً أَمْ بَقَرَةً ، أَمْ ناقَةً . والذّبْحُ إنّما يَكونُ في المَوْضِعِ الّذي أُحْصِرَ فيهِ الإنْسانُ المُحرِمُ ومُنِعَ مِنْ إتْمامِ نُسُكِهِ ، ولَوْ كانَ في مِنْطَقَةِ الحِلِّ ، فَقَدْ ذَبَحَ النَّبيُّ ﷺ عامَ الحُدَيْبِيَةِ في هذِهِ المِنْطَقَةِ الّتي سُمِّيَ العامُ نِسْبَةً إليْها ، وهي مِنَ الحِلِّ ولَيْسَتْ مِنَ الحَرَمِ . ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ ﴾ وحَلْقُ شَعَرِ الرَّأْسِ أوِ تَقْصيرُهُ هُوَ عَلامَةُ الانْتِهاءِ مِنْ أداءِ مَناسِكِ الحَجِّ أوِ العُمْرَةِ ، كَما أَنَّ التَّسليمَ عَلامةُ الانْتِهاءِ مِنَ الصَّلاةِ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : لا تَتَحلَّلوا مِنْ إحْرامِكُمْ بالحَلْقِ حَتّى تَذْبَحوا الهَدْيَ في المَوْضِعِ الّذي أُحْصِرْتُمْ فيهِ ، فإذا تَمَّ الذَّبْحُ فاحْلِقوا وتَحلّلوا ، وهَذا فيهِ التَّيْسيرُ والتَّسْهيلُ عَلى المُحْصَرينَ ، فالذَّبْحُ لِهَدْيِهِمْ في مَكانِ إحْصارِهِمْ أيْسَرُ لَهُمْ .

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ الحَلْقَ لا يَجوزُ للإنْسانِ ما دامَ مُحْرِماً ، أَتْبَعَ ذَلِكَ بِبيانِ حالةٍ يَجوزُ للإنْسانِ أَنْ يَحْلِقَ رَأْسَهُ فيها وهُوَ مُحْرِمٌ ، وهذهِ الحالَةُ هِيَ : إذا كانَ في رأْسِ الإنْسانِ أذىً ، كَأَنْ ابْتُلِيَ بِكَثْرَةِ الحَشَراتِ في رَأْسِهِ ـ كالقَمْلِ ـ أو ابْتُلِيَ بِجِراحٍ كَثيرةٍ ، فَعَلَيْهِ عِنْدئذٍ حَلْقُ رَأْسِهِ . ودَفْعُ الفِدْيَةِ ، هِيَ العِوَضُ عَنِ الشّيءِ النَّفيسِ ، وهِيَ هُنا كما بَيَّنَتْها الآياتُ :

١ـ إمّا الصّيامُ ثلاثَةِ أيّامٍ .

٢ـ أوْ إطْعامُ سِتّةِ مَساكينَ .

٣ـ أوْ ذَبْحُ شاةٍ وهِيَ النُّسُكُ هُنا .

أَخْرَجَ البُخاريُّ عَنْ كَعْبِ بنِ عَجُرَةَ الأَنْصاريِّ ، قالَ : « حُمِلْتُ إلى النَّبيِّ ﷺ والقَمْلُ يَتَناثَرُ عَلى وجْهي ، فَقالَ : ما كُنْتُ أَدْري أنَّ الجُهْدَ قَدْ بَلَغَ بِكَ هَذا ، أما تَجدُ شاةً ؟ قلتُ : لا ، قالَ : صُمْ ثلاثَةَ أيّام ، أو أَطْعِمْ سِتَّةَ مَساكِينَ نِصْفَ صاعٍ مِنْ طعام ، واحْلِقْ رَأْسَكَ ؟ »[1] .

وانتُقلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ كَيْفِيَّةَ التَّحَلُّلِ في حالةِ الأَمْنِ فقالَ تَعالى : ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ﴾ إذا أَمِنْتُمْ مِنَ الإحْصار ، وذَهَبَ خَوْفُ العَدوِّ ، أوِ المَرَضُ الّذي مَنَعَكُمْ مِنْ إتْمام المناسِكِ ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ﴾ أيْ : فَمَنْ اسْتَمْتَعَ بِأَنْ يُحْرِمَ للعُمْرَةِ أوّلاً ثُمَّ يَتحلَّلُ ويتَّمَتَّعُ بِما كانَ مَحْظوراً عَلَيْهِ عِنْدَ إِحْرامِهِ ، وبِما يَكونُ مَحْظوراً عَلى الّذي أَحْرَمَ مُفْرَداً أو قارِناً للحَجِّ .

وهذا المُتَمَتِّعُ يَظَلُّ مُتَحلّلاً حتّى اليَوْمِ الثّامِنِ مِنْ ذي الحِجَّةِ ، وهُوَ الّذي يُسَمّى يَوْمَ التَرويَةِ فَيُحْرِمُ للحَجِّ في ذَلِكَ اليَوْم ،ومَنْ نَوى التَّمَتُّعَ فعَلَيْهِ صِيامُ ثَلاثَةِ أيّام في أيام الإحْرام بالحَجِّ ، فَيُمْكِنُ أَنْ يَصومَ مَثَلاً اليَوْمَ السّادِسَ والسّابعَ والثّامِنَ مِنْ ذي الحِجَّةِ ، ويَصومُ سَبْعَةَ أيّام إذا رَجعَ مِنَ الحَجِّ إلى بَلَدِهِ ، لِيَكونَ مَجْموعُ ما صامَهُ بَدَلَ الهَدْيَ عَشَرَةَ أيّام . قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ﴾ ولِسائِلٍ أَنْ يَسْأَلَ : لِماذا قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ تِلۡكَ عَشَرَةٞ ﴾ فَنَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ ثلاثةً وسَبْعَةً تُساوي عَشَرَةً ، فَهَلِ الجُمْلَةُ زِيادَةٌ بلا مَعْنىً ولا فائِدَةٍ ؟ نَقولُ : إنّ الأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ ، أمّا قولُهُ سُبْحانَهُ : ﴿ تِلۡكَ عَشَرَةٞ ﴾ فَلَقَدْ جِيءَ بِها هُنا حتّى لا يُتَوَهَّمُ التَّخْييرُ بَيْنَ ثلاثةِ أيام في الحَجِّ وسَبْعَةٍ إذا رَجَعَ الحاجُّ إلى أَهْلِهِ وبَلَدِه ، ورُبَّما يُعلَّلُ هَذا بأنَّ الصَّوْمَ في الحَجِّ فيهِ مَشَقَّةٌ أكْثَرُ وعِبْءٌ أكْبَرُ عَلى الصّائِمِ ، ولا توجَدُ هَذِهِ المَشَّقَةُ إذا رَجَعَ الحاجُّ إلى بَيْتِهِ ، فَيُمْكِنُ أنْ تَقومَ الثَّلاثَةُ في الحَجِّ مَقامَ السَّبْعَةِ في الوَطَنِ والأَهْلِ ، فَأَرادَ القُرْآنُ أنْ يَنْفيَ هَذا الوَهْمَ . وأمّا قَولُهُ ﴿كامِلَةٌ﴾ فَفيهِ تَطييبٌ لِخاطِرِ أُولَئِكَ الصّائمينَ الّذينَ لا يَجدونَ الهَدْيَ ، والّذينَ يَظُنّونَ أنَّ مَثوبةَ مَنْ قَدَّمَ الهَدْيَ أكْثَرَ وأَكْبَرَ ، فأرادَ ربُّنا سُبْحانَهُ أنْ يُبَيِّنَ أنَّها كامِلَةٌ في ثوابِها وأَجْرِها ، فَلَقَدْ أدَّتْ هذِهِ الجُمْلَةُ عَلى قِصَرِها أَكْثَرَ مِنْ فائِدَةٍ .

﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ يَقولُ سُبْحانَهُ : إنَّ ذَلِكَ المَذْكورَ وهُوَ التَّمَتُّعُ بَيْنَ العُمْرَةِ والحَجِّ ، بما هُوَ مَحْظورٌ عَلى المُحْرِم ، إنّما يَكونُ لِمَنْ لَيْسَ مُقيماً في مَكّةَ وما حَوْلَها ، لأنَّ المُقيمينَ في مَكَّةَ وما حَوْلَها يُفْرِدونَ ، إذْ بِإِمْكانِهِمْ أنْ يُؤدّوا العُمْرَةَ طَوالَ السَّنَةِ ، أمّا الّذين يَأْتونَ مِنْ خارِجِ مَكّةَ مِنْهُمْ فَهُمْ يَتمتَّعونَ لِما يَلْحَقُهُمْ مِنَ المَشّقةِ بالسَّفَرِ إلى الحَجِّ وحْدَهُ ، ثُمَّ السَّفَرِ إلى العُمْرَةِ وَحْدَهُ . وخُتِمَتِ الآيَةُ بالأَمْرِ بِتَقوى اللهِ تَعالى أوّلاً ، وذَلِكَ

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٣٩٥٤ .

يَكونُ بامْتِثالِ أوامرِ اللهِ تَعالى واجْتِنابِ نواهيهِ ، وبالتَّحْذيرِ مِنْ عِقابِ اللهِ تعالى لِمَنِ انْتَهَكَ حُرُماتِ اللهِ تَعالى وارْتَكَبَ المَعاصي .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ تَرْكُ الجِهادِ ، وقِتالُ الأعْداءِ ، وتَرْكُهُمْ يَعْيثونَ فَساداً في البِلادِ فيهِ إلقاءٌ بالنَّفْسِ إلى التَّهْلُكَةِ .

٢ـ خَشْيَةُ اللهِ تَعالى ومُراقَبَتُهُ في كُلِّ عَمَلٍ يَقومُ بهِ الإنْسانُ صِفَةٌ يَتَحَلّى بِها المُؤْمِنونَ .

٣ـ الدّينُ دينُ يُسْرٍ ، فَمَنْ كانَ مُحْرِماً ، وكانَ في رَأْسِهِ أذىً ، فَقَدْ أباحَ لَهُ الإسلامُ رَحْمَةً بهِ حَلْقَ رَأْسِهِ ودَفْعَ فِدْيَةٍ بِحَسَبِ حالِهِ .

٤ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى بالإنْسانِ أنْ أَباحَ لهُ التَّمَتُّعَ في الحَجِّ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

التَّهْلُكَةِ ، فَإنْ أُحْصِرْتُمْ ، فَمَنْ تَمَتَّعَ ، الهَدْيَ ، حاضِري المسْجِدِ الحرامِ .

٢ـ ما سَبَبُ نُزولِ قَوْلِهِ تعالى : ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتهْلُكَةِ﴾ ؟

٣ـ ما مَعنى الباءِ في قَوْلِهِ : ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ ؟

٤ـ اسْتَنْتِجِ الصِّلَةَ بَيْنَ الجِهادِ والحَجِّ .

٥ـ ﴿وَأَتِمّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾ ، ما المَقْصودُ بالإتمامِ ؟ وما حُكْمُ كُلٍّ مِنَ الحَجِّ والعُمْرَةِ ؟

٦ـ مَتى كانَتْ أَوَّلُ حَجَّةٍ حَجَّها صَحابَةُ رسولِ اللهِ ﷺ ؟ وَأَوَّلُ حَجَّةٍ حَجَّها رسولُ اللهِ ﷺ ؟

٧ـ أ ـ كيْفَ يَكونُ الإحْصارُ بالنّسبةِ للحاجِّ والمُعْتَمِرِ ؟

ب ـ ما سَبَبُ هذا الإحْصارِ ؟

ج ـ ماذا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ ؟

٨ـ مَتى يَجوزُ للمُحْرِمِ أنْ يَحْلِقَ رَأْسَهُ ؟ وماذا يَكونُ عَلَيْهِ مُقابِلَ ذَلِكَ ؟

٩ـ مِنْ أَنواعِ الإحْرامِ بالحَجِّ الإحْرامُ مُتَمَتِّعاً . ما المَقْصودُ بِذلِكَ ؟ وما الّذي يَتَرَتَّبُ عَلى المُتَمَتِّعِ ؟

١٠ـ ما السِرُّ في التَّعبيرِ ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ﴾ ؟

١١ـ مَنْ هُمْ حاضِرو المَسْجِدِ الحرامِ ؟ وهَلْ يَجوزُ لَهُمُ الإحْرامُ مُتَمَتِّعينَ ؟

نَشاطٌ :

١ـ هاتِ المَقْصودَ بالإحْسانِ ، كَما وَرَدَ في حَديثِ الإسْلامِ والإيمانِ والإحْسانِ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ في أيِّ سَنَةٍ فُرِضَ الحَجُّ ؟ وفي أيِّ سَنَةٍ حَجَّ رسولُ اللهِ ﷺ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ أَيُّهُما أَفْضَلُ للرَّجُلِ ، الحَلْقُ أم التَّقْصيرُ ؟ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً يَدُلُّ لِذلِكَ .

٤ـ ارْجِعْ إلى أَحَدِ كُتُبِ الفِقْهِ واكْتُبْ في دَفْتَرِكَ المَقْصودَ بالإفْرادِ والقِرانِ في الحَجِّ .

٥ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَحْظوراتِ الإحْرامِ .

* * *

الدرس الثالث عشر

سورةُ البقرةِ ـ القسمُ التاسعُ والخمسونَ

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

فَرَضَ أَوْجَبَ .

رفَثَ الرَّفَثُ القَوْلُ الفاحِشُ البَذيءُ وقُرْبانُ النِّساءِ .

فسوقَ الفسوقُ : الخُروجُ عمّا حَدّدَهُ الشَّرْعُ .

جدالَ : الجِدالُ : المِراءُ والخِصامُ .

الزّادِ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ وما يُدَّخَرُ مِنَ الخَيْرِ .

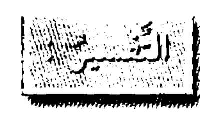
جُناحٌ حَرَجٌ وإِثْمٌ .

أنْ تَبْتَغوا أَمَرَ أَنْ تَقْصُدوا وتَطْلُبوا .

أَفَضْتُمْ الإِفاضَةُ مِنَ المَكانِ : الدّفعُ مِنْهُ ، ويَكونُ ذَلِكَ عِنْدَ غُروبِ شَمْسِ يَوْمِ عَرَفَةَ .

فاذْكروا الذِّكْرُ : الدّعاءُ والتّلبيةُ والتَّكْبيرُ والتَّحْميدُ .

المَشْعَرِ الحَرام : جَبَلِ المُزْدَلِفَةِ .



ما زالَتِ الآياتُ تَتحدَّثُ عَنْ هذا الرُّكْنِ العَظيمِ : الحَجِّ ، الَّذي سمّاهُ النَّبيُّ ﷺ الجِهادَ الَّذي لا قِتالَ فيهِ ، لِما فيهِ مِنْ مَشَقَّةٍ وتَعَبٍ وتَحَمُّلٍ وصَبْرٍ .

تَتحدَّثُ الآياتُ عَنْ وَقْتِ الحَجِّ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ .

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ ﴾ أيْ : أَشْهُرُ الحَجِّ أَشْهُرٌ مَعلوماتٌ ، وهذهِ الأَشْهُرُ هِيَ شوالُ وذو القِعدةِ وذو الحِجَّةِ ، وهَذِهِ الأَشْهُرُ لِكَوْنِها تُؤَدّى فيها فريضةُ الحَجِّ فَقَدِ اكْتَسَبَتْ تَقْديساً وبَرَكَةً مِنْها ، وعَبَّرَ عَنْ هَذِهِ الأَشْهُرِ بأَنَّها مَعْلوماتٌ ، وذَلِكَ لأنَّ العَرَبَ كانوا يَعْرِفونَها كُلَّ عامٍ مُنْذُ عَهْدِ سَيِّدِنا إبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، نُقِلَ ذَلِكَ بالتَّواتُرِ العَمَلِيِّ ، وقَدْ جاءَ الإِسْلامُ مُقَرِّراً لِما هُوَ مَعْروفٌ ولَمْ يُغَيِّرْهُ .

﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ ﴾ وذَكَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى هُنا ما يَجِبُ أنْ يَتَحلَّى بهِ المُسْلِمُ مِنْ فضائِلَ عِنْدَ أدائِهِ لِفَريضَةِ الحَجِّ . يَقولُ سُبْحانَهُ : أوْقاتُ الحَجِّ أشْهُرٌ مَعْلوماتٌ ، فَمَنْ نَوى وأَوْجَبَ عَلى نَفْسِهِ الحَجَّ ، وأحْرَمَ بِهِ ، فَعلَيْهِ أَنْ يَجْتَنِبَ جِماعَ النِّساءِ ، ومُقَدِّماتِهِ ، وأَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ أَيِّ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يَكونُ بَعيداً عَنْ روحِ الإسْلام ، أَوْ أَيِّ قَوْلٍ وفِعْلٍ يُمْكِنُ أَنْ يُؤَدّي إلى التَّنازُعِ والخِصامِ بَيْنَ رُفَقاءِ السَّفَرِ والإخْوانِ ، وذَلِكَ أَنَّهُمْ اجْتَمَعوا جَميعاً لأداءِ عِبادَةٍ واحِدَةٍ ولِطاعَةِ اللهِ تَعالى ، فَعَلَيْهِمْ أنْ يَتعاونوا عَلى البِرِّ والتَّقوى ، ولَيْسَ عَلى الإثْمِ والعُدْوانِ . ويَنْبَغي عَلى الحاجِّ أنْ يَتَجَرَّدَ عَنْ عاداتِهِ ، ويَنْسَلِخَ عَمّا كانَ يَفْتَخِرُ به ، فهُوَ الآنَ يَتساوى مَعَ الجَميعِ : الغَنيِّ والفَقيرِ ، والتّابِعِ والمَتْبوعِ ، وهَذا فيهِ تَهْذيبٌ لِلنَّفْسِ ، وإشْعارٌ لَها بِعُبودِيَّةِ اللهِ تَعالى .

أَخْرَجَ البُخاريُّ عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ ولَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيومِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ »[١] .

إنَّ شَأْنَ الحَرَمِ عَظيمٌ ، فالمَرْءُ فيهِ في عِبادةٍ ومُناجاةٍ للهِ تَعالى ، فَيَجِبُ أَنْ يَكونَ عَلى أَكْمَلِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، حديث رقم ١٤٤٩ ، في باب فضل الحج المبرور .

الأَدَبِ وأَفْضَلِ الأَحوالِ ، وقَدْ قالَ سُبْحانَهُ في شَأْنِ ذَلِكَ : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج :٢٥] .

والمَعْنى : مَنْ يَهُمُّ فيهِ بِإِلْحادٍ فَيَظْلِمُ نَفْسَهُ أَوْ غَيْرَهُ فإنَّ اللهَ سَوْفَ يُذيقُهُ عَذاباً أليماً ، وذَلِكَ أَنَّ مَكَّةَ المُكَرَّمَةَ يُضاعَفُ فيها العَمَلُ ، فإذا كانتِ الحَسَناتُ تُضاعَفُ لأَصْحابِها أضْعافاً كَثيرةً ، فَيَنْبَغي أَنْ تَكونَ السَّيِّئاتُ كَذلِكَ ، والغُنْمُ بالغُرْمِ .

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أي : لا تَرْفُثوا ولا تَفْسُقوا ولا تُجادِلوا ، لِتُزَكّوا نُفوسَكُمْ وتَتَخلّى عَنِ الرّذائِلِ وتَتحلّى بالفَضائِلِ ، سارِعوا إلى الأَعمالِ الصّالِحَةِ خاصَّةً في هذا المَكانِ المُشَرَّفِ ، وهَذا الزَّمانِ المُعَظَّمِ ، واللهُ تَعالى لا تَخفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ ، وسَيُجازيكُمْ بِأَعْمالِكُمْ ويُثيبُكُمْ عَلى أفْعالِكُمْ ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ أيْ : لِتَكُنِ التَّقْوى زادَكُمْ الّذي تَتزوَّدونَ بِهِ لِرَحيلِكُمْ عَنِ الدُّنْيا ، ذَلِكَ أَنَّ الإنْسانَ في سَفَرِهِ في الدُّنْيا لا بُدَّ لَهُ مِنْ زادٍ ، وهُوَ طَعامُهُ وشَرابُهُ ، ومالُهُ ، وفي سَفَرِهِ مِنَ الدُّنْيا وعَنْها ، لا بُدَّ لَهُ مِنْ زَادٍ ، وهَذا هُوَ تَقوى اللهِ تَعالى ، ومَعْرِفَةُ اللهِ ومَحَبَّتُهُ ، والإعْراضُ عَمَّنْ سِواهُ ، وهذا الزّادُ خَيْرٌ مِنَ الزّادِ الأوَّلِ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِتَأْكيدِ أَمْرِ التَّقوى ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي : أَخْلِصوا لي يا أَصْحابَ العُقولِ والأَفْهامِ وذَلِكَ بالامْتِثالِ لأَوامِري، وتَنْفيذِ ما أَوْجَبْتُهُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَحْكامٍ تَنْفَعُكُمْ في دُنْياكُمْ وآخِرَتِكُمْ .

وقَدْ يَقولُ قائِلٌ إذا كانَ الجِدالُ في الحَجِّ مَمْنوعاً ، فَمَعْنى ذَلِكَ أنَّهُ لا يَجوزُ لأيِّ إنْسانٍ أَنْ يَبيعَ ويَشْتَرِيَ ويُتاجِرَ بِأَمْوالِهِ ، لأَنَّ هَذا يَحْتاجُ إلى الجِدالِ . ولِذا جاءَتِ الآيةُ التّالِيَةُ رداً عَلى هَذا التَّساؤُلِ :

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ .

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي : لا إثْمَ ولا حَرَجَ عَلَيْكُمْ في أَنْ تَكْسِبوا المالَ الحلالَ في أيّامِ الحَجِّ ، وذَلِكَ إذا لَمْ يَكُنْ مَقْصَدُكُمُ الأَساسيُّ في الخُروجِ للْحَجِّ هو التِّجارةُ ، أَمَّا إذا كانَ الحَجُّ مَقْصِدَكُمْ ، ونِيَّتُكُمْ خالصةٌ للهِ ، وإذا رَأَيْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ اسْتِغْلالَ هَذا المَوْسِمِ في التِّجارَةِ لِحاجَتِكُمْ للمالِ ، فلا حَرَجَ عَلَيْكُمْ .

أَخرَجَ البُخاريُّ عَنِ ابنِ عَبّاسٍ قالَ : « كانَ ذو المجازِ وعُكاظٌ مَتْجَرُ النّاسِ في الجاهِلِيَّةِ فلمّا جاءَ الإسْلامُ كأَنَّهُمْ كَرِهوا ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا﴾ الآية[١] .

---

(١) أخرجه البخاري ، حديث رقم ١٩٩٢ .

﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ ﴾ . جاءَتِ الفاءُ هُنا للتَّفْصيلِ ؛ تَفْصيلِ ما أَجْمَلَتْهُ الآياتُ مِنْ أَمْرِ الحَجِّ ، أي إذا دَفَعْتُمْ بَعْدَ وقوفِكُمْ على عَرَفاتٍ وذلك بَعْدَ غُروب شَمْسِ اليَوْمِ التّاسعِ مِنْ ذي الحِجَّةِ ؛ إذا دَفَعْتُمْ تارِكينَ هذا المكانَ ، فاذْكروا اللهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحرام .

والمَشْعَرُ الحرامُ هُوَ المُزْدَلِفَةُ ، وهُوَ مِنْ أَرْضِ الحَرَمِ ، والمُزْدَلِفَةُ مِنَ الازْدِلافِ بمعنى القُرْبِ ، إذِ الحاجُّ يَذْهَبُ بَعْدَ عَرَفاتٍ إلى المُزْدَلِفَةِ ابْتِغاءً للقُرْبِ مِنْ مِنى . والوُقوفُ بالمُزْدَلِفَةِ واجِبٌ ، فَمَنْ لَمْ يَقِفْ في المُزْدَلِفَةِ ، عليهِ دَمٌ ، أي : وَجَبَ عَلَيْهِ ذبْحُ شاةٍ .

والحاجُّ عندَ غُروبِ شَمْسِ يومِ التّاسعِ مِنْ ذي الحِجّةِ يُغادِرُ عَرفاتٍ إلى المُزْدَلِفَةِ ، ويُصلّي فيها المَغْرِبَ والعِشاءَ جَمْعَ تَأْخيرٍ ، وَيبيتُ فيها ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْها إلى منىً . والحُجّاجُ يَتَّجِهونَ إلى المُزْدَلِفَةِ وهُمْ يَذْكُرونَ اللهَ تَعالى ؛ وذَلِكَ بالتَّلْبيَةِ والتَّهْليلِ والدُّعاءِ .

﴿ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ ﴾ أيْ : اذْكُروا اللهَ تَعالى ذِكْراً حَسَناً ، كَما عَلَّمَكُمْ وهَداكُمْ إلى ذِكْرِهِ سُبْحانَهُ بأَنْ تَتوجَّهوا إليهِ تَضرُّعاً وخِيفةً .

﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ إنَّكُمْ كُنْتُمْ قَبْلَ هِدايَةِ اللهِ تَعالى لَكُمْ مِنَ الضّالينَ عَنِ الحَقِّ ، الجاهلينَ في الدِّينِ ، حَيْثُ كُنْتُمْ تَتَّخِذونَ الأَوْثانَ وُسَطاءَ بَيْنَكُمْ وبَيْنَ اللهِ ، لِيُقرِّبوكُمْ إليْهِ تَعالى زُلْفى .

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٩٩) ﴾ .

وبَيَّنَتِ الآياتُ الطَّريقَةَ الصَّحيحَةَ للإفاضَةِ مِنْ عَرَفاتٍ : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ . أخْرَجَ البُخاريُّ عَنْ عائِشَةَ ـ رضِيَ اللهُ عنْها ـ قالَتْ : كانَتْ قُرَيْشٌ ، ومَنْ دانَ دينَها يَقِفونَ بالمُزْدَلِفَةِ ، وكانوا يُسمَّوْنَ الحُمُسَ ، وكانَ سائِرُ العَرَبِ يَقِفونَ بعَرَفاتٍ ، فلمّا جاءَ الإسْلامُ ، أَمَرَ اللهُ نَبيَّهُ ﷺ أنْ يَأْتِيَ عرفاتٍ ثُمَّ يَقِفُ بِها ثُمَّ يُفيضُ مِنْها ، فَذَلِكَ قولُهُ : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾[١] .

أيْ عَلَيْكُمْ أنْ تُفيضوا مَعَ النّاسِ مِنْ مكانٍ واحِدٍ ، لِتَتحقَّقَ المُساواةُ بَيْنَ الجَميعِ ، ولِكَيْ لا يَتَفاخَرَ أَحَدٌ على أَحَدٍ ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ اسْتَغْفِروا اللهَ مِنْ ذُنوبِكُمْ ، ومِمّا سَلَفَ مِنْكُمْ مِنْ أخْطاءَ ، وأَكْثِروا مِنَ التَّوْبَةِ والاسْتِغْفارِ ، يَغْفِرُ اللهُ تَعالى لَكُمْ ، فَهُو سُبْحانَهُ واسِعُ المَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ لِمَنْ يَسْتَغْفِرُهُ مَعَ الإنابَةِ إليهِ والتَّوْبَةِ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير/ باب قوله : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، حديث رقم ٤٢٤٨ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حتَّى يَعودَ الحاجُّ نَقِيّاً خالِياً مِنَ الخَطايا كَما ولَدَتْهُ أُمّهُ عَليْهِ أنْ لا يَرْفُثَ ولا يَفْسُقَ ولا يُجادِلَ في الحَجِّ .

٢ـ إنَّ الذَّنْبَ عَظيمٌ في الحَرَمِ ، إذْ تُضاعَفُ فيهِ السَّيِّئاتُ ، كَما تُضاعَفُ الحَسَناتُ .

٣ـ التَّقوى خَيْرُ زادٍ يَتزوّدُ بِهِ الإنْسانُ في رِحْلَةٍ يَنْتَقِلُ فيها مِنَ الدُّنْيا إلى الآخِرَةِ .

٤ـ إنَّما الأَعمالُ بالنِّياتِ ، فَمَنْ كانَتْ نِيَّتُهُ الحَجَ ، قُبِلَ عَمَلُهُ ، ومَنْ كانَتْ نِيَّتُهُ التِّجارَةَ لَمْ يُقْبَلْ منهُ .

٥ـ الإِكْثارُ في الحَجِّ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَعالى ، بالتَّلْبيةِ والدُّعاءِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقصودُ بِقَوْلِهِ : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ ؟ وما أَشْهُرُ الحَجِّ ؟

٢ـ لماذا عَبَّرَتِ الآياتُ عَنِ الأَشْهُرِ بأَنَّها مَعلوماتٌ ؟

٣ـ ما معْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ ؟

٤ـ ذكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الأُمورِ الّتي تَحْرُمُ عَلى الحاجِّ ، بيِّنْ تِلْكَ الأُمورَ .

٥ـ الحَرَمُ لَهُ شَأْنٌ عَظيمٌ ، بيِّنْ هَذا الشَّأْنَ مِنْ خِلالِ مُحاسَبَةِ الإنْسانِ عَلى ما يَهُمُّ بِهِ مِنْ أعمالٍ .

٦ـ كِيْفَ يَكونُ التزَوُّدُ بالتَّقْوى ؟ ولِمَ خُتِمَتِ الآيَةُ كَذلِكَ بالأَمْرِ بالتَّقوى ؟

٧ـ ما سَبَبُ نُزولِ قولِهِ تَعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ؟

٨ـ ما معَنى الفاءِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ ؟ وأَيْنَ يَذْهَبُ الحاجُّ بَعْدَ الوُقوفِ عَلى عَرَفَة ؟

٩ـ ما حُكْمُ الوُقوفِ بِمُزْدَلِفَة ؟

١٠ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .

١١ـ بيِّنْ سَبَبَ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ .



ـ ما حُكْمُ الوقوفِ عَلى عَرفة للحاجِّ ؟ اذْكُر دَليلَهُ مِنْ حَديثِ الرَّسولِ ﷺ ، واكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرس الرابع عشر

سورةُ الْبَقَرةِ ـ القِسْمُ الستون

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

معاني المفردات :

خلاقٍ : حَظٍ ونَصيبٍ .

أيام مَعدوداتٍ : الأيامُ التي يقْضيها الحاجُّ في مِنىً .

تَعَجَّلَ في يَوْمَيْنِ : خَرَجَ مِنْ بَعْدِ أداءِ مَناسِكِهِ يَوْمَيْنِ بَعْدَ يَوْمِ العيدِ .



التفسير :

عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما : كانَ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ يَقِفونَ في المَوْسِمِ ، يَقولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ : كانَ أبي يُطعِمُ ويَحْمِلُ الحمّالاتِ ، ولَيْسَ لَهُمْ ذِكْرٌ غَيْرُ فِعالِ آبائِهِمْ ، فجاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ للمُؤْمِنينَ ما يَنْبَغي عَلَيْهِمْ عِنْدَ أدائِهِمْ هذهِ الشَّعيرةَ ، ولِتُبْطِلَ عاداتِ الجاهِلِيَّةِ ؛ يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ . أي : إذا

فَرَغْتُمْ مِنْ عِبادَتِكُمْ ، وأَدَّيْتُمْ ما عَلَيْكُمْ مِنْ أَعْمالِ الحَجِّ ، فَأَكْثِروا مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَعالى ، وبالِغوا فيهِ كَما تَذْكُرونَ آباءَكُمْ ، بَل اذْكروهُ أَشَدَّ مِنْ ذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ .

وَبَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بِذِكْرِهِ ، بَيَّنَ أَنَّ النَّاسَ قِسْمانِ :

١ـ الفَريقُ الأَوَّلُ : ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ أَيْ : مِنَ النّاسِ فَريقٌ يَطْلُبُ حَظَّ الدُّنيا ، ولَمْ يَقُلْ : (ربّنا آتنا في الدُّنيا حَسَنةً) ؛ لأَنَّ مَنْ كانَتِ الدُّنيا هَمَّهُ لا يُبالي أكانَتْ شَهواتُهُ وحَظُّهُ في الدُّنيا حَسَنَةً أم سيئةً ، فهذا الفريقُ يَطْلُبُ الدّنيا مِنْ كُلِّ بابٍ ، ويَسْلُكُ إلى هَذهِ الدُّنيا كُلَّ طريقٍ ، لا يُمَيِّزُ بَيْنَ نافعٍ لِغَيْرِهِ ولا ضّارٍ ، ومَنِ اسْتَوْلَتِ الدُّنْيا عليهِ ، لَمْ يَكُنْ للآخِرَةِ مَوْضِعٌ في قَلْبِهِ .

هَؤلاءِ لِكَسْبِهِمْ وسوءِ اخْتيارِهِمْ ، وتَفْضيلِهِمْ لِحَظِّ الدُّنْيا ، حَرَمَهُمْ اللهُ تَعالى مِنْ حظِّ الآخِرَةِ ، هَؤلاءِ يَشْهَدونَ مواسِمَ الحَجِّ ، ولكِنَّ أَسْرارَ هذا المَنْسَكِ وحِكَمَهُ لَمْ تَصِلْ إلى شِغافِ قُلوبِهِمْ ، ولَمْ تُشْرِقْ هِدايَتُهُ على أرواحِهِمْ ، فَتكونُ الدُّنيا جُلَّ اهْتِمامِهِمْ .

وهَذا القِسْمُ مَوْجودٌ في كُلِّ زَمَنٍ ، فَتَجِدُهُم ، يَرْكضونَ وراءَ هَذهِ الدُّنيا وحُظوظِها ، وبَهارِجِها ، وتَجِدُهُمْ يُصَلُّونَ الصَّلاةَ في أَوْقاتِها ، وقَدْ يَحُجّونَ كُلَّ عامٍ ، ولكنَّ هذهِ العِباداتِ لا تُؤْتي ثِمارَها ، فلا تَنْهاهُمُ الصَّلاةُ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ، ولا يُطَهِّرُهُمُ الحَجُّ مِنَ الرَّفَثِ والفُسوقِ والجِدالِ ، فَهُمْ يُشْبِعونَ رَغَباتِهِمْ وَشَهواتِهِمْ دونَما ضابِطٍ ولا حاجِزٍ ، ولا هَمَّ لَهُمْ إلاّ حَظُّهُمْ مِنَ الدُّنيا .

قالَ تَعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ .

٢ـ الفَريقُ الثّاني : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ هَؤلاءِ يَطْلبونَ خَيْرَ الدُّنيا والآخِرَةِ ، لا حُظوظَ الدُّنْيا وحْدَها كَما يَفْعَلُ الفَريقُ الأَوَّلُ ، فَهُمْ يَطْلُبونَ الحياةَ السَّعيدَةَ الطَّيِّبَةَ في الدُّنيا ، وقَدْ تَكونُ الحَسَنَةُ الّتي يَطْلُبونَ هِيَ العافِيَةُ ، أو تيْسيرُ الحالِ بحَيْثُ لا يَحْتاجونَ إلى أَحَدٍ سِوى اللهِ تَعالى ، أو المرأَةِ الصَّالِحَةِ أو الزَّوْجِ الصّالِحِ ، أو الأَوْلادِ الأَبْرارِ ، أو الرِّزْقِ الحَسَنِ ، أَوِ العِلْمِ والمَعرِفَةِ ، أَو العِبادَةِ والطّاعَةِ ، كلُّ هذِهِ يُمْكِنُ أَنْ تَدْخُلَ في الحَسَنَةِ ، ولِذا جاءَتْ في الآيةِ (نَكِرَةً) لِيَدْخُلَ فيها كُلُّ ما يَحْتاجُهُ الإنْسانُ ، وكلُّ ما يَطْلُبُ مِنَ اللهِ حَسَبَ حاجَتِهِ .

وهَؤلاءِ يَطْلُبونَ كَذَلِكَ حَسَنَةً في الآخِرَةِ . وحَسَنَةُ الآخِرَةِ يَدْخُلُ فيها جنّاتُ اللهِ تَعالى ، ونَعيمُها ، وكَذَلِكَ رُؤْيَةُ اللهِ تَعالى يَوْمَ القِيامَةِ .

وَطَلَبُ حَسَنةِ الدُّنْيا يَتطَّلَبُ الأَخْذَ بالأَسْبابِ مِنَ الكَسْبِ الطَّيِّبِ ، وحُسْنِ مُعاشَرَةِ النّاسِ ، والتَّخَلُّقِ بآدابِ الشَّرْعِ . وطَلَبُ حَسَنَةِ الآخِرَةِ يَكونُ بالإيمانِ الخالِصِ ، والعَمَلِ الصّالِحِ والتَّحلّي بالأَخْلاقِ الكريمَةِ .

﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ أي احْفَظْنا مِنَ الشَّهَواتِ والذُّنوبِ المُؤَدِّيَةِ إلى النّارِ ، ولَمْ تَذْكُرِ الآياتُ الفَريقَ الّذي يَعْمَلُ لآخِرَتِهِ فَقط ، ويَئِسَ مِنْ حَظِّ الدُّنيا ، إذ لا يَكادُ يوجَدُ في البَشَرِ مَنْ لا يَطْلُبُ حُسْنَ الحالِ في الدُّنيا . وفي الآيةِ إشْعارٌ بِأَنَّ هذا الغُلوَّ مَذْمومٌ .

أَخْرَجَ البُخاريُّ عَنْ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دعا رَجُلاً مِنَ المُسْلِمينَ قَدْ صارَ مِثْلَ الفَرْخِ المَنْتوفِ ، فقالَ لَهُ : هَلْ كُنْتَ تَدعو اللهَ بِشَيءٍ ؟ قالَ : نَعَمْ ، كنتُ أقولُ : اللهُمَّ ما كُنْتَ مُعاقِبَني بهِ في الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لي في الدُّنْيا ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « سُبْحانَ اللهِ إذا لا تُطيقُ ذَلِكَ ولا تَسْتَطيعُهُ ، فهلاّ قُلْتَ : ربَّنا آتِنا في الدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً ، وقِنا عذابَ النّارِ » ودعا لَهُ فَشَفاهُ اللهُ تَعالى[1] .

ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ مُبَيِّناً نَتيجَةَ هَؤلاءِ :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ ﴾ أُولَئِكَ الّذينَ يَطْلُبونَ سَعادَةَ الدُّنْيا والآخِرَةِ ، والحَسَنَةَ فِيهما ، لَهُمْ نَصيبٌ جَزيلٌ ، وحَظٌّ عَظيمٌ مِنْ جِنْسِ ما كَسَبوا مِنَ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ :

﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ يُوَفّي كُلَّ كاسِبٍ أَجْرَهُ بَحَسَبِ عَمَلِهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُوفّي كُلَّ عامِلٍ عَمَلَهُ بلا إِبْطاءٍ ، وكما يَكونُ الجَزاءُ سَريعاً في الدُّنْيا ، فَكَذَلِكَ يَكونُ في الآخِرَةِ ، واللهُ سَريعُ الحِسابِ ، لا يَحْتاجُ إلى عَدٍّ ولا إلى عَقْدٍ ولا إلى إعمالِ فِكْرٍ . وَقَدْ قال سُبْحانَهُ أَولاً : ﴿ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ ﴾ والمُرادُ هُنا النَّصيبُ في الدُّنْيا ، فَيُعْطيهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ما يُريدُ ، ويُجيبُ دُعاءَهُ ، ثُمَّ قالَ : ﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ وهَذا إشارَةٌ إلى الجَزاءِ في الآخِرَةِ .

وَبَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللهُ تَعالى بِذِكْرِهِ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرامِ ، أَمَرَ بِذِكْرِهِ في مِنىً ، فقالَ تَعالى :

﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ .

﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ ﴾ الأيّامُ المَعْدوداتُ هِيَ أيّامُ مِنىً ، وهِيَ الّتي تُسمّى أيّامَ التَّشريقِ الثَّلاثَةَ ، وهي اليومُ الحادي عَشَرَ والثّاني عَشَرَ والثّالِثَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ ذي الحجَّةِ ، والمَعنى

(١) أخرجه مسلم في باب كراهة الدعاء في الدنيا ، حديث رقم ٢٦٨٨ .

اذكُروا اللهَ تَعالى في هذِهِ الأيّام ، إذْ هِيَ أيّامٌ يَنْبَغي أنْ تُشْغَلَ بِذِكْرِ اللهِ تَعالى وشُكْرِهِ على نِعَمِهِ ، أخْرَجَ الإمامُ مُسْلِمُ عَنْ نَبيشَةَ الهُذْليّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « أيّامُ التَّشريقِ أيّامُ أكْلٍ وشُرْبٍ وذِكرٍ للهِ »[1] .

وأَخْرَجَ البُخاريُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كانَ يُكَبِّرُ بِمِنىً تِلْكَ الأَيّامَ وخَلْفَ الصَّلواتِ ، وعلى فِراشِهِ ، وفي فُسطاطِهِ وفي مَجْلِسِهِ وفي مَمْشاهُ ، في تِلْكَ الأَيّام جَميعاً[2] .

وَفي مِنىً يَنْشَغِلُ الإنْسانُ بِرَمْيِ الجَمَراتِ ، ويُسَنُّ لَهُ أَنْ يُكَبِّرَ اللهَ تَعالى مَعَ كُلِّ حَصاةٍ ؛ إذْ إنَّ الحاجَّ يَرْمي بَعْدَ يَوْم عَرَفة في كُلِّ يَوْمِ الجَمَراتِ الثّلاثَ بَدْءاً بالصُّغرى ثُمَّ الوُسْطى ثُمَّ الكُبْرى ، ويَجِبُ عَلَيْهِ المبيتُ بِمِنىً اللّيلةَ الأُولى والثّانِيَةَ مِنْ ليالي التَّشريقِ ، ومَنْ رَمى في اليومِ الثّاني ، وأرادَ الخُروجَ مِنْ منىً فَلَهُ ذَلِكَ ولا إثْمَ عَلَيْهِ . يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ومَنْ تَأَخَّرَ فَلَمْ يَنْفِرْ وبَقِيَ حَتّى غَرَبَتْ شَمْسُ اليَوْمِ الثّاني ، فَعَلَيْهِ أنْ يَبيتَ في مِنىً حتّى يَرْمِيَ جَمراتِ اليَوْمِ الثّالِثِ .

وهَذا التَّخييرُ ونَفْيُ الإثْمِ عَنْ هذا المُسْتَعْجِلِ ، إنّما هُوَ لِمَنِ اتّقى وتَرَكَ ما نَهى اللهُ تَعالى عَنْهُ ، إذْ إنَّ غايَةَ كُلِّ عِبادَةٍ إنّما هِيَ تَقوى اللهِ تَعالى ، وهَذا إنّما يَكونُ بِذِكْرِ اللهِ تَعالى في الظّاهِرِ والباطِنِ ، ومُراقَبَتِهِ في جَميعِ الأَحوالِ ، حتّى يَكونَ عَبْداً للهِ تَعالى ، ولَيْسَ عَبْداً لأَهْوائِهِ وشَهَواتِهِ ، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ اتَّقوهُ في حالِ أدائِكُمْ للمَناسِكِ ، وفي جَميعِ أَحْوالِكُمْ ، وكونوا على عِلْمٍ يقينيٍّ بِأَنَّكُمْ تُجْمَعونَ وتُساقونَ إلى اللهِ تَعالى يَوْمَ القِيامَةِ ، فَيُجازيكُمْ على أعْمالِكُمْ .

وتُؤَكِّدُ الآياتُ الكَريمَةُ على وُجوبِ تَقوى اللهِ ، وتُكْثِرُ مِنْ أَمْرِ الإنْسانِ بِذِكْرِ اللهِ تَعالى ، وهَذا كُلُّهُ يَدُلُّ على أَنَّ المُهِمَّ في العِبادَةِ ذِكْرُ اللهِ تَعالى ، الّذي يُصْلِحُ النُّفوسَ ، ويُنيرُ الأَرْواحَ حتّى تَتوجَّهَ إلى اللهِ وتَتّقيَ الشُّرورَ والمَعاصي ، فيكونُ صاحِبُها مِنَ المُتَّقينَ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الغُلوُّ في الدّينِ والتَّشَدُّدُ فيهِ مَذْمومٌ ، ولَيْسَ مِنْ سُنَنِ الفِطْرَةِ .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصوم في باب تحريم أيام التشريق رقم ١١٤١ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب باب التكبير بمنى في معلقاته في ذلك ١/ ٣٣٠ طبعة دار ابن كثير ، بيروت ، سنة ١٩٨٧ .

٢ـ العاقِلُ مَنْ يَعْمَلُ لِدُنْياهُ كَأَنَّهُ يَعيشُ أبداً ، ومَنْ يَعْمَلُ لآخِرَتِهِ كَأَنَّهُ يَموتُ غَداً .

٣ـ المُتَوَجِّهُ إلى اللهِ تَعالى مُتَضرِّعاً إليهِ بِقَلْبٍ سَليمٍ مُنيبٍ ، يُجيبُ اللهُ تَعالى دُعاءَهُ ويُعْطيهِ سُؤالَهُ .

٤ـ أيّامُ الحَجِّ كُلُّها أيّامُ ذِكْرٍ ودُعاءٍ وتَضَرُّعٍ إلى اللهِ تَعالى .

التقويم

أَجِبْ عَنِ الأسئلَةِ التّالِيَةِ :

١ـ الحَجُّ فَريضَةٌ قَديمَةٌ ، ما الّذي أَدْخَلَهُ أَهْلُ الجاهِليّةِ إلى تِلْكَ الفَريضَةِ فَأَخْرَجَتْها عَنْ شَرْعِ اللهِ تَعالى .

٢ـ ما الواجِبُ على العَبْدِ فِعْلُهُ إذا فَرَغَ مِنْ أداءِ مَناسِكِ الحَجِّ ؟

٣ـ كَيْفَ يَكونُ ذِكْرُ العَبْدِ لِرَبِّهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ؟

٤ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ عَدَمِ ذِكْرِ الحَسَنَةِ مَعَ الفريقِ الأَوَّلِ وذِكْرِها مَعَ الفريقِ الثّاني ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بِحَسَنَةِ الدُّنْيا وحَسَنَةِ الآخِرَةِ ؟

٦ـ ما النَّتيجَةُ الّتي أعدَّها اللهُ تَعالى للفَريقِ الثّاني ؟

٧ـ أَمَرَ اللهُ بِذِكْرِهِ في أيّامٍ معدوداتٍ . ما تِلْكَ الأَيّامُ ؟

٨ـ بِمَ يَنْشَغِلُ الحُجّاجُ في مِنىً ؟

٩ـ كَمْ يوماً يَمْكُثُ الحُجّاجُ في مِنىً ؟ وهَلْ يَجوزُ للحاجِّ أَنْ يَخْتَصِرَ مِنْها ؟ وما دَليلُ ذلِكَ ؟

١٠ـ خَيَّرَ اللهُ تَعالى الحاجَّ في أيّامِ مِنىً بَيْنَ أَنْ يَقْضِيَ فيها يَوْمَيْنِ أو ثَلاثةً ؟ ما الحِكْمَةُ مِنَ التَّخْييرِ ؟ ولِمَنْ هذا التَّخْييرُ ؟

١١ـ اسْتَنْتِجِ السَّبَبَ الّذي لأَجْلِهِ يَرِدُ الأَمْرُ بالتَّقوى كَثيراً في هذِهِ الآياتِ .

نشاط

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الّتي أَمَرَتِ الإنْسانَ أَنْ يَعْمَلَ لآخِرَتِهِ ، ولا يَنْسى حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيا .

* * *

الدرسُ الخامسَ عشرَ

سورةُ البقرةِ ـ القسمُ الحادي والستون

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

معاني المفرداتِ :

أَلَدُّ الخِصامِ	أشدُّ النّاسِ خُصومةً ومُجادَلةً .
حَسْبُهُ	كافيهِ .
المِهادُ	الفِراشُ والمَضْجَعُ ، وهُوَ هُنا جهَنَّمُ .

التَّفسيرُ :

ركَّزَتِ الآياتُ السّابقَةُ على التَّقوى ، والتَّقوى مَحِلُّها القَلْبُ ، وما دامَتْ كَذلِكَ فَلا يطَّلِعُ على إخلاصِ الإنْسانِ إلاّ اللهُ تَعالى ، ولِذَلِكَ جاءَتْ هَذهِ الآياتُ لِتُحَدِّثَنا عنْ أصنافِ النّاسِ بالنِّسْبَةِ لِهذا الأمْرِ ، فَمِنْهُمُ المُنافِقونَ الّذينَ يُظْهِرونَ غَيْرَ ما يُبْطِنونَ ، ومِنْهُمُ المُخْلِصونَ في أعْمالِهِمُ الّذينَ اسْتَوى ظاهِرُهُمْ وباطِنُهُمْ . يقولُ تَعالى :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ .

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تَتحدَّثُ الآياتُ عَنْ فَريقِ المُنافقينَ وقَدْ ذَكَرَتْ لَهُمْ بَعْضَ الصِّفاتِ :

الصِّفَةُ الأُولى : ﴿ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ هَذا الفَريقُ ، يَروقُ للنّاسِ مَنْطِقُهُمْ ، ويُعْجِبُهُمْ بَيانُهُمْ ، ويَحْسُنُ عِنْدَهُمْ مَقالُهُمْ ، فالنَّاسُ مُعْجَبونَ بِكلامِهِمْ ، إذْ إنَّهُمْ يُنَمِّقونَ كلامَهُمْ ، ويَسْتَخْدِمونَ العباراتِ المُحَبَّبَةَ إلى النُّفوسِ ـ فَيَسْحَرونَ النّاسَ ، ويُوهِمونَهُمْ بِأَنَّهُمْ صادِقونَ في إيمانِهِمْ ، وأَنَّهُمْ مُتَّقونَ للهِ في سِرِّهِم وعَلانِيَتِهِمْ ، وهَذا إنّما يَكونُ في الدُّنيا ، لأَنَّ النَّاسَ لا تَحْكُمُ إلاّ بالظّاهِرِ ، أمّا في الآخِرَةِ ، فَلَنْ يُعْجِبَكَ أَمْرُهُمْ ؛ لأَنَّ اللهَ تَعالى سَيَفْضَحُهُمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا تَخفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ .

الصِّفَةُ الثّانِيَةُ : ﴿ وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ ﴾ أي : هُوَ يَقْرِنُ هَذا الكَلامَ المَعْسولَ ، وادِّعاءَهُ الإيمانَ والصَّلاحَ بالحَلْفِ باللهِ واليَمينِ المُغَلَّظَةِ ، بأَنَّ كُلَّ ما يَقولُهُ ويَفْعَلُهُ ، إنّما هُوَ مُوافِقٌ لِما في قَلْبِهِ ، وهُمْ يَضْطَرونَ لِلحَلْفِ ، إذا رَأَوْا مِنَ النّاسِ مَنْ يُشَكِّكُ في صِحَّةِ كَلامِهِمْ .

الصِّفَةُ الثّالِثَةُ : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ وهُو الشَّديدُ في خُصومَتِهِ وعَداوَتِهِ ، فَهؤلاءِ الّذينَ يَحْلِفونَ الأَيْمانَ المُغَلَّظَةَ على صِدْقِ كَلامِهِمْ ، يُجادِلونَ بالباطِلِ بِقُوَّةٍ وعُنْفٍ ومُغالبَةٍ ، فَهذا الإنْسانُ قَوِيُّ العارِضَةِ في الجَدَلِ ، لا يُعْجِزُهُ أنْ يَخْتَلِبَ عُقولَ النّاسِ ويَغُشَّهُمْ بِما يُظْهِرُ مِنَ المَيْلِ إلَيْهِمْ وإسْعادِهِمْ في شُؤونِهِمْ ومَصالِحِهِمْ ، عَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها ، قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ أبْغَضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الأَلَدُّ الخَصْمُ »[1] .

هذِهِ الصِّفاتُ ـ إذَنْ ـ تَتَعَلَّقُ بِأَقوالِ هَؤلاءِ المُنافِقينَ وهِيَ كَما رَأَيْنا : حُسْنُ أقوالِهِمْ بِحَيْثُ يُعْجَبُ بِها السّامِعُ ، وإشْهادُ اللهِ على صِدْقِهِ وحُسْنِ قَصْدِهِ ، وقُوَّةِ العارِضَةِ في الجَدَلِ الّتي يَحْتجُّ بها المُنْكِرُ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ للتَّحَدُّثِ عَنْ سوءِ حالِهِمْ وفَسادِ أَعْمالِهِمْ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ .

الصِّفَةُ الرّابِعَةُ : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ .

إنَّ هَؤلاءِ المُنافقينَ الّذينَ يَدّعي الواحِدُ مِنْهُمُ الصَّلاحَ ، والإصْلاحَ وحبَّ الخَيْرِ أَمامَ النّاسِ ، إذا غابَ عَنِ النّاسِ الّذينَ خَدَعَهُمْ ، وابْتَعَدَ عَنْهُم ، فإنَّهُ يسْعى في الأَرْضِ بالفَسادِ ، ذَلِكَ أَنَّهُ لا هَمَّ لَهُ إلاّ الإغْراقُ في الشَّهَواتِ واللَّذاتِ ، فَهُوَ لأَجْلِها يُعادي أَهْلَ الحَقِّ ويُؤْذيهِمْ ، ولا يَكونُ هَمُّهُ إلاّ

(١) أخرجه الإمام مسلم في الصحيح في باب قول الله تعالى : (وهو ألد الخصام) ، حديث رقم ٢٣٢٥ .

الكَيْدُ للنّاسِ ومُحاوَلَةُ الإيقاعِ بِهِمْ ، فَهُوَ يُفْسِدُ باعْتِدائِهِ على الأمْوالِ والأَعراضِ ، هَذا الصِّنْفُ مِنَ النّاسِ يَعيثونَ فَساداً في أيِّ مَكانٍ يَحِلّونَ فيهِ ، وهُمْ دائبونَ على الإفسادِ مُسْتَرْسِلونَ فيهِ ، حتّى لَوْ أدّى إلى إهلاكِ الحَرْثِ والنَّسْلِ . والحَرْثُ هُوَ الزَّرْعُ والثِّمارُ ، والنَّسْلُ هو ما تَناسَلَ مِنَ الحَيوانِ ، فَهُمْ يَقْتلونَ الزَّرْعَ ويَقْتلونَ البَهائِمَ .

إهْلاكُ الحَرْثِ والنَّسْلِ ـ إذن ـ كِنايَةٌ عَنْ إتْلافِهِ لما بِهِ قِوامُ أحوالِ النّاسِ ومَعيشَتِهِمْ . وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ أيْ : إنَّ اللهَ لا يَرْضى عَمَّنْ يَكونُ منهُ الإفْسادُ في الأَرْضِ ، ويُظْهِرُ للنّاسِ الكلامَ الحَسَنَ وهُوَ يُبْطِنُ لَهُمُ السُّوءَ .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ .

الصِّفَةُ الخامِسَةُ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ إنَّ ذَلِكَ المُفْسِدَ إذا أُمِرَ بِمَعْروفٍ أوْ نُهِيَ عَنْ مُنْكَرٍ ، أَسْرَعَ إليهِ الغَضَبُ ، وعَظُمَ عَلَيْهِ الأَمْرُ ، واسْتَولَتْ عَلَيْهِ حَمِيَّةُ الجاهِليَّةِ ، وأَخذَتْهُ الكِبرياءُ ، ولَكِنَّ تِلْكَ العِزَّةَ الَتي تَكونُ مِنْ هَؤلاءِ ليستِ المَطلوبَةَ لِكَوْنِها مُلْتَبِسَةً بالإِثْمِ الّذي اسْتَحوَذَ على قُلوبِهِمْ فَأَنساهُمْ كُلَّ ما يوصِلُ إلى الصَّلاحِ والتَّقوى .

إنَّ المُفسدينَ يَنْفِرونَ دائِماً مِمَّنْ يأْمُرُهُمْ بالصَّلاحِ ، إذْ يَروْنَ في ذلِكَ تَشهيراً بِهِمْ وإعلاناً لِمفاسِدِهِمُ الّتي يَسْتُرونَها بزُخْرُفِ القَوْلِ ، وتَدَخُّلاً في شؤونِهِمْ وحَجْراً على تَصَرُّفاتِهِمْ .

وبَعْدَ أنْ ذَكَرَتِ الآياتُ هذهِ الصِّفاتِ للمُنافِقينَ ، ذَكَرَتْ سوءَ عاقِبَتِهِمْ ، فقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ أي : هِيَ مَصيرُهُ ، وكَفاهُ عذابُها جَزاءً على كِبْريائِهِ وحَمِيَّتِهِ للجاهِلِيَّةِ ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ والمِهادُ : هُوَ الفِراشُ الّذي يأوي إليْهِ الإنْسانُ للرّاحَةِ ، واللّامُ واقِعَةٌ في جَوابِ قَسَمٍ مَحْذوفٍ ، فهُوَ سُبْحانَهُ يُقْسِمُ تَأكيداً للوَعيدِ ، بأَنَّ هذا الّذي أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثْمِ ، سَيَكونُ مِهادُهُ ومأواهُ النّارَ ، فَهِيَ بِئْسَ الفِراشُ ، إذ لا راحَةَ أبَداً ولا اطْمِئنانَ .

وبَعْدَ أَنْ ذَكَرَتِ الآياتُ صِفاتِ هذا الفَريقِ الّذي أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثْمِ ، أَتْبَعَتْها بِذِكْرِ صِفاتِ المؤْمنينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

أي : مِنَ النّاسِ فَريقٌ يَبيعُ نَفْسَهُ للهِ تَعالى لا يَبغي ثَمَناً لَها غَيْرَ مَرْضاتِهِ تَعالى .

وقَدْ جاءَ هَذا الوَصْفُ في مُقابَلَةِ أوْصافِ الفَريقِ الأوَّلِ ، وذَلِكَ أنَّ مَنْ يَبيعُ نَفْسَهُ للهِ ، لا يَتحرّى إلاّ العَمَلَ الصالِحَ وقَوْلَ الحَقِّ ، مَعَ إخْلاصِ القَلْبِ ، فَلا يَتَكَلَّمُ بِلِسانينِ ، ولا يُقابِلُ النّاسَ بِوَجْهَينِ ، وشَرُّ النَاسِ ذو الوَجْهَيْنِ ، وهُو لا يُؤْثِرُ على ما عِنْدَ اللهِ تَعالى عَرَضَ الحياةِ الدُّنيا .

إنَّ اللهَ تَعالى رَؤوفٌ بِهَؤلاءِ إذْ يُجازيهِمْ على أعمالِهِمْ ، مَهْما قَلَّتْ ، نَعيماً دائِماً ، إذ هُوَ سُبْحانَهُ

لا يُكلِّفُنا إلاّ ما في وسْعِنا ، ومَعَ ذَلِكَ فَنِعَمَهُ عَلَيْنا عَظيمَةٌ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ رَؤوفٌ بِعِبادِهِ عَظيمُ الرَّحْمَةِ بِهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ فَسادُ المُنافِقِ ظاهِرٌ لِكَثيرٍ مِنَ النّاسِ ، فإنْ خَفِيَ على أحدٍ ، فإنَّهُ لا يَخْفى على الكَثيرينَ .

٢ـ المُؤْمِنُ كَيِّسٌ فَطِنٌ ، فَعَلَيْهِ أنْ لا يَغْتَرَّ بِزُخْرُفِ القَوْلِ ومَعْسولِهِ .

٣ـ يَنْبَغي على الإنسانِ أنْ يَتَحرَّى الصِّدْقَ في القَوْلِ والعَمَلِ دائِماً ، حتّى لا يَكونَ مِنْ زُمْرَةِ المُنافِقينَ .

التَّقْويمُ

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ عَمَّنْ تَتَحدَّثُ هَذِهِ الآياتُ ؟

٢ـ ذَكَرَتِ الآياتُ بَعْضَ الصِّفاتِ للمُنافقينَ ، ومِنْها ﴿ يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ . كَيْفَ يَسْتَولي المُنافِقونَ على إعجابِ النّاسِ بِأَقوالِهِم ؟

٣ـ ما مَعْنى ﴿ وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ ﴾ ؟ ولِمَ يُضْطَرُّ المُنافِقونَ للْحَلْفِ ؟

٤ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾.

٥ـ ذَكَرَتِ الآياتُ صِفَتَيْنِ تَدُلاّنِ على سوءِ أَعمالِ المُنافقينَ ، اذْكُرْ هاتينِ الصِّفَتينِ .

٦ـ كَيْفَ يُفْسِدُ المُنافِقُ في الأَرْضِ ؟ وما المقْصودُ بِإهلاكِ الحَرْثِ والنَّسْلِ ؟

٧ـ على ضَوْءِ الآيةِ القُرْآنِيَّةِ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ ﴾ قارِنْ بَيْنَ المُؤْمِنِ والمنافِقِ ، مُدَعِّماً إجابَتَكَ بِحَديثٍ نَبَوِيٍّ شريفٍ تَحْفَظُهُ .

٨ـ ما النَّتيجَةُ الحَتْمِيَّةُ الّتي أَعَدَّها اللهُ للمُنافِقينَ ؟

٩ـ ذَكَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى في مُقابَلَةِ أوْصافِ المُنافقينَ وصْفاً للمُؤْمنينَ ، ما هَذا الوَصْفُ ؟ وعَلامَ يَدُلُّ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ صِفاتِ المُنافقينَ والحَديثَ الدّالَّ على ذَلِكَ .

٢ـ هَلْ تَتَنافى هذهِ الآيةُ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ مَعَ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ السَّادسَ عَشَرَ

سورةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثّاني والسّتونَ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

السِّلْم : التَّسْليمِ والانْقيادِ ، ويُقْصَدُ بِهِ هُنا الدّينُ .

كافّةً : جَميعاً .

زَلَلْتُمْ : الزَّلَلُ لُغَةً : عَثْرَةُ القَدَمِ ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في الانْحرافِ عَنِ الحَقِّ .

البَيِّناتِ : الحُجَجِ والأَدِلَّةِ الواضِحاتِ .

العَزيز : الّذي لا يُغْلَبُ .

الغَمامَ : السَّحابَ الأَبيَضَ الرَّقيقَ .

قُضِيَ الأَمْرُ : تَمَّ أَمْرُ إِهْلاكِهِم .

التَّفسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنْ فريقينِ مِنَ النّاسِ ، فَريقٍ مُنافِقٍ وفَريقٍ مُؤْمِنٍ ، وتَتَحَدَّثُ هذهِ الآياتُ عَنْ دَعْوَةِ النّاسِ إلى الاستِجابَةِ للهِ تَعالى ، لِيَكونوا يداً واحِدَةً على أَعْدائِهِمْ . قالَ تَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ تُخاطِبُ الآياتُ المُؤْمنينَ بهذا النِّداءِ المُحَبَّبِ إلى نُفوسِهِمْ لإلْهابِ مَشاعِرِهِمْ ، ولِيَلْتَزِموا بِما يأْمُرُهُمْ بهِ سُبْحانَهُ ، فَيَقولُ لَهُمْ سُبحانَهُ : ادخُلوا في الإسْلام ، والْتَزموا بأَحْكامِهِ كُلِّها ، الّتي أساسُها الاسْتِسلامُ والخُضوعُ للهِ تَعالى ، والإخْلاصُ لَهُ ، ودوموا على الالْتِزام بالإسْلام ، ولا تَخْرجوا عَنْ شَيءٍ مِنْ شرائِعِهِ ، ولا تنازَعوا فيما بَيْنَكُمْ لِمُجَرَّدِ اخْتلافِكُمْ في شَيءٍ مِنَ الفُروع ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَكونوا مُتَحابِّينَ غَيْرَ مُتباغِضينَ ومُجْتَمعينَ غَيْرَ مُتفرِّقينَ ، وعَلَيْكُمْ أَنْ تُسالِموا مَنْ سالَمَكُمْ مِنْ غَيْرِ المُسْلِمينَ ، وتُحاربوا مَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ ، فإنَّ الدِّينَ الإسْلاميَّ ما جاءَ لإعلانِ الحَرْبِ ، والمُنازَعاتِ والخِصام ، إنّما هُوَ دينُ هِدايَةٍ . وقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ : « لا تَرْجعوا بَعْدي كُفّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ أَعْناقَ بَعْضٍ »[1] . ولَكِنَّ المُسْلِمينَ اليَوْمَ قَدْ خالَفوا أمْرَ اللهِ تَعالى وتَنازعوا وتفرَّقوا ، واخْتَلَفوا في أُمورِ دينِهِمْ ، لَيْسَ في الفَرْعِيّاتِ فَحَسْبُ ، ولكِنْ ـ والعِياذُ باللهِ ـ في الأُصولِ ، فلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاّ باللهِ .

ونَرى المذاهِبَ والأحْزابَ الكَثيرَةَ في وَقْتِنا ، وكُلٌّ يَتَعَصَّبُ لِمَذْهَبِهِ أو حِزْبِهِ ويُعادي بَقِيَّةَ المُسْلِمينَ ، وقَدْ يُكفِّرُ مَذْهَبٌ مَذْهباً ، ويُكَفِّرُ النّاسُ بَعْضَهُمْ بعْضاً ، وهذا لَيْسَ مِنَ الدّينِ .

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ بِعَدَمِ اتِّباعِ الشَّيْطانِ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ أيْ : لا تَتَّبِعوا سُبُلَ الشَّيْطانِ الكَثيرَةَ الّتي تُغويكُمْ فَتَجْعَلُكُمْ تَتفرَّقونَ وتَخْتَلِفونَ فيما بيْنَكُمْ ، وتَتنازَعونَ .

وَسُبُلَ الشَّيْطانِ هِيَ كُلُّ ما يُخالِفُ طَريقَ الخَيْرِ والمَصْلَحَةِ ، فَقَدْ قالَ تَعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

إنَّ خُطُواتِ الشَّيْطانِ كَثيرةٌ ، فَهُوَ يُسَوِّلُ للنّاسِ المَنافِعَ والمَصالِحَ في التَّفَرُّقِ والخِلافِ ، ومِنْ خُطواتِهِ طُرُقُ الفواحِشِ والمُنْكَراتِ كُلِّها ، كَالتَّفريقِ بَيْنَ الأَزْواجِ ، والآباءِ والأَبْناءِ والإِخْوَةِ .

وَوَصَفَ القُرآنُ الشَّيْطانَ بأَنَّهُ عَدوٌّ مُبينٌ ، لأَنَّهُ ظاهِرُ العَداوةِ ، فإنَّ جَميعَ ما يَدعو إليهِ ظاهِرُ البُطلانِ ، بَيِّنُ الضَّرَرِ لِمَنْ تَأَمَّلَ فيهِ وتَفَكَّرَ ، فَقَدْ أَقْسَمَ لأنْ يَقْعُدَ في طريقِ النّاسِ ويُغويَهُمْ ، ويُضِلَّهُمْ عَنْ طَريقِ الحَقِّ ، ويُمَنِّيَهُمْ . وقَدْ لا يُدْرِكُ الإنْسانُ عَداوةَ الشَّيْطانِ في أوَّلِ الأَمْرِ ، ولَكنَّهُ عِنْدَما يَقَعُ في الضَّلالِ ويَهيمُ فيهِ يُدْرِكُ ذلِكَ ، ومِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنا أنْ بَيَّنَ لَنا وحَذَّرَنا مِنَ الشَّيْطانِ .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ١٢١ باب : الانصات للعلماء . ومسلم ، حديث رقم ٦٥ من كتاب الإيمان .

﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

أيْ : إنِ ابْتَعَدْتُمْ عَنْ طريقِ الحَقِّ ، وعَدَلْتُمْ عَنْهُ إلى الباطِلِ ، بَعْدَ ما ظَهَرَتْ لَكُمُ الأَدلَةُ الّتي تُفَرِّقُ بَيْنَ الصّوابِ والخَطَأ ، والّتي تَدْعوكُمْ إلى طريقِ الحَقِّ ، فاعْلَموا أَنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُقْهَرُ ، ولا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ ، ولا يُعْجِزُهُ الانْتِقامُ مِنْ كُلِّ مَنْ زَلَّ ، وهُوَ حَكيمٌ لا يَتْرُكُ ما تَقْتَضيهِ المَصْلَحَةُ ، وإنَّما يَضَعُ الأُمورَ في مَواضِعِها ، وهذا نِهايَةٌ في الوَعيدِ ، لأَنَّهُ يَجْمَعُ مِنْ ضُروبِ الخَوْفِ ما لا يَجْمَعُهُ الوَعيدُ بِذِكْرِ العِقابِ ، وهذِهِ الآيَةُ كَما تَشْتَمِلُ على الوَعيدِ ، فَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ كَذَلِكَ على الوَعْدِ ، فَكَما يَحْسُنُ مِنَ الحَكيمِ إيصالُ العَذابِ إلى المُسيءِ ، فَكَذَلِكَ يَحْسُنُ منهُ إيصالُ الثّوابِ إلى المُحْسِنِ .

وَبَعْدَ أنْ أَمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمنينَ بالدُّخولِ في الإسْلامِ كافَّةً ، ونَهاهُمْ عَنِ الزَّلَلِ عَنِ الطّريقِ المُسْتَقيمِ ، أَتْبَعَ ذلكَ بِتَهْديدِ أولئكَ الّذينَ يَمْتَنِعونَ عَنِ الدُّخولِ في الإسْلامِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

أيْ : هَلْ يَنْتَظِرُ المُكَذِّبونَ أنْ يَأْتِيَ اللهُ بِما تَوَعَّدَهُمْ بهِ ، لامتِناعِهِمْ مِنَ الدُّخولِ في الإسْلامِ ، وذَلِكَ يَوْمَ القيامَةِ عِنْدَما يَأتي اللهُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ الكَثيفِ العَظيمِ ، حتّى يُحاسِبَهُمْ على أَعْمالِهِمْ ، وتَأْتيَ الملائِكَةُ وتُنَفِّذُ ما قَضاهُ اللهُ تَعالى يَومئِذٍ .

والحِكْمَةُ مِنْ نُزولِ العَذابِ في الغَمامِ ، إنْزالُهُ على النّاسِ فَجْأَةً دونَ سابِقِ إنْذارٍ ، ومَعَ أَنَّ الغَمامَ مَظَنَّةُ الرَّحْمَةِ ، إلاّ أنَّهُ إذا نَزَلَ منهُ العَذابُ كانَ أَفْظَعَ وأَشَدَّ هَوْلاً ، ولِذا عَلى الإنْسانِ أنْ يُبادِرَ بالتَّوْبَةِ إلى اللهِ ، حتّى لا يُفاجِئَهُ عذابُ اللهِ ووَعيدُهُ وهو غافِلٌ لاهٍ .

﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أَيْ : أنَّ اللهَ تَعالى أَتَمَّ أَمْرَ العِبادِ وَحِسابَهُمْ ، فَهُوَ حينئذٍ يُثيبُ الطّائِعَ ويُعاقِبُ العاصي ، ولَيْسَ للعاصي أيُّ فُرْصَةٍ للتَّوبَةِ وتَدارُكِ ما فاتَهُ ، وخُتِمتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ إليْهِ وَحْدَهُ سُبْحانَهُ لا إلى غَيْرِهِ تُرْجَعُ الأُمورُ ، وسَيُجازي سُبْحانَهُ الّذين أساءوا بِما عَمِلوا ، ويُجازي الّذين أَحْسنوا بالحُسْنى .

وانتُقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ أنَّ عَدَمَ إيمانِ الكَثيرينَ ، لَيْسَ سَبَبُهُ نَقْصُ الأَدِلَّةِ ، وإنّما سَبَبُهُ الجُحودُ والحَسَدُ ، واتّباعُهُمْ لأَهوائِهِمْ وشَهَواتِهِمْ ، وتَفْضيلُ ذَلِكَ على الهِدايةِ ، ولَيْسَ أدلُّ على ذَلِكَ مِمّا كانَ مِنْ بَني إسْرائيلَ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾ .

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ ﴾ أيْ اسْأَلْ يا مُحمَّدُ هؤلاءِ المُعاصِرينَ لَكَ مِنْ بني إسرائيلَ عَنِ الآياتِ الكَثيرَةِ ، الّتي آتاها اللهُ تَعالى لأَسْلافِهِمْ ، ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أنْكَروها ، فأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنوبِهِمْ ، وحَلَّ بِهِمُ العِقابُ ، فَهَلْ مِنْ مُعْتَبِرٍ ، وهَلْ مِنْ مُتَّعِظٍ ؟

﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وفي هَذا وعيدٌ وتَهْديدٌ لِمَنْ يُغَيِّرُ نِعْمَةَ اللهِ تَعالى بَعْدَ ما وصَلَتْ إليهِ ، فَيَكْفُرُ بها مَعَ أنَّها تَدْعوهُ إلى الإيمانِ ، وتَكونُ النِّعْمَةُ سَبَباً في ضَلالِهِ ، بَدَلاً مِنْ أَنْ تَكونَ مِنْ أسْبابِ سَعادَتِهِ ، فَمَنْ كانَ كَذلِكَ فإنَّ اللهَ تَعالى سَيُعاقِبُهُ أشَدَّ العِقابِ ، وهَذا جزاءٌ لِكُلِّ مَنْ حادَ عَنْ سُنَّةِ اللهِ تَعالى ، وبَدَّلَ وغَيَّرَ في شَريعَتِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ طريقُ الحَقِّ واحِدٌ لا يَتَعدَّدُ ، وهُوَ الوِحْدَةُ والإسْلامُ ، وطُرُقِ الشَّيْطانِ تُثيرُ التَّفَرُّقَ والخِصامَ .

٢ـ الأُمَمُ لا يُمْكِنُ أنْ تَقومَ لها قائِمَةٌ ، إلاّ إذا أقامَتِ العَدْلَ بَيْنَ أفْرادِها .

٣ـ إذا لَمْ يَتَحَلَّ النّاسُ بالأَخْلاقِ الفاضِلَةِ ، ولَمْ يَنْهَجوا النَّهْجَ السَويَّ ، فَلَنْ يُوَفَّقُوا في دُنياهُمْ وأُخْراهُمْ .

٤ـ على الإنْسانِ أنْ يُبادِرَ ويُسارِعَ بالتَّوْبَةِ إلى اللهِ قَبْلَ أَنْ يُفاجِئَهُ وعيدُ اللهِ وعَذابُهُ ، أوْ يُفاجِئَهُ المَوْتُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ خاطَبَتِ الآياتُ الكَريمَةُ المُؤْمنينَ آمِرَةً لَهُمْ أَنْ يَدْخلوا في أَمْرٍ ما ، ما هذا الأَمْرُ ؟

٢ـ ما المَقْصودُ بالسِّلْمِ ؟ وكَيْفَ يَدْخُلُ فيهِ المؤْمنونَ ؟

٣ـ كيْفَ تَرى حالَ المُسْلِمينَ اليَوْمَ ؟ هَلْ هُمْ مُلْتَزِمونَ بِأُمورِ الإسْلامِ ؟ بيِّنْ ذَلِكَ .

٤ـ ما معْنى ﴿خُطُواتِ ٱلشَّيطَانِ﴾ ؟ وما تِلْكَ الخُطواتُ ؟

٥ـ لِماذا وَصَفَ القُرْآنُ الكَريمُ إبْليسَ بأَنَّهُ عَدوٌّ مُبينٌ ؟

٦ـ ما عُقوبَةُ مَنِ ابْتَعَدَ عَنْ طريقِ الحَقِّ ؟ وما المَقْصودُ بالزَّلَلِ ؟

٧ـ هدَّدَتِ الآياتُ الّذينَ يَمتَنِعونَ عَنِ الدُّخولِ في الإسْلامِ ويَسيرونَ في طريقِ الزَّلَلِ ، اذْكُرْ نَصَّ الآيةِ القُرْآنيّةِ الدّالّةِ على هذا التَّهديدِ .

٨ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ نُزولِ العَذابِ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ عُقوبَةً للكافِرينَ ؟

٩ـ بيِّنِ السَّبَبَ الّذي يَجْعَلُ كَثيرينَ يَمْتَنِعونَ عَنِ الدُّخولِ في الإسْلامِ .

١٠ـ اسْتَنْتِجْ ما يَدُلُّ عليْهِ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ .

نَشاطٌ :

ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ طَريقَيْنِ مِنْ طُرُقِ الشّيْطانِ لإفسادِ النّاسِ .

الدَّرسُ السَّابِعَ عَشَرَ

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ الثّالثُ والسّتونَ

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَدات :

زُيِّنَ : التَّزيينُ : جَعْلُ الشَّيءِ شديدُ الحُسْنِ .

يَسْخَرونَ : يَسْتَهْزِئونَ .

أُمَّةً : قوْماً .

بَغْياً : ظُلْماً وحَسَداً .



هذِهِ الآياتُ جاءَتْ لِتَتَحدَّثَ عَنْ طَبيعَةِ الكافِرينَ الجاحِدينَ ، وتَذْكُرَ الأَسْبابَ الّتي حَمَلَتْهُمْ على البَقاءِ على الكُفْرِ ، والابْتِعادِ عَنْ دينِ اللهِ تَعالى الحَقِّ .

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾ .

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي : إنَّ الحياةَ الدُّنيا قَدْ زُيِّنَتْ للكافِرينَ ، فَأَحبّوها ، وتَهالَكوا

عَلَيْها ، واسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمْ مُتَعُ الدُّنيا وشَهَواتُها حتّى مَلَكَتْ عَلَيْهِمْ تَفْكيرَهُمْ ، والفِعْلُ (زُيِّنَ) مَبْنِيٌّ لِلمَجْهولِ ؛ إذْ قَدْ يَكونُ المُزَيِّنَ هُوَ اللهُ تَعالى ، وقَدْ يَكونُ الشَّيْطانُ بِوَسْوَسَتِهِ وإغْوائِهِ ، وقَدْ يَكونُ شَياطينُ الإنْسِ . وقَدْ خُصَّ الّذينَ كَفَروا بالذِّكْرِ ، مَعَ أنّ مُتَعُ الدُّنيا وشَهَواتِها تُزَيَّنُ لِغَيْرِهِمْ كَذلِكَ مِنَ المُسْلِمينَ ، وذَلِكَ لأنَّ الكافِرينَ يَقْبَلونَ هَذا التَّزيينَ غالِباً ويُقْبِلونَ على الدُّنيا ، مَعَ إعْراضِهِمْ عَنِ الآخِرَةِ ، فَهؤلاءِ الكُفّارُ تَمَلَّكَتْهُمُ الزِّينَةُ في هذهِ الدُّنْيا لأَنَّهُمْ لا يَعْتَقِدونَ صِحَّةَ غَيْرِها ، فَقَدْ صَرَفوا قُلوبَهُمْ وعُقولَهُمْ عَنِ التّفكُّرِ في آياتِ اللهِ تَعالى سواءٌ أكانَتْ مَرْئِيَّةً في الكَوْنِ أمْ مَقْروءَةً في الكِتابِ الكَريمِ ، وبِسَبَبِ تَزيينِ الحياةِ الدُّنْيا لَهُمْ ، تَجْدُ هَؤلاءِ مُتَفرِّقينَ دائِماً ، لا يَجْتَمِعونَ على شَيْءٍ .

﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أيْ : يَسْتَهْزِىءُ الكافِرونَ مِنَ المُؤْمِنينَ ، وذَلِكَ لِزُهْدِهِمْ أي : المُؤْمِنينَ ، في الحياةِ الدُّنْيا ، وعَدَمِ تَمَتُّعِهِمْ بِمَلَذّاتِها وشَهَواتِها . وهُمْ يَعْتَقِدونَ أَنَّ هَؤلاءِ المُؤْمِنينَ يُضَيِّعونَ أنْفُسَهُمْ ويُتْعِبونَها بِتِلْكَ العِباداتِ الّتي يَقومونَ بِها، وذَلِكَ الحِرْمانِ لأَجْسادِهِمِ مِنْ مُتَعِ الحياةِ.

إنّ الفِعْلَ (زُيِّنَ) جاءَ ماضِياً ، وذَلِكَ لأَنَّ التَّزيينَ قَدْ وَقَعَ وفُرِغَ مِنْهُ ، أمّا الفِعْلُ (يَسْخَرونَ) فجاءَ مُضارِعاً ، وذَلِكَ لِتجدُّدِ هذا الأَمْرِ وحُدوثِهِ مِنْهُمْ دائِماً ، كُلّما تَسنّى لَهُمُ الأَمْرُ يَسْخَرونَ مِنَ المُؤْمنينَ . وقَدْ رَدَّتِ الآياتُ على أُولئِكَ السّاخِرينَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ ﴾ إنَّ الّذينَ اتَّقوا اللهَ تَعالى ، فامْتَثَلوا أَوامِرَهُ ، وصانوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ كُلِّ سوءٍ ، وآثَروا الآخِرَةَ على الحياةِ الدُّنْيا الفانِيَةِ ، أولئِكَ فَوْقَ الكافِرينَ ، لأنَّ تَقواهُمْ جَعَلَتْهُمْ في عِلّيينَ ، أمّا الكافِرونَ فَكُفْرُهُمْ جَعَلَهُمْ أَسْفَلَ سافِلينَ .

وَقَدْ جاءَ الوَصْفُ (الّذينَ اتَّقوا) ولَمْ يَذْكُرِ (الّذينَ آمنوا) لِيُبَيِّنَ سُبْحانَهُ أنَّ الإيمانَ الّذي لا تَصْحَبُهُ تَقوى اللهِ تَعالى ، لا يُعْتَدُّ بِهِ .

﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ إنَّ اللهَ تَعالى يُعْطي بلا تَضْييقٍ ولا تَقْتيرٍ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يَخافُ نَفادَ ما في خَزائِنِهِ ، ولا يَحْتاجُ إلى حِسابٍ لِما يُخْرِجُ مِنْها ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يُعْطي ويَمْنَعُ ، والرِّزْقُ عِنْدَهُ بلا حِسابٍ ، فَنَحْنُ نَرى كَثيراً مِنَ الكافِرينَ والمُؤْمنينَ أغنياءَ موسِرينَ ، ونَرَى كَذَلِكَ مِنَ الفريقَيْنِ فُقَراءَ مُعْسِرينَ ، وعَطاءُ اللهِ تَعالى لأَحَدٍ لَيْسَ تَفْضيلاً لَهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَبْتَلي مَنْ يَشاءُ بما يَشاءُ ، ولا شَكَّ في أنَّ المتَّقي دائِماً أَحْسَنُ حالاً مِنَ الكافِرِ البَعيدِ عَنْ دينِ اللهِ ، فَهُوَ إنْ أَصابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ فَكان خَيْراً لَهُ ، وإنْ أَصابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ فكانَ خيْراً لَهُ .

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتُبيِّنَ أنَّهُ لا بُدَّ للإنْسانِ العاقِلِ مِنْ أَنْ يَهْتَدِيَ بِهَدْيِ الأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ

الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فقَدْ كانَ ﴿ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي : كانوا أُمَّةً واحِدَةً مُتَّفِقينَ على كَلِمَةِ التَّوْحيدِ ، مُقِرِّينَ بالعُبودِيَّةِ للهِ تَعالى ، مُرْتَبِطينَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وهُمْ كانوا كَذَلِكَ على سُنَّةِ الفِطْرَةِ يَأْخذونَ بما تَهْديهِمْ إليْهِ تِلْكَ الفِطْرَةُ ، وبِما يُرْشِدهُمْ إليهِ عَقْلُهُمْ ، لكنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ اخْتَلَفوا ما بَيْنَ ضالٍّ ومُهْتَدٍ ، فَبَعَثَ اللهُ تَعالى النَّبيّينَ حينَ اخْتَلَفوا .

لَقَدْ بَعَثَ اللهُ تَعالى النَّبيّينَ للنّاسِ ، لأنَّ عُقولَ البَشَرِ وَحْدَها لا يُمْكِنُها الوُصولُ إلى كَثيرٍ مِنَ الأمورِ الّتي تُوَفِّرُ للنّاسِ مَصالِحَهُمْ ، وتَدْفَعُ عَنْهُمُ المضارَّ ، وذَلِكَ لِتَفاوُتِ عُقولِ البَشَرِ ، ولأنَّ ما يَصِلُ إليهِ كَذلِكَ عقلُ البَشَرِ أَمْرٌ نِسْبيٌّ ، فَما يُمْكِنُ أنْ يَصْلُحَ لِجماعةٍ ، قَدْ لا يَصْلُحُ لِجَماعَةٍ أُخْرى ، ولِذا كانَ مِنَ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أنْ بَعَثَ الأنْبياءَ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ ، يُبَشِّرونَ مَنْ أَطاعَهُمْ بِنعيمِ اللهِ تَعالى والسَّعادَةِ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، ويُنْذِرونَ مَنْ عَصى اللهَ ، وعَصاهُمْ بعِقابِ اللهِ تَعالى والشَّقاءِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

وَكَلِمَةُ (النَّبيينَ) تَدُلُّ على الكَثْرَةِ ، وهَذا دَليلٌ على كَثْرَةِ الأَنْبياءِ الّذينَ بَعَثَهُمُ اللهُ تَعالى للبَشَرِ رَحْمَةً بِهِمْ ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ وهَذا أيْضاً مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بالبَشَرِ ، أنْ أَنْزَلَ مَعَ الأَنْبياءِ الكُتُبَ المُظْهِرَةَ للحَقِّ ، والّتي تَجْمَعُ كُلَّ ما يَحْتاجُ إليهِ النّاسُ مِنْ أُمورِ الدُّنيا والآخِرَةِ ، ولِيَفْصلوا بواسِطَتِهِ بَيْنَ الّذينَ اخْتَلفوا ، وقَدْ أُسْنِدَ الحُكْمُ إلى الكِتابِ ، لِينبِّهَ النّاسَ على أنَّ الواجِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْجعوا إلى هذا الكِتابِ عِنْدَما يَخْتَلِفونَ ، لأَنَّهُمْ سَيَجدونَهُ دائِماً حُكْماً فاصِلاً بَيْنَهُمْ ، قالَ تَعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ . [النساء : ٦٥] وبَيَّنَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ الأَسْبابَ الّتي أَدَّتْ إلى اخْتِلافِ النّاسِ في هَذا الكِتابِ الّذي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالى لإزالَةِ الاخْتِلافِ بَيْنَ النّاسِ ، ولِلْفَصْلِ بَيْنَهُمْ بالحَقِّ ، فما اخْتَلَفَ فيهِ إلاّ الّذينَ أُوتوا عِلْمَ الكِتابِ ، ومِنَ الاخْتِلافِ :

اخْتِلافُهُمْ في تَأويلِهِمْ وتَفْسيرِهِمْ لآياتِ الكِتابِ حَسَبَ ما يَشْتَهونَ ، فَتَجِدُ صاحِبَ مَذْهَبٍ يُؤَوِّلُ آيةً ما حَسَبَ ما يُحِبُّ ويَشْتَهي ، لِيَصِلَ إلى مُبْتَغاهُ في الدُّنْيا مِنْ مَنْصِبٍ أَوْ غَيْرِهِ ، ويَأْتي صاحِبُ مَذْهَبٍ آخَرَ ، فيُؤَوِّلُ الآياتِ كَذَلِكَ حَسَبَ ما يَشْتَهي لِيَصِلَ إلى ما وَصَلَ إلَيْهِ الأَوَّلُ .

ومِنَ اخْتِلافِهِمْ تَعَصُّبُ كُلِّ فَريقٍ مِنْهُمْ لِمَذْهَبِهِ لِيُخالِفَ مَذْهَبَ الآخَرَ في الأُصولِ ولَيْسَ في الفُروعِ فَقَط ، وزِيادَةً في التَّشْنيعِ على هَؤلاءِ المُخْتَلِفينَ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أي : أَنَّهُمْ جاءَتْهُمُ الحُجَجُ الواضِحَةُ النّاصِعَةُ ، الّتي تَدُلُّ على الحَقِّ ، وتُفَرِّقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الباطِلِ ، ومَعَ ذَلِكَ فَقَدِ اخْتَلَفوا في هذا الحَقِّ الواضِحِ البَيِّنِ ، وإنَّ هَذا الاخْتِلافَ الّذي وَقَعَ بَيْنَهُمْ ، لم يَكُنْ إلاّ بَغْياً بَيْنَهُمْ وتَعَدِّياً لِحُدودِ الشّريعَةِ الّتي أقامَها اللهُ تَعالى ، لِتَكونَ حاجِزاً بَيْنَ النّاسِ والاخْتِلافِ ، إذْ إنَّ كُلَّ فريقٍ يُخَطِّىءُ الآخَرَ ويُبْطِلُ رَأْيَهُ بَغْياً وحَسَداً .

وبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْ أُولَئِكَ المُخْتَلِفينَ وشَنَّعَتْ ما هُمْ عَلَيْهِ ، رَفَعَتْ مِنْ مَقامِ المُؤْمِنينَ الصّادِقينَ ، الّذينَ أَدْخَلَهُمْ اللهُ أعلى عِلّيينَ .

﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَذِنَ اللهُ تَعالى للمُؤْمنينَ تَيْسيرَهُ وتَوْفيقَهُ لَهُمْ ، فَهُمْ يَهْتَدونَ لِما اخْتَلَفَ فيهِ النّاسُ مِنَ الحَقِّ ، أي : يَصِلونَ إلى الحَقِّ الّذي يَخْتَلِفُ فيهِ النّاسُ ، فَيَزْعُمُ كُلُّ واحِدٍ أنّهُ على حَقٍّ ، وهُوَ بعيدٌ تَماماً عَنْهُ ، فَبَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ المُؤْمِنينَ لا يَأْخُذونَ أيَّ أَمْرٍ دونَ أَنْ يُمَحِّصوهُ ، ويَبْحَثوا عَنْ دَليلِهِ ، حتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَيَأْخُذوهُ ويَدَعوا غَيْرَهُ .

وَقَدْ أَسْنَدَ الهِدايَةَ إليْهِ سُبْحانَهُ ، لأنَّهُ هُوَ خالِقُها ، ولأنَّ قُلوبَ العِبادِ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقَلِّبُها كَيْفَ يَشاءُ ، فالإنسانُ إذا اخْتارَ طريقَ الحَقِّ يَسَّرَهُ اللهُ لَهُ ، وإنِ اخْتارَ طَريقَ الضَّلالِ يَسَّرَهُ اللهُ لَهُ .

إنَّ اللهَ تَعالى يَهْدي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتقيمٍ ، فَمَنْ شاءَ الهَدايَةَ هَداهُ اللهُ ، ومَنْ شاءَ الضَّلالَةَ أضَلَّهُ اللهُ . عَنْ عائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عنْها ـ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ إذا قامَ مِنَ اللَّيلِ يُصَلّي ، يَقولُ : « اللّهُمَّ ربَّ جِبريلَ وميكائيلَ وإسْرافيلَ فاطِرَ السّماواتِ والأَرْضِ ، عالِمَ الغَيْبِ والشَّهادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فيما كانوا فيهِ يَخْتَلِفونَ ، اهْدِني لِما اخْتُلِفَ فيهِ مِنَ الحَقِّ بإذْنِكَ إنَّكَ تَهْدي مَنْ تَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ »[1] .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حُبُّ الدُنْيا والغُرورُ بزينَتِها يَصْرِفُ البَعيدينَ عَنِ الحَقِّ ويَدْفَعُهُمْ إلى التَّهالُكِ عَلَيْها .

٢ـ العِزَّةُ والاسْتِعْلاءُ لِلمُؤْمِنينَ المُتَّقينَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

٣ـ كتابُ اللهِ تَعالى هو الفَيْصَلُ بَيْنَ المُخْتَلِفينَ ، إذْ على النّاسِ الاحْتِكامُ إلى كتابِ اللهِ تَعالى فيما يَخْتَلِفونَ فيهِ مِنْ شُؤونِ الدُّنْيا والآخِرَةِ .

٤ـ المُؤْمِنونَ هُمُ الّذينَ يَتَّبِعونَ الحَقَّ ، ويَجْتَنِبونَ الباطِلَ .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في صلاة الليل ، حديث رقم ٧٧٠ .

التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ كَيْفَ تُزَيَّنُ الحَياةُ الدُّنْيا للَّذينَ كَفَروا ؟

٢ـ لِمَ بُنِيَ الفِعْلُ (زُيِّنَ) لِلْمَجْهولِ ؟ولِمَ جاءَ بصيغَةِ الماضي ؟ ومَنْ هُوَ المُزيِّنُ ؟

٣ـ كَيْفَ تَكونُ سُخْرِيَةُ الكافِرينَ مِنَ الّذينَ آمنوا ؟

٤ـ اعْقِدْ مُقارَنَةً بَيْنَ الكافِرينَ والمُتَّقينَ ، مِنْ خِلالِ الآيةِ الكَريمَةِ .

٥ـ ما سِرُّ التّعبيرِ بـ : (الّذين اتقوا) بَدَلَ : (الّذينَ آمنوا) ؟

٦ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

٧ـ هَلْ هُناكَ عَلاقَةٌ بَيْنَ عطاءِ اللهِ للإنْسانِ ومَرْكَزِ هذا الإنْسانِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ؟

٨ـ كَيْفَ كانَ حالُ النّاسِ قَبْلَ بَعْثِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السّلامُ مِنْ حَيْثُ اعْتقادُهُمْ ؟

٩ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ بَعْثِ اللهِ تَعالى للنَّبيينَ ؟

١٠ـ لماذا أَسْنَدَتِ الآياتُ الحُكْمَ إلى الكِتابِ ؟

١١ـ ما الأَسْبابُ الّتي أَدَّتْ إلى اخْتِلافِ النّاسِ في الكِتابِ ؟

١٢ـ علامَ يَدلُّ قولُهُ تَعالى : ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ ؟



١ـ ذَكَرَتْ آيةٌ مِنْ سُورَةِ الحَديدِ الأَشْياءَ الّتي زُيِّنَتْ للنّاسِ ، اكْتُبْها في دفْتَرِكَ .

٢ـ بيَّنَتْ آياتُ سورَةِ المُطَفِّفينَ سِجلَّ كُلٍّ مِنَ الكافِرينَ والمُؤْمنينَ ، اكْتُبِ الآياتِ الدّالَّةَ على ذَلِكَ .

٣ـ ذَكَرَتْ بَعْضُ الآياتِ في كتابِ اللهِ تَعالى أنّ النّاسَ كانوا أُمَّةً واحِدَةً على الحَقِّ ثُمَّ اخْتَلَفوا ، هاتِ آيتيْنِ تَدلاّنِ على ذَلِكَ واكْتُبْهُما في دَفْتَرِكَ .

٤ـ مَنِ الأَنْبياءُ الّذينَ وَرَدَ ذِكْرُهُمْ في القُرْآنِ الكَريمِ ، اكْتُبْ أَسْماءَ خمسةٍ مِنْهُمْ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّامِنَ عَشَرَ

سورةُ البقرةِ ـ القِسْمُ الرّابِعُ والسّتون

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

الّذينَ خَلَوْا : الأُمَمُ الّذينَ مَضَوا مِنْ قَبْلُ .

مَثَلُ : المَثَلُ : الوَصْفُ العَظيمُ الّذي لَهُ شَأْنٌ .

زُلْزِلوا : أُزْعِجوا إزْعاجاً شَديداً ، وخُوِّفوا واضْطَرَبوا .

التَّفْسيرُ :

بيّنَتِ الآياتُ السّابقةُ أَحْوالَ النّاسِ ، وجاءَتْ هَذِهِ الآياتُ تَدْعو إلى الاقْتِداءِ بِمَنْ آمَنَ مِنَ الأُمَمِ الماضِيَةِ ، الّذينَ ابْتلاهُمْ اللهُ تَعالى بِصُنوفِ الأذى والعَذابِ ولكِنَّهُمْ صَبَروا . قالَ تَعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ﴾ . أَمْ هُنا يُفْهَمُ مِنْها الاسْتِفْهامُ ، وهِيَ تُشْعِرُ بِوُجودِ مَحْذوفٍ دَلَّ علَيْهِ الكَلامُ ، كأَنَّهُ سُبْحانَهُ يَقولُ : قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ أُمَمٌ أُوتوا الكِتابَ ودَعوا إلى الحَقِّ ، فآذاهُمُ النّاسُ في ذَلِكَ ، فَصَبَروا وثَبَتوا ، أَفَتَصْبِرونَ مِثْلَهُمْ على

المَكارهِ ، وتَثْبُتونَ ثَباتَهُمْ على الشّدائِدِ ؟ أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلوا الجَنَّةَ وتَنالوا رِضوانَ اللهِ تَعالى مِنْ غَيْرِ أَنْ تُفْتَنوا في سبيلِ اللهِ ، فَتَصْبِروا على الأَلَمِ ، وتُؤْذَوْا في سبيلِ اللهِ ، فَتَصْبِروا على الإيذاءِ ، وهَذِهِ هِيَ سُنَّةُ اللهِ تَعالى في أَنْصارِ الحَقِّ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ ، لِيُمَحِّصَهُمْ ويُخْلِصَهُمْ لَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى .

والمَثَلُ : الوَصْفُ العَظيمُ والحالَةُ الّتي لَها شَأْنٌ ، بِحَيْثُ يُضْرَبُ بها المَثَلُ ، أيْ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ هَذِهِ الحالُ الشَّديدَةُ أَيُّها المُؤْمِنونَ الّتي كانَتْ لِمَنْ قَبْلَكُمْ ، ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ صَبَروا . انْظُرْ كيفَ أَنَّ اللهَ يَقولُ لِلْمُؤْمِنينَ بِأَنَّهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ تِلْكَ الحالُ الشَّديدَةُ مِنَ الأَذى والعَذابِ ، مَعَ أَنَّ المُؤْمِنينَ عُذِّبوا في مَكَّةَ وأوذوا وأُخْرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ ، وأُصيبوا في غَزْوَةِ أُحُدٍ ، وقُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ ، ومُثِّلَ بِمَنْ مُثِّلَ بِهِ . إذا كانَ هَؤلاءِ لَمْ يَصِلوا إلى حالَةِ الّذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، فماذا نقولُ فينا نَحْنُ ؟

﴿ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ كَأَنَّ سُؤالاً خَطَرَ في ذِهْنِ السّامِعِ ، ما الّذي أصابَ الّذينَ خَلَوا ومَضَوْا حَتّى يُضْرَبَ بِهِمُ المَثَلُ ؟ فجاءَ الجَوابُ : مَسَّتْهُمُ الباساءُ والضراءُ . والبَأساءُ : ما يُصيبُ الإنْسانَ في غَيرِ نَفْسِهِ وبَدَنِهِ كالفَقْرِ ، والإخْراجِ مِنَ الدِّيار .

والضَّرّاءُ : ما يُصيبُ الإنْسانَ في نَفْسِهِ ، كالجِراحِ والمَرَضِ والقَتْلِ ، وزُلْزِلوا ، أَي : أُزْعِجوا إزْعاجاً شَديداً شَبيهاً بالزَّلْزَلَةِ بِما أصابَهُمْ مِنَ الأَهوالِ ، وما أَصابَ السّابِقينَ كانَ أَشَدَّ زِلْزالاً مِنَ الّذي وَقَعَ لِلْمُسْلِمينَ في يوم الأَحزابِ ، حيْثُ قالَ فيهِمْ سُبْحانَهُ : ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب :١١] حتَّى يَقولَ الرَّسولُ ، ويُقْصَدُ بهِ جِنْسُ الرُّسُلِ لا واحِداً مُعَيَّناً و(حتى) للغايَةِ ، أيْ : حتّى وَصَلوا إلى غايَةٍ مِنَ الشّدائِدِ والأَهوالِ ، لَمْ يَجِدوا مِنْ خِلالِهِ مَنْفَذاً للفَوْزِ ، لأَنَّ قُوَّةَ الأَعداءِ أحاطَتْ بَهِمْ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، فاعْتَقَدوا أَنَّ هذا هُوَ وَقْتُ النَّصْرِ الّذي وَعَدَهُمْ اللهُ تَعالى بِهِ ، لأَنَّ اللهَ وَعَدَ أَهْلَ الحَقِّ بالنَّصْرِ ، فاسْتَعْجَلوهُ وقالوا : مَتى نَصْرُ اللهِ ؟ فَأَجابَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ فقَدْ نَصَرَهُمُ اللهُ تَعالى ، وكَفَّ عَنْهُمْ أَهْلَ البَغْيِ والشَّرِّ ، وأَيَّدَ دَعْوَتَهُمْ ، وجَعَلَ كَلِمَةَ اللهِ هِيَ العُليا ، وكَلِمَةَ الّذينَ كَفَروا السُّفلى .

وَقَدْ جاءَتِ الجُمْلَةُ بِمُؤَكِّداتٍ مِنْها الجُمْلَةُ الاسْمِيَّةُ ﴿ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ والجُمْلَةُ الاسْمِيَّةُ تَدُلُّ على التّأكيدِ ، وابْتِداءُ الجُمْلَةِ بـ (ألا) وهي أداةُ اسْتِفْتاحٍ تَدُلُّ على تَحَقُّقِ مَضْمونِها وتَقْريرِهِ ، ثُمَّ مَجيءُ (إنَّ) وهي مِنْ أَقْوى أَدواتِ التَّأْكيدِ ، وهذا كُلُّهُ لِيُبَيِّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ وَعْدَهُ بالنَّصْرِ لا بُدَّ وأَنْ يَتَحَقَّقَ لِمَنْ يَنْصُرُ دينَ اللهِ تَعالى ويُعلي كَلِمَتَهُ .

وفي قَوْلِهِ : ﴿حَتَّى يَقُولَ﴾ جاءَ الفِعْلُ المُضارِعُ (يَقول) لِيَدُلَّ على اسْتِحْضارِ الصُّورَةِ ، حتّى يَتَمَثَّلَ المُخاطَبُ هَوْلَ هَذِهِ الصُّورَةِ وشِدَّتَها ، ويَسْتَصْغِرَ كُلَّ شِدَّةٍ بَعْدَها ، وما مِنْ شِدَّةٍ تُصيبُ الأُمَمَ إلاّ وهِيَ أَخَفُّ مِنَ الشِّدَّةِ التّي أَصابَتِ الرُّسُلَ ، حَتّى اضْطَرَّتْهُمْ إلى اسْتِعجالِ نَصْرِ اللهِ تَعالى ، وهُمْ أَعْلَمُ النّاسِ باللهِ تَعالى وأَصْدَقُهُمْ تَوَكُّلاً عَلَيْهِ وتَسْليماً لَهُ .

وَبَعْدَ أنْ حَثَّتِ الآياتُ المُؤمنينَ عَلى الصَّبْرِ واحْتِمالِ الأذى ، وابْتِغاءِ مَرْضاة اللهِ تَعالى ، رَغَّبَتِ الإنْسانَ في الإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، إذْ إنَّ بَذْلَ المالِ كَبَذْلِ النَّفْسِ عنْدَ اللهِ تَعالى ، وكِلاهُما دَليلٌ على صِدْقِ الإيمانِ .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ أيْ : يسْألُكَ أصْحابُكَ يا مُحَمَّدُ ، أيَّ شَيءٍ يُنْفِقونَ مِنْ أصنافِ الأَموالِ ، فَقُلْ لَهُمْ : ما أنْفَقْتُمْ مِنْ أَموالِكُمْ فاجْعَلوهُ للوالِدَيْنِ أوّلاً ، فَهُما أَحَقُّ النّاسِ بِذَلِكَ وفاءً لِبَعْضِ حُقوقِهِما عَلَيْكُمْ ، ثُمَّ الأَقْرَبينَ ومَنْ كَانَ أَقْرَبَ كانَ أَحَقَّ بالتَّقْديمِ ، فالأَولادُ مِنَ الأَقْرَبينَ ، والأُخْوَةُ فَهُمْ كَذلِكَ ، وهَكَذا كُلُّ قَريبٍ لَهُ حَقُّ النَّفَقَةِ . ثُمَّ ذَكَرَ اليَتامى الّذينَ فَقَدوا الأَبَ الحاني الّذي يَسُدُّ عِوَزَهُمْ ، والمساكينَ لِفَقْرِهِمْ واحْتِياجِهِمْ . وابْنُ السّبيلِ ، الّذي انْقَطَعَ عَنْ مالِهِ وَوَطَنِهِ ، فَهُوَ كالفَقيرِ تَماماً .

﴿مِنْ﴾ في قَوْلِهِ : ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ للتَّبْعيضِ ، و ﴿خَيْرٍ﴾ هُوَ المالُ ، فالنَّفَقَةُ تَعُمُّ قَليلَ المالِ وكَثيرَهُ .

وفي الآيَةِ مِنْ أَلوانِ البّديعِ ، ما يُسَمّى بِأُسْلوبِ الحَكيمِ ، فقَدْ سَأَلوا عمّا يُنْفِقونَ ، ولكِنَّ القُرْآنَ الكَريمَ أَجابَهُمْ عَنْ سُؤالٍ آخَرَ ، وهُوَ لِمَنْ يَنْبَغي أنْ تَكونَ النَّفَقَةُ ، وذَلِكَ لِحاجَتِهِم لِمَعْرِفَةِ هذا الأَمْرِ .

ثُمَّ قالَ تَعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ وهُوَ الإنْفاقُ ، وَوَضْعُهُ في مَوْضِعِهِ ، وكَذَلِكَ بِأَنْ يُقَدِّمَ الحَقَّ بالنَّفَقَةِ . وفي هذا حَضٌّ على فِعْلِ الخَيْرِ ، فَإِنَّ الإنْسانَ عِنْدَما يَشْعُرُ بِأَنَّ اللهَ تَعالى مُجازيهِ عَلى نَفَقَتِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُشَجِّعُهُ على الإنْفاقِ في وُجوهِ البِرِّ ، والّتي أَفضَلُها النَّفَقَةُ على الوالِدَيْنِ والأَوْلادِ والزَّوْجَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ واجِبُ المُؤْمنينَ الصَّبْرُ على الأَذى والعَذابِ والاضْطِهادِ كَما كانَ مِنَ الأُمَمِ السّابِقَةِ الّتي ابْتُلِيَتْ أَشَدَّ البَلاءِ فَصَبَرَتْ .

٢ـ نَصْرُ اللهِ للمُؤْمِنينَ الّذينَ يُعلونَ كَلِمَتَهُ لا بُدَّ وأَنْ يَتَحَقَّقَ ، كَما نَصَرَ رُسُلَهُ مِنْ قَبْلُ .

٣ـ خَيْرُ النَّفَقَةِ ما كانَتْ للوالِدَيْنِ والأَقْرَبينَ .

التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنى ﴿أَمْ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ ؟

٢ـ بيِّنِ المَثَلَ الّذي ضَرَبَتْهُ الآيَةُ الكَريمَةُ .

٣ـ اذْكُرْ مَعْنى : البَأْساءِ ، الضَّرّاءِ ، الزَّلزلةِ .

٤ـ مَنْ هُوَ الرَّسولُ في قَوْلِهِ : ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ﴾ ؟

٥ـ عَلامَ تَدُلُّ كَلِمَةُ ﴿حَتَّى﴾ والفِعْلُ المُضارِعُ ﴿يَقُولَ﴾ ؟

٦ـ بِماذا أَجابَ اللهُ تَعالى الرُّسُلَ الّذينَ اسْتَعْجَلوا نَصْرَ اللهِ ؟

٧ـ لِمَ جاءَ التَّأْكيدُ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَلا إِنَّ نَصرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ ؟ وما هِيَ تِلْكَ المُؤَكِّداتُ ؟

٨ـ عَمَّ سَأَلَ الصَّحابَةُ رسولَ اللهِ ﷺ ؟ وبماذا أجابَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى ؟

٩ـ ما مَعْنى ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ ؟ وهَلْ يُقْصَدُ بالنَّفَقَةِ المالُ الكَثيرُ فقط ؟

١٠ـ قالَ تعالى : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ ، ما المقْصودُ بِهذهِ الجُمْلَةِ ؟ وعَلامَ تَدُلُّ ؟



١ـ ذَكَرَ لَنا النَّبيُّ ﷺ جانِباً ممّا كانَ يُصيبُ الأُمَمَ السّابِقَةَ ، حَيْثُ كانَ يُنْشَرُ أَحَدُهُمْ بِمِنْشارٍ ، هاتِ حَديثَ الرَّسولِ ﷺ في ذَلِكَ واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيتيْنِ مِنْ كِتابِ اللهِ تَعالى تَحُثّانِ المُسْلِمَ عَلى الإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ .

* * *

الدرس التاسع عشر

سورةُ البَقَرةِ - القِسْمُ الخامِسُ والستون

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

كُتِبَ	:	فُرِضَ .
صَدٌّ		مَنْعٌ .
الفِتْنَةُ		صَدُّ المُسْلِمينَ عَنْ دِينِهِمْ بِإِلْقاءِ الشُّبُهاتِ .
يرْتَدِدْ	:	يَرْجِعْ .
حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ	:	بَطَلَتْ .

التَّفسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابقةُ عَنِ الإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ ، وهُوَ الجِهادُ بالمالِ ، وجَاءتْ هَذِهِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ نَوْعٍ آخَرَ مِنَ الجِهادِ بالنَّفْسِ . يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ أيْ : فُرِضَ عَلَيْكُمُ القِتالُ . وحُكْمُ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ

فَرْضُ كِفايةٍ ، إذا قامَ بهِ جَماعَةٌ تَحْصُلُ بِهِمُ الكِفايَةُ ، سَقَطَ عَنِ الباقينَ ، هَذا إذا كانَ قِتالُ العَدوِّ خارجَ بَلَدِ المُسْلِمينَ ، أَمّا إذا دَخَلَ العَدُوُّ أَرْضَ المُسْلِمينَ فيكونُ القِتالُ فَرْضَ عَيْنٍ على كُلِّ فَرْدٍ مُسْلِمٍ .

ومَعْنى قَوْلِه : كُرْهٌ لَكُمْ : أيْ تَكْرَهُهُ نُفوسُكُمْ ، وذَلِكَ لِشِدَّتِهِ ووَيلاتِهِ ، وما فيهِ مِنْ إزْهاقِ الأَرْواحِ ، وبَذْلِ المالِ ، والبُعْدِ عَنِ الأَهْلِ والدِّيارِ ، وهَذِهِ الكَراهَةُ أَمْرٌ طَبيعيٌّ ، لا تَتَنافى مَعَ الرِّضا بِما يُكَلَّفُ بهِ الإنْسانُ ، ولا تَتَنافى مَعَ الإيمانِ ، فَلا يَعْني أَنَّ المُسْلِمينَ كَرِهوا فَرَضِيَّتَهُ ، لأَنَّ امْتِثالَ الأَمْرِ قَدْ يَتَضَمَّنُ مَشَقَّةً ، وَلَكِنْ إذا عَرَفَ الإنْسانُ ثَوابَ اللهِ تَعالى عَلى هَذِهِ المَشَقَّةِ هانَ عَلَيْهِ اقْتِحامُ الصِّعابِ ، وقَدْ جاءَ القُرْآنُ لِيُقَرِّرَ أَنَّ مِنَ الفرائضِ ما هُوَ شاقٌّ ، ولكنَّ وراءَهُ حِكْمَةٌ تُهَوِّنُ هَذِهِ المَشقَّةَ ، وتُسَهِّلُ صُعوبَتَهُ ، وتُحَقِّقُ الكَثيرَ مِنَ الخَيْرِ الّذي لا يَعْلَمُهُ إلاّ اللهُ ، ولا يَسْتَطيعُ الإنْسانُ أنْ يَراهُ ، لأَنَّ نَظْرَهُ مَحْدودٌ ومَعْرِفَتَهُ قاصِرَةٌ ، واللهُ وحْدَهُ الّذي يَعْلَمُ عواقِبَ الأُمورِ ، وما يَتَرَتَّبُ عَلَيْها ، قالَ تَعالى :

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ ﴾ إنَّ هُناكَ أَشْياءَ كَثيرَةً يَفْعَلُها الإنْسانُ ، مَعَ كُرْهِهِ لَها ، ولَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَرْجو مِنْها النَّفْعَ ، وهُناكَ أشياءُ يَسْتَلِذُّها الإنْسانُ ويُحِبُّها ، ولَكِنَّها قَدْ توقِعُهُ في مَضارَّ وأذىً كَثيرٍ ، وذَلِكَ مِثْلُ تَرْكِ الجِهادِ ، فَإِنَّهُ يَصونُ النَّفْسَ الإنْسانِيَّةَ عَنِ القَتْلِ ، ويَصونُ مالَهُ مِنَ الإنْفاقِ ، ولكنْ مَعَ ذَلِكَ فَفيهِ مَفاسِدُ ومَضارٌّ ، كَدُخولِ العَدوِّ بلادَ المُسْلِمينَ ، وتَسلُّطِهِ عَلَيْها ، وتَحَكُّمِهِ بالمُسْلِمينَ .

وفي الحَقيقةِ أنَّ الجِهادَ الّذي تَكْرَهونَهُ فيهِ ظَفَرُكُمْ ونَصْرُكُمْ على عَدُوِّكُمْ ، واسْتيلاؤكُمْ على بِلادِهِ ، وحِفْظُ حُرْمَةِ بِلادِكُمْ ، وإعلاءُ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، إضافَةً إلى ذَلِكَ فيهِ الثّوابُ العَظيمُ الّذي أَعَدَّهُ اللهُ للمُجاهدينَ يَومَ القِيامَةِ

وقَدْ حَدَّثَنا التّاريخُ عَمّا حَلَّ ببلادِ الأَنْدَلُسِ ، عِنْدَما تَرَكوا الجِهادَ ، وتَخلَّوْا عَنِ القِتالِ ، فاسْتولى عَدوُّهُمْ على بِلادِهِمْ ، فَقَدْ بَعُدْنا عَنْ شَرْعِ اللهِ تَعالى ، وتَرَكْنا الجِهادَ ، فصارَ عَدوُّنا يَتَحَكَّمُ فينا ، ولَمْ نَعُدْ نَسْتَطيعُ أَبَداً أنْ نَحيدَ عَنْ قَراراتِ أَعْدائِنا ومَنْ والاهُمْ!! نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أنْ يُبدِّلَ الحالَ بِأَحْسَنِ حالٍ .

وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يُخاطِبُ اللهُ المُؤْمِنينَ ، وقَدْ فُرِضَ عَلَيْهِمُ القِتالُ ، أَنَّهُمْ لا يُدركونَ أَمْرَ المُسْتَقْبَلِ ولا يَعْلَمونَ الغَيبَ ، فَرُبّما يَكْرَهونَ شَيْئاً ، ويَكونُ فيهِ خيرُهُمْ ، ورُبّما يُحِبّونَ شَيْئاً ويَكونُ فيهِ شَرٌّ لَهُمْ ، وعواقِبُهُ وبالاً عَلَيْهِمْ ، إنَّ اللهَ وحْدَهُ هُوَ الّذي يَعْلَمُ ذَلِكَ ، وما دام كَذلِكَ ، فَعَلَيْكُمْ أنْ تُبادِروا إلى ما يَأْمُرُكُمْ بِهِ ، لأَنَّهُ لا يَأْمُرُكُمْ سُبْحانَهُ إلاّ بما عَلِمَ فيهِ خيراً لَكُمْ ، وانْتَهوا عمّا نَهاكُمْ عَنْهُ ، لأَنَّهُ لا يَنْهاكُمْ إلاّ عَمّا هُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، والمَقْصودُ بِذَلِكَ التَّرْغيبُ في الجِهادِ ، والامتِثالُ لِما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى .

وبَعْدَ أنْ حَثَّ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ على الجِهادِ والقِتالِ ، بَيَّنَ حُكْمُ القتالِ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ ، قالَ تَعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ أيْ : يَسْأَلونَكَ عَنِ القِتالِ في الشَّهْرِ الحرام ، إذْ دارَ في خَلَدِهِمْ أنَّ اللهَ فَرَضَ القِتالَ في غَيْرِ الحَرَمِ ، وفي غَيْرِ الأَشْهُرِ الحُرُمِ ، فَهَلْ يُباحُ لَهُمْ قِتالُ أَعْدائِهِم في الأَشْهُرِ الحُرُمِ ؟

وَقَدْ رُوِيَ في سَبَبِ نُزولِ هذهِ الآيَةِ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ عَبْدَ اللهِ بنَ جَحْشٍ ، ومَعَهُ اثنا عَشَرَ رَجُلاً كُلُّهُمْ مِنَ المُهاجرينَ ، وأَعْطاهُ كِتاباً مَخْتوماً ، وأمَرَهُ ألاّ يَفْتَحَهُ إلاّ بَعْدَ أَنْ يَسيرَ يومَيْنِ ، ثُمَّ يَنْظُرَ فيهِ ، فَيَمْضي لِما أَمَرَهُ بهِ ، ولا يَسْتَكْرِهَ أحداً مِنْ أَصْحابِهِ ، فَسارَ عَبْدُ اللهِ يَوْمَيْنِ ثُمَّ فَتَحَ الكِتابَ ، فإذا فيهِ : « إذا نَظَرْتَ في كِتابي هَذا فامْضِ حتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ ـ مكانٌ بَيْنَ مَكَّةَ والطّائِفِ ـ فَتَرَصَّدْ بها عيراً لِقُرَيْشٍ ، وتَعْلَمَ لَنا مِنْ أَخْبارِهِمْ » ، فقالَ عبدُ اللهِ : سَمْعاً وطاعَةً ! ! وأَخْبَرَ أَصْحابَهُ بذَلِكَ ، وأنَّهُ لا يَسْتَكْرِهُهُمْ ، فَمَنْ أحبَّ الشَّهادَةَ فَلْيَنْهَضْ ومَنْ كَرِهَ المَوْتَ فَلْيَرْجِعْ ، فَأَمَّا أنا فَناهِضٌ ، فَنَهَضوا جَميعاً ، وكانَ ذَلِكَ في آخِرِ يَوْمٍ في رَجَبٍ ، فَقَتَلوا وأَسَروا مِنْ قُرَيْشٍ ، وقالَتْ قُرَيْشٌ : قَدِ اسْتَحَلَّ مُحَمَدٌ الشَّهْرَ الحرامَ ، وهُوَ الشَّهْرُ الّذي يَأْمَنُ فيهِ الخائِفُ ، واشْتَدَّ ذَلِكَ على المُسْلِمينَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالى الآيَةَ .

سَأَلوا الرَّسولَ ﷺ عَنِ القِتالِ في الشَّهْرِ الحَرام ، فقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى : قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ : القِتالُ فيهِ أمْرٌ كَبيرٌ مُسْتَنْكَرٌ ، وذَنْبٌ عَظيمٌ مُسْتَقْبَحٌ ، وما فَعَلَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ جَحْشٍ ، وما يَفْعَلُهُ المُسْلِمونَ فيما بَعْدُ مِنَ القِتالِ فيهِ ، مَبْنِيٌّ على قاعِدَةِ ارْتِكابِ أخَفِّ الضَّرَرَيْنِ ، إذا لَمْ يَكُنْ مِنْ بُدٍّ ، فالقِتالُ في نَفْسِهِ كَبيرٌ وجُرْمٌ عَظيمٌ ، ولَكِنَّهُ ارْتِكابٌ لإزالَةِ ما هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ وهُوَ ما بَيَّنَهُ اللهُ تَعالى :

﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أيْ : قُلْ يا مُحَمَّدُ لِهَؤلاءِ المُشْرِكينَ الَّذينَ يَدَّعونَ بِأَنَّكُمْ اسْتَحْلَلْتُمُ الأَشْهُرَ الحُرُمَ ، نَحْنُ مَعَكُمْ في أنَّ القِتالَ في هَذهِ الأَشْهُرِ عَظيمٌ مُسْتَنْكَرٌ ، ولَكِنْ ما فَعَلْتُموهُ مَعَ أَصْحابي ، مِنْ صَرْفِكُمْ لِلْمُسْلِمينَ عَنْ طاعَةِ اللهِ ، وعَنِ الوُصولِ إلى المَسْجِدِ الحرام لأَداءِ العُمْرَةِ ، وإخْراجِ المُسْلِمينَ مِنْ بُيوتِهِمْ في مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، وهَكَذا ذَكَرَتْ هَذِهِ الآيَةُ جَرائِمَ هَؤُلاءِ المُشْرِكينَ الّتي هِيَ أَكْبَرُ وأَشْنَعُ مِنَ القِتالِ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ والّتي تَتَمَثَّلُ فيما يلي :

١ـ صَدُّهُمُ النّاسَ عَنِ الدُّخولِ في دينِ اللهِ تَعالى .

٢ـ كُفْرُهُمْ باللهِ تَعالى .

٣ـ صَدُّ المُسْلِمينَ عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى وعَنِ المَسْجِدِ الحرامِ بِمَنْعِهِمُ الحَجَّ والعُمْرَةَ .

٤ـ إخْراجُ النَّبيِّ ﷺ وأَصْحابِهِ المُهاجرينَ مِنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، كُلُّ ذَلِكَ أكْبَرُ جُرْماً عِنْدَ اللهِ تَعالى مِنَ القِتالِ في الشَّهْرِ الحَرامِ .

٥ـ ثُمَّ أضافَتِ الآياتُ جَريمَةً خامِسَةً لهم :

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أيْ : ما أَنْزَلَهُ المُشْرِكونَ مِنْ شَدائِدَ بالمُؤْمِنينَ بِإلقاءِ الشُّبُهاتِ ، وتَعْذيبِ المُسْلِمينَ لِحَمْلِهِمْ على تَرْكِ دينِهِمْ أكْبَرُ إثْماً مِنَ القَتْلِ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ .

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ أي : إنَّ هَؤُلاءِ المُشْرِكينَ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إلاَّ مَنْعُ الدّينِ مِنَ الانْتِشارِ ، ولِذَلِكَ تَجِدُهُمْ لا يَزالونَ يُقاتِلونَ المُؤْمِنينَ ، ويُضْمِرونَ لَهُمُ السّوءَ ، ويُؤذونَهُمْ حَتّى يَرْجِعوا عَنْ دينِ الإسْلامِ إلى الكُفْرِ إنِ اسْتَطاعوا ذَلِكَ وقَدِروا عَلَيْهِ .

وَقَدْ جاءَ التَّعْبيرُ بقَوْلِهِ : ﴿وَلاَ يَزَالُونَ﴾ وهُوَ يُفيدُ الدَّوامَ والاسْتِمْرارَ ، إذْ إنَّ عَداوَةَ المُشْرِكينَ ، ومَنْ هُمْ عَلى شاكِلَتِهِمْ عَداوَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ لا تَنْقَطِعُ ، فَهُمْ دائِماً يُحاوِلونَ إخْراجَ المُسْلِمينَ مِنْ دِينِهِمْ ، ولِذَلِكَ تَجِدُ الحَرَكَةَ التَّبْشيريَةَ في وَقْتِنا الحاضِرِ في ازْديادٍ مُسْتَمِرٍّ ، إذْ هَمَّ النَّصارى إخْراجَ المُسْلِمينَ مِنْ دينِهِم ، وتَرْكِهِمْ هَكَذا بِلا دينٍ ولا هُوِيَّةٍ .

وجَاءَ التَّعْبيرُ بـ (إنْ) في قَوْلِهِ ﴿إِنِ ٱسْتَطَاعُوا﴾ لِيَدُلَّ على أنَّ هَذا الأَمْرَ مُسْتَبْعَدٌ ، لأَنَّ كَلِمَةَ (إنْ) تَدُلُّ على الشَّكِّ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتُبَيِّنَ سوءَ عاقِبَةِ مَنْ يَرْتَدُّ عَنْ دينِ الإسْلامِ ، ويَعودُ إلى الكُفْرِ والشِّرْكِ : ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ .

أيْ : مَنْ يَرْجَعْ مِنْكُمْ عَنِ الإسْلامِ إلى الكُفْرِ ، ويَمُتْ عَلى حالِ الكُفْرِ ، فأُولئِكَ المرْتَدّونَ بَطَلَتْ جَميعُ أعْمالِهِمُ الصّالِحَةِ الّتي كانوا قَدْ عَمِلوها ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلوا صالِحاً قَطُّ ، وذَلِكَ أنَّهُمْ بِكُفْرِهِمْ ذَهَبَ كُلُّ أثَرٍ للأَعْمالِ الصّالِحَةِ ، وخَسِروا دُنْياهُمْ وأُخْراهُمْ ، فَخَسارَةُ الدُّنْيا لأَنَّ المُرْتَدَّ لا بُدَّ وأنْ يُقْتَلَ بَعْدَ أن يُستَتابَ ثلاثَةَ أيامٍ ، فَإنْ أَبى الرُّجوعَ إلى الإسْلامِ قُتِلَ . وخَسارَةُ الآخِرَةِ ، لأَنَّهُمْ صاروا مِنْ أَصْحابِ الجَحيمِ ، واللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دونَ ذَلِكَ لِمَنْ يشاءُ .

وَقَدْ عَبَّرَتِ الآياتُ بِكَلِمَةِ ﴿يَرْتَدِد﴾ وهِيَ تُؤْذِنُ بالتَّكَلُّفِ ، لِلإشارَةِ إلى أنَّ مَنْ دَخَلَ في دينِ

الإِسْلام ، وامْتَلأَ قَلْبُهُ بنورِ الحَقِّ ، وخالَطَتْ بَشاشَةُ الإيمانِ قَلْبَهُ ، كانَ مِنَ المُسْتَبْعَدِ عَلَيْهِ أنْ يَرْجِعَ عَنْهُ ، فَهذا المُرْتَدُّ لَمْ يَكُنْ مُسْتَقِرّاً على هذا الدّينِ الحَقِّ ، وإنّما كانَ قَلِقاً مُضْطَرِباً غَيْرَ مُسْتَقِرٍّ ، حتى انْتهى بهِ الأَمْرُ بِمَوْتِهِ على الكُفْرِ ، لِكَوْنِهِ دَخَلَ الإِسْلامَ وهُوَ غَيْرُ راضٍ بهِ ديناً .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حُرْمَةُ القِتالِ في الشَّهرِ الحَرامِ ، إلاّ إذا ابْتَدَأَ العَدوُّ القِتالَ فَوَجَبَ رَدُّهُ .

٢ـ الرِّدَّةُ عَنْ دينِ اللهِ تُحْبِطُ العَمَلَ في الدُّنْيا ، وتُوجِبُ العَذابَ في الآخِرَةِ .

٣ـ أَعْداءُ الدّينِ في كُلِّ زمانٍ ومَكانٍ يَحْرِصونَ على إخْراجِ المُسْلِمينَ مِنْ دينِهِم ، وإبْعادِهِمْ عَنْهُ ، لِيَكونوا أُناساً بِلا هُوِيَّةٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما حُكْمُ القِتالِ ؟

٢ـ ما المَقْصودُ بقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ ؟

٣ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ﴾ ؟

٤ـ ما الخَيْرُ الّذي يَكونُ في الجِهادِ وقِتالِ الأَعْداءِ ؟

٥ـ بَيِّنِ الحِكْمَةَ مِنْ خَتْمِ الآيةِ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

٦ـ ما حُكْمُ القِتالِ في الأَشْهُرِ الحُرُمِ ؟

٧ـ بَيِّنْ سَبَبَ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ﴾

٨ـ ذَكَرَتِ الآياتُ جَرائِمَ واعْتِداءاتٍ لِلْمُشْرِكينَ تجاهَ المُسْلِمينَ ، عَدِّدْ هَذِهِ الجَرائِمَ .

٩ـ ما غايَةُ المُشْرِكينَ مِنْ قِتالِ المُسْلِمينَ ؟ وعَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَلاَ يَزَالُونَ﴾ ؟

١٠ـ لِمَ عَبَّرَ بـ (إنْ) في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ ؟

١١ـ ما نَتيجَةُ المُرْتَدِّينَ عَنْ دينِ اللهِ تَعالى ؟
١٢ـ ما سِرُّ التَّعْبيرِ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿يَرْتَدِد﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اذْكُرْ قِصَّتَيْنِ مِنْ قِصَصِ تَعْذيبِ المُشْرِكينَ لِلْمُسْلِمينَ في مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ لِيَحْمِلوهُمْ على تَرْكِ دِينِهِمْ ، واكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .
٢ـ اكتبِ الآيَةَ الدّالَّةَ على أنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دونَ ذَلِكَ .
٣ـ ما الأَحْكامُ المُتعلِّقَةُ بالمُرْتَدِّ بَعْدَ مَوْتِهِ مِنْ حَيْثُ دَفْنُهُ ، والصّلاةُ عَلَيْهِ ، وتَوريثُ أَهْلِهِ ؟ اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ العِشرونَ

سورَةُ الْبَقَرَةِ ـ القِسْمُ السّادِسُ والسّتونَ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

هَاجَروا : فَارقوا الأَهْلَ والوَطَنَ ، وانْتَقَلوا مِنْ مَوْطِنِهِمْ إلى وَطَنٍ آخَرَ .

يَرْجونَ : يَتوَقَّعونَ المَنْفَعَةَ .

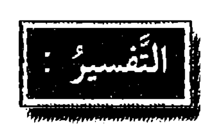
رَحْمَةَ اللهِ : ثَوابَهُ .

الخَمْرِ : سُمِّيَتْ كَذلِكَ ، مِنْ خَمَرَ الشَّيْءَ أي سَتَرَهُ ، فالخَمْرُ تَسْتُرُ العَقْلَ وتُغَطّيهِ .

المَيْسِرِ : القِمارِ .

العَفوَ : الفَضْلَ والزِّيادَةَ على الحاجَةِ .

لأَعْنَتَكُمْ : العَنَتُ : المَشَقَّةُ وما يَصْعُبُ احْتِمالُهُ .



التَّفسيرُ :

تَحدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَنْ مَصيرِ الكافِرينَ المُرْتَدِّينَ عَنْ دينِهِمْ ، وانتُقَلَتْ هُنا لِتَتَحدَّثَ عَنْ فَريقِ المُؤْمِنينَ ، يَقولُ تَعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي آمَنوا باللهِ تَعالى ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ ، واسْتَقاموا عَلى طريقِ الحَقِّ ، وثَبَتوا على الإيمانِ . ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ إلى اللهِ تَعالى ، فتَرَكوا البَلَدَ الّذي اضْطُهِدوا فيهِ ، وفُتِنوا في دينِهِمْ إلى بَلَدٍ يَأْمَنونَ فيهِ على دينِهِمْ ، ويستطيعونَ فيهِ نَصْرَ دينِهِمْ ، وإقامَةَ شَعائِرِهِ وإعْلاءَ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى . ﴿ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أيْ : بَذَلوا جُهْدَهُمْ وما في وُسْعِهِمْ وطاقَتِهِمْ ، لِمُقاوِمَةِ الكافِرينَ ، وتَقْوِيَةِ صَفِّ المُؤْمِنينَ ، وبِذا نَصَروا دينَ اللهِ تَعالى ، وأَعلَوْا كَلِمَتَهُ ، أُولئكَ الّذينَ اتّصفوا بِهَذِهِ الصِّفاتِ الثَّلاثِ السّابِقَةِ ؛ يَرْجونَ رَحْمَةَ اللهِ تَعالى ، فَهُمْ يَأْمَلونَ أَنْ يَرْحَمَهُمُ اللهُ تَعالى ، ويُثيبَهُمْ عَلى أَعْمالِهِمْ .

وقَدْ جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿يَرْجُون﴾ وفيها مَدْحٌ لِهَذِهِ الفِئَةِ المُؤْمِنَةِ ، إذْ لا يَعْلَمُ أَحَدٌ في هَذِهِ الدُّنْيا أنّه سَيَكونُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، ولَوْ بَلَغَ في طاعَةِ اللهِ تَعالى مَبْلَغاً عَظيماً ، لأَنَّهُ لا يَدْري الإنْسانُ ماذا تَكونُ خاتِمَةُ أَعْمالِهِ ، ولِكَيْ لا يَتَّكِلَ أَحَدٌ على عَمَلِهِ ، إذْ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ ، وقَدْ سُئِلَ الرَّسولُ ﷺ : « ولا أَنْتَ يا رَسولَ اللهِ » فقالَ : « لا ، إلاّ أَنْ يَتغمَّدَني اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ »[1] ، فالإنسانُ ـ إذَنْ ـ بحاجَةٍ إلى مَغْفِرَةِ اللهِ تَعالى ورَحْمَتِهِ ، ولِذا خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؛ إذْ هُوَ سُبْحانَهُ واسِعُ المَغْفِرَةِ للتّائِبينَ المُسْتَغْفِرينَ ، عَظيمُ الرَّحْمَةِ بالمُؤْمِنينَ ، يُحَقِّقُ لَهُمْ رَجاءَهُمْ إنْ شاءَ ، وقَدْ رُوِيَ عَنْ قَتادَةَ ـ رضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنّه قالَ : هَؤُلاءِ خِيارُ هَذِهِ الأُمَّةِ ـ أيْ : أصحابُ الأَوْصافِ المَذْكورَةِ ـ قَدْ جَعَلَهُمُ اللهُ أَهْلَ رَجاءٍ ، ومَنْ رجا طَلَبَ ، ومَنْ خافَ هَرَبَ .

وانتُقَلَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتَسوقَ لَنا بَعْضَ الأَسْئِلَةِ الّتي سَأَلَها الصَّحابَةُ رِضوانُ اللهِ عَلَيْهِمْ للنَّبيِّ ﷺ .

---

(١) أخرجه البخاري / كتاب : المرضى ، باب : من ذهب بالصبي ليدعى له .
ومسلم حديث رقم (٧٠٤٧) كتاب : صفات المنافقين ، باب : تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس .

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ .

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ الّذينَ سَأَلوا هُمُ المُؤْمِنونَ ، وقَدْ سألوا عَنْ حُكْمِ الخَمْرِ مِنْ حَيْثُ الحِلُّ والتَّحريمُ ، ولَيْسَ عَنْ حَقيقَتِها وذاتِها .

وَقَدْ تَدَرَّجَ القُرْآنُ في تَحريمِ الخَمْرِ ، لأنَّها كانَتْ مِنَ العاداتِ المُتَأَصِّلَةِ في النُّفوسِ ، ولِذا بَدَأَ في التَّنفيرِ مِنْها بِتَحْريكِ الوُجْدانِ الدّينيِّ في نُفوسِ المُسْلِمينَ ، وذَلِكَ بأنْ بَيَّنَ لَهُمْ بِأَنَّ إِثْمَ الخَمْرِ أكْبَرُ مِنْ نَفْعِها ، ثُمَّ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أنْ يَقْرَبوا الصَّلاةَ وهُمْ سُكارى ، ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْنا خَمْسَ صَلواتٍ مُعْظَمُها مُتقارِبَةٌ ، فلا يَكْفي الوَقْتُ ما بَيْنَ الصّلاةِ والصَّلاةِ للسُّكْرِ والإفاقَةِ مِنْهُ ، وبالتّالي بَدَأَ الصَّحابَةُ يَبْتَعِدُونَ كثيراً عَنِ الخَمْرِ ، حتّى إذا ما حُرِّمَتْ تَحريماً قاطِعاً ، وجَدْناهُمْ يَلْتَزِمونَ مُباشَرَةً بِمُجَرَّدِ أَنْ سَمِعوا أَنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ ، ويُريقونَ هذهِ الخُمورَ في شوارِعِ المدينةِ المُنوَّرَةِ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : يَسْأَلُكَ أَصْحابُكَ يا مُحَمَّدُ عَنْ حُكْمِ شُرْبِ الخَمْرِ ، ولَعِبِ المَيْسِرِ ، فَقُلْ لَهُمْ مُرْشِداً : إنَّ في تَعاطيهِما ﴿إِثْمٌ كَبيرٌ﴾ أيْ : ذَنْبٌ عَظيمٌ وضَرَرٌ شَديدٌ ؛ وذَلِكَ لِما فيهِما مِنَ القَبائِحِ ، فَمِنْ مَضارِّ الخَمْرِ الفَرْدِيَّةِ ما هُوَ مُرْتَبِطٌ بِصِحَّةِ الإِنْسانِ وعَقْلِهِ ومالِهِ .

وَمِنْها مَضارٌّ اجْتِماعِيَّةٌ : حَيْثُ يَقَعُ النِّزاعُ والخِصامُ بَيْنَ السّكارى ، وهَذا ما بَيَّنَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] .

وَكَثيراً ما نَسْمَعُ عَنْ جَرائِمِ قَتْلٍ ، وحَوادِثِ سَيْرٍ ، سَبَبُها السُّكْرُ ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَضارِّ الكَثيرَةِ ، أمّا المَيْسِرُ وهُوَ كَسْبُ المالِ عَنْ طَريقِ القِمارِ فَمِنْ مَضارِّهِ :

١ـ أَنَّهُ يُوَرِّثُ العَداوةَ والبَغْضاءَ بَيْنَ اللّاعِبينَ .

٢ـ أنّه يَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللهِ .

٣ـ أَنَّهُ يُفْسِدُ الأَخْلاقَ بِتَعْويدِ النّاسِ على الكَسَلِ ، وتَرْكِهِمْ لِلأَعْمالِ الجالِبَةِ للرِّزْقِ .

٤ـ خرابُ البيوتِ وضَياعُ الأَمْوالِ .

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ إِثْمَهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما ، فَهَلْ مَعْنى ذَلِكَ أَنَّ فيهِما مَنافِعُ ؟ ونَقولُ : قَدْ تَكونُ هُنا بَعْضُ المَنافِعِ الدُّنْيوِيَّةِ ، وذَلِكَ مِثْلُ الاتّجارِ بالخُمورِ مَثَلاً ، أَمَّا المَيْسِرُ فَقَدْ تَكونُ مَنْفَعَتُهُ أَنَّ بَعْضَ النّاسِ يَصيرُ غَنيّاً دونَ تَعَبٍ ، وهِيَ مَنافِعُ قاصِرَةٌ لا تَدومُ .

ومَعَ ذَلِكَ فَهَذِهِ المَنافِعُ الدُّنْيَويَّةُ لا تُساوي شَيْئاً بِجانِبِ المَضارِّ الجَسيمَةِ ، الّتي تَعودُ على أفْرادِ الأُمَّةِ في دينِهِمْ وعُقولِهِمْ وأجْسامِهِمْ وأَمْوالِهِمْ وتَرابُطِهِمْ كَما قُلْنا .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ إلى السُّؤالِ الثّاني :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ والعَفوُ : الزِّيادَةُ ، ويُقْصَدُ بهِ : ما تَيَسَّرَ مِمّا يَكونُ فاضِلاً عِنْ كِفايَةِ الإنْسانِ ، أيْ : ما زادَ عَنْ حاجَةِ الإنْسانِ وسَهُلَ عَلَيْهِ إخْراجُهُ .

وَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ مُرْشِدَةً النّاسَ إلى وُجوبِ التَّعاوِنِ والتَّراحُمِ بَيْنَ الأَفْرادِ .

عَنْ جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ : « ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتصدَّقْ عَلَيْها ، فإنْ فَضَلَ شَيءٌ فَلأَهْلِكَ ، فإنْ فَضَلَ عَنْ أهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذي قَرابَتِكِ ، فإنْ فَضَلَ عَنْ ذي قَرابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذا وهَكَذا »[1] .

وَقَدْ أَطْلَقَ القُرْآنُ كَلِمَةَ (العَفْوِ) لِيَتْرُكَ أمْرَ تَقْديرِ الزِّيادَةِ للنّاسِ ، فَكُلُّ جَماعَةٍ تُقَدِّرُهُ حَسَبَ عَصْرِهِمْ ، وكُلُّ إنْسانٍ يُقَدِّرُهُ حَسَبَ حالِهِ .

وَقَدْ حَثَّ الإسْلامُ مُنْذُ مَجيئِهِ النّاسَ على الإنْفاقِ ، وذَلِكَ أنَّ المُسْلِمينَ كانوا فِئَةً قَليلَةً بَيْنَ أُمَمٍ وشُعوبٍ تُناصِبُهُمُ العَداوَةَ ، وتَبْذُلُ في سَبيلِ ذَلِكَ الأَمْوالَ والأَرْواحَ ، وهُمْ لَنْ يَسْتَقيمَ لَهُمْ حالٌ إلاّ إذا اتَّحَدوا ، وكانوا كَجَسَدٍ واحِدٍ .

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي : مِثْلُ هذا البيانِ الحَكيمِ الّذي بَيَّنَهُ اللهُ لَكُمْ فيما سَأَلْتُمْ عَنْهُ ، يُبَيِّنُ لَكُمْ آياتِهِ وأَحْكامِهِ الّتي فيها مَصالِحُكُمْ ومَنافِعُكُمْ ويُوجِّهُ عُقولَكُمْ إلى المَنافِعِ والمَضارِّ .

﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي : تَتَفكَرونَ في شؤونِ الدُّنْيا والآخِرَةِ مَعاً ، فَتَعْمَلوا لِدُنْياكُمْ وآخِرَتِكُمْ ، إذ الدُّنْيا مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ ، فلا بُدَّ مِنَ العَمَلِ الصّالِحِ في الدُّنْيا ، لِيَظْفَرَ الإنْسانُ بِرضا اللهِ في الآخِرَةِ .

أمّا السُّؤالُ الثّالِثُ فَهُوَ قولُهُ تَعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ يَسْأَلُكَ أَصْحابُكَ يا مُحَمَّدُ عَنِ القِيامِ بِأَمْرِ اليتامى ، والتَّصَرُّفِ بِأَموالِهِمْ ، فَعَنِ ابنِ عباسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ قالَ : لَمّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] وقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ١٠] ، انْطَلَقَ مَنْ كانَ عِنْدَهُ يَتيمٌ فَعَزَلَ طَعامَهُ عَنْ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الزكاة ، حديث رقم ٩٩٧ .

طَعامِهِ ، وشَرابَهُ عَنْ شرابِهِ ، فَجَعَلَ يَفْصِلُ لَهُ الشَّيْءَ مِنْ طعامِهِ وشَرابِهِ ، فَيَحْبِسَ لَهُ حَتّى يَأْكُلَهُ أو يَفْسُدَ ، فاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، فَذَكَروا ذَلِكَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ الآيَةَ[1] . وقَدْ أرادوا بِسُؤالِهِمْ أَنْ يَجْمَعوا بَيْنَ مَصْلَحَةِ اليتيمِ لِيَعيشَ في بَيْتِ كافِلِهِ عَزيزاً ، وبَيْنَ مَصْلَحَتِهِمْ هُم ، لِكَيْ لا يَأْكلُوا شَيْئاً مِنْ مالِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ .

فَقالَ لَهُمْ سُبْحانَهُ : ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ أيْ : إنَّ كُلَّ ما فيهِ صلاحٌ لليَتامى فَهُوَ خَيْرٌ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تُصْلِحوا نُفوسَ اليتامى بالتَّهْذيبِ والتَّرْبيةِ السَّليمَةِ ، وأَنْ تُصْلِحوا أَموالَهُمْ بالمُحافَظَةِ عَلَيْها ، وذَلِكَ بِتَنْمِيَتِها وتَثْميرِها ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَعُدّوهُمْ إخوانَكُمْ في العَقيدَةِ والإنْسانِيَّةِ وأَنْ تُعامِلوهُمْ بِمُقْتَضى ما تَفْرِضُهُ هَذِهِ الأُخُوَّةُ عَلَيْكُمْ ، فَمِنْ شَأْنِ الإخوةِ أَنْ يَكونوا خُلَطاءَ في المَأْكَلِ والمَشْرَبِ والمِلْكِ والمَعاشِ ، وفي ذَلِكَ مَنْفَعَةٌ لَهُمْ . والمُخالَطَةُ مَبْنِيَّةٌ على المُسامَحَةِ .

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ أَعْلَمُ بِما تُضْمِرُهُ النُّفوسُ ، وتَميلُ إِلَيْهِ مِنْ قَصْدِ الإفْسادِ أَوِ الإصْلاحِ في هذِهِ المُخالَطَةِ ، وهُوَ مُحاسِبُكُمْ على ما في نُفوسِكُمْ . وقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى هَذِهِ الجُمْلَةَ ، لأَنَّ كَثيرينَ تَعْميهِمْ شَهْوَةُ الطَّمَعِ ، فَتُسَوِّلُ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَكْلَ مالِ اليَتيمِ .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ أي لَوْ شاءَ اللهُ أَنْ يُكَلِّفَكُمْ مالا تُطيقونَهُ مِنَ القِيامِ بِشَأْنِ اليَتامى وحِفْظِ أَمْوالِهِمْ دونَ أَنْ يَأْذَنَ لَكُمْ في مُخالطَتِهِمْ لَفَعَلَ ، ولَكِنَّهُ سُبْحانَهُ واسِعُ الرَّحْمَةِ بِكُمْ ، فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُوقِعَكُمْ في مَشَقَّةٍ وحَرَجٍ .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ عَزيزٌ لا يَغْلِبُهُ غالِبٌ ولا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ أو أَمْرٌ ، فَلَوْ شاءَ إعْناتَكُمْ فَلَنْ يَمْنَعَهُ سُبْحانَهُ أَحَدٌ ، وهُوَ حَكيمٌ سُبْحانَهُ في أفْعالِهِ ، فَأَفْعالُهُ كُلُّها حِكْمَةٌ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُؤْمِنُ يُجاهِدُ بِلِسانِهِ وقَلْبِهِ ، والمُجاهِدُ والمُهاجِرُ في سَبيلِ اللهِ أعدَّ اللهُ تَعالى لَهُمُ الثَّوابَ العَظيمَ يَوْمَ القِيامَةِ .

٢ـ حافَظَ الدّينُ على الكيانِ الإنْسانيِّ : مالِهِ وعِرْضِهِ ودينِهِ وعَقْلِهِ ، ونَفْسِهِ ، فَصانَ هذِهِ الأُمورَ الضَّرورِيَّةَ وحَرَّمَ الاعْتِداءَ عَلَيْها .

---

(١) وقد أخرج الحديث الحاكم في المستدرك حديث رقم ٢٤٩٩ والبيهقي في السنن حديث رقم ١٢٤٥١ وأبو داود في السنن حديث رقم ٢٨٧١ .

٣ـ حَقَّقَ الدّينُ مَبْدَأَ التَّكافُلِ الاجْتِماعيِّ ، وذَلِكَ بِحَثِّهِ على النَّفَقَةِ على مَنْ يَسْتَحِقُّها مِنْ أَفْرادِ المُجتمَعِ .

٤ـ الحَثُّ على رِعايَةِ اليتيمِ والمُحافَظَةِ على تَرْبيَةِ أَمْوالِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ابْتَدَأَتِ الآياتُ بِذِكْرِ ثَلاثِ صِفاتٍ مُحَبَّبَةٍ للنَّفْسِ ، هاتِ هَذِهِ الصِّفاتِ .

٢ـ ما غايَةُ هَذا الفَريقِ مِنَ اتِّصافِهِ بِهَذِهِ الصِّفاتِ ؟ وما الّذي يَأْمَلونَهُ مِنَ اللهِ تَعالى ؟

٣ـ بِمَ يَدْخُلُ الإنْسانُ الجَنَّةَ ؟

٤ـ تَدَرَّجَ القُرْآنُ الكريمُ في تَحْريمِ الخَمْرِ ، ولَمْ يُحَرِّمْها مَرَّةً واحِدَةً ، وضِّحْ ذَلِكَ بِذِكْرِ الآياتِ الّتي نَزَلَتْ بِهذا الشَّأْنِ .

٥ـ ما الحِكْمَةُ مِنَ التَّدَرُّجِ في تَحْريمِ الخَمْرِ ؟

٦ـ بماذا أجابتِ الآيَةُ السّائلينَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ ؟

٧ـ بيِّنِ المضارَّ النّاتِجَةَ عَنْ شُرْبِ الخَمْرِ ، ولَعِبِ المَيْسِرِ .

٨ـ هَلْ لِلْخَمْرِ والمَيْسِرِ منافِعُ ؟ بيِّنْ ذَلِكَ .

٩ـ عَمَّ سَأَلَ الصَّحابَةُ رسولَ اللهِ ﷺ ؟ وبماذا أجابَهُمْ ؟

١٠ـ ما الحِكْمَةُ مِنَ التَّعْبيرِ بِكَلِمَةِ (العَفْوِ) ؟ وما مَعْناها ؟

١١ـ ما المَقْصودُ بالسُّؤالِ عَنِ اليتامى ؟ وما سَبَبُ نُزولِ الآيَةِ ؟

١٢ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ .

١٣ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ تَدَرَّجَتِ الآياتُ الكَريمَةُ في قَضِيَّةِ تَحْريمِ الخَمْرِ ، اكْتُبِ الآياتِ الدّالّةَ على ذَلِكَ مُرَتَّبَةً .

٢ـ ما هِيَ الضَّروراتُ الخَمْسُ الّتي حافَظَ عَلَيْها الإسْلامُ بالنِّسْبَةِ للإنْسانِ ، وكَيْفَ حافَظَ عَلَيْها ، اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ هاتِ حَديثاً آخَرَ غيرَ الواردِ في تَفْسيرِ الآيةِ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ يُبيّنُ فَضْلَ النَّفَقَةِ ، ومَنْ أَوْلى بِها ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٤ـ هاتِ حَديثَيْنِ عَن رسولِ اللهِ ﷺ يَحُثُّ فيهِما على رِعايَةِ اليَتيمِ ، واكْتُبْهُما في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرسُ الحادي والعِشرونَ

سُورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السَّابِعُ والسّتونَ

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

المَحيضِ : لُغَةً السَّيَلانُ ، وشَرْعاً : ما يَقْذِفُهُ رَحِمُ المَرْأَةِ مِنْ دَمٍ في أوقاتٍ مَخْصوصَةٍ على وَجْهٍ مَخْصوصٍ .

اعْتَزِلوا : تباعَدوا ، وهو كنايَةٌ عَنْ تَرْكِ الجماعِ والمُباشَرَةِ .

يَطْهُرنَ : مِنَ الطُّهْرِ ، وهُوَ النَّقاءُ مِنْ دَمِ الحَيْضِ .

تَطَهَّرْنَ : اغْتَسَلْنَ بَعْدَ انْقِطاعِ الدَّمِ .

حَرْثٌ : الحَرْثُ : تَهْيِئَةُ الأَرْضِ بالحِراثَةِ لإلقاءِ البِذْرِ فيها .

التَّفسيرُ :

الآياتُ القُرْآنِيَةُ في سورَةِ البَقَرَةِ تَتحدَّثُ عَنْ كَثيرٍ مِنَ الأَحْكامِ التَّشريعيَّةِ ، ومِنْها هَذِهِ الآياتُ الّتي تَتَحَدَّثُ عَنْ بَعْضِ أَحْكامِ الزّواجِ والمُعاشَرَةِ وآدابِها ، وما يَخْتَصُّ بالنِّساءِ مِنْ أَحْكامِ الحَيْضِ .

ابْتَدَأَتِ الآياتُ الحديثَ عَنِ الزَّواجِ الّذي هُوَ أَعْمَقُ الرَّوابِطِ وأَقواها ، وهَذا الزَّواجُ لا بُدَّ وأَنْ يَقومَ على أساسٍ صَحيحٍ ، وهُوَ الاخْتيارُ الّذي يَقومُ على الدّينِ والخُلُقِ القَويمِ ، فإذا كانَ كُلٌّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ على خُلُقٍ ودينٍ ، فإنَّ الأُسْرَةَ تَكونُ قائِمَةً على السَّعادَةِ والأَمْنِ ، أمّا إنْ أساءَ كُلٌّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ الاخْتيارَ ، فإنَّ تِلْكَ الأُسْرَةَ مُعَرَّضَةٌ للضَّياعِ ، ولِذا جاءَتِ الآيَةُ لِتَتحدَّثَ عَنِ الأَساسِ الصَّحيحِ .

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ .

قالَ تَعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ لا تَتزَوَّجوا المُشْرِكاتِ اللاّتي لَيْسَ لَهُنَّ كِتابٌ ، ما دُمْنَ على شِرْكِهِنَّ ، حتَّى يَتْرُكْنَ هَذا الشِّرْكَ ويُؤْمِنَّ باللهِ تَعالى ، ويُصَدِّقْنَ بالرَّسولِ ﷺ ، فالزَّواجُ بالمُشْرِكَةِ مُحَرَّمٌ .

هذا بالنِّسْبَةِ لِلْمُشْرِكَةِ ، أمّا الكِتابيَّةُ فالزَّواجُ مِنْها مُباحٌ ولَيْسَ بمُحَرَّمٍ ، ودَليلُ ذَلِكَ ما وَرَدَ في كِتابِ اللهِ تَعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ .

﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ تُفيدُ الآيَةُ أَنَّ الأَمَةَ المُؤْمِنَةَ على ما بِها مِنَ الرِّقِّ وقِلَّةِ الجاهِ ، خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ حُرَّةٍ على مالِها مِنْ شَرَفِ الحُرِّيَةِ ، ولَوْ أَعْجَبَتْكُمْ بمالِها وجَمالِها ، ونَسَبِها وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ منافِعَ دُنْيَويَّةٍ ، لأَنَّ المَرْأَةَ يَكونُ كَمالُ دينِها بالإيمانِ ، وبالمالِ والجاهِ يكونُ كَمالُ دُنْياها ، واخْتيارُ المَرْأَةِ لِدينِها أَفْضَلُ مِنَ اخْتيارِها لأُمورِ دُنياها ، والزَّواجُ ارْتِباطٌ روحِيٌّ بَيْنَ قَلْبَيْنِ ، ومِنَ العَسيرِ جِدّاً أَنْ يَكونَ هَذا التَّرابُطُ بَيْنَ قَلْبٍ مُخْلِصٍ للهِ تَعالى في عِبادَتِهِ ، وقَلْبٍ لا يَدينُ أَبَداً للهِ تَعالى ، ثُمَّ إِنَّ المنافِعَ الدُّنْيَويَّةَ تَتحقَّقُ بالعِشْرَةِ ، فَيَكونُ هُناكَ حُسْنُ مُعاشَرَةٍ ، وضَبْطٌ للأَموالِ والقِيامُ عَلى شُؤونِ الأَولادِ .

وَقَدْ ابْتَدَأَتِ الجُمْلَةُ بلامِ الابْتِداءِ الشَّبيهَةِ بلامِ القَسَمِ في إفادَةِ التَّأْكيدِ ، للمُبالَغَةِ في زَجْرِ الصَّحابَةِ وغَيْرِهِمْ مِنَ المُسْلِمينَ مِنَ الزَّواجِ بالمُشْرِكَةِ . عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ : لِمالِها ولِحَسَبِها ، ولِجمالِها ولِدينِها ، فاظْفَرْ بِذاتِ الدّينِ تَرِبَتْ يداكَ »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، حديث رقم ٤٨٠٢ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لا تَتَزوَّجوا النِّساءَ لِحُسْنِهِنَّ ، فَعَسى حُسْنَهُنَّ أَنْ يُرْدِيهِنَّ ، ولا تَتزوجوهُنَّ لأَمْوالِهِنَّ ، فَعَسى أمْوالَهُنَّ أنْ يَطْغيهِنَّ ، ولَكِنْ تَزوجوهُنَّ على الدّين ، ولأَمَةٌ سَوْداءُ ذاتُ دينٍ أفْضَلُ لله »[1] .

﴿ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ ﴾ أي : لا تُزَوِّجوهُمُ النِّساءَ المُؤْمِناتِ إلاّ إذا آمنوا ، وتَركوا ما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ ، فإذا فَعَلوا ذَلِكَ حَلَّ لَكُمْ أَنْ تُزَوِّجوهُمُ النِّساءَ المُسْلِماتِ ، فالمَرْأَةُ لا يَجوزُ لَها أَنْ تَتَزوَّجَ مِنْ مُشْرِكٍ ولا مِنْ كِتابيٍّ كَذَلِكَ ، وهَذا مُحَرَّمٌ بِنَصٍّ سُنَّةِ الرَّسولِ وإجْماعِ المُسْلِمينَ ، وذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ بِما لَهُ مِنْ سُلْطانٍ على المَرْأَةِ ، يَخْشى أَنْ يَجْعَلَها تَزيغُ عَنْ عَقيدَتِها ويُفْسِدُ أَخْلاقَها .

﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ ﴾ بيانٌ لِفَضْلِ الإيمانِ ، أي أَنَّ المَملوكَ المُؤْمِنَ على ما بهِ مِنْ ذِلَّةٍ ومَهانَةٍ خَيْرٌ مِنَ المُشْرِكِ الّذي يَكونُ عَزيزَ الجانِبِ ، مُهاباً في قَوْمِهِ .

وانتَقَلَتِ الآيةُ لِتُبَيِّنَ عِلَّةَ تَحْريمِ النِّكاحِ بَيْنَ المُشْرِكينَ والمُؤْمِنينَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ ﴾ أي : أَنَّ هَؤلاءِ المُشْرِكينَ والمُشْرِكاتِ ، يَدْعونَ لِكَسْبِ كُلِّ ما يَكون سبَباً في دُخولِ النّارِ مِنَ الأَقوالِ والأَفْعالِ . والرَّابِطَةُ الزَّوْجِيَّةُ مِنْ أَقْوى العَوامِلِ في التَّأْثيرِ ، فَكُلٌّ مِنْهُما يُؤَثِّرُ في الآخَرِ .

لِذا سَيَكونُ نَتيجَةُ هَذا الزَّواجِ بَيْنَ المُشْرِكِ والمُؤْمِنِ ، أَنَّهُ على مَرِّ الزَّمَنِ ، سَيَتَقَبَّلُ أَحدُهُما ما عَلَيْهِ الآخَرُ ويَسْتَحْسِنُهُ ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ ﴾ إنَّ دَعْوَةَ اللهِ وما عَلَيْهِ المُؤْمِنونَ هِيَ الّتي توصِلُ إلى الجَنَّةِ والمَغْفِرَةِ بِإِذْنِ اللهِ تَعالى وتَوْفيقِهِ وهِدايَتِهِ ، فَهِيَ ـ إِذَنْ ـ مُناقِضَةٌ لِدَعْوَةِ المُشْرِكينَ ، فَفي الآيةِ مقابَلَةٌ بَيْنَ المُشْرِكينَ والمُؤْمنينَ ، وهُما عَلى غايَةِ التَّبايُنِ .

﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ ﴾ أي : يُوَضِّحُها سُبْحانَهُ ، ويَأْتي بالدَّلائِلِ على أَحْكامِ شَريعَتِهِ سُبْحانَهُ ، فلا يَذْكُرُ حُكْماً إلاّ وبَيَّنَ للنّاسِ حِكْمَتَهُ وفائِدَتَهُ بِما يُظْهِرُ لَهُمْ فيهِ مِنَ المَصْلَحَةِ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يَتَّعِظونَ فَيَسْتَقيمونَ عَلى طريقِ اللهِ الصَّحيحِ .

السُّؤالُ عَنِ الحَيْضِ :

وانتَقَلَتِ الآياتُ لِتورِدَ سُؤالاً مِنَ الأَسْئِلَةِ الّتي وُجِّهَتْ لِرَسولِ اللهِ ﷺ ، حَوْلَ الأَحْكامِ التَّشْريعيَّةِ .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن، حديث رقم ١٣٢٤٧ وجوّد البوصيري في الزجاجة إسناده ٩٧/٢ وسكت عنه الحافظ في الفتح ١٣٥/٩ .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ لَقَدْ كانَ اليَهودُ يُشَدِّدونَ في أُمورِ الحَيْضِ ، فَقَدْ وَرَدَ في كُتُبِهِمْ أَنَّ مَنْ مَسَّ الحائِضَ في أيام طَمْثِها يَكونُ نَجساً ، وكُلُّ مَنْ مَسَّ فِراشَها يَغْسِلُ ثِيابَهُ ويَسْتَحِمُّ بماءٍ ، ويَكونُ نَجساً ، وكُلُّ مَنْ مَسَّ مَتاعاً تَجْلِسُ عَلَيْهِ يَغْسِلُ ثيابَهُ ويَسْتَحِمُّ بماءٍ ويَكونُ نَجساً إلى المساءِ ، وإذا اضْطَجَعَ زَوْجُها مَعها يَكونُ نَجساً لِمُدّةِ أُسْبوعٍ ، أَمّا النَّصارى فَكانوا يَتَساهَلونَ في هذا الأَمْرِ .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾ سَأَلَ الصَّحابَةُ النَّبيَّ عنْ حُكْمِ الحَيْضِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « اصْنَعوا كلَّ شَيْءٍ إلاّ النِّكاحَ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ اليَهودَ ، فَقالوا : ما يُريدُ هَذا الرَّجُلَ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنا شَيْئاً إلاّ خالَفَنا فيهِ ، فجاءَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ وعُبادُ بنُ بِشْرٍ ، فقالا : يا رَسولَ اللهِ ، إنّ اليَهودَ تَقولُ كَذا وكَذا ، أَفَلا نُجامِعُهُنَّ ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ الرَّسولِ ﷺ ، حتّى ظَنَنّا أنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِما ـ أيْ غَضِبَ ـ فاسْتَقْبَلَتْهُما هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إلى النَّبي ﷺ ، فأَرْسَلَ في آثارِهِما فَسَقاهُما ، فَعَرفا أنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِما »[1] .

يَقولُ سُبْحانَهُ وتَعالى يَسْأَلُكَ أَصْحابُكَ يا مُحَمَّدُ عَنْ مُباشَرَةِ النِّساءِ في وَقْتِ الحَيْضِ ، فَقُلْ لَهُمْ يا مُحمَّد أَنْ يَتْرُكوا ذَلِكَ وَقْتَ الحَيْضِ ؛ لأَنَّ إتيانَ النِّساءِ في هَذا الوَقْتِ سَبَبٌ للأَذى والضَّرَرِ ، لِكلا الطَّرَفَيْنِ ، الرّجلِ والمرأةِ ، وقَدْ بَيَّنَتِ الآيةُ أَنَّ المُحرَّمَ هُوَ الجِماعُ ولَيْسَ كَما هُوَ عِنْدَ يهودَ أَنْ لا يَقْرَبَ مِنْها أبَداً .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى الوَقْتَ الّذي يَحِلُّ للرَّجُلِ أَنْ يُجامِعَ زَوْجَهُ فيهِ ، وهُوَ إذا طَهُرَتْ مِنْ حَيْضِها وتَطَهَّرَتْ ؛ بمعنى اغْتَسلَتْ بَعْدَ انْقِطاعِ الدَّم ، وفي هاتَيْنِ الجُمْلَتَيْنِ (فاعْتَزِلوا. . . . يَطْهُرنَ) مِنْ سُموِّ التَّعبيرِ ، وبَديعِ الكِنايَةِ ، ما يَغْرِسُ في نَفْسِ السّامِعِ حُسْنَ الأَدَبِ ، ويَصونُ سَمْعَهُ عَنِ الأَلْفاظِ الّتي يُجافي سَماعُها الأَذواقَ السَّليمَةَ ، وما أَحْوَجَ المُسْلِمينَ إلى التَّأَسّي بِهذا الأَدَبِ الّذي يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ مُروءَتَهُمْ .

فإذا تَطَهَّرنَ ؛ أي : اغْتَسَلْنَ مِنَ الحَيْضِ فَجامِعوهُنَّ في المكانِ الّذي أَمَرَكُمُ اللهُ تَعالى ، وهُوَ القُبُلُ ، ولا تَعدّوهُ إلى غَيْرِهِ ، وخُتِمَتِ الآيةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ أي : الّذين يَرْجِعونَ إلَيْهِ تائِبينَ غَيْرَ مُصِرّينَ على سَيِّءِ أَفْعالِهِمْ ، وذَلِكَ

---

(1) أخرجه الإمام مسلم/ كتاب الحيض ، حديث رقم ٣٠٢ .

بإتْيانِهِمُ النِّساءَ وقْتَ الحَيْضِ ، أو في غَيْرِ المَكانِ الّذي أَباحَ الشَّرْعُ لَهُمْ إتْيانَهُنَّ فيهِ . ﴿ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ أَيْ : أنَّهُ تَعالى يُحِبُّ كُلَّ مَنْ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ الأقْذارِ وابْتَعَدَ عَنِ المُنْكَراتِ .

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ إنَّ نِساءَكُمْ هُنَّ مَكانُ زَرْعٍ ومَنْبَتٌ لِلْوَلَدِ ، أَعَدَّهُنَّ اللهُ تَعالى لِذَلِكَ كَما أَعَدَّ الأَرْضَ لِلزِّراعَةِ والإنْباتِ ، فَأْتوهُنَّ إذا تَطَهَّرْنَ مِنَ الحَيْضِ في مَوْضِعِ الحَرْثِ في القُبُلِ كَيْفَ شِئْتُمْ . وفي هَذا دَلالَةٌ على أنَّ مِنْ مَقاصِدِ الزَّواجِ النَّسْلُ والذُّرِّيَّةُ ، والآيَةُ فيها تَمْثيلٌ ، حيثُ أَنَّهُ سُبْحانَهُ شَبَّهَ ما يُلْقى في الأَرْحامِ مِنَ النُّطَفِ بالبِذْرِ الّتي تُلْقى في الأَرْضِ ، حيثُ إنَّ كُلاًّ مِنْهُما يَنْمو في مُسْتَوْدَعِهِ ، ويَكونُ فيهِ البَقاءُ والتَّكاثُرُ .

وَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ كالبَيانِ لِما سَبَقَها ، مُبَيِّنَةً وجْهَ الحِكْمَةِ مِنْ إتْيانِ النِّساءِ .

﴿ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ما يُقَدَّمُ للنَّفْسِ هُوَ ما يَنْفَعُها في حَياتِها ، ولا شَيْءَ أَنْفَعُ لِلإنْسانِ في مُسْتَقْبَلِهِ مِنْ ابنٍ بارٍ يَنْفَعُهُ في دِينِهِ ودُنْياهُ ، وهَذا يَتَطَلَّبُ مِنْكُمُ اخْتيارَ الزَّوْجَةِ الصّالِحَةِ الّتي تُعينُكُمْ على تَرْبيَةِ أولادِكُمْ بِحُسْنِ خُلُقِها وتَكونُ قُدْوَةً حَسَنَةً لَهُمْ .

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي : احْذَروهُ سُبْحانَهُ ، وذَلِكَ بِصِيانَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ عَنْ كُلِّ ما يَنْهاكُمْ سُبحانَهُ وتَعالى عَنْهُ ، واحْذَروا أنْ تُخْرِجوا النِّساءَ عَنْ كَوْنِهِنَّ حَرْثاً ، واحْذَروا مِنَ اخْتِيارِ المرأةِ السَّيِّئَةِ الّتي تُفْسِدُ أَخْلاقَ أَبْنائِكُمْ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بَشِّرِ المُؤْمنينَ الّذينَ يَقِفونَ عِنْدَ حُدودِ دينِ اللهِ ، ويَتَّبِعونَ شَريعَتَهُ ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ إنْذارٌ لِمَنْ يُخالِفُ أَمْرَ اللهِ تَعالى بأَنَّ مصيرَهُمْ إلَيْهِ ، وسَوْفَ يُلاقونَ جَزاءَ أَعْمالِهِم في الآخِرَةِ ، كَما يُلاقونَها في الدُّنْيا ، بِفَقْدِ مَنافِعِ الطّاعَةِ ، وتَجَرُّعِ مَرارةِ عاقِبَةِ المُخالَفَةِ والعِصْيانِ ، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الّذينَ يَقِفونَ عِنْدَ حُدودِ دينِ اللهِ تَعالى ويَتَّبِعونَ هَدْيَ اللهِ تَعالى في النِّساءِ والأَوْلادِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ حُرْمَةُ زَواجِ المُشْرِكِ مِنَ المُؤْمِنَةِ ، أَو المُؤْمِنِ مِنَ المُشْرِكَةِ ، أَوْ المُؤْمِنَةِ مِنَ الكِتابِيِّ .

٢ـ دَعْوَةُ المُسْلِمينَ إلى التَّمَسُّكِ بِتَعاليمِ الدّينِ ، والتَّنْفيرُ مِنَ الاقْتِرانِ بِغَيْرِ مَنْ يَكونُ على شاكِلَتِهِمْ .

٣ـ حَثَّ الإسْلامُ على الزَّواجِ ورَغَّبَ فيهِ ، وحَرَّمَ الرَّهبانِيَّةَ الّتي ابْتَدَعَها النَّصارى .

٤ـ إتْيانُ النِّساءِ وجِماعُهُنَّ وَقْتَ الحَيْضِ فيهِ أذىً للرَّجُلِ والمَرْأَةِ على حَدٍّ سواءٍ .

٥ـ على المُسْلِمِ أَنْ يُحْسِنَ اخْتيارَ زَوْجِهِ ، فَيَخْتارُ المَرْأَةَ الوَلودَ الّتي تُعينُ على تَرْبِيَةِ الوَلَدِ بِحُسْنِ خُلُقِها ودينِها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَوْضوعُ الرَّئيسيُّ الّذي تَحَدَّثَتْ عنهُ الآياتُ الكَريمَةُ ؟

٢ـ ما حُكْمُ زواجِ المُشْرِكِ مِنَ المُؤْمِنَةِ أو العَكْسِ ؟

٣ـ ما حُكْمُ التّزاوُجِ بَيْنَ المُسْلِمينَ وأَهْلِ الكِتابِ ؟

٤ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ تَحْريمِ التَّزاوُجِ بَيْنَ المُؤْمنينَ والمُشْرِكينَ ؟

٥ـ بَيِّنِ الأُسُسَ الّتي يَنْبغي أنْ يَقومَ عَلَيْها الزَّواجُ .

٦ـ لِمَ ابْتَدَأَتِ الآياتُ باللّامِ في قَوْلِهِ تعالى : ﴿وَلَأَمَةٌ﴾ ؟ وما هَذِهِ اللّامُ ؟

٧ـ إلامَ يَدْعو المُشرِكونَ ؟ وإلامَ تَدْعو آياتُ اللهِ تَعالى ؟

٨ـ ما مَوْقِفُ اليَهودِ والنَّصارى مِنَ الحائِضِ ؟

٩ـ بَيِّنْ سَبَبَ نُزولِ قَوْلِهِ تَعالى ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ .

١٠ـ ما المَقْصودُ بِسُؤالِهِمْ عَنِ المَحيضِ هُنا ؟

١١ـ بَيِّنْ مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿يَطْهُرْنَ﴾ و﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ .

١٢ـ بِمَ شَبَّهَ اللهُ تَعالى النِّساءَ ؟ بَيِّنْ بَلاغَةَ التَّشبيهِ هُنا .

١٣ـ ما الّذي يُقدِّمُهُ الإنسانُ لِنَفْسِهِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ بَيِّنْ حِكْمَةَ إباحَةِ زَواجِ المَرْأَةِ الكِتابِيَّةِ ، وحُرْمَةَ زواجِ المرأَةِ المُسْلِمَةِ مِنَ الكِتابِيِّ واكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَعْنى تَرِبَتْ يَداكَ .

الدَّرسُ الثَّاني والعِشرونَ

سورَةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ الثّامِنُ والسِّتونَ

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

عُرْضَةً لأَيمانِكُمْ : مانِعاً عَنِ الخَيْرِ لِحَلْفِكُمْ بِهِ عَلى تَرْكِهِ .

أَيمانِكُمْ : الأَيْمانُ : جَمْعُ يَمينٍ ، وهِيَ بِمَعْنى الحَلْفِ والقَسَمِ .

اللَّغْوِ : ما يَسْبِقُ إِلَيْهِ اللِّسانُ مِمّا لا يُقْصَدُ بِهِ اليَمينُ .

يُؤلونَ : يَحْلِفونَ عَلى تَرْكِ جِماعِ نِسائِهِمْ .

تَرَبُّصُ : انْتِظارُ .

فاءوا : رَجَعوا في المُدَّةِ عَمّا حَلَفوا عَلَيْهِ .

التَّفْسيرُ :

لَقَدْ أَمَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ بِتَقْوى اللهِ تَعالى ، وَمِنْ تَقوى اللهِ تَعالى أَنْ لا يَجْعَلَ الإِنْسانُ اللهَ تَعالى عُرْضَةً لأَيْمانِهِ ، يَقولُ تَعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ .

أي لا تَجْعَلوا الحَلْفَ باللهِ تَعالى حاجِزاً ومانِعاً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَمَلِ الخَيْرِ ، وذَلِكَ بِأَنْ تَحْلِفوا باللهِ

تَعالى على تَرْكِ فِعْلِ الخَيْرِ ، فَتَرْكُوا هَذا العَمَلَ تَعْظيماً لاسْمِ اللهِ تَعالى .

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ ، قَوْلُهُ : « مَنْ حَلَفَ على يَمينٍ فَرَأى غَيْرَها خَيْراً مِنْها فَلْيَكَفِّرْ عَنْ يَمينِهِ وَلِيَفْعَلِ الَّذي هُوَ خَيْرٌ »[1] .

إنَّ الإِنْسانَ قَدْ يُسْرِعُ إِلى لِسانِهِ الحَلْفُ ، أَنْ لا يَفْعَلَ أَمْراً وَيَكونُ فيهِ خَيْرٌ ، أَو أَنْ يَفْعَلَ أَمْراً ويَكونُ فيهِ شَرٌّ ، فَنَهى اللهُ تَعالى عَنْ ذَلِكَ ، وأَمَرَ بِأَنْ يَتَحَرَّى الإِنْسانُ الخَيْرَ وإِنْ حَلَفَ على أَمْرٍ ، وَكانَ غَيْرُهُ خَيْراً مِنْهُ ، فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمينِهِ وَيَأْتِ الَّذي هُوَ خَيْرٌ .

والمقصودُ بـ﴿عُرْضَةً لأَيْمانِكُمْ﴾ كثرةُ الحَلْفِ بالله تعالىٰ .

﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أيْ : لا تَجْعَلوا أيْمانَكُمْ مانِعاً مِنْ فِعْلِ البرِّ والتَّقوى ، والإِصْلاحِ بَيْنَ النّاسِ ، وَمَنْ حَلَفَ على ذَلِكَ ـ كَما قُلْنا ـ فَلْيَأْتِ الَّذي هُوَ خَيْرٌ ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمينِهِ ، ويُمكِنُ أَنْ يَكونَ المَعْنى : لا تُكْثِروا مِنَ الحَلْفِ بِاللهِ تَعالى لأَجْلِ التَّقوى والإِصْلاحِ ، فَإِنَّ كَثيرَ الحَلْفِ لا يَكونُ أهْلاً للتَّقوى والإِصْلاحِ بَيْنَ النّاسِ ، إِذْ لا يَكونُ مَوْثوقاً بِهِ .

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سَميعٌ لِما تَلَفَّظونَ بِهِ مِنْ أَيْمانٍ ، عَليمٌ بِنواياكُمْ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تُراقِبوا اللهَ في السِّرِّ والعَلَنِ ، وَتُراقِبوا حُدودَ اللهِ لِتَكونوا مِنَ المُفْلِحينَ .

هَذا اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ فيهِ إجابَةٌ عَنْ سُؤالٍ مُقَدَّرٍ في ذِهْنِ السّامِعِ ، فَقَدْ نَهَتِ الآيَةُ السَّابِقَةُ عَنِ التَّسَرُّعِ في الحَلْفِ أَوِ اتِّخاذِ اليَمينِ حاجِزاً عَنْ عَمَلِ الخَيْرِ ، فَكَأَنَّ سُؤالاً خَطَرَ في ذِهْنِ القارِىءِ ، فَما حُكْمُ اليَمينِ الَّذي يَجْري عَلى أَلْسِنَتِنا دُونَ قَصْدٍ مِنّا ؟ فَجاءَ الجَوابُ :

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ .

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ وَيَمينُ اللَّغْوِ هِيَ الَّتي لا يَقْصِدُها الحالِفُ ، ولَكِنَّها تَجْري عَلى لِسانِهِ عادَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ .

رَوَتِ السَّيدَةُ عائِشَةُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْها ـ قَوْلَها : « اللَّغْوُ في اليَمينِ هُوَ كَلامُ الرَّجُلِ في بَيْتِهِ ، كلاَّ وَاللهِ ، وَبَلى وَاللهِ » . وفي رِوايَةٍ : « اللَّغْوُ في اليَمينِ هُوَ ما يَكونُ بَيْنَ القَوْمِ يَتَدارَءُونَ في الأَمْرِ ـ أَيْ يَتَناقَشونَ وَيَتَذاكَرونَ فيهِ ـ فَيَقولُ هَذا : لا واللهِ ، وَبَلى وَاللهِ ، وَكَلاَّ وَاللهِ ، لا تَعْقِدُ عَلَيْهِ قُلوبُهُمْ »[2] .

يَمينُ اللَّغْوِ ـ إِذَنْ ـ لا يُؤاخِذُنا اللهُ عَلَيْهِ ، ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يُؤاخِذُكُمْ عَلى ما تَعَمَّدَتْ قُلوبُكُمْ وقَصَدَتْهُ مِنَ اليَمينِ ، فَمَنْ حَنَثَ في يَمينِهِ فَعَلَيْهِ بِالْكَفّارَةِ في الدُّنْيا ، أَو

---

(١) أخرجه الإمام مسلم حديث رقم ١٦٥٠ .

(٢) أخرجه الطبراني في التفسير ٢/ ٤٠٥ طبعة دار الفكر ، بيروت ١٤٠٥هـ .

العُقوبَةُ في الآخِرَةِ ؛ وَلِذا عَلَيْكُمْ أَنْ لا تَجْعَلوا اسْمَ اللهِ تَعالى عُرْضَةً لِلأَيْمانِ ، أَوْ مانِعاً مِنْ صالِحِ الأَعْمالِ .

﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، يَغْفِرُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِعَبْدِهِ ما يَفْعَلُهُ مِنَ السَّيِّئاتِ ، وهُوَ سُبْحانَهُ لا يَتَعَجَّلُ بِالعُقوبَةِ على هَذا السُّوءِ ، الّذي يَضْعُفُ العَبْدُ عَنِ التَّوَقِّي مِنْهُ ، ولِذَلِكَ فَهُوَ سُبْحانَهُ لَمْ يُكَلِّفِ البَشَرَ بِما لا يُطيقونَ وَما يَشُقُّ عَلَيْهِمْ ، فَما لَمْ تَقْصِدْهُ قُلوبُهُمْ يَغْفِرُهُ اللهُ لَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَإِنْ فَعَلوا شَيْئاً يَقْصِدونَهُ ثُمَّ تابوا واسْتَغْفَروا غَفَرَهُ اللهُ لَهُمْ .

وبَعْدَ أَنْ تَحدَّثَتِ الآياتُ عَنِ الأَيْمانِ العامَّةِ ، أَتْبَعَها بِالحَديثِ عَنْ يَمينٍ خاصّةٍ تَتَعَلَّقُ بِالزَّوْجَيْنِ ، وهي ما يُسَمَّى بِالإيلاءِ ، قالَ تعالى :

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ .

والإيلاءُ هُوَ الحَلْفُ عَلى تَرْكِ مُعاشَرَةِ الزَّوْجَةِ ، وَقَدْ كانوا في الجاهِلِيَّةِ يَحْلِفونَ أَلاَّ يَقْرَبوا نِساءَهُمْ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ إِضْراراً بِهِنَّ .

وهَذا الحَلْفُ لا يُرْضي اللهَ تَعالى ، لِما فيهِ مِنْ تَرْكِ التَّوادِّ والتَّراحُمِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وَلِما يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ المَفاسِدِ في أَنْفُسِهِما وفي عِيالِهِما ، وَلِما فيهِ مِنَ امْتِهانٍ لِلمَرْأَةِ وَتَعَدٍّ عَلى حُقوقِها .

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعالى لِهَؤُلاءِ الَّذينَ يَحْلِفونَ عَلى تَرْكِ مُعاشَرَةِ أَزْواجِهِمْ مُدَّةً يُراجِعونَ فِيها أَنْفُسَهُمْ ، وَيَنْتَظِرونَ فِيها ما يَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ أَمْرُهُمْ . وَهَذِهِ المُدَّةُ ـ كَما ذَكَرَتِ الآياتُ ـ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ، فَإِنْ رَجَعوا بَعْدَ ذَلِكَ عَمَّا حَلَفوا عَلَيْهِ ، وَرَأَوْا المَصْلَحَةَ في الرُّجوعِ ، وحَنَثوا في أَيْمانِهِمْ الَّتي حَلَفوها ، وَكَفَّروا عَنْ هَذه اليَمينِ ، وَتابوا إلى رَبِّهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ تَعالى غَفورٌ رَحيمٌ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ غَفورٌ لِمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ ، رَحيمٌ بِعَبادِهِ فِيما يَأْمُرُهُمْ بِهِ وَيُكَلِّفُهُمْ ، وَبِهَذا تَبْقى الحَياةُ الزَّوْجِيَّةُ قائِمَةً بَيْنَهُما .

أَمَّا إِنْ صَمَّموا عَلى ما حَلَفوا عَلَيْهِ ، وعَزَموا عَلى أَنْ لا يَعودوا إِلى مُلامَسَةِ نِسائِهِمْ وَمُعاشَرَتِهِنَّ ، وَمَضَتِ المُدَّةُ الَّتي حَدَّدَها لَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، فَإِنَّ اللهَ سَميعٌ لإِيلائِهِمْ وَطَلاقِهِمْ ، عَليمٌ بِنِيّاتِهِمْ ، فَلْيُراقِبوهُ فِيما يَفْعَلونَهُ ، فَإِنْ كانوا يُريدونَ إِيذاءَ النِّساءِ وَمُضارَّتَهُنَّ ـ كَما كانَ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ يَفْعَلونَ ـ فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى يَتَوَلّى عِقابَهُمْ ، وَإِنْ كانَ لَهُمْ عُذْرٌ شَرْعِيٌّ لِهذا الإِيلاءِ ، بِأَنْ يُريدوا مَثَلاً تَرْبِيَةَ الْمَرْأَةِ لِتُقيمَ حُدودَ اللهِ ، فاللهُ يَغْفِرُ لِهُمْ .

﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ ﴾ شَرْطٌ جَوابُهُ مَحْذوفٌ تَقْديرُهُ إِنْ عَزَموا الطَّلاقَ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْهِمْ ما عَزَموا عَلَيْهِ ، وَبِذَلِكَ تُصْبِحُ المَرْأَةُ مُطَلَّقَةً وتُحَلُّ عُقْدَةُ الزَّوْجِيَّةِ بَيْنَهُما .

وَهَذِهِ المُدَّةُ الَّتي جَعَلَها اللهُ تَعالى كافِيَةً ، لِكَيْ يَخْتَبِرَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ ومُيولَهُ ، فَإمّا أَنْ يَعودَ إِلى مُعاشَرَةِ زَوْجِهِ بِالطَّريقَةِ الَّتي شَرَعَها اللهُ ، وَإِمَّا أَنْ يُطَلِّقَها ، لِيَبْدَأَ كِلاهُما حَياةً زَوْجِيَّةً جَديدةً مَعَ شَخْصٍ آخَرَ ، وَذلِكَ أَكْرَمُ لِلْمَرْأَةِ وَأَعَفُّ لَها ، وَأَنْفَعُ لِلرَّجُلِ كَذَلِكَ ، وَإِذا انْتَهَتْ هَذِهِ المُدَّةُ يَأْمُرُ القاضي الرَّجُلَ بِطلاقِ زَوْجِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عَلى الإِنْسانِ أَنْ لا يَحْلِفَ عَلى تَرْكِ فِعْلِ خَيْرٍ ، أَوْ عَلى فِعْلِ مَعْصِيَةٍ ، وَإِنْ فَعَلَ فَعَلَيْهِ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ يَمينِهِ وَيَأْتِيَ الَّذي هُوَ خَيْرٌ .

٢ـ عَلى المُسْلِمِ أَنْ لا يُكْثِرَ الحَلْفَ بِاللهِ تَعالى عَلى كُلِّ أَمْرٍ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الحَلْفِ تَجْعَلُ الإِنْسانَ مُهاناً كَثيرَ الكَذِبِ .

٣ـ عَلى المُسْلِمِ أَنْ يُعاشِرَ زَوْجَهُ بِالمَعروفِ ، فَلا يَتْرُكُها لا هِيَ زَوْجَةٌ ولا هِيَ مُطَلَّقَةٌ ، ولْيَتَّقِ اللهَ تَعالى فيها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ معانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

الأَيْمانُ ، اللَّغْوُ ، يُؤْلونَ ، تَرَبُّصُ ، فاءوا .

٢ـ ما المَعْنى المرادُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿عُرْضَةً لأَيْمانِكُمْ﴾ ؟

٣ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ ؟

٤ـ لِمَ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ؟

٥ـ ما حُكْمُ يَمينِ اللَّغْوِ ؟

٦ـ مَتى يُؤاخِذُ اللهُ تَعالى الإِنْسانَ على يَمينِهِ ؟

٧ـ كَيْفَ يَكونُ الإيلاءُ ؟ وما هُوَ حُكْمُهُ ؟

٨ـ ما حُكْمُ مَنْ أَرادَ مُعاشَرَةَ زَوْجِهِ بَعْدَ أَنْ حَلَفَ عَلى عَدمِ مُعاشَرَتِها خِلالَ مُدَّةِ الأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ؟

٩ـ ما الَّذي يَتَرَتَّبُ عَلى مَنِ امْتَنَعَ عَنْ مُعاشَرَةِ زَوْجِهِ وَمَضَتْ تِلْكَ المُدَّةُ الَّتي حَدَّدَها القُرْآنُ ؟

١٠ـ أَيْنَ جَوابُ الشَّرْطِ في قَولِهِ تَعالى : ﴿وَإِنْ عَزَمُوا ٱلطَّلَاقَ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ في حادِثَةِ الإِفْكِ في سورَةِ النُّورِ المُتَعلِّقَةِ بالسَّيدَةِ عائِشَةَ ، أَقْسَمَ أَبو بَكرٍ الصِّدّيقُ أَنْ لا يُنْفِقَ على مِسْطَحٍ ، هاتِ الآيَةَ الَّتي تَحَدَّثَتْ عَنْ هَذِهِ القِصَّةِ واْكتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ما نَوْعُ الطَّلاقِ الَّذي يَكونُ بَعْدَ الإيلاءِ ، هَل هُوَ طلاقٌ رَجْعِيٌّ أَمْ ماذا ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

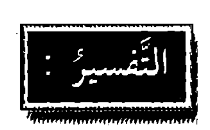
الدرس الثالث والعشرون

سورة البقرة - القسم التاسع والستون

وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

معاني المفردات

يَتَرَبَّصْنَ	يَنْتَظِرْنَ .
قُروءٍ	القُرْءُ مِنَ الأَضْدادِ ، فَهُوَ يَعْني الطُّهْرَ أوِ الحَيْضَ .
بُعولَتُهُنَّ	أَزْواجُهُنَّ
دَرَجَةً	مَنْزِلَةً وَفَضيلَةً بِسَبَبِ الرِّعايَةِ وَالإنْفاقِ .
الطَّلاقُ مَرَّتانِ	الطَّلاقُ الذي تَصِحُّ فيهِ المُراجَعَةُ ما دامَتِ المَرْأَةُ في عِدَّتِها لا يَزيدُ عَلى مَرَّتَيْنِ .
فَإِمْساكٌ	أَيْ مُراجَعَةُ الزَّوْجَةِ .
تَسْريحٌ	التَّسْريحُ : تَرْكُها دونَ مُراجَعَةٍ حَتّى تَنْتَهي عِدَّتُها لِتُصْبِحَ بائِناً .
بِإِحْسانٍ	مَعَ أَداءِ الحُقوقِ وَعَدَمِ مُضارَّةِ المَرْأَةِ .



التَّفسيرُ :

تَتَحدَّثُ الآياتُ هُنا عَنْ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ مُهِمّ مِنْ أَحْكام الأُسْرَةِ في الإِسْلام ، وَهُوَ ما يَتَعلَّقُ بالطَّلاقِ ، وَقَدْ كانَ مَوْقِفُ النّاسِ مِنَ الطَّلاقِ قَبْلَ الإِسْلام مُتَناقِضاً ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُبيحُهُ وَيَفْتَحُ البابَ عَلى مِصْراعَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكونَ لَهُ قواعِدُ وَضَوابِطُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَشَدَّدَ فيهِ وجَعَلَهُ أَمْراً مَمْنوعاً مُحَرَّماً مَهْما كانَ في ذَلِكَ مِنْ شَقاءٍ وَضَنَكٍ وَضيقٍ يَعيشُهُ الزَّوْجانِ وذَلِكَ مِنَ الشَّرِّ العُضالِ ، والنَّتائِجِ السَّيِئَةِ وَالخُروجِ مِنْ حِصْنِ الفَضيلَةِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ السَّلْبيّاتِ ما لا يُحْصى .

ولَكِنَّ الإِسْلامَ جاءَ وَضَبَطَ هَذا الأَمْرَ ، وَوَضَعَ لَهُ بَعْضَ القواعِدِ التَّشْريعيَّةِ ، فَجَعَلَ الطَّلاقَ بِلا سَبَبٍ صَحيحٍ مَكْروهاً ، لِما فيهِ مِنْ قَطْعِ العَلاقَةِ الزَّوْجيَّةِ الّتي هِيَ مِنَ النِّعَمِ العَظيمَةِ ، ولِما فيهِ مِنْ ضَياعِ الأَوْلادِ ، أَمّا إذا كانَ هُناكَ تباغُضٌ وتَقاطُعٌ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، ولَمْ يُمْكِنِ الإِصْلاحُ بَيْنَهُما ، وَغَلَبَ عَلى الظَّنِ عَدَمُ إِقامَةِ حُدودِ اللهِ ، فَالدَّواءُ هُوَ الطَّلاقُ ، يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ .

يَأْمُرُ سُبْحانَهُ المَرْأَةَ الَّتي طَلَّقَها زَوْجُها ، شَرْطَ أَنْ تَكونَ ما زالَتْ تَحيضُ ، أَيْ لَيْسَتْ صَغيرَةَ السِّنِّ لَمْ تَحِضْ بَعْدُ ، وَلَيْسَتْ كَبيرةً في السِّنِّ بِحَيْثُ وَصَلَتْ سِنَّ الْيَأْسِ ، ولَيْسَتْ مِنْ ذَواتِ الحَمْلِ ، يَأْمُرُها سُبْحانَهُ أَيْ تَنْتَظِرَ في بَيْتِ زَوْجِها ثَلاثَةَ قُروءٍ .

وقَوْلُهُ تَعالى : ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ ﴾ جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ لَفْظاً ، إِنْشائِيَّةٌ مَعْنىً ، والمَعْنى ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ بِصيغَةِ الأَمْرِ ، وقَدْ جاءَتِ الجُمْلَةُ كَذَلِكَ تَأْكيداً لِلأَمْرِ وَإِشْعاراً بِأَنَّهُ مِمّا يَجِبُ أن يُتَلَقى بِالمُسارَعَةِ إِلى امْتِثالِهِ ، فَكَأَنَّ النِساءَ امْتَثَلْنَ الأَمْرَ بِالتَّرَبُّصِ . وَفي الجُمْلَةِ كَذَلِكَ إِبْداعٌ عَظيمٌ ، وَذَلِكَ أَنَّ المَرْأَةَ بَعْدَ أَنْ يُطَلِّقَها زَوْجُها ، تَكونُ في حاجَةٍ لأَنْ تُثْبِتَ لِلنّاسِ بِأَنَّ طَلاقَها لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِها ، وَلِذَلِكَ هِيَ تَوَدُّ أَنْ تَتَزَوَّجَ مِنْ آخَرَ . وتُنْشِيءَ حَياةً زَوْجيَّةً أُخْرى لإِثْباتِ ذلِكَ ، فَيَقولُ لَها سُبْحانَهُ وَتَعالى : إِنَّ تَطَلُّعَكِ لإِنْشاءِ حياةٍ زَوْجيَّةٍ أُخْرى لَيْسَ عَيْباً ، وَلَكِنَّ الكَرامَةَ تُوجِبُ عَلَيْكِ أَنْ تَنْتَظِري وتَتَرَيَّثي : فلا يَليقُ بِالمَرْأَةِ أَنْ تَنْتَقِلَ تَنَقُّلاً سَريعاً بَيْنَ الأَزْواجِ ، ثُمَّ إِنَّ الفِطْرَةَ تُوجِبُ عَلَيْها الانْتِظارَ مُدَّةَ ثلاثَةِ قُروءٍ لاسْتِبْراءِ رَحِمِها ، ولِتَتَأَكَّدَ أَنَّها لَيْسَتْ حامِلاً ، وهَذِهِ المُدَّةُ فُرْصَةٌ لِلْمُراجَعَةِ ، وَإِعادَةِ الزَّوْجَةِ إِلى حَظيرَةِ الزَّوْجيَّةِ .

وَالْقُروءُ يَرى بَعْضُ الفُقَهاءِ أَنَّ المَقْصودَ بِهِ الحَيْضاتُ ، أَيْ : تَنْتَظِرُ المُطَلَّقَةُ في بَيْتِ زَوْجِها

ثَلاثَ حَيْضاتٍ ، وَيَرى بَعْضُهُمْ أَنَّ المَقْصودَ بِهِ الإِطْهارُ ، والطُّهْرُ يَكونُ ما بَيْنَ الحَيْضَتَيْنِ ، فَتَنْتَظِرُ المَرْأَةُ ثَلاثَةَ أَطْهارٍ ، وهِيَ عِدَّتُها ، وكِلا المعْنَيينِ صَحيحٌ ، لأنَّ المقصودَ مِنَ المُدّةِ بَراءةُ رَحِمِ المرأةِ مِنْ زَوْجِها ، وهذا الأمرُ يَحْصُلُ بثلاثِ حَيْضاتٍ ، ويَحْصُلُ كذلكَ بثَلاثةِ أطهارٍ .

﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾ أَيْ : لا يَحِلُّ لِهَذِهِ الْمَرْأَةِ المُطَلَّقَةِ ، إذا ثَبَتَ أَنَّها حامِلٌ أَنْ تَكْتُمَ هَذا الأَمْرَ ، حَتّى يُنْسَبُ الوَلَدُ إِلى أَبيهِ ، كَما لا يَحِلُّ لَها أَنْ تَكْتُمَ وَقْتَ حَيْضِها أَوْ طُهْرِها ، إذ إِنَّ بَعْضَ النِّساءِ تُطيلُ وَقْتَ العِدَّةِ ، حَتّى يَسْتَمِرَّ الزَّوْجُ بالإِنْفاقِ عَلَيْهِنَّ ، وَهَذا الكِتْمانُ كَذِبٌ عَلى اللهِ تَعالى ، وَخِيانَةٌ لِلأَمانَةِ الّتي أَوْدَعَها اللهُ تَعالى لِلْمَرْأَةِ ، وَقَدْ ذَكَّرَ اللهُ تَعالى الْمَرْأَةَ بِصِفَةٍ لا يُمْكِنُ أَنْ تَكْتُمَ بِسَبَبِها ما في رَحِمِها ، فَقال تَعالى : ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ ﴾ وفي ذَلِكَ حَثٌّ لِلنِّساءِ أَنْ لا يَكْتُمْنَ ، فَمَنْ كانَ عِنْدَها إيمانٌ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، لا يُمْكِنُ أَنْ تَكْتُمَ وتَخونَ الأَمانَةَ .

وَقَدْ قَرَّرَ الفُقَهاءُ أَنَّ القَوْلَ فِيما يَتَعَلَّقُ بِعِدَّةِ المَرْأَةِ مِنْ حَيْثُ ابْتِداؤُها وَانْتِهاؤُها مَرْجِعُهُ إِلى المَرْأَةِ وَحْدَها ، لأَنَّ هَذا الأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بها ، وَلا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيْرُها ، وَلكِنْ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكونَ قَوْلُها مُطابِقاً لِلواقِعِ ، فَمَنِ ادَّعَتْ أَنَّ عِدَّتَها انْتَهَتْ بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ طَلاقِها ، لا يُقْبَلُ قَوْلُها .

﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ ﴾ أَيْ : أَزْواجُ هَؤُلاءِ المُطَلَّقاتِ أَحَقُّ بِمُراجَعَتِهِنَّ في وَقْتِ تَرَبُّصِها وَعِدَّتِها ، وَذَلِكَ قَبْلَ انْقِضاءِ العِدَّةِ ، شَرْطَ أَنْ تَكونَ غايَتُهُمْ مِنَ المُراجَعَةِ الإِصْلاحُ ، وَلَيْسَ الإِضْرارُ بِالْمَرْأَةِ ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعالى هَذِهِ المُدَّةَ ، ثَلاثَةَ قُروءٍ ، لإِعْطاءِ فُرْصَةٍ لِلرَّجُلِ حَتَّى يُراجِعَ نَفْسَهُ ، ويَتَدَّبَرَ أَمْرَهُ ، لَعَلَّهُ يُدْرِكُ أَنَّ الخَيْرَ لَهُ إِنَّما هُوَ في بَقاءِ زَوْجَتِهِ مَعَهُ ، فَيُراجِعُها رِعايَةً لِرابِطَةِ المَوَدَّةِ والرَّحْمَةِ الَّتي جَعَلَها اللهُ بَيْنَهُما . وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : لِلْنِّساءِ عَلى الرِّجالِ مِثْلُ ما لِلرِّجالِ عَلى النِّساءِ ، وَلِذا عَلى كُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يُؤَدِّيَ حُقوقَ الآخَرِ بِالمَعْروفِ ؛ إِذ إِنَّ الحُقوقَ وَالواجِباتِ مُتَبادَلَةٌ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وهُما مُتماثِلانِ في أَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما عَلَيْهِ أَنْ يُؤَدِّيَ حَقَّ صاحِبِهِ بِالمَعروفِ . وَالمَعْروفُ ما عَرَفَتْهُ الطِّباعُ السَّليمَةُ ، ولَمْ تُنْكِرْهُ وَوافَقَ عَلَيْهِ الشَّرْعُ .

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحاديثُ كَثيرَةٌ تَدُلُّ عَلى حُقوقِ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ عَلى الآخَرِ ، فَمِنْ ذَلِكَ ما وَرَدَ عَنِ الرَّسولِ ﷺ في خُطْبَةِ حِجَّةِ الوَداعِ : « اتَّقوا اللهَ في النِّساءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُموهُنَّ بِأَمانَةِ اللهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُروجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهونَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبْرِحٍ ، ولَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْروفِ »[١] .

المِثْلِيَّةُ ـ إِذَنْ ـ لا تَعْني المُساواةُ مِنْ كُلِّ الوجوهِ في جِنْسِ الفِعْلِ ، فَإِذا غَسَلَتِ المَرْأَةُ ثِيابَهُ يَجِبُ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم ١٢١٨ .

عَلَيْهِ أَنْ يَغْسِلِ ثِيابَها ، ولَكِنَّ المِثْلِيَّةَ ما يَكونُ مِنْ حُقوقٍ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما عَلى الآخَرِ .

وَقَدْ بيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّ هَذِهِ المِثْلِيَّةَ لا تَعْني المُساواةَ مِنْ كُلِّ الوجوهِ ، وَلِذَلِكَ قَال : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أَيْ لِلرِّجالِ مِزْيَةٌ وَزِيادَةٌ في الحَقِّ ، وذَلِكَ بِسَبَبِ حِمايَتِهِمْ لِنِسائِهِمْ وقِيامِهِمْ بِشُئونِهِنَّ ، وَنَفَقَتِهِنَّ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الواجباتِ .

وَقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ اللهُ سُبْحانَهُ لا يَغْلِبُهُ غالِبٌ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَنْتَقِمُ مِمَّنْ يَعْصيهِ ، وهُوَ سُبْحانَهُ حَكيمٌ في ما يُشَرِّعُهُ ويُكَلِّفُ بِهِ عِبادَهُ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ ما ذَكَرَتْهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ أَنَّ الرَّجُلَ أَحَقُّ بِمُراجَعَةِ زَوْجَتِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ .

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ إنَّ مِنْ حِكْمَةِ التَّشْريعِ أَنْ يَكونَ الطَّلاقُ مُفَرَّقاً ، وَأَنْ لا يَقَعَ دَفْعَةً واحِدَةً . إنَّ هاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ لا تَقَعانِ مَرَّةً واحِدَةً ، بَلْ تَكونُ التَّطْليقَةُ الأُولى أَوَّلاً ، وَهِيَ طَلْقَةٌ رَجْعِيَّةٌ يَجوزُ لِلزَّوْجِ أَنْ يُراجِعَ زَوْجَهُ في أَثْناءِ العِدَّةِ ، الَّتي هِيَ ثَلاثَةُ قُروءٍ ، فَإِنْ راجَعَها وَلَكِنَّهُما لَمْ يَسْتَطيعا المَسيرَةَ الهَنيئَةَ الهادِئَةَ ، وَطَلَّقَها مَرَّةً ثانِيَةً ، فَإِنَّهُ يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يُراجِعَها بَعْدَ هَذِهِ التَّطْليقَةِ كَذَلِكَ في أَثْناءِ العِدَّةِ ، فَهِيَ طَلْقَةٌ رَجْعِيَّةٌ كَذَلِكَ .

وَمَعْنى : ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أَيْ : أَنْ يُراجِعَها على نِيَّةِ الإبْقاءِ على العَلاقَةِ الزَّوْجِيَّةِ وَ المُعامَلَةِ الحَسَنَةِ ﴿ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ أَنْ يَتْرُكَها حَتَّى تَنْتَهِيَ عِدَّتُها وتَبينَ ، فَيُطْلِقُ سَراحَها دونَ ظُلْمٍ أَوْ إساءَةٍ إِلَيْها ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ ﴾ .

يُخاطِبُ سُبْحانَهُ وتَعالى الأَزْواجَ الَّذينَ طَلَّقوا زَوْجاتِهِمْ ، وَيَقولُ لَهُمْ : لا يَجوزُ لَكُمْ أَيُّها الأَزْواجُ أَنْ تَأْخُذوا مِنْ زَوْجاتِكُمْ في مُقابِلِ الطَّلاقِ شَيْئاً مِمَّا أَعْطَيْتُموهُنَّ ، سَواءٌ أَكانَ مَهْرَهُنَّ أَمْ بَعْضَ العَطِيَّاتِ وَالهَدايا الَّتي جَلَبْتُموها لَهُنَّ ، لأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مِنْ بابِ الظُّلْمِ الَّذي نَهى اللهُ تَعالى عَنْهُ ، وَ اسْتَثْنى سُبْحانَهُ مِنْ ذَلِكَ صُورَةً يَجوزُ فِيها الأَخْذُ ، وَهِيَ : ﴿ إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لا يَجوزُ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذوا مِنْ أَمْوالِهِنَّ في أَيِّ حَالَةٍ إلاّ في حَالَةِ أَنْ يَخافَ الزَّوْجانِ أَلاَّ يُقيما حُدودَ اللهِ تَعالى . وَحُدودُ اللهِ هِيَ ما أَوْجَبَهُ اللهُ تَعالى عَلى كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ تَجاهَ الآخَرِ .

وخَاطَبَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ أُولي الأَمْرِ : القاضي أَوْ الحاكِمَ أَوِ الحَكَمَ الَّذي يُصْلِحُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، قالَ اللهُ تَعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ إنْ خِفْتُمْ أَيُّها الحُكَّامُ أَوِ القُضاةُ أَلاَّ يُقيمَ الزَّوْجانِ حُدودَ اللهِ تَعالى الَّتي حَدَّها لَهُمْ ، وَأَمَرَهُمْ بِاتِّباعِها في حَياتِهِمُ الزَّوْجِيَّةِ ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا

ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ أَيْ : لا إِثْمَ عَلى الرَّجُلِ في أَخْذِ ما تُعْطيهِ لَهُ زَوْجَتُهُ مِنْ مالٍ مُقابِلَ انْفِصالِها عَنْهُ ، وَلا إِثم عَلَيْها هِيَ كَذَلِكَ في هذا الإِعْطاءِ ، ما داما قَدْ وَصَلا إِلى هَذِهِ الحالَةِ الَّتي تُفَضِّلُ فيها المَرْأَةُ التَّخَلِّي عَنْ مالِها في مُقابِلِ حُرِّيَتِها والتَّخَلُّصِ مِنْ هذا الزَّوْجِ .

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ، أَنَّ امْرَأَةَ ثابِتِ بنْ قَيْسٍ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ : « يا رَسُولَ اللهِ : زَوْجي ثابِتُ بنُ قَيْسٍ ، ما أَعْتَبُ عَلَيْهِ في خُلُقٍ وَلا دينٍ ، وَلَكِنْ أَكْرَهُ الكُفْرَ في الإِسْلامِ ـ أَيْ أَكْرَهُ عَدَمَ الوَفاءِ بِحَقِّهِ لِبُغْضي لَهُ ـ فقالَ لَها رسولُ اللهِ ﷺ : أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَديقَتَهُ ؟ ـ هِيَ ما قَدَّمَهُ لَها مِنْ مَهْرٍ ـ قالَتْ : نَعَمْ ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِثابِتٍ : اقْبَلْ حَديقَتَكَ ، وَطَلِّقْها تطليقة »[1] . وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أَيْ : تِلْكَ الأَوامِرُ وَالنَّواهي المُتَقَدِّمَةُ هِيَ حُدودُ اللهِ الَّتي حَدَّها في المُعامَلاتِ الزَّوْجِيَّةِ ، فَلا تَتَجاوَزوا أَيُّها الأَزْواجُ ما أَحَلَّهُ اللهُ لَكُمْ إِلى ما حَرَّمَهُ عَلَيْكُمْ ، وذَلِكَ أَنَّ مَنْ يَتَعَدَّى حُدودَ اللهِ تَعالى فَهُوَ مِنَ الظَّالِمينَ ، والظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَفِعْلُ ما لا يَنْبَغي فِعْلُهُ ، وَالظُّلْمُ مَخَرِّبٌ ، مُفْنٍ لِكَثيرٍ مِنَ الأُمَمِ ، وَمِنْ ذَلِكَ ظُلْمُ الأَزْواجِ لِلأَزْواجِ .

الطَّلاقُ بَعْدَ المَرَّتَيْنِ :

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ .

وانْتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنِ الطَّلاقِ الَّذي يَكونُ بَعْدَ المَرَّتَيْنِ ، وهِيَ التَّطْليقَةُ الثَّالِثَةُ ، فَإِذا طَلَّقَها الزَّوْجُ طَلْقَةً ثالِثَةً ، فَإِنَّها حِينَئِذٍ تُحَرَّمُ عَلَيْهِ ، ولا يَمْلِكُ مُراجَعَتَها إِلاّ بَعْدَ أَنْ تَتَزَوَّجَ زَوْجاً غَيْرَهُ زَواجاً صَحيحاً ، بِمَعْنى أَنْ لا يَتَزَوَّجَها الزَّوْجُ الثّاني لِمُدَّةٍ مُؤَقَّتَةٍ بِقَصْدِ تَحْليلِها لِزَوْجِها الأَوَّلِ ، فَهَذِهِ مَعْصِيَةٌ . فَعَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : « أَلا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ المُسْتَعارِ ؟ قالوا بَلى يا رَسولَ اللهِ ، قالَ : هُوَ المُحَلِّلُ ، لَعَنَ اللهُ المُحَلِّلَ والمُحَلَّلَ لَهُ » .

فَمَنْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ الطَّلْقَةَ الثَّالِثَةَ لا يَمْلِكُ مُراجَعَتَها حَتّى تُزَوَّجَ مِنْ آخَرَ زَواجاً صَحيحاً ، ويُعاشِرَها مُعاشَرَةَ الزَّوْجِ لِزَوْجَتِهِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ إِنْ طَلَّقَها هَذا الزَّوْجُ الثّاني دُونَ اتِّفاقٍ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، فَلا إِثْمَ عَلَيْها وَلا عَلى زَوْجِها الأَوَّلِ في أَنْ يَرْجِعَ كُلٌّ مِنْهُما إِلى صاحِبِهِ ، بَعْدَ انْقِضاءِ عِدَّتِها مِنْ طَلاقِها الثّاني ، إِذا غَلَبَ عَلى ظَنِّهِما أَنَّهُما سَيُقيمانِ حُدودَ اللهِ تَعالى ، وَيُؤَدِّي كُلٌّ مِنْهُما ما يَجِبُ عَلَيْهِ نَحْوَ الآخَرِ ، وَتَكونُ المُراجَعَةُ بِعَقْدٍ ومَهْرٍ جَديدَيْنِ .

وَقَدْ قَالَ تَعالى : ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : (إِنْ عَلِما) ، وذَلِكَ أَنَّ العِلْمَ اليَقِينِيَّ في

---

(١) أخرجه البخاري في باب الخلع وكيفية الطلاق ، حديث رقم ٤٩٧١ .

ذَلِكَ أَمْرٌ غَيْبِيٌّ لا يَعْلَمُهُ إلاّ اللهُ تَعالى ، وَلِذَلِكَ رَحْمَةً بِالزَّوجَيْنِ اكْتَفى سُبْحانَهُ وتَعالى بِأَنْ يَغْلِبَ على ظَنِّهِما أَنَّهُما الآنَ سَيُؤَدِّيانِ حُقوقَ بَعْضِهِما بَعْضاً .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ تِلْكَ الأَحْكامُ المَذْكورَةُ الَّتي بَيَّنَها سُبْحانَهُ وتَعالى في كِتابِهِ لأَهْلِ العِلْمِ الَّذينَ يَعرِفونَ فائِدَةَ هَذِهِ الأَحْكامِ ، وَيَعْرِفونَ ما فيها مِنْ مَصْلَحَةٍ ، لِيَعْمَلوا بِها عَلى الوَجْهِ الَّذي تَتَحَقَّقُ بِهِ المَنْفَعَةُ والفائِدَةُ وَلَيْسَ لِمَنْ يَجْهَلونَ ذلِكَ فلا يَجْعَلونَ لِحُسْنِ النِّيَّةِ وإِخْلاصِ القَلْبِ مَدْخَلاً في العَمَلِ ، فَيُرْجِعُ أَحَدُهُمُ المَرْأَةَ ، وَهُوَ يُضْمِرُ لَها السُّوءَ ، ويُريدُ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْها .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الطَّلاقُ تَشْريعٌ رَبَّانِيٌّ ، ولكنْ لا يُلْجَأُ إِلَيهِ إلاَّ إذا تَعَسَّرَتِ الحَياةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ .

٢ـ جَعَلَ اللهُ تَعالى القِوامَةَ بِيَدِ الرَّجُلِ ، لِما عَلَيْهِ مِنْ واجِباتٍ وَنَفقاتٍ نَحْوَ المَرْأَةِ .

٣ـ جَعَلَ اللهُ تَعالى الطَّلاقَ مُفَرَّقاً ، وهُوَ مَرَّتانِ ، يَمْلِكُ الزَّوْجُ مُراجَعَةَ زَوْجَتِهِ بَعْدَ كُلٍّ مِنْ هاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ .

٤ـ عَلى كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ إِقامَةُ حُدودِ اللهِ تَعالى ، وتَقوى اللهِ تَعالى في تَعامُلِ كُلٍّ مِنْهُما مَعَ الآخَرِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ بَيِّنْ مَوْقِفَ النَّاسِ قَبْلَ الإِسْلامِ مِنَ الطَّلاقِ .

٢ـ هَلْ وَافَقَ الإِسْلامُ السَّابِقينَ عَلَى مَوْقِفِهِمْ مِنَ الطَّلاقِ ؟ بَيِّنْ ذَلِكَ .

٣ـ أ ـ مَنِ المُطَلَّقاتُ ؟

ب ـ ما مَعْنى يَتَرَبَّصْنَ ؟

ج ـ وَعلامَ تَدُلُّ هَذِهِ الجُمْلَةُ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِالقُرْءِ ؟

٥ـ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾ ما الأَمْرُ الَّذي لا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ كِتْمانُهُ؟

٦ـ مَنِ الَّذي يُقَرِّرُ ٱبْتِداءَ عِدَّةِ المَرْأَةِ وٱنتِهاءَها في نَظَرِ الفُقَهاءِ ؟

٧ـ لِمَ قَيَّدَ سُبْحانَهُ وَتَعالى إِرْجاعَ الرَّجُلِ لِزَوْجَتِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلاَحاً﴾ ؟

٨ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِ اللهِ ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ؟ وَكَيْفَ تَتَحَقَّقُ تِلْكَ المِثْلِيَّةُ ؟

٩ـ كَيْفَ جَعَلَ الإِسْلامُ الطَّلاقَ ؟ وَما الَّذي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ ؟

١٠ـ مَتى يَحِلُّ لِمَنْ طَلَّقَ الطَّلْقَةَ الثَّالِثَةَ أَنْ يُراجِعَ زَوْجَهُ المُطَلَّقَةَ ؟

١١ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أَنْ أَعْطى المَرْأَةَ الحَقَّ بِطَلَبِ الطَّلاقِ . مَتى يَكونُ ذَلِكَ ؟ وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ ؟

١٢ـ ماذا يُسَمَّى الطَّلاقُ الواقِعُ مُقابِلَ مالٍ تَدْفَعُهُ المَرْأَةُ ؟

١٣ـ لِمَ وَصَفَتِ الآياتُ المُتَعَدِّينَ عَلى حُدودِ اللهِ بِالظُّلْمِ ؟ وما العَلاقَةُ بَيْنَهُما ؟

١٤ـ مَنِ التَّيْسُ المُسْتَعارُ ؟

١٥ـ كَيْفَ تَتِمُّ مُراجَعَةُ الزَّوْجَةِ المُطَلَّقَةِ في كُلٍّ مِنَ الحالاتِ التَّالِيَةِ :

أـ بَعْدَ الطلْقَةِ الأُولى وَ المَرْأَةُ في عِدَّتِها .

ب ـ بَعْدَ الطَّلْقَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ انْتِهاءِ العِدَّةِ .

ج ـ بَعْدَ الطَّلْقَةِ الثَّانِيَةِ وَالمَرْأَةُ في عِدَّتِها .

د ـ بَعْدَ الطَّلْقَةِ الأُولى بَعْدَ انْتِهاءِ العِدَّةِ .

هـ ـ بَعْدَ الطَّلْقَةِ الثَّالِثَةِ .

نَشاطٌ :

١ـ يُسَمَّى الطَّلاقُ رَجْعِيّاً ، اُكْتُبْ في دَفْتَرِكَ سَبَبَ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ .

٢ـ هَاتِ حَديثَيْنِ عَنِ الرَّسولِ ﷺ فيهِما حُقوقُ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ عَلى الآخَرِ ، وَٱكْتُبْهُما في دَفْتَرِكَ .

٣ـ اسْتَنْتِجِ الحِكْمَةَ مِنْ جَعْلِ اللهِ القِوامَةَ بِيَدِ الرَّجُلِ ، وَلَيْسَ بِيدِ المَرْأَةِ ، واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

٤ـ ارْجِعْ إِلى أَحَدِ كُتُبِ الفِقْهِ ، وَ اسْتَخْرِجْ رَأْيَ الفُقَهاءِ ، فِيمَنْ يُطَلِّقُ زَوْجَهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً ثَلاثَ طَلْقاتٍ ، فَيَقولُ لَها : أَنْتِ طالِقٌ ثَلاثاً ، وَاكْتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرس الرابع والعشرون

سورة البقرة - القسم السبعون

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)﴾

معاني المفردات :

طَلَّقْتُمُ النِّساءَ	: الطَّلاقُ الرَّجْعِيُّ .
هُزُواً	: سُخْرِيَةً بِالتَّهاوُنِ في المُحافَظَةِ عَلى آياتِ اللهِ .
تَعْضلوهُنَّ	: تُضَيِّقوا عَلَيْهِنَّ وتَمْنَعونَهُنَّ .



﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)﴾ .

ما زالَتِ الآياتُ الكَريمَةُ تَتَحَدَّثُ عَنْ أَحْكامِ الطَّلاقِ ، فَهَذِهِ الآياتُ تُبَيِّنُ لِلأَزْواجِ أَنَّهُمْ إذا طَلَّقوا نِساءَهُمْ طَلاقاً رَجْعِياً ، وَقارَبْنَ عَلى انْتِهاءِ العِدَّةِ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَعْزِموا عَلى أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إمّا أَنْ

تُمْسِكوا زَوْجاتِكُمْ ، بِمَعْنى : تُرْجِعوهُنَّ بما هُوَ مَعْروفٌ في شَرْعِ اللهِ تَعالى ، وَبما تُقِرُّهُ الأَخْلاقُ الحَسَنَةُ والعُقولُ السَّليمَةُ ، وَإِمَّا أَنْ تُسَرِّحوهُنَّ إذا لَمْ تَكُنْ لَكُمْ رَغْبَةٌ فيهِنَّ ، بِأَنْ تُؤَدّوا حُقوقَهُنَّ ، وَلا تَذْكروهُنَّ بِسوءٍ ، فَالعاقِلُ الَّذي لا يَذْكُرُ ما يَكونُ بَيْنَهُ وبَيْنَ أَهْلِهِ .

﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾ أَيْ : لا تُراجِعوا زَوْجاتِكُمْ مُريدينَ بِذَلِكَ مُضارَّتَهُنَّ وإِيذاءَهُنَّ لِتَعْتَدوا عَلَيْهِنَّ ، وَفي الآيَةِ زَجْرٌ لِمَنْ يُطَلِّقُ زَوْجَهُ ، حَتَّى إذا قارَبَتْ عِدَّتُها عَلى الانْتِهاءِ وَلَمْ يَبْقَ لَها إِلاَّ أَيَّامٌ ، أَرْجَعَ زَوْجَتَهُ ، وَهُوَ لا يَقْصِدُ الإِبْقاءَ عَلى الحَياةِ الزَّوْجِيَّةِ ، بَلْ يَقْصِدُ الإِضْرارَ بِها وَالتَّضْييقَ عَلَيْها حَتّى تَفْدِيَ نَفْسَها بِدَفْعِ شَيءٍ مِنَ المالِ .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ وَهَذا وَعيدٌ شَديدٌ مِنَ اللهِ تَعالى لِمَنْ يَفْعَلُ ما نَهى عَنْهُ ، مِنْ إِمْساكِ الزَّوْجَةِ بِقَصْدِ إِيقاعِ الضَّرَرِ بها ، فَمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ظَلَمَ نَفْسَهُ في الدُّنْيا بِسُلوكِ طَريقِ الشَّرِّ . وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعالى ظُلْمَ النِّساءِ ظُلْماً لأَنْفُسِهِمْ ، لأَنَّ هَذا الأَمْرَ سَيُؤَدِّي إِلى اخْتِلافِ المُعاشَرَةِ الزَّوْجِيَّةِ واضْطِرابِها ، وَشُيوعِ العَداوَةِ والبَغْضاءِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وأَهْلِهِما . وَأَكَّدَ سُبْحانَهُ هَذا التَّحْذيرَ لِلأَزْواجِ بِقَوْلِهِ :

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ وَآياتُ اللهِ هِيَ الأَحْكامُ الَّتي شَرَعَها اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى في شَأْنِ الطَّلاقِ وَغَيْرِهِ ، فَلا تَتَهاوَنوا أَيُّها النَّاسُ بِتِلْكَ الحُدودِ الَّتي حَدَّها اللهُ لَكُمْ ، لأَنَّ التَّهاوُنَ فِيها يُعَدُّ اسْتِهْزاءً بِآياتِ اللهِ تَعالى ، وَفي هَذا وعيدٌ شَديدٌ لِمَنْ يَتَعَدَّى حُدودَ اللهِ تَعالى ، وَفيهِ كَذَلِكَ حَثٌّ على احْتِرامِ رَوابِطِ الزَّوْجِيَّةِ ، وَالبُعْدِ عَمَّا كانَ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ مِنَ العَبَثِ بِالصِّلَةِ الزَّوْجِيَّةِ ، حَيْثُ كانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ ويَقولُ عَنْ ذَلِكَ : لَعِبْتُ ولَهَوْتُ .

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تَعالى الأَزْواجَ أَنْ يَذْكُروا ما أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الرَّحْمَةِ الَّتي جَعَلَها بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وَجَعَلَ النِّكاحَ وَالطَّلاقَ وَالرَّجْعَةَ بِأَيْديهِمْ ، وَلَمْ يُضَيِّقْ عَلَيْهِمْ في الزَّواجِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَذْكُروا ما أَنْزَلَ اللهُ تَعالى مِنْ آياتٍ تَتَعَلَّقُ بِأَحْكامِ الزَّوْجِيَّةِ الَّتي تَجْعَلُ كُلاًّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ في هَناءٍ وسَعادَةٍ .

وَقَدْ ذَكَّرَنا سُبْحانَهُ بِنِعْمَتِهِ عَلَيْنا في تِلْكَ التَّشْريعاتِ العَظيمَةِ ، لِتَكونَ عِظَةً لَنا ، قَالَ تَعالى : ﴿ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ أَيْ : يَعِظُكُمْ بِالكِتابِ وَالحِكْمَةِ ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فَلا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يُعْلِنُهُ الإِنْسانُ أَوْ يُخْفيهِ ، وَلا يَرْضى سُبْحانَهُ مِنَ العَبْدِ إِلاَّ الالْتِزامَ بِالحُدودِ الَّتي حَدَّها ، وَالعَمَلَ بِأَحْكامِهِ وَإِخْلاصَ النِّيَّةِ لَهُ سُبْحانَهُ .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتُبَيِّنَ ما يَنْبَغي أَنْ يَكونَ بَعْدَ إِمْضاءِ الطَّلاقِ :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ يُخاطِبُ سُبحانَهُ المُؤْمِنينَ ويَقولُ لَهُمْ : إذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ، وَانتُهَتْ عِدَّتُهُنَّ وانقَضَتْ ، وَأَرادَ بَعْدَ ذَلِكَ أَزْواجُهُنَّ أَنْ يَنْكِحوهُنَّ مَرَّةً أُخْرى وَأَرَدْنَ هُنَّ ذَلِكَ فَلا تَمْنَعوهُنَّ ، إذا رَضِيَ كُلٌّ مِنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ بِالآخَرِ زَوْجاً .

عَنْ مَعْقَلِ بنِ يَسارٍ قَالَ : « كَانَتْ لي أُخْتٌ ، فَأَتاني ابْنُ عَمٍّ لي فَأَنْكَحتُها إِيّاهُ ، وَكانَتْ عِنْدَهُ ما كانَتْ ، ثُمَّ طَلَّقَها ، وَلَمْ يُراجِعْها حَتّى انْقَضَتِ العِدَّةُ ، فَهَوِيَها وَهَوِيَتْهُ ، ثُمَّ خَطَبَها مَعَ الخُطّابِ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَكْرَمْتُكَ بها ، وزَوَّجْتُكَها فَطَلَّقْتَها ثُمَّ جِئتَ تَخْطِبُها ، واللهِ لا تَرْجِعُ إِلَيْها أَبَداً ، وَكانَ رَجُلاً لا بَأْسَ بِهِ ، وَكانَتِ المَرْأَةُ تُريدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ ، فَعَلِمَ اللهُ تَعالى حاجَتَهُ إِلَيْها وَحاجَتَها إِلى بَعْلِها فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ ، فَفِيَّ نَزَلَتْ ، فَكَفَّرْتُ عَنْ يَميني ، وأَنْكَحْتُها إِيّاهُ »[1] .

وَفي قَوْلِهِ تَعالى : ﴿بَيْنَهُم﴾ دَليلٌ عَلى أَنَّهُ يَجوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَخْطِبَ مَنْ كانَتْ امْرَأَتُهُ مِنْ قَبْلُ إِلى نَفْسِها ، وَيَتَّفِقَ مَعَها عَلى التَّزَوُّجِ بها ، وَيَحْرُمُ عَلى وَلِيِّها أَنْ يَمْنَعَها ، وَفي قَوْلِهِ : ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ دَليلٌ على أَنَّ الوَلِيَّ إذا مَنَعَها مِنَ الزَّواجِ بِغَيْرِ كُفءٍ فَهُوَ أَمْرٌ غَيْرُ مُحَرَّمٍ ، كَأَنْ تَتَزَوَّجَ الشَّرِيفَةُ في قَوْمِها رَجُلاً خَسيساً يَلْحَقُها مِنْهُ عارٌ ، وَيَمَسُّ كَرامَةَ قَوْمِها مِنْهُ أَذىً .

وَالخِطابُ في الآيَةِ لِلأُمَّةِ جَميعاً ، فَهِيَ مُتَكامِلَةٌ في مَصالِحِها ، ثُمَّ قَالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ ذَلِكَ اسْمُ إِشارَةٍ لِما تَقَدَّمَ مِنَ الأَحْكام ، يُوعَظُ بِهِ أَهْلُ الإيمانِ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذينَ يَقْبَلونَ الأَحْكامَ عَنِ اللهِ تَعالى ، وَتَخْشَعُ لَهُ قُلوبُهُمْ وَيَتَحَرَّوْنَ طَاعَةَ اللهِ تَعالى وَعَدَمَ مَعْصِيَتِهِ .

﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ ذَلِكُمُ الَّذي تَقَدَّمَ مِنَ النَّهيِ عَنْ عَضْلِ الْمَرْأَةِ فيهِ بَرَكَةٌ وَصَلاحٌ لِحالِكُمْ ، وَفيهِ طُهْرٌ لأَعْراضِكُمْ وَأَنْسابِكُمْ ، وَحِفْظٌ لأَحْسابِكُمْ وَشَرَفِكُمْ ، فَإِنَّ المَرْأَةَ إِذا ما عُومِلَتْ مُعامَلَةً كَريمَةً ، وَلَمْ تُظْلَمْ في رَغَباتِها الْمَشْروعَةِ ، الْتَزَمَتْ في سُلوكِها العَفافَ وَالخُلُقَ الشَّريفَ ، أَمّا إِذا شَعَرَتْ بَالظُّلْمِ وَالامْتِهانِ ، فَقَدْ يَدْفَعُها ذَلِكَ إِلى ارْتِكابِ ما نَهى اللهُ تَعالى عَنْهُ .

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ اللهُ يَعْلَمُ ما لَكُمْ في ذَلِكَ التَّشريعِ مِنَ النَّفْعِ والصَّلاحِ ، فَهُوَ العَليمُ بِوجوهِ الفائِدَةِ في أَحْكامِهِ ، وَالسِّرُّ فِيما يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهى عَنْهُ ، وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمونَ ذَلِكَ عِلْماً صَحيحاً .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، حديث رقم ٤٢٥٥ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الرَّابِطَةُ الزَّوْجِيَّةُ مِنْ أَقوى الرَّوابِطِ وَأَقْدَسِها فَيَنْبَغي عَلى كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ المُحافَظَةُ عَلَيْها لِتُؤْتيَ ثِمارَها مِنَ التَّوادِّ والتَّراحُمِ .

٢ـ الطَّلاقُ مِنَ الأَحْكامِ الَّتي شَرَعَها الله تَعالى ، فَلا يَنْبَغي التَّهاوُنُ في هَذا الحُكْمِ والتَّلاعُبُ بِهِ .

٣ـ المُؤْمِنُ حَقّاً هُوَ الَّذي يَتَّعِظُ بِآياتِ اللهِ تَعالى، وَمَنْ لا يَعْمَلُ بِآياتِ اللهِ وَيَتَّعِظُ بِها فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ.

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَتى يَحِلُّ لِلْرَّجُلِ إِرْجاعُ زَوْجِهِ بَعْدَ طَلاقِها رَجْعِيّاً ، بِغَيْرِ عَقْدٍ جَديدٍ ؟

٢ـ خَيَّرَ الإِسْلامُ المُطَلِّقَ رَجْعِيّاً بَيْنَ أَمْرَيْنِ ، اذْكُرْهُما .

٣ـ ما مَعْنى ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا﴾؟ وَكَيْفَ يَعْتَدي الرَّجُلُ عَلى زَوْجِهِ في قَضِيَّةِ الرَّجْعَةِ؟

٤ـ لِمَ جَعَلَ اللهُ تَعالى الإِنْسانَ الظّالِمَ لِلْمَرْأَةِ ظالِماً لِنَفْسِهِ ؟

٥ـ ما العَلاقَةُ بَيْنَ الآياتِ المُتَحدِّثَةِ عَنِ الطَّلاقِ ، وَاتِّخاذِ الآياتِ هُزُواً ؟

٦ـ ما مَعْنى عَدَمُ اتِّخاذِ آياتِ اللهِ هُزُواً ؟

٧ـ ثَلاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ وهَزْلُهُنَّ جِدٌّ ، اذْكُرْهُنَّ بِوضوحٍ .

٨ـ ما تِلْكَ النِّعْمَةُ الَّتي امْتَنَّ اللهُ بِها عَلى الأَزْواجِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللهِ﴾ ؟

٩ـ بَيِّنْ مَعْنى : ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ في أَوَّلِ الآياتِ ، وَ ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ في آخِرِ الآيَةِ .

١٠ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ﴾ ؟ وَمَنِ المُخاطَبُ ؟

١١ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿إِذَا تَرَاضَو بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ؟

١٢ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً شَريفاً يُبيِّنُ أَنَّهُ لا مُزاحَ في الطَّلاقِ .

الدرس الخامس والعشرون

سورةُ البقرةِ ـ القِسْمُ الحادي والسَّبعون

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

حَوْلَيْنِ : سَنَتَيْنِ .

المَوْلودِ لَهُ : الأَبُ .

وُسْعَها : طاقَتَها وَقَدْرَ إِمْكانِها .

فِصالاً : فِطاماً لِلطِّفْلِ .

تَسْتَرْضِعوا : تَخْتاروا لأَوْلادِكُمْ مُرْضِعاً .

يَذَرونَ : يَتْرُكونَ .

يَتَرَبَّصْنَ : يَنْتَظِرْنَ .

التَّفْسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَنْ أَحْكامِ الطَّلاقِ ، وَتَتَحَدَّثُ هَذِهِ الآياتُ عَنْ حُكْمٍ آخَرَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالأُسْرَةِ وَهُوَ الرَّضاعُ . قالَ تَعالى :

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ .

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ ﴾ الوالِداتُ هُنَّ الأُمَّهاتُ ، وقَدْ جاءَ هَذا اللَّفْظُ لِلإشارَةِ إلى أَنَّهُنَّ اللّائي وَلَدْنَ هَؤُلاءِ الأَوْلادِ . وَهَؤُلاءِ الأُمَهاتُ ، سَواءٌ كُنَّ ما زِلْنَ في عِصْمَةِ الأَزْواجِ ، أَمْ كُنَّ مُطَلَّقاتٍ ، عَلَيْهِنَّ أَنْ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ مُدَّةَ عامَيْنِ ، وَهَذا الأَمْرُ المَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿يُرْضِعْنَ﴾ إذ الجُمْلَةُ خَبَرِيَّةٌ لَفْظاً ، إِنْشائِيَّةٌ مَعْنىً ؛ هَذا الأَمْرُ يُفيدُ الوُجوبَ ؛ إِذْ يَجِبُ عَلى المَرْأَةِ إِرْضاعُ وَلَدِها إذا فُقِدَ أَحَدُ الشُّروطِ التّالِيَةِ :

١ـ قُدْرَةُ الأَبِ عَلى اسْتِئْجارِ المُرْضِعِ .

٢ـ وُجودُ مُرْضِعٍ غَيْرِ الأُمِّ .

٣ـ قَبولُ الوَلَدِ لِلبَنِ مُرْضِعٍ أُخْرى غَيْرِ أُمِّهِ .

فَإِذا تَوافَرَتْ هَذِهِ الشُّروطُ يَكونُ الأَمْرُ لِلنَّدْبِ ، لأَنَّ الأَصْلَ في الأُمِّ أَنْ تُرْضِعَ وَلَدَها ، لأَنَّهُ أَفْضَلَ لَبَنٍ لِلطِّفْلِ بِاتِّفاقِ أَهْلِ الطِّبِّ ، فَالوَلَدُ قَدْ تَكَوَّنَ مِنْ دَمِ أُمِّهِ ، وَلَمَّا خَرَجَ مِنْ بَطْنِها تَحَوَّلَ دَمُها إلى لَبَنٍ لِيَتَغَذّى مِنْه ، وَهُوَ مُنْفَصِلٌ مِنْها .

وَتَحْديدُ الرَّضاعَةِ بِالحَوْلَيْنِ لَيْسَ لِلْوُجوبِ ، فَيَجوزُ لِلأُمِّ أَنْ تَفْطِمَ ابْنَها قَبْلَ ذَلِكَ ، وَما يَدُلُّ عَلى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ ﴾ وَالحِكْمَةُ في تَحْديدِ هَذِهِ المُدَّةِ في الرَّضاعِ العِنايَةُ بِشُؤونِ الطِّفْلِ ، فَحَليبُ الأُمِّ هُوَ الغِذاءُ النّافِعُ لِلطِّفْلِ في هَذِهِ السِّنِّ ، وَهُوَ كَذَلِكَ مُحْتاجٌ إلى شَفَقَةٍ وَعِنايَةٍ تامَّةٍ لا تَتوافَرانِ عِنْدَ غَيْرِ الأُمِّ ، وَإِذا رَأى الوالِدانِ المَصْلَحَةَ في إِرْضاعِ الطِّفْلِ أَقَلَّ مِنْ حَوْلَيْنِ فَلَهُما ذَلِكَ ، إِذ هُما اللَّذانِ يَرْعَيانِ صِحَّةَ الطِّفْلِ ، وَكَثيرٌ مِنَ الأَطْفالِ يَسْتَغْنونَ عَنْ حَليبِ الأُمِّ ، بِأَنواعٍ مِنَ الطَّعامِ . وَكَما يَتَعَيَّنُ عَلى المَرْأَةِ أَنْ تُرْضِعَ وَلَدَها وَهذا حَقٌّ مِنْ حُقوقِها ، فَيَجِبُ عَلى الرَّجُلِ أَنْ يُمَكِّنَ مُطَلَّقَتَهُ مِنْ إِرْضاعِ وَلَدِها المُدَّةَ التّامَةَ لِلرَّضاعِ ، فَما المُطَلَّقاتُ إِلاّ والِداتٌ ، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ ﴾ فَجاءَتْ ﴿كَامِلَيْنِ﴾ تَأْكيداً عَلى أَنَّ المَقْصودَ حَوْلَيْنِ بِطولِهِما ، وَلَيْسَ حَوْلاً وَبَعْضَ الحَوْلِ ، أَيْ : سَنَةً وَشَهْرَيْنِ مَثَلاً أَوْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ .

﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾ أي : عَلى الوالِدِ ، وَقَدْ قالَ تَعالى : المَوْلودِ لَهُ ، وَ لَمْ يَقُلِ الوالِدَ ، لِيَعْلَمَ أَنَّ الوالِداتِ إِنَّما وَلَدْنَ الأَوْلادَ لَهُمْ ، فَالأَوْلادُ لِلآباءِ ، وَلِذَلِكَ يَنْسِبونَهُمْ إِلَيْهِمْ لا إلى غَيْرِهِمْ ، وَمَا دُمْنَ قَدْ حَمَلْنَ لَهُمْ ، فَعَلى الآباءِ أَنْ يُنْفِقوا عَلى الأُمَّهاتِ ما فيهِ كِفايَتُهُنَّ مِنْ

طَعام وشَراب ، لِيَقُمْنَ بخِدْمَةِ الوَلَدِ ، ويَحْفَظْنَهُ ، ويَرْعَيْنَ شُؤونَهُ ، وَأَنْ يَكونَ هَذا الإنْفاقُ بِحَسَبِ المَعروفِ الَّذي يَليقُ بحالِ المَرْأَةِ في البيئَةِ الَّتي تَعيشُ فيها .

﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ تَعْليلٌ لِما أَوْجَبَهُ اللهُ عَلى الوَالِدِ مِنْ نَفَقَةٍ بالمَعْروفِ لِمَنْ أَرْضَعْنَ الطِّفلَ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعالى لا يُكَلِّفُ عِبادَهُ ما لا يسْتَطيعونَ ، فلا يُلْزَمُ الوَالِدُ بِالنَّفَقَةِ إلاَّ حَسَبَ قُدْرَتِهِ ، وَتِلْكَ هِيَ سُنَّةُ اللهِ تَعالى في تَشْريعاتِهِ .

﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ هَذهِ هِيَ العِلَّةُ لِتَشْريعِ ما سَبَقَ ، إذْ لا يَجوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يُوقِعَ الضَّرَرَ بِالمَرْأَةِ بِسَبَبِ الوَلَدِ ، أَوْ أَنْ تُوقِعَ المَرْأَةُ الضَّرَرَ بالرَّجُلِ بِسَبَبِهِ ، فَلا يَجوزُ أَنْ تَمْتَنِعَ المَرْأَةُ عَنْ إرْضاعِ وَلَدِها تَعجيزاً لِلوالِدِ بالتِماسِ الظِّئْرِ ، أَوْ تُكَلِّفَهُ مِنَ النَّفَقَةِ فَوْقَ وُسْعِهِ ، أَوْ تُقَصِّرَ في تَرْبِيَةِ الوَلَدِ لِتَغيظَ وَالِدَهُ ، وهُوَ كَذَلِكَ لا يَجوزُ أَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْها في النَّفَقَةِ مَعَ الإرْضاعِ ، أَوْ يَمْنَعَها مِنْ رُؤْيَتِهِ ، وَلَوْ بَعْدَ مُدَّةِ الرَّضاعِ وَالحَضانَةِ .

﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ مَعْطوفٌ عَلى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ ﴾ والوَارِثُ هُوَ مَنْ يَصيرُ إلَيْهِ مَالُ المَيِّتِ بَعْدَ المَوْتِ . وَاسْمُ الإشارَةِ (ذَلِكَ) يَعودُ عَلى الرِّزْقِ وَالكِسْوَةِ وَتَرْكِ المُضارَّةِ ، وَمَعْنى الآيَةِ : عَلى وارِثِ الأَبِ أَو وَارِثِ الصَّبِيِّ ، أَي : مَنْ سَيَرِثُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، عَلَيْهِ مِثْلُ ما يَجِبُ عَلى الأَبِ مِنَ النَّفَقَةِ ، وَتَرْكِ الإضْرارِ بالأُمِّ المُرْضِعِ . فَهَذِهِ الآيَةُ قَدْ بَيَّنَتْ أَنَّ مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ نَفَقَةُ الصَّبِيِّ إذا فُقِدَ الأَبُ ، أَوْ إذا كانَ الأَبُ مَوْجوداً ، وَلَكِنَّهُ عاجِزٌ عَنِ الإنْفاقِ ، هُوَ القَريبُ الَّذي يَرِثُ الصَّبِيَّ أَوْ أَباهُ .

﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ الجُمْلَةُ مَعْطوفَةٌ عَلى قَوْلِهِ : ﴿ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ وَمَعْنى الآيَةِ : إنْ أَرادَ الوَالِدانِ فِطاماً لِوَلَدِهِما قَبْلَ الحَوْلَيْنِ ، وَكانَتْ هَذِهِ الإرادَةُ عَنْ تَراضٍ مِنْهُما ، وَتَشاوُرٍ في شَأْنِ الوَلَدِ ، وَخَلَصا إلى أَنَّ الفِطامَ قَبْلَ الحَوْلَيْنِ لَنْ يَضُرَّهُ وَيؤْذيَهُ فَلا بَأْسَ في ذَلِكَ ، وَلابُدَّ مِنْ رِضا الوالِدَيْنِ ، وَلَيْسَ الأَمْرُ لأَحَدِهِما فَقَط ، لأَنَّ رِضا واحِدٍ مِنْهُما قَدْ يُضِرُّ بِهِ ، فَلا بُدَّ مِنْ رِعايَةِ مَصْلَحَةِ الوَلَدِ ، ولا يَكونُ هَذا إلاَّ بِرِضاهُما معاً .

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أَي : إذا أَرَدْتُمْ أَيُّها الآباءُ أَنْ تَأْتوا بِغَيْرِ الأُمِّ لِتُرْضِعَ أَوْلادَكُمْ ، وَرَضِيَتِ الأُمُّ بِذَلِكَ ، واتَّفَقْتُمْ عَلى هَذا الأَمْرِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ إثْمٌ ما دُمْتُمْ تَبْغونَ مَصْلَحَةَ أَوْلادِكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ أَنْ تُسَلِّموا هَؤُلاءِ المَراضِعَ أُجورَهُنَّ بِالطَّريقَةِ الَّتي يُقِرُّها الشَّرْعُ ، وَما هُوَ مُتعارَفٌ عَلَيْهِ ، أَيْ : ما يُسَمَّى بِأَجْرِ المِثْلِ ، وَفي هَذا الشَّرْطِ مَصْلَحَةُ المُرْضِعِ والوَلَدِ وَالوالِدِ ، لأَنَّ المُرْضِعَ إذا لَمْ تُعامَلِ المُعامَلَةَ الحَسَنَةَ المُرْضِيَةَ بِأَخْذِ أَجْرِها تامّاً ، لا تَهْتَمُّ بِمُراعاةِ الطِّفْلِ ، وَلا تُعْنى بِإرْضاعِهِ وَنَظافَتِهِ وَسائِرِ شُؤونِهِ .

وخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ الْتَزِموا بِما ذُكِرَ لَكُمْ مِنَ الأَحْكامِ ،

وَاتَّقوا اللهَ في ذَلِكَ ، وَلا تُقَصِّروا في شَيءٍ مِنْها ، واعْلَموا عِلْمَ اليَقينِ أَنَّ اللهَ بَصيرٌ بِما تَعْمَلونَ ، فَهُوَ يُحْصي لَكُمْ عَمَلَكُمْ وَيُجازيكُمْ عَلَيْهِ .

عِدَّةُ المُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها :

وَبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْ عِدَّةِ المُطَلَّقَةِ ، وَبَيَّنَتْ حُكْمُ إِرْضاعِ الطِّفْلِ ، انْتَقَلَتْ لِلحَديثِ عَنْ عِدَّةِ المُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها :

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ خِطابٌ لِلأَزْواجِ ، أَي : الَّذينَ يَتَوفَّاهُمُ اللهُ بِأَنْ يَقْبِضَ أَرْواحَهُمْ وَيُميتَهُمْ ، وَيَتْرُكونَ خَلْفَهُمْ نِساءَهُم ، فَعلى هَذِهِ المَرْأَةِ الَّتي يُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها أَنْ تَنْتَظِرَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيّامٍ ، وهَذِهِ هِيَ عِدَّتُها ، وَفاءً لِحَقِّ الزَّوْجِ وَاسْتِبْراءً لِلرَّحِمِ ، وَإِحْداداً عَلى المَيِّتِ .

وَهَذِهِ العِدَّةُ لِلْمَرْأَةِ المُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها سَواءٌ دَخَلَ بِها زَوْجُها أَمْ لَمْ يَدْخُلْ ، وَسَواءٌ كانَتْ صَغيرَةً أَمْ كَبيرةً ، وَلِذا كانَتِ العِدَّةُ بِالأَشْهُرِ وَلَيْسَتْ بِالقُروءِ ـ كَما هُوَ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُطَلَّقَةِ ، فَهَؤُلاءِ جَميعُهُنَّ لا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ يَشْتَرِكْنَ بِهِ ، فَكانَتِ العِدَّةُ بِالأَشْهُرِ ، وَذَلِكَ لأَنَّ الصَّغيرَةَ مَثَلاً لَمْ تَحِضْ بَعْدُ ، والكَبيرَةُ قَدْ يَئِسَتْ وَلَمْ تَعُدْ تَحيضُ ، ثُمَّ إِنَّ العِدَّةَ لِلْمُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها لَوْ قُدِّرَتْ بِالقُرْءِ ، وَهُوَ أَمْرٌ لا يَعْلَمُهُ إِلاّ صاحِبَةُ الشَّأْنِ ، وَهِيَ المَرْأَةُ ، فَرُبَّما تَدْفَعُها الرَّغْبَةُ في الزَّواجِ إِلى الكَذِبِ ، فَتَدَّعي أَنَّ عِدَّتَها قَدِ انْتَهَتْ ، وَقَدْ عَرَفْنا أَنَّ العِدَّةَ بِالنِسْبَةِ لِلمُطَلَّقَةِ حَقٌّ لِلزَوْجِ المُطَلِّقِ ، أَمّا عِدَّةُ المُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها فَهُوَ حَقٌّ خالِصٌ للهِ ، وَلِكَيْ لا يَكونَ هُنا مُساغٌ لِلْكَذِبِ جُعِلَتِ العِدَّةُ بِالأَيّامِ وَالأَشْهُرِ ، وَهَذا أَمْرٌ يَسْتَطيعُ مَعرِفَتَهُ الجَميعُ .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ إذا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَفْعَلْنَ ما كانَ مَحْظوراً عَلَيْهِنَّ مِنَ التَّزَيُّنِ ـ ضِمْنَ ما حَدَّهُ الشَّرْعُ ـ أَوِ الخُروجَ مِنَ المَنْزِلِ ، أَوْ التَّعَرُّضَ لِلْخُطّابِ .

وَقَدْ أَلْغَتْ هَذِهِ الآيَةُ ما كانَ مَعروفاً في الجاهِلِيَّةِ ، حَيْثُ كانَتْ تَحُدُّ المَرْأَةُ على زَوْجِها مُدَّةَ سَنَةٍ كامِلَةٍ تَقْضيها في مَكانٍ ضَيِّقٍ في بَيْتِها وَتُغْلِقُ على نَفْسِها .

عِنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أَبي سَلَمَةَ أَنَّها أَخْبَرَتْ حُمَيْدَ بنَ نافِعٍ هَذِهِ الأَحاديثَ الثَّلاثَةَ قالَتْ : دَخَلْتُ على أُمِّ حَبيبَةَ زَوْجِ النَّبيِّ ﷺ حينَ تُوُفِّيَ أَبوها أَبو سُفْيانَ بنُ حَرْبٍ ، فَدَعَتْ أُمُّ حَبيبَةَ بِطيبٍ فِيهِ صُفْرَةُ خَلوقٍ أَوْ غَيْرِهِ ، فَدَهَنَتْ مِنْهُ جارِيَةً ثُمَّ مَسَّتْ بِعارِضَيْها ، ثُمَّ قالَتْ : وَاللهِ مالي بِالطِّيبِ مِنْ حاجَةٍ ، غَيْرَ أَنّي

سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : لا يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ أَنْ تَحُدَّ على مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاثِ لَيالٍ إلاَّ عَلى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَي : مُحيطٌ بِدَقائِقِ أَعْمالِكُمْ ، فَلا يَخْفى عَلَيْهِ سُبْحانَهُ شَيْءٌ مِنْها ، فَإِذا الْتَزَمْتُمْ أَنْتُمْ وَنِساؤُكُمْ بِأَحْكامِ اللهِ تَعالى ، وَوَقَفْتُمْ عِنْدَ حُدودِهِ تعالى ، أَصْلَحَ أَحْوالَكُمْ ، وَوَسَّعَ مَعيشَتَكُمْ في الدُّنْيا ، وَأَحْسَنَ جَزاءَكُمْ في الآخِرَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ غَرْسُ مَعاني الإِخاءِ وَالتَّراحُمِ وَالتَّكافُلِ بَيْنَ أَبْناءِ الأُسْرَةِ ، فَالقادِرُ يُنْفِقُ عَلى العاجِزِ ، وَالغَنِيُّ يَمُدُّ الفَقيرَ بِحاجَتِهِ .

٢ـ حَثَّتِ الآياتُ عَلى اسْتِخْدامِ المَشورَةِ في أَقَلِّ الأَعْمالِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِتَرْبِيَةِ الأَوْلادِ ، فَمِنْ بابِ أَوْلى اسْتِعْمالُها في أَجَلِّ الأَعْمالِ وَأَعْظَمِها وَأَخْطَرِها .

٣ـ القِيامُ بِحُقوقِ الأَوْلادِ بِالتَّراضي وَالتَّشاوُرِ بَيْنَ الأُمِّ والأَبِ ، وَعَدَمُ مُضارَّةِ أَحَدِهِما لِلآخَرِ بِسَبَبِ الأَوْلادِ .

٤ـ حِدادُ المَرْأَةِ عَلى المَيِّتِ لا يَحِلُّ أَنْ يَتَعَدَّى ثَلاثَةَ أَيّامٍ إلاّ عَلى الزَّوْجِ ، فَتَحِدُّ المَرْأَةُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيّامٍ .

٥ـ لا صَلاحَ لِلْمُجْتَمَعِ وَ لِلأُسْرَةِ إلاَّ بِالاعْتِصامِ بِهَدْيِ اللهِ تَعالى وسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بَيِّنْ معانِيَ المُفْرداتِ والتّراكيبِ التَّاليَةِ :

حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ ، أَرادا فِصالاً ، لا جُناحَ ، أَنْ تَسْتَرْضِعوا .

٢ـ مَنِ المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَٱلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾ ؟

٣ـ الجُمْلَةُ الخَبَرِيَّةُ ﴿يُرْضِعْنَ﴾ تُفيدُ الأَمْرَ ، هَلِ الأَمْرُ هُنا لِلوُجوبِ أَمْ لِلنَّدْبِ ؟

٤ـ مَتى يَكونُ الأَمْرُ لِلْوُجوبِ في الجُمْلَةِ السَّابِقَةِ ؟

٥ـ ما فائِدَةُ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿كَامِلَيْنِ﴾ ؟

٦ـ كَيْفَ تَكونُ مُضارَّةُ الوالِدِ بِالأُمِّ المُرْضِعِ ؟ وَمَضارَّةُ المَرْأَةِ لِلوالِدِ ؟

٧ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ ؟ وَعَلامَ تَدُلُّ هَذِهِ الآيَةُ ؟

٨ـ ما المَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ؟

٩ـ لِمَنِ الخِطابُ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ ؟

١٠ـ لِماذا كانَتْ عِدَّةُ المُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها بِالأَشْهُرِ ؟

١١ـ ما عِدَّةُ المُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها ؟

١٢ـ ما الواجِبُ عَلى المَرْأَةِ أَنْ تَفْعَلَهُ في أَثْناءِ عِدَّتِها ؟



ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ الحَديثَ الشَّريفَ الَّذي يُبَيِّنُ مُدَّةَ حِدادِ المَرْأَةِ عَلى مَنْ تُوفِّيَ مِنْ أَقارِبِها .

* * *

الدرس السادس والعشرون

سُورَةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ الثّاني والسَّبْعونَ

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

معاني المفردات

عَرَّضْتُمْ : التَّعريضُ أَنْ تُفْهِمَ المُخاطَبَ ما تُريدُ بالإشارَةِ والتَّلميحِ دونَ التَّصْريحِ .
أَكْنَنْتُمْ : الإكْنانُ : ما يُضْمِرُهُ مَنْ يُريدُ الزَّواجَ في نَفْسِهِ ، وَيَعْزِمُ عَلَيْهِ مِنَ التَّزَوُّجِ بِالمَرْأَةِ .
خِطْبَةِ النِّساءِ : طَلَبُ الرَّجُلِ المَرْأَةَ لِلزَّواجِ .
تَعْزِموا : العَزْمُ عَلى الشَّيْءِ : التَّصْميمُ عَلى تَنْفيذِهِ .
الكِتابُ : المَفْروضُ .
أَجَلَهُ : نِهايَتَهُ .
تَمَسّوهُنَّ : تُجامِعوهُنَّ .
فَريضَةً : مَهْراً .
المُوسِعِ : يُقالُ أَوْسَعَ الرَّجُلُ إِذا صارَ ذا سَعَةٍ في المالِ وَبَسْطَةٍ .
المُقْتِرِ : يُقالُ أَقْتَرَ الرَّجُلُ إِذا قَلَّ مالُهُ .
مَتاعاً : حَقّاً ثابِتاً .



التَّفسيرُ :

تَناوَلَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ الحَديثَ عَنِ المُطَلَّقَةِ والمُتَوَفَّى عَنْها زَوْجُها ، وَجاءَتِ الآياتُ هُنا لِتَتَحَدَّثَ عَنْ حُكْمِ خِطْبَةِ النِّساءِ وَمُتْعَةِ المُطَلَّقاتِ قَبْلَ الدُّخولِ . قالَ تَعالى :

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾ .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ لا إِثْمَ عَلى الرَّجُلِ أَنْ يُعَرِّضَ وَيُلَوِّحَ بِأَنَّهُ يُريدُ التَّزَوُّجَ مِنْ فُلانَةٍ وَهِيَ ما تَزالُ في عِدَّةِ الزَّواجِ البائِنِ ، أَوْ عِدَّةِ الوَفاةِ ، أَمّا في عِدَّةِ الطَّلاقِ الرَّجْعِيِّ فلا يَجوزُ لَهُ ذَلِكَ ، لأَنَّ المَرْأَةَ ما تَزالُ في عِصْمَةِ زَوْجِها ، وَذَلِكَ كَأَنْ يَقولَ لِلمَرْأَةِ : وَدِدْتُ لَوْ أَنَّ اللهَ وَفَّقَني لِلزواجِ مِنْ مِثْلِكِ ، أَوْ يَقولَ لَها : إِنِّي راغِبٌ بِالزَّواجِ ، أَوْ يَقولَ لِوَلِيِّها : لا تَجْعَلْ أَحَداً يَسْبقَني بِها .

فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ أَنْ يَلوِّحَ بِأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَخْطِبَ المَرْأَةَ وَهِيَ في عِدَّتِها ، وَلا إِثْمَ عَلَيْهِ في الرَّغْبَةِ في الزَّواجِ بِها مَعَ إِخْفاءِ ذَلِكَ وَسَتْرِهِ مِنْ غَيْرِ كَشْفٍ وَإِعْلانٍ . وَقَوْلُهُ تَعالى :

﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ أَي : سَتَذْكُرونَ هَؤُلاءِ المُطَلَّقاتِ في أَنْفُسِكُمْ ، وَخَطَراتُ قُلوبِكُمْ لَيْسَتْ بِأَيْديكُمْ ، وَلِذا أَباحَ لَكُمْ سُبْحانَهُ رَحْمَةً بِكُمْ التَّعْريضَ بِالْخِطْبَةِ دُونَ التَّصْريحِ بِها .

﴿ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ أَي : رَخَصَّ اللهُ تَعالى لَكُمْ في التَّعْريضِ ، لأَنَّ التَّعْريضَ أَمامَ النَّاسِ لا عارَ فيهِ وَلا قُبْحَ ، أَمّا ما يَكونُ في السِّرِّ فَهُوَ مَظَنَّةٌ لِلْفِتْنَةِ . وَالسِّرُّ هُنا كِنايَةٌ عَنِ النِّكاحِ ، والمواعَدَةُ سِرّاً أَنْ يَقولَ لَها : إِنِّي عاشِقٌ لَكِ ، عاهِديني أَنْ لا تَتَزَوَّجي غَيْري .

﴿ إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ اسْتِثْناءٌ ، أَي : لا تُواعِدوهُنَّ مُواعَدَةً إِلاّ مُواعَدَةً مَعْروفَةً غَيْرَ مُنْكَرَةٍ شَرْعاً ، وَهِيَ ما تَكونُ بَطَريقِ التَّلْويحِ والتَّعْريضِ . وَالنَّهْيُ هُنا عامٌ يَتناوَلُ كُلَّ مُواعَدَةٍ سِرِّيَّةٍ يُقالُ فيها ما يُنْهى عِنْهُ أَوْ يُسْتَحْيا مِنْهُ في العَلَنِ لِقُبْحِهِ ، أَوْ لأَنَّ أَوانَهُ لَمْ يَحِنْ بَعْدُ .

﴿ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَعْزِموا عَلى الزَّواجِ مِنَ النِّساءِ اللاّتي فارَقَهُنَّ أَزْواجُهُنَّ في أَثْناءِ العِدَّةِ . المَقْصودُ هُنا العَزْمُ المُتَّصِلُ بِالعَقْدِ ، أَي : لا تَعْقِدوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى تَنْتَهِيَ عِدَّتُهُنَّ الَّتي فَرَضَها اللهُ تَعالى ، فَلا يُسوَّغُ لَكُمْ عَقْدُ الزَّواجِ إِلا بَعْدَ انْتِهاءِ العِدَّةِ . وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أَيْ يَعْلَمُ سُبْحانَهُ وَتعالى ما تُضْمِرونَهُ في قُلوبِكُمْ مِنَ العَزْمِ ، فَاحْذَروا أَنْ تَعْزِموا ما حَظَرَهُ اللهُ تَعالى عَلَيْكُمْ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ .
وَهَذا التَّحْذيرُ راجِعٌ إِلى الأَحْكامِ السَّابِقَةِ وَهِيَ :

١ـ النَّهْيُ عَنِ التَّصْريحِ بِخِطْبَةِ النِّساءِ المُعْتَدَّاتِ وَإِباحَةُ التَّعْريضِ بِذَلِكَ ، أَوْ إِخْفاءِ هَذا الأَمْرِ في النَّفْسِ .

٢ـ النَّهْيُ عَنْ مُواعَدَةِ النِّساءِ سِرّاً .

٣ـ النَّهْيُ عَنْ عَزْمِ عُقْدَةِ النِّكاحِ في أَثْناءَ العِدَّةِ .

وَمِنْ حِكْمَةِ اللهِ أَنْ يَقْرِنَ بَيْنَ الأَحْكامِ التَّشْريعيَةِ ، بِالمَوْعِظَةِ تَرْغيباً وتَرْهيباً ، وَتَأْكيداً لِلْمُحافَظَةِ عَلَيْها ، فَفي قَوْلِهِ : ﴿ فَٱحْذَرُوهُۚ ﴾ تَرْهيبٌ وَوَعيدٌ شَديدٌ ، وَفي قَوْلِهِ : ﴿ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ تَرْغيبٌ ، وَفَتْحٌ لأَبوابِ التَّوْبَةِ إِذا ما أَخْطَأَ الإِنسانُ وَتَعَدَّى حُدودَ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ غَفورٌ لِلذَنْبِ ، حَليمٌ لا يُعاجِلُ الإِنْسانَ بِالعُقوبَةِ ، ولَكِنَّهُ يُمْهِلُهُ ، حَتّى يُصْلِحَ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ ما أَفْسَدَهُ .

وانتُقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنِ المُطَلَّقَةِ قَبْلَ الدُّخولِ بِها ، فقالَ تَعالى :

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ وفي الآيَةِ كَنايَةٌ ، هِيَ مِنْ أَلْطَفِ الكناياتِ الَّتي تُربّي في الإِنسانِ حُسْنَ الأَدَبِ ، وَتُجَنِّبُهُ النُّطْقَ بالأَلْفاظِ الفاحِشَةِ ، وَمَعْنى الآيَةِ : لا إِثْمَ عَلَيْكُمْ أَيُّها الرِّجالُ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ لِسَبَبٍ مَشْروعٍ قَبْلَ الدُّخولِ بِهِنَّ ، وَقَبْلَ أَنْ تُقَدِّروا لَهُنَّ مَهْراً مُعَيَّناً ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُعْطوهُنَّ شَيْئاً يَتَمَتَّعْنَ بِهِ ، وَلْتَكُنْ هَذِهِ المُتْعَةُ عَلى حَسَبِ حالِكُمْ في الثَّرْوَةِ وَالغِنى .
وَلَمْ يُحَدِّدْها اللهُ تَعالى ، بَلْ وَكَّلَ تَحْديدَها إِلى اجْتِهادِ المَرْءِ ، لأَنَّهُ أَدْرى بِثَرْوَتِهِ ، إِلاَّ أَنَّ اللهَ تَعالى حَبَّبَ في بَسْطِ اليَدِ وَالسَّخاءِ لِهَذِهِ المُطَلَّقَةِ تَطْييباً لِنَفْسِها ، وَعِوَضاً عَمَّا لَحِقَها مِنَ الضَّرَرِ ، وَلِذَلِكَ أَبْتَدَأَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ عَلَى ٱلْمُوسِعِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِۖ ﴾ أَي : أَعْطوهُنَّ ما يَتَمَتَّعْنَ بِهِ ، وَيَنْتَفِعْنَ بِالقَدْرِ المُتَعارَفِ عَلَيْهِ بَيْنَ النَّاسِ ، فلا يُعْطي الغَنِيُّ مالا يَتَناسَبُ مَعَ غِناهُ وَلا مَعَ حالِ المَرْأَةِ الَّتي طَلَّقَها ، وَلا يُعْطي الفَقيرُ شَيْئاً تافِهاً لا يُسَمَّى مَتاعاً في عُرْفِ النَّاسِ ، وَقَوْلُهُ تَعالى :

﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ جَعَلَ اللهُ هَذا الأَمْرَ وَهُوَ هَذِهِ المُتْعَةُ ، حَقّاً ثابِتاً على الَّذينَ يُحْسِنونَ إِلى أَنْفُسِهِمْ بِامْتِثالِهِمْ لأَوامِرِ اللهِ تَعالى . والحِكْمَةُ في مَشْروعِيَّتِها أَنَّ في الطَّلاقِ قَبْلَ الدُّخولِ مَهانَةٌ لِلْمَرْأَةِ وَسُوءُ سُمْعَةٍ ، فَفيهِ إِيهامُ لِلناسِ بِأَنَّ الزَّوْجَ قَدْ طَلَّقَها ، لِما رَأَى مِنْ سُوءِ خُلُقٍ ، فَإِذا مَتَّعَها

بذاكَ المَتاع حَسَبَ حالِهِ تَزولُ هَذِهِ المَهانَةُ ، ويَكونُ في ذَلِكَ شَهادَةٌ لَها بِأَنَّ الطَّلاقَ كانَ مِنْ قِبَلِهِ هُوَ وَلَيْسَ مِنْ قِبَلِها هِيَ ، وَلا لِعِلَّةٍ فيها ، ويَكونُ كَذَلِكَ تَعويضاً عَمَّا أَصابَها بِسَبَبِ هَذا الفِراقِ ، وَتَلْطيفاً لِجَوِّ الطَّلاقِ وَما يُصاحِبُهُ مِنْ جَفاءٍ وَبَغْضاءٍ ، واسْتِبْقاءً لِلمَوَدَّةِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ .

وَهَذِهِ المُتْعَةُ ـ كَما تَدلُّ عَلَيْهِ الآيَةُ ـ واجِبَةٌ إذا تَوافَرَ شَرْطانِ هُما :

١ـ مُفارَقَةُ الزَّوْجِ لِلْمَرْأَةِ قَبْلَ الدُّخولِ بِها .

٢ـ مُفارَقَتُهُ لَها ولَمْ يَكُنْ قَدْ سَمَّى لَها مَهْراً .

والصَّالِحونَ مِنَ النّاسِ هُمُ الَّذينَ يَبْذُلونَ لِلْمُطَلَّقَةِ بِسَخاءٍ وَمَوَدَّةٍ .

ثُمَّ بَيَّنَتِ الآياتُ حَقَّ المَرْأَةِ المُطَلَّقَةِ قَبْلَ الدُّخولِ ، وَقَدْ سَمَّى لَها مَهْراً ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾ .

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ الواجِبُ عَلَيْكُمْ في حالَةِ طَلاقِكُمْ لِلنِّساءِ اللاَّتي فَرَضْتُمْ لَهُنَّ مَهْراً ، قَبْلَ الدُّخولِ بِهِنَّ ، الواجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَدْفَعوا لَهُنَّ نِصْفَ ما قَدَّرْتُمْ لَهُنَّ مِنْ مَهْرٍ ، وَقَوْلُهُ تَعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ أي : لَهُنَّ نِصْفُ المَهْرِ الَّذي فَرَضْتُموهُ لَهُنَّ في كُلِّ حالٍ ، إلاَّ في حالِ عَفْوِ المُطَلَّقاتِ وَتَنازُلِهِنَّ عَنْ هَذا الحَقِّ ، أَوْ في حالِ عَفْوِ الَّذي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ ، وَهُوَ الزَّوْجُ المُطَلِّقُ ، لأَنَّهُ هُوَ المالِكُ لِعُقْدَةِ النِّكاحِ وَحَلِّهِ ، وَالمُرادُ بِعَفْوِهِ : أَنْ يَزيدَ عَلى نِصْفَ المَهْرِ المُقَرَّر ، وَقَدْ عُبِّرَ بهذا : ﴿ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ لِلتَّنْبيهِ عَلى أَنَّ الَّذي رَبَطَ المَرْأَةَ وَأَمْسَكَ العُقْدَةَ بِيَدِهِ لا يَليقُ بِهِ أَنْ يَحُلَّها وَيَدَعَها مِنْ دونِ شَيْءٍ ، بَلْ يُسْتَحَبُّ لَهُ العَفْوُ والسَّماحُ بِكُلِّ ما كانَ قَدْ أَعْطى ، وَإِنْ كانَ الواجِبُ عَلَيْهِ نِصْفُهُ .

وَقَدْ حَبَّبَ سُبْحانَهُ وَتَعالى التَّسامُحَ فَقالَ :

﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ مَنْ عَفا مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ هُوَ المُتَّقي ، فَقَدْ تَكونُ المَصْلَحَةُ في عَفْوِ الرَّجُلِ عَنِ النِّصْفِ الآخَرِ ، وأَحْياناً في عَفْوِ المَرْأَةِ عَنِ النِّصْفِ الواجِبِ لَها ، فَقَدْ يَكونُ الطَّلاقُ مِنْ قِبَلِه بِلا سَبَبٍ ، وَقَدْ يَكونُ العَكْسُ .

وَالمَقْصودُ مِنَ التَّقْوى هُنا إتِّقاءُ الرِّيْبَةِ وما يَتَرتَّبُ عَلى الطَّلاقِ مِنَ التَّباغُضِ . والتَّسامُحُ في المالِ

يُذهِبُ أثَرَ البَغْضاءِ ، وَيُعيدُ الصَّفاءَ إلى القُلوبِ ، وهَذا ما بَيَّنَهُ سُبْحانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أيْ : مَنْ تَزَوَّجَ مِنْ أُسْرَةٍ ثُمَّ طَلَّقَ فَعَلَيْهِ أَنْ لا يَنْسى مَوَدَّةَ أَهْلِ هَذا البَيْتِ وَصِلَتَهُمْ ، وإنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَاللهُ بَصيرٌ بِأعْمالِكُمْ وَسَيُحاسِبُكُمْ عَلَيْها ، وسَيُجازي كُلَّ نَفْسٍ بِما عَمِلَتْ .

ذَكَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ في تَفْسيرِهِ أنَّ جُبَيْرَ بنَ مَطْعَمٍ دَخَلَ عَلى سَعْدِ بنِ أَبي وَقّاصٍ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ بِنْتاً لَهُ فَتَزَوَّجَها ؟ ثُمَّ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِها ، وَبَعَثَ لَها المَهْرَ كامِلاً ، فقيلَ لَهُ : لِمَ تَزَوَّجْتَها ؟ فقالَ : عَرَضَها عَلَيَّ فَكَرِهْتُ رَدَّهُ ، فقيلَ لَهُ : فَلِمَ بَعَثْتَ بالصَّداقِ كامِلاً ؟ فقالَ : فَأَيْنَ الفَضْلُ ؟ .

وَرُوِيَ أنَّ أَحَدَ الصَّحابَةِ تَزَوَّجَ امْرَأَةً وَطَلَّقَها قَبْلَ الدُّخولِ بِها ، فَأَعْطاها الصَّداقَ كامِلاً ، فقيلَ لَهُ في ذَلِكَ ، فقالَ : أنا أَحَقُّ بالعَفْوِ مِنْها .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ يُباحُ التَّعْريضُ بَخِطْبَةِ المُتوَفّى عَنْها زَوْجُها ، ولا يُباحُ التَّصريحُ بِذَلِكَ .

٢ـ الرَّجُلَ الصّالِحُ المُحْسِنُ هُوَ الّذي يُمَتِّعُ المُطَلَّقَةَ قَبْلَ الدُّخولِ ، إذا لَمْ يَكُنْ قَدْ سَمّى لَها مَهْراً ، مُراعاةً لِشُعورِها ، ونَفْسِيَّتِها .

٣ـ الحِكْمَةُ في تَشريعِ اللهِ تَعالى ، فقَدْ فَرَضَ للمَرْأَةِ المُطَلَّقَةِ قَبْلَ الدُّخولِ نِصْفَ المَهْرِ ، مُراعاةً لِشُعورِها ، ونَفْسِيَّتِها .

٤ـ على كُلٍّ مِنَ الرَّجُلِ والمَرْأَةِ تَقوى اللهِ تَعالى فيما يَكونُ بَيْنَهُما ، واتِّقاءُ الرِّيبَةِ وما يَتَرَتَّبُ على الطَّلاقِ مِنَ التَّباغُضِ .

التَّقويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بالتَّعريضِ بَخِطْبَةِ النِّساءِ ؟

٢ـ هَلْ يَجوزُ التَّعْريضُ بِخِطْبَةِ المَرْأَةِ المُطَلَّقَةِ رَجْعِيّاً ؟ وَلِمَ ؟

٣ـ علامَ يَدُلُّ قولُهُ تَعالى : ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بالمُواعَدَةِ سِرّاً ؟ وما نَوْعُ البَلاغَةِ هُنا ؟

٥ـ قالَ تَعالى : ﴿إلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ ما القَوْلُ المعَروفُ ؟

٦ـ في الآيةِ الأُولى تَرْغيبٌ وتَرْهيبٌ . وَضِّحْ ذَلِك .

٧ـ مَتى يُسْتَحَبُّ للرَّجُلِ أنْ يُعْطِيَ المَرْأَةَ مالاً تَتَمَتَّعُ بِهِ ؟

٨ـ تَظْهَرُ حِكْمَةُ اللهِ تَعالى في التَيْسيرِ على النّاسِ وَعَدَمِ تَكْليفِهِمْ فَوْقَ طاقَتِهِمْ ، وَضِّحْ هَذا الأَمْرَ كَما جاءَ في الآياتِ .

٩ـ ما الواجِبُ على الرَّجُلِ نحوَ المَرْأَةِ إذا طَلّقَها قَبْلَ الدُّخولِ بها ، وكانَ قَدْ سَمّى لَها مَهْراً ؟

١٠ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ .

١١ـ اسْتَنْتِجْ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَلاَ تَنسَوا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ .

* * *

الدرس السابع والعشرون

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ والسّبْعونَ

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

معاني المفردات :

الصَلاةِ الوُسْطى : صَلاةُ العَصْرِ .

قانِتينَ : مُطيعينَ خاشِعينَ .

فَرِجالاً : ماشينَ عَلى أَرْجُلِكُمْ .

رُكْباناً : راكِبينَ عَلى دوابِّكُمْ .

مَتاعاً إلى الحَوْلِ : ما يُتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ سَكَنٍ وَنَفَقَةٍ إِلى نِهايَةِ السَّنَةِ .

التَّفسيرُ :

بَيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَحْكامَ العِدَّةِ والطَّلاقِ ، وَفي هَذِهِ الآياتِ اسْتِكْمالٌ لِما بَقِيَ مِنْ أَحْكامِ هَذِهِ القَضِيَّةِ ، وَبَدَأَتْ بِالحَثِّ عَلى الصَّلاةِ ، قالَ تَعالى :

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ .

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ داوِموا عَلى أَداءِ الصَّلواتِ جَميعِها في أَوْقاتِها في

خُشوعِ وَخُضوعِ للهِ تَعالى ، وحافِظوا بِصِفَةٍ خاصَّةٍ عَلى الصَّلاةِ الوُسْطى لِما لَها مِنْ مَنْزِلَةٍ عالِيَةٍ ، فَقَدْ أُفْرِدَتِ الصَّلاةُ الوُسْطى تَفْخيماً لِشأْنِها ، وَفي قَوْلِهِ تَعالى : ﴿حَافِظُوا﴾ تَنْبيهٌ إِلى أَنَّ الصَّلاةَ شَيءٌ ثَمينٌ يَجِبُ عَلى الإِنْسانِ أَنْ يَصونَهُ وَيَضْبِطَهُ . والمُحافَظَةُ صيغَةُ مُفاعَلَةٍ تَكونُ بَيْنَ اثْنَيْنِ لِتَدُلَّ عَلى أَنَّ هَذِهِ المُحافَظَةَ تَكونُ بَيْنَ العَبْدِ والرَّبِّ ؛ أَي : احْفَظِ الصَّلاةَ لِيَحْفَظَكَ اللهُ مِنَ ارتِكابِ المَعاصي ، وَتَشْفَعَ لَكَ عِنْدَ اللهِ تَعالى يَوْمَ القِيامَةِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ العُلَماءُ في تَحْديدِ الصَّلاةِ الوُسْطى ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَرى أَنَّها صَلاةُ العَصْرِ ، لأَنَّها تَقَعُ بَيْنَ صَلاتَيِّ النَّهارِ وَصَلاتَيِّ اللَّيْلِ ، وَلِما رُوِيَ عَنْ عَلي بنِ أَبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : « قالَ رسولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ : حَبَسونا عَنِ الصَّلاةِ الوُسْطى حَتَّى غابَتِ الشَّمْسُ ، ، مَلأَ اللهُ قُلوبَهُمْ وَبُيوتَهُمْ ناراً »[1] .

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أَي : قوموا خاشِعينَ للهِ ، مُسْتَشْعِرينَ هَيْبَتَهُ ، وَعَظَمَتَهُ . وَالصَّلاةُ لا تَكونُ كامِلَةً تَتَحَقَّقُ فائِدَتُها إِلاَّ إِذا تَفَرَّغَ الإِنْسانُ مِنْ كُلِّ فِكْرٍ وَعَمَلٍ يَشْغَلُ عَنْ حُضورِ قَلْبِهِ وَخُشوعِهِ . عَنْ زَيْدِ بنِ أَرْقَمِ قالَ : كُنّا نَتَكَلَّمُ في الصَّلاةِ ، يُكَلِّمُ أَحَدُنا أَخاهُ في حاجَتِهِ ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ ، فَأُمِرْنا بِالسُّكوتِ[2] .

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ .

وَيُؤَكِّدُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَلى الأَمْرِ بِالمُحافَظَةِ عَلى الصَّلاةِ فَيَقولُ :

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ إِنْ خِفْتُمْ أَيَّ ضَرَرٍ عِنْدَ قِيامِكُمْ قانِتينَ فَصَلّوا كَيْفَما تَيَسَّرَ لَكُمْ ، راجِلينَ أَوْ راكِبينَ ، وَهَذا دَليلٌ عَلى شِدَّةِ عِنايَةِ الإِسْلامِ بِشَأْنِ الصَّلاةِ ، وَبَيانٌ أَنَّها لا تَسْقُطُ بِأَيِّ حالٍ لأَنَّ حالَ الخَوْفِ عَلى النَّفْسِ أَوْ العِرْضِ أَوْ المالِ هُوَ مَظَنَّةُ العُذْرِ في تَرْكِ الصَّلاةِ ، كَما يَكونُ السَّفَرُ عُذْراً في تَرْكِ الصَّلاةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّها في هَذِهِ الحالِ لا تَسْقُطُ ؛ لأَنَّ الصَّلاةَ عَمَلٌ قَلْبِيٌّ ، وَإِنَّما فُرِضَتْ تِلْكَ الأَعْمالُ الظَّاهِرَةُ لأَنَّها تُساعِدُ عَلى العَمَلِ القَلْبِيِّ المَقْصودِ بِالذَّاتِ ، وَهُوَ تَذَكُّرُ سُلْطانِ اللهِ تَعالى المُسْتَوْلي عَلَيْنا وَعلى العالَمِ كُلِّهِ ، وَالإِنْسانُ إِذا أَرادَ عَمَلاً قَلْبِيّاً اسْتَعانَ عَلَيْهِ بِبَعْضِ ما يُناسِبُهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ ، وَهَذِهِ الهَيْئَةُ والطَّريقَةُ الَّتي اخْتارَها اللهُ تَعالى لِلْصَّلاةِ هِيَ أَفْضَلُ ما يُعينُ عَلى اسْتِحْضارِ سُلْطانِ اللهِ تَعالى ، فَفي قَوْلِ الإِنْسانِ (اللهُ أَكْبَرُ) في بِدايَةِ الصَّلاةِ وَعِنْدَ الانْتِقالِ مِنْ عَمَلٍ إِلى عَمَلٍ يُعْطي المُصَلّي مِنَ الشُّعورِ بِأَنَّ اللهَ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ ، وَإِذا تَعَذَّرَ عَلى الإِنْسانِ الإِتيانُ بِبَعْضِ الأَعْمالِ البَدَنِيَّةِ ، فَالصَّلاةُ لا تَسْقُطُ لأَنَّها عِبادَةٌ قَلْبِيَّةٌ .

---

(١) أخرجه الإمام البخاري ، كتاب التفسير ، سورة البقرة ، باب : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، حديث رقم ٦٠٣٣ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، سورة البقرة ، باب : (وقوموا لله قانتين) حديث رقم ٤٢٦٠ .

﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ إذا زالَ الخَوْفُ وَأَمِنْتُمْ فاشْكُروا اللهَ تَعالى عَلى هَذا الأَمْنِ ، وَاذْكُروهُ بِالعِبادَةِ ، كَما أَحْسَنَ إِلَيْكُمْ بِما عَلَّمَكُمْ مِنَ الشَّرائِعِ عَلى لِسانِ نَبِيِّهِ ، كَيْفَ تُصَلُّونَ في حَالِ الأَمْنِ ، وَكَيْفَ تُصَلُّونَ في حَالِ الخَوْفِ .

وانتُقلَتِ الآيةُ لِتَتَحدَّثَ عَنِ الأَحْكامِ المُتَمِّمَةِ لأَحْكامِ الزَّواجِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ أي : الَّذينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ ، وَيَتْرُكونَ زَوْجاتِهِمْ بَعْدَهُمْ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُوصوا لَهُنَّ وَصِيَّةً ، وَهِيَ شَيءٌ مِنَ المالِ تَتَمَتَّعُ بِهِ المَرْأَةُ ، وَتُنْفِقُ مِنْهُ عَلى نَفْسِها مُدَّةَ الحَوْلِ ، وَلا يَخْرُجْنَ مِنَ البُيوتِ مُدَّةَ سَنَةٍ كامِلَةٍ ، تَمُرُّ فِيها الفُصولُ الأَرْبَعَةُ ، تَتَذَكَّرُ فيها المَرْأَةُ زَوْجَها الَّذي تُوُفِّيَ .

﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ أَي : إِنْ خَرَجْنَ مِنْ مَنْزِلِ الزَّوْجِيَّةِ مِنْ تِلْقاءِ أَنْفُسِهِنَّ ، وَبِرِضاهِنَّ وَرَغْبَتِهِنَّ ، فَلا إِثْمَ عَلَيْكُمْ أَيُّها المُخاطَبونَ بِالوَصِيَّةِ ، فيما فَعَلَتِ النِّساءُ في أَنْفُسِهِنَّ مِنْ أُمورٍ لا يُنْكِرُها الشَّرْعُ ، مِثْلَ التَّعَرُّضِ لِلْخُطّابِ بَعْدَ العِدَّةِ ، وَالتَّزَيُّنِ وَالتَّطَيُّبِ وَالتَّزَوُّجِ ، ما دامَتِ العِدَّةُ قَدِ انْتَهَتْ ، إِذ لا وِلايَةَ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ فَهُنَّ حَرائِرُ لا يُمْنَعْنَ مِنْ ذَلِكَ .

﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ اللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ يُعاقِبُ مَنْ خالَفَهُ ، حَكيمٌ يُراعي في أَحْكامِهِ مَصالِحَ عِبادِهِ ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ خَفَّفَ عَلى المَرْأَةِ المُتَوَفّى عَنْها زَوْجُها ، فَبَعْدَ أَنْ كانَتْ عِدَّتُها حَوْلاً كامِلاً صارَتْ عِدَّتُها أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً .

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

يَقولُ سُبْحانَهُ بِأَنَّ المُتْعَةَ شُرِعَتْ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ ، وَالمُتْعَةُ ـ كَما عَرَفْنا ـ شَيءٌ مِنَ المالِ يَدْفَعُهُ الزَّوْجُ تَنْتَفِعُ بِهِ المَرْأَةُ مُدَّةً مِنَ الوَقْتِ ، وَهَذا المَتاعُ يُقَدَّرُ بِقَدَرِهِ حَسَبَ الزَّمَنِ وَحَسَبَ حَالِ المُطَلِّقِ ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ تَعالى حَقّاً عَلى المُتَّقينَ الَّذينَ يَصونونَ أَنْفُسَهُمْ عَمَّا يُبْغِضُهُ اللهُ تَعالى ، وَيَخافونَ عِقابَهُ ، فَهُمُ الَّذينَ يَجودونَ بِالمالِ تَطْييباً لِلْقُلوبِ ، وَهَذا الحَقُّ جُعِلَ عَلى المُطَلِّقِ ، جَبْراً لِوَحْشَةِ الفِراقِ ، وَإِزالَةً لِما قَدْ يَكونُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مِنْ شِقاقٍ ، وَتَخفيفاً لِما قَدْ يُحيطُ جَوَّ الطَّلاقِ مِنْ تَنافُرٍ وَتَخاصُمٍ وَعَدَمِ وِفاقٍ .

هَذا المَتاعُ كَما بَيَّنَتِ الآياتُ هُوَ ما يُعْطيهِ الرَّجُلُ لِلْمَرْأَةِ المُطَلَّقَةِ زِيادَةً عَلى الحُقوقِ المُقَرَّرَةِ لَها

شَرْعاً مِنْ نَفَقَةٍ وَغَيْرِها . وَالمُطَلَّقاتُ أَصْنافٌ أَرْبَعَةٌ ، كَما عَرَفْنا مِنَ الآياتِ :

١ـ مُطَلَّقَةٌ مَدْخولٌ بِها وَقَدْ فُرِضَ لَها مَهْرٌ .

٢ـ مُطَلَّقَةٌ غَيْرُ مَدْخولٍ بِها وَلا مَفْروضٌ لَها .

٣ـ مُطَلَّقَةٌ غَيْرُ مَفْروضٍ لَها وَ مَدْخولٌ بِها .

٤ـ مُطَلَّقَةٌ مَفْروضٌ لَها وَغَيْرُ مَدْخولٍ بِها .

وَخُتِمَتِ الآياتُ المُتَحَدِّثَةُ عَنْ أَحْكامِ الأُسْرَةِ بِقَوْلِهِ تَعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾ .

أَي : مِثْلَ هَذا البَيانِ الحَكيمِ الواضِحِ الَّذي بَيَّنَهُ لَكُمْ مِنَ الأَحْكامِ السَّابِقَةِ ، يُبَيِّنُ لَكُمْ جَميعَ آياتِهِ وَأَحْكامِهِ الَّتي أَنْتُمْ أَيُّها المُؤْمِنونَ بِحاجَةٍ إِلَيْها ، حَتَّى تَفْهَموا ما فيها وَتَعْقِلوهُ ، وَتَعْمَلوا بِهِ فَتَنالوا السَّعادَةَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ . وَمَعْنى ﴿تَعْقِلُونَ﴾ أَي : تَتَدَبَّرونَ الأَشْياءَ وتُذْعِنونَ لِما أُودِعَ فِيها مِنَ الحِكَمِ إِذْعاناً يَكونُ لَهُ الأَثَرُ في الأَعْمالِ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُحافَظَةُ عَلى الصَّلاةِ وَالمُداوَمَةُ عَلَيْها يَغْرِسُ في النَّفْسِ مُراقَبَةَ اللهِ ، وَخَشْيَةَ عِقابِهِ ، وَالإعانَةَ عَلى العَدْلِ وَالإِحْسانِ ، وَتَصْرِفُ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ .

٢ـ رَحْمَةُ اللهِ تَعالى في التَّخْفيفِ عَلى النّاسِ ، وَعَدَمِ تَكْليفِهِمْ ما لا يُطيقونَهُ .

٣ـ ضَرورَةُ المُحافَظَةِ عَلى الصَّلاةِ في كُلِّ حالٍ ؛ حالِ الأَمْنِ والخَوْفِ ، وَحالِ الصِّحَةِ والمَرَضِ وَحالِ القُدْرَةِ والعَجْزِ .

٤ـ مَنْ أَدَّى حَقَّ اللهِ تَعالى في نفسِهِ وفي غيرِهِ لا يَضُرُّهُ فسادُ النَّاسِ .

٥ـ لا يُؤاخَذُ الإنسانُ بجريرةِ غيرِهِ ما دامَ قَدْ أَدَّى الّذي عليهِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنِ الصِّلَةَ بَيْنَ ما ذُكِرَ سابِقاً مِنَ الأَحْكامِ التَّشْريعيَّةِ وبَيْنَ الأَمْرِ بالحِفاظِ عَلى الصَّلاةِ .

٢ـ ما سِرُّ التَّعْبيرِ بِقَوْلِهِ : ﴿حَافِظُوا﴾ ؟

٣ـ ما المَقْصودُ بـ : ﴿ٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ ؟ اذْكُرِ الدَّليلَ .

٤ـ اذْكُرْ سَبَبَ نُزولِ هَذِهِ الآيَةِ ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ .

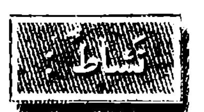
٥ـ اسْتَنْتِجْ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ .

٦ـ ما الأَحْكامُ الَّتي عَلَّمَتْنا إِيّاها هَذِهِ الآياتُ ؟

٧ـ ما حُكْمُ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ ؟ هَلْ هِيَ مَنْسوخَةٌ ؟ بيِّنْ ذَلِكَ .

٨ـ اذْكُرْ أَصْنافَ المُطَلَّقاتِ ، مُبيِّناً حَقَّ كُلِّ مُطَلَّقَةٍ .

٩ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ إِعْطاءِ المَرْأَةِ مُتْعَةً بَعْدَ الطَّلاقِ ؟



١ـ اكْتُبِ الآيَةَ الدّالّةَ عَلى أَنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ .

٢ـ هُناكَ صَلاةٌ تُسَمّى صَلاةَ الخَوْفِ ، ما المَقْصودُ بِها ؟ وَكَيْفَ يُؤَدّيها المُصَلّي ؟

٣ـ ذَكَرْنا لَكَ أَنواعَ المُطَلَّقاتِ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُبيِّنَ حُقوقَ كُلِّ مُطَلَّقَةٍ . اكْتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

٤ـ ارْجِعْ إِلى أَحَدِ كُتُبِ التَّفْسيرِ ، وَاكْتُبْ في دَفْتَرِكَ بَقِيَّةَ آراءِ المُفَسِّرينَ في المَقْصودِ مِنَ الصَّلاةِ الوُسْطى وَدَليلَهُمْ ، وَفي القَوْلِ بِنَسْخِ مُدَّةِ الحَوْلِ .

* * *

الدرس الثامن والعشرون

سُورَةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ الرَّابِعُ والسَّبْعون

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

معاني المفردات :

حَذَرَ : خَشْيَةَ .

يُقرِضُ : القَرْضُ : يُقالُ أَقْرَضْتُهُ ؛ أَيْ : قَطَعْتُ لَهُ مِنْ مالي قِطْعَةً .

حَسَناً : مِنْ مالٍ حَلالٍ ، وَمِنْ طيبِ نَفْسٍ .

يَقْبِضُ : القَبْضُ الإِمْساكُ وَالتَضْييقُ وَهُوَ ضِدُّ البَسْطِ .

يَبْسُطُ : يَمُدُّ وَيُوَسِّعُ .

التفسير :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَنِ الأحْكامِ الَّتي تَتَعلَّقُ بالأُسْرَةِ ، وَهَذِهِ الآياتُ تَتَحَدَّثُ عَنْ بَعْضِ الأَحْكامِ الَّتي تَتَعَلَّقُ بالأُمَمِ ، مِنْ ناحِيَةِ دِفاعِها وَحِفْظِ كِيانِها بِمُقاتَلَةِ المُعْتَدينَ عَلَيْها ، وَبَذْلِ المالِ وَالرُّوحِ في سَبيلِ ذَلِكَ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ .

قالَ تَعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ ﴾ الخِطابُ لِكُلِّ مَنْ يَتْلو القُرْآنَ وَيَتَدَبَّرُهُ ، وَيَدْخُلُ فِيهِ دُخولاً

أَوَلِيّاً النَّبيُّ ﷺ ، وَالاستِفْهامُ لِلْتَّعَجُّبِ وَالاعْتِبارِ ، وَالرُّؤْيَةُ في قَوْلِهِ ﴿تر﴾ بِمَعْنى العِلْمِ ، أَيْ أَلَمْ تَعْلَمْ . وَمَعْنى الآيَةِ : قَدْ عَلِمتَ أَيُّها الرَّسولُ ﷺ وَيا قارِىءَ القُرْآنِ حالَ أُولَئِكَ القَوْمِ ، الَّتي بَلَغَتْ مَبْلَغاً عَظيماً مِنَ العَجَبِ ، فَهُمْ قَوْمٌ بَلَغوا حَدّاً كَبيراً مِنَ الكَثْرَةِ ﴿أُلُوف﴾ وَهِيَ جَمْعُ أَلْفٍ تَدُلُّ عَلى الكَثْرَةِ ، أَيْ أُلوفاً مُؤَلَّفَةً ، وَالأُمَّةُ الَّتي وَصَلَ عَدَدُ أَفْرادِها هَذا الحَدَّ ، يَنْبَغي أَنْ تَدْفَعَها كَثْرَتُها إِلى الشَّجاعَةِ ، والاطْمِئْنانِ ، وَعَدَم خَوْفِها مِنَ المَوْتِ وَمُلاقاةِ العَدُوِّ إِلى الهَرَبِ مِنَ الوَطَنِ . لَقَدْ تَخَيَّلَ أَفْرادُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَنَّ الهَرَبَ وَالفِرارَ مِنَ القِتالِ هُوَ الَّذي سَيَقيهِمْ مِنَ المَوْتِ .

وَلَكِنْ مَنْ هِيَ هَذِهِ الأُمَّةُ ، أَيْنَ كانَتْ ، ومَتى ؟! إِنَّ هَذِهِ الأُمورَ لَمْ تُحَدِّثْنا عَنْها الآياتُ القُرْآنِيَّةُ ، فَقَدْ أَبْهَمَها القُرْآنُ وَسَكَتَ عَنْها ، وَلِذا يَجِبُ عَلَيْنا كَذَلِكَ أَنْ نَسْكُتَ عَمَّا سَكَتَ عَنْهُ القُرْآنُ الكَريمُ .

هَؤُلاءِ ـ إِذَنْ ـ خَرَجوا حَذَرَ المَوْتِ ، وَكَلِمَةُ : حَذَرَ ، مَفْعولٌ لأَجْلِهِ مَنْصوبٌ ، وَخُروجُهُمْ هَذا حَمَلَهُمْ عَلَيْهِ حِرْصُهُمْ عَلى الحَياةِ أَيّاً كانَتْ ، وَلَوْ كانَتْ حياةَ ذُلٍّ وَمَهانَةٍ ، وَكانَتْ عُقوبَتُهُمْ أَنْ أَماتَهُمُ اللهُ تَعالى فَقالَ لَهُمْ : ﴿مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ لَقَدْ أَماتَهُمُ اللهُ تَعالى . وَقَدْ يَكونُ هَذا المَوْتُ عَلى الحَقيقَةِ ، أَي : أَماتَهُمْ حَقيقةً بِسَبَبِ تَسَلُّطِ العَدُوِّ عَلَيْهِمْ . وَقَدْ يَكونُ مَوتُهُمْ مَجازاً ، وَذَلِكَ بِأَنْ مَكَّنَ اللهُ تَعالى عَدُوَّهُمْ مِنْهُمْ ، فَنَكَّلَ بِهِمْ وَأَفْنى قُوَّتَهُمْ وَأَزالَ مُلْكَهُمْ ، فَتَفَرَّقَ شَمْلُهُمْ ، وَمَنْ كانَ كَذَلِكَ فَهُوَ وَالمَيِّتُ سَواءٌ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَحْياهُمُ اللهُ تَعالى بِأَنْ أَعادَ إِلَيْهِمْ قُوَّتَهُمْ واسْتِقْلالَهُم ، فَجَمَعوا كَلِمَتَهُمْ وَوثَّقوا رابِطَتَهُمْ .

لَقَدْ بَيَّنَتِ الآيَةُ لِهَؤلاءِ أَنَّ الفَزَعَ والجَزَعَ وَالخُروجَ مِنَ الدِّيارِ وَالحَذَرَ ، لَمْ يُغَيِّرْ مَصيرَهُمْ ، وَلَمْ يَمْنَعْ عَنْهُمُ المَوْتَ ، وَلَمْ يَرُدَّ عَنْهُمْ قَضاءَهُ ، وَكانَ الأَوْلى بِهِمْ أَنْ يَثْبُتوا ويَصْبِروا .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ إِنَّ اللهَ تَعالى هُوَ صاحِبُ الفَضْلِ عَلى الخَلْقِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ وَتَعالى المُتَفَضِّلُ بِمَنْحِ الحَياةِ لِلْنَّاسِ ، وَهُوَ القادِرُ عَلى اسْتِرْدادِ هَذِهِ الحَياةِ ، وَللهِ حِكْمَةٌ في كُلِّ شَيءٍ ، وَالقِلَّةُ القَليلَةُ مِنَ النَّاسِ الَّتي تُدْرِكُ حِكْمَةَ اللهِ تَعالى في الإِحْياءِ وفي الإِماتَةِ فَتَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِالشُّكْرِ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَأْمُرَ المُؤْمِنينَ بِالجِهادِ في سَبيل اللهِ :

﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ .

قاتِلوا أَيُّها المُسْلِمونَ في سَبيلِ اللهِ ، فَالمَوْتُ وَالحَياةُ بِيَدِ اللهِ ، فَقاتِلوا في سَبيلِ إِعلاءِ كلمةِ اللهِ والدفاعِ عَن دينِ اللهِ ، فلا يَنبغي أَنْ يُقْعِدَكُمْ حُبُّ الحياةِ والحَذرُ مِنَ المَوْتِ عَنِ الجِهادِ في سبيلِ اللهِ لا في سَبيلِ غايَةٍ أُخْرى ، وَتَحْتَ رايَةِ الإِسْلامِ لا تَحْتَ رايَةٍ أُخْرى ، واعْلَموا أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ القَوْلَ

وَيَعْلَمُ ما وَراءَهُ ، يَسْمَعُ فَيَسْتَجيبُ ، وَيَعْلَمُ ما يُصْلِحُ الحَياةَ والقُلوبَ .

وَالجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى بَذْلٌ وَتَضْحِيَةٌ ، والبَذْلُ وَالإِنْفاقُ في القُرْآنِ يَأْتي غالِباً مُقْتَرِناً بِذِكْرِ الجِهادِ . وَهُنا جاءَ التَّوْجيهُ الإِلهِيُّ بِبَذْلِ المالِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ .

(مَّن) اسْمُ الاسْتِفْهامِ جاءَ لِلحَضِّ عَلى البَذْلِ والعَطاءِ ، وَحَمْلِ المُؤْمِنينَ عَلى تَقْديمِ المالِ وَعَدَمِ البُخْلِ بِهِ ، فَالمُؤْمِنُ الصّادِقُ هو الَّذي يُقَدِّمُ مَالَهُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، وَيُقَدِّمُ مَالَهُ في وُجوهِ الخَيْرِ الكَثيرَةِ ، وَفي قَوْلِهِ : ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ حَثٌّ عَلى إِخْلاصِ النِّيَّةِ وَتَحَرِّي الحَلالِ فِيما يُنْفِقُهُ الإِنْسانُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَتَقَبَّلُ العَمَلَ الصّالِحَ وَيُضاعِفُهُ لِمَنْ قَصَدَ بِهِ وَجْهَهُ سُبْحانَهُ ، وَلِمَنْ أَنْفَقَ طَيِّبَ مَالِهِ ، فاللهُ تَعالى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاَّ ما كانَ طَيِّباً .

لَقَدْ بَيَّنَتِ الآيَةُ أَنَّ المَوْتَ وَالحَياةَ بِيَدِ اللهِ ، فَالحَياةُ لا تَذْهَبُ بِالقِتالِ إِذا قَدَّرَ اللهُ لَها البَقاءَ . وَهَذِهِ الآيَةُ تُبَيِّنُ أَنَّ المالَ كَذَلِكَ لا يَذْهَبُ بِالإِنْفاقِ ، إِنَّما هُوَ قَرْضٌ حَسَنٌ للهِ ، مَضْمونٌ عِنْدَهُ ، يُضاعِفُهُ أَضْعافاً كَثيرَةً ، يُضاعِفُهُ في الدُّنْيا بِالبَرَكَةِ وَالزِّيادَةِ ، وَيَجْعَلُهُ سَبَبَ الرّاحَةِ والسَّعادَةِ ، وَيُضاعِفُهُ في الآخِرَةِ نَعيماً وَمَتاعاً وَرِضىً وَقُرْباً مِنَ اللهِ تَعالى .

إِنَّ مَوْضوعَ الغِنى والفَقْرِ يَرْجِعُ إِلى اللهِ تَعالى ، وَحْدَهُ ، فَهُوَ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ، وَيُعْطي وَيَمْنَعُ ، فَلِماذا يَبْخَلُ النّاسُ وَلا يَبْذُلونَ المَالَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ؟! وَالمَرْجِعُ في النِّهايَةِ لَنْ يَكونَ إِلاَّ إِلى اللهِ تَعالى ، وَإِذا كانَ اللهُ سُبْحانَهُ يَقْبِضُ الرّوحَ وَيُطْلِقُها ، وَيَقْبِضُ المَالَ وَيَبْسُطُهُ ، فَلِماذا يَفْزَعُ النّاسُ مِنَ المَوْتِ ، وَلِماذا يَخافونَ الفَقْرَ ؟ فَلْيُجاهِدِ المُوقِنونَ في سَبيلِ اللهِ ، وَلْيُقَدِّموا أَرْواحَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ ، وَلْيَعْلَموا أَنَّ الآجالَ مَعْدودَةٌ ، وَأَنَّ الأَرْزاقَ مَقْدورَةٌ ، وَأَنَّ مِنَ الخَيْرِ لَهُمْ أَنْ يَعيشوا حياةً قَوِيَّةً شُجاعَةً كَريمَةً .

لَقَدْ جاءَتْ هذهِ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنْ واقِعِ المُسْلِمينَ يَوْمَئِذٍ ، وَما أَصابَهُمْ مِنْ ظُلْمٍ واسْتِبْدادٍ ، وَانْتِهاكٍ لِلْحُرِّيّاتِ ، فَجَعَلَتْ تُحَرِّضُ المُسْلِمينَ عَلى القِتالِ ، لإِعادَةِ هَذا الحَقِّ المَسْلوبِ مِنْهُمْ ، وَحَذَّرَتْهُمْ مِنْ سوءِ عاقِبَةِ الجُبْنِ والخُنوعِ . وَما أَحْوَجَ المُسْلِمينَ اليَوْمَ إِلى تَدَبُّرِ هَذِهِ الآياتِ ، فَهِيَ تَصِفُ حَالَهُمْ وَقَدْ أَصابَهُمُ الفَزَعُ والهَلَعُ والخُنوعُ مِمّا جَعَلَ أُمَمَ الكُفْرِ وَالطُّغْيانِ تَسْتَبِدُّ بِهِمْ ، وَتَتَجَبَّرُ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ مُسْتَكينونَ راضونَ بِالذُّلِ !! فَإِلى مَتى ؟! .

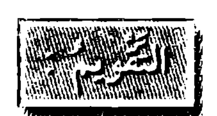
دُرُوسٌ وعِبَرٌ

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الحَذَرُ مِنَ المَوْتِ لا يُجْدي ، وَالفَزَعُ وَالهَلَعُ لا يَزيدانِ حَياةً ولا يَمُدَّانِ أَجَلاً ، ولا يَرُدَّانِ قَضاءً .

٢ـ الحضُّ عَلى الإِنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى وَبَذْلُ المالِ ، فَالرِّزْقُ بِيَدِ اللهِ تَعالى ، وَهُوَ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ .

٣ـ الإِخْلاصُ للهِ تَعالى ، وَتَحَرِّي الحَلالِ فِيما يُنْفِقُهُ الإِنْسانُ ، سَبَبانِ رَئيسيَّانِ في قُبولِ الأَعْمالِ وَمُضاعَفَةِ الأُجورِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنى الاسْتِفْهامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ؟

٢ـ بَيِّنْ مَعْنى كَلِمَةِ ﴿تَرَ﴾ وما تَدُلُّ عَلَيْهِ .

٣ـ مَنِ الأُمَّةُ الَّتي تَحَدَّثَتْ عَنْها الآياتُ ؟ وَضِّحْ ذَلِكَ .

٤ـ ما المَقْصودُ بِالإِماتَةِ وَالإِحْياءِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ ؟

٥ـ هَاتِ ما تَسْتَنْتِجُهُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ .

٦ـ بِماذا جاءَ الاسْتِفْهامُ ﴿مَّن﴾ في قَوْلِهِ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ﴾ ؟

٧ـ عَرِّفِ القَرْضَ .

٨ـ لِمَ قالَ سُبْحانَهُ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ ؟

٩ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ ﴿يَقْبِضُ وَيَبْسطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ؟



١ـ اكْتُبْ في دفترِكَ تَوْضيحَ عِبارَةِ : اطلبوا الموتَ تُوهَبُ لَكُمُ الحَياةُ ، وَعَلى ماذا تَدُلُّ هَذِهِ العِبارَةُ ؟

٢ـ مَتى يَكونُ قِتالُ المُسْلِمينَ في سَبيلِ اللهِ ؟ اكْتُبْ حَديثاً يَدُلُّ عَلى ذَلِكَ .

الدَّرسُ التَّاسِعُ والعِشرونَ

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ الخامِسُ والسَّبْعونَ

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

معاني المُفْرَداتِ :

- المَلأ : الأَشْرافُ مِنَ النّاسِ .
- هَلْ عَسَيْتُمْ : الاسْتِفْهامُ لِلتَّقْريرِ والتَّحْذيرِ ، وَعَسى : كَلِمَةٌ تُفيدُ توقُّعَ حُصولِ الأَمْرِ ، وَقُرْبَ تَحَقُّقِهِ .
- كُتِبَ : فُرِضَ .
- اصْطَفاهُ : فَضَّلَهُ .
- بَسْطَةً في العِلْمِ : زِيادَةً في العِلْمِ .
- بَسْطَةً في الجِسْمِ : قُوَّةً في الجِسْمِ .



التَّفسيرُ :

تَتَحَدَّثُ الآياتُ عَنْ قِصَّةِ قَوْمٍ مِنْ بَني إسْرائيلَ بَعْدَ نَبيِّ اللهِ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ ، أُخْرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَبْنائِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ ضَعُفوا عَنِ الدِّفاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَتَوَلَّوْا وَأَعْرَضوا عَنِ القِتالِ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ ﴾ الاسْتِفْهامُ جاءَ لِلتَّعَجُّبِ والاعْتِبارِ ، وَ ﴿ تر ﴾ بِمَعْنى العِلْمِ ، أَي : أَلَمْ تَعْلَمْ ، وَقَدْ عُبِّرَ بِالمُضارِعِ لاسْتِحْضارِ المَشاهِدِ ، كَأَنَّها حادِثٌ واقِعٌ وَمَشْهَدٌ مَنْظورٌ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : أَلَمْ يَنْتَهِ إِلى عِلْمِكَ حالُ أُولَئِكَ القَوْمِ مِنْ بَني إِسْرائيلَ الَّذينَ كانوا بَعْدَ مَوْتِ مُوسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقْتَ أَنْ (قالوا لِنَبِيٍّ لَهُمْ : ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ في سَبيلِ اللهِ) وَقَدْ جاءَتْ كَلِمَةُ نَبِيٍّ مُنَكَّرَةً ، لِيُبَيِّنَ لَنا سُبْحانَهُ أَنَّ العِبْرَةَ لَيْسَتْ في اسْمِ هَذا النَّبِيِّ ، وَإِنَّما المَقْصودُ مَعْرِفَةُ حالِ هَؤلاءِ القَوْمِ . وَذِكْرُ اسْمِ النَّبِيِّ لا يَزيدُ في إِيحاءاتِ القِصَّةِ شَيْئاً يُذْكَرُ .

لَقَدِ اجْتَمَعَ أَشْرافُ القَوْمِ إِلى نَبِيٍّ لَهُمْ ، وَطَلَبوا مِنْهُ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُمْ مَلِكاً كَيْ يُقاتِلوا تَحْتَ إِمْرَتِهِ في سَبيلِ اللهِ ، هَكَذا حَدَّدوا هَدَفَهُمْ ، فَهُمْ أَصْحابُ دِينٍ وَعَقيدَةٍ صَحيحَةٍ ، وَأَعْداؤُهُمْ عَلى ضَلالَةٍ وَكُفْرٍ وَباطِلٍ ، فَعَلَيْهِمْ ـ إِذَنْ ـ أَنْ يُقاتِلوا الباطِلَ والكُفْرَ لِيَنْتَصِرَ الحَقُّ والإِيمانُ .

وَقَدْ أَرادَ نَبِيُّهُمْ أَنْ يَتَوَثَّقَ مِنْ صِدْقِهِمْ ، وَثَباتِهِمْ ، وَتَصْميمِهِمْ عَلى القِتالِ في سَبيلِ اللهِ فَقالَ لَهُمْ : ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ﴾ و ﴿ هَلْ ﴾ اسْتِفْهامٌ لِلتَّقريرِ وَالتَّحْذيرِ ، أَي : إِنِّي أَتَوَقَّعُ عَدَمَ قِتالِكُمْ إِذا فُرِضَ عَلَيْكُمُ القِتالُ ، فَأَنْتُمُ الآنَ في سَعَةٍ مِنَ الأَمْرِ ، وَتَطْلُبونَ القِتالَ ، وَأَخافُ إِذا فُرِضَ عَلَيْكُمُ القِتالُ أَنْ تَتَخَلَّوْا عَنْهُ وَتَهْرُبوا مِنْهُ .

هَكَذا قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمُ ، الَّذي أَطْلَعَهُ الوَحْيُ عَلى ما في نُفوسِهِمْ ، وَهُنا تَرْتَفِعُ أَصْواتُ المَلأِ بِحَماسٍ وَقُوَّةٍ ، ذاكِرينَ سَبَبَ طَلَبِهِمْ لِلْقِتالِ ، فَيَقولونَ ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾ أَيُّ صارِفٍ يَصْرِفُنا عَنِ القِتالِ ، وَحالُنا أَنَّنا أُخْرِجنا مِنْ دِيارِنا ، وَفُرِّقَ بَيْننا وَبَيْنَ أَبْنائِنا ، فَالطَّريقُ الوَحيدُ أَمامَنا هُوَ قِتالُ أَعْدائِنا . وَلَكِنَّ هَذِهِ الحَماسَةَ لَمْ تَدُمْ ، فَهِيَ حَماسَةٌ في

سَاعَةِ رَخاءٍ ، أَمَّا وَقْتُ الشِّدَّةِ فَيُحَدِّثُنا القُرْآنُ عَمَّا كانَ مِنهُمْ فَيَقولُ : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ وَهَذِهِ هِيَ طَبيعَةُ بَني إِسْرائِيلَ الَّتي حَدَّثَتْنا الآياتُ عَنْها كَثيراً مِنْ قَبْلُ ؛ نَقْضُ العَهْدِ ، وَالنُّكوصُ عَنِ التَّكاليفِ ، وَالتَّوَلِّي عَنِ الحَقِّ البَيِّنِ . فَلَمّا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمُ القِتالَ وَهُمُ الَّذينَ طَلَبوهُ ، اعْرَضوا وَتَخَلَّوْا عَنِ الجِهادِ ، وَضَيَّعوا أَمْرَ اللهِ تَعالى ، بَعْدَ مُشاهَدَةِ العَدُوِّ وَقُوَّتِهِ ، إِلاَّ قَليلاً مِنْهُمْ ثَبَتوا عَلى الحَقِّ ، أَمَّا الكَثيرونَ فَقَدْ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ ، فَهُمُ الَّذينَ تَوَلَّوا عَنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ ، قَبْلَ أَنْ يُواجِهوا عَدوَّهُمْ مُواجَهَةً عَمَلِيَّةً ، فَهُمْ ظالِمونَ لأَنْفُسِهِمْ ، وَظالِمونَ لِنَبِيِّهِمْ ، وَظالِمونَ لِلْحَقِّ الَّذي تَخَلَّوْا عَنْهُ .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ وَتَسْتَمِرُّ الآياتُ في بَيانِ صِفَةِ بَني إِسْرائيلَ ، فَهُمْ لا يَثْبُتونَ عَلى رَأْيٍ وَيَكْثُرُ جِدالُهُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ، فَهُمُ الَّذينَ طَلَبوا مَلِكاً يُقاتِلونَ مَعَهُ في سَبيلِ اللهِ ، وَلَكِنْ هاهُمْ يُجادِلونَ في اخْتِيارِ اللهِ لَهُمْ هَذا المَلِكَ ، وَيَسْتَنْكِرونَ أَنْ يَكونَ طالوتُ مَلِكاً عَلَيْهِمْ ﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ أَي : كَيْفَ يَكونُ مَلِكاً عَلَيْنا ، والاسْتِفْهامُ لِلتَّعَجُّبِ ، تَعَجَّبوا مِنْ جَعْلِ طالوتَ مَلِكاً عَلَيْهِمْ ، وَالحالُ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالمُلْكِ لأَنَّهُمْ أَشْرَفُ نَسَباً ، وَأَكْثَرُ مالاً . إِنَّهُمْ قَوْمٌ طَغَتْ عَلَيْهِمُ المادَّةُ ، فَلا يَقيسونَ الأُمورَ إِلاَّ بِالمِقْياسِ المادِّيِّ ، وَهَذِهِ أَيْضاً مِنْ سِماتِ بَني إِسْرائيلَ .

وَيُبَيِّنُ لَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى المِقْياسَ الَّذي جَعَلَ طالوتَ أَحَقُّ بِالمُلْكِ ، فَالمِقْياسُ لَيْسَ مادِّيّاً ، وَإِنَّما اسْتَحَقَّ المُلْكَ لِلأُمورِ التَّالِيَةِ :

الأَوَّلُ : الاسْتِعْدادُ الفِطْرِيُّ لِلْمُلْكِ ، وَلِذا اصْطَفاهُ اللهُ ، واللهُ يَصْطَفي مَنْ يَشاءُ وَيَخْتارُ .

الثَّاني : السَّعَةُ في العِلْمِ الَّذي يَكونُ بِهِ مَعْرِفَةُ تَدْبيرِ أُمورِ الأُمَّةِ ، وَمَعْرِفَةُ مَواطِنِ ضَعْفِها وَقُوَّتِها .

الثَّالِثُ : البَسْطَةُ في الجِسْمِ ، والمَقْصودُ بِها كَمالُ قُوَّةِ الجِسْمِ وصِحَّتُهُ .

الرَّابِعُ : تَوْفيقُ اللهِ تَعالى لَهُ ، وَهَذا المَفْهومُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ وَاسِعُ التَّصَرُّفِ وَالقُدْرَةِ ، فَلَيْسَ لِعَطائِهِ سُبْحانَهُ أَيُّ حَدٍّ ، وَهُوَ يَعْلَمُ الخَيْرَ ، وَيَعْلَمُ كَيْفَ تُوضَعُ الأُمورُ في مَواضِعِها ، فَهُوَ يَضَعُ مِنَ السُّنَنِ والنُّظُمِ ما يَكونُ في غايَةِ الإِبْداعِ وَالحِكْمَةِ وَالإِتْقانِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الأُمَّةُ الَّتي تَعرِفُ أَنَّها عَلى الحَقِّ وَأَنَّ عَدُوَّها عَلى الباطِلِ ، وَلا تَنْهَضُ لِنُصْرَةِ هَذا الحَقِّ إنَّما هِيَ مِنَ الظَّالِمينَ .

٢ـ المالُ لَيْسَ مِقْياساً ودليلاً عَلى صَلاحِ الإِنْسانِ ، وَلَيْسَ رُكْناً مِنْ أَرْكانِ تَأسيسِ المُلْكِ ، وَلَكِنَّ المُلْكَ يُقامُ عَلى العِلْمِ وَالقُوَّةِ وَالأَمانَةِ إضافَةً إلى تَوفيقِ اللهِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ مَعْنى قَوْلِهِ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ .

٢ـ ما سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَرَ﴾ ؟

٣ـ ما الَّذي طَلَبَهُ بَنو إِسْرائيلَ مِنْ نَبِيِّهِمْ ؟

٤ـ مَنِ النَّبِيُّ الَّذي تَحَدَّثَتْ عَنْهُ الآياتُ ؟

٥ـ لَقَدْ كانَ النَّبِيُّ حَكيماً في مَعْرِفَةِ قَوْمِهِ وَمَعْرِفَةِ نَفْسِيَّاتِهِمْ . وَضِّحْ ذَلِكَ مِنْ خِلالِ الآياتِ .

٦ـ قارِنْ بَيْنَ حالِ بَني إِسْرائيلَ قَبْلَ فَرْضِ القِتالِ وَبَعْدَهُ .

٧ـ اسْتَنْتِجْ مِنَ الآياتِ بَعْضَ صِفاتِ بني إِسْرائيلَ .

٨ـ مَنِ المَلِكُ الّذي بَعَثَهُ اللهُ تَعالى لبني إِسرائيلَ ؟

٩ـ لِمَ اسْتَحَقَّ المَلِكُ المُلْكَ عَلى بَني إِسْرائِيلَ ؟

* * *

الدَّرْسُ الثَّلاثونَ

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ السَّادِسُ والسَّبْعونَ

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

آيَةَ : عَلامَةَ .

التَّابوتُ : صُنْدوقٌ وُضِعَتْ فيهِ بَعْضُ آثارِ موسى وَهارونَ عَلَيْهِما السَّلامُ .

سَكينَةٌ : ماتَسْكُنُ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَيَطْمَئِنُّ بِهِ القَلْبُ .

شَرِبَ : الشُّرْبُ : تَناولُ الماءِ بِالْفَمِ مِنْ مَوْضِعِهِ ، وَابْتِلاعُهُ دونَ أَنْ يَسْتَخْدِمَ أَداةً .

يَطْعَمْهُ : طَعِمَ : ذاقَ الشَّيْءَ .

غُرْفَةً : الغُرْفَةَ : المِقْدارُ الَّذي يَكونُ في الكَفِّ عِنْدَ الاغْتِرافِ .

التَّفسيرُ :

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ .

ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ نَبِيَّ بَني إِسْرائيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ بَيَّنَ لَهُمْ سَبَبَ اسْتِحْقاقِ طالوتَ لِلْمُلْكِ

عَلَيْهِمْ ، وَكَأَنَّ بَني إِسْرائِيلَ لَمْ يَقْتَنِعوا بِما احْتَجَّ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَحَقِّيَّةِ طالوتَ لِلْمُلْكِ ، فَأَرادَ نَبِيُّهُمْ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ بِأَنَّ الأَمْرَ خارِجٌ عَنْ إِرادَتِهِ ، فَاللهُ هُوَ الَّذي بَعَثَهُ مَلِكاً ، وَسَيُؤَيِّدُهُ اللهُ بِآياتِهِ لِتَكونَ عَلامَةً عَلى مُلْكِهِ ، لِيُذْعِنوا وَيُسَلِّموا تَسْليماً ، فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ هَذِهِ العَلامَةَ الصَّادِقَةَ عَلى مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَهُمُ التَّابوتُ ، وَهُوَ صُنْدوقٌ كانَ فيهِ بَعْضُ آثارِ مُوسى وَهارونَ عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقَدْ كانَ هَذا التَّابوتُ عِنْدَهُمْ ، وَلَكِنَّ أَعْداءَهُمْ وَهُمُ العَمالِقَةُ (الفِلِسْطينِيُّونَ) قَدْ غَلَبوهُمْ وَشَرَّدوهُمْ ، وَسَلَبوا مِنْهُمْ مُقَدَّساتِهِمْ وَمِنْها التَّابوتُ . وَسَيَأْتيهِمُ التَّابوتُ لِتَسْكُنَ نُفوسُهُمْ وَتَطْمَئِنَّ ، وَلِيَكونَ عَلامَةً لَهُمْ عَلى اسْتِحقاقِ طالوتَ المُلْكَ ، عَلامَةً يَشْهَدونَها حَيْثُ جاءَتِ المَلائِكَةُ بِالتَّابوتِ وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ يَدَيْ طالوتَ والنَّاسُ يَنْظُرونَ .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَي : في مَجيءِ التَّابوتِ لَكُمْ عَلامَةٌ عَلى عِنايَةِ اللهِ تَعالى بِكُمْ ، حَيْثُ اصْطَفى لَكُمْ هَذا المَلِكَ كَيْ يَقومَ عَلى شُؤونِكُمْ ، وَيُقاتِلَ عَدُوَّكُمْ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَرْضوا بِمُلْكِهِ ، وَتُعاوِنوهُ كَيْ يَقودَكُمْ إِلى السَّعادَةِ وَالفَلاحِ ، وَمِمَّا يُفْهَمُ مِنَ الآياتِ أَنَّ هَذِهِ العَلامَةَ قَد وَقَعَتْ ، وَحَصَلَ اليَقينُ مِنْ جِهَةِ بني إِسْرائِيلَ .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾ .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ ﴾ لَمَّا فَصَلَ طالوتُ بِالجُنودِ ، وَخَرَجَ بِهِمْ مِنَ البَلَدِ وَتجاوَزَهُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ أَنَّ الَّذينَ مَعَهُ لا يَصْلُحونَ جَميعاً لِلْحَرْبِ ، بَلْ إِنَّ مِنْهُمُ المُثَبِّطينَ ، الَّذينَ لا يَزيدونَ المُحاربينَ إِلاَّ خَبالاً ، فَلا بُدَّ إِذَنْ مِنْ أَنْ يُمَيِّزَ الخبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، فَهُوَ مُقْدِمٌ عَلى مَعْرَكَةٍ ، وَمَعَهُ جَيْشٌ مِنْ أُمَّةٍ مَغْلوبَةٍ عَرَفَتِ الهَزيمَةَ وَالذُّلَّ في تَاريخِها مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَلِيَتَمَيَّزَ الخَبيثُ مِنَ الطَّيِّبِ لا بُدَّ مِنَ الابْتِلاءِ ، لِاخْتِبارِ إِرادَةِ القَوْمِ ، الإِرادَةَ الَّتي تَضْبطُ الشَّهواتِ والنَّزَواتِ ، وَتَصْمِدُ لِلْحِرمانِ وَالمَشاقِّ ، وَتَسْتَعْلي عَلى ضَروريَّاتِها وَاحْتِياجاتِها ، وَتُؤْثِرُ الطَّاعَةَ ، وَتَحْتَمِلُ التَّكاليفَ ، فَتَجْتازُ الابْتِلاءَ بَعْدَ الابْتِلاءِ ، لا بُدَّ لِلْقائِدِ مَنْ أَنْ يَمْتَحِنَ إِرادَةَ جَيْشِهِ وَصُمودَهُ وَصَبْرَهُ ، وَلِذا اخْتارَ طالوتُ عَلَيْهِ السَّلامُ هَذا الابْتِلاءَ .

لَقَدْ بَيَّنَ لَهُمُ اللهُ تَعالى أَنَّهُ مُبْتَليهِمْ بِنَهْرٍ ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ حَرِيّاً بِالْقِتالِ ، وَلا يَصْلُحُ لأَنْ يَكونَ جُنْدِيّاً في المَعْرَكَةِ ، اللَّهُمَّ إِلاَّ إِذا اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، يَبُلُّ بِها شَفَتَيْهِ وَيُذْهِبُ بِها بَعْضَ ظَمَئِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ وَلَمْ يَذُقْهُ فَذَلِكَ في المَنْزِلَةِ الأُولى ، وَلَكِنْ ما الَّذي كانَ بَعْدَ ذَلِكَ ؟

لَقَدْ شَرِبوا مِنْهُ إلاَّ قَليلاً مِنْهُمْ ، وَشَرِبوا وَارْتَووْا ، فَانْفَصَلوا عَنْهُ ، لأَنَّهُمْ لا يَصْلُحونَ لِلْمُهِمَّةِ المُلْقاةِ عَلى عاتِقِهِمْ ، وَكانَ مِنَ الخَيْرِ وَالحَزْمِ أَنْ يَنْفَصِلوا عَنِ الجَيْشِ ، لأَنَّهُمْ بِذْرَةُ ضَعْفٍ وَخُذْلانٍ وَهَزيمَةٍ ، وَالنَّصْرُ لِلأُمَّةِ لا يَتَحَقَّقُ بِعَدَدِها ، وَلَكِنْ بِقُوَّةِ صُمودِها وَإِرادَتِها الحازِمَةِ وَإيمانِها الثّابِتِ .

وَلَمّا جاوَزَ طالوتُ النَّهْرَ هُوَ وَمَنْ آمَنَ وَقَدْ تَخَلَّفَتِ الكَثْرَةُ الكَثيرَةُ الَّذينَ شَرِبوا مِنَ النَّهْرِ ، انْقَسَمَتْ هَذِهِ الفِئَةُ القَليلَةُ الَّتي بَقِيَتْ مَعَ طالوتَ إِلى فِئَتَيْنِ .

الأُولى : فِئَةٌ ضَعُفَتْ عِنْدَ مُشاهَدَةِ العَدُوِّ وَقُوَّةِ بَأْسِهِ ، فَقالَتْ : لا طاقَةَ لَنا اليَوْمَ بِجالوتَ وَجُنودِهِ . وَجالوتُ قائِدُ أَعْداءِ بَني إِسْرائيلَ .

الثّانِيَةُ : فِئَةٌ ثَبَتَتْ عَلى الحَقِّ ، وَهِيَ ذاتُ موازينَ رَبّانِيَّةٍ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لَقَدْ خالَطَتْ بَشاشَةُ الإِيمانِ قُلوبَهُمْ ، وَخَشوا اللهَ تَعالى ، فَهُمْ يُؤْمِنونَ أَنَّ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ ، وَهاهُمْ يَرُدُّونَ عَلى الفِئَةِ الأُولى بِقَوْلِهِمْ : وَيْحَكُمْ! مَتى كانَتِ الكَثْرَةُ سَبَباً في النَّصْرِ ؟! .

إِنَّ الفِئَةَ المُؤْمِنَةَ قَليلَةٌ ، لأَنَّها هِيَ الَّتي تَرْتَقي الدَّرَجَ الشّاقَّ ، وَلَكِنَّها هِيَ الغالِبَةُ ، لأَنَّها تَتَّصِلُ بِالقُوَّةِ الغالِبَةِ ؛ قُوَّةِ اللهِ تَعالى الغالِبِ عَلى أَمْرِهِ ، القاهِرِ فَوْقَ عِبادِهِ . إِنَّنا كَثيراً ما رَأَيْنا الجَماعاتِ القَليلَةَ غَلَبَتِ الجَماعاتِ الكَثيرَةَ حينَ يَكْتُبُ اللهُ لَهُمُ التَّوْفيقَ بِمَشيئَتِهِ ، فَاللهُ لا يُذِلُّ مَنْ نَصَرَهُ وَإِنْ قَلَّ عَدَدُهُ ، وَلا يُعِزُّ مَنْ خَذَلَهُ وَإِنْ كَثُرَتْ آلاتُهُ ، وَلِذَلِكَ نَجِدُهُمْ يَكِلونَ الأَمْرَ إِلى اللهِ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ .

وَهُمْ يَذْكُرونَ عِلَّةَ هذا النَّصْرِ ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فَهُوَ يَنْصُرُهُمْ عَلى عَدُوِّهِمْ ، وَيُثَبِّتُهُمْ عِنْدَ لِقاءِ عَدُوِّهِمْ ، فَالصَّبْرُ هوَ الَّذي يُؤَدّي إِلى الغَلَبَةِ ، وَالثِّقَةُ بِاللهِ تَعالى عِنْدَ الشَّدائِدِ .

لَقَدْ رَكَّزَتِ الآياتُ القُرْآنِيَّةُ كَثيراً عَلى الصَّبْرِ وَحَثَّتْ عَلَيْهِ ، حَتّى لا تُصابَ الأُمَّةُ بِالضَّعْفِ وَالهَوانِ ، إِذِ الصَّبْرُ ضِدُّ الجَزَعِ ، وَالجَزَعُ صِفَةٌ يَكْرَهُها اللهُ وَرَسولُهُ ﷺ ، وَالجَزَعُ وَالعَجْزُ أَخَوانِ ، وَلَقَدْ نَهانا النَّبِيُّ ﷺ عَنِ العَجْزِ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعيفِ »(١) . وَالعَجْزُ صِفَةٌ تَنْخُرُ كَيانَ الأُمَّةِ وَكَيانَ الإِنْسانِ كُلِّهِ ، وَتَحولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كُلِّ خَيْرٍ ، فَإِذا أَصْبَحَ العَجْزُ لِلإِنْسانِ خُلُقاً وَعادَةً ، فَإِنَّهُ يَحولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَلاوَةِ العِبادَةِ ، وَيَحْرِمُ الأُمَّةَ مِنْ نِعْمَةِ السَّعادَةِ ، وَيَسْلُبُها صِفاتِ القِيادَةِ وَالرِّيادَةِ .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الصحيح ، حديث رقم ٢٦٦٤ .

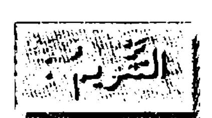
دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ القائِدُ النَّاجِحُ هُوَ الَّذي يَتَعَرَّفُ مَدى قُدْرَةِ رَعِيَّتِهِ وَشَعْبِهِ ، لِيَسْتَخْلِصَ مِنْهُمُ الجُنودَ المُخْلِصينَ .

٢ـ الأُمَّةُ المُتَّصِلَةُ بِاللهِ تَعالى ، الصَّابِرَةُ هِيَ الَّتي تنالُ نَصْرَ اللهِ تَعالى ، وَلَنْ تَنالَ نَصْرَهُ بِكَثْرَةِ عَدَدِها وَعُدَّتِها .

٣ـ الأُمَّةُ الَّتي يُصيبُها العَجْزُ تُحْرَمُ مِنْ نِعْمَةِ السِّيادَةِ عَلى الأُمَمِ ، وَلا يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَلِمَ زِمامَ القِيادَةِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ معانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التَّالِيَةِ :

آيَةَ مُلْكِهِ ، اغْتَرَفَ غُرْفَةً ، التَّابوتُ ، يَطْعَمْهُ .

٢ـ لَقَدْ ذَكَرَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ آيَةً تَدُلُّ عَلى اسْتِحْقاقِ طالوتَ لِلْمُلْكِ ، هاتِ هَذِهِ العَلامَةَ مُوَضِّحاً لَها .

٣ـ أَرادَ طالوتُ أَنْ يَمْتَحِنَ الجُنودَ ، بِماذا امْتَحَنَهُمْ ؟

٤ـ ماذا كانَ مَوْقِفُ بَني إِسْرائيلَ مِمَّا طَلَبَهُ مِنْهُمْ طَالوتُ عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٥ـ ما المَوْقِفُ الحازِمُ الَّذينَ اتَّخَذَهُ طالوتُ مَعَ المُخالِفينَ لأَمْرِهِ ؟

٦ـ انْقَسَمَ الجُنودُ الَّذينَ آمَنوا وَلازَموا طالوتَ إِلى فِئَتَيْنِ ، بَيِّنْ مَوْقِفَ كُلِّ فِئَةٍ .

٧ـ اسْتَخْلِصِ الحِكْمَةَ مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعالى بالصَّبْرِ .



١ـ اكْتُبْ في دفْتَرِكَ اسْمَ النَّهْرِ الَّذي ذَكَرَتْهُ الآيَةُ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَعْرَكَتَيْنِ انْتَصَرَ فِيهِما المُسْلِمونَ وَكانوا أَقَلَّ مِنْ أَعْدائِهِمْ .

٣ـ ارْجِعْ إِلى أَحَدِ المعاجِمِ اللُّغَوِيَّةِ واسْتَخْرِجِ الفَرْقَ بَيْنَ الغَرْفَةِ والغُرْفَةِ .

* * *

الدرس الحادي والثلاثون

سورة البقرة - القسم السابع والسبعون

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

معاني المفردات :

برزوا : ظَهَروا .

أَفْرِغْ : الإفْراغُ : الإفاضَةُ .

الحِكْمَةَ : النُّبُوَّةَ .



التفسير :

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ .

لَقَدْ خَرَجَ الجُنودُ مَعَ طالوتَ عَلَيْهِ السَّلامُ لِلْقِتالِ ، كَما جاءَ في الآياتِ السَّابِقَةِ ، ولَمَّا بَرَزَ هُوَ وَمَن مَعَهُ مِنَ المُؤْمنينَ لأعْدائِهِمْ ، جَالوتَ وَجُنودِهِ ، وَرَأَوْا ما عَلَيْهِ العَدُوُّ مِنْ كَثْرَةِ العَدَدِ والعُدَدِ ، عِنْدَ ذَلِكَ تَوَجَّهوا إلى اللهِ تَعالى بالدُّعاءِ ، سائِلينَ اللهَ تَعالى أُموراً ثَلاثَةً بِها يَتَحَقَّقُ النَّصْرُ مِنَ اللهِ تَعالى .

الأوَّل : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ لأنَّ الحَرْبَ لا بُدَّ لَها مِنَ الصَّبْرِ ، وَالمَعْنى : أَفْرِغْ عَلَيْنا أَتَمَّ صَبْرٍ وَأَبْلَغهُ حَتَّى تَتَحقَّقَ فينا صِفَةُ الصَّبْرِ كَأَحْسَنِ ما يَكونُ ، وَلِيَكونَ صَبْراً يَعُمُّنا جَميعاً .

الثَّاني : ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ حَتَّى لا تَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبوتِها ، أَي : هَبْ لَنا مِنْ كَمالِ القُوَّةِ وَرَباطَةِ الجَأْشِ وَالرُّسوخِ عِنْدَ القِتالِ ما يَجْعَلُنا نَثْبُتُ أَمامَ أَعْدائِنا ، ونَتَمَكَّنُ مِنْ رِقابِهِمْ ، دُونَ أَنْ يَتَمَكَّنوا مِنَّا .

الثَّالِثُ : ﴿ وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ اجْعَلْ لَنا الغَلَبَةَ عَلَيْهِم ، وذَلِكَ لأَنَّنا نَحْنُ المُؤْمِنونُ بِكَ يا رَبُّ ، فَنَحْنُ عَلى حَقٍّ ، وَهُمْ عَلى باطِلٍ ، لأَنَّهُمْ يَكْفرونَ بِكَ .

وَهَذِهِ الدَّعواتُ جَمَعَتْ أَسْمَى أَلْوانِ الأَدَبِ ، فَقَدْ بَدَأُوا دُعاءَهُمْ بِالتَّوَسُّلِ بِوَصْفِ الرُّبوبِيَّةَ ، أَي : يا خالِقَنا وَمُنْشِئَنا وَالمُنْعِمَ وَالمُتَفَضِّلَ عَلَيْنا ، فَهُمْ يَلْجَأُونَ إِلَيهِ وَحْدَهُ ، لأَنَّ النَّفْعَ والضَّرَّ ، والنَّصْرَ وَالهَزيمَةَ بِيَدِهِ ، وَسَأَلوا اللهَ الصَّبْرَ أَوْلاً ، لأَنَّهُ عُدَّةُ القِتالِ الأُولى ورُكْنُهُ الأَعْلى ، فَمَنْ صَبَرَ لا يُمْكِنْ أَنْ يَكونَ مِنْهُ جَزَعٌ أَوْ عَجْزٌ ، ثُمَّ طَلَبوا مِنَ اللهِ الثَّباتَ الَّذي هُوَ مَظْهَرٌ لِلْصَّبْرِ ، وَوسيلَةُ النَّصْرِ ، وخَتَموا دُعاءَهُمْ بِما هُوَ ثَمَرَةٌ وَنَتيجَةٌ لِلْصَّبْرِ والثَّباتِ ، وَهُوَ النَّصْرُ عَلى الأَعْداءِ .

وَقَدْ كانَتِ النَّتيجَةُ الَّتي تَرَقَّبوها واسْتَيْقَنوها ، قالَ تَعالى :

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ .

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ هَذِهِ هِيَ الحَقيقَةُ الَّتي أَكَّدَها القُرْآنُ ، لِيَعْلَمَها المُؤْمِنونَ ، ولِيَزْدادوا بِها عِلْماً ، فَما مِنْ أَمْرٍ يَكونُ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ تَعالى ، وَهَكَذا تَحَقَّقَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعالى بِنَصْرِ أَوْلِيائِهِ الصالِحينَ الصَّابرينَ .

﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ وَداوِدُ كانَ فَتًى صَغيراً مِنْ بَني إِسْرائِيلَ ، وجَالوتُ كانَ مَلِكاً قَوِياً وقائِداً يَخافُهُ كُلُّ مَنْ يَراهُ ، وَلَكِنْ بِإِذْنِ اللهِ تَعالى وَمَشِيئَتِهِ اسْتَطاعَ دَوادُ الفَتى الصَّغيرُ أَنْ يَقْتُلَ المَلِكَ القَوِيَّ ، لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ الأُمورَ لا تَجْري حَسَبَ الظَّواهِرِ ، وَلَكِنْ حَسَبَ مَشِيئَتِهِ تَعالى ، فَهُوَ وَحْدَهُ يَعْلَمُ حَقائِقَ الأُمورِ ، ومَقادِيرُها في يَدِهِ وَحْدَهُ ، لِذا عَلى النَّاسِ أَنْ يَقوموا بِما هُوَ مُلْقىً عَلى عاتِقِهِمْ ، مِنَ الإيمانِ بِاللهِ وَصِدْقِ التَّوَكُّلِ وَالاعْتِمادِ عَلَيْهِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يُريهِمْ سُبْحانَهُ أَنَّ الجَبابِرَةَ الَّذينَ يُرْهِبونَهُمْ ضِعافٌ يُمْكِنُ لِلْصِبْيَةِ أَنْ يَتَغَلَّبوا عَلَيْهِم حِينَ يَشاءُ اللهُ ، وَقَدْ شاءَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يَتَسَلَّمَ المُلْكَ سَيِّدُنا داودُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، بَعْدَ طالوتَ فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ وَقَدْ جَمَعَ اللهُ المُلْكَ والنُّبُوَّةَ لِنَبِيِّهِ داودَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَإِضافَةً إِلى ذَلِكَ عَلَّمَهُ اللهُ تَعالى ما يَشاءُ مِنْ فُنونِ العِلْمِ وَمِنْ أُمورِ الدِّينِ والدُّنْيا ، فَقَدْ عَلَّمَهُ سُبْحانَهُ صِناعَةَ آلاتِ الحَرْبِ ، ومَنْطِقَ الطَّيْرِ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَنِ الغايَةِ مِنَ الصِّراعِ بَيْنَ القِوى في الأَرْضِ .

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : لَوْلا أَنَّ اللهَ يَدْفَعُ أَهْلَ البَغْيِ وَالسُّوءِ والباطِلِ بِأَهْلِ الحَقِّ ، وَلَوْلا أَنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى يُهَيِّىءُ أَهْلَ الحَقِّ حَتَّى لا يَتَمادى أَهْلُ الباطِلِ بِبَغْيِهِمْ وَباطِلِهِمْ ، لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ولَغَلَبَ أَهْلُ الفَسادِ ، وَبَغَوْا عَلى الصَّالِحينَ ، وَصارَ لَهُمُ السُّلْطانُ في الأَرْضِ ، وَتَعَطَّلَتْ مَصالِحُ النَّاسِ .
وَلَوْلا : حَرْفُ امْتِناعٍ لوجودٍ ، أَي : امْتَنَعَ وُجودُ الفَسادِ في الأَرْضِ لأَجْلِ وُجودِ هَذا الأَمْرِ ، وَهُوَ دَفْعُ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ .

إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ تُوَجِّهُ النَّاسَ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ ، إِلى أَنْ يَقِفوا في وَجْهِ الباطِلِ وَالشَّرِّ ، وَأَنْ يُقاوِموا بِكُلِّ وَسيلَةٍ مِنَ الوَسائِلِ ، وتُخْتَتَمُ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لأَنَّهُ لَمْ يُمَكِّنِ الباطِلَ مِنْ أَنْ يَعيثَ في الأَرْضِ فَساداً ، فَأُذِنَ لِلْصَّالِحينَ بِقِتالِ البُغاةِ المُفْسِدينَ ، وَجعَلَ أَهْلَ الحَقِّ حَرْباً لأَهْلِ الباطِلِ ، وَهُوَ ناصِرُهُمْ إذا نَصَروا اللهَ ، وَأَصْلَحوا في الأَرْضِ .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

تِلْكَ الآياتُ الَّتي حَدَّثْناكَ فيها عَنْ قِصَّةِ هَؤُلاءِ المَلأِ مِنْ بَني إِسْرائِيلَ ، وَما كانَ مِنْ طالوتَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَقَتْلِ دَوادَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لِجالوتَ ، آياتُ اللهِ الَّتي لا يَأْتيها الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْها وَلا مِنْ خَلْفِها ، نَتْلوها عَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ تِلاوَةً مُبَيِّنَةً لِلْحَقِّ الثَّابِتِ الَّذي لا يَحومُ حَوْلَهُ باطِلٌ ، وَإِنَّكَ يا مُحَمَّدُ لَمِنَ المُرْسَلينَ ، فَلَوْلا الرِّسالَةُ ما عَرَفْتَ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ القِصَصِ ، فَإِنَّكَ لَمْ تَكُنْ في أَزْمِنَةِ وُقوعِها ، وَلا تَعَلَّمْتَ شَيْئاً مِنَ التَّاريخِ ، فَإِنَّكَ نَبِيُّ اللهِ ، وما جِئْتَ بِهِ فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ طاعَةُ الجُنْدِ لِلْقائِدِ في كُلِّ ما يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهى عَنْهُ أَمْرٌ أَساسِيٌّ لِلْنَّصْرِ وَاسْتِقامَةِ أَمْرِ الأُمَّةِ .

٢ـ التَّوَجُّهُ إِلى اللهِ تَعالى بِالدُّعاءِ أَمْرٌ مُفيدٌ ، إِذْ إِنَّ الدُّعاءَ هُوَ آيَةٌ وَعَلامَةٌ عَلى إيمانِ الدَّاعي .

٣ـ مِنْ سُنَّةِ اللهِ في خَلْقِهِ أَنْ يَكونَ الصِّراعُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ صِراعاً دائِماً ، وَلَوْلا أَنَّ اللهَ يَدْفَعُ بَعْضَ الفاسِقينَ بِبَعْضِ الصَّالِحينَ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ تَوَجَّهَتِ الْفِئَةُ المُؤْمِنَةُ الَّتي قاتَلَتْ مَعَ طالوتَ بِالدُّعاءِ إِلى اللهِ ، ما الَّذي طَلَبوهُ مِنْ خالِقِهِمْ سُبْحانَهُ ؟

٢ـ اسْتَنْتِجْ فائِدَةَ الدُّعاءِ في المَعْرَكَةِ .

٣ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ هَذا التَّرْتيبِ في دُعاءِ القَوْمِ ؟

٤ـ بَيَّنَتِ الآياتُ النَّتيجَةَ الَّتي تَرَقَّبَها المُؤْمِنونَ في المَعْرَكَةِ . هاتِ ما ذَكَرَتْهُ الآياتُ .

٥ـ مَنْ داودُ ؟ ، وما الَّذي كانَ مِنْهُ في المَعْرَكَةِ ؟

٦ـ بِمَ أَنْعَمَ اللهُ تَعالى عَلى سَيِّدِنا داودَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٧ـ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنِ الغايَةِ مِنَ القِتالِ وَالصِّراعِ بَيْنَ القِوى في الأَرْضِ . وَضِّحْ ما ذَكَرَتْهُ الآياتُ .

٨ـ ما المَقْصودُ بِفَضْلِ اللهِ في قَوْلِهِ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ؟



١ـ فَرِّقْ مِنْ حَيْثُ المَعْنى بَيْنَ العَدَدِ بِفَتْحِ العَيْنِ والعُدَدِ بِضَمِّها ، وَاكتُبْ ذَلِكَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ هاتِ آيَتَيْنِ مِنْ كِتابِ اللهِ تُبَيِّنانِ ما عَلَّمَهُ اللهُ تَعالى لِداودَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني والثَّلاثونَ

سورةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الثَّامِنُ والسَّبْعونَ

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٥٤) ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

البَيِّناتِ : المُعْجزاتِ الواضِحاتِ .

بروحِ القُدُسِ : جِبْريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ .

خُلَّةٌ : مَوَدَّةٌ وَصَداقَةٌ .

التَّفسيرُ :

ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ مُحَمَّداً عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ المُرْسَلينَ ، الَّذينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ تَعالى لإِخْراجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ ، وَأَيَّدَهُ بِالوَحْيِ ، وَجاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتُبَيِّنَ تَفْضيلَ اللهِ تَعالى لِلرُّسُلِ بَعْضِهِمْ عَلى بَعْضٍ ، وَخَصائِصَ بَعْضِهِمْ ، وَرَفْعَ دَرَجاتِ بَعْضٍ .

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾ .

قالَ تَعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ تِلْكَ الرُّسُلُ ، وَلَمْ يَقُلْ هؤلاءِ الرُّسُلُ بِهَذا

التَّعْبيرِ الخاصِّ ، فَهُمْ جَماعَةٌ خاصَّةٌ ذاتُ طَبيعَةٍ خاصَّةٍ ، وَإِنْ كانوا مِنَ البَشَرِ . لَقَدْ جاءَ التَّعْبيرُ باسْمِ الإِشارَةِ (تِلْكَ) الدَّالِّ عَلى البَعيدِ ، لِيُبَيِّنَ مَكانَةَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وأَنَّهُمُ المُصْطَفَوْنَ الأَخيارُ . والتَّفْضيلُ الَّذي فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَ الأَنْبياءِ عَلى بَعْضٍ يَظْهَرُ فيما يَلي :

١ـ قَدْ يَتَعَلَّقُ بِالمُحيطِ المُتَعَلِّقِ المُقَدَّرِ لِلرَّسولِ وَالَّذي يَشْمَلُ دَعْوَتَهُ ، فَقَدْ يَكونُ رَسولاً لِقَبيلَةٍ ، أَوْ رَسولاً لأُمَّةٍ ، وَقَدْ يَكونُ رَسولاً لِجَميعِ الأُمَمِ .

٢ـ وَقَدْ يَتَعَلَّقُ التَّفْضيلُ بِالمزايا الَّتي يَجْعَلُها اللهُ تَعالى في رَسولٍ ما ، كَأَنْ يَخُصَّهُ اللهُ بِالكلامِ ، أَوْ يَخُصُّهُ اللهُ تَعالى بِالمَحَبَّةِ وَالخِلَّةِ .

٣ـ وَقَدْ يَتَعَلَّقُ التَّفْضيلُ بِبَعْضِ المَزايا الَّتي يَجْعَلُها اللهُ تَعالى في أُمَّةِ الرَّسولِ ، كَأَنْ تَكونَ أَمَّةً وَسَطاً ، أَوْ شَهيدَةً عَلى الأُمَمِ الأُخْرى .

٤ـ وَقَدْ يَتَعَلَّقُ بِطَبيعَةِ الرِّسالَةِ ، وَمَدى شُمولِها لِجَميعِ جوانِبِ الحياةِ الإِنْسانِيَّةِ وَالكَوْنِيَّةِ ، وَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ هُنا أَمْثِلَةً لِهَذا التَّفْضيلِ :

الأَوَّلُ : ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ فَضَّلَهُ اللهُ تَعالى بِتَكْليمِهِ إِيَّاهُ .

وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحانَهُ بِأَنَّهُ قَدِ اصْطَفى موسى عَلَيْهِ السَّلامُ بِرِسالَتِهِ وكَلامِهِ فَقالَ : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

الثَّاني : ﴿ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَهُ اللهُ تَعالى على سائِرِ الأَنْبياءِ . وَيَرى جُمْهورُ المُفَسِّرينَ أَنَّ المَقْصودَ هُنا سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ ، فَقَدْ أُوتِيَ ما لَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ مِنَ العالَمينَ ، وَهُوَ صاحِبُ الدَّرَجاتِ الرَّفيعةِ .

الثَّالِثُ : ﴿ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ ﴾ أَعْطَيْنا عيسى ابنَ مَرْيَمَ المُعْجِزاتِ الوَاضِحَةَ مِثْلَ إِبْراءِ الأَكْمَهِ وَالأَبْرصِ ، وَإِحْياءِ المَوْتى ، وَيَصْنَعُ مِنَ الطِّينِ عَلى هَيْئَةِ الطَّيْرِ ، فَيَنْفُخُ فِيهِ فِيَكونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ ، وَأَنْ يُخْبِرَ قَوْمَهُ ما يَأْكُلونَ وَيَدَّخِرونَ في بُيُوتِهِمْ ، وَكَرَّمَهُ اللهُ تَعالى بِأَنْ أَيَّدَهُ بِروحِ القُدُسِ ، وَهُوَ جِبْريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ .

وَقَدْ خَصَّ موسى وعيسى عَلَيْهِما السَّلامُ بِالذِّكْرِ ، لأَنَ السِّياقَ يَتَحَدَّثُ عَنْ بَني إِسْرائيلَ الَّذينَ آمَنوا بِأَنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ نَبِيٌّ أُرْسِلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ خالَفوهُ في كُلِّ ما جاءَ بِهِ ، وَهُمْ كَذَلِكَ أَنْكَروا نُبُوَّةَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَحاوَلوا قَتْلَهُ إِلاَّ أَنَّ اللهَ نَجَّاهُ وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ ، وَقَتَلوا الكَثيرينَ مِنْ أَتْباعِهِ ، فَبَيَّنَ لَهُمْ سُبْحانَهُ بِأَنَّهُ عَبْدٌ للهِ اصْطَفاهُ وَاخْتارَهُ لِلرِّسالَةِ .

﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ ﴾ لَوْ شاءَ اللهُ تَعالى عَدَمَ اقْتِتالِ الأُمَمِ مِنْ بَعْدِ الرُّسُلِ ، ما اقْتَتَلوا ، وَلَجَعَلَهُمُ اللهُ مُتَّفقينَ ، مُتَّبعينَ لِلرُّسُلِ الَّذينَ جاءوا بِالآياتِ الواضِحَةِ ، وَلَكِنَّها إِرادَةُ اللهِ وحِكْمَتُهُ أَنْ يَخْتَلِفَ النَّاسُ اخْتِلافاً كَبيراً ، فَيَكونَ

مِنْهُمُ المُؤْمِنُ ، ويَكونَ مِنْهُمُ الكافِرُ ، فَفي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ وَالمَدينَةِ المُنَوَّرَةِ زَعَمَ المُشْرِكونَ أَنَّهُمْ عَلى دِينِ إِبْراهيمَ ، وَزَعَمَ اليَهودُ أَنَّهُمْ عَلى دينِ موسى ، وَزَعَمَ النَّصارى أَنَّهُمْ عَلى دينِ عيسى ، وَلَكِنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ بَعُدَتْ عَنْ أَصْلِ دينِها بُعْداً كَبيراً وَعَنْ رِسالَةِ نَبِيِّها ، وَانْحَرَفَتْ إِلى الدِّينِ الَّذي يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ وَصْفُ الكُفْرِ ، وَلَيْسَ هَذا فقطْ ، بَلْ كُلُّ فِرْقَةٍ اخْتَلَفَتْ كَذَلِكَ ، فَاليَهودُ اخْتَلَفوا في دينِهِمْ فَاقْتَتَلوا ، وَالنَّصارى كَذَلِكَ كانوا فِرَقاً مُتَعَدِّدَةً كُلُّ فِرْقَةٍ تَتَرَبَّصُ بِالأُخْرى ، وَهاهُمُ المُسْلِمونَ اليَوْمَ كَذَلِكَ جَماعاتٌ مُتَفَرِّقَةٌ ، كُلُّ فِرْقَةٍ تُقاتِلُ الأُخْرى وَالعِياذُ بِاللهِ ، فَنَسْأَلُ اللهَ العَفْوَ وَالمُعافاةَ .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ لَوْ شاءَ اللهُ عَدَمَ اقْتِتالِهِمْ ، بِأَنْ يَجْعَلَ كُلَّ فَريقٍ يَعْذُرُ الآخَرَ لَفَعَلَ ، وَلَكِنَّها سُنَّةُ اللهِ في هَذا الكَونِ لِيَدْفَعَ الكُفْرَ بِالإيمانِ ، وَلِيُقِرَّ في الأَرْضِ حَقيقَةَ العَقيدَةِ الصَّحيحَةِ الواحِدَةِ الَّتي جاءَ بِها الرُّسُلُ جَميعاً ، فانْحَرَفَ عَنْها المُنْحَرِفونَ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ فَمَشيئَتُهُ مُطْلَقَةٌ ، فَقَدْ قَدَّرَ أَنْ يَكونَ النَّاسُ مُخْتَلِفينَ ، وَقَدَّرَ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ واحِدٍ يَخْتارُ طَريقَهُ بِنَفْسِهِ ، وَقَدَّرَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَهْتَدِ مِنْهُمْ في طَريقِ الحَقِّ فَقَدْ ضَلَّ ، وَقَدَّرَ أَنْ يَقَعَ القِتالُ بَيْنَ أَهْلِ الهُدى وَأَهْلِ الضَّلالِ . وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتُخاطِبَ الَّذينَ آمَنوا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ .

عَرَفْتَ مِنْ قَبْلُ سِرَّ هَذا النِّداءِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ فَقَدْ أَمَرَهُمْ اللهُ تَعالى في الآيَةِ بِالإِنْفاقِ مِمَّا رَزَقَهُمْ ، فَهُوَ لا يَطْلُبُ إِلاَّ بَعْضَ ما أَعْطاهُمْ إِيَّاهُ سُبْحانَهُ ، وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَجَعَلَهُمْ مُسْتَخْلَفينَ فِيهِ ، وَلِذا قالَ : ﴿ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ وَالإِنْفاقُ يَشْمَلُ الزَّكاةَ الواجِبَةَ ، وَالصَّدَقاتِ المُسْتَحَبَّةَ .

وَيُحَذِّرُهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ يَوْمِ القِيامَةِ ، فَيَقولُ لَهُمْ : أَنْفِقوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمُ الحِسابِ ، حَيْثُ لا يَنْفَعُ في هَذا اليَوْمِ شَيْءٌ ، فَلا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَفْدِيَ نَفْسَهُ ، وَلا يُنْجيهِ خَليلٌ ، وَلا صَديقٌ بِحَيْثُ يَتَحَمَّلُ عَنْهُ شَيْئاً مِنَ العَذابِ ، وَلا يَنْفَعُهُ شَفاعَةُ شَفيعٍ . يَنْبَغي عَلَيْهِمْ إِذَنْ أَنْ يَسْتَغِلُّوا تِلْكَ الفُرْصَةَ الَّتي أَعْطاهُمْ إِيَّاها سُبْحانَهُ وَتَعالى ، بِأَنْ يُنْفِقوا في الدُّنْيا ، حَيْثُ تَرْبَحُ أَمْوالُهُمْ وَتَنْمو . وَتُخْتَتَمُ الآياتُ بِما يَدُلُّ عَلى نَوْعِ تِلْكَ النَّفَقَةِ الَّتي يَأْمُرُهُمْ بِها سُبْحانَهُ ، وَهِيَ النَّفَقَةُ في الجِهادِ ، لِدَفْعِ الكُفْرِ وَدَفْعِ الظُّلْمِ المُتَمَثِّلِ في هَذا الكُفْرِ ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فَهُمْ قَدْ ظَلَموا الحَقَّ فَأَنْكَروهُ ، وَظَلَموا أَنْفُسَهُمْ فَأَوْرَدوها مَوارِدَ الهَلاكِ ، وَظَلَموا النَّاسَ حَيْثُ صَدُّوهُمْ عَنِ الهُدى ، وَحَرَموهُمُ الخَيْرَ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الرُّسُلُ عِبادُ اللهِ المُصْطَفَوْنَ الأخْيارُ ، جَعَلَ لَهُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى مَكانَةً عَظيمَةً ، وَفَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ في المَكانَةِ والرِّسالَةِ .

٢ـ الَّذينَ يُحارِبونَ الإيمانَ حَتَّى لا يَسْتَقِرَّ في قَلوبِ النَّاسِ ، وَيُحارِبونَ مَنْهَجَ القُرْآنِ حَتَّى لا يَكونَ مَنْهَجَ الحَياةِ ، إنَّما هُمْ أَعْدى أَعْداءِ البَشَرِ ، وَهُمْ أَظْلَمُ الظَّالِمينَ .

٣ـ وَاجِبُ الجَماعَةِ المُسْلِمَةِ أَنْ تُحارِبَ الكُفْرَ وَالظُّلْمَ وَتُطَهِّرَ الأَرْضَ مِنْهُ ، بِالجِهادِ بالمالِ والنَّفْسِ وَالكَلِمَةِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ ما سِرُّ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ ؟

٢ـ بِمَ فَضَّلَ اللهُ تَعالى الرُّسُلَ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ ؟

٣ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أَمْثِلَةً لِتَفْضيلِ بَعْضِ الرُّسُلِ ، هاتِ تِلْكَ الأَمْثِلَةَ .

٤ـ لِمَ خَصَّتِ الآياتُ سَيِّدَيْنا موسى وعيسى عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ بِالذِّكْرِ ؟

٥ـ ما الحِكْمَةُ مِنَ اقْتِتالِ النَّاسِ واخْتِلافِهِمْ بَعْدَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؟

٦ـ بَيِّنْ مَعْنى قولِهِ تَعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا﴾ .

٧ـ اسْتَخْلِصْ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ قولُهُ تَعالى : ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ .

٨ـ لِمَ خُتِمَتِ الآياتُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَٱلْكَافِرُونَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ ؟



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ اسْمَ النَّبِيِّ الّذي وَهَبَهُ اللهُ المَزايا الآتِيَةِ : أـ كَليمُ اللهِ ، ب ـ مِنْ روحِ اللهِ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما يَقولُهُ المُسْلِمُ بَعْدَ سَماعِ الأَذانِ .

٣ـ فَضَّلَ اللهُ الرَّسولَ ﷺ عَلى غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمورٍ ، بَيِّنْها مِنْ خِلالِ أَحاديثَ تَحْفَظُها عَنِ الرَّسولِ ﷺ .

الدَّرسُ الثّالِثُ والثّلاثونَ

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ التّاسِعُ والسَّبْعونَ

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ

الحَيُّ : الدّائِمُ الحَياةِ .

القَيُّومُ : القائِمُ بِنَفْسِهِ المُقيمُ لِغَيْرِهِ .

تَأْخُذُهُ : تَغْلِبُهُ وَتَسْتَولي عَلَيْهِ .

سِنَةٌ : نُعاسٌ وَفُتورٌ .

يَؤودُهُ : يُثْقِلُهُ وَيَشُقُّ عَلَيْهِ .

الرُّشْدُ : طَريقُ الهُدى وَالإيمانِ .

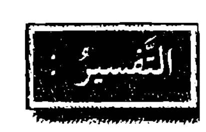
الغَيِّ : طَريقُ الضَّلالَةِ وَالكُفْرِ .

الطّاغوتِ : كُلُّ مَعْبودٍ سِوى اللهِ تَعالى .

اسْتَمْسَكَ : اشْتَدَّ تَمَسُّكُهُ .

العُرْوَةِ الوُثْقى : العَقيدَةِ المُحْكَمَةِ .

انْفِصامَ : انْقِطاعَ وزَوالَ .



﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ .

لَقَدْ تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنِ اخْتِلافِ النَّاسِ ، وَمَجيءِ الكُفْرِ بَعْدَ الإيمانِ ، وَلِذا جاءَتِ الآيَةُ هُنا لِتُبَيِّنَ قواعِدَ التَّصَوّرِ الإيمانِيِّ ، وَتَذْكُرَ مِنْ صِفاتِ اللهِ تَعالى ما يُقَرِّرُ مَعْنى الوَحْدانِيَّةِ ، فَالآيَةُ تَضَمَّنَتْ صِفاتِ للهِ تَعالى ، كُلُّ صِفَةٍ تُمَثِّلُ قاعِدَةً أَساسيَّةً مِنْ قَواعِدِ الإيمانِ .

١ـ ابْتَدَأَتِ الآيَةُ بِالصِّفَةِ الأُولى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وَهِيَ تَتَحَدَّثُ عَنْ صِفَةِ الوحْدانِيَّةِ فاللهُ وَحْدَهُ المَعْبودُ الّذي يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ دونَ غَيْرِهِ ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ هِيَ الَّتي يَقومُ عَلَيْها الدّينُ ، فَلا يَكونُ الإنْسانُ إلاّ عَبْداً للهِ ، وَلا يَتَّجِهُ بِالعِبادَةِ إِلاَّ للهِ ، وَلا يَلْتَزِمُ بِطاعَةٍ إلاّ طاعَةَ اللهِ ، وَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ أَنَّ الحُكْمَ لا يَكونُ إِلاَّ للهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ المُشَرِّعُ .

٢ـ الحَيُّ القَيُّومُ : وَهَذِهِ صِفَةُ الحَياةِ الّتي يوصَفُ بها الإِلَهُ سُبْحانَهُ ، حَياةٌ ذاتِيَّةٌ ، لَمْ تَأْتِ مِنْ مَصْدَرٍ آخَرَ ، مِثْلَ حَياةِ الخلائِقِ ، حَيْثُ وَهَبَها الخالِقُ لَهُمْ ، وَصِفَةُ الحَياةِ للهِ أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ ، وَهِيَ لَيْسَتْ كَالحَياةِ الَّتي عَرَفَها البَشَرُ ، إِذْ إِنهُ سُبْحانَهُ وَتعالى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .

أَمّا صِفَةُ القَيُّوم ، فَتَعْني قِيامُهُ سُبْحانَهُ بِتَدْبيرِ أُمورِ كُلِّ مَوْجودٍ ، وَتَعْني قِيامَ كُلِّ مَوجودٍ بِهِ سُبْحانَهُ ، وَكُلُّ شَيءٍ قائِمٌ في وُجودِهِ عَلى إرادَةِ اللهِ تَعالى ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ حَياةَ المُسْلِمِ وَضَميرَهُ ووجودَهُ ووجودَ كُلِّ شَيءٍ حَوْلَهُ مُرْتَبِطٌ بِهِ سُبْحانَهُ وَحْدَهُ الَّذي يُصَرِّفُ الأُمورَ وِفْقَ حِكْمَةٍ وَتَدْبيرٍ .

٣ـ ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ وَفي هَذِهِ الصِّفَةِ تَأْكيدٌ لِصِفَةِ حياتِهِ وقَيّومِيَّتِهِ ، فَالقائِمُ عَلى كُلِّ شَيءٍ في الوُجودِ بِكُلِّياتِهِ وَجُزْئياتِهِ ، هَذِهِ الذَّراتُ الصَّغيرَةُ وَالخَلايا غَيْرُ المَرْئِيَّةِ ، وَالخَلائِقُ وَالأَشْياءُ ، وَالأَحْداثُ ، كُلُّها قائِمَةٌ بِهِ سُبْحانَهُ ، وَهَذِهِ تَسْتَلْزِمُ أَنْ لا يَأْخُذَهُ سُبْحانَهُ سِنَةٌ : نُعاسٌ خَفيفٌ ، وَلا نَوْمٌ كَذَلِكَ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ هَذِهِ الأُمورِ كُلِّها .

٤ـ ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ فَهُوَ المالِكُ لِهَذِهِ كُلِّها ، لَهُ المُلْكِيَّةُ المُطْلَقَةُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ المالِكُ الواحِدُ ، وَقَدْ فُهِمَ هَذا المَعْنى مِنْ تَقْديمِ الجارِ وَالمَجْرور (لَهُ) الَّذي يُفيدُ حَصْرَ المُلْكِ وَقَصْرَهُ عَلى اللهِ وَحْدَهُ ، وَمُجَرَّدُ شُعورِ الإِنْسانِ بِأَنَّ كُلَّ ما في الكَوْنِ مُلْكٌ للهِ ، يَحْمِلُهُ عَلى عَدَمِ الطَّمَعِ وَالشُّحِّ والحِرْصِ ، وَيَجْعَلُهُ يَشْعُرُ بِالقناعَةِ وَالرِّضى بما يُحَصِّلُ مِنَ الرِّزْقِ .

٥ـ ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ وَهَذِهِ صِفَةٌ أُخرى مِنْ صِفاتِ اللهِ تَعالى تُوَضِّحُ مَقامَ الأُلوهِيَّةِ وَمَقامَ العُبودِيَّةِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ مُتَفَرِّدٌ بالأُلوهِيَّةِ ، وَالخَلْقُ كُلُّهُمْ عَبيدٌ لَهُ تَعالى ، لا يَتَعَدُّونَ مَوْقِفَ العُبودِيَّةِ وَلا يَتَجاوَزونَهُ ، يَقِفونَ مَوْقِفَ الخاشِعِ الخاضِعِ ، الَّذي لا يَمْلِكُ طَلَبَ الشَّفاعَةِ عِنْدَهُ إلاَّ بَعْدَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ ، فَمَنْ أَذِنَ لَهُ رَبُّهُ بِالشَّفاعَةِ فَإِنَّهُ يَشْفَعُ لأَهْلِ الإيمانِ ، أَمَّا أَهْلُ العَقائِدِ الباطِلَةِ وَالكُفْرِ فَلا تُقْبَلُ الشَّفاعَةُ فيهِمْ أَبداً .

٦ـ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ ﴾ وَهَذِهِ تَتَحَدَّثُ عَنْ صِفَةِ عِلْمِ اللهِ تَعالى ، العِلْمِ الشَّامِلِ الكامِلِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ يَعْلَمُ حاضِرَ الخَلْقِ ؛ وَهُوَ ما بَيْنَ أَيْديهِمْ ، وَيَعْلَمُ غَيْبَهُمُ الذي كانَ ومَضى ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقْبَلَهُمْ الَّذي سَيَكونُ . وَعِلْمُ اللهِ الشَّامِلُ لِما بَيْنَ أَيْدي الخَلْقِ وَما خَلْفَهُمْ ، جَديرٌ بِأَنْ يَجْعَلَ الإنْسانَ مُسْتَسْلِماً للهِ تَعالى الَّذي يَعْلَمُ ظاهِرَهُ وَباطِنَهُ ، مُتَدَبِّراً لأُمورِ الكَوْنِ ، حَيْثُ أَنَّهُ سُبْحانَهُ لا يُعْلِمُ النَّاسَ إلاَّ بِما شاءَ لَهُمْ أَنْ يَعْلَموهُ .

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يَأْذَنُ ، فَيَكْشِفُ لِلْعِبادِ شَيْئاً مِنْ عِلْمِهِ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] وَما زالَ سُبْحانَهُ يَكْشِفُ لَهُمْ عَنِ الكَثيرِ تَحْقيقاً لِوَعْدِهِ ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَنْسَوْنَ هَذِهِ الحَقيقَةَ ، وَيُفْتَنونَ بِما أَذِنَ لَهُمْ سُبْحانَهُ بِمَعْرِفَتِهِ ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ اليَوْمَ ما وَصَلَ إِلَيْهِ الإنْسانُ مِنَ الكَشْفِ العِلْمِيِّ ، وَنَرى كَيْفَ تَجَبَّرَ الإنْسانُ بِهذا العِلْمِ وَتَعالى بِهِ عَلى رَبِّهِ .

وَبِقَدَرِ ما أَذِنَ اللهُ تَعالى لَلإنْسانِ بِأَنْ يَعْلَمَ أُموراً كانَتْ خافِيَةً عَلَيْهِ ، بِقَدَرِ ما غَيَّبَ عَنْهُ أَسْراراً لا حاجَةَ لَهُ بِها ، وَلا حاجَةَ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ بِها .

٧ـ ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ ﴾ وَهَذِهِ تَتَحَدَّثُ عَنْ سِعَةِ مُلْكِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى . وَالعُلَماءُ يَقولونَ : إنَّ للهِ تَعالى كُرْسِيّاً عَلَيْنا أَنْ نُؤْمِنَ بِوُجودِهِ ، وَإِنْ كُنَّا لا نَعْرِفُ حَقيقَتَهُ ، لأَنَّ هَذا لَيْسَ في مَقْدورِ البَشَرِ ، وَإِذا وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالأرْضَ ، فَقَدْ وَسِعَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ سُلْطانُهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، فَهُوَ مُحيطٌ بِها قادِرٌ عَلَيْها .

٨ـ ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ ﴾ أَيْ : لا يُثْقِلُهُ ولا يَشُقُّ عَلَيْهِ سُبْحانَهُ حِفْظُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ، وَرِعايَتِهِما ، فالكَلامُ كِنايَةٌ عَنِ القُدْرَةِ الكامِلَةِ للهِ تَعالى .

٩ـ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وَهَذِهِ هِيَ خاتِمَةُ الصِّفاتِ ، فَهِيَ تُفْرِدُهُ سُبْحانَهُ بالعُلُوِّ ، وَتُفْرِدُهُ سُبْحانَهُ بِالعَظَمَةِ ، فَفي الآيَةِ قَصْرٌ ؛ قَصَرَتِ العَظَمَةَ عَلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، فَالعُلُوُّ لَهُ وَحْدَهُ ، وَإِنْ تَطاوَلَ

أَحَدٌ مِنَ العَبيدِ عَلَيْهِ رَدَّهُ إلى الهَوانِ وَالذُّلِّ ، فَقَدْ أَهْلَكَ اللهُ تَعالى فِرْعَوْنَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ ، لأَنَّهُ كانَ مِنَ العالينَ ، وَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] وَمَهْما عَلا الإِنْسانُ وَعَظُمَ في عُيونِ الدُّنْيا ، فَإِنَّهُ لا يَتَجاوَزُ مَقامَ العُبودِيَّةِ للهِ تَعالى ، فَاللهُ هُوَ العَلِيُّ العَظيمُ ، وَهَذا كُلُّهُ يَنْبَغي أَنْ يَحْمِلَ الإِنْسانَ عَلى مَخافَةِ اللهِ تَعالى وَمَهابَتِهِ ، وَالشُّعورِ بِجَلالِهِ وَعَظَمَتِهِ سُبْحانَهُ .

هَذِهِ هِيَ صِفاتُ اللهِ تَعالى ، وَهَذا هُوَ التَّصوُّرُ الإِسْلامِيُّ في تَوْحيدِ اللهِ وتَنْزيهِهِ ، فَعَلى المُؤْمِنينَ أَنْ يَقوموا بِهَذِهِ الدَّعوَةِ وَيَتَسَلَّموا القِيادَةَ البَشَرِيَةَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُكْرِهوا النَّاسَ عَلى الدُّخولِ في دينِ اللهِ تَعالى ، قالَ تَعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ فَقَضِيَّةُ العَقيدَةِ لا بُدَّ لَها مِنَ اقْتِناعٍ ، بَعْدَ أَنْ بَيَّنَها اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى وَوَضَّحَها ، وَلَيْسَتْ قَضِيَّةَ إِكْراهٍ وَإِجْبارٍ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الآياتِ القُرْآنِيَّةَ جاءَتْ تُخاطِبُ عَقْلَ الإِنْسانِ وقَلْبَهُ ، وفِكْرَهُ وَوُجْدانَهُ ، وَلِذا مَنْ آمَنَ قُبِلَ مِنْهُ ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ لا يُجْبَرُ عَلى الدُّخولِ في الإِيمانِ ، وَفي هَذِهِ الآيَةِ رَدٌّ عَلى مَنْ يَزْعُمونَ أَنَّ الإِسْلامَ ما قامَ إِلاَّ بِالسَّيْفِ .

وَقَدْ أَكَّدَ سُبحانَهُ عَدَمَ إِكْراهِ النَّاسِ عَلى الإِيمانِ بِقَوْلِهِ :

﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ فَالإِيمانُ هُوَ الرُّشْدُ ، وَالكُفْرُ هُوَ الغَيُّ ، وحَقائِقُ الإِيمانِ كُلُّها تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ رُشْدٌ .

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ وَالطَّاغوتُ اسْمٌ لِكُلِّ ما يُطْغي الإِنْسانَ ، وَالطُّغْيانُ تَجاوزُ الحَدِّ الَّذي وَضعَهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، فَكُلُّ مَنْهَجٍ لَيْسَ مُسْتَمَدّاً مِنَ اللهِ ، وَكُلُّ حُكْمٍ أَوْ تَصَوُّرٍ مُسْتَمَدٌّ مِنْ غَيْرِ اللهِ تَعالى فَهُوَ طاغوتٌ ، فَمَنْ كَفَرَ بِذَلِكَ كُلِّهِ ، واسْتَمَدَّ مَنْهَجَهُ وعَقيدَتَهُ وَطَريقَهُ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ فَقَدْ نَجا ، وَكانَ مُسْتَمْسِكاً بِالعُرْوَةِ الوُثْقى ، أَيْ : يَثْبُتُ عَلى الطَّريقَةِ المُثْلى ، وَأَمْسَكَ مِنَ الدِّينِ بِأَقْوى أَسْبابِهِ .

﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فَهُوَ يَسْمَعُ الأَصْواتَ وَيَعْلَمُ ما تُخْفيهِ القُلوبُ ، فَالمُؤْمِنُ المُتَّصِلُ قَلْبُهُ بِاللهِ تَعالى لا يَبْخَسُهُ اللهُ حَقَّهُ وَلا يَظْلِمُهُ ، وَلا يُخَيِّبُ رَجاءَهُ .

دروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وَحْدانِيَّةُ اللهِ تَعالى هِيَ القاعِدَةُ الأَساسِيَّةُ الَّتي يَقومُ عَلَيْها الإِسْلامُ ، فَالعُبودِيَّةُ المُطْلَقَةُ للهِ ، والحَاكِمِيَّةُ للهِ تَعالى وَحْدَهُ .

٢ـ قِيامُ اللهِ تَعالى بِتَدْبيرِ أُمورِ الخَلْقِ ، وَعِلْمُهُ الشَّامِلُ في الكَوْنِ ، يَنْبَغي أَنْ يَجْعَلَ الإِنْسانَ مُراقِباً للهِ تَعالى ، يَشْعُرُ بِأَنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ ، فَيَسْتَحِيَ مِنْ أَنْ يَراهُ سُبْحانَهُ وَهُوَ في مَعْصِيَةٍ .

٣ـ اللهُ تَعالى مُتَفَرِّدٌ بِالعُلُوِّ وَالعَظَمَةِ ، فَمَهْما عَلا الإِنْسانُ في الأَرْضِ ، وَتَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ ، فَإِنَّ رُجوعَهُ إِلى اللهِ تَعالى ، فَيُعاقِبُهُ وَيُذِلُّهُ وَيُخْزيهِ .

٤ـ حُرِّيَّةُ الاعْتِقادِ هِيَ أَوَّلُ الحُقوقِ الَّتي أَعْطاها الإِسْلامُ لِلإِنْسانِ ، وَمَنْ سَلَبَ إِنْساناً حُرِّيَّةَ الاعْتِقادِ ، فَكَأَنَّما سَلَبَ مِنْهُ إِنْسانِيَّتَهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التَّالِيَةِ :

١ـ بَيِّنْ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التَّالِيَةِ :

الحَيُّ القَيُّومُ ، سِنَةٌ ، يُؤْودُهُ ، الرُّشْدُ ، العُرْوَةِ الوُثْقى .

٢ـ بَيَّنَتِ الآياتُ مِنْ صِفاتِ اللهِ الوَحْدانِيَّةَ وَكَوْنَهُ حَيّاً قَيُّوماً ، اسْتَخْلِصْ ما تَدُلُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الصِّفاتُ .

٣ـ عَلامَ يَدُلُّ تَقْديمُ الجارِّ وَالمَجْرورِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿لَّهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ؟

٥ـ هَاتِ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشيءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ .

٦ـ ما الكُرْسِيُّ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ ؟

٧ـ العُلُوُّ وَالعَظَمَةُ مِنْ الصِفاتِ الَّتي يَتَفَرَّدُ بِها سُبْحانَهُ وَتَعالى ، هاتِ ما تَدُلُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الصِّفاتُ .

٨ـ مِنَ الحُقوقِ الَّتي أَعْطاها الإِسْلامُ لِلإِنْسانِ حُرِّيَّةُ العَقيدَةِ ، بَيِّنْ هَذا الحَقَّ مِنْ خِلالِ الآياتِ الكريمَةِ .

نَشاطٌ :

١ـ اكتبْ في دفترِكَ أَوائِلَ سُورَةِ العَلَقِ ، وَتَدَبَّرْ كَيْفَ يَطْغى الإِنْسانُ بِالعِلْمِ .

٢ـ اسْتَنْتِجْ أُموراً مِنَ الحَياةِ ما زالَتْ خافِيَةً عَلى الإِنْسانِ لا يَسْتَطيعُ عِلْمَها .

٣ـ هَاتِ أَمْثِلَةً تُبَيِّنُ أَنَّ الإيمانَ رُشْدٌ وَالكُفْرَ غِيٌّ .

٤ـ آيَةُ الكُرْسِيِّ أَعْظَمَ آياتِ القُرْآنِ الكَريمِ ، اكْتُبْ مَوْضوعاً في حُدودِ صَفْحَتَيْنِ مُبَيِّناً فَضْلَها ، وَتَوْجيهاتِ الرَّسولِ ﷺ لاسْتِخْدامِها وَالإِفادَةِ مِنْها ، مُدَعِّماً مَوْضوعَكَ بِالأَحاديثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّريفَةِ ، انْشُرِ المَوْضوعَ في مَجَلَّةِ المَدْرَسَةِ .

* * *

الدرس الرابع والثلاثون

سورة البقرة - القسم الثمانون

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَوْلياؤُهُمْ : أَنْصارُهُمْ ومعاونوهُمْ .

حاجَّ إِبْراهيمَ : جادَلَهُ .

فَبُهِتَ : دُهِشَ دَهْشَةً حَيَّرَتْهُ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الكَلامَ .

التَّفسيرُ :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) ﴾ .

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وَتَعالى أَنَّ مَنِ اتَّبَعَ الإيمانَ فَقَدْ رَشَدَ ، وَمَنْ اتَّبعَ طَريقَ الكُفْرِ فَقَدْ غوى ، بَيَّنَ بِأَنَّهُ سُبْحانَهُ وَلِيُّ الَّذينَ آمَنوا ، فَهُوَ مُعينُهُمْ وَناصِرُهُمْ وَمُتَولّي أُمورِهِمْ ، يُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلُماتِ الكُفْرِ وَضَلالاتِ الشِّرْكِ وَالفِسْقِ وَالعصيانِ إلى نور الحَقِّ والهدايةِ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ يَهْديهم إلى اسْتِعمالِ حَواسِّهِمْ وَعُقولِهِمْ عَلى الوَجْهِ الصَّحيحِ ، أَمّا الَّذينَ كَفَروا فَلا سُلْطانَ عَلى نُفوسِهِمْ إِلاّ لِتِلْكَ

المَعْبوداتِ الباطِلَةِ المُتَمَثِّلَةِ بالشياطينِ ، سَواءٌ كانوا شَياطينَ الإِنْسِ أَمِ الجِنِّ وَالأَصْنامِ ، وَهَؤلاءِ يُخْرِجونَهُمْ مِنْ نورِ الهِدايَةِ إلى ظُلُماتِ الكُفْرِ وَالضَّلالِ .

وَنَجِدُ أَنَّ الآيَةَ أَفْرَدَتِ النّورَ وَجَمَعَتِ الظُّلُماتِ ، وَذَلِكَ أَنَّ النّورَ ، وَهُوَ الحَقُّ واحِدٌ لا يَتَعَدَّدُ ، وَأَمّا الظُّلماتُ فَقَدْ تَعَدَّدَتْ فُنونُها وَأَلْوانُها وَأَسْبابُها .

أُولَئِكَ المَوْصوفونَ بِتِلْكَ الصِّفاتِ أَصْحابُ النّارِ ، هُمْ فيها خالِدونَ .

وَتَذْكُرُ الآيَةُ مَثَلاً يُؤَكِّدُ هَذِهِ القَضِيَّةَ ، وَهِيَ أَنَّ اللهَ وَلِيُّ الَّذينَ آمنوا يُؤَيِّدُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ على عَدُوِّهِمْ فَيَقولُ سُبْحانَهُ وَتَعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ الهَمْزَةُ اسْتِفْهامٌ لِلتَّعَجُّبِ وَالتَّقْريرِ ، وَ(ترى) بِمَعْنى تَعْلَمُ وَهَذِهِ الآيَةُ تَدُلُّ على رُشْدِ سَيِّدِنا إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقَدْ جاءَ الحَديثُ عَنْ هَذِهِ القَضِيَّةِ بِهذا الأُسْلوبِ الدّالِّ عَلى التَّعَجُّبِ ، وَهَذا الَّذي حاجَّ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في رَبِّهِ ، وَقَدْ آتاهُ اللهُ المُلْكَ ، فَكانَ حَرِيّاً بِهِ أَنْ يَشْكُرَ لا أَنْ يَكْفُرَ ، وَالقُرْآنُ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَهُ ، لأَنَّ القُرْآنَ ـ كَما قُلْنا ـ يُعْنى بِمواطِنِ العِبْرَةِ فَحَسْب ، ولِذا فَإِنَّنا نَسْكُتُ عَمّا سَكَتَ عَنْهُ القُرْآنُ الكَريمُ .

قالَ إبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وَهُوَ يَصْدَعُ بِالحَقِّ أَمامَ هذا الظّالِمِ ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أَي : رَبّي هُوَ الَّذي يُحيي النّاسَ وَيُميتُهُمْ ، فَمِنَ الواجِبِ عَلَيْكَ أَنْ تَخُصَّهُ وَحْدَهُ بِالعِبادَةِ وَالخُضوعِ ، وَقَدْ عَبَّرَ بِالفِعْلِ المُضارِعِ لِيُفيدَ التَّجَدُّدَ وَالحُدوثَ .

وَلَكِنَّ ذَلِكَ المُتَغَطْرِسَ الأَحْمَقَ قالَ : أَنا أُحيي وَأُميتُ ، وَمِثْلُ هذا الكَلامِ لَيْسَ غَريباً عَلى أُولَئِكَ ، وَهُمْ يُعَذِّبونَهُمْ ، وَيَقولونَ لَهُمْ : أَيْنَ اللهُ الَّذي تُؤْمِنونَ بِهِ ؟ لِمَ لا يَأْتي لِيُنْقِذَكُمْ ؟ وَأَيْنَ نَبِيُّكُمْ ؟ ادْعوهُ لِيُخَفِّفَ عَنْكُمْ .

﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ إنّ مِمّا يَدُلُّ عَلى رُشْدِ إبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، هَذِهِ الحُجَّةُ الَّتي أَفْحَمَ بِها خَصْمَهُ ، فَهُوَ يقولُ لَهُ : إِنَّ رَبّي الَّذي يُعْطي الحَياةَ ، وَيَسْلُبُها بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ، هُوَ الَّذي يُطْلِعُ الشَّمْسَ مِنَ المَشْرِقِ ، فَهُوَ المُكَوِّنُ لِهَذِهِ الكائناتِ بِهذا النِّظامِ وَالسُّنَنِ الحَكيمَةِ الَّتي نُشاهِدُها ، فَإِنْ كُنْتَ تَفْعَلُ كَما يَفْعَلُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، فَغَيِّرْ لَنا طُلوعَ الشَّمْسِ وَائْتِ بِها مِنَ الجِهَةِ المُقابِلَةِ لِلْجِهَةِ الَّتي جَرَتْ سُنَّتُهُ لِظُهورِها مِنْها . أَي : ائْتِ بِالشَّمْسِ مِنَ المَغْرِبِ ، إِنَّ هذا النِّظامَ في سَيْرِ الشَّمْسِ لا بُدَّ لَهُ مِنْ فاعِلٍ حَكيمٍ ، فَلا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ هذا الإِبْداعُ بِالمُصادَفَةِ ، وَإِنَّ رَبّي الَّذي أَعْبُدُهُ هُوَ الفاعِلُ الحَكيمُ ، وَماذا كانَ مِنَ الخَصْمِ ؟ قالَ تَعالى : ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ ﴾ أَيْ : غُلِبَ وَقُهِرَ ،

وَتَحَيَّرَ وانْقَطَعَ عَنْ حِجاجِهِ ، إنَّ الكِبْرَ والعِنادَ يُمْسِكُ بِهذا الَّذي كَفَرَ عَنِ الرُّجوعِ إلى الحَقِّ ، فَهُوَ يَتَحَيَّرُ وَيُمْسِكُ عَنِ الحِجاجِ ، وَلَكِنَّهُ لا يَهْتَدي إلى الحَقِّ ، لأَنَّهُ لا يَرْغَبُ فيهِ ، وَلِذَلِكَ خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

لا يَهدي مَنْ أَعْرَضَ عَنْ قَبولِ الهِدايَةِ ، وَلَمْ يَنْظُرْ في الدَّلائِلِ الَّتي توصِلُ إلى مَعْرِفَةِ الحَقِّ ، بِسببِ ظُلْمِهِمْ وَطُغيانِهِمْ ، والظُّلْمُ هُوَ أَساسُ الكُفْرِ ، وَقَدْ سَمّاهُمُ القُرْآنُ كَذَلِكَ لأَنَّهُمْ ظَلَموا الحَقَّ ، وَظَلَموا أَنْفُسَهُمْ ، وَظَلَموا النّاسَ ، الَّذينَ أَغووهُمْ وَأَبْعَدوهُمْ عَنْ طَريقِ الحَقِّ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُؤْمِنونَ حَقَّ الإيمانِ يُؤَيِّدُهُمْ اللهُ تَعالى بِنَصْرِهِ ، وَيَلي أُمورَهُمْ ، أَمَّا غَيْرُهُمُ فَهُمْ مَحْرومونَ مِنْ وِلايَةِ اللهِ لَهُمْ .

٢ـ أَنْعَمَ اللهُ تَعالى عَلَيْنا بِما يَحْمِلُنا عَلى الاهْتِداءِ إلى طَريقِ الحَقِّ : مِنْ حواسٍّ وَعَقْلٍ ، وَوَحْيٍ أَنْزَلَهُ عَلى أَنْبيائِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

٣ـ المُؤْمِنُ الصّادِقُ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ قَوِيَّ الحُجَّةِ ، لَسِناً ، يَتَغَلَّبُ عَلى خَصْمِهِ إِذِ الباطِلُ لا يُمْكِنُ أَنْ يَثْبُتَ أَمامَ الحُجَّةِ القَوِيَّةِ الواضِحَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ ما المَقْصودُ بِالظُّلُماتِ والنّورِ ؟

٢ـ لِماذا أُفْرِدَتْ كَلِمَةُ النُّورِ وَجُمِعَتْ كَلِمَةُ الظُّلُماتِ ؟

٣ـ ما مَعْنى الاسْتِفْهامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَلَم﴾ ؟

٤ـ مَنِ الّذي حاجّ إبراهيمَ في رَبِّهِ ؟

٥ـ ما الحُجَّةُ الأولى الَّتي أَقامَها إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ عَلى خَصْمِهِ ؟ وَما مَوْقِفُهُ مِنْها ؟

٦ـ هاتِ الحُجَّةَ الثّانِيَةَ الَّتي أَقامَها إبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، مُبَيِّناً مَوْقِفَ الخَصْمِ مِنْها .

٧ـ لِمَ وَصَفَ سُبْحانَهُ غَيْرَ المُهْتَدينَ بِالظّالِمينَ ؟

الدَّرسُ الخامِسُ والثَّلاثونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ الحادي وَالثَّمانونَ

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

معاني المفردات

خاوِيَةٌ على عُروشِها : خالِيَةٌ مِنَ السُّكانِ خَرِبَةُ البُنْيانِ .

يَتَسَنَّهْ : يَتَغَيَّرْ بِمُرورِ الزَّمَنِ .

صُرْهُنَّ : ضُمَّهُنَّ .

سَعْياً : مُسْرِعاتٍ طَيَراناً وَمَشْياً .



﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ .

ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ قِصَّةً تَدُلُّ عَلى وَحْدانِيَّةِ اللهِ تَعالى ، وَذَكَرَتْ هُنا قِصَّةً أُخرى تَدُلُّ على

قُدْرَةِ اللهِ عَلى البَعْثِ وَالنُّشورِ ، وَهَذِهِ القِصّةُ مَعْطوفَةٌ على القِصَّةِ السَّابِقَةُ ، وَلَكِنْ مَنْ هَذا الَّذي مَرَّ ؟ وَما هَذِهِ القَرْيَةُ الَّتي مَرَّ عَلَيْها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُروشِها ؟ ولكنَّ القُرْآنَ ـ كَما قُلْنا ـ يُوَجِّهُنا دائماً لِلْعِبْرَةِ وَالعِظَةِ .

يَقولُ سُبْحانَهُ : أَرَأَيْتَ مِثْلَ الَّذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ سَقَطَتْ حِيطانُها وَسُقوفُها ، وَصارَتْ فارِغَةً مِنْ سُكَّانِها ، فَهَالَهُ المَشْهَدُ ، مَشْهَدُ الخَواءِ ، وَكانَ لَهُ وَقْعٌ عَنيفٌ عَلى نَفْسِهِ وَحِسِّهِ ، جَعَلَهُ يَحْتارُ وَيَتَعَجَّبُ : ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ كَيْفَ تَدُبُّ الحَياةُ في هَذا المَواتِ ؟ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تُعَمَّرَ هَذِهِ القَرْيَةُ بِالبِناءِ والسُّكانِ ؟

إِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وَتَعالى لَمْ يُجِبْهُ عَنْ سُؤالِهِ وَلَمْ يَقُلْ لَهُ كَيْفَ ؟ وَإِنَّما أَراهُ في عالَمِ الواقِعِ كَيْفَ يَكونُ الإِحْياءُ ، بِالتَّجْرِبَةِ المُشاهَدَةِ الَّتي يَطْمَئِنُّ بِها القَلْبُ دُونَ كَلامٍ ، لَقَدْ أَماتَهُ اللهُ تَعالى مائَةَ عامٍ ، ثُمَّ أَحْياهُ بِبَعْثِ الحَياةِ فيهِ ، وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ وَتَعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ وَلَمْ يَقُلْ (أَحْياهُ) ، لِلدَّلالَةِ عَلى أَنَّهُ عادَ كَهَيْأَتِهِ يَوْمَ ماتَ .

لَقَدْ أَحْياهُ اللهُ تَعالى ، وَهاهُوَ يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ لِيَنْظُرَ بِهِما إِلى صُنْعِ اللهِ فيهِ كَيْفَ يُحْيي بَدَنَهُ ، ثُمَّ قالَ لَهُ سُبْحانَهُ تعالى وَبِواسِطَةِ المَلَكِ : ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ أَي : كَمْ يَوْماً لَبِثْتَ ؟ وَلَكِنْ ما يُدْريهِ كَمْ لَبِثَ ، وَالإِحْساسُ بِالزَّمَنِ لا يَكونُ إِلاَّ مَعَ الحَياةِ والوَعْيِ ؟ وَلَكِنَّ الإِحْساسَ الإِنْسانِيَّ لَيْسَ هُوَ المِقْياسُ الدَّقيقُ لِلحَقيقَةِ ، فَهُوَ يَخْدَعُ وَيُضِلُّ ، فَقَدْ يَحُسُّ الإِنْسانُ بِاللَّحَظاتِ القَصيرَةِ كَأَنَّها دَهْرٌ طَويلٌ ، وَقَدْ يَحُسُّ بِالوَقْتِ الطَّويلِ كَأَنَّهُ لَحَظاتٌ قَصيرَةٌ ، لَقَدْ سَأَلَهُ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ لِيَظْهَرَ لَهُ العَجْزُ عَنِ الإِحاطَةِ بِشُؤونِ اللهِ عَلى أَتَمِّ وَجْهٍ ، وَيُجيبُ : ﴿ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ فَيُقالُ لَهُ : ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ ﴾ فَلَيْسَ الأَمْرُ كَما قُلْتَ ، بَلْ إِنَّكَ لَبِثْتَ مِئَةَ عامٍ ، وَلَكِنْ ما الدَّليلُ عَلى أَنَّهُ لَبِثَ مِئَةَ عامٍ ؟ إِنَّ طَعامَهُ وَشَرابَهُ لَمْ يَكونا آسِنَيْنِ ، أَيْ : لَمْ يَتَغَيَّرا أَوْ يَتَعَفَّنا .

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ إِذَنْ ما الدَّليلُ عَلى ذَلِكَ ؟ قالَ : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ .

انْظُرْ إِلى هَذا الحِمارِ كَيْفَ أَماتَهُ اللهُ تَعالى ، وَكَيْفَ نُخِرَتْ عِظامُهُ ، وَتَفَرَّقَتْ يَميناً وشِمالاً ، وَقَدْ فَعَلْنا ما فَعَلْنا لِتَرى وَتُشاهِدَ بِنَفْسِكَ مَظاهِرَ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى ، وَلِنَجْعَلَكَ دَليلاً وَمُعْجِزَةً عَلى قُدْرَةِ اللهِ تَعالى عَلى البَعْثِ ، وَانْظُرْ إِلى قُدْرَتِنا كَيْفَ نَجْمَعُ عِظامَ الحِمارِ بَعْضَها إِلى بَعْضٍ ثُمَّ نَكْسوها لَحْماً ، وَهَذِهِ آيَةٌ عَلى قُدْرَتِنا الَّتي لا يُعْجِزُها شَيءٌ ، لِتُدْرِكَ أَيُّها الرَّجُلُ كَيْفَ يُحْيي اللهُ هَذِهِ القَرْيَةَ بَعْدَ مَوْتِها .

هَذِهِ المُعْجِزَةُ الخارِقَةُ وَقَعَتْ كَما أَرادَها اللهُ تَعالى بِقُدْرَتِهِ .

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ وَظَهَرَ بِالأَدِلَّةِ القاطِعَةِ ،

والمُشاهَدَةِ الحِسِّيَّةِ قُدْرَةَ اللهِ عَلى الإِحْياءِ وَالإِماتَةِ وَالبَعْثِ وَالنُّشورِ ، قالَ : أَعْلَمُ وَأَسْتَيْقِنُ وَأُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعالى عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ .

وَتَذْكُرُ الآياتُ قِصَّةً أُخْرى تَدُلُّ عَلى قُدْرَةِ اللهِ تَعالى عَلى البَعْثِ والنَّشورِ وَالإِحيـاءِ .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ .

أَذْكُرْ أَيُّها العاقِلُ لِتَتَّعِظَ وَتَعْتَبِرَ وَقْتَ أَنْ قَالَ إِبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لِرَبِّهِ :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وفي كَلامِهِ عَلَيْه السَّلامُ كَمالُ الأَدَبِ ، فَهُوَ يُقِرُّ وَيعْتَرِفُ بِرُبوبيَّةِ اللهِ تَعالى ، لَقَدْ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِي المَوْتَى ، وَهُوَ لَمْ يسْأَلْ رَبَّهُ ذَلِكَ لِشَكِّهِ في رُبوبيَّةِ اللهِ تَعالى ، فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ قَدْ أَراهُ مَلَكوتَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ مِنْ قَبْلُ ، لَكِنَّهُ أَرادَ رُؤْيَةَ ذَلِكَ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ طُمأْنينَةَ معايِنَةٍ ومُشاهَدَةٍ ، وطُمأْنينَةَ القلبِ لا الشَّكَ والارْتِيابَ ، وَقَدْ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ رَداً عَلى الَّذينَ يَتَّهِمونَ إِبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِالشَّكِ في قُدْرَةِ اللهِ تَعالى : « نَحْنُ أَحَقُّ بالشَّكِ مِنْ إِبْراهيمَ إِذْ قالَ : « رَبِّ أَرِني كَيْفَ تُحيي المَوْتى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي »[1] .

﴿ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ فَهُوَ يَنْشُدُ طُمَأْنينَةَ المُعايَنَةِ وَالمُشاهَدَةِ .

وَلَقَدِ اسْتَجابَ اللهُ تَعالى لإِبْراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقَدْ عَلِمَ مَدى شَوْقِهِ لِرُؤْيَةِ قُدْرَتِهِ في إِحياءِ المَوْتى ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لَمْ يُعاتِبْهُ ـ وَلَوْ كانَ شاكّاً لَعاتَبَهُ ـ وَلَكِنَّهُ أَكْرَمَهُ وَأَجابَهُ قَائِلاً : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أَي : خُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ وَضُمَّهُنَّ وَاجْمَعْهُنَّ إِلَيْكَ ، وَقَدْ أُمِرَ بِذَلِكَ حَتَّى يَعْرِفَ أَشْكالَها وَأَحْجامَها وَصِفاتِها ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَجْعَلَ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً بَعْدَ أَنْ يَذْبَحَهُنَّ وَيُقَطِّعَهُنَّ .

﴿ ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : قُلْ لَهُنَّ تَعالَيْنَ ، فَسيُقْبِلْنَ مُسْرِعاتٍ إِلَيكَ بِإِذنِ اللهِ تَعالى .

وَتُخْتَتَمُ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ عَزيزٌ لا يَغْلِبُهُ غالِبٌ ، فَهُوَ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ ، حَكيمٌ في أَفْعالِهِ كُلِّها .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب : التفسير ، باب : وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، رقم الباب : ٤٨ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ قُدْرَةُ اللهِ تَعالى عَلى إحْياءِ المَوْتى .

٢ـ لِلْقِصَّةِ في القُرْآنِ الكَريمِ أَثَرُها في النَّفْسِ ؛ وَلِذا فَهِيَ تَقتَصِرُ عَلى ما فِيهِ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ لِلنَّاسِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيةِ :

١ـ في قَوْلِهِ ﴿أَو كَٱلَّذِي﴾ عَلى ماذا عُطِفَتِ الآيَةُ ؟

٢ـ مَنْ الَّذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ ؟ وَأَيُّ قَرْيَةٍ تِلْكَ ؟

٣ـ مِمَّ تَعَجَّبَ هَذا المَارُّ عَلى القَرْيَةِ ؟

٤ـ بِماذا أَجابَهُ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَلى سُؤالِهِ التَّعَجُّبيّ ؟

٥ـ ما الَّذي حَصَلَ مَعَ هَذا الرَّجُلِ ؟

٦ـ بَعْدَ أَنْ بَعَثَهُ اللهُ تَعالى ، أَراهُ دَليلاً واضِحاً عَلى البَعْثِ ، وَضِّحْ ذَلِكَ .

٧ـ ما مَوْقِفُ هَذا الرَّجُلِ بَعْدَ رُؤْيَةِ آيَةِ اللهِ تَعالى ؟

٨ـ هَلْ كانَ سَيِّدُنا إِبْراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ شاكّاً في قُدْرَةِ اللهِ عَلى الإِحْياءِ حَتَّى قَالَ لَهُ ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ؟ وَضِّحْ ذَلِكَ .

٩ـ لِماذا طَلَبَ إِبْراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ هَذا الطَّلَبَ مِنْ رَبِّهِ ؟

١٠ـ بِماذا أَجابَهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى ؟ وَما الَّذي أَمَرَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكتُبْ في دفترِكَ الآيَةَ مِنْ سورَةِ الكَهْفِ الدَّالَّةَ عَلى إحياءِ أَهْلِ الكَهْفِ وَما كانَ مِنْهُمْ .

٢ـ بَيِّنْ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ الرَّسولِ ﷺ . « نَحْنُ أحقُّ بالشَّكِ مِنْ إبراهيمَ . . . » .

* * *

الدَّرسُ السَّادِسُ والثَّلاثونَ

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ الثَّاني وَالثَّمانونَ

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾

مَعاني المُفْرَداتِ

مَثَلُ : المَثَلُ : الشَّبيهُ وَالنَّظيرُ .

مَنّاً : المَنّ : أَنْ يَذْكُرَ المُحْسِنُ إِحْسانَهُ لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَيُظْهِرَ تَفَضُّلَهُ عَلَيْهِ .

التَّفسيرُ :

لَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتُقيمَ النِّظامَ الَّذي يَقومُ عَلَيْهِ المُجْتَمَعُ الإِسلامِيُّ ، وَهُوَ نِظامٌ يَقومُ عَلى التَّكافُلِ وَالتَّعاونِ المُمَثَّلِ في الزَّكاةِ المَفْروضَةِ وَالصَّدَقاتِ .

يَقول سُبْحانَهُ :

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ .

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَي : في طَاعَتِهِ وَرِضاهُ ، كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُلْقِيَتْ في الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ ، فَأَصابَها الغَيْثُ ، وَأَنْبَتَتْ هَذِهِ الحَبَّةُ سَبْعَ سَنابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائَةُ حَبَّةٍ ، فَقَدْ شَبَّهَ اللهُ سُبْحانَهُ حَالَ الصَّدَقَةِ الَّتي يُنْفِقُها المُؤْمِنُ في سَبيلِ اللهِ ، فَيُجازيهِ عَلَيْها ثواباً عَظيماً ، بِحالِ الحَبَّةِ

الَّتي تُلْقى في الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ فَتُخْرِجُ فَسائِلَ مُتَعَدِّدَةً قَدْ تَصِلُ إِلى سَبْعٍ في كُلٍّ مِنْها سُنْبُلَةٌ وَفي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائَةُ حَبَّةٍ . وَفي هَذا حَضٌّ وَحَثٌّ عَلى الإِنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ ، وَهَذا ما بَدَأَتْ بِهِ الآياتُ ، فَقَدْ بَدَأَتِ الحَديثَ عَنِ النَّفَقَةِ الَّتي يُنْفِقُها الإِنْسانُ مُتَطَوِّعاً ، فَهِيَ تَسْتَثيرُ مَشاعِرَ الإِنْسانِ وَعَواطِفَهُ في عَرْضِ هَذِهِ الصُّورَةِ لِمُضاعَفَةِ الأُجورِ ، فَالزَّرْعُ يُعْطي أَضْعافَ أَضْعافَ ما وُضِعَ في الأَرْضِ ، وَهَذا الَّذي يُنْفِقُ يَأْخُذُ أَضْعافَ أَضْعافَ ما أَعْطاهُ كَذَلِكَ .

﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فَهُوَ يُضاعِفُ الثَّوابَ وَالجَزاءَ أَضْعافاً كَثيرَةً بِلا عُدَّةٍ وَلا حِسابٍ ، لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ واسِعٌ لا يَضيقُ عَطاؤُهُ وَلا يَنْضُبُ ، عَليمٌ ، يَعْلَمُ النَّوايا وَيُثيبُ عَلَيْها ، وَلا تَخْفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ ، فَمَنْ أَنْفَقَ بِنِيَّةٍ خالِصَةٍ للهِ تَعالى فَهُوَ يَعْلَمُهُ ، وَمَنْ أَنْفَقَ رِياءً فَهُوَ يَعْلَمُهُ كَذَلِكَ .

وَلَكِنْ أَيُّ إِنْفاقٍ هَذا الَّذي يُحِبُّهُ اللهُ تَعالى ، وَأَيُّ إِنْفاقٍ هَذا الَّذي يُنَمّيهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى ؟ تَأْتي الآياتُ لِتُجيبَ عَنْ هَذا السُّؤالِ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الَّذينَ يُقْبَلُ مِنْهُمْ ، وَيُحِبُّهُمْ اللهُ تَعالى هُمُ الَّذينَ يُنْفِقونَ أَموالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ ، وَقَدْ عُبِّرَ بِالمُضارِعِ ﴿يُنفِقُونَ﴾ لِتَدُلَّ عَلى التَّجَدُّدِ وَالحُدوثِ ، فَهُمْ دائِماً يُنْفِقونَ في طاعَةِ اللهِ وَرِضا اللهِ . ثُمَّ ماذا ؟ ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ والمَنُّ أَنْ يَتَطاوَلَ المُحْسِنُ بِإِحْسانِهِ عَلى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَيَتَفاخَرَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ ما أَعْطاهُ إِيّاهُ ، وَيُسْمِعَهُ دائِماً بِأَنَّهُ أَنْفَقَ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ لَوْلاهُ ما وَجَدَ مالاً ، أَوْ لُقْمَةً يَسُدُّ بِها رَمَقَهُ ، وَلَوْلاهُ ما اسْتَطاعَ أَنْ يُنْفِقَ عَلى أَهْلِهِ .

وَالمَنُّ أَمْرٌ كَريهٌ ، لأَنَّ الإِنْسانَ لا يَمُنُّ بِما أَعْطى ، إِلاّ إِذا رَغِبَ في الاسْتِعْلاءِ عَلى النَّاسِ ، أَوْ رَغِبَ في إِذْلالِ مَنْ يُعْطيهِ وَيُنْفِقُ عَلَيْهِ ، أَوْ يَرْغَبُ في لَفْتِ انْتِباهِ النَّاسِ إِلى أَنَّهُ يُنْفِقُ وَيُعْطي ، وَهَذا كُلُّهُ يَعْني أَنَّهُ يَتَوَجَّهُ بِعَطائِهِ إِلى النَّاسِ ، وَلَيْسَ إِلى اللهِ ، وَهَذا الأَمْرُ لا يَكونُ مِنَ المُؤْمنينَ ، إِنَّ المَنَّ يَجْعَلُ الصَّدَقَةَ أَذىً لِلمُعْطي وَالآخِذِ عَلى حَدٍّ سواءٍ ، فَهِيَ أَذىً لِلمُعْطي لأَنَّهُ يُثيرُ في نَفْسِهِ الكِبْرَ وَالخُيَلاءَ ، فَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَرى مَنْ أَعْطاهُ ذَليلاً مُنْكَسِراً ، وَهِيَ أَذىً لآخِذِ الصَّدَقَةِ ، لأَنَّها أَثارَتْ في نَفْسِهِ الذِّلَّةَ وَالمَهانَةَ وَالانْكِسارَ . وَقَدْ جاءَ العَطْفُ بِـ (ثُمَّ) هُنا لِيُبَيِّنَ سُبْحانَهُ التَّفاوتَ الشَّديدَ وَالكَبيرَ بَيْنَ الإِنْفاقِ الَّذي يُحِبُّهُ اللهُ تَعالى ، وَبَيْنَ الإِنْفاقِ الَّذي يُصاحِبُهُ المَنُّ والأَذى .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِبَيانِ جَزاءِ أُولَئِكَ الَّذينَ لَمْ يَمُنُّوا عَلى النّاسِ بِما أَنْفَقوا بِقَوْلِهِ : ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لَقَدْ شَرَعَ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى هَذا الحُكْمَ لِيُبَيِّنَ لِلبَشَرِ جَميعاً ، أَنَّهُمْ إِذا أَعْطى أَحَدُهُمْ مِنْ مالِهِ شَيْئاً ، فَإِنَّما هُوَ قَدْ أَعْطى مِنْ مالِ اللهِ ، وَإِذا أَسْلَفَ مالاً

فَإنَّما هُوَ قَرْضٌ للهِ يُضاعِفُهُ لَهُ أَضْعافاً كَثيرةً ، وَعَطاءُ الغَنِيِّ لِلفَقيرِ سَبَبٌ في مُضاعَفَةِ مالِهِ وَأَجْرِهِ وَثَوابِهِ عِنْدَ اللهِ ، وَلِذا فَقَدْ شُرِعَتْ هَذِهِ الأَحْكامُ حَتَّى لا يَسْتَعْلِيَ أَحَدٌ على أَحَدٍ ، فَكُلٌّ مِنْهُما : المُعْطي وَالآخِذُ ، يَأكلونَ مِنْ رِزْقِ اللهِ تَعالى ، وَلِلمُعْطينَ أَجْرُهُمُ العَظيمُ مِنَ اللهِ تَعالى ، لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِنْ فَقْرٍ ، ولا مِنْ حِقْدٍ وَلا غُبْنٍ وَلا خِداعٍ ، وَلا هُمْ يَحْزَنونَ عَلى ما أَنْفَقوا في الدُّنيا ، أَوْ عَلى مَصيرِهِمْ في الآخِرَةِ .

وتُؤَكِّدُ الآياتُ عَلى هَذِهِ القَضِيَّةِ ، وَهِيَ عَدَمُ المَنِّ وَإيذاءِ الآخَرينَ ، لأَنَّ الحِكْمَةَ مِنَ النَّفَقَةِ تَهْذيبُ النُّفوسِ ، فَيَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ .

القَوْلُ المَعْروفُ ، هُوَ أَنْ تَقولَ لِلسَّائِلِ كلاماً جَميلاً طَيِّباً ، يُجْبَرُ بِهِ خاطِرُهُ ، وَتُحْفَظُ كَرامَتُهُ ، وَتُضَمَّدُ جِراحُهُ ، وَمَغْفِرَةٌ لِما وَقَعَ مِنَ السَّائِلِ مِنْ إلحاحٍ وَسَتْرٍ لِحالِهِ وَصَفْحٍ عَنْهُ ، فَتَغْسَلُ أَحْقادُ النُّفوسِ لِتَحِلَّ مَحَلَّها الصَّداقَةُ وَالإخاءُ وَالمَوَدَّةُ ، خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ مِنْ تِلْكَ الصَّدقَةِ الَّتي يُتْبِعُها المُتَصَدِّقُ بِالمَنِّ والأَذى ، فَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ ، والوَجْهُ الباشُّ ، خَيْرٌ مِنْ تِلْكَ الصَّدَقَةِ .

وَالصَّدَقَةُ لَيْسَتْ تَفَضُّلاً مِنَ المُعْطي ، وَإِنَّما حَقٌّ لِلْفَقيرِ في مالِهِ ، وَلِذا خَتَمَ سُبْحانَهُ الآيَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ فَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الصَّدَقَةِ المُؤْذِيَةِ ، وَهُوَ حَليمٌ حَيْثُ لا يُعاجِلُ هَذا الَّذي يَمُنُّ عَلى النَّاسِ بِالعُقوبَةِ ، وَلَكِنَّهُ يُمْهِلُهُ سُبْحانَهُ لَعَلَّهُ يَتوبُ وَيَرْجِعُ عَنْ إيذائِهِ للآخَرينَ ، وَيُنْفِقُ مِنْ قَلْبٍ خالِصٍ للهِ تَعالى .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى مُضاعَفَةُ الحَسَناتِ لِلإنْسانِ إلى عَشْرِ حَسَناتٍ حَتَّى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ ، وَعَدَمُ مُضاعَفَةِ السّيئاتِ .

٢ـ العَمَلُ المَقْبولُ عِنْدَ اللهِ تَعالى ما كان بِنِيَّةٍ خالِصَةٍ للهِ تَعالى صادِرَةٍ مِنْ قَلْبٍ صادِقٍ .

٣ـ المالُ مالُ اللهِ تَعالى ، وَلِلفُقَراءِ حَقٌّ في هَذا المالِ الَّذي جَعَلَهُ اللهُ في أَيْدي الأَغْنياءِ .

٤ـ المَنُّ صِفَةٌ كَريهَةٌ لا يُحِبُّها اللهُ تَعالى ، وَهُوَ يُلْحِقُ الأَذى بِالمُعْطي لِلمالِ وَالآخِذِ لَهُ ، عَلى حَدٍّ سَواءٍ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيةِ :

١ـ ما المَوْضوعُ الرَّئيسِيُّ الَّذي جاءَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْهُ الآياتُ ؟

٢ـ ذَكَرَتِ الآيَةُ مَثَلاً لأَمْرٍ ما ، وَضِّحْ هَذا المَثَلَ .

٣ـ ما مَعْنى : ﴿وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ ؟

٤ـ إنَّ اللهَ تَعالى قَدْ حَثّ المُؤْمِنينَ عَلى النَّفَقَةِ ، وَلَكِنْ أَيُّ نَوْعٍ مِنَ النَّفَقَةِ يُحِبُّ اللهُ تَعالى ؟

٥ـ ما المَقْصودُ بالمَنِّ وَالأذى ؟

٦ـ لِماذا كانَ المَنُّ أذَىً ؟ وَعَلى مَنْ يَعودُ هَذا الأذى ؟

٧ـ بَيِّنْ جَزاءَ أُولَئِكَ الَّذينَ يُنْفِقونَ بِغَيْرِ مَنٍّ أَوْ أذىً .

٨ـ ما المَقْصودُ بِالقَوْلِ المَعْروفِ وَالمَغْفِرَةِ ؟ وَكَيْفَ كانا خَيْراً مِنَ الصَّدَقَةِ الَّتي يَتْبَعُها أَذىً ؟

٩ـ لِماذا خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِه تَعالى : ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً شَريفاً يُبَيِّنُ مُضاعَفَةَ أَجْرِ المُتَصَدِّقِ في سَبيلِ اللهِ .

٢ـ اكْتُبْ حَديثاً شَريفاً يَدُلُّ عَلى فَضْلِ البَشاشَةِ عِنْدَ اللِّقاءِ .

* * *

الدَّرسُ السَّابعُ والثَّلاثونَ

سورَةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ الثَّالِثُ والثَّمانونَ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

صَفْوانٍ : حَجَرٍ قَاسٍ أَمْلَسَ .

وابِلٌ : مَطَرٌ شَديدٌ .

صَلْداً : صُلْباً أَجْرَدَ خالياً مِنَ التُّرابِ لا يَنْبُتُ عَلَيْهِ شَيْءٌ .

تَثْبيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ : تَيَقُّناً مِنْ ثَوابِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى .

جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ : بُسْتانٍ في مُرْتَفَعٍ مِنَ الأَرْضِ .

أُكُلَها : ثَمَرَها .

فَطَلٌّ : مَطَرٌ خَفيفٌ .

التَّفسيرُ :

ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ مِثالاً لِلَّذينَ يُنْفِقونَ أَمْوالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ دونَ أَنْ يُتْبِعوا صَدَقاتِهِمْ مَنّاً ولا أَذىً ، وَهذِهِ الآياتُ تُوَجِّهُ الخِطابَ إلى الَّذينَ آمنوا أَنْ لا يُبْطِلوا صَدَقاتِهِمْ بِالمَنِّ وَالأَذى ،

وَتَذكُرُ مَثَلَيْنِ يَدُلاّنِ عَلى أَثَرِ النَّفَقَةِ في سَبيلِ اللهِ ، وَالَّتي تَكونُ لِلرِّياءِ والسُّمْعَةِ .

وَقَدْ بَدَأَتِ الآياتُ بالصُّورَةِ المُنَفِّرَةِ ، وَهِيَ صورةُ الإِنْفاقِ المَشوبِ بِالمَنِّ وَالأَذى .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ .

فَهِيَ تُخاطِبُ المُؤْمِنينَ قائِلَةً : لا تُبْطِلوا أَيُّها المُؤْمِنونَ صَدَقاتِكُمْ بِأَنْ تُتْبِعوها بِالمَنِّ والأَذى ، وَتُحْبِطوا أَجْرَها ، فَتَكونونَ بِذَلِكَ مِثْلَ المُنافِقِ الَّذي يُنْفِقُ مالَهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرى النّاسُ مِنهُ ذَلِكَ ، ولا يَبْتَغي بِهِ رِضى اللهِ تَعالى ، لأَنَّهُ كَفَرَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ، فَهُوَ لَمْ يَذُقْ حَلاوةَ الإيمانِ ، وَلَمْ يَسْتَشْعِرْها في قَلْبِهِ ، فَقَدْ غَطَّتْ تِلكَ الغِشاوَةُ قَلْبَهُ .

إِنَّ هَذا القَلْبَ المَغْشِيَّ عَلَيْهِ بِالرِّياءِ ، مِثْلُهُ كَمِثْلِ صِفوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ ، وَالصَّفوانُ الحَجَرُ الأَمْلَسُ الَّذي عَلَيْه قَليلٌ مِنْ تُرابٍ ، فَيَحْسَبُ الرَّائي أَنَّ هَذا الحَجَرَ صالِحٌ لِلزِّراعَةِ فَيَأْتِيَ بِالحُبوبِ وَيَبْذُرُها عَلى هَذا الحَجَرِ ، فإذا أَنْزَلَ اللهُ المَطَرَ الغَزيرَ ، ذَهَبَ بِالتُّرابِ القَليلِ ، وانْكَشَفَ الحَجَرُ ، وَظَهَرَتْ حَقيقَتُهُ ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ حَجَرٌ أَمْلَسُ لا يَصْلُحُ لإِنْباتِ أَيِّ شَيءٍ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ سُبْحانَهُ يُشَبِّهُ النَّفَقَةَ الَّتي تَكونُ رِئاءَ النَّاسِ بِهذا الحَجَرِ الأَمْلَسِ الَّذي يُغَطّيهِ التُّرابُ الخَفيفُ ، وَكَذَلِكَ قُلوبُهُمْ غَشِيَها الرِّياءُ ، وَغَطّاها ، بِحَيْثُ صارَتْ خالِيَةً مِنَ الإيمانِ ، وَهَذا الحَجَرُ الَّذي لَمْ يُنْبِتْ زَرْعاً وَلَمْ يُثْمِرْ ثَمَرَةً ، كَذَلِكَ القَلْبُ الَّذي أَنْفَقَ صاحِبُهُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ لَمْ يُثْمِرْ خَيْراً وَلَمْ يَنَلْ مَثوبَةً مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى . ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ ﴾ أَي : أَنَّ الَّذينَ أَبْطَلوا صَدَقاتِهِمْ بِالمَنِّ وَالأَذى ، والرِّياءِ ، لا يَنْتَفِعونَ بِما فَعَلوا ، فَهُمْ لا يَحْصُلونَ على ثَمَرَةٍ في الدُّنيا وَلا في الآخِرَةِ ، لأَنَّ المَنّانَ يَبْغُضُهُ النَّاسُ في الدُّنْيا ، وَفي الآخِرَةِ لا أَجْرَ لَهُ وَلا ثَوابَ عِنْدَ اللهِ تَعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ لا يَهديهِمْ إِلى ما فِيهِ خَيْرُهُمْ ، فَهُمْ آثَروا الكُفْرَ عَلى الإِيمانِ ، وَالإيمانُ هُوَ الَّذي يَهْدي قَلْبَ صاحِبِهِ بِتَوْفيقٍ مِنَ اللهِ تَعالى إِلى الإِخْلاصِ في العَمَلِ ، وَتَرْكِ المُراءاةِ .

لَقَدْ نَهَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ عَنِ إِتباعِ النَّفَقَةِ بِالمَنِّ وَالأَذى ، وَهَذا ما جاءَتْ تُؤَكِّدُهُ الأَحاديثُ عَنِ الرَّسولِ ﷺ ، فَعَنْ أَبي ذَرٍّ الغفاري قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « ثلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ : المَنّانُ بِما أَعْطى ، وَالمُسْبِلُ إِزارَهُ ، وَالمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلْفِ الكاذِبِ »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح ، حديث رقم ١٠٦ .

وَانْتَقَلَتِ الآياتُ لِبيانِ المَثَلِ الآخَرِ ؛ مَثَلِ مَنْ أَنْفَقَ مالَهُ ابْتَغاءَ مَرْضاةِ اللهِ تَعالى ، تَرْغيباً لِلإِنْسانِ بِأَنْ يَكونَ مِنْهُمْ ، قَالَ اللهُ تَعالى :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ .

يُشَبِّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى نَفَقَةَ أُولئِكَ الَّذينَ يُنْفِقونَ أَمْوالَهُمْ ابتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ تَعالى وَتَثْبيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، أَي : يُنْفِقونَهُ عَنْ ثِقَةٍ ثابِتَةٍ في الخَيْرِ وَفي أَنَّ اللهَ تَعالى سَيُنَمّي لَهُمْ هَذا المالَ ، يُشَبِّهُهُمْ بِجَنَّةٍ في مَكانٍ مُرْتَفِعٍ أَصابَها مَطَرٌ شَديدٌ ، فَتَضاعَفَ مَحْصولُها ، وَهَذِهِ إِنْ لَمْ يُصِبْها مَطَرٌ شَديدٌ ، فَإِنَّ الطَّلَّ وَهُوَ النَّدَى يَكْفيها لِتَنْموَ ثِمارُها ، وَذَلِكَ أَنَّها أَرْضٌ خِصْبَةٌ .

انْظُرْ هَداكَ اللهُ إِلى عِظَمِ الفَرْقِ بَيْنَ الصُّورَتَيْنِ :

١ـ ذَاكَ قَلْبٌ غَشِيَهُ الرِّياءُ ، وَهَذا قَلْبٌ مُؤْمِنٌ مُتَّصِلٌ بِاللهِ تَعالى .

٢ـ ذَاكَ القَلْبُ يُشْبِهُ الحَجَرَ الأَمْلَسَ عَلَيْهِ قَليلٌ مِنَ التُّرابِ ، وَلَكِنَّ قَلْبَ المُؤْمِنِ مَثَلُهُ كَحَبَّةٍ خَصْبَةٍ عَميقَةِ التُّرْبَةِ ، تَقومُ عَلى تَلٍّ مُرْتَفِعٍ .

٣ـ إِذا جاءَ المَطَرُ ذَهَبَ بِغِشاءِ التُّرابِ ، وَظَهَرَ حَجَرٌ لا يُنْبِتُ زَرْعاً ولا ثَمَراً ، أَمَّا الجَنَّةُ فَإِنَّ المَطَرَ الغَزيرَ يُحْييها ، ويُخْصِبُها وَيُنَمّيها ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ مَطَرٌ غَزيرٌ فَإِنَّ الرَّذاذَ الخَفيفَ يَكْفي التُّرْبَةَ الخِصْبَةَ لِتُنْبِتَ زَرْعَها . وَتُخْتَمُ الآياتُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يُبْصِرُ عَمَلَ كُلِّ إِنْسانٍ ، فَهُوَ يُبْصِرُ إِخْلاصَ المُخْلِصِ ، وَيُجازيهِ عَلَيْهِ خَيْراً ، وَيُبْصِرُ المُرائي وَيَعْلَمُ بِمُراءاتِهِ وَيُجازيهِ عَلَيْها شَرّاً ، فَنَسْأَلُ اللهَ تَعالى الإِخْلاصَ في القَوْلِ وَالعَمَلِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإِخْلاصُ في العَمَلِ للهِ تَعالى ، وَتَرْكُ المُراءاةِ المُحْبِطَةِ لِلعَمَلِ ، لأَنَّها تُؤَدّي إِلى الإِشراكِ بِاللهِ تَعالى .

٢ـ الصَّدَقَةُ تُحْيي قَلْبَ المُؤْمِنِ فَيَزْكو فَيَزْدادُ صِلَةً بِاللهِ وَيَزْكو مالُهُ ، وَيُضاعِفُ اللهُ لَهُ ما يَشاءُ .

٣ـ المُجْتَمَعُ الإِسْلامِيُّ لا يَصْلُحُ وَلا يَنمو إِلاَّ بِتَعاوُنِ أَفْرادِهِ وَتَكافُلِهِمْ ، وَهَذا يَكونُ بِإِنْفاقِ الغَنِيِّ عَلى الفَقيرِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيَةِ :

١ـ بَيِّن مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّالِيَةِ :

المَنُّ والأَذى ، رِئاءَ النَّاسِ ، صَفْوانٌ عَلَيْهِ تُرابٌ ، وابِلٌ ، صَلْدا .

٢ـ ضَرَبَتِ الآياتُ مَثَلَينِ ، اذْكُرْهُما ، وَماذا تَسْتَنْتِجُ مِنْهُما ؟

٣ـ وَضِّحِ المَثَلَ الَّذي ضَرَبَهُ اللهُ لِمَنْ يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ .

٤ـ ما مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ ؟

٥ـ وَضِّحِ المَثَلَ الَّذي ضَرَبَهُ اللهُ لِمَنْ أَنْفَقَ مالَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ .

٦ـ قارِنْ بَيْنَ المَثَلَيْنِ .

نَشاطٌ :

١ـ سَمَّى الرَّسولُ ﷺ الرِّياءَ بِالشِّرْكِ الأَصْغَرِ ، اسْتَنْتِجْ سَبَبَ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ ، واكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ لَقَدْ كانَتْ لِلقُرآنِ عِنايَتُهُ بِالنَّفَقَةِ ، وَلِذا تَحَدَّثَتِ الآياتُ عَنْها كَثيراً ، ارْجِعْ إِلى القُرْآنِ الكَريمِ مُسْتَعيناً بِالمُعْجَمِ المُفَهْرَسِ لأَلْفاظِ القُرْآنِ الكَريمِ ، وَاجْمَعِ الآياتِ الَّتي تَحُثُّ عَلى الإِنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّامِنُ والثَّلاثونَ

سورَةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ الرَّابِعُ والثَّمانونَ

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أَيَوَدُّ	: أَيُحِبُّ .
جَنَّةٌ	: بُسْتانٌ .
إِعْصارٌ	: ريحٌ عاصِفَةٌ .
تَيَمَّموا الخَبيثَ	: تَقْصُدوا المالَ الرَّديءَ .
تُغْمِضوا فيهِ	: تَتَساهَلوا فيهِ .

التَّفْسيرُ :

إِنَّ المَنَّ والأَذى يَمْحَقُ الصَّدقاتِ وَيُذْهِبُ أُجورَها ، وَقَدْ أَظْهَرَتِ الآياتُ الكَريمَةُ السَّابِقَةُ هَذِهِ القَضِيَّةَ ، وَجاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتُمَثِّلَ تِلْكَ النِّهايَةَ البائِسَةَ لِهذا الّذي أَبْطَلَ صَدَقَتَهُ بِالمَنِّ والأَذى . قالَ تَعالى :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ ﴾ والهَمْزَةُ للإنْكارِ ، أَيْ : أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَيُّها المَنّانونَ المُراؤونَ أَنْ تَكونَ لَهُ جَنَّةٌ ، أَشْجارُها مِنَ النَّخيلِ وَالأَعْنابِ ، إِنَّها جَنَّةٌ ظَليلَةٌ وارِفَةٌ مُخْصِبَةٌ مُثْمِرَةٌ ، وَهكذا يَنْبَغي أَنْ تَكونَ الصَّدَقَةُ مُثْمِرَةً لِلمالِ مُنَمِّيَةً لَهُ ، هَذِهِ الجَنَّةُ ذاتُ ظِلٍّ وَخَيْرٍ وَبَرَكَةٍ وذاتُ غِذاءٍ وَثَمَرٍ ، تَجْري مَنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ، وَفيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ ، هَذِهِ الجَنَّةُ أَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ ريحٌ عاصِفَةٌ ، تُصيبُ الأَشْجارَ الوارِفَةَ فَتَحْرِقُها ، وَلا تُبْقي مِنْها شَيئاً ، وَمَتى كانَ هَذا ؟ كانَ في أَشَدِّ الأَوْقاتِ حاجَةً لِهَذِهِ الجَنَّةِ ، وَفي أَشَدِّ ساعاتِ عَجْزِ مالِكِها عَنْ إِنْقاذِها مِنْ هَذا الإِعْصارِ ، إِنَّهُ وَقْتُ شَيْخوخَتِهِ .

﴿ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ ﴾ ، فَهُوَ كَبيرٌ في السِّنِّ لا يَسْتَطيعُ إِنْقاذَ جَنَّتِهِ ، وَهُوَ في أَمَسِّ الحاجَةِ إِلى خَيْراتِها ، وَأَوْلادُهُ مازالوا صِغاراً ضِعافاً لا يَقْدِرونَ عَلى العَمَلِ .

لَقَدْ فَقَدَ صاحِبُ الجَنَّةِ جَنَّتَهُ وَهُوَ أَحْوجُ ما يَكونُ إِلَيْها ، وَيَظَلُّ هُوَ وَأَوْلادُهُ الضِّعافُ في حالَةٍ شَديدَةٍ مِنَ البُؤْسِ وَالحَيْرَةِ ، أُولَئِكَ الّذينَ يُبْطِلونَ أَعْمالَهُمْ وَصَدَقاتِهِمْ ، فَقَدْ شُبِّهَ حالُ مَنْ يَعْمَلُ الأَعْمالَ الصّالِحَةَ ثُمَّ يُتْبِعُها بِما يُفْسِدُها ، فَإِذا جاءَ يَوْمُ القِيامَةِ وَاشْتَدَّتْ حاجَتُهُ لأَعْمالِهِ الصّالِحَةِ لِتُنْجيهِ مِنْ عَذابِ النّارِ ، وَجَدَها مُحْبَطَةً ذاهِبَةً لا تَنْفَعُهُ بِشَيءٍ ، لأَنَّهُ لَمْ يَبْتَغِ بِها وَجْهَ اللهِ ، شُبِّهَ هَذا الإِنْسانُ في حَسْرَتِهِ وَأَلَمِهِ وَحُزْنِهِ ، بِحالِ ذَلِكَ الشَّيْخِ الكَبيرِ العاجِزِ الّذي عِنْدَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعافٌ ، وَلا يَمْلِكُ سِوى حَديقَةٍ يَعْتَمِدُ عَلَيْها في مَعاشِهِ هُوَ وَأَوْلادُهُ ، فَنَزَلَ بِها إِعْصارٌ فَأَحْرَقَها ، ودَمَّرَها فَلَمْ يَسْتَفِدْ مِنْها ، فَالمُشَبَّهُ بِهِ مَذْكورٌ ، وَالمُشَبَّهُ مَحْذوفٌ عَلى سَبيلِ الاسْتِعارَةِ التَّصْريحيَّةِ .

عَنِ ابنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قالَ : قالَ عُمَرُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يَوْماً لأَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ ، فِيما تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾ قالوا : اللهُ أَعْلَمُ ، فَغَضِبَ عُمَرُ ، فَقالَ : قولوا : نَعْلَمُ أَوْ لا نَعْلَمُ ، فَقالَ ابنُ عَبّاسٍ : في نَفْسي مِنْها شَيءٌ ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ ، قالَ عُمَرُ : يا ابْنَ أَخي قُلْ ولا تُحَقِّرْ نَفْسَكَ ، قالَ ابن عَبّاسٍ : ضُرِبَتْ مَثَلاً لِعَمَلٍ ، قالَ عُمَرُ : أَيُّ عَمَلٍ ؟ قَالَ ابنُ عَبّاسٍ : لِعَمَلٍ ، قالَ عُمَرُ : لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ لِطاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ بُعِثَ لَهُ الشَّيْطانُ فَعَمِلَ بِالمَعاصي حَتّى أَغْرَقَ أَعْمالَهُ[1] .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَي : كَما يُبَيِّنُ لَكُمْ اللهُ في هَذِهِ الآيَةِ

(١) أخرَجَه البُخاري في كتاب : التفسير ، البقرة ، باب : قوله : (أيود أحدكم أن تكون له جنة) رقم الباب : ٤٩ .

ما يَهْدِيكُمْ وَيَنْفَعُكُمْ ، يُبَيِّنُ لَكُمْ آياتِهِ الّتي تَهْدِيكُمْ إلى الحَقِّ ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرونَ فِيما يُصْلِحُكُمْ ، وَيُرْضي خالِقَكُمْ ، فَتَعْمَلوا بِهِ .

وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَوْجِيهِ المُؤْمِنينَ إِلى تَحرِّي الحَلالِ في النَّفَقَةِ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

نِداءٌ عامٌّ لِلمُؤْمِنينَ في كُلِّ عَصْرٍ ، يَشْمَلُ جَميعَ الأَمْوالِ الّتي يَمْلِكونَها ، وَتَشْمَلُ ما اكْتَسَبَتْهُ أَيْدِيهِمْ مِنْ حَلالٍ طَيِّبٍ ، وَما أَخْرَجَهُ اللهُ لَهُمْ مِنْ زُروعٍ وَغَيْرِها مِنْ مَعادِنَ وَكُنوزٍ .

سَبَبُ النُّزولِ :

عَنْ البَراءِ بنِ عازِبٍ قَالَ : نَزَلَتْ في الأَنْصارِ . كانَتِ الأَنْصارُ إِذا كانَتْ أَيّامُ جَذاذٍ ـ أَيْ قَطْعُ الثِّمارِ ـ النَّخْلِ أَخْرَجَتْ مِنْ حيطانِها ـ أَيْ بَساتينِها ـ البُرَّ ـ التَّمْرَ إذا تَلَوَّنَ وَلَمْ يَنْضُجْ ـ فَعَلَّقوهُ عَلى حَبْلٍ بَيْنَ الأَسْطوانَتَينِ ـ العَمودَينِ ـ في مَسْجِدِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، فَيَأْكُلُ فُقَراءُ المُهاجِرينَ مِنْهُ ، فَيَعْمَدُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِلى الحَشْفِ ـ فَيُدْخِلُهُ مَعَ قِناءِ البُرِّ ، يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ جائِزٌ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالى فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾(١) .

إِنَّ الآيَةَ تَأْمُرُ المُؤْمِنينَ بِأَنْ يَلْتَزِموا في نَفَقَتِهِمُ المالَ الطَّيِّبَ الحَلالَ ، وَأَنْ لا يَقْصِدوا أَنْ يَكونَ إِنْفاقُهُمْ مِنَ الخَبيثِ الرَّديءِ ؛ إِذ كَيْفَ تَقْصِدونَ الخَبيثَ وَتَتَصَدَّقونَ بِهِ وَحْدَهُ ، وَلَسْتُمْ تَرْضَوْنَ مِثْلَهُ لأَنْفُسِكُمْ ، إِذا أُعْطِيَ لَكُمْ هِبَةً أَوْ شِراءً ، إِلاّ أَنْ تَتَساهَلوا فِيهِ تَساهُلَ مَنْ أَغْمَضَ عَيْنَيهِ عَنْهُ ، فَلَمْ يَرَ العَيْبَ فِيهِ ، وَلَنْ يَرْضى ذَلِكَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ ، فَلَنْ يَقْبَلَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ ما هُوَ رَديءٌ إِلاّ إِذا خُدِعَ فِيهِ ، فَإِذا كانَ هَذا مَوْقِفُكُمْ مِنَ الرَّديءِ ، فَكَيْفَ تُقَدِّمونَهُ لِغَيْرِكُمْ ؟ فَمِنْ شَأْنِ المُؤْمِنِ الصَّادِقِ في إِيمانِهِ أَنْ يُحِبَّ لِنَفْسِهِ ما يُحِبُّ لأَخيهِ .

إِنَّ اللهَ تَعالى غَنِيٌّ عَنْ هَذا الخَبيثِ الّذي تَقْصِدونَ إِلَيْهِ ، فَتُخْرِجونَ مِنْهُ صَدَقاتِكُمْ ، كَيْفَ وَهُوَ سُبْحانَهُ يُنْعِمُ عَلَيْكُمْ بِما هُوَ طَيِّبٌ ، وَيُثيبُكُمْ عَلى الكَسْبِ الطَّيِّبِ وَيَجْزيكُمْ جَزاءً حَسَناً عَلَيْهِ ، وَلِذا تُخْتَمُ الآيَةُ الكَريمَةُ بِهَذِهِ الخاتِمَةِ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ غَنِيٌّ عَنِ الخَبيثِ ، حَميدٌ حَيْثُ يَجْزيكُمْ أَفْضَلَ الجَزاءِ عَلى إِحْسانِكُمْ في كَسْبِ المالِ الطَّيِّبِ ، وَفي إِنْفاقِ هَذا المالِ بِالوُجوهِ الحَسَنَةِ .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك وقال : على شرط الشيخين ولم يخرجاه .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ العَمَلُ الصَّالِحُ المَقْبولُ عِنْدَ اللهِ تَعالى ، هُوَ الّذي يُبْتَغى بِهِ وَجْهُ اللهِ تَعالى ، وَلا يُتْبِعُهُ الإِنْسانُ بِمَعْصِيَةٍ تُحْبِطُهُ .

٢ـ تَحَرِّي إِنْفاقِ المالِ الحَلالِ الطَّيِّبِ ، وَعَدمُ قَصْدِ المالِ الخَبيثِ .

٣ـ مِنْ كَمالِ الإيمانِ أَنْ يُحِبَّ المَرْءُ لأَخيهِ ما يُحبُّهُ لِنَفْسِهِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعْنى الاسْتِفْهامِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿أَيَوَدُّ﴾ ؟

٢ـ لِمَنْ ضَربَتِ الآيَةُ الأُولى المَثَلَ ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ؟

٣ـ وَضِّحْ هَذا المَثَلَ الّذي ذَكَرَتْهُ الآيَةُ (٢٦٦) .

٤ـ ما سَبَبُ نُزولِ الآيَةِ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ ؟

٥ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ ؟

٦ـ لِماذا خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ ؟

٧ـ بَيِّنْ مَعْنى قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ .

نَشاط

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ الّتي تُبَيِّنُ حالَ المُؤْمِنينَ المُتَصَدِّقينَ كَما وردت في سورَةِ الدَّهْرِ .

* * *

الدرس التاسع والثلاثون

سورة البقرة - القسم الخامس والثمانون

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

معاني المفردات :

يَعِدُكُمْ : يُخوِّفُكُمْ .

بالفَحشاءِ : بِكُلِّ مَعصيةٍ للهِ ، ومِنْها البُخْلُ الشَّديدُ .

مَغْفِرَةً : الصَّفْحَ عَنِ الذَّنْبِ .

الألبابِ : العُقولِ .

نَذَرْتُمْ : التِزامُ الطاعَةِ تَقَرُّباً إلى اللهِ تَعالى .

التفسير :

ما زالتِ الآياتُ تَتحدَّثُ عَنِ النَّفقةِ وتَحثُّ عَليْها ، وكَما حَذَّرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ مِنَ المَنِّ والأَذى والرِّياءِ ، فهذهِ الآياتُ تُحَذِّرُ مِنْ أَصْلِ ذَلِكَ الشَّيءِ كُلِّهِ ، وهُوَ الشَّيْطانُ الّذي يُوَسْوِسُ للإنْسانِ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ .

إنَّ الشَّيْطانَ أيُّها النّاسُ يُخوِّفُكُمُ الفقْرَ ، ويُثيرُ في نُفوسِكُمُ الحِرْصِ عَلى المالِ ويُحبِّبُ لَكُمُ الشُّحَّ ، والتَّكالُبَ عَلى الدُّنْيا ، فَهُوَ يُوَسْوِسُ لَكُمْ مُحذِّراً إيّاكُمْ مِنَ الصَّدَقَةِ ، بإقْناعِكُمْ بأَنّها تُذْهِبُ مالَكُمْ ، وهوُ يُغريكُمْ بارْتِكابِ المعاصي والفواحِشِ ، الّتي مِنْ أقْبحِها البُخْلُ الشَّديدُ ، والشُّحُّ المُهْلِكُ . وكَما نَعْلَمُ فإنَّ خَوْفَ الفقْرِ كان يَدْعوهُمْ لِوَأْدِ البَناتِ ، وحِرْصُهُمْ عَلى جَمْعِ المالِ كانَ يَجْعَلُهُمْ يَأْكُلونَ الرِّبا ، وهَذا كُلُّهُ مِنَ الفَواحِشِ وهِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ .

وإذا كانَ الشَّيطانُ يَعِدُ بالفقْرِ ويَأْمُرُ بالفَحْشاءِ ، فَبِماذا وَعَدَ اللهُ تَعالى عِبادَهُ ؟ إنَّ اللهَ يَعِدُ عِبادَهُ ﴿ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ ﴾ فَهُوَ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً لِذُنوبِكُمْ ، وزِيادَةً عَلى ذَلِكَ يَعِدُكُمْ فَضْلاً مِنْهُ ، وهُوَ يَشْمَلُ عَطاءَ الرِّزْقِ جَزاءً لِما تَبْذُلونَهُ مِنْ مالٍ في سَبيلِ اللهِ ، فالصَّدَقَةُ تَزيدُ البَرَكَةَ في الرِّزْقِ ، ويَمْحو اللهُ بِها الخَطايا والذُّنوبَ .

﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، إنَّهُ سُبْحانَهُ يُعْطي عَنْ سَعَةٍ ، ويَعْلَمُ ما يُوَسْوِسُ بِهِ الشَّيْطانُ في صُدورِكُمْ ، وما يَدورُ في خَواطِرِكُمْ .

عَنْ عَبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ، قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ للشَّيْطانِ لِمَّةً بابنِ آدَمَ ، ولِلْمَلَكِ لِمَّةٌ ـ أيْ خَطْرَةٌ وهاجِسٌ يَقَعُ في قَلْبِ الإنسانِ ـ فأمّا لِمّةُ الشَّيطانِ فإيْعادٌ بالشَّرِّ ، وتَكذيبٌ بِالحَقِّ ، وَأَمّا لِمّةُ المَلَكِ فَإيعادٌ بِالخَيْرِ ، وتَصْديقٌ بالحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرى ، فَلْيَتَعوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ ، ثُمَّ قَرَأَ (الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بالفَحْشاءِ . . .)[1] .

إنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لا يُعْطي عِبادَهُ المَغْفِرَةَ وَحْدَها ، وَلَكِنَّهُ يُعْطي الحِكْمَةَ كَذَلِكَ :

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ .

إنَّ الشَّيْطانَ يَعِدُ بِالفَقْرِ وَالفَحْشاءِ ، وَاللهُ يَعِدُ بِالمَغْفِرَةِ وَالفَضْلِ ، وَوَعْدُ اللهِ تُرَجِّحُهُ الحِكْمَةُ وَالعَقْلُ ، وَوَعْدُ الشَّيْطانِ تَرَجِّحُهُ الشَّهْوَةُ وَالنَّفْسُ ، وَلا شَكَّ أَنَّ حُكْمَ الشَّهْوَةِ وَالنَّفْسِ يُوقِعُ الإِنْسانَ في البَلاءِ ، وَحُكْمُ العَقْلِ وَالشَّرْعِ هُوَ الحُكْمُ الصّادِقُ المُبَرَّأُ عَنِ الزَّيْغِ وَالخَلَلِ فَهْوَ أَوْلَى بِالقَبولِ . إنَّهُ سُبْحانَهُ يُؤْتي الإِنْسانَ الحِكْمَةَ ؛ أَي : القَصْدَ وَالاعْتِدالَ فَيَمْنَعُهُ عَقْلُهُ مِنَ الوُقوعِ في الفَاحِشَةِ ، وَمِنْ تَعَدِّي الحُدودِ ، فَالحِكْمَةُ إِصابَةُ الحَقِّ في القَوْلِ وَالعَمَلِ .

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعالى لِلعَمَلِ الصّالِحِ الإيمانِ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن ، حديث رقم ٢٩٨٨ ، وابن حيان في الصحيح ، حديث رقم ٩٩٧ .

الصَّحيحِ ، وَوَفَّقَهُ لِتَرْكِ كُلِّ شَرٍّ وَفاحِشَةٍ ، فَإِنَّهُ يَكونُ سَعيداً في الدُّنيا وَالآخِرَةِ . ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إِنَّ صاحِبَ العَقْلِ هُوَ الّذي يَتَذَكَّرُ فَلا يَنْسى ، وَإِذا نَبَّهَهُ لا يَغْفَلْ ، وَيَرى في كُلِّ ما حَوْلَهُ عِبْرَةً لَهُ . إِنَّ صاحِبَ العَقْلِ يَدْعوهُ عَقْلُهُ إِلى الاهْتِداءِ وَالإيمانِ بِخالِقِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَعَدَمِ اتِّباعِ وَساوِسِ الشَّيْطانِ . وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتُبَيِّنَ عِلْمَ اللهِ الشَّامِلِ بما يُنْفِقُهُ الإِنْسانُ .

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ .

النَّفَقَةُ تَشْمَلُ كُلَّ ما يُخْرِجُهُ الإِنْسانُ مِنْ مالِهِ ، سَواءٌ أَكانَتْ زَكاةً أَمْ صَدَقَةً ، أَمْ تَطَوُّعاً بِالمالِ لِلْجِهادِ وَغَيْرِهِ ، فَهَذِهِ كُلُّها يَعْلَمُها اللهُ ، وَيَعْلَمُ أَيْضاً ما تُلْزِمونَ أَنْفُسَكُمْ بِهِ مِنْ نَفَقَةٍ طاعةً وتَقَرُّباً إِلى اللهِ تَعالى ، وَالنَّذْرُ لا يَكونُ إِلاّ للهِ تَعالى ، كَأَنْ يَنْذِرَ إِنْسانٌ بِأَنْ يَذْبَحَ شاةً ، أَوْ يَتَصَدَّقَ بِمائَةِ دينارٍ تَقَرُّباً للهِ .

هَذا كُلُّهُ يَعْلَمُهُ اللهُ تَعالى وَيُجازيكُمْ عَلَيْه ، وَلاشَكَّ في أَنَّ الإِنْسانَ إِذا شَعَرَ بِأَنَّ اللهَ تَعالى يُراقِبُهُ ، حَمَلَهُ هَذا عَلى التَّقْوى الّتي هِيَ تَطْهيرُ باطِنِهِ مِنْ هَواجِسِ الشَّرِّ والرِّياءِ وَالشُّحِّ وَالبُخْلِ ، وَجَعَلَهُ يَشْعُرُ بِطُمَأْنينَةٍ وَراحَةٍ نَفْسِيَّةٍ ، وَبِالتّالي فَإِنَّهُ يَشْكُرُ اللهَ تَعالى الّذي أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَجَعَلَهُ مِنَ المُتَّقينَ الّذينَ يُنْفِقونَ في سَبيلِهِ سُبْحانَهُ ، وَلا يَخافونَ فَقْراً وَلا شُحّاً ولا نَفادَ مالٍ .

هَؤُلاءِ هُمُ الّذينَ يَقومونَ بِشُكْرِ اللهِ تَعالى عَلى نِعَمِهِ ، أَمّا الّذينَ لا يُؤَدُّونَ حَقَّ اللهِ تَعالى ، وَلا يُنْفِقونَ مِمّا أَعْطاهُمُ اللهُ تَعالى ، فَهُمْ ظالِمونَ ، ظالِمونَ لِلنّاسِ ، ظالِمونَ لأَنْفُسِهِمْ ، هَؤُلاءِ الظّالِمونَ لَيْسَ لَهُمْ نَصيرٌ أَوْ مُعينٌ يَمْنَعُ عُقوبَةَ اللهِ تَعالى عَنْهُمْ .

وَيُبَيِّنُ اللهُ تَعالى لِعبادِهِ المُؤْمِنينَ أَنَّ إِخْراجَ الصَّدَقَةِ عَلانِيَةً أَمْرٌ مُباحٌ ، وَإِخْراجُها خِفْيَةً مُباحٌ كَذَلِكَ وَلَكِنَّهُ خَيْرٌ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ .

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ إِنَّ إِخْفاءَ الصَّدَقاتِ حينَما تَكونُ تَطَوُّعاً أَوْلى عِنْدَ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى وَأَحَبُّ إِلَيْهِ ، لأَنّها تَكونُ بَعيدَةً عَنْ أَنْ تَشوبَها شائِبَةُ رِياءٍ ، أَمّا إِذا كانَتْ أَداءَ فَريضَةٍ كَالزَّكاةِ أَوْ النَّذْرِ فَيَحْسُنُ إِظْهارُها ، لأَنَّ ذَلِكَ يُحَقِّقُ نَشْرَ الخَيْرِ بَيْنَ النّاسِ ، فَمَنْ يَدْفَعُ زَكاةَ مالِهِ لِلنّاسِ بِنِيَّةٍ خالِصَةٍ ، كانَ مَحْموداً عِنْدَ اللهِ تَعالى ، وَعِنْدَ النّاسِ الّذينَ شاهَدوا عَمَلَهُ الصّالِحَ ، وَلَعَلَّهُمْ يَقْتَدونَ بِهِ . ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ﴾ إِنَّهُ سُبْحانَهُ يَقْبَلُ مِنْكُمْ صَدَقاتِكُمْ ، وَيَسْتُرُ سَيِّئاتِكُمْ ، وَلا يُظْهِرُها ، وَذَلِكَ لأَنَّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ، كَما قالَ

تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : ١١٤] ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى يَعْلَمُ عِلْماً دَقيقاً كُلَّ ما تَعْمَلونَهُ أَيُّها المُؤْمِنونَ ، وَهُوَ عَليمٌ بِنِيّاتِكُمْ ، لِذا عَلَيْكُمْ أَنْ تُخْلِصوا لَهُ أَعْمالَكُمْ وَأَنْ تُراقِبوهُ في السِّرِّ وَالعَلَنِ .

وَمِنَ المُلاحَظِ أَنَّ الآياتِ القُرآنِيَّةَ أَطالَتِ الحَديثَ عَنْ قَضيَّةِ النَّفَقَةِ ، وَسِرُّ ذَلِكَ واللهُ أَعْلَمُ :

أَوّلاً : إنَّ اللهَ تَعالى أَعْلَمُ بِالطَّبيعَةِ البَشَرِيَّةِ ، وَما يُساوِرُها مِن الشُّحِّ ، وَالحِرْصِ عَلى المالِ ، وَلِذا نَجِدُ القُرْآنَ يَتَحَدَّثُ كَثيراً عَنْ هَذِهِ القَضِيَّةِ ، لِيَحُثَّ النّاسَ عَلى الاسْتِعلاءِ عَلى هذِهِ الصِّفَةِ (الشُّحِّ) ، وَيَسْتَثيرَ مَشَاعِرَهُمْ لِذَلِكَ .

ثانِياً : لَقَدْ اشْتُهِرَ عَنِ العَرَبِ وَقْتَ نُزولِ القُرآنِ الكَريمِ الكَرَمُ والجودُ والسَّخاءُ ، وَلكِنَّهُ كَرَمٌ وَسَخاءٌ يُقْصَدُ بِهِ الذِّكْرُ ، وَالصِّيتُ بَيْنَ النّاسِ ، فَجاءَ القُرآنُ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ يَنْبَغي أَنْ يُنْفِقوا دُونَ أَنْ يَنْتَظِروا ثَناءً مِنَ النّاسِ ، وَأَنْ يَتَّجِهوا إِلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وَهَذِهِ القَضِيَّةُ بِحاجَةٍ إلى تَرْبِيَةٍ طَويلَةٍ وَجُهْدٍ كَثيرٍ ، لِذا كانَ التَّرْكيزُ عَلى قَضيَّةِ النَّفَقَةِ .

ثالِثاً : الحاجَةُ إلى النَّفَقَةِ لِشِدَّةِ الفَقْرِ وشُحِّ المَوارِدِ .



تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الإِنْسانُ أَمامَ طَريقَيْنِ : طَريقِ اللهِ وَطَريقِ الشَّيْطانِ ، فَمَنْ لَمْ يَسِرْ عَلى طَريقِ اللهِ تَعالى وَيَتَّبِعْ شَرْعَهُ ، فَهُوَ سائِرٌ في طَريقِ الشَّيْطانِ وَمُتَّبِعٌ هَواهُ .

٢ـ صاحِبُ العَقْلِ الرَّشيدِ هُوَ الّذي يَحْمِلُهُ عَقْلُهُ عَلى اتِّباعِ طَريقِ الحَقِّ ، وَيَحْجِزُهُ عَنِ اتِّباعِ طَريقِ الشَّيْطانِ .

٣ـ المُؤْمِنُ الّذي يَشْعُرُ بِمُراقَبَةِ اللهِ تَعالى لأَعْمالِهِ وَحَرَكاتِهِ ، يَحْمِلُهُ هَذا عَلى التَّقوى الّتي هِيَ تَطْهيرُ باطِنِهِ للهِ تَعالى ، وَتَطْهيرُ ظاهِرِهِ كَذَلِكَ ، والالتِزامُ بِكُلِّ ما أَمَرَهُ اللهُ تَعالى .

٤ـ مِنَ الذينَ يُظِلُّهُمْ اللهُ بِظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ ، رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفاها حَتّى لا تَعْلَمَ شِمالُهُ ما تُنْفِقُ يَمينُهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما أصْلُ الشُّرورِ كُلِّها ؟

٢ـ كَيْفَ يَعِدُ الشَّيْطانُ بِالفَقْرِ ؟

٣ـ بِمَ وَعَدَ اللهُ تَعالى عِبادَهُ ؟

٤ـ وَضِّحْ مَعْنى : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ .

٥ـ مَنْ أُولو الألْبابِ ؟

٦ـ ما المَقْصودُ بِالنَّفَقَةِ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ ؟ وَما النَّذْرُ ؟

٧ـ بِمَ وَصَفَ اللهُ الّذينَ لا يُؤَدّونَ حَقَّ اللهِ تَعالى ؟

٨ـ مَتَى يُسْتَحَبُّ إِخْفاءُ الصَّدَقَةِ ؟ وَمَتى يُسْتَحَبُّ إِبْداؤُها ؟

٩ـ ما الجَزاءُ الّذي حَدَّدَتْهُ الآيَةُ لِمَنْ يُنْفِقُ في سَبيلِ اللهِ ؟

١٠ـ ما الحِكْمَةُ مِنَ الحَديثِ عَنِ النَّفَقةِ بِهذا الإِسْهابِ في الآياتِ الكَريمةِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ ما حُكْمُ النَّذْرِ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اذْكُرْ قِصَّةً مِنْ قِصَصِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِمّا تَحْفَظُهُ ، تَدُلُّ عَلى أَنَّهُمْ كانوا يُنْفِقونَ أَمْوالَهُمْ وَهُمْ لا يَخْشَوْنَ نَفادَ المالِ أَوْ الفَقْرِ .

* * *

الدرس الأربعون

سورةُ البَقرةِ - القِسْمُ السّادِسُ والثّمانونَ

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أُحْصِروا : مُنِعوا وَحُبِسوا .

ضَرْباً : سَيْراً في الأَرْضِ لِلكَسْبِ وَالتِّجارَةِ .

التَّعَفُّفِ : إظهارِ العِفَّةِ ، وَهُوَ التَّنَزُّهُ عَنْ سُؤالِ النّاسِ .

إِلْحافاً : إِلْحاحاً ، وَهِيَ أَنْ يُلازِمَ السّائِلُ المَسْؤولَ حَتى يُعْطِيَهُ .

التَّفْسيرُ :

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ .

لَقَدْ أَرْشَدَتِ الآياتُ السّابِقَةُ المُسْلِمينَ إِلى إِيتاءِ الصَّدَقاتِ لِلفُقَراءِ عامَّةً ، وَجاءَتِ الآياتُ هُنا

لِتُبيِّنَ لِلمُسْلِمينَ أَنَّهُ يَنبَغي أَنْ لا يَتحَرَّجوا مِنْ إِعْطاءِ الفَقيرِ غَيْرِ المُسْلِمِ الصَّدَقَةَ لِيَسُدَّ حاجَتَهُ ، وَأَمّا أَمْرُ القُلوبِ وَهُداها وَضَلالُها فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعالى وَلَوْ كانَ رَسولَ اللهِ ﷺ ، إِنَّما هُوَ مِنْ أَمْرِ اللهِ تَعالى ، فَهَذِهِ القُلوبُ بِيَدِ اللهِ تَعالى ، لا يُصَرِّفُها سِواهُ ، وَلا سُلطانَ لأَحَدٍ عَلَيْها إِلاّ للهِ تَعالى ، وَلِذَلِكَ ما عَلى الرَّسولِ إِلاّ البَلاغُ ، أَمّا الهُدى فَهُوَ بِيَدِ اللهِ يُعْطيهِ مَنْ يَشاءُ الهِدايَةَ مِنْ عِبادِهِ ؛ وما دامَ الأَمْرُ كَذَلِكَ فَعَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ أَنْتَ وَأُمَّتَكَ أَنْ تُنْفِقوا عَلى مَنْ يَحْتاجُ النَّفَقَةَ مِمَّنْ هُمْ عَلى غَيْرِ دينِكُمْ .

وَلَقَدْ جاءَتِ الآياتُ السّابِقَةُ تُقَرِّرُ حُرِّيَةَ الدِّينِ وَالعَقيدَةِ (لا إِكْراهَ في الدّينِ) ، وَلَيْسَ هَذا فقط ، بَلْ جاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتُقَرِّرَ تِلْكَ السَّماحَةَ الدِّينِيَّةَ ، فَهُوَ يُقَرِّرُ حَقَّ المُحتاجينَ جَميعاً ، سواءٌ أَكانوا مُسْلِمينَ أَمْ غَيْرَ مُسْلِمينَ ، ما داموا في غَيْرِ حالَةِ حَرْبٍ مَعَ المُسْلِمينَ .

إِنَّ ثَوابَ هَؤُلاءِ المُنْفِقينَ مَحْفوظٌ عِندَ اللهِ تَعالى ، ما دامَ هَذا الإِنْفاقُ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ تَعالى .

﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ ﴾ أَي : ما تُقَدِّمونَهُ مِنْ مالٍ في وَجْهِ الخَيْرِ وَالبِرِّ ، فَإِنَّ نَفْعَهُ يَعودُ عَلَيْكُمْ وَحْدَكُمْ سَعادَةً في الدُّنيا وَثَواباً جَزيلاً في الآخِرَةِ .

﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ ﴾ أَي : لَسْتُمْ في صَدَقَتِكُمْ عَلى الفُقَراءِ عامَّةً تَقْصِدونَ إِلاّ وَجْهَ اللهِ تَعالى ، فَقَدْ عَلِمَ هذا مِنْكُمْ ، فَأَنْفِقوا عَلَيْهِمْ إِذا كُنْتُمْ تَبْتَغونَ وَجْهَ اللهِ في صِلَةِ رَحِمٍ أَوْ سَدِّ حاجَةِ مَضطَرٍ وَلَيْسَ عَلَيْكُمُ اهْتِداؤُهُمْ ، وَلا يَمْنَعْكُمْ عَدَمُ اهْتِدائِهِمْ مِنَ الإِنْفاقِ عَلَيْهِمْ .

إِنَّ هذا هُوَ شَأْنُ المُؤْمِنِ ، فَلا يُنْفِقُ إِلاّ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ تَعالى ، لا يُنْفِقُ رِياءً وَلا نِفاقاً ، لا يَنْتَظِرُ جَزاءً مِنْ أَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ ، وَانْظُرْ هَداكَ اللهُ كَيْفَ حَثَّ القُرآنُ عَلى النَّفَقَةِ في هَذِهِ الآيَةِ ، حَيْثُ وَرَدَ لَفْظُ النَّفَقَةِ ثَلاثَ مَرّاتٍ ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ ﴾ ، ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ ﴾ ، ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ .

وَتُبَيِّنُ الآياتُ مَصْرِفاً مِنْ مَصارِفِ هَذِهِ النَّفَقَةِ .

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾ .

لَقَدْ صَوَّرَ القُرآنُ هَذِهِ الطّائِفَةَ مِنَ النّاسِ تَصْويراً يُحَرِّكُ المَشاعِرَ في القُلوبِ ، لِتَحُثَّها عَلى الإِنْفاقِ عَلى هَذِهِ الطّائِفَةِ . إِنَّهُمْ فُقَراءُ في حاجَةٍ إِلى المُساعَدَةِ وَالعَوْنِ ، وَقَفوا أَنْفُسَهُمْ وَحَصروها عَلى الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، أَوْ مُنِعوا مِنَ الكَسْبِ بِسَبَبِ مَرَضٍ أَوْ كِبَرِ سِنّ ، لا يَسْتَطيعونَ ضَرْباً في الأَرْضِ ، أَي : لا يَسْتَطيعونَ عَمَلاً لِيَكْسَبوا مِنَ وَرائِهِ مالاً يَكْفيهِمْ حاجَتَهُمْ ، بِسَبَبِ انْشِغالِهِمْ بِالجِهادِ ، أَوْ بِسَبَبِ ضَعْفِهِمْ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَتَعَفَّفونَ فَلا يَسْأَلونَ النّاسَ شَيْئاً ، وَالجاهِلُ بِحالِهِمْ ،

وَالّذي لا فِراسَةَ عِنْدَهُ يَظنُّهُمْ أَغْنياءَ ، وذَلِكَ لأَنَّهُمْ يَتَحَمَّلونَ الفَقْرَ ، ويَتَعَفَّفونَ عَنِ السُّؤَالِ ، أَمّا صاحِبُ الفِراسَةِ الصّادِقَةِ والبَصيرَةِ النّافِذَةِ فَإِنَّهُ يَعْرِفُ عَنْهُمْ ما لا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُ . وَهَؤُلاءِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ ، أَي : تَعْرِفُ حاجَتَهُمْ أَيُّها الرَّسولُ ، وَأَيُّها المُؤْمِنُ العاقِلُ بِما تَرى في هَيْأَتِهِمْ مِنْ آثارٍ تَدُلُّ عَلى قِلَّةِ ذاتِ اليَدِ .

إِنَّ هَذِهِ الأَوْصافَ الّتي ذَكَرَتْها الآياتُ ، تَنْطَبِقُ عَلى جَماعَةٍ مِنَ المَهاجِرينَ ، الّذينَ تَرَكوا أَمْوالَهُمْ وأَهْليهِمْ في مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، وَهاجَروا إِلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، وَوَقَفوا أَنْفُسَهُمْ عَلى الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ ، وَحِراسَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، كَأَهْلِ الصُّفَّةِ ، وَهَؤُلاءِ لا يَسْتَطيعونَ ضَرْباً في الأَرْضِ لِلْكَسْبِ وَالتِّجارَةِ ، وَلا يَسْأَلونَ النّاسَ شَيْئاً ، وَمَعَ ذَلِكَ فَالنَّصُّ عامٌّ يَنْطَبِقُ عَلى كُلِّ فَقيرٍ ، لا يَسْتَطيعُ كَسْباً ، ولا يَسْأَلُ النّاسَ ، وَلا يُلِحُّ في المَسْأَلَةِ ، وَيَتَعَفَّفُ عَنْ سُؤالِهِمْ .

وانْظُرْ إِلى هَذا القَيْدِ (في سبيلِ اللهِ) ، فَهُوَ بَيانٌ لِما نَزَلَ بِهِمْ مِنْ فَقْرٍ واحْتياجٍ ، إِنّما كانَ بِسَبَبِ إِيثارِهِمْ إِعلاءَ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى عَلى أَيِّ شَيءٍ آخَرَ ، وَفي هَذا تَكْريمٌ وَتَشْريفٌ لَهُمْ .

هَؤُلاءِ إِذَنْ وَالمُتَّصِفونَ بِهَذِهِ الصِّفاتِ هُمْ أَحَقُّ النّاسِ بِالنَّفَقَةِ . عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ النَّبيِّ ﷺ قالَ : « لَيْسَ المِسْكينُ الّذي يَطوفُ عَلى النّاسِ ، تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمتانِ ، وَالتَّمْرَةُ والتَّمْرَتانِ ، وَلَكِنَّ المِسْكينَ الّذي لا يَجِدُ غِنَىً يُعينُهُ ، ولا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ ، وَلا يَقومُ فَيَسْأَلُ النّاسَ »[1] .

هَؤُلاءِ الفُقَراءُ الّذين يَكْتُمونَ فَقْرَهُمْ ، لابُدَّ وأَنْ يَكونَ إِعْطاؤُهُمْ وَالتَّصَدُّقُ عَلَيْهِمْ سِرّاً ، حَتّى لا تُجْرَحَ كَرامَتُهُمْ ، وَلِذا جاءَ التَّعْقيبُ في الآيَةِ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ فاللهُ تَعالى وَحْدَهُ الّذي يَعْلَمُ السِّرَّ والعَلَنَ ، وَلا يَخْفى عَلَيْهِ حُسْنُ النِّيَّةِ ، والإِخْلاصُ لَهُ في العَمَلِ ، وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَيْكُمْ ، يَعْلَمُ ما تُقَدِّمونَهُ مِنْ نَفَقَةٍ .

وَتُخْتَمُ الآياتُ المُتَحَدِّثَةُ عَنْ النَّفَقَةِ بِأَمْرٍ عامٍ يَشْمَلُ طُرُقَ الإِنْفاقِ كُلَّها ، وَكُلَّ أَوقاتِ الإِنْفاقِ ، فَيَقُولُ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ .

الّذين يَنْفِقونَ أَمْوالَهُمْ ـ مَهْما كانَ نَوْعُ هَذِهِ الأَمْوالِ ـ في جَميعِ الأَزْمِنَةِ ، وفي سائِرِ الأَحْوالِ ، فَهُمْ يَتَصَدَّقونَ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ ، سِرّاً وعَلانِيَةً ، إِنَّهُمْ لِقُوَّةِ إِيمانِهِمْ وَصَفاءِ نُفُوسِهِمْ يَحْرِصونَ كُلَّ الحِرْصِ عَلى كُلِّ ما يُرْضي اللهَ تَعالى ، وَقَدْ أَثابَهُمْ سُبْحانَهُ وتَعالى بِما يَليقُ بِهِمْ ، فَهُمْ :

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح ، حديث رقم ١٠٣٩ .

أولاً : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ لَهُمْ وَحدَهُمْ الأَجْرُ الجزيلُ مِنَ اللهِ : مِنْ مُضاعَفَةِ المالِ وَبَرَكَةِ العُمْرِ وجَزاءِ الآخِرَةِ وَرُضْوانِ اللهِ .

ثانياً : ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذابِ اللهِ بِسَبَبِ ما قَدَّموا مِنْ عَمَلٍ صالِحٍ ، وَلا خَوفٌ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يُصيبَهُمْ فَقْرٌ وَحاجَةٌ .

ثالثاً : ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لا يَحْزَنونَ عَلى ما فاتَهُمْ مِنْ صالِحِ العَمَلِ الّذي يَرْجونَ بِهِ ثَوابَ اللهِ ، وَهُمْ دائِماً في اطْمِئنانٍ وَثِقَةٍ باللهِ تَعالى .

فَلْيَحْرِصِ المُسْلِمُ عَلى الإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَلَوْ كانَ بِالقَليلِ مِمّا يملِكُهُ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلَهُ : « سَبَقَ دِرْهَمٌ مائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، قالوا يا رَسولَ اللهِ : كَيْفَ يَسْبقُ دِرْهَمٌ مائَةَ أَلفٍ ، قالَ : رَجُلٌ لَهُ دِرْهَمانِ فَأَخَذَ أَحَدَهُما فَتَصَدَّقَ بِهِ ، وَآخَرُ لَهُ مالٌ كَثيرٌ فأَخَذَ مِنْ عَرَضِهِ مائَةَ أَلْفٍ »[1] .

إنَّ الأَوَّلَ قَدْ أنفَقَ نِصْفَ مالِهِ ، وَلَكِنَّ الثّاني : الّذي يَمْلِكُ أُلوفاً مُؤَلَّفَةً ، وَأَنْفَقَ مائَةَ أَلْفٍ ، فكانَتْ هَذِهِ شَيْئاً قَليلاً مِنْ مالِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَليمٌ بِنيّاتِ البَشَرِ ، فَهُوَ يَطَّلِعُ عَلى مَنْ أَنْفَقَ ابْتِغاءَ وَجْهِه ، وَمَنْ أَنْفَقَ رِياءً وَنِفاقاً ، فَلْيَحْرِصِ المُسْلِمُ عَلى الإنْفاقِ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ .

٢ـ وُجوبُ الإنْفاقِ عَلى المُحتاجِ في السَّرّاءِ الضَّرّاءِ ، وفي العُسْرِ واليُسْرِ ، وفي المُنْشَطِ والمَكْرَه .

٣ـ الصَّدَقَةُ تَكونُ عَلى كُلِّ مُحتاجٍ سَواءٌ أَكانَ مُسْلِماً أَمْ غيرَ مُسْلِمٍ .

٤ـ أَحَقُّ النّاسِ بِالصَّدَقَةِ الفُقَراءُ الّذين لا يَسْأَلونَ النّاسَ ولا يُلِحّونَ بِالطَّلَبِ ، وَيَتَعَفَّفونَ عَنْ ذَلِكَ .

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ، حديث رقم ٢٤٤٣ ، وابن حبان في الصحيح ، حديث رقم ٣٣٤٧ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ وَضِّحْ مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ .

٢ـ جاءَتِ الآياتُ لِتُقَرِّرَ حَقيقَةً في هَذا الدِّينِ العَظيمِ ، ما تِلْكَ الحَقيقَةُ ؟ وَما دَليلُكَ ؟

٣ـ هَلْ يُشْتَرَطُ في الصَّدَقَةِ أَنْ تَكونَ عَلى المُسْلِمينَ فقط ؟

٤ـ حَثَّ القُرآنُ في الآيَةِ عَلى النَّفَقَةِ ، ما مَظاهِرُ هَذا الحَضِّ عَلَيْها ؟

٥ـ ذَكَرَتِ الآياتُ مَصْرِفاً مِنْ مَصارِفِ الصَّدَقَةِ ، ما هُوَ ؟

٦ـ ما صِفاتُ الفَقيرِ الّذي يَسْتَحِقُّ الصَّدَقَةَ مِنْ خِلالِ الآياتِ ؟

٧ـ هَلْ لِلصَّدَقَةِ وَقْتٌ مُعَيَّنٌ وَكَيْفِيَّةٌ مُعَيَّنَةٌ ؟ وَضِّحْ ذَلِكَ مِنْ خِلالِ الآيَةِ .

٨ـ ما الجَزاءُ الّذي أَعَدَّهُ اللهُ لِمَنْ أَنْفَقَ في سَبيلِهِ ؟

نَشاطٌ :

١ـ مَنْ هُمْ أَهْلُ الصُّفَّةِ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ما مَوْقِفُكَ مِنْ أُولَئِكَ الّذين يُوقِفونَ النّاسَ في طَريقِهِمْ ، وَيَطوفونَ بِبيوتِهِمْ يَطْلبونَ أَمْوالاً وَطعاماً ومَلابِسَ ، اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٣ـ وَرَدَتْ أَحادِيثُ تُحَرِّمُ السُّؤالَ لِغَيْرِ ضَرورَةٍ ، أَيْ : لِمَنْ هُوَ غَنِيٌّ ، هاتِ حَديثاً مِنْها .

* * *

الدرس الحادي والأربعون

سورةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ السَّابعُ والثَّمانونَ

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾

معاني المفردات :

يَأْكُلونَ : يَأْخُذونَ وَيَتَصرَّفونَ فيهِ .

الرِّبا : لُغَةً : الزِّيادَةُ ، وَهُنا الزِّيادَةُ عَلى المالِ مِنْ دونِ عِوَضٍ أوْ مُقابِلَ الأَجَلِ .

يَتَخَبَّطُهُ : يَصْرَعُهُ وَيَضْرِبُ بِهِ الأَرْضَ ضَرْباً شَديداً .

المَسِّ : الجُنونِ .

يَمْحَقُ : المَحْقُ : نَقْصُ الشَّيءِ حالاً بَعْدَ حالٍ .

يُربي : يَزيدُ ويُضاعِفُ .

كفّارٍ : مُقيمِ عَلى الكُفْرِ المُعْتادِ لَهُ .

التَّفسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَنِ النَّفَقَةِ ، وَهِيَ عَطاءٌ وَسَماحَةٌ وَطَهارَةٌ وَزَكاةٌ ، وَتَعاونٌ وَتَكافُلٌ ، وَهِيَ إِعْطاءٌ لِمالٍ بِلا مُقابِلٍ ، وَتَنْتَقِلُ الآياتُ لِتَتَحَدَّثَ عَمَّا يُقابِلُ النَّفَقَةَ ، إِنَّهُ الرِّبا الَّذي هُوَ شُحٌّ وَقَذارَةٌ وَدَنَسٌ وَأَنانِيَّةٌ ، وَهِيَ إِعْطاءٌ لِلمالِ ، وَمِنْ ثُمَّ اسْتِرْدادُهُ وَمَعَهُ زِيادَةٌ مُحَرَّمَةٌ مِنْ جِهَةِ الدِّينِ .

وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِالنَّاسِ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ حَثَّ عَلى الصَّدَقَةِ وَرَغَّبَ فِيها ، انْتَقَلَ لِيَتَحَدَّثَ عَنِ الرِّبا ، وَيُنَفِّرَ مِنْهُ وَيُرَهِّبَ مِنَ التَّعامُلِ بِهِ . إِنَّ النِّظامَ الاقْتِصادِيَّ الإِسْلامِيَّ لا يُمْكِنُ أَنْ يَتَقابَلَ مَعَ النِّظامِ الاقْتِصادِيِّ الَّذي يَقومُ عَلى الرِّبا ، لأَنَّ الرِّبا مُحَرَّمٌ ، وَأَضْرارُهُ خَطيرَةٌ تَعودُ عَلى الفَرْدِ وَالمُجْتَمَعِ .

لَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الآياتُ لِتُنَفِّرَ مِنَ الرِّبا ، يَقولُ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ إِنَّ الَّذينَ يَتَعامَلونَ بِالرِّبا أَخْذاً أَوْ إِعْطاءً ، وَلَيْسوا هُمُ الَّذينَ يَأْخُذونَ الفائِدَةَ الرَّبَوِيَّةَ فَقَطْ ، إِنَّما هُمْ أَهْلُ المُجْتَمَعِ الرَّبَوِيِّ كُلِّهِ ، هَؤُلاءِ لا يَقومونَ في الحَياةِ وَلا يَتَحَرَّكونَ إِلاَّ حَرَكَةَ المُضْطَرِبِ المُتَخَبِّطِ ، الَّذي لا يَعْرِفُ اسْتِقْراراً وَلا طُمَأْنينَةً ، وَلا راحَةً ، اُنْظُرْ إِلى أَغْنى بِقاعِ الأَرْضِ ، مِمَّنْ يَتَعامَلُ أَهْلُها بِالرِّبا وَيُرَوِّجونَهُ فِيما بَيْنَهُمْ ، تَجِدُ أَنَّ النَّاسَ لَيْسوا سُعَداءَ ، فَهُمْ قَلِقونَ دائِماً مَعَ غِناهُمْ ، وَالمَلَلُ يَكادُ يَقْتُلُهُمْ مَعَ أَنَّهُمْ مُسْتَغْرِقونَ في الإِنْتاجِ ، وَهُمْ يُحاوِلونَ التَّخَلُّصَ مِنَ المَلَلِ بِتَقاليدَ غَريبَةٍ شاذَّةٍ ، وَبِالشُّذوذِ الجِنْسِيِّ ، ويُحاوِلونَ الهَرَبَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ بِالانْتِحارِ مَثَلاً ، وَيُصابونَ بِحالاتٍ نَفْسِيَّةٍ عَظيمَةٍ ، كَالهِسْتيريا وَالجُنونِ ؛ إِنَّ هَذِهِ كُلَّها تُصيبُ المُجْتَمعاتِ بِسَبَبِ الرِّبا الَّذي يَتَعامَلونَ بِهِ ، وَهَذا كُلُّهُ في الدُّنْيا ، وَقَدْ يَكونُ تَخَبُّطُهُمْ هَذا يومَ القِيامَةِ كَذَلِكَ .

فَهُمْ يَومَ القِيامَةِ لا يَقومونَ إِلاَّ قِياماً كَقِيامِ المُتَخَبِّطِ المَصْروعِ المَجْنونِ .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أَي : ذَلِكَ الآكِلُ لِلرِّبا ، أَوْ ذَلِكَ العِقابُ الَّذي نَزَلَ بِهِمْ وَالَّذي مِنْ مَظاهِرِهِ تَخَبُّطَهُمْ كَالمَجانينِ سَبَبُهُ قَوْلُهُمْ : ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أَي : أَنَّ البَيْعَ الَّذي أَحَلَّهُ اللهُ تَعالى يُشْبِهُ الرِّبا الَّذي نَتَعامَلُ بِهِ ، فَهَؤُلاءِ قَدْ بَلَغَ اعْتِقادُهُمْ في حِلِّ الرِّبا أَنَّهُمْ جَعَلوهُ أَصْلاً وقانوناً في الحِلِّ ، حَتَّى شَبَّهوا بِهِ البَيْعَ .

﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ إِنَّ ما ذَكَرْتُموهُ أَيُّها الآكِلونَ لِلرِّبا ، قِياسٌ ضَعيفٌ لا أَصْلَ لَهُ ، فَهُوَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ ، إِنَّ في البَيْعِ ما يَدُلُّ عَلى حِلِّهِ ، وفي الرِّبا مايَدُلُّ عَلى حُرْمَتِهِ .

﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ مَنْ بَلَغَهُ تَحْريمُ اللهِ تَعالى لِلرِّبا ، وَنَهْيُهُ عَنْهُ ، فَامْتَثَلَ لأَوامِرِ اللهِ تَعالى ، وَأَطاعَ وَابْتَعَدَ عَنِ الرِّبا ، وَتَرَكَهُ فَوْراً بِلا تَراخٍ أَوْ تَرَدُّدٍ ، وَأَنَّ ما قَدْ أَخَذَهُ مِنْ مالِ الرِّبا قَبْلَ التَّحْريمِ يَكونُ لَهُ ، لا يُؤاخِذُهُ اللهُ عَلَيْهِ ، أَمَّا ما لَمْ يَأْخُذْهُ بَعْدُ فَهُوَ حَرامٌ عَلَيْهِ ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَمْرُهُ مُفَوَّضٌ إِلى اللهِ حَيْثُ يَحْكُمُ اللهُ سُبْحانَهُ فيهِ بِعَدْلِهِ ، وَمِنَ العَدْلِ أَنْ لا يُؤاخِذَ اللهُ أَحَداً بِما أَكَلَ مِنَ الرِّبا قَبْلَ التَّحْريمِ .

﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ مَنْ عادَ إلى أَكْلِ الرِّبا بَعْدَ تَحْريمِهِ فَأُولئِكَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ المُلازِمونَ لَها ، وَالماكِثونَ فِيها ، بِسَبَبِ تَعَدِّيهِمْ على حُدودِ اللهِ تَعالى ، وَذلِكَ أَنَّ مَنْ يُقْدِمُ عَلى ارْتِكابِ الكَبائِرِ وَالفواحِشِ ، يَكونُ مُحِبّاً لِلمالِ وَلِلَذَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ العاجِلَةِ ، وَهَذا لا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ في قَلْبِهِ ذَرَّةُ إيمانٍ ، إِذِ الإيمانُ الحَقُّ هُوَ الَّذي يَمْلأُ النُّفوسَ خَوْفاً وَرَهْبَةً مِنْ عِقابِ اللهِ تَعالى ، فَتَفْعَلُ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ ، وَتَنْهى عَمَّا نَهى اللهُ عَنْهُ ، وَمَنِ ارْتَكَبَ الفَواحِشَ ، واسْتَحَلَّها ، وَاعْتَقَدَ أَنَّها حَلالٌ فَهُوَ كافِرٌ مُخَلَّدٌ في نَارِ جَهَنَّمَ .

وتُبَيِّنُ الآياتُ سُوءَ عاقِبَةِ المُرابينَ ، قَالَ اللهُ تَعالى :

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ .

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ فَهُوَ سُبْحانَهُ يُذْهِبُ بَرَكَةَ الرِّبا ، وَيُهْلِكُ المالَ الَّذي يَدْخُلُ فِيهِ ، فَالمُرابي في الغَالِبِ وَإِنْ كَثُرَ مالُهُ فَإِنَّ عاقِبَتَهُ تَكونُ الفَقْرَ ، وَإِنْ لَمْ يَنْقُصْ مالُهُ ، فَهُوَ مَذْمومٌ في الدُّنْيا ، يَنْقُصُ قَدْرُهُ ، وَتَزولُ أَمانَتُهُ ، وَيَلْعَنُهُ الفُقَراءُ وَيَبْغَضونَهُ بِسَبَبِ أَخْذِهِ لِلْمالِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، هَذا في الدُّنْيا ، أَمَّا في الآخِرَةِ فَلا يُقْبَلُ مِنْهُ صَدَقَةٌ ولا جِهادٌ ولا صِلَةُ رَحِمٍ .

أَمَّا الصَّدَقَةُ فَإِنَّ اللهَ تَعالى يُضاعِفُ ثَوابَ المُتَصدِّقِ ، وَيَزيدُ مالَهُ وَيُباركُ لَهُ فيهِ ، عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، وَلا يَقْبَلُ اللهُ إِلاَّ طَيِّباً ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُها بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يُرْبيها لِصاحِبِها ، كَما يُرْبي أَحَدُكُمْ فِلْوَهُ حَتَّى تَكونَ مِثْلَ الجَبَلِ »[1] .

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ الكَافِرِ المُتَمادي في كُفْرِهِ ، فَهُوَ يَكْفُرُ بِما أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ المَالِ ، وَلا يُنْفِقُ مِنهُ في سَبيلِ اللهِ ، وَلا يُواسي الفُقَراءَ وَالمُحْتاجينَ ، بَلْ تَراهُ يَتَمادى في ارْتِكابِ الآثامِ ، وَاسْتِغْلالِ حاجَةِ النَّاسِ وَفَقْرِهِمْ ، فَيَمْتَصُّ دِماءَهُمْ وَيَأْخُذُ قُوتَهُمْ ، فَهَلْ مِنْ إِثْمٍ أَشَدُّ مِنْ هَذا الإِثْمِ! فَمَنْ كانَ هَذا حالُهُ فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّهُ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أَكْلُ الرِّبا يُؤَدِّي إلى تَخَبُّطِ آكِليهِ ، سواءٌ أَكانوا أَفْراداً أَمْ شُعوباً ، وَإِلى عَدَمِ شُعورِهِمْ بِالرَّاحَةِ وَالطُّمأْنينَةِ .

---

(١) أخرجه البخاري/ كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٣٤٤ .

٢ـ البَيْعُ هُوَ التَّعامُلُ الصَّحيحُ الَّذي يَعودُ بِالنَّفْعِ عَلى البائِعِ وَالمُشْتَري ، وَلِذا أَحَلَّهُ اللهُ ، أَمّا الرِّبا فَقَدْ حَرَّمَهُ اللهُ تَعالى لِمَضارِّهِ الكَثيرَةِ .

٣ـ الرِّبا يَمْحَقُ المالَ ، وَيَصِلُ بِصاحِبِهِ إِلى الهَمِّ والحُزْنِ والحُبِّ الشَّديدِ لِلمالِ وَمَقْتِ النّاسِ لَهُ .

٤ـ سُنَّةُ اللهِ تَعالى أَنْ يُبارِكَ لِلْمُتَصَدِّقِ ، فَيَكونُ انْتِفاعُهُ بِمالِ الصَّدَقَةِ أَكْبَرُ مِنْ مالِهِ نَفْسِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ تَحَدَّثَتْ آياتُ الدَّرْسِ عَنِ الرِّبا . اعْقِدْ مُقارَنَةً بَيْنَ النَّفَقَةِ والرِّبا .

٢ـ ما الحِكْمَةُ مِنْ تَحْريمِ الرِّبا ؟

٣ـ وَضِّحِ المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى ﴿لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلمَسِّ﴾ ، وَمَتى يَكونُ هَذا ؟

٤ـ لِمَ حَلَّ بِهِمْ هَذا العَذابُ ؟

٥ـ كَيْفَ رَدَّ اللهُ عَلى مَنْ يَقولُ ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ ؟

٦ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ تَعالى : ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ ؟

٧ـ لِمَ كانَتْ عاقِبَةُ آكِلِ الرِّبا الخُلودُ في نارِ جَهَنَّمَ ؟

٨ـ كَيْفَ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبي الصَّدَقاتِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكتُبْ في دفترِكَ ضَرَرَيْنِ مِنْ أَضْرارِ الرِّبا يَعودانِ عَلى المُجْتَمَعِ .

* * *

الدرس الثاني والأربعون

سورة البقرة ـ القسم الثامن والثمانون

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

معاني المفردات

ذَروا : اترُكوا .

تَظْلِمونَ : تُوقِعونَ الظُّلْمَ بِغُرَمائِكُمْ بِأَخْذِ زيادةٍ .

تُظْلَمونَ : بِنَقْصِ شَيءٍ مِنْ رأسِ المالِ فلا يُرَدُّ لَكُمْ كامِلاً .

نَظِرَةٌ : الانْتِظارُ والإمْهالُ .

مَيْسَرَةٍ : يسارٍ وسَعَةٍ .



لَقَدْ ذَكَرَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ أَنَّ اللهَ تَعالى لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثيمٍ ، أُولَئِكَ الَّذينَ يَأْكُلونَ الرِّبا ، أَمَّا الفَريقُ الآخَرُ ، وَهُمُ المُؤْمِنونَ ، فَتَتَحَدَّثُ عَنْهُمُ الآيَةُ هُنا ، يَقولُ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ .

إِنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ صَدَّقوا بما جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى فَأْتَمَروا بِأَمْرِهِ ، وَانْتَهوْا عَمَّا نَهى عَنْهُ ، وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ الَّتي تَصْلُحُ بِها نُفوسُهُمْ ، وَمِنْ ذلِكَ مُواساةُ المُحْتاجينَ ، وَالرَّحْمَةُ بالبائِسينَ ، وَالابْتِعادُ عَنِ الرِّبا وَالمُرابينَ ، وَأَدَّوْا صلاتَهُمْ كَما يَنْبَغي بِخُشوعٍ وَاطْمِئنانٍ بِحَيْثُ تُؤْتي ثِمارَها ، وَهِيَ النَّهْيُ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ ، وَآتَوْا زَكاةَ أَمْوالِهِمُ الَّتي افْتَرَضَها اللهُ عَلَيْهِمْ ، بِأَنْ أَعْطوها لِمُسْتَحِقِّيها ، هَذِهِ الزَّكاةُ الَّتي تُطَهِّرُ نُفوسَهُمْ مِنْ رَذيلَةِ البُخْلِ ، أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ .

لَقَدْ خَصَّ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى هاتَيْنِ العِبادَتَيْنِ ؛ الصَّلاةَ والزَّكاةَ بالذِّكْرِ ، مَعَ أَنَّهُما مِنْ جُمْلَةِ الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ ، لأَنَّهُما أَعْظَمُ رُكْنَيْنِ ، وَهُما إِذا صَلَحا صَلَحَ عَمَلُ الإِنْسانِ كُلُّهِ ، فَمَنْ أَدَّى صَلاتَهُ ، فَقَدِ اسْتَقامَ أَمْرُهُ ، وَمَنْ أَدَّى زَكاةَ مالِهِ ، فَقَدْ طَهَّرَ نَفْسَهُ .

إِنَّ العُنْصُرَ الأَساسِيَّ الَّذي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ الآيَةُ إِيتاءُ الزَّكاةِ الَّذي هُوَ مُرْتَبِطٌ بِإِقامَةِ الصَّلاةِ ، عُنْصُرُ الزَّكاةِ الَّذي هُوَ البَذْلُ بلا عِوَضٍ وَبِدونِ مُقابِلٍ ، فَالسِّياقُ يَعْرِضُ صِفَةَ المُؤْمِنينَ ، وَما عَلَيْهِ المُجْتَمَعُ المُؤْمِنُ ، ثُمَّ يَعْرِضُ صُورَةَ الأَمْنِ وَالطُّمَأْنينَةِ ، وَالرِّضى الإِلهِيِّ المُسبَغِ عَلى هَذا المُجْتَمَعِ المُؤْمِنِ ، فَإِذا عَمِلَتِ الأُمَّةُ صالِحاً ، فَأَقامَتْ صَلاتَها ، وَانْتَهَتْ عَنِ الفَحْشاءِ وَالمُنْكَرِ ، وَأَدَّى كلُّ فَرْدٍ زَكاةَ مالِهِ ، فَأُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَثوابُهُمْ الكامِلُ عِنْدَ خالِقِهِمْ سُبْحانَهُ ، وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلا هُمْ يَحْزَنونَ ، أَمَّا المُجْتَمَعُ الرِّبَويُّ فَقَدْ تَوَعَّدَهُ سُبْحانَهُ بِالمَحْقِ وَالضَّلالِ ، وَبِالقَلَقِ وَالخَوْفِ ، وَما نَعيشُهُ اليَوْمَ هُوَ أَكْبَرُ دَليلٍ عَلى ما جاءَ في الآيَةِ الكَريمَةِ وَصِدْقِ اللهِ .

هَكَذا يَنْبَغي أَنْ تَكونَ حَياةُ المُجْتَمَعِ الإِسْلامِيِّ ، قائِمَةً عَلى الإيمانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ وَالعِبادَةِ وَالزَّكاةِ . وَهُنا يَأْمُرُ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ أَمْراً قاطِعاً لا هَوادَةَ فيهِ بِتَرْكِ الرِّبا وَالتَّعامُلِ فِيهِ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ .

إِنَّهُمْ لَيْسوا بِمُؤْمِنينَ إِلاَّ إِذا اتَّقوا اللهَ تَعالى ، وَتَرَكوا التَّعامُلَ بِالرِّبا ، إِذ لا إيمانَ بلا طاعَةٍ لِلْخالِقِ سُبْحانَهُ وَتَعالى ، وَإِنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى بِهِمْ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِتَرْكِ ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا ، أَيْ ما بَقِيَ مِنْ ذِمَمِ الَّذينَ عَامَلوهُمْ بِالرِّبا ، وَلا يَأْخُذوا مِنْهُمْ إِلا رُؤوسَ أَمْوالِهِمْ فَحَسْبُ ، أَمَّا ما سَلَفَ ، وَما كانوا يَأْخُذونَهُ مِنْ زِيادَةٍ مِنْ قَبْلُ ، فَلَمْ يُقَرِّرِ القُرْآنُ اسْتِرْدادَهُ مِنْهُم ، وَلَمْ يُقَرِّرْ مُصادَرَةَ أَموالِ المُسْلِمينَ أَوْ جُزْءٍ مِنْها ، إِنَّ الزِّيادَةَ الَّتي أَخَذتُموها مِنْ قَبْلُ يُوكَلُ أَمْرُها إِلى اللهِ تَعالى ، وفي هَذا كُلِّهِ تَرْغيبٌ لَهُمْ بِالْتِزامِ ما أَمَرَ اللهُ تَعالى بِهِ .

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ .

إنَّ الإيذانَ بالحَرْبِ مِنَ اللهِ وَرَسولِه أَعَمُّ مِنَ القِتالِ بالأدواتِ الحَرْبِيَّةِ ، وَلَكِنَّ الحَرْبَ المُعْلَنَةُ هِيَ حَرْبٌ عَلى الأَعْصابِ وَالقُلوبِ ، وَعَلى البَرَكَةِ في الأَمْوالِ وَالرَّخاءِ في العَيْشِ ، حَرْبٌ عَلى السَّعادَةِ وَالطُّمَأْنينَةِ ، حَرْبٌ يُسَلِّطُ اللهُ فيها العُصاةَ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ ، حَرْبُ القَلَقِ وَالخَوْفِ ، وَهِيَ الحَرْبُ السّاحِقَةُ الماحِقَةُ الَّتي تَقومُ وتَنْشأُ مِنْ جَرّاءِ تَعامُلِ المُجْتَمَعاتِ بالطُّرُقِ الرِّبَوِيَّةِ ، وَقَدْ ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ ما صارَ يُعانيهِ النّاسُ مِنْ خَرابِ نُفوسِهِمْ ، وَانْهِيارِ أَخْلاقِهِمْ ، وانْطِلاقِهِمْ وَراءَ شَهَواتِهِمْ إِلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمورٍ .

وَتَدْعو الآيَةُ النّاسَ إِلى التَّوْبَةِ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ وَخَطيئَةٍ قَدْ وَقَعوا بِها .

﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ إِنَّكُمْ إِنْ رَجَعْتُمْ عَنِ الرِّبا وَخَضَعْتُمْ لأَمْرِ اللهِ تَعالى ، فَلَكُمْ رُؤوسُ أَمْوالِكُمْ ، أَيْ : ما أَقْرَضْتُموهُ لِلنّاسِ لا تَأْخُذونَ شَيْئاً زائِداً عَلَيْهِ ، ولا تُنْقِصونَ مِنْها شَيْئاً ، بَلْ تَأْخُذونَ أَمْوالَكُمْ كامِلَةً بِلا زِيادَةٍ أَوْ نُقْصانٍ .

وَتُكْمِلُ الآياتُ الأَحْكامَ المُتَعَلِّقَةَ بِالدّائِنِ والمَدينِ ، وَفيها عِلاجٌ لآفَةِ الرِّبا ، وَالتَّيْسيرِ عَلى المُسْلِمينَ ، قالَ اللهُ تَعالى :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ .

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ أَي : إِنْ وُجِدَ مَدينٌ مُعْسِرٌ مِمَّنْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ دَيْنٌ فَأَنْظِروهُ وَأَمْهِلوهُ إِلى حينِ اليَسارِ ، حَتّى يَتَمَكَّنَ مِنْ أَداءِ الدَّيْنِ الَّذي عَلَيْهِ ، وَلا تَكونوا مِثْلَ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ ، حَيْثُ كانَ أَحَدُهُمْ إِذا كانَ لَهُ دَيْنٌ عَلى شَخْصٍ وَحَلَّ مَوْعِدُ الدَّيْنِ طالَبَهُ بِشِدَّةٍ وَقالَ لَهُ : (إِمّا أَنْ تَقْضِيَ وَإِمّا أَنْ تربي) أَي : تَدْفَعَ زِيادَةً عَلى أَصْلِ الدَّيْنِ .

﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لَقَدْ حَبَّبَ اللهُ تَعالى إِلى عِبادِهِ الصَّدَقَةَ بِبَعْضِ المالِ أَوْ كُلِّهِ ، الَّذي لِلدّائِنِ عَلى المَدينِ المُعْسِرِ ، فَإِنْ تَتْرُكوا لِلمُعْسِرِ كُلَّ مالِكُمْ أَوْ بَعْضَهُ وَتُبْرِئوهُ مِنْهُ ، فَهذا خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْظارِكُمْ وإِمْهالِكُمْ لَهُ ، وَأَكْثَرُ ثَواباً عِنْدَ اللهِ تَعالى .

﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إِنْ تَعْلَموا أَنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ فاعْمَلوا بِهِ ، وَسامِحوا إِخْوانَكُمْ بِما لَكُمْ عَلَيْهِمْ .
عَنْ أَبي قَتادَةَ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « مَنْ نَفَّسَ عَنْ غَريمِهِ أَوْ مَحا عَنْهُ كانَ في ذَلِكَ ظِلِّ العَرْشِ يَوْمَ القِيامَةِ »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٥١٦) ، والدارمي (٢٥٩٢) .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ .

لَقَدْ نَفَّرَتِ الآياتُ تَنْفيراً شَديداً مِنَ الرِّبا ، وَتَوَعَّدَتْ مَنْ يَتَعامَلُ بِهِ بِأَشَدِ العُقوباتِ ، وَشَبَّهَتْهُمْ بِتَشْبيهاتٍ تَشْمَئِزُّ مِنْها القُلوبُ ، وَتُخْتَمُ الآياتُ المُتَحَدِّثَةُ عَنِ الرِّبا بِتِلْكَ المَوْعِظَةِ البالِغَةِ ، وَاتَّقوا يَوْماً تُرْجَعونَ فِيهِ إِلى اللهِ ، أَيْ : احْذَروا ذَلِكَ اليَوْمَ العَظيمَ الَّذي تُرْجَعونَ فِيهِ إِلى رَبِّكُمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى وَحْدَهُ ، فَيُحاسِبُكُمْ عَلى أَعْمالِكُمْ ويُجازيكُمْ عَلَيْها إِنْ خَيْراً فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَراً فَشَرٌّ ، وَهُمْ لا يُظْلَمونَ ، أَيْ : لا يُنْقَصونَ مِنْ ثوابِهِمْ وَلا يَزْدادونَ عَلى عِقابِهِمْ .

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما ـ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَ بِها جِبْريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَعاشَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَها واحِداً وَعِشْرينَ يَوْماً .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُؤْمِنونَ الَّذينَ يَعْمَلونَ الصَّالِحاتِ ، وَيُقيمونَ الصَّلاةَ ، ويُؤْتونَ الزَّكاةَ ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَكونوا مِنْ آكِلي الرِّبا .

٢ـ اسْتِرْدادُ رَأْسِ المالِ مِنَ المَدينِ بِلا زِيادَةٍ وَلانُقْصانٍ ، عَدَالَةٌ لا يُظْلَمُ فِيها دائِنٌ وَلا مَدينٌ .

٣ـ تَنْمِيَةُ المالِ لَها وَسائِلُها الكَثيرَةُ الطَّاهِرَةُ الحَلالُ غَيْرُ الرِّبا .

٤ـ وُجوبُ انْتِظارِ المُعْسِرِ إِلى حينِ اليَسارِ ، وَالأَفْضَلُ التَّصدُّقُ ، وَإِبْراءُ المَدينِ مِنَ الدَّيْنِ لِما فيهِ مِنْ التَّعاطُفِ وَالتَّراحُمِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ذَكَرَتِ الآياتُ صِفاتٍ لِعِبادِ اللهِ تَعالى الَّذينَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً عَظيماً . ما تِلْكَ الصِّفاتُ ؟

٢ـ لِمَ خَصَّ اللهُ العِبادَتَيْنَ : الصَّلاةَ والزَّكاةَ بِالذِّكْرِ ؟

٣ـ مَتى يَتَّصِفُ الإِنْسانُ بالتَّقْوى ؟

٤ـ ما المَقْصودُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ ؟

٥ـ عَلى مَنْ تَكونُ حَرْبُ اللهِ وَحَرْبُ رَسولِهِ ﷺ ؟ وَكَيْفَ تَكونُ هَذهِ الحَرْبُ ؟

٦ـ عَمَّن تَتَحدَّثُ الآياتُ ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾

٧ـ ما الَّذي حَثَّتْ عَلَيْهِ الآيَةُ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾



١ـ اكْتُبْ في دفترِك خَمْسَةً مِنْ وَسائِلِ الكَسْبِ المَشْروعِ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما يُقابِلُ التَّعامُلَ الواردَ في الآيةِ : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ في زَمانِنا هَذا .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أَوَّلَ آيَةٍ نَزَلَتْ ، والمُدَّةَ الَّتي بَيْنَها وَبَيْنَ آخِرِ آيَةٍ نُزولاً .

٤ـ لِلرِّبا أَقْسامٌ ، اذْكُرْ هَذهِ الأَقْسامَ مُعَرِّفاً بِها مُسْتَعيناً بِأَحَدِ كُتُبِ الفِقْهِ .

* * *

الدَّرسُ الثَّالِثُ والأَرْبَعونَ

سورةُ البَقَرةِ ـ القِسْمُ التَّاسِعُ والثَّمانونَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

معاني المفردات :

أَجَلٍ مُسَمّى : مَوْعِدٍ مُحَدَّدٍ باليَوْمِ والشَّهْرِ والسَّنَةِ .

لا يَأْبَ : لا يَمْتَنِعْ .

ولْيُمْلِلْ : لِيُلْقِ على الكاتِبِ ما يَكْتُبُهُ .

يَبْخَسْ : يُنْقِصْ .

سَفيهاً : ضَعيفَ الرَّأْيِ لا يُحسِنُ التَّصرُّفَ في المالِ .

أنْ تَضِلَّ : تُخْطِىءَ لِعَدَمِ ضَبْطِها .

تَسْأَموا : تَمَلّوا وَتَضْجَروا .

أَقْسَطُ : أَعْدَلُ .

جُناحٌ : إِثْمٌ وَذَنْبٌ .

يُضارَّ : يَفْعَلُ الضَّرَرَ بالمُتَعامِلينَ .

التَّفْسيرُ :

لَقَدْ حَثَّتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَلى الصَّدَقاتِ وَالإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ ، وَحَذَّرَتْ مِنَ الرِّبا ، وَتَتَحَدَّثُ الآياتُ هُنا عَمَّا يَحْفَظُ الدَّيْنَ ، وَذَلِكَ بِكِتابَتِهِ وَالإشْهادِ عَلَيْهِ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ .

يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا إِذا تَعامَلْتُمْ فِيما بَيْنَكُمْ بِالدَّيْنِ ، وَدايَنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، إِلى وَقْتٍ مَعْلوم ، مُحَدَّدٍ فاكْتبوا هَذا الدَّيْنَ ، لأَنَّ في الكِتابَةِ حِفاظاً لَهُ ، وَضَبْطاً لِمِقْدارِهِ ، وَمَنْعاً لِلتَّنازُعِ الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِيما بَيْنَكُمْ . وَقَدْ قالَ سُبْحانَهُ ﴿ بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لِيَعْلَمَ أَنَّ مِنْ حَقِّ هَذا الأَجَلِ أَنْ يَكونَ مَعْلوماً بِالسَّنَةِ وَالشَّهْرِ وَاليَوْمِ .

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى بِكِتابَةِ الدَّيْنِ وَلَكِنْ هَلِ الأَمْرُ ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ لِلنَّدْبِ أَوِ الوُجوبِ ؟ يَذْكُرُ جُمْهورُ العُلَماءِ أَنَّ الأَمْرَ هُنا لِلنَّدْبِ وَلَيْسَ لِلوجوبِ ، لِقَوْلِهِ تَعالى فِيما بَعْدُ :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ فَلَمْ يُوجِبِ الكِتابَةَ ، وَلأَنَّ الرَّسولَ ﷺ لَمْ يُلْزِمِ الدَّائِنينَ بِكِتابَةِ دُيونِهِمْ .

وَأَمَرَ اللهُ أَنْ يَكونَ الكاتِبُ الَّذي يَكْتُبُ لَكُمُ الدُّيونَ شَخْصاً يَعْرِفُ الكِتابَةَ وَعِنْدَهُ فِقْهٌ وَعِلْمٌ ، فَيَعْرِفُ شُروطَ العُقودِ وَكَيْفِيَّةَ تَوْثيقِها . وَلا يَنْبَغي لِمَنْ كانَ قادِراً عَلى الكِتابَةِ الامْتِناعُ عَنْها ، بِالطَّريقَةِ الَّتي عَلَّمَهُ إِيّاها اللهُ سُبْحانَهُ ، فَلا بُدَّ وأَنْ يَكونَ الكاتِبُ عَلى عِلْمٍ بِالأَحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ وَالفِقْهِ ، فَكَما عَلَّمَ اللهُ تَعالى هَذا الكاتِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْفَعَ غَيْرَهُ بِها .

وَبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَتِ الآيَةُ عَمَّنْ يَكْتُبُ وَعَمَّا يُشْتَرَطُ فيهِ ، تَحَدَّثَتْ عَمَّنْ يَتَوَلى الإمْلاءَ لِلْكِتابَةِ ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : عَلى المَدينِ الَّذي اسْتَدانَ المالَ ، والَّذي الْتَزَمَ بِأَدائِهِ أَنْ يُمْليَ عَلى الكاتِبِ هَذا الدَّيْنَ ، وَيُقِرَّ بِالحَقِّ الَّذي عَلَيْهِ ، وَالَّذي يَجِبُ عَلَيْهِ الوَفاءُ بِهِ ، مُراقِباً اللهَ تَعالى في ذَلِكَ ، فَلا يَزيدُ وَلا يُنْقِصُ مِنَ الدَّيْنِ الَّذي عَلَيْهِ .

الكِتابَةُ ـ إِذَنْ ـ لا بُدَّ وأَنْ تَكونَ بِإِمْلاءٍ مِنَ المَدينِ وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْهِ :

١ ـ أَنْ يَضَعَ تَقْوى اللهِ نُصْبَ عَيْنَيْهِ فلا يُجْحِفُ في حَقِّ الدَّائِنِ .

٢ـ عَدَمُ الإنْقاصِ مِنَ الدَّيْنِ الَّذي عَلَيْهِ .

أَمَّا إذا كانَ المَدينُ لا يَسْتَطيعُ الكِتابَةَ وَذَلِكَ لِكَوْنِهِ ﴿سَفيهاً﴾ جاهِلاً بالإمْلاءِ أَوْ ناقِصَ العَقْلِ ، أَوْ لِكَوْنِهِ ﴿ضَعِيفاً﴾ صَبيّاً صَغيراً أَوْ شَيْخاً تَقَدَّمَتْ بِهِ الشَّيْخوخَةُ ، أَوْ لِكَوْنِهِ ﴿لاَيَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ بِأَنْ يَكونَ أَخْرَسَ أَوْ لا خِبْرَةَ لَهُ بِإمْلاءِ مِثْلِ هَذِهِ الأُمور ، فَلْيَفْعَلْ ذَلِكَ عَنْهُ وَلِيُّ أَمْرِهِ ، أَوْ مَنْ يَهُمُّهُ شَأْنُهُ ، وَلا يَرْضى لَهُ أَنْ يُضَيِّعَ حَقَّهُ ، عَلى أَنْ يَتَحرّى النَّزاهَةَ والعَدْلَ في إمْلائِهِ .

وَانْتَقَلَتِ الآيَةُ لِلْحَديثِ عَنِ الإشْهادِ عَلى هَذا الدَّيْنِ ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ أَيْ : اطْلُبوا أَنْ يَشْهَدَ عَلى المُدايَنَةِ رَجُلانِ مِنَ المُؤْمِنينَ عَدْلانِ ، لِيَشْهَدا عَلى ما يَجْري بَيْنَكُمْ مِنْ مُعامَلاتٍ مُؤَجَّلَةٍ ، فَإِنَّ الإشْهادَ يَزيدُ مِنْ تَوْثيقِ المُعامَلاتِ .

أَمَّا إذا لَمْ يُوجَدْ رَجُلانِ ، فَيُمْكِنُ أَنْ يَشْهَدَ رَجُلٌ وامْرَأَتانِ ، مِمَّنْ تَرْضَوْنَ دينَهُمْ وَعدالَتَهُمْ مِنَ الشُّهَداءِ ، وَقَدْ قَالَ سُبْحانَهُ ﴿تَرْضَوْنَ﴾ أَيْ : لا بُدَّ مِنْ رِضى المُسْتَشْهِدينَ (الدَّائِنُ والمَدينُ) ؛ وَقَدْ بَيَّنَ العِلَّةَ في كَوْنِ المَرْأَتَيْنِ تَقومانِ مَقامَ رَجُلٍ واحِدٍ ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ أَيْ خَشْيَةَ أَنْ تَنْسى إحْداهُما ، فَتُذَكِّرَ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهُما الأُخْرى ، فَالمَرْأَةُ لِقُوَّةِ عَواطِفِها ، وَشِدَّةِ انْفِعالِها ، قَدْ تَتَوَهَّمُ ما لَمْ تَرَهُ ، وَهِيَ كَذَلِكَ لا تَشْتَغِلُ عادَةً بِالمُعامَلاتِ المَالِيَّةِ ، فَتكون ذاكِرَتُها ضَعيفَةً فيها .

﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾ لا يَنْبَغي لِلْشُّهودِ أَنْ يَمْتَنِعوا عَنِ الشَّهادَةِ ، حَتَّى يُؤَدّوها فِيما بَعْدُ عِنْدَ الحاجَةِ إِلَيْها .

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ لا تَمَلّوا وَلا تَتَقاعَسوا عَنْ كِتابَةِ الدَّيْنِ ، سَواءٌ أَكانَ قَليلاً أَمْ كَثيراً إِلى الوَقْتِ المُحَدَّدِ لَهُ ، فَإِنَّ كِتابَةَ الدَّيْنِ أَدْعى إِلى حِفْظِ الحُقوقِ ، وَعَدَمِ التَّنازُعِ ، والتَّهاوُنُ في الدَّيْنِ الصَّغيرِ قَدْ يُؤَدِّي إِلى التَّهاوُنِ في الدَّيْنِ الكَبيرِ .

وَتُبَيِّنُ الآياتُ فَوائِدَ ثَلاثاً تَعودُ عَلى المُؤْمِنينَ إذا امْتَثَلوا أَوامِرَ اللهِ تَعالى :

الأَوَّلُ : ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ذَلِكُمْ الَّذي أَمَرَكُمْ اللهُ بِهِ مِنْ كِتابَةٍ وَإِشْهادٍ ، وَتَحَرّي العَدْلَ ، أَعْدَلُ في شَرْعِ اللهِ تَعالى ، فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَهُوَ الأَعْلَمُ بِما يَصْلُحُ لَكُمْ .

الثَّانِي : ﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ ﴾ أَي : أَبْلَغُ في الاسْتِقامَةِ ، وَأَعْوَنُ عَلى إقامَةِ الشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها الصَّحيح .

الثَّالِثَةُ : ﴿ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾ أَقْرَبُ إِلى نَفْيِ الرّيبَةِ والشَّكِ في جِنْسِ الدَّيْنِ وَقَدْرِهِ وَأَجَلِهِ .

فَإِذا تَوافَرَتْ هَذِهِ الأُمورُ الثَّلاثَةُ سادَ الوِفاقُ بَيْنَكُمْ وَالتَّعاوُنُ ، وَزالَ النِّزاعُ ، والَّذي يُؤَدّي تَوَفُّرُها إِلى تَوْثيقِ الدَّيْنِ وَالكِتابَةِ وَالإِشْهادِ كَما ذَكَرَ اللهُ تَعالى .

وَانتَقَلَتِ الآياتُ لِتَتَحدَّثَ عَنِ الكِتابَةِ بَيْنَ التُّجارِ ، وَالتِّجارَةُ الحاضِرَةُ الَّتي تَدورُ بَيْنَ التُّجارِ هِيَ الَّتي يَجْري فيها التَّفاوُضُ أَوْ الَّتي يُؤَخَرُّ فيها الأداءُ زَمَناً يَسيراً ، فَهَذِهِ التِّجارَةُ الحاضِرَةُ أَباحَ اللهُ تَعالى عَدَمَ كِتابَتِها ، لأَنَّ التُّجارَ يَتعامَلونَ فيما بَيْنَهُمْ دائِماً بَيْعاً وَشِراءً ، فَلَوْ كَلَّفَهُمْ اللهُ سُبْحانَهُ بِالكِتابَةِ لَشَقَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، فَهَذِهِ لا إِثْمَ عَلَيْكُمْ وَلا حَرَجَ لِعَدَمِ كِتابَتِها .

﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ أَشْهِدوا في التَّبايُعِ في التِّجارَةِ الحاضِرَةِ ، إِذ قَدْ يَحْصُلُ تَنازُعٌ وَخِلافٌ بَيْنَكُمْ في بَعْضِ العُقودِ ، وَهَذا الأَمْرُ بِالإِشْهادِ لِلإِرْشادِ وَالتَّعليمِ وَلَيْسَ لِلوُجوبِ .

﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ وَلِتَشْجيعِ المُسْلِمينَ عَلى الكِتابَةِ وَالشَّهادَةِ أَمَرَ اللهُ تَعالى صاحِبَ الحَقِّ بِعَدَمِ إِلْحاقِ الضَّرَرِ بِالكاتِبِ وَالشّاهِدِ ، وَنَهى الدّائِنَ وَالمَدينَ عَنْ أَنْ يُنْزِلَ أَحَدُهُما ضَرَراً بِالكاتِبِ أَوْ الشّاهِدِ فَيُجْبِرُهُما عَلى كِتابَةِ غَيْرِ الحَقِّ أَو قَوْلِ غَيْرِ الحَقِّ ،

﴿ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ﴾ أَي : إِنْ فَعَلْتُمْ ما نُهيتُمْ عَنْهُ وَخالَفْتُمْ أَوامِرَ اللهِ تَعالى ، فَإِنَّكُمْ بِذَلِكَ قَدْ خَرَجْتُمْ عَنْ حُدودِ اللهِ تَعالى الَّتي حَدَّها لَكُمْ وَخَرَجْتُمْ مِنْ طاعَتِهِ سُبْحانَهُ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ اتَّقوا اللهَ في كُلِّ ما أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا يُعَلِّمُكُمْ إِلاّ ما فيهِ صَلاحُكُمْ ، في الدُّنيا وَالآخِرَةِ ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَحْفَظُ أَمْوالَكُمْ ، وَما يُقَوِّي الرّابِطَةَ بَيْنَكُمْ ، وَلَوْلا هِدايَتُهُ سُبْحانَهُ فَإِنَّكُمْ لا تَعْلَمونَ شَيْئاً .

دُروسٌ وَعِبَرٌ

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إِلى دُروسٍ وَعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ العامِلُ الَّذي يُدْعى إِلى القِيامِ بِعَمَلٍ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُلبّي الدَّعْوَةَ ، وَلا يَمْتَنِعَ عَنْها .

٢ـ إِرْشادُ المُسْلِمِ إِلى ضَبْطِ مالِهِ وَ إِحْصائِهِ ، لِما يَرِدُ عَلَيْهِ وَيَصْدُرُ عَنْهُ .

٣ـ تَقْوى اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى يَنْبَغي أَنْ تَحْكُمَ تَصَرُّفَ الدّائِنِ وَالمَدينِ وَالكاتِبِ وَالشّاهِدِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّالِيةِ :

١ـ بيِّنْ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكِيبِ التّالِيَةِ :

تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ ، أَجَلٍ مُسَمّى ، سَفيهاً ، أَقْسَطُ ، تَسْأَموا .

٢ـ هَلْ الأَمْرُ في قَوْلِهِ ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ لِلنَّدْبِ أَوِ الوُجوبِ ؟ وَضِّحْ ذَلِكَ .

٣ـ ما الشُّروطُ الَّتي يَنْبَغي أَنْ تَتَوافَرَ في كاتِبِ الدَّيْنِ ؟

٤ـ مَنِ الَّذي يُمْلي عَلى كاتِبِ الدَّيْنِ ؟

٥ـ لِماذا كانَ المَدينُ هُوَ الَّذي يُمْلي وَلَيْسَ الدَّائِنُ ؟ وَما الَّذي يَجِبُ عَلَيْهِ ؟

٦ـ مَتَى يُمْلي وَلِيُّ المَدينَ عِوَضاً عَنِ المَدينِ ؟

٧ـ يُشْتَرَطُ في شُهودِ الدَّيْنِ أَنْ يَكونوا رَجُلَيْنِ عَدْلَيْنِ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ رَجُلانِ فَما المَطْلوبُ ؟

٨ـ ما مَعْنى ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ﴾ ؟

٩ـ ما الفوائِدُ الَّتي تَعودُ عَلى المُؤْمِنينَ إِذا امْتَثَلوا أَمْرَ اللهِ تَعالى في تَوْثيقِ الدَّيْنِ ؟

١٠ـ ما التِّجارَةُ الحاضِرَةُ ؟ وَلِمَ لَمْ يُشْتَرَطْ فيها كِتابَةُ الدَّيْنِ ؟

١١ـ نَهَتِ الآيَةُ عَنِ المُضارَّةِ ، مَنِ المَقْصودُ بِالنَّهْي ؟

نَشاطٌ :

ـ لِماذا أَمَرَ اللهُ تَعالى المَدينَ بِأَنْ يُمْلِيَ عَلى الكاتِبِ وَلَيْسَ الدَّائِنَ ؟ حاوِلِ اسْتِنْتاجَ السَّبَبِ مِنْ ذَلِكَ .

فائِدَةٌ :

ـ آيَةُ الدَّيْنِ أَطْوَلُ آيَةٍ في كِتابِ اللهِ تَعالى .

* * *

الدَّرْسُ الرَّابِعُ والأَرْبَعونَ

سورَةُ البَقَرَةِ ـ القِسْمُ التِّسْعونَ

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

رِهانٌ : الرِّهانُ : تَوْثيقُ الدَّيْنِ بِوَضْعِ شَيءٍ مِنْ مالِ المَدينِ عِنْدَ الدَّائِنِ سَدادَ الدَّيْنِ .

أَمِنَ : وَثِقَ .

آثِمٌ قَلْبُهُ : مُتَحَمِّلٌ ذَنْباً شَديداً .

التَّفْسيرُ :

تَحَدَّثَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ عَنِ الدَّيْنِ وَتَوْثيقِهِ بِكِتابَتِهِ وَالإِشْهادِ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ قَدْ لا تَتَيَسَّرُ الكِتابَةُ أَوِ الإِشْهادُ وَبِخاصَّةٍ في السَّفَرِ ، فَيَقولُ اللهُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) ﴾ .

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا ﴾ إِنْ كُنْتُمْ مُسافِرينَ وَتَدايَنْتُمْ دَيْناً إِلى أَجَلٍ مُسَمَّى ، وَلَمْ

تَجدوا كاتِباً يَكْتُبُ لَكُمْ دُيونَكُمْ ، فَفِي هَذِهِ الحالَةِ يُمْكِنُ أَنْ تُعْطوا الدَّائِنَ رَهْناً يَكونُ في يَدِهِ ، تَوْثيقاً لِدَيْنِهِ ، وَذَلِكَ كَأَنْ يَسْتَدينَ أَحْمَدُ مِنْ مُحَمَّدٍ مِائَةَ دينار وَيَقولُ لَهُ خُذْ ساعَتي هَذِهِ وَاحْتَفِظْ بِها عِنْدَكَ تَوْثيقاً لِلدَّيْنِ ، فَإذا لَمْ أَسْتَطِعْ سَدادَ دَيْني ، يُمْكِنُكَ بَيْعُ السَّاعَةِ وَأَخْذُ مالِكَ .

وَلَيْسَ المَقْصودُ مِنَ الآيَةِ تَعْليقُ مَشْروعِيَّةِ الرَّهْنِ بِالسَّفَرِ ، وَعَدَم وجودِ كاتِبٍ يَكْتُبُ وَثيقَةَ الدَّيْنِ ، وَلَكِنَّ المُرادَ بَيانُ الرُّخْصَةِ في تَرْكِ الكِتابَةِ لِعُذْرٍ ، وَأَنَّ الرُّخْصَةَ تَقومُ مَقامَ الكِتابَةِ في الاسْتِيْثاقِ عِنْدَ عَدَم تَيَسُّرِها في حالِ السَّفَرِ ، فَالرَّهْنُ جائِزٌ في حالِ السَّفَرِ وَحالِ الحَضَرِ .

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ إِنِ اتُّفِقَ أَنَّ أَحداً مِنْكُمُ ائتَمَنَ الآخَرَ عَلى شَيءٍ فَعَلى المُؤْتَمِنِ أَنْ يُؤَدِّيَ الأَمانَةَ إِلى مَنْ ائْتَمَنَهُ ، وَلِيَكُنِ المَدينُ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ الدَّائِنِ فَلا يَخونُ الأَمانَةَ ، ولا يُسوِّفُ وَيُماطِلُ في تَأْدِيَتِها ، وَلِيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ، وَذَلِكَ بِرِعايَةِ حُقوقِ غَيْرِهِ ، فلا يَجْحَدُها وَلا يَتَأَخَّرُ في أَدائِها .

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ ﴾ أَكَّدَ سُبْحانَهُ عَلى قَضِيَّةِ الشَّهادَةِ فَهُوَ هُنا يَنْهى عَنْ كِتْمانِها ، بَعْدَ أَنْ نَهى مِنْ قَبْلُ عَنْ رَفْضِ تَحَمُّلِها .

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ فَقَدْ أَمَرَ سُبْحانَهُ الكُتَّابَ وَالشُّهودَ بِأَنْ يُعينوا النَّاسَ عَلى حِفْظِ أَمْوالِهِمْ ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُقَصِّروا في ذَلِكَ مِثْلَما حَرَّمَ عَلى أَصْحابِ المالِ أَنْ يُضارُّوهُمْ ، فَلا بُدَّ مِنْ تَحَقُّقِ مَصْلَحَةِ الجَميعِ . إِنَّ مَنْ كَتَمَ الشَّهادَةَ يَكونُ آثِماً قَلْبُهُ ، فَالقَلْبُ هُوَ مَوْضِعُ الإِثْمِ في هَذا الكِتْمانِ ، فَالقَلْبُ مَصْدَرُ كُلِّ إِثْمٍ ، قالَ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

فَآثامُ القَلْبِ سُوءُ القَصْدِ وَفَسادُ النِّيَّةِ ، وَهِيَ شَرُّ الذُّنوبِ وَالآثام .

وَخُتِمَتِ الآيَةُ بِقَوْلِ اللهِ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ عَليمٌ بِكُلِّ أَعْمالِكُمْ وَأَقْوالِكُمْ ، وَسائِرِ شُئونِكُمْ ، وَسَيُثيبُ المُحْسِنينَ وَيُعاقِبُ المُسيئينَ ، وَلِذا عَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَجيبوا لأَوامِرِ اللهِ تَعالى ، وَأَنْ تَجْتَنِبوا ما نَهاكُمْ عَنْهُ .

وَبَعْدَ هَذا البَيانِ لِلْطُرُقِ الَّتي أَباحَها القُرْآنُ الكَريمُ لِلتَّعامُلِ ، وَلِلطُّرُقِ الَّتي حَرَّمَها عَلَيْهِمْ ، يَقولُ سُبْحانَهُ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ ﴾ .

يُعَقِّبُ سُبْحانَهُ عَلى تِلْكَ التَّشريعاتِ ، بِهَذا التَّوْجيهِ ، لِيَرْبِطَ بَيْنَ تِلْكَ التَّشْريعاتِ وَبَيْنَ الخالِقِ ، بِهَذا الرَّابِطِ الَّذي يَجْمَعُ بَيْنَ الخَوْفِ والرَّجاءِ ، إِنَّهُ مالِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ، المُتَصَرِّفُ فِيهِما ، لا شَراكَةَ لِغَيْرِهِ في شَيءٍ مِنْها ، فَلا يُعْبَدُ سِواهُ ، وَلا يُعْصى فِيما يَأْمُرُ وَيَنْهى ، وَهُوَ سُبْحانَهُ يُلْزِمُ مَنْ شاءَ بِما شاءَ مِنَ التَّكاليفِ .

﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ ﴾ إِنْ تُظْهِروا ما في قُلوبِكُمْ مِنَ السُّوءِ ،

وَتَعْزِموا عَلَيْهِ ، سَواءٌ أَكانَ بالقَوْلِ أَمْ بالفِعْلِ ، أَوْ تَكْتُموهُ ، فَإِنَّ اللهَ يُجازيكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، وَقَوْلُهُ تَعالى : ﴿ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ الأَشْياءَ الثَّابِتَةَ في أَنْفُسِكُمْ الَّتي تَصْدُرُ عَنْها أَعْمالُكُمْ كالحِقْدِ وَالحَسَدِ ، إِنَّ لِلإِنْسانِ عَمَلاً اخْتيارِيّاً في نَفْسِهِ هُوَ الَّذي يُحاسَبُ عَلَيْهِ ، فَالهَواجِسُ وَالخَواطِرُ قَدْ تَكونُ بِغَيْرِ إِرادَةِ الإِنْسانِ ، وَلَكِنَّهُ إِذا اسْتَرْسَلَ مَعَ هَواجِسِهِ وَخَواطِرِهِ وَعَزَمَ عَلَيْها فَهُوَ يُحاسَبُ عَلَيْهِ ، وَمِثالُ ذَلِكَ المَظْلومُ الَّذي يَخْطُرُ في بالِهِ ظالِمُهُ ، وَيُشْغِلُ فِكْرَهُ في دَفْعِ ظُلْمِهِ ، وَالهَرَبِ مِنْ أَذاهِ ، وَقَدْ يَسْتَرْسِلُ في خَواطِرِهِ إِلى أَنْ تَجُرَّهُ إِلى تَدْبيرِ الحِيَلِ للإِيقاعِ بِمَنْ ظَلَمَهُ ، وَإِلى مُقابَلَةِ ظُلْمِهِ بما هُوَ شَرٌّ مِنْهُ ، فَيَكونُ مُؤاخَذاً عَلَيْها ، سَواءٌ أَبْداها أَمْ أَخْفاها .

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ ، اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلى أَصْحابِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، فَأَتَوْا رسولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ جَثَوْا عَلى الرُّكَبِ فَقالوا : يا رَسولَ اللهِ كُلِّفْنا مِنَ الأَعْمالِ ما نُطيقُ ؛ الصَّلاةُ والصِّيامُ والجِهادُ والصَّدَقَةُ ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ وَلا نُطيقُها ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « أَتُريدونَ أَنْ تَقولوا كَما قالَ أَهْلُ الكِتابِ مِنْ قَبْلِكُمْ : سَمِعْنا وَعَصَيْنا ؟ بَلْ قولوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ المَصيرُ »[1] .

إِنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أَنَّ العَبْدَ إِذا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، وَإِذا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةً ، وَلَكِنَّهُ إِذا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، وَإِنْ عَمِلَها كُتِبَتْ عَشْرَةً ، وَيُضاعَفُ لَهُ أَضْعافٌ كَثيرةٌ .

وَبَيَّنَ سُبْحانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ نَتيجَةَ هَذِهِ المُحاسَبَةِ ؛ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ، وَيُعَذِّبُ بِعَذابِهِ مَنْ يَشاءُ أَنْ يُعَذِّبَهُ ، لا رادَّ لِمَشيئَتِهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مَشْروعِيَّةُ الرَّهْنِ لِتَوْثيقِ الدَّيْنِ حالَ السَّفَرِ وَالحَضَرِ .

٢ـ مِنْ صِفاتِ المُؤْمِنِ أَنَّهُ إِذا اؤْتُمِنَ أَدّى الأَمانَةَ وَلَمْ يَخُنْها .

٣ـ اللهُ مالِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ، وَهُوَ المُشَرِّعُ لِهَذِهِ الحَياةِ ، فَلا طاعَةَ إِلاَّ لَهُ .

---

(١) أخرجه ابن حبان في الصحيح ، حديث رقم ١٣٩ .

٤ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى أَنَّهُ لا يُحاسِبُ النَّاسَ عَلى ما يَدورُ في خَواطِرِهِمْ وَهَواجِسِهِمْ إِلاَّ ما عَزَموا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يُحاسِبُهُمْ عَلَيْهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ مَنِ الّذي يُقَدِّمُ الرَّهْنَ في عَقْدِ الدَّيْنِ ؟

٢ـ هَلِ الرَّهْنُ مَشْروعٌ في السَّفَرِ فَقط ؟

٣ـ اشْرَحْ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ .

٤ـ لِمَ أَكَّدَ القُرْآنُ قَضيَّةَ الإِشْهادِ ؟

٥ـ ما صِلَةُ قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بِما قَبْلَها ؟

٦ـ ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ ما المَقْصودُ بـ ﴿مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ ؟ وَهَلْ يُحاسِبُ اللهُ عَلى الخَواطِرِ وَالهَواجِسِ ؟

٧ـ ما نَتيجَةُ هَذِهِ المُحاسَبَةِ مِنَ اللهِ تَعالى لِعِبادِهِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكتبْ آيَةَ الأَنْفالِ الَّتي تَنْهى عَنْ خِيانَةِ الأَمانَةِ .

* * *

الدَّرْسُ الخامِسُ والأَرْبَعونَ

سورةُ البَقَرَةِ - القِسْمُ الحادي والتِّسْعونَ

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

وُسْعَها : طاقَتَها .

تُؤاخِذْنا : تُعاقِبْنا .

إِصْراً : عِبْئاً ثَقيلاً .

ما لا طاقةَ لَنا بهِ : ما يَصْعُبُ عَلَيْنا مِنَ التَّكاليفِ الشَّرْعِيَّةِ .

التَّفسيرُ :

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ .

هَذِهِ الآياتُ هِيَ خِتامٌ لِلسُّورَةِ الكَريمَةِ ، الَّتي هِيَ أَطْوَلُ السُّوَرِ القُرْآنِيَّةِ . لَقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الخاتِمَةُ مُتلائِمَةٌ وَمُتَناسِقَةٌ مَعَ مُقَدِّمَةِ السُّورَةِ وَمَوْضوعاتِها ، فَكانَ في بِدايَةِ السُّورَةِ وَعْدٌ لأَهْلِ الإيمانِ بِالفَلاحِ ، وَجاءَتْ خاتِمَةُ السُّورَةِ :

١ـ بلاغاً عَنِ نَجاحِ دَعْوَةِ الإِسْلامِ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ .

٢ـ وَفاءً بِوَعْدِها لِكُلِّ نَفْسٍ بَذَلَتْ وسْعَها في اتِّباعِها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ .

٣ـ فَتْحاً لِبابِ الأَمَلِ عَلى مِصْراعَيْهِ أَمامَ المُهْتَدينَ ، فَيَبْسُطوا أَكُفَّهُمْ مُبْتَهِلينَ لَهُ تعالى .

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ أَي : صَدَّقَ الرَّسولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ في كِتابِ اللهِ كُلِّهِ مِنَ العَقائِدِ وَالأَحْكامِ وَالسُّنَّةِ والبَيِّناتِ تَصْديقَ إِذْعانٍ للهِ وَاطْمِئْنانٍ ، وَكَذَلِكَ المُؤْمِنونَ مِنْ أَصْحابِهِ ـ رَضْوانُ اللهِ عليْهِمْ ـ وَقَدْ شَهِدَ لَهُمْ بِهَذا الإيمانِ ، ذَلِكَ الأَثَرُ الَّذي تَرَكَهُ في نُفوسِهِمْ ، وَأَعْمالِهِمُ الصَّالِحَةِ ، لَقَدْ آمَنوا كُلُّهُمْ بِاللهِ الواحِدِ الأَحَدِ المُنَزَّهِ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ ، وَآمنوا بوجودِ الملائِكَةِ الَّذينَ هُمْ سَفَراءُ اللهِ لِرُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَآمَنوا بِالكُتُبِ الَّتي نَزَلَ بِها المَلائِكَةُ ، وَمَنْ ثُمَّ آمنوا بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَأَنَّهُمْ عِبادُ اللهِ اصْطَفاهُمْ مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ وَخَصَّهُمْ بِالرِّسالَةِ .

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ إِنَّ مِنْ شَأْنِ المُؤْمِنينَ أَنْ يَقولوا ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ إِنَّهُمْ يَقولونَ : لا نُفَرِّقُ في الإيمانِ بَيْنَ رُسُلِ اللهِ تَعالى ، وَإِنَّما نُؤْمِنُ بِهِمْ جَميعاً ، وَنُصَدِّقُ بِكُلِّ رَسولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى .

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحانَهُ وَتَعالى ما يَطْلُبُهُ أُولَئِكَ المُؤْمِنونَ ، فَهُمْ يَسْأَلونَهُ المَغْفِرَةَ لَهُمْ ، مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَطْرَأَ عَلى نُفوسِهِمْ مِنْ ضَعْفٍ ، فَيَجْعَلُها تَرْتَكِبُ الذُّنوبَ ، وَمَغْفِرَةُ اللهِ ، أَيْ : سَتْرُهُ لِلذُّنوبِ ، لا تَكونُ إِلاَّ بِالتَّوْبَةِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَبِذَلِكَ يُمْحى أَثَرُ الذُنوبِ مِنَ النَّفْسِ ، وَيَرجو الإِنْسانُ أَنْ يَرْجِعَ إِلى اللهِ تَعالى ، وَقَدْ زَكَتْ نَفْسُهُ ، وَخَلُصَتْ مِنَ الذُّنوبِ .

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ .

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ لا يُحاسِبُ أَحَداً إِلاَّ بِما كَلَّفَهُ بِهِ ، وَمِنْ كَمالِ عَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ لِلبَشَرِ أَنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْهُمْ إِلاَّ بِما تَسَعُهُ قُدْراتُهُمْ وَيَقْدِرونَ عَلى أَدائِهِ . وَيُبَيِّنُ سُبْحانَهُ بِأَنَّهُ سَيُجازي كُلَّ نَفْسٍ بِما عَمِلَتْ ، وَلَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ ، أَيْ لَها وَحْدَها ثوابُ مَا اكْتَسَبَتْهُ مِنْ حَسَناتٍ بِسَبَبِ أَعْمالِها الصَّالِحَةِ ، وَعَلَيْها وَحْدَها عِقابُ ما اكْتَسَبَتْ مِنَ السَّيِّئاتِ بِسَبَبِ أَعْمالِها السَّيِّئَةِ .

وَبَعْدَ بَيانِ سُنَّةِ اللهِ تَعالى في أَنَّهُ لا يُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها ، وَبِأَنَّهُ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ، خُتِمَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ بِتِلْكَ الدَّعَواتِ الجامِعَةِ لِكُلِ خَيْرٍ يَتَوَجَّهُ فيهِ المُسْلِمُ إِلى رَبِّهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ فَأَنْتَ يا رَبُّ وَاسِعُ العَفْوِ والمَغْفِرةِ ، فَلا تُعاقِبْنا إِنْ نَسِيْنا أَمْرَكَ

وَنَهْيَكَ أَوْ أَخْطَأْنا ، فَفَعَلْنا خِلافَ الصَّوابِ ، وَهَذا الدُّعاءُ يُصَوِّرُ حالَ المُؤْمِنينَ مَعَ رَبِّهِمْ وَإِدْراكِهِمْ لِضَعْفِهِمْ وَعَجْزِهِمْ ، وَحاجاتِهِمْ إِلى رَحْمَتِهِ وَعَفْوِهِ تَعالى ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ إِنَّهُمْ يَسْأَلونَ رَبَّهُمْ أَنْ لا يُحَمِّلَهُمْ ثِقْلاً كَبيراً مِنَ التَّكاليفِ الشَّرْعِيَّةِ كَالأَثْقالِ الَّتي حَمَلَها مَنْ كانَ قَبْلَهُمْ ، حَيْثُ حَرَّمَ عَلى بَني إِسْرائيلَ بَعْضَ الطَّيِّباتِ ، وَكَتَبَ عَلَيْهِمْ قَتْلَ أَنْفُسِهِمْ ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمُ السَّبْتَ أَنْ يَبْتَغوا فيهِ رِزْقاً ، أَمَّا أُمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ وَضَعَ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتي كانَتْ عَلَيْهِمْ .

﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ إِنَّهُمْ يَتَوَجَّهونَ إِلى اللهِ تَعالى بِأَنْ يَرْحَمَ ضَعْفَهُمْ فَلا يُكَلِّفْهُمْ مالا يُطيقونَ ، كَيْ لا يَعْجَزوا عَنْهُ وَيُقَصِّروا فيهِ ، فَهُوَ طَمَعُ العَبْدِ بِخالِقِهِ ، وَرَجاءُ الضَّعيفِ في سَماحَةِ المالِكِ القادِرِ عَلى كُلِّ شَيْءٍ .

﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ﴾ وَبِهَذا يَنالُ الإِنْسانُ رِضْوانَ اللهِ تَعالى ، إِذِ العَبْدُ مُقَصِّرٌ مَعَ اللهِ مَهْما حاوَلَ أَنْ يَفِيَ بِحَقِّهِ ، وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَتِهِ تَعالى أَنْ يُعامِلَهُ بِالْعَفْوِ والمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ ، وَهَذا ما رَوَتْهُ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَحَدُكُمْ بِعَمَلِهِ ، قالوا : وَلا أَنْتَ يا رَسولَ اللهِ ، قالَ : ولا أَنا ، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ »[1] .

وَيَخْتِمونَ دُعاءَهُمْ بِقَوْلِهِمْ : ﴿ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَنْتَ مَولانا وَحافِظُنا وَمُعينُنا وَمَنْ تُمِدُّنا بِالخَيْرِ وَالهُدى ، نَسْأَلُكَ يا رَبَّنا أَنْ تَنْصُرَنا عَلى القَوْمِ الكافِرينَ الَّذينَ اتَّخَذوا مِنْ دُونِكَ أَوْلِياءَ ، وَجَهِلوا سُنَّتَكَ في أَنْفُسِهِمْ وَفي الكَوْنِ ، فَأَعْرَضوا عَنْكَ ، وَلَمْ يُؤْمِنوا بِأُلوهِيَّتِكَ وَوَحْدانِيَّتِكَ .

انْصُرْنا يا رَبَّنا على الجاحِدينَ وَالمُرْتابينَ حَتَّى تَكونَ كَلِمَتُكَ هِيَ العُلْيا ، وَكَلِمَةُ الَّذينَ كَفَروا السُّفْلى .

وَبِهذا نَكونُ قَدْ انْتَهَيْنا مِنْ تَفْسيرِ سُورَةِ البَقَرَةِ ، نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أَنْ يَنْفَعَنا بِها ، فَنَكونَ مِمَّنْ تُظِلُّهُمْ هَذِهِ السُّورَةُ يَوْمَ القِيامَةِ ، إِنَّهُ سَميعٌ قَريبٌ مُجيبُ الدُّعاءِ .

دُروسٌ وَعِبَرٌ

تُرْشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنْ أَرْكانِ الإيمانِ ؛ الإيمانُ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ، وَعَدَمُ التَّفْريقِ بَيْنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ بالإيمانِ ، فَتُؤْمِنُ بِهِمْ جَميعاً .

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح ، حديث رقم ٥٣٤٩ .

٢ـ الإيمانُ يَعْني إِذْعانَ النَّفْسِ الكامِلِ للهِ تَعالى ، بِحَيْثُ يَحْمِلُها هَذا الإيمانُ عَلى العَمَلِ بِأَمْرِ اللهِ تَعالى .

٣ـ وُجوبُ التَّوَجُّهِ إِلى اللهِ تَعالى بِالدُّعاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ .

٤ـ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ لَمْ يُؤاخِذْها عَلى النِّسْيانِ وَالخَطَأ ، وَأَنَّهُ لَمْ يُحَمِّلْها ما حَمَّلَ الأُمَمَ غَيْرَها مِنَ الآصارِ والأَغْلالِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما صِلَةُ خاتِمَةِ السُّورَةِ الكَريمَةِ بِمُقَدِّمَتِها ؟

٢ـ ﴿أَمَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ. . . . .﴾ مَنِ الرَّسولُ الّذي آمنَ بِما أَنْزَلَ رَبُّهُ عَلَيْهِ ؟

٣ـ مَنِ القائِلُ : لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ؟

٤ـ عَلامَ يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿لاَيُكَلِفُ ٱللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ ؟

٥ـ ما الدَّعَواتُ الَّتي تَوَجَّهَ بِها المُؤْمِنونَ إِلى رَبِّهِمْ سُبْحانَهُ وَتَعالى ؟

٦ـ هَلْ تُدْخِلُ أَعْمالُ الإِنْسانِ الصَّالِحَةُ وَحْدَها صاحِبَها الجَنَّةَ ؟ بَيِّنْ ذَلِكَ .

نَشاطٌ :

١ـ مَوْقِفُ المُؤْمنينَ مِنَ الرُّسُلِ جَميعاً هو الإيمانُ ، فَما مَوْقِفُ الكافِرينَ ؟ اكْتُبِ الإِجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ارْجِعْ إِلى كُتُبِ التَّفْسيرِ ، وَاكْتُبْ مَوْضوعاً عَنْ فَضْلِ سورَةِ البَقَرَةِ ، وَفَضْلِ الآيَتَيْنِ الأَخيرَتَيْنِ مِنْها ، وَضَعْها عَلى مَجَلَّةِ المَدْرَسَةِ .

* * *

المَراجِعُ

١ـ الإتقانُ في علوم القرآن الكريم ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤ .

٢ـ الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، محمود بن عمر بن محمد الزمخشري ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ١٩٤٦م .

٣ـ روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي ، إدارة الطباعة المنيرية .

٤ـ تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، ١٩٦٩م .

٥ـ تفسير القرآن الحكيم ، الشيخ محمد رشيد رضاـ دار المنارـ مصر ١٩٦٩م .

٦ـ في ظلال القرن ، سيد قطب ـ الطبعة الخامسة ١٩٧٠م .

٧ـ تفسير المراغي ، أحمد المراغي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٩٦٢م .

٨ـ التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، الدكتور محمد سيد طنطاوي ، مطبعة السعاد ١٩٧٧م .

٩ـ القصص القرآني ، أ . د . فضل حسن عباس ـ دار الفرقان .

* * *